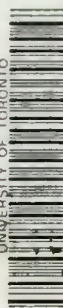
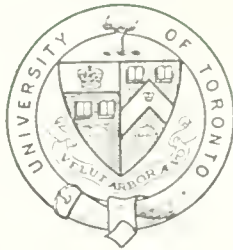


UNIVERSITY OF TORONTO



3 1761 00013522 8



PURCHASED FOR THE
UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY
FROM THE
CANADA COUNCIL SPECIAL GRANT
FOR
ISLAMIC STUDIES

صفحة	صفحة
١٨٤	١٥٤
قوله تعالى «وبالوالدين إحسانا» الآية	قوله تعالى «ذرية من حملنا مع نوح إنه
»	كان عبدا شكورا» الآية
١٩٢	»
«وآت ذا القربى حقه» الآية	١٥٥ «وقضينا الى بنى اسرائيل
»	فى الكتاب» الآية
١٩٣	»
«إن المبذرين كانوا اخوان	١٥٧ «ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم»
الشياطين» الآية	»
»	١٥٩ «عسى ربكم أن يرحمكم»
١٩٤ «ولا تجعل يدك مغلولة الى	»
»	١٦٠ «ان هذا القرآن يهدى للتى هى
»	أقوم» الآية
»	»
١٩٥ «ان ربك يبسط الرزق لمن	١٦٢ «ويدع الانسان بالشير دعاه
»	بالخير» الآية
يشاء ويقدر» الآية	»
»	١٦٣ «وجعلنا الليل والنهار آيتين»
١٩٧ «ولا تقربوا الزنا انه كان	»
»	١٦٦ «وكل انسان أزمانه طأره
فاحشة وساء سبيلا»	فى عنقه» الآية
»	»
١٩٩ «ولا تقتلوا النفس التى حرم	١٦٨ «اقرا كتابك كفى بنفسك
»	اليوم عليك حسيبا» الآية
الله الا بالحق»	»
»	١٧١ «من اهتدى فانما يهتدى لنفسه»
٢٠٤ «ولا تقربوا مال اليتيم الا بالى	»
»	١٧٤ «واذا أردنا أن نهلك قرية
هى أحسن» الآية	»
»	أمرنا متر فيها» الآية
٢٠٥ «وأوفوا بالعهد» الآية	»
»	١٧٦ «وكم أهلكنا من القرون من
»	بعد نوح» الاية
٢٠٦ «وأوفوا الكيل اذا كلمتم»	»
»	١٨٧ «من كان يريد العاجلة نجعلنا له
»	فيها» الآية
٢١١ «ولا تمش فى الارض مرحا»	»
»	١٧٩ «ومن أراد الآخرة وسعى
»	لها سعيها»
٢١٣ «ذلك مما أوحى اليك ربك»	»
»	١٨٢ «ولا تجعل مع الله إلهة آخر»
»	١٨٣ «وقضى ربك ألا تعبدوا
٢١٤ «ولا تجعل مع الله إلهة آخر»	»
»	إلا إياه» الآية
٢١٥ «ولقد صرفنا فى هذا القرآن	
»	
٢١٦ «وما يزيدهم الا نفورا»	
»	
٢١٧ «سبحانه وتعالى عما يقولون»	
»	
٢١٨ «تسبح له السموات السبع»	
»	
٢٢٨ «وقل لعبادى يقولوا التى هى	
»	
أحسن» الآية	
»	
٢٣٨ «ونخوفهم فما يزيدهم الا	
»	
طغيانا كبيرا» الآية	

صفحة	صفحة
١٢٩	١١١
قوله تعالى «ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه» الآية	قوله تعالى «ما عندكم ينفد وما عند الله باق»
١٣٠	١١٢
«إنما حرم عليكم الميتة والدم»	«من عمل صالحا من ذكر أو أنثى» الآية
١٣١	١١٣
«ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب» الآية	«فاذا قرأت القرآن فاستمعذ بالله من الشيطان الرجيم»
١٣٢	١١٤
«وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل»	«إنه ليس له سلطان» الآية
١٣٣	١١٥
«ثم إن ربك الذي عملوا السوء بجهالة» الآية	«وإذا بدلنا آية مكان آية»
١٣٤	١١٦
«إن إبراهيم كان أمة قانتا»	«قل نزله روح القدس من ربك بالحق» الآية
١٣٥	١١٧
«وآتيناه في الدنيا حسنة»	«ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر» الآية
١٣٦	١١٨
«ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا» الآية	«إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله» الآية
١٣٧	١١٩
«إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» الآية	«إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله» الآية
١٣٨	١٢١
«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة»	«من كفر بالله من بعد إيمانه الادن أكره» الآية
١٣٩	١٢٤
«وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به» الآية	«لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون» الآية
١٤٢	١٢٥
«واصبر وما صبرك إلا بالله»	«ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا» الآية
١٤٣	١٢٦
«إن الله مع الذين اتقوا»	«يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» الآية
١٤٥	١٢٧
سورة الاسراء	«وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئة» الآية
١٤٥	
«سبحان الذي أمرى بعبده ليلا» الآية	
١٥٣	
«وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل»	

صفحة	صفحة
٨٥	٥٤
قوله تعالى «وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم» الآية	قوله تعالى «ويجعلون لله البنات سبحانه»
»	»
٨٧	٥٥
«ولله غيب السموات والأرض »	«يتوارى من القوم من سوء ما بشر به» الآية
»	»
٩٠	٥٦
«ألم يروا إلى الطير مستخرات في جو السماء» الآية	«للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء» الآية
»	»
٩١	٥٧
«والله جعل لكم من بيوتكم سكننا» الآية	«ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة» الآية
»	»
٩٢	٦٢
«والله جعل لكم بما خلق ظلالا» الآية	«وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه»
»	»
٩٤	٦٣
«فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين» الآية	«والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها»
»	»
٩٥	٦٤
«ويوم نبعث من كل أمة شهيدا» الآية	«وإن لكم فى الأنعام لعبرة»
»	»
٩٦	٦٧
«وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم» الآية	«ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا»
»	»
٩٧	٦٩
«الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» الآية	«وأوحى ربك إلى النحل»
»	»
٩٨	٧١
«ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم» الآية	«ثم كلى من الثمرات» الآية
»	»
١٠٠	٧٤
«إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية	«والله خلقكم ثم يتوفاكم»
»	»
١٠٦	٧٨
«وأوفوا بعهدهم إذا عاهدتم»	«والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق» الآية
»	»
١٠٩	٨٠
«ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة»	«والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا» الآية
»	»
١١٠	٨٢
«ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم» الآية	«ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا» الآية
»	»
	٨٣
	«وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء»

صفحة	صفحة
٢٦	٢
قوله تعالى «وقال الذين أسركوا لو شاء	قوله تعالى «وسخر لكم الليل والنهار»
الله ما عبدنا من دونه من شيء»	»
»	٤
»	»
٣٠	٥
«وأقسموا بالله جهد أيمانهم»	«وهو الذي سخر البحر
»	لناكلوا منه لحما طرياً» الآية
٣١	»
«إنما قولنا لشيء إذا أردناه»	»
»	٧
»	»
٣٣	»
«والذين هاجروا في الله من	«وألقى في الأرض رواسي أن
بعد ما ظهروا» الآية	تميد بكم وأنهارها» الآية
»	»
٣٥	١٠
«وما أرسلنا من قبلك إلا	«وعلامات وبالنجم هم
رجالا نوحى إليهم» الآية	يهتدون» الآية
»	»
٣٧	١١
«بالبينات والزبر وأنزلنا	«وأمن يخلق كمن لا يخلق أفلا
إليك الذكر» الآية	تذكرون» الآية
»	»
٣٨	١٣
«أفأمن الذين مكروا السيئات	«وإن تعدوا نعمة الله
أن يخسف الله بهم» الآية	لا تحصوها» الآية
»	»
٣٩	١٥
«أو لم يروا إلى ما خلق الله	«والذين يدعون من دون
من شيء» الآية	الله لا يخلقون شيئا» الآية
»	»
٤٣	١٦
«ولله يسجد ما في السموات	«إلهكم إله واحد» الآية
وما في الأرض» الآية	»
»	١٧
»	»
٤٤	١٨
«يخافون ربهم من فوقهم» الآية	«ليحملوا أوزارهم كاملة يوم
»	القيامة» الآية
٤٧	»
«وقال الله لا تتخذوا إلهين	»
اثنين» الآية	١٩
»	»
٤٩	٢٢
«وله ما في السموات والأرض	«فادخلوا أبواب جهنم
وله الدين واصبا» الآية	خالدين فيها» الآية
»	»
٥٠	٢٣
«وما بكم من نعمة فمن الله»	«وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل
»	ربكم قالوا خيراً» الآية
٥١	»
«ليكفروا بما آتيناهم»	»
»	٢٥
٥٢	»
«ويجعلون لما لا يعلمون	«هل ينظرون إلا أن تأتيتهم
نصيباً مما رزقناهم» الآية	الملائكة» الآية

فهرست

الجزء العشرون

من

التفسير الكبير

للإمام

الشيخ الفخر الرازي

ثم قال تعالى ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴾ والمقصود منه ذكر سبب آخر في أنه تعالى ما أظهر المعجزات التي اقترحوها ، وذلك لأن هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والآخرة وبشجرة الزقوم فما زادهم هذا التخويف إلا طغيانا كبيرا ، وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم في الغي والطغيان ، وإذا كان الأمر كذلك فبتقدير أن يظهر الله لهم تلك المعجزات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ولا يزدادون إلا تماديا في الجهل والعناد ، وإذا كان كذلك . وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات والله أعلم .

تم الجزء العشرون ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الحادي والعشرين ، وأوله قوله تعالى
﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ من سورة الاسراء . أعان الله على إكماله

أن أبا جهل قال زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال (وقودها الناس والحجارة) ثم يقول : بأن في النار شجرا والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر . والثاني : قال ابن الزبير ما علم الزقوم إلا التمر والزبد فترقوا منه ، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر (إننا جعلناها فتنة للظالمين) الآيات .

فان قيل : ليس في القرآن لعن هذه الشجرة .

قلنا : فيه وجوه : الأول : المراد لعن الكفار الذين يأكلونها . الثاني : العرب تقول لكل طعام مكروه ضار إنه ملعون . والثالث : أن اللعن في أصل اللغة هو التباعد فلما كانت هذه الشجرة الملعونة في القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة .

﴿القول الثاني﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما الشجرة بنو أمية يعنى الحكم بن أبى العاص قال ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام أن ولد مروان يتداولون منبره فقصر رؤياه على أبى بكر وعمر وقد خلا فى بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم يخبر برؤياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد ذلك عليه ، واتهم عمر فى إفشاء سره ، ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع اليهم فنفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الواحدى : هذه القصة كانت بالمدينة ، والسورة مكية فيبعد هذا التفسير إلا أن يقال هذه الآية مدنية ولم يقل به أحد ، وما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان لعن الله أباك وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنه الله .

﴿والقول الثالث﴾ أن الشجرة الملعونة فى القرآن هى اليهود لقوله تعالى (لعن الذين كفروا)

فان قال قائل : إن القوم لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الاتيان بالمعجزات القاهرة فأجاب أنه لا مصلحة فى إظهارها لأنها لو ظهرت ولم تؤمنوا نزل الله عليكم عذاب الاستئصال . وذلك غير جائز وأى تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التى صارت فتنة للناس وبذكر الشجرة التى صارت فتنة للناس .

قلنا : التقدير كأنه قيل إنهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم إنك لم تظهرها صار عدم ظهورها شبهة لهم فى أنك لست بصادق فى دعوى النبوة إلا أن وقوع هذه الشبهة لا يوهن أمرك ولا يصير سببا لضعف حالك ألا ترى أن ذكر تلك الرؤيا صار سببا لوقوع الشبهة العظيمة فى القلوب ثم إن قوة تلك الشبهات ما أوجبت ضعفا فى أمرك ولا فتورا فى اجتماع المحققين عليك فكذلك هذه الشبهة الحاصلة بسبب عدم ظهور هذه المعجزات لا توجب فتورا فى حالك ، ولا ضعفا فى أمرك . والله أعلم .

وعليه الدرع يحرض الناس ويقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر)

ثم قال تعالى ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ وفي هذه الرؤيا أقوال :

﴿ القول الأول ﴾ أن الله أرى محمداً في المنام مصارع كفار قريش فحين وردمأ بدر قال « والله كأنني أنظر الى مصارع القوم » ثم أخذ يقول « هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان » فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية ، وكانوا يستعجلون بما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن المراد رؤياه التي رآها أنه يدخل مكة وأخبر بذلك أصحابه ، فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية كان ذلك فتنة لبعض القوم ، وقال عمر لأبي بكر أليس قد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ندخل البيت ونطوف به فقال أبو بكر إنه لم يخبر أنا نفعل ذلك في هذه السنة فسنفعل ذلك في سنة أخرى ، فلما جاء العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) اعترضوا على هذين القولين فقالوا هذه السورة مكية وهاتان الواقعتان مدينتان ، وهذا السؤال ضعيف لأن هاتين الواقعتين مدينتان . أما رؤيتهما في المنام فلا يبعد حصولها في مكة .

﴿ والقول الثالث ﴾ قال سعيد بن المسيب رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة فسأه ذلك ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء والاشكال المذكور عائد فيه لأن هذه الآية مكية وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة منبر . ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبرا يتداوله بنو أمية .

﴿ والقول الرابع ﴾ وهو الأصح وهو قول أكثر المفسرين أن المراد بها ما أراه الله تعالى ليلة الاسراء ، واختلفوا في معنى هذه الرؤيا فقال الأكثرون لافرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة . يقال رأيت بعيني رؤية ورؤيا ، وقال الأقلون : هذا يدل على أن قصة الاسراء إنما حصلت في المنام ، وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه في أول هذه السورة ، وقوله (الإفتنة للناس) معناه : أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الاسراء كذبوه وكفروا به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون إيماناً فلهذا السبب كان امتحاناً .

ثم قال تعالى ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ وهذا على التقديم والتأخير . والتقدير : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس وقيل المعنى : والشجرة الملعونة في القرآن كذلك . واختلفوا في هذه الشجرة . فالأكثرون قالوا إنها شجرة الزقوم المذكورة في القرآن في قوله (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) وكانت هذه الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين : الأول :

﴿البحث الثالث﴾ قوله (فظلموا بها) أى ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها . وقال ابن قتبية (ظلموا بها) أى جحدوا بأنها من الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ قيل : لا آية إلا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب إما من العذاب المعجل أو من عذاب الآخرة .

فان قيل : المقصود الأعظم من إظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعى فكيف حصر المقصود من إظهارها فى التخويف .

قلنا : المقصود أن مدعى النبوة اذا أظهر الآية فاذا سمع الخلق أنه أظهر آية فهم لا يعلمون أن تلك الآية معجزة أو مخوفة ، الا أنهم يجوزون كونها معجزة ، وبتقدير أن تكون معجزة فللم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها على الصدق لاستحقاق العقاب الشديد ، فهذا هو الخوف الذى يحملهم على التفكير والتأمل فى تلك المعجزات ، فالمراد من قوله (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) هذا الذى ذكرناه ، والله أعلم .

واعلم أن القوم لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعجزات القاهرة . وأجاب الله تعالى بأن إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه وأن يقولوا له : لو كنت رسولا حقا من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التى اقترحناها منك ، كما أتى بهاموسى وغيره من الأنبياء ، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى ينصره ويؤيده فقال (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) وفيه قولان :

﴿القول الأول﴾ المعنى أن حكمته وقدرته محيطه بالناس فهم فى قبضته وقدرته . ومتى كان الأمر كذلك فهم لا يقدرّون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره ، والمقصود كأنه تعالى يقول له : ننصرك ونقويك حتى تبلغ رسالتنا وتظهر ديننا . قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه كما قال تعالى (والله يعصمك من الناس)

﴿والقول الثانى﴾ أن المراد بالناس أهل مكة . وإحاطة الله بهم هو أنه تعالى يفتحها للمؤمنين فكان المعنى : واذا بشرناك بأن الله أحاط بأهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم . ونظيره قوله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقال (قل للذين كفروا استغلبون وتحشرون) الى قوله (أحاط بالناس) لما كان كل ما يخبر الله عن وقوعه فهو واجب الوقوع ، فكان من هذا الاعتبار كالواقع فلا جرم قال (أحاط بالناس) وروى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش مع أبى بكر كان يدعو ويقول « اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك لى » ثم خرج

أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴿ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدليل على فساد قول المشركين وأتبعه بالوعيد أتبعه بذكر مسألة النبوة ، وذلك لأن كفار قريش اقترحوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم اظهار معجزات عظيمة قاهرة كما حكى الله عنهم أنهم قالوا (لولا يأتينا بآية كما أرسل الأولون) وقال آخرون : المراد ما طلبوه بقولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) وعن سعيد بن جبیر أن القوم قالوا : إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم : من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيى الموتى فأتنا بشئ من هذه المعجزات . فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) وفي تفسير هذا الجواب وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ المعنى أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم . فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال ، لكن إنزال عذاب الاستئصال على هذه الأمة غير جائز ، لأن الله تعالى أعلم أن فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم ، فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى الى مطلوبهم وما أظهر تلك المعجزات القاهرة . روى ابن عباس أن أهل مكة سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن يزيل لهم الجبال حتى يزرعوا تلك الاراضي ، فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى فقال الله تعالى : إن شئت فعلت ذلك لكن بشرط أنهم إن كفروا أهلكتهم ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « لا أريد ذلك بل تتأني بهم » فنزلت هذه الآية .

﴿ الوجه الثاني ﴾ في تفسير هذا الجواب أنا لانظر هذه المعجزات لأن آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وأتم مقلدون لهم ، فلو رأيتموها أتم لم تؤمنوا بها أيضا ، ﴿ الوجه الثالث ﴾ أن الأولين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها ، فعلم الله منكم أيضا أنكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان إظهارها عبثا ، والعبث لا يفعله الحكيم . ثم قال تعالى ﴿ وآتيناهم مائدة من السماء فكلوا منها ﴾ وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ المعنى أن الآية التي التمسوها هي مثل آية ثمود ، وقد آتيناهم ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال . فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكيم على الله تعالى .

﴿ البحث الثاني ﴾ قوله تعالى (مبصرة) وفيه وجهان : الأول : قال الفراء (مبصرة) أى مضيئة . قال تعالى (والنهار مبصرا) أى مضيئا . الثاني (مبصرة) أى ذات أبصار أى فيها أبصار لمن تأملها يبصر بها رشده ويستدل بها على صدق ذلك الرسول .

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا
كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي
أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفِهِمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ
إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأن قالوا : الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه .
ثبت أن هذا غير لائق بالملائكة وإنما هو لائق بالأنبياء .

قلنا : الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب . والدليل عليه قوله تعالى (ومن يقل
منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم)

أما قوله ﴿إن عذاب ربك كان محذورا﴾ فالمراد أن من حقه أن يحذر ، فإن لم يحذره بعض
الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه .

قوله تعالى ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان
ذلك في الكتاب مسطورا﴾

اعلم أنه تعالى لما قال (إن عذاب ربك كان محذورا) بين أن كل قرية مع أهلها فلا بد وأن
يرجع حالها إلى أحد أمرين : إما الإهلاك وإما التعذيب . قال مقاتل : أما الصالحة فالموت ، وأما
الطالحة فبالعذاب ، وقيل : المراد من قوله (وإن من قرية) قرى الكفار ، ولا بد أن تكون عاقبتها
أحد أمرين : إما الاستئصال بالكلية . وهو المراد من الإهلاك أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل
كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية ، ثم بين تعالى أن هذا الحكم
حكم مجزوم به واقع فقال (كان ذلك في الكتاب مسطورا) ومعناه ظاهر .

قوله تعالى ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة
فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي

عباد الله . وخالق الملائكة ، وخالق العالم لا بد وأن يكون أقدر من الملائكة ، وأقوى منهم ، وأكمل حالا منهم .

وإذا ثبت هذا فنقول : كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه ، وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه ، بل المتفق عليه أن قدرتهم بالنسبة إلى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة ، لأن كون الله مستحقا للعبادة معلوم ، وكون الملائكة كذلك مجهول والأخذ بالمعلوم أولى ، وأما أصحابنا المتكلمون من أهل السنة والجماعة فلهم في هذا الباب طريقة أخرى وهو أنهم يقيمون الحجة العقلية على أنه لا يوجد إلا الله تعالى ولا يخرج شيء من العدم إلى الوجود إلا الله تعالى ،

وإذا ثبت هذا ثبت أنه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى ، فوجب القطع بأنه لا معبود إلا الله تعالى ، وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة لأنهم لما جوزوا كون العبد موقفا لأفعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة لا قدرة لها على الأحياء والأماة وخلق الجسم . وإذا عجزوا عن ذلك لم يتم لهم هذا الدليل فهذا هو ذكر الدليل القاطع على صحة قوله (لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) والتحويل عبارة عن النقل من حال إلى حال ومكان إلى مكان يقال : حوله فتحول .

ثم قال تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وفيه قولان : الأول : قال الفراء قوله (يدعون) فعل الآدميين العابدين . وقوله (يبتغون) فعل المعبودين ومعناه أن أولئك المعبودين يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، فانه لانزاع أن الملائكة يرجعون إلى الله في طلب المنافع ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه وإذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة ، والله تعالى أغنى الأغنياء فكان الاشتغال بعبادته أولى .

فان قالوا : لانسلم أن الملائكة محتاجون إلى رحمة الله وخائفون من عذابه ، فنقول : هؤلاء الملائكة إما أن يقال : إنها واجبة الوجود لذواتها ، أو يقال : بمسكنة الوجود لذواتها ، والأول باطل لأن جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون إليه ، وأما الثاني فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين في ذواتها وفي كالاتها إلى الله تعالى ، فكان الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن قوله (أولئك الذين يدعون) هم الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وتعلق هذا الكلام بما سبق هو أن الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء لا يعبدون إلا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة إلا إليه ، فأتمم بالاعتداء بهم حق فلا تعبدهوا غير الله تعالى .

وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴿

اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على المشركين وقد ذكرنا أن المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهلية أن نشغل بعبادة الله تعالى فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله وهم الملائكة ، ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبده تماثلا وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل والله تعالى احتج على بطلان قولهم في هذه الآية فقال (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وليس المراد الأصنام لأنه تعالى قال في صفتهم (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام البتة .

إذا ثبت هذا فنقول : إن قوما عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم . وقيل : إنها نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيرا ، وقيل : إن قوما عبدوا نفرا من الجن فاسلم نفر من الجن ، ونبي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية . قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه لفظ زعم فهو كذب ، ثم إنه تعالى احتج على فساد مذهب هؤلاء أن الإله المعبود هو الذي يقدر على إزالة الضرر ، وإيصال المنفعة ، وهذه الأشياء التي يعبدونها وهي الملائكة والجن والمسيح وعزير لا يقدر على كشف الضرر ولا على تحصيل النفع ، فوجب القطع بأنها ليست آلهة .

ولقائل أن يقول : هذا الدليل إنما يتم إذا دللت على أن الملائكة لا قدرة لها على كشف الضرر ولا على تحصيل النفع فما الدليل على أن الأمر كذلك حتى يتم دليلكم ؟ فان قلت : لأننا نرى أن أولئك الكفار كانوا يتضرعون إليها فلا تحصل الأجابة .

قلنا : معارضة لذلك قد نرى أيضا أن المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى فلا تحصل الأجابة ، والمسلمون يقولون : إن القدر الحاصل من كشف الضرر وتحصيل النفع إنما يحصل من الله تعالى لا من الملائكة ، وأولئك الكفار يقولون إنه يحصل من الملائكة لا من الله تعالى . وعلى هذا التقدير فالدليل غير تام .

والجواب : أن الدليل تام كامل ، وذلك لأن الكفار كانوا مقرين بأن الملائكة

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ

ثم قال ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ والمعنى أنه لما قال قبل ذلك (ربكم أعلم بكم) قال بعده (ربك أعلم بمن في السموات والأرض) بمعنى أن علمه غير مقصور عليكم ولا على أحوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الأرضين والسموات فيعلم حال كل واحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد ، فلهذا السبب فضل بعض النبيين على بعض وآتى موسى التوراة . وداود الزبور . وعيسى الانجيل ، فلم يبعد أيضا أن يؤتى محمدا القرآن ولم يبعد أن يفصله على جميع الخلق .

فان قيل : ما السبب في تخصيص داود عليه الصلاة والسلام في هذا المقام بالذكر ؟

قلنا : فيه وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أنه تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض .

ثم قال ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ يعني أن داود كان ملكا عظيما ، ثم إنه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب ، تنبيها على أن التفضيل الذي ذكره قبل ذلك ، المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال .

﴿ والوجه الثاني ﴾ أن السبب في تخصيصه بالذكر أنه تعالى كتب في الزبور أن محمدا خاتم النبيين وأن أمته خير الأمم قال تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وهم محمد وأمته .

فان قيل : هلا عرف كما في قوله (ولقد كتبنا في الزبور)

قلنا : التنكير ههنا يدل على تعظيم حاله ، لأن الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب فكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتابا .

﴿ والوجه الثالث ﴾ أن السبب فيه أن كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون الى اليهود في استخراج الشبهات . واليهود كانوا يقولون : إنه لاني بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بانزال الزبور على داود ، وقرأ حمزة (زبوراً) بضم الزاي ، وذكرنا وجه ذلك في آخر سورة النساء .

قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضرعنكم ولا تحويلا أولئك

الخالى عن الشتم والايذاء أثر في القلب تأثيرا شديدا فهذا هو المراد من قوله (وقل لعبادى يقولوا التي هي أحسن) ثم إنه تعالى نبه على وجه المنفعة في هذا الطريق فقال (إن الشيطان ينزغ بينهم) جامعا للفريقين أى متى صارت الحججة مرة ممزوجة بالبذاءة صارت سببا لثوران الفتنة .

ثم قال ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا﴾ والمعنى: أن العداوة الحاصلة بين الشيطان وبين الإنسان عداوة قديمة قال تعالى حكاية عنه (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم) وقال (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين) وقال (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) وقال (لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) إلى قوله (إني برئ منكم)

ثم قال تعالى ﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ واعلم أنا إنما نتكلم الآن على تقدير أن قوله تعالى (قل لعبادى) المراد به المؤمنون ، وعلى هذا التقدير فقوله (ربكم أعلم بكم) خطاب مع المؤمنين ، والمعنى : إن يشأ يرحمكم ، والمراد بتلك الرحمة الانجاء من كفار مكة وأذاهم أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم . ثم قال (وما أرسلناك) يا محمد (عليهم وكيلا) أى حافظا وكيلا فاشتغل أنت بالدعوة . ولاشئ عليك من كفرهم فان شاء الله هدايتهم هداهم ، وإلا فلا .

﴿القول الثانى﴾ أن المراد من قوله (وقل لعبادى) الكفار ، وذلك لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة ، فلا يبعد في مثل هذا الموضع أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ليصير ذلك سببا لجذب قلوبهم وميل طباعهم الى قبول الدين الحق ، فكأنه تعالى قال : يا محمد قل لعبادى الذين أقروا بكونهم عبادا لى يقولوا التي هي أحسن . وذلك لأننا قبل النظر في الدلائل والبيئات نعلم بالضرورة أن وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء والاضداد أحسن من إثبات الشركاء والاضداد . ووصفه بالقدرة على الحشر والنشر بعد الموت أحسن من وصفه بالعجز عن ذلك ، وعرفهم أنه لا ينبغي لهم أن يصروا على تلك المذاهب الباطلة تعصبا للأسلاف ، لأن الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان ، والشيطان عدو ، فلا ينبغي أن يلتفت الى قوله ثم قال لهم (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم) بأن يوفقكم للايمان والهداية والمعرفة . وإن يشأ يمتكم ، على الكفر فيعذبكم ، إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أتم في طلب الدين الحق ، ولا تصروا على الباطل والجهل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الأبدية والخيرات السرمدية ، ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى لا تشدد الأمر عليهم ولا تغلظ لهم في القول ، والمقصود من كل هذه الكلمات : اظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة فان ذلك هو الذى يؤثر في القلب ويفيد حصول المقصود .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ
فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

﴿القول الثانى﴾ أن الكلام مع الكفار تم عند قوله (عسى أن يكون قريباً) وأما قوله (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) فهو خطاب مع المؤمنين لامع الكافرين لأن هذا الكلام هو اللائق بالمؤمنين لأنهم يستجيبون لله بحمده ، ويحمدونه على إحسانه اليهم ، والقول الأول هو المشهور ، والثانى ظاهر الاحتمال .

قوله تعالى ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً ، وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبیین على بعض وآتينا داود زبوراً ﴾ اعلم أن قوله (قل لعبادى) فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أن المراد به المؤمنون ، وذلك لأن لفظ العباد فى أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول) وقال (فادخلى فى عبادى) وقال (عينا يشرب بها عباد الله)

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى لما ذكر الحججة اليقينية فى إبطال الشرك وهو قوله (لو كان معه آلهة كما تقولون إذا لا بتغوا الى ذى العرش سيلاً) وذكر الحججة اليقينية فى صحة المعاد وهو قوله (قل الذى فطركم أول مرة) قال فى هذه الآية وقل يا محمد لعبادى إذا أردتم إيراد الحججة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الأحسن . وهو أن لا يكون ذكر الحججة مخلوطاً بالثتم والسب ، ونظير هذه الآية قوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن) وذلك لأن ذكر الحججة لو اختلط به شىء من السب والثتم لقابلوكم بمثله كما قال (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) ويزداد الغضب وتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود . أما اذا وقع الاقتصار على ذكر الحججة بالطريق الأحسن

والأفلا سبيل الى معرفته .

واعلم أنه تعالى بين في القرآن أنه لا يطلع أحدا من الخلق على وقته المعين ، فقال (إن الله عنده علم الساعة) وقال (إنما علمها عند ربى) وقال (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) فلا جرم . قال تعالى (قل عسى أن يكون قريبا) قال المفسرون عسى من الله واجب معناه أنه قريب .

فان قالوا : كيف يكون قريبا وقد انقضى ستمائة سنة ولم يظهر ؟

قلنا : اذا كان ماضى أكثر مما بقى كان الباقي قريبا قليلا ، ثم قال تعالى (يوم يدعوكم) وفيه قولان : الأول : أنه خطاب مع الكفار بدليل أن ما قبل هذه الآية كله خطاب مع الكفار ، ثم نقول انتصب يوما على البدل من قوله قريبا . والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أى بالنداء الذى يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال (يوم يناد المناد من مكان قريب) يقال : إن إسرائيل ينادى أيتها الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة عودى كما كنت بقدره الله تعالى وبأذنه وتكوينه ، وقال تعالى (يوم يدع الداع إلى شىء نكر) وقوله (فتستجيون بحمده) أى تجيبون والاستجابة موافقة الداعى فيما دعا إليه وهى الاجابة إلا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة فهى أو كدمن الاجابة ، وقوله (بحمده) قال سعيد بن جبير : يخرجون من قبورهم وبنفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك وبحمدك ، فهو قوله (فتستجيون بحمده) وقال قتادة بمعرفته وطاعته ، وتوجيه هذا القول أنهم لما أجابوا بالسيح والتحميد كان ذلك معرفة منهم وطاعة ولكيهم لا ينفعهم ذلك فى ذلك اليوم . فلهذا قال المفسرون : حمدوا حين لا ينفعهم الحمد ، وقال أهل المعانى : تستجيون بحمده . أى تستجيون حامدين كما يقال : جاء بغضبه أى جاء غضبان وركب الأمير بسيفه أى وسيفه معه وقال صاحب الكشاف : بحمده حال منهم أى حامدين ، وهذا مبالغة فى انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بعمل يشق عليه ستأنى به وأنت حامد شاكر ، أى ستتهبى إلى حالة تحمد الله وتشكره على أن اكتبى منك بذلك العمل وهذا يذكر فى معرض التهديد .

ثم قال (وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) قال ابن عباس يريد بين النفختين الأولى والثانية فانه يزال عنهم العذاب فى ذلك الوقت ، والدليل عليه قوله فى سورة يس (من بعثنا من مرقدنا) فظنهم بأن هذا لبث قليل عائد إلى لبثهم فيما بين النفختين ، وقال الحسن : معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدينا لم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع إلى استقلال مدة اللبث فى الدنيا وقيل المراد استقلال لبثهم فى عرصة القيامة : لأنه لما كانت عاقبة أمرهم الدخول فى النار استقصروا مدة لبثهم فى برزخ القيامة .

فان قيل : ما المراد بقوله (أو خلقا مما يكبر في صدوركم)

قلنا : المراد أن كون الحجر والحديد قابلا للحياة أمر مستبعد ، ف قيل لهم : فافرضوا شيئا آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلمكم كونه قابلا للحياة وعلى هذا الوجه فلا حاجة إلى أن يتعين ذلك الشيء ، لأن المراد أن أبدان الناس وإن انتهت بعد موتها إلى أى صفة فرضت وأى حالة قدرت وإن كانت في غاية البعد عن قبول الحياة فان الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها ، وإذا كان المراد من الآية هذا المعنى فلا حاجة إلى تعيين ذلك الشيء ، وقال ابن عباس : المراد منه الموت . يعنى لو صارت أبدانكم نفس الموت فان الله تعالى يعيد الحياة إليها ، واعلم أن هذا الكلام إنما يحسن ذكره على سبيل المبالغة مثل أن يقال : لو كنت عين الحياة فانه يمتك ولو كنت عين الغنى فان الله يفقرك ، فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة ، اما في نفس الأمر فهذا محال ، لأن أبدان الناس أجسام والموت عرض والجسم لا ينقلب عرضا ثم بتقدير أن ينقلب عرضا فالموت لا يقبل الحياة لأن أحد الضدين يمتنع اتصافه بالضد الآخر ، وقال مجاهد : يعنى السماء والارض ثم قال «فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة» والمعنى أنه لما قال لهم : كونوا حجارة أو حديدا أو شيئا أبعد في قبول الحياة من هذين الشئيين فان إعادة الحياة إليه ممكنة فعند ذلك قالوا من هذا الذى يقدر على إعادة الحياة اليه ، قال تعالى قل يا محمد : الذى فطركم أول مرة يعنى أن القول بصحة الاعادة فرع على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى .

فاذا ثبت ذلك فنقول : ان تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل وإله العالم قادر لذاته عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة ، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرا على الاعادة ، وهذا كلام تام وبرهان قوى .

ثم قال تعالى «فسينغضون إليك رؤسهم» قال الفراء يقال : أنغض فلان رأسه ينغضه إنغاضا إذا حركه الى فوق والى أسفل وسمى الظلم نغضا لأنه يحرك رأسه ، وقال أبو الهيثم : يقال للرجل إذا أخبر بشيء فحرك رأسه انكارا له قد أنغض رأسه فقوله (فسينغضون إليك رؤسهم) يعنى يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد . ثم قال تعالى (ويقولون متى هو) واعلم أن هذا السؤال فاسد لأنهم حكموا باهتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التى حكيناها ، ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا في نفسه ، فقوله متى هو كلام لا تعلق له بالبحث الأول ، فانه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه ، فاما أنه متى يوجد فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل ، بل إنما يمكن اثباته بالدلائل السمعية فان أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف

فهو مرفوت نحو حطم حطما فهو محطوم والرفات والحطام الاسم ، كالجداد والرضاض والفتات .
فهذا ما يتعلق باللغة . أما تقرير شبهة القوم : فهي أن الانسان اذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت
وتفرقت في حوالى العالم فاختلطت بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم . أما الأجزاء المائية في البدن
فتختلط بمياه العالم ، وأما الأجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم ، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء
العالم ، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم واذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها
مرة أخرى . وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى . فهذا هو تقرير الشبهة .

والجواب عنها : أن هذا الاشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته . أما اذا
سلمنا كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الأجزاء وان اختلطت بأجزاء العالم الا أنها
متمايزة في علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادرا على كل الممكنات كان قادرا على إعادة التآليف
والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها ، فثبت أن ما سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته
زالت هذه الشبهة بالسكينة .

أما قوله تعالى ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا ﴾ فالمعنى أن القوم استبعدوا أن يردموا إلى حال
الحياة بعد أن صاروا عظاما ورفاتا . وهي وان كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن
قدروا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفة أخرى أشد منافية لقبول الحياة من كونها عظاما
ورفاتا مثل أن تصير حجارة أو حديدا ، فان المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من
المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة ، وذلك أن العظم قد كان جزءا من بدن الحي . أما الحجارة
والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة ، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية
والحديدية بعد الموت ، فان الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيا عاقلا كما كان ، والدليل على صحة
ذلك أن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل إذ لو لم يكن هذا القبول حاصل لما حصل العقل والحياة
لها في أول الأمر . وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشبهه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء
بدن عمرو العاصي . وقادر على كل الممكنات ، وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه
وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات ، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء
ممكنا قطعاً ، سواء صارت عظاما ورفاتا أو صارت شيئا أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير
حجارة أو حديدا ، فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع ، وقوله (كونوا حجارة أو حديدا)
ليس المراد منه الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الاعادة . وذلك
كقول القائل للرجل : أنظم في وأنا فلان فيقول : كن من شئت كن ابن الخليفة . فسأطلب منك حق

وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنْ أُنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا «٤٩» قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا «٥٠» أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا «٥١» يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا «٥٢»

وأولئك الناس يخدعونه بهذه الكلمات وهذه الحكايات ، فلذلك قالوا : إنه مسحور أى مخدوع ، وأيضا كانوا يقولون : إن الشيطان يتخيل له فيظن أنه ملك فقالوا إنه مخدوع من قبل الشيطان . ثم قال ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أى كل أحد شبهك بشيء آخر ، فقالوا : إنه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون ، فضلوا عن الحق والطريق المستقيم فلا يستطيعون سبيلا الى الهدى والحق .

قوله تعالى ﴿وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم الا قليلا﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا فى الالهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، ذكر فى هذه الآية شبهات القوم فى انكار المعاد والبعث والقيامة ، وقد ذكرنا كثيرا أن مدار القرآن على المسائل الأربعة وهى : الالهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر ، وأيضا أن القوم وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه مسحورا فاسد العقل ، فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعى أن الانسان بعد ما يصير عظاما ورفاتا فانه يعود حيا عاقلا كما كان ، فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه محتل العقل . قال الواحدى رحمه الله : الرفت كسر الشيء بيدك . تقول : رفته أرفته بالكسر كما يرفت المدر والعظم البالى ، والرفات الأجزاء المتفتتة من كل شيء يكسر . يقال : رفت عظام الجزور رفتا اذا كسرها ، ويقال للبتن : الرفت لأنه دقاق الزرع . قال الأخفش : رفت رفتا ،

الألطف الداعية لهم الى الايمان صح أن يقال إنه فعل الحجاب السائر .
واعلم أن هذه الوجوه مع كلمات أخرى ذكرناها في سورة الأنعام وأجبنا عنها ، فلا
فائدة في الاعادة .

ثم قال تعالى ﴿واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا﴾ واعلم أن المراد
أن القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين ، لأنهم اذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله
تعالى بقوا مهوتين متحيرين لا يفهمون منه شيئا . واذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك
بالله ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس ، وذكر الزجاج في قوله (ولوا على أدبارهم نفورا) وجهين :
الأول : المصدر والمعنى ولوا نافرين نفورا ، والثاني . أن يكون نفورا جمع نافر مثل شهود وشاهد
وركوع وراكع وسجود وساجد وقعود وقاعد .

ثم قال تعالى ﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك﴾ أى نحن أعلم بالوجه الذى
يستمعون به وهو الهزؤ والتكذيب . و(به) فى موضع الحال ، كما تقول : مستمعين بالهزؤ و(إذ
يستمعون) نصب بأعلم أى أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون (وإذ هم نجوى) أى وبما يتناجون
به إذ هم ذو نجوى (إذ يقول الظالمون) بدل من قوله (وإذ هم نجوى إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)
وفيه مباحث : الأول : قال المفسرون : امر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً أن يتخذ طعاما
ويدعو اليه أشراف قريش من المشركين ، ففعل على عليه السلام ذلك ودخل عليهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى التوحيد وقال : قولوا لا إله إلا الله حتى تطيعكم
العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك ، وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم القرآن
والدعوة الى الله تعالى يقولون : بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول ،
فأخبر الله تعالى نبيه بأنهم يقولون (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)

فان قيل : إنهم لم يتبعوا رسول الله فكيف يصح أن يقولوا (إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)
قلنا : معناه أنكم إن اتبتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا ، والمسحور الذى قد سحر فاختلط عليه
عقله وزال عن حد الاستواء . هذا هو القول الصحيح . وقال بعضهم : المسحور هو الذى أفسد .
يقال : طعام مسحور اذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها .
قال أبو عبيدة : يريد بشرا ذا سحر أى ذارئة . قال ابن قتيلة : ولا أدرى ما الذى حمله على هذا
التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجه الواضحة ، وقال مجاهد (مسحورا) أى مخدوعا لأن
السحر حيلة وخديعة ، وذلك لأن المشركين كانوا يقولون : إن محمدا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات

لا يبعد أن يقال مستورا معناه ذو ستر والدليل عليه قولهم مرطوب أى ذو رطوبة ولا يقال رطبية ويقال مكان مهول أى فيه هول ولا يقال : هلت المكان بمعنى جعلت فيه الهول ، ويقال : جارية مغنوجة ذات غنج ولا يقال غنجتها .

﴿ والوجه الثالث ﴾ فى الجواب قال الأخصس : المستور ههنا بمعنى الساتر ، فان الفاعل قد يجىء بلفظ المفعول كما يقال : انك لمشؤم علينا وميمون وانما هو شائم ويامن ، لانه من قولهم شأمهم ويمهم ، هذا قول الأخصس : وتابعه عليه قوم ، الا أن كثيرا منهم طعن فى هذا القول ، والحق هو الجواب الأول .

﴿ القول الثانى ﴾ أن معنى الحجاب الطبع الذى على قلوبهم والطبع والمنع الذى منعهم عن أن يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده ، فالمراد من الحجاب المستور ذلك الطبع الذى خلقه الله فى قلوبهم .

ثم قال تعالى ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ﴾ وهذه الآية مذكورة بعينها فى سورة الأنعام وذكرنا استدلال أصحابنا بها وذكرنا سؤالات المعتزلة ولا بأس باعادة بعضها قال الأصحاب : دلت هذه الآية على أنه تعالى جعل قلوبهم فى الأكنة . والأكنة جمع كنان وهو ما ستر الشىء مثل كنان النبل وقوله (أن يفقهوه) أى لئلا يفقهوه . وجعل فى آذانهم وقرا . ومعلوم أنهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين ، فعلنا أن المراد منعهم عن الايمان ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يفقهون على أسرارهم ولا يفهمون دقائقه وحقائقه . قالت المعتزلة : ليس المراد من الآية ما ذكرتم بل المراد منه وجوه أخرى . الأول : قال الجبائى : كانوا يطلبون موضعه فى اللبالب لينتهوا اليه ويؤذونه ، ويستدلون على مبيته باستماع قراءته فأمنه الله تعالى من شرهم ، وذكر له أنه جعل بينه وبينهم حجابا لا يمكنهم الوصول اليه معه ، وبين أنه جعل فى قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفى آذانهم ما يمنع من سماع صوته ، ويجوز أن يكون ذلك مرضا شاعلا يمنعهم من المصير اليه والتفرغ له ، لانه حصل هناك كن للقلب ووقر فى الأذن . الثانى : قال الكعبى إن القوم لشدة امتناعهم عن قبول دلائل محمد صلى الله عليه وسلم صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب مانع وساتر ، وإنما نسب الله تعالى ذلك الحجاب الى نفسه لانه لما خلاهم مع أنفسهم ، وما منعهم عن ذلك الاعراض صارت تلك التخلية كأنها هى السبب لوقوعهم فى تلك الحالة . وهذا مثل أن السيد اذا لم يراقب أحوال عبده فاذا ساءت سيرته فالسيد يقول : أنا الذى ألقىتك فى هذه الحالة بسبب أنى خلىتك مع رأيك وما راقبت أحوالك . الثالث قال القفال : إنه تعالى لما خذلهم بمعنى أنه لم يفعل

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الاله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضا دليل تام على وجود الاله تعالى ، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم ، وأحوال تلك الصفات غير معلومة ، فلهذا المعنى قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم)

﴿والوجه الثاني﴾ هو أن الكفار وإن كانوا يقرون بأسمائهم بأثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا يتفكرون في أنواع الدلائل ، ولهذا المعنى قال تعالى (وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون) فكان المراد من قوله (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) هذا المعنى .

﴿والوجه الثالث﴾ أن القوم وإن كانوا مقرين بأسمائهم بأثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا اعلمين بكمال قدرته . ولذلك فانهم استبعدوا كونه تعالى قادرا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك . وأيضا فانه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سيلا) فهم ما كانوا اعلمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه . بل نقول : إن القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل ، والنبوة والمعاد ، فكان المراد من قوله (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ذلك ومما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله (إنه كان حليما غفورا) فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم وهذا إنما يكون جرما إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل . أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسيحات جرما ولا ذنبا ، وإذا لم يكن ذلك جرما ولا ذنبا لم يكن قوله (إنه كان حليما غفورا) لاثقا بهذا الموضوع ، فهذا وجه قوى في نصرة القول الذى اخترناه . واعلم أن القائلين بأن هذه الجمادات والحيوانات تسبح الله بألفاظها أضافوا إلى كل حيوان نوعا آخر من التسبيح . وقالوا إنها إذا ذبحت لم تسبح مع أنهم يقولون إن الجمادات تسبح الله . فاذا كان كونه جمادا لا يمنع من كونه مسبحا . فكيف صار ذبح الحيوان مانعا له من التسبيح . وقالوا أيضا إن غصن الشجرة إذا كسر لم يسبح ، وإذا كان كونه جمادا لم يمنع من كونه مسبحا فكسره كيف يمنع من ذلك ، فعلم أن هذه الكلمات ضعيفة والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) تصريح باضافة التسبيح

لذاته والممكن لذاته ، وبين القديم والمحدث ، وبين الغنى والمحتاج منافاة لاتعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير .

ثم قال تعالى ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن الحى المكلف يسبح لله بوجهين : الأول : بالقول كقوله باللسان سبحان الله . والثانى : بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته ، فأما الذى لا يكون مكلفا مثل البهائم ، ومن لا يكون حيا مثل الجمادات فهى إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثانى ، لأن التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم والادراك والنطق وكل ذلك فى الجماد محال ، فلم يبق حصول التسبيح فى حقه إلا بالطريق الثانى .

واعلم أنا لو جوزنا فى الجماد أن يكون عالما متكلما لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالى عالما قادرا على كونه حيا وحينئذ يفسد علينا باب العلم بكونه حيا وذلك كفر فانه يقال : إذا جاز فى الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع أنها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالما قادرا متكلما كونه حيا فلم يلزم من كونه تعالى عالما قادرا كونه حيا وذلك جهل وكفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن من ليس بحى لم يكن عالما قادرا متكلما ، هذا هو القول الذى أطبق العلماء المحققون عليه ، ومن الناس من قال : إن الجمادات وأنواع النبات والحيوان كلها تسبح الله تعالى ، واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا : دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لأنه تعالى قال (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فهذا يقتضى أن تسبيح هذه الأشياء غير معلوم لنا . ودلالاتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم ، والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح الله تعالى وأن تسبيحها غير معلوم لنا ، فوجب أن يكون التسبيح المذكور فى هذه الآية مغايرا لكونها دالة على وجود قدرة الله تعالى وحكمته .

والجواب عنه من وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أنك إذا أخذت تفاعلة واحدة فتلک التفاعلة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التى لا تتجزأ ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الاله ، ولكل واحد من تلك الأجزاء التى لا تتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة ، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم .

أما قوله تعالى ﴿قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سيلا﴾ ففيه مسألتان :
 ﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسيره وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أن المراد من قوله (إذا لابتغوا إلى ذى العرش سيلا) هو أننا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضا ، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع وقد شرحناه فى سورة الأنبياء فى تفسير قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فلا فائدة فى الإعادة .

﴿الوجه الثانى﴾ أن الكفار كانوا يقولون مانعدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلنى ، فقال الله لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقرّبكم إلى الله زلنى لطلبت لأنفسها أيضا قرّبة إلى الله تعالى وسيلا إليه ولطلبت لأنفسها المراتب العالية ، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة ، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سيلا إلى الله فكيف يعقل أن تقرّبكم إلى الله .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن كثير كما يقولون وعما يقولون ويسبح بالياء فى هذه الثلاثة ، والمعنى كما يقول المشركون من إثبات الآلهة من دونه فهو مثل قوله (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون) وقرأ حمزة والكسائى كلها بالتاء . وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم فى الأول بالتاء على الخطاب ، وفى الثانى والثالث بالياء على الحكاية . وقرأ حفص عن عاصم الأولين بالياء ، والآخر بالتاء ، وقرأ أبو عمرو الأول والآخر بالتاء والأوسط بالياء .

ثم قال تعالى ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ لما أقام الدليل القاطع على كونه منزها عن الشركاء . وعلى أن القول باثبات الآلهة قول باطل ، أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال (سبحانه) وقد ذكرنا أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به . ثم قال (وتعالى) والمراد من هذا التعالى الارتفاع وهو العلو . وظاهر أن المراد من هذا التعالى ليس هو التعالى فى المكان والجهة ، لأن التعالى عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالى بالمكان والجهة ، فعلمنا أن لفظ التعالى فى حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة .

﴿المسألة الثانية﴾ جعل العلو مصدر التعالى فقال تعالى (علوا كبيرا) وكان يجب أن يقال تعالى تعاليا كبيرا إلا أن نظيره قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) فان قيل : ما الفائدة فى وصف ذلك العلو بالكبير ؟

قلنا : لأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد منافاة بلغت فى القوة والكمال إلى حيث لا تعقل الزيادة عليها ، لأن المنافاة بين الواجب

اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة ، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور هذا هو الأصل في اللغة ، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين ، لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الايضاح ويقوى البيان فقوله (ولقد صرفنا) أى بينا ومفعول التصريف محذوف وفيه وجوه : أحدها : ولقد صرفنا في هذا القرآن ضروبا من كل مثل . وثانيها : أن تكون لفظة «في» زائدة كقوله (وأصلح لى ذريتي) أى أصلح لى ذريتي . أما قوله (ليذكروا) ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ الجمهور (ليذكروا) بفتح الذاو والكاف وتشديدهما ، والمعنى : ليتذكروا فأدغمت التاء في الذاو لقرب مخرجيهما ، وقرأ حمزة والكسائي ليذكروا سا كنة الذاو مضمومة الكاف ، وفي سورة الفرقان مثله من الذكر قال الواحدى : والتذكر ههنا أشبه من الذكر ، لأن المراد منه التدبر والتفكير ، وليس المراد منه الذكر الذى يحصل بعد النسيان . ثم قال : وأما قراءة حمزة والكسائي ففيها وجهان : الأول : أن الذكر قد جاء بمعنى التأمل والتدبر كقوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) والمعنى : وافهموا ما فيه . والثانى : أن يكون المعنى صرفنا هذه الدلائل في هذا القرآن ليذكروه بأستنتهم فان الذكر باللسان قد يؤدى إلى تأثر القلب بمعناه .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الجبائى : قوله (ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا) يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن ، وإنما أكثر فيه من ذكر الدلائل لأنه تعالى أراد منهم فهمها والايان بها ، وهذا يدل على أنه تعالى يفعل أفعاله لأغراض حكيمية ، ويدل على أنه تعالى أراد الايمان من الكل سواء آمنوا أو كفروا والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿وما يزيدهم إلا نفورا﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الأصم : شبههم بالدواب النافرة ، أى ما ازدادوا من الحق إلا بعدا وهو كقوله (فزادتهم رجسا)

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى ما أراد الايمان من الكفار ، وقالوا إنه تعالى عالم بأن تصريف القرآن لا يزيدهم إلا نفورا ، فلو أراد الايمان منهم لما أنزل عليهم ما يزيدهم نفرة ونبوة عنه ، لأن الحكيم إذا أراد تحصيل أمر من الأمور وعلم أن الفعل الفلانى يصير سببا لمزيد النفرة والنبوة عنه ، فإنه عند ما يحاول تحصيل ذلك المقصود يحتز عمايو جب مزيد النفرة والنبوة . فلما أخبر تعالى أن هذا التصريف يزيدهم نفورا ، علمنا أنه ما أراد الايمان منهم . والله أعلم .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ
 لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
 فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
 حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)

وأما قوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا) فاعلم أنه تعالى لما نبه على فساد طريقة من أثبت لله شريكا ونظيرا نبه على طريقة من أثبت له الولد وعلى كمال جهل هذه الفرقة . وهي أنهم اعتقدوا أن الولد قسمان : فأشرف القسمين البنون ، وأخسهما البنات . ثم إنهم أثبتوا البنين لأنفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم ونقصهم وأثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالسكالات الذي لانهاية له والجلال الذي لا غاية له . وذلك يدل على نهاية جهل القائل بهذا القول ونظيره قوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وقوله (ألكم الذكر وله الأنثى) وقوله (أفأصفاكم) يقال أصفاه بالشيء إذا أثر به ، ويقال للضياع التي يستخلصها السلطان بخاصية الصوافي . قال أبو عبيدة في قوله (أفأصفاكم) أخصكم . وقال المفضل : أخصكم . قال النحويون هذه الهمزة همزة تدل على الإنكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لاجواب لصاحبه إلا بما فيه أعظم الفضيحة .

ثم قال تعالى ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ وبيان هذا التعظيم من وجهين : الأول : أن إثبات الولد يقتضى كونه تعالى مركبا من الأجزاء والأبعاض . وذلك يقدر في كونه قديما واجب الوجود لذاته . وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام . والثاني : أن بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم أشرف القسمين لأنفسكم وأخس القسمين لله ، وهذا أيضا جهل عظيم .

قوله تعالى ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعذروا وما يزيدهم إلا نفورا قل لو كان معه آذنة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حلما غفورا﴾

سماها بهذا الاسم لوجوه : أحدها : أن حاصلها يرجع الى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة ، والعقول تدل على صحتها . فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الأصلية تشهد بأنه يكون داعيا الى دين الرحمن ، وتتمام تقرير هذا ما ذكره في سورة الشعراء في قوله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أئيم) وثانيها : أن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل المسخ والابطال ، فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار ، وثالثها : أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، فالأمر بالتوحيد عبارة عن القسم الأول وسائر التكليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب الانسان عليها ولا ينحرف عنها . فثبت أن هذه الأشياء المذكورة في هذه الآيات عين الحكمة . وعن ابن عباس : أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام : أولها (لا تجعل مع الله إلها آخر) قال تعالى (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء)

(والفائدة الثانية) من فوائد هذه الآية أنه تعالى بدأ في هذه التكليف بالأمر بالتوحيد ، والنهي عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى ، والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد . وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد ، تنبيها على أن المقصود من جميع التكليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه . فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة ثم إنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الشرك يوجب أن يكون صاحبه مذموما مخذولا . وذكر في الآية الأخيرة أن الشرك يوجب أن يلقى صاحبه في جهنم ملوما مدحورا ، فاللوم والخذلان يحصل في الدنيا ، وإلقاؤه في جهنم يحصل يوم القيامة ويجب علينا أن نذكر الفرق بين المذموم المخذول ، وبين الملوم المدحور . فنقول : أما الفرق بين المذموم وبين الملوم ، فهو أن كونه مذموما معناه : أن يذكر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر ، فهذا معنى كونه مذموما ، وإذا ذكر له ذلك فبعد ذلك يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل ، وما الذي حملك عليه ، وما استفدت من هذا العمل إلا إلحاق الضرر بنفسك ، وهذا هو اللوم . فثبت أن أول الأمر هو أن يصير مذموما ، وآخره أن يصير ملوما ، وأما الفرق بين المخذول وبين المدحور فهو أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال : تخذلت أعضاؤه أي ضعفت ، وأما المدحور فهو المطرود . والطرود عبارة عن الاستخفاف والاهانة قال تعالى (ويخلد فيه مهانا) فكونه مخذولا عبارة عن ترك إعانتته وتفويضه إلى نفسه ، وكونه مدحورا عبارة عن إهانته والاستخفاف به ، فثبت أن أول الأمر أن يصير مخذولا . وآخره أن يصير مدحورا والله أعلم بمراده .

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
إِنَاثًا إِنَّا إِنَّا لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا أفصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما﴾
اعلم أنه تعالى جمع في هذه الآية خمسة وعشرين نوعا من التكليف . فأولها : قوله
(ولا تجعل مع الله إلها آخر) وقوله (وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه) مشتمل على تكليفين :
الأمر بعبادة الله تعالى ، والنهي عن عبادة غير الله ، فكان المجموع ثلاثة . وقوله (وبالوالدين إحسانا)
هو الرابع ، ثم ذكر في شرح ذلك الاحسان خمسة أخرى وهي : قوله (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما
وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما) فيكون المجموع تسعة .
ثم قال (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) وهو ثلاثة فيكون المجموع اثني عشر . ثم
قال (ولا تبذر تبذيرا) فيصير ثلاثة عشر ، ثم قال (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها
فقل لهم قولا ميسورا) وهو الرابع عشر ثم قال (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) الى آخر الآية
وهو الخامس عشر . ثم قال (ولا تقتلوا أودكم) وهو السادس عشر ، ثم قال (ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق) وهو السابع عشر ثم قال (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) وهو
الثامن عشر . ثم قال (فلا يسرف في القتل) وهو التاسع عشر ، ثم قال (وأوفوا بالعهد) وهو العشرون
ثم قال (وأوفوا الكيل اذا كلتم) وهو الحادي والعشرون ، ثم قال (وزنوا بالقسطاس المستقيم)
وهو الثاني والعشرون ، ثم قال (ولا تقف ما ليس لك به علم) وهو الثالث والعشرون ، ثم قال
(ولا تمش في الأرض مرحا) وهو الرابع والعشرون ، ثم قال (ولا تجعل مع الله إلها آخر) وهو
الخامس والعشرون ، فهذه خمسة وعشرون نوعا من التكليف بعضها أوامر وبعضها نواه جمعها
الله تعالى في هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتقع مذموما مخذولا)
وخاتمها قوله (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا)
إذا عرفت هذا فنقول : ههنا فوائد :

﴿الفائدة الأولى﴾ قوله (ذلك) إشارة الى كل ما تقدم ذكره من التكليف وسماها حكمة ، وإنما

﴿الوجه الأول﴾ قال الحسن : إنه تعالى ذكر قبل هذا أشياء أمر ببعضها ونهى عن بعضها ، فلو حكم على الكل بكونه سيئة لزم كون المأمور به سيئة وذلك لا يجوز ، أما إذا قرأناه بالاضافة كان المعنى أن ما كان من تلك الأشياء المذكورة سيئة فهو مكروه عند الله واستقام الكلام .

﴿والوجه الثاني﴾ أنا لو حكمنا على كل ما تقدم ذكره بكونه سيئة لوجب أن يقال : انها مكروهة وليس الأمر كذلك لأنه تعالى قال (مكروها) أما إذا قرأناه بصيغة الاضافة كان المعنى أن سيء تلك الأقسام يكون مكروها . وحينئذ يستقيم الكلام . أما قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو : فيها وجوه : الأول : أن الكلام ، تم عند قوله (ذلك خير وأحسن تأويلا) ثم ابتداء وقال (ولا تقف ما ليس لك به علم . ولا تمش في الأرض مراحا)

ثم قال ﴿ كل ذلك كان سيئه ﴾ والمراد هذه الأشياء الأخيرة التي نهى الله عنها . والثاني : أن المراد بقوله (كل ذلك) أى كل ما نهى الله عنه فيما تقدم . وأما قوله (مكروها) فذكروا في تصحيحه على هذه القراءة وجوها : الأول : التقدير : كل ذلك كان سيئة وكان مكروها . الثاني : قال صاحب الكشف : السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيته ، ولا فرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئه . ألا ترى أنك تقول : الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة ، فلا تفرق بين إسنادها الى مذكر ومؤنث . الثالث : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : كل ذلك كان مكروها وسيئة عند ربك . الرابع : أنه محمول على المعنى لأن السيئة هي الذنب وهو مذكر .

﴿المسألة الثانية﴾ قال القاضى : دلت هذه الآية على أن هذه الأعمال مكروهة عند الله تعالى ، والمكروه لا يكون مرادا له ، فهذه الأعمال غير مرادة لله تعالى فبطل قول من يقول : كل ما دخل في الوجود فهو مراد لله تعالى . وإذا ثبت أنها ليست بارادة الله تعالى وجب أن لا تكون مخلوقة له لأنها لو كانت مخلوقة لله تعالى لكانت مرادة له لا يقال : المراد من كونها مكروهة أن الله تعالى نهى عنها ، وأيضا معنى كونها مكروهة أن الله تعالى كره وقوعها وعلى هذا التقدير فهذا لا يمنع أن الله تعالى أراد وجودها ، لأن الجواب عن الأول أنه عدول عن الظاهر ، وأيضا فكونها سيئة عند ربك يدل على كونها منهيها عنها فلو حملنا المكروه على النهى لزم التكرار .

والجواب عن الثاني : أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية في معرض الزجر عن هذه الأفعال ، ولا يليق بهذا الموضع أن يقال : إنه يكره وقوعها هذا تمام هذا الاستدلال .

والجواب : أن المراد من المكروه المنهى عنه ولا بأس بالتكرير لأجل التأكيد والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال القاضى : دلت هذه الآية على أنه تعالى كما أنه موصوف بكونه مريدا ، فكذلك أيضا موصوف بكونه كارها . وقال أصحابنا : الكراهية في حقه تعالى محمولة إما على النهى أو على إرادة العدم . والله أعلم .

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ

طُولًا ﴿٢٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى ﴿ولا تمش في الأرض مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المرح شدة الفرح يقال : سرح يمرح مَرَحًا فهو مرح ، والمراد من الآية النهي عن أن يمشى الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة . قال الزجاج : لا تمش في الأرض مختلا بثورا ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) وقال في سورة لقمان (واقصد في مشيك واغضض من صوتك) وقال أيضا فيها (ولا تمش في الأرض مَرَحًا إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَنْ يَتَذَكَّرُ الْآيَاتِ وَالْحَقُّ أَن يَرْمِيَهُمُ اللَّهُ فِي سُحُورٍ)

﴿المسألة الثانية﴾ قال الأخفش : ولو قرىء (مرحا) بالكسر كان أحسن في القراءة . قال الزجاج : مَرَحًا مصدر ومرحا اسم الفاعل وكلاهما جائز ، إلا أن المصدر أحسن ههنا أو أكد ، تقول جاء زيد ركضًا ورا كضًا فركضًا أو أكد لأنه يدل على تأكيد الفعل ، ثم إنه تعالى أكد النهي عن الخيلاء والتكبر فقال (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) والمراد من الخرق ههنا نقب الأرض ، ثم ذكروا فيه وجوها : الأول : أن المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل : إِنَّكَ حَالِ الْانْخِفَاضِ لَا تَقْدِرُ عَلَى خَرْقِ الْأَرْضِ وَنَقْبِهَا . وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل إلى رؤس الجبال ، والمراد التنبيه على كونه ضعيفًا عاجزًا فلا يليق به التكبر . الثاني : المراد منه أن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها . وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها فانت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد ، وأنت أضعف منهما بكثير ، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له : تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خالق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوى :

ثم قال تعالى ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الأَكْثَرُونَ قَرُؤًا سَيِّئُهُ بِضَمِّ الْهَاءِ وَالْهَمْزَةُ وَقُرْأُ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو

سَيِّئُهُ مَنْصُوبَةٌ أَمَّا وَجْهُ قِرَاءَةِ الْأَكْثَرِينَ فظاهِرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ :

المسألة دليل سمعي قاطع ، فثبت أنه لم يوجد في إثبات كون القياس حجة دليل قاطع البتة ، فبطل قولكم كون الحكم المثبت بالقياس حجة معلوم لامضنون ، فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل . وأحسن ما يمكن أن يقال في الجواب عنه إن التمسك بهذه الآية التي عولتم عليها تمسك بعام مخصوص ، والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد الا الظن ، فلو دلت هذه الآية على أن التمسك بالظن غير جائز لدلت على أن التمسك بهذه الآية غير جائز ، فالقول بكون هذه الآية حجة يفضي ثبوته الى نفيه فكان تناقضاً فـمـقـط الاستدلال به والله أعلم . وللحجيب أن يجيب فيقول : نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد صلى الله عليه وسلم أن التمسك بآيات القرآن حجة في الشريعة ويمكن أن يجاب عن هذا الجواب بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) فيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أن العلوم إما مستفادة من الحواس . أو من العقول . أما القسم الأول : فاليه الإشارة بذكر السمع والبصر . فإن الانسان اذا سمع شيئاً ورآه فانه يرويه ويخبر عنه وأما القسم الثاني : فهو العلوم المستفادة من العقل وهي قسمان : البديهية والكسبية ، وإلى العلوم العقلية الإشارة بذكر الفؤاد .

﴿ البحث الثاني ﴾ ظاهر الآية يدل على أن هذه الجوارح مسؤولة وفيه وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أن المراد أن صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسئول لأن السؤال لا يصح إلا بمن كان عاقلاً ، وهذه الجوارح ليست كذلك ، بل العاقل الفاهم هو الانسان فهو كقوله تعالى (واسأل القرية) والمراد أهلها يقال له لم سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر اليه . ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه .

﴿ والوجه الثاني ﴾ أن تقرير الآية أن أولئك الأقوام كلهم مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أنى الطاعة أو في المعصية ؟ وكذلك القول في بقية الأعضاء ، وذلك لأن هذه الحواس آلات النفس ، والنفس كالأمر لها والمستعمل لها في مصالحها فان استعملتها النفس في الخيرات استوجبت الثواب ، وإن استعملتها في المعاصي استحققت العقاب .

﴿ والوجه الثالث ﴾ أنه ثبت بالقرآن أنه تعالى يخلق الحياة في الأعضاء ثم إنها تشهد على الانسان والدليل عليه قوله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ولذلك لا يبعد أن يخلق الحياة . والعقل . والنطق في هذه الأعضاء . ثم انه تعالى يوجه السؤال عليها .

فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك الظن ، فههنا الظن وقع في طريق الحكم ، فأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن .

أجاب نفاة القياس عن السؤال الأول فقالوا : قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) عام دخله التخصيص في الصور العشرة المذكورة ، فيبقى هذا العموم فيما وراء هذه الصور حجة ، ثم نقول : الفرق بين هذه الصور العشر وبين محل النزاع أن هذه الصور العشر مشتركة في أن تلك الأحكام أحكام مختصة بأشخاص معينين في أوقات معينة ، فان الواقعة التي يرجع فيها الانسان المعين الى المعنى المعين واقعة متعلقة بذلك الشخص المعين . وكذلك القول في الشهادة وفي طلب القبلة وفي سائر الصور . والتخصيص على وقائع الأشخاص المعينين في الأوقات المعينة يجرى مجرى التخصيص على مالا نهاية له ، وذلك متعذر ، فهذه الضرورة اكتفينا بالظن . أما الأحكام المثبتة بالآقيسة فهي أحكام كلية معتبرة في وقائع كلية وهي مضبوطة قليلة ، والتخصيص عليها يمكن ولذلك فان الفقهاء الذين استخرجوا تلك الاحكام بطريق القياس ضبطوها وذكروها في كتبهم . اذا عرفت هذا فنقول : التخصيص على الأحكام في الصور العشر التي ذكرتموها غير ممكن فلا جرم اكتفى الشارع فيها بالظن ، أما المسائل المثبتة بالطرق القياسية التخصيص عليها يمكن فلم يجز الا اكتفاء فيها بالظن فظهر الفرق .

﴿وأما الجواب الثاني﴾ وهو قولهم الظن قد يسمى علما فنقول : هذا باطل فانه يصح أن يقال هذا مظنون وغير معلوم ، وهذا معلوم وغير مظنون ، وذلك يدل على حصول المغايرة . ثم الذي يدل عليه قوله تعالى (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن) نفي العلم ، واثبات للظن ، وذلك يدل على حصول المغايرة ، وأما قوله تعالى (فان علمتموهن مؤمنات) فالمؤمن هو المقرب ، وذلك الاقرار هو العلم .

﴿وأما الجواب الثالث﴾ فهو أيضا ضعيف ، لأن ذلك الكلام إنما يتم لو ثبت أن القياس حجة بدليل قاطع وذلك باطل لأن تلك الحجة إما أن تكون عقلية أو نقلية ، والأول باطل لأن القياس الذي يفيد الظن لا يجب عقلا أن يكون حجة . والدليل عليه أنه لانزاع أن يصح من الشرع أن يقول : نهيتكم عن الرجوع الى القياس ولو كان كونه حجة أمرا عقليا محضا لامتنع ذلك . والثاني أيضا باطل ، لأن الدليل النقلى في كون القياس حجة إنما يكون قطعيا لو كان منقولا نقلامتواترا وكانت دلالاته على ثبوت هذا المطلوب دلالة قطعية غير محتملة النقيض ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل الى الكل ولعرفه الكل ولارتفع الخلاف ، وحيث لم يكن كذلك علمنا أنه لم يحصل في هذه

﴿والقول الرابع﴾ المراد منه النهي عن الكذب . قال قتادة : لا تقبل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم .

﴿والقول الخامس﴾ أن القفو هو البهت وأصله من القفا ، كأنه قول يقال خلفه وهو في معنى الغيبة وهو ذكر الرجل في غيبته بما يسوءه . وفي بعض الأخبار من قفا مسلما بما ليس فيه حبه الله في ردغة الخبال . واعلم أن اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقليد والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا . القياس لا يفيد إلا الظن والظن مغاير للعلم ، فالحكم في دين الله بالقياس حكم بغير المعروف ، فوجب أن لا يجوز لقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم)

أجيب عنه من وجوه : الأول : أن الحكم في الدين بمجرد الظن جائز باجماع الأمة في صور كثيرة : أحدها : أن العمل بالفتوى عمل بالظن وهو جائز . وثانيها : العمل بالشهادة عمل بالظن وأنه جائز . وثالثها : الاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد إلا الظن وأنه جائز . ورابعها : قيم المتلفات وأروش الجنايات لا سبيل إليها إلا بالظن وأنه جائز . وخامسها : الفصد والحجامة وسائر المعالجات بناء على الظن وأنه جائز . وسادسها : كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم مظنون لا معلوم ، وبناء الحكم عليه جائز . وسابعها : قال تعالى (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم . وثامنها : الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون ثم نبني على هذا الظن أحكاما كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين وغيرهما . وتاسعها : جميع الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار ، وطلب الأرباح والمعاملات الى الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء كلها مظنونة وبناء الأمر على تلك الظنون جائز . وعاشرها : قال عليه السلام «نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر» وذلك تصريح بأن الظن معتبر في هذه الأنواع العشرة فبطل قول من يقول : إنه لا يجوز بناء الأمر على الظن .

﴿والجواب الثاني﴾ أن الظن قد يسمى بالعلم . والدليل عليه قوله تعالى (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن الى الكفار) ومن المعلوم أنه إنما يمكن العلم بإيمانهن بناء على اقرارهن ، وذلك لا يفيد إلا الظن ، فههنا الله تعالى سمى الظن علما .

﴿والجواب الثالث﴾ أن الدليل القاطع لمبادل على وجوب العمل بالقياس . وكان ذلك الدليل دليلا على أنه متى حصل ظن أن حكم الله في هذه السورة يساوي حكمه في محل النص ،

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا « ٣٦ »

لهم في المدة القليلة. وأما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الأليم.

قوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسؤولاً »

في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح الأوامر الثلاثة ، عاد بعده الى ذكر النواهي فنهى عن

ثلاثة أشياء : أولها : قوله (ولا تقف ما ليس لك به علم) قوله (تقف) مأخوذ من قولهم : قفوت

أترفلان أقفوا وقفوا اذا اتبعت أثره . وسميت قافية الشعر قافية لأنها تقفو البيت ، وسميت

القبيلة المشهورة بالقافة ، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس ويستدلون بها على أحوال الانسان . وقال

تعالى (ثم قفينا على آثارهم برسلنا) وسمى القفا قفا لأنه مؤخر بدن الانسان كأنه شيء يتبعه ويقفوه

فقوله (ولا تقف) أى ولا تتبع ولا تقف ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وحاصله يرجع الى النهى

عن الحكم بما لا يكون معلوما ، وهذه قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة . وكل واحد من

المفسرين حمله على واحد من تلك الأنواع وفيه وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ المراد نهى المشركين عن المذاهب التي كانوا يمتقدونها في الالهيات

والنبوات بسبب تقليد أسلافهم ، لأنه تعالى نسبهم في تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال (إن هي

إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)

وقال في انكارهم البعث (بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) وحكى

عنهم أنهم قالوا (إن نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين) وقال (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من

الله) وقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) الآية وقال (هل عندكم

من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن)

﴿ والقول الثانى ﴾ نقل عن محمد بن الحنفية أن المراد منه شهادة الزور ، وقال ابن عباس :

لا تشهد الا بما رأته عينك وسمعتة أذناك ووعاد قلبك .

﴿ والقول الثالث ﴾ المراد منه : النهى عن القذف ورمى المحصنين والمحصنات بالأكاذيب .

وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء ويبالغون فيه .

ثم قال تعالى ﴿إن العهد كان مسؤولاً﴾ وفيه وجوه : أحدها : أن يراد صاحب العهد كان مسؤولاً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كقوله (واسأل القرية) وثانيها : أن العهد كان مسؤولاً أى أى مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفى به . وثالثها : أن يكون هذا تحميلاً كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي بك تبكيما للنناكث كما يقال للهوذة (بأى ذنب قتلت) وكقوله (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين) الآية فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره .

﴿النوع الثانى﴾ من الأوامر المذكورة فى هذه الآية قوله (وأوفوا الكيل إذا كتم) والمقصود منه إتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد فى نقصانه فى قوله (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)

﴿النوع الثالث﴾ من الأوامر المذكورة فى هذه الآية قوله (وزنوا بالقسط المستقيم) فالآية المتقدمة فى إتمام الكيل ، وهذه الآية فى إتمام الوزن ، ونظيره قوله تعالى (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) وقوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل ، والوزن قليل . والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم ، فوجب على العاقل الاحتراز منه ، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون الى المعامضات والبيع والشراء ، وقد يكون الانسان غافلاً لا يهتدى الى حفظ ماله ، فالشارع بالغ فى المنع من التطفيف والنقصان ، سعياً فى إبقاء الأموال على الملاك ، ومنعاً من تليخ النفس بسرقه ذلك المقدار الحقيق ، والقسطاس فى معنى الميزان الا أنه فى العرف أكبر منه ، ولهذا اشتهر فى السنة العامة أنه القبان . وقيل انه بلسان الروم أو السريانى . والأصح أنه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط ، وهو الذى يحصل فيه الاستقامة والاعتدال ، وباجملة فعناه المعتدل الذى لا يميل الى أحد الجانبين ، وأجمعوا على جواز اللغتين فيه . ضم القاف وكسرهما ، فالكسر قراءة حمزة والكسائى وحفص عن عاصم والباقون بالضم :

ثم قال تعالى ﴿ذلك خير﴾ أى الايفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث أن الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح فى الدنيا والعقاب الشديد فى الآخرة (وأحسن تأويلاً) والتأويل ما يؤل اليه الأمر كما قال فى موضع آخر (خير مردا . خير عقبي . خير أملا) وإنما حكم تعالى بأن عاقبة هذا الأمر أحسن العواقب ، لأنه فى الدنيا اذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء فى الزمان القليل ، وكما قد رأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالأمانة والاحتراز عن الخيانة أبلت القلوب عليهم وحصلت الأموال الكثيرة

وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا «٣٤» وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ

وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا «٣٥»

قوله تعالى ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾ وأوفوا الكيل إذا كلفتم وزنوا بالقسط

المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾

اعلم أنه تعالى أمر بخمسة أشياء أولاً ، ثم أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء وهو النهي عن الزنا ، وعن القتل إلا بالحق ، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، ثم أتبعه بهذه الأوامر الثلاثة فالأول قوله (وأوفوا بالعهد)

واعلم أن كل عقد تقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد فقوله (وأوفوا بالعهد) نظير لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) فدخل في قوله (وأوفوا بالعقود) كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة ، وعقد اليمين والنذر ، وعقد الصلح ، وعقد الكاح . وحاصل القول فيه : أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد ، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يجب الوفاء به فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به وبصحة كل شركة وقع التراضي بها ، ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وقوله (وأحل الله البيع) وقوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) وقوله (وأشهدوا إذا تباعتم) وقوله عليه السلام «لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيبة من نفسه» وقوله «إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم بدا بيد» وقوله «من اشترى شيئاً لم يره فهو بالخيار إذا رآه» فجميع هذه الآيات والأخبار دالة على أن الأصل في البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الإنزام .

إذا ثبت هذا فنقول : إن وجدنا نصاً أخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديماً للخاص على العام ، وإلا قضينا بالصحة في الكل ، وأما تخصيص النص بالقياس فقد أبطلناه ، وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها وأطرافها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة . ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس في العمل ، لأنه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان الله بيان ، وتصير التريعة مضبوطة معلومة .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

الحسن : والله مانصر معاوية على علي عليه السلام إلا بقول الله تعالى (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات .

واعلم أنا ذكرنا أن الزنا يوجب اختلاط الأنساب . وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل ، وذلك يوجب المنع من دخول الناس في الوجود ، وأما القتل فهو عبارة عن إعدام الناس بعد دخولهم في الوجود ، فثبت أن النهي عن الزنا والنهي عن القتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس ، فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال ، لأن أعز الأشياء بعد النفوس الأموال ، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم ، لأنه لصغره وضعفه وكال مجزه بعظم ضرره بإتلاف ماله ، فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهي عن إتلاف أموالهم فقال (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) ونظيره قوله تعالى (ولا تأكلوها أسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) وفي تفسير قوله (إلا بالتي هي أحسن) وجهان : الأول : إلا بالتصرف الذي ينمي ويكثره . الثاني : المراد هو أن تأكل معه إذا احتجت إليه ، وروى مجاهد عن ابن عباس قال : إذا احتاج أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاها ، فإن لم يوسر فلا شيء عليها .

واعلم أن الولي إنما تبقى ولايته على اليتيم إلى أن يبلغ أشده وهو بلوغ النكاح ، كما بينه الله تعالى في آية أخرى وهي قوله (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) والمراد بالأشد بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله ، وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ ، فأما إذا بلغ غير كامل العقل لم تزول الولاية عنه والله أعلم . وبلوغ العقل هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية والله أعلم .

مقدم على العام ، فثبت أن هذه الآية لا يجوز التمسك بها في مسألة أن موجب العمد هو القصاص ولا في مسألة أنه يجب قتل المسلم بالذمى . ولا في مسألة أنه يجب قتل الحر بالعبد والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿فلا يسرف في القتل﴾ ففيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ فيه وجوه : الأول : المراد هو أن يقتل القاتل وغير القاتل . وذلك لأن الواحد منهم إذا قتل واحدا من قبيلة شريفة فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وأمر بالاعتصام على قتل القاتل وحده الثاني : هو أن لا يرضى بقتل القاتل فان أهل الجاهلية كانوا يقصدون أشراف قبيلة القاتل ثم كانوا يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل . والثالث : هو أن لا يكتفى بقتل القاتل بل يمثل به ويقطع أعضاؤه . قال الفقهاء : ولا يبعد حمله على الكل ، لأن جملة هذه المعاني مشتركة في كونها إسرافا .

﴿البحث الثاني﴾ قرأ الاكثر (فلا يسرف) بالياء وفيه وجهان : الأول : التقدير : فلا ينبغي

أن يسرف الولي في القتل . الثاني : أن الضمير للقاتل الظالم ابتداء ، أى فلا ينبغي أن يسرف ذلك الظالم وإسرافه عبارة عن إقدامه على ذلك القتل الظلم . وقرأ حمزة والكسائي (فلا تسرف) بالتاء على الخطاب ، وهذه القراءة تحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون الخطاب للمبتدىء القاتل ظلما كأنه قيل له : لا تسرف أيها الانسان ، وذلك الإسراف هو إقدامه على ذلك القتل الذي هو ظلم محض ، والمعنى : لا تفعل فانك إن قتلته مظلوما استوفى القصاص منك . والآخر : أن يكون الخطاب للولي فيكون التقدير : لا تسرف في القتل أيها الولي ، أى اكتف باستيفاء القصاص ولا تطب الزيادة . وأما قوله (إيه كان منصورا) ففيه ثلاثة أوجه : الأول : كأنه قيل للظالم المبتدىء بذلك القتل على سبيل الظلم لا تفعل ذلك ، فان ذلك المقتول يكون منصورا في الدنيا والآخرة أما نصرته في الدنيا فبقتل قاتله . وأما في الآخرة فبكثر الثواب له وكثرة العقاب لقاتله .

﴿والقول الثاني﴾ أن هذا الولي يكون منصورا في قتل ذلك القاتل الظالم فليكتف بهذا القدر

فانه يكون منصورا فيه ولا ينبغي أن يطمع في الزيادة منه . لأن من يكون منصورا من عند الله يحرم عليه طلب الزيادة .

﴿والقول الثالث﴾ أن هذا القاتل الظالم ينبغي أن يكتفى باستيفاء القصاص وأن لا يطلب الزيادة

واعلم أن على القول الأول والثاني ظهر أن المقتول وولى دمه يكونان منصورين من عند الله تعالى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قلت لعلى بن أبى طالب عليه السلام وأيم الله يظهرن عليكم ابن أبى سفيان ، لأن الله تعالى يقول (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) وقال

ضعيف لاحتمال أن يكون المراد (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) فلا ينبغي أن يسرف الظالم في ذلك القتل ، لأن ذلك المقتول منصور، بواسطة إثبات هذه السلطنة لوليه . والثاني : أن تلك السلطنة بجملة ثم صارت مفسرة بالآية والخبر ، أما الآية فقوله تعالى في سورة البقرة (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) إلى قوله (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان) وقد بينا في تفسير هذه الآية أنها تدل على أن الواجب هو كون المكلف مخيرا بين القصاص وبين الدية . وأما الخبر فهو قوله عليه السلام يوم الفتح «من قتل قتيلا فأهله بين خيرتين إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا الدية» وعلى هذا الطريق فقوله (فلا يسرف في القتل) معناه : أنه لما حصلت له سلطنة استيفاء القصاص إن شاء ، وسلطنة استيفاء الدية إن شاء . قال بعده (فلا يسرف في القتل) معناه أن الأولى أن لا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفي بأخذ الدية أو يميل إلى العفو وبالجملة فلفظة «في» محمولة على الباء ، والمعنى : فلا يصير مسرفا بسبب إقدامه على القتل ويصير معناه الترغيب في العفو والاكتفاء بالدية كما قال (وأن تعفو أقرب للتقوى)

﴿البحث الثاني﴾ أن في قوله (ومن قتل مظلوما) ذكر كونه مظلوما بصيغة التنكير ، وصيغة التنكير على ما عرف تدل على الكمال ، فالإنسان المقتول مالم يكن كاملا في وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص . قال الشافعي رحمه الله : قد دللنا على أن المسلم إذا قتل الذمي لم يدخل تحت هذه الآية : بدليل أن الذمي مشرك والمشرك يحل دمه ، إنما قلنا : إنه مشرك لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) حكم بأن ماسوى الشرك مغفور في حق البعض ، فلو كان كفر اليهودى والنصرانى شيئا مغايرا للشرك لوجب أن يصير مغفورا في حق بعض الناس بمقتضى هذه الآية فلما لم يصر مغفورا في حق أحد دل على أن كفرهم شرك . ولأنه تعالى قال (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) فهذا التثليث الذى قال به هؤلاء ، إما أن يكون تثليثا فى الصفات وهو باطل ، لأن ذلك هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة فلا يمكن جعله تثليثا للكفر ، وإما أن يكون تثليثا فى الذوات ، وذلك هو الحق ولا شك أن القائل به مشرك ، فثبت أن الذمي مشرك ، وإنما قلنا : إن المشرك يجب قتله لقوله تعالى (أقتلوا المشركين) ومقتضى هذا الدليل إباحة دم الذمي فان لم تثبت الإباحة فلا أقل من حصول شبهة الإباحة .

وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت أنه ليس كاملا فى المظلومية فلم يندرج تحت قوله تعالى (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) وأما الحر إذا قتل عبدا فهو داخل تحت هذه الآية إلا أننا بينا أن قوله (كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد) يدل على المنع من قتل الحر بالعبد من وجوه كثيرة وتلك الآية أخص من قوله (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) والخاص

فحينئذ يصير هذا الخبر مخصصا لهذه الآية ويصير ذلك فرعاً لقولنا : إنه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد ، وأما ان قلنا : ان قوله (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) ليس تفسيراً لقوله (الا بالحق) فحينئذ يصير هذا الخبر مفسراً للحق المذكور في الآية ، وعلى هذا التقدير لا يصير هذا فرعاً على مسألة جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد . فلتكن هذه الدقيقة معلومة والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ ظاهر هذه الآية أنه لا سبب لحل القتل إلا قتل المظلوم ، وظاهر الخبر يقتضى ضم شيئين آخرين إليه : وهو الكفر بعد الايمان ، والزنا بعد الاحصان ، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا) ودلت آية أخرى على حصول سبب خامس وهو الكفر . قال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) وقال (واقتلوهم حيث وجدتموهم) والفقهاء تكلموا واختلفوا في أشياء أخرى فمنها : أن تارك الصلاة هل يقتل أم لا ؟ فعند الشافعي رحمه الله يقتل ، وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يقتل . وثانيتها : أن فعل اللواط هل يوجب القتل ؟ فعند الشافعي يوجب ، وعند أبي حنيفة لا يوجب . وثالثها : أن الساحر إذا قال : قتل بسحري فلانا فعند الشافعي يوجب القتل . وعند أبي حنيفة لا يوجب . ورابعها : أن القتل بالمتقل هل يوجب القصاص ؟ فعند الشافعي يوجب . وعند أبي حنيفة لا يوجب . وخامسها : أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل أم لا ؟ اختلفوا فيه في زمان أبي بكر . وسادسها : أن إتيان البهيمة هل يوجب القتل ، فعند أكثر الفقهاء لا يوجب ، وعند قوم يوجب ، حجة القائلين بأنه لا يجوز القتل في هذه الصور هو أن الآية صريحة في منع القتل على الاطلاق ، إلا لسبب واحد وهو قتل المظلوم . فقياً عدا هذا السبب الواحد ، وجب البقاء على أصل الحرمة ، ثم قالوا : وهذا النص قد تأكد بالدلائل الكثيرة الموجبة لحرمة الدم على الاطلاق ، فترك العمل بهذه الدلائل لا يكون إلا معارض ، وذلك المعارض إما أن يكون نصاً متواتراً أو نصاً من باب الآحاد أو يكون قياساً . أما النص المتواتر فمفقود ، وإلا لما بقي الخلاف ، وأما النص من باب الآحاد فهو مرجوح بالنسبة إلى هذه النصوص المتواترة الكثيرة . وأما القياس فلا يعارض النص . فثبت بمقتضى هذا الأصل القوي القاهر أن الأصل في الدماء الحرمة إلا في الصور المعدودة والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله تعالى (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف) فيه بحثان : (البحث الأول) أن هذه الآية تدل على أنه أثبت لولي الدم سلطاناً . فأما بيان أن هذه السلطنة تحصل فيماذا فليس في قوله (فقد جعلنا لوليه سلطانا) دلالة عليه ثم ههنا طريقتان : الأولى : أنه تعالى لما قال بعده (فلا يسرف في القتل) عرف أن تلك السلطنة إنما حصلت في استيفاء القتل ، وهذا

ففتقر ههنا الى بيان أن الأصل في القتل التحريم ، والنزى يدل عليه وجوه : الأول : أن القتل ضرر والأصل في المضار الحرمة لقوله (ما جعل عليكم في الدين من حرج) ولا يريد بكم العسر . ولا ضرر ولا ضرار . الثاني : قوله عليه السلام « الآدمى بنيان الرب ملعون من هدم بنيان الرب » الثالث : أن الآدمى خلق للاشتغال بالعبادة لقوله (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وقوله عليه السلام « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشرؤوا به شيئاً » والاشتغال بالعبادة لا يتم إلا عند عدم القتل . الرابع : أن القتل إفساد فوجب أن يحرم لقوله تعالى (ولا تفسدوا) الخامس : أنه اذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل إباحته فقد أجمعوا على أن جانب الحرمة راجح ، ولولا أن مقتضى الأصل هو التحريم وإلا لكان ذلك ترجيحاً للمرجح وهو محال . السادس : أنا اذا لم نعرف في الانسان صفة من الصفات إلا مجرد كونه إنساناً عافلاً حكمنا فيه بتحريم قتله ، ومالم نعرف شيئاً زائداً على كونه إنساناً لم نحكم فيه بحل دمه ، ولولا أن أصل الانسانية يقتضى حرمة القتل ، وإلما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه أن الأصل في القتل هو التحريم . وان حله لا يثبت إلا بأسباب عرضية .

واذا ثبت ذذا فنقول : إنه تعالى حكم بأن الأصل في القتل هو التحريم فقال (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) فقوله (ولا تقتلوا) نهى وتحريم ، وقوله (حرم الله) إعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد ، ثم استثنى عنه الأسباب العرضية الاتفاقية فقال (إلا بالحق) ثم ههنا طريقان : (الطريق الأول) أن مجرد قوله (إلا بالحق) بجمل لأنه ليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو وكيف هو ؟ ثم إنه تعالى قال (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) أى فى استيفاء القصاص من القاتل ، وهذا الكلام يصلح جعله بياناً لذلك المجمع . وتقريره كأنه تعالى قال (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) وذلك الحق هو أن من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فى استيفاء القصاص . واذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط ، فصارت تقدير الآية : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا عند القصاص ، وعلى هذا التقدير فتكون الآية نصاً صريحاً فى تحريم القتل إلا بهذا السبب الواحد ، فوجب أن يبقى على الحرمة فيما سوى هذه الصورة الواحدة .

(والطريق الثانى) أن نقول : دلت السنة على أن ذلك الحق هو أحد أمور ثلاثة : وهو قوله عليه السلام « لا يحل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق »

واعلم أن هذا الخبر من باب الآحاد . فان قلنا : إن قوله (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) تفسير لقوله (إلا بالحق) كانت الآية صريحة فى أنه لا يحل القتل إلا بهذا السبب الواحد ،

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا
لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٢٣﴾

الحاصلة في النكاح ، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصير مجبوراً بشيء من المنافع فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر ، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضى على الزنا بالقبح وإذا ثبت هذا فنقول : إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة كونه فاحشة . ومقتا في آية أخرى (وساء سيلاً) أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم وإلى اشتماله على التقاتل والتوائب على الفروج وهو أيضاً يوجب خراب العالم . وأما المقت : فقد ذكرنا أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة ، وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وأن لا يعتمد الانسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه . وأما أنه ساء سيلاً ، فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الانسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالاناث ، وأيضاً يبقى ذل هذا العمل وعييه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبوراً بشيء من المنافع ، فقد ذكرنا في قبج الزنا ستة أوجه : والله تعالى ذكر ألقاظاً ثلاثة ، فحملنا كل واحد من هذه الالفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة . والله أعلم بمراده .

ثم قال تعالى ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾

هذا هو النوع الثاني مما نهى الله عنه في هذه الآية ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لقائل أن يقول : إن أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل ، فما السبب في أن الله تعالى بدأ أولاً بذكر النهي عن الزنا وثانياً بذكر النهي عن القتل .

وجوابه : أنا بينا أن فتح باب الزنا يمنع من دخول الانسان في الوجود . والقتل عبارة عن إبطال الانسان بعد دخوله في الوجود . ودخوله في الوجود مقدم على إبطاله وإعدامه بعد وجوده ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنا أولاً ثم ذكر القتل ثانياً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة . والحل إنما يثبت بسبب عارض ، فلما كان الأمر كذلك لا جرم نهى الله عن القتل مطلقاً بناء على حكم الأصل ، ثم استثنى عنه الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الأسباب العرضية فقال (إلا بالحق)

الله تعالى عنها معال بوقوعها في أنفسها على تلك الوجوه ، وهذا الاستدلال قريب ، والأولى أن يقال إن كون الشيء في نفسه مصلحة أو مفسدة أمر ثابت لذاته لا بالشرع ، فإن تناول الغذاء الموافق مصلحة ، والضرب المؤلم مفسدة ، وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع .

وإذا ثبت هذا فنقول : تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم في المعاش والمعاد فهذا هو الكلام الظاهري ، وفيه مشكلات ماثلة ومباحث عميقة نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها .

إذا عرفت هذا فنقول : الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد : أولها : اختلاط الأنساب واشتباهاها فلا يعرف الانسان أن الولد الذي أنت به الزانية أهومنه أو من غيره . فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده ، وذلك يوجب ضياع الأولاد ، وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم . وثانيها : أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التوائب والتقاتل ، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة ، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا . وثالثها : أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرت عليه يستقذرها كل طبع سليم ، وكل خاطر مستقيم ، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج ، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباغ أكثر الخلق . ورابعها : أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة ، وكل رجل يمكنه التوائب على كل امرأة شاءت وأرادت . وحينئذ لا يبقى بين نوع الانسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس ، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد ، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة المهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال ، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية ، وسادسها : أن الوطء يوجب الذل الشديد ، والدليل عليه أن أعظم أنواع التتم عند الناس ذكر ألفاظ الواقع ، ولولا أن الوطء يوجب الذل ، وإلما كان الأمر كذلك ، وأيضا فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة ، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد ، وأن جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن ، ولولا أن الوطء ذل ، وإلما كان كذلك .

وإذا ثبت هذا فنقول : لما كان الوطء ذلا كان السعي في تقليله موافقا للعقول ، فاقترار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل ، وأيضا ما فيه من الذل يصير مجبورا بالمنافع

وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

بسبب إقدامهم على النهب والغارة ، وأيضاً كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأ كفاه . وفي ذلك عار شديد فقال تعالى (ولا تقتلوا أولادكم) وهذا لفظ عام للذكور والاناث ، والمعنى : أن الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولداً ، وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الاناث . وأماما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر ، وقد يخاف أيضاً في العاجزين من البنين .

ثم قال تعالى ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ يعني الأرزاق بيد الله تعالى فكما أنه تعالى فتح أبواب الرزق على الرجال ، فكذلك يفتح أبواب الرزق على النساء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الجمهور قروا إن قتلهم كان خطأ كبيراً ، أى إنما كبيراً يقال خطي يخطأ خطأ مثل أثم يأثم أى قتلهم . قال تعالى (إنا كنا خاطئين) أى آثمين ، وقرأ ابن عامر خطأ بالفتح يقال : أخطأ يخطئ خطأً ، وخطأ إذا أتى بما لا ينبغي من غير قصد ، ويكون الخطأ اسماً للمصدر ، والمعنى : على هذه القراءة أن قتلهم ليس بصواب . قال القفال رحمه الله ، وقرأ ابن كثير (خطأ) بكسر الخاء ممدودة ولعلمها لغتان مثل دفع ودفاع ولبس ولباس .

قوله تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالأشياء الخمسة التي تقدم ذكرها . وحاصلها يرجع إلى شيئين . التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خاتق الله . أتبعها بذكر النهي عن أشياء . أولها : أنه تعالى نهى عن الزنا فقال : (ولا تقربوا الزنا) قال القفال : إذا قيل للأسان لا تقربوا هذا فهذا أكد من أن يقول له لا تفعله ثم إنه تعالى علل هذا النهي بكونه (فاحشة وساء سبيلاً)

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أنه تعالى إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء فهل يصح أن يقال إنه تعالى إنما أمر بذلك الشيء أو نهى عنه لوجه عائد إليه أم لا ؟ فقال القائلون بتحسين العقل وتقييحه الأمر كذلك . وقال المنكرون : لتحسين العقل وتقييحه ليس الأمر كذلك ، احتج القائلون بتحسين العقل وتقييحه على صحة قولهم بهذه الآية قالوا إنه تعالى نهى عن الزنا . وعلل ذلك النهي بكونه فاحشة فيمتنع أن يكون كونه فاحشة عبارة عن كونه منهاه عنه . وإلا لزم تعليل الشيء بنفسه وهو محال ، فوجب أن يقال كونه فاحشة وصف حاصل له باعتبار كونه زناً ، وذلك يدل على أن الأشياء تحسن وتقبح لوجه عائد إليها في أنفسها ، ويدل أيضاً على أن نهى

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ

خَطْئًا كَبِيرًا « ٣١ »

ثم قال تعالى ﴿ إنه كان بعباده خيرا بصيرا ﴾ يعنى أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل انسان فى أن لا يعطيه إلا ذلك القدر . فالتفاوت فى أرزاق العباد ليس لأجل البخل ، بل لأجل رعاية المصالح . قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا ﴾ هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة فى هذه الآيات وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تقرير النظم وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أنه تعالى لما بين فى الآية الأولى أنه هو المتكفل بارزاق العباد حيث قال (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أتبعه بقوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم)

﴿ الوجه الثانى ﴾ أنه تعالى لما علم كيفية البر بالوالدين فى الآية المتقدمة علم فى هذه الآية كيفية البر بالأولاد ، ولهذا قال بعضهم : ان الذين يسمون بالابرار إنما سموا بذلك لأنهم بروا الآباء والأبناء وإنما وجب بر الآباء مكافأة على ما صدر منهما من أنواع البر بالأولاد . وإنما وجب البر بالأولاد لأنهم فى غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين .

﴿ الوجه الثالث ﴾ أن امتناع الأولاد من البر بالآباء يوجب خراب العالم ، لأن الآباء إذا علموا ذلك قلت رغبتهم فى تربية الأولاد . فيلزم خراب العالم من الوجه الذى قررناه ، فثبت أن عمارة العالم إنما تحصل إذا حصلت المبرة بين الآباء والأولاد من الجانبين .

﴿ الوجه الرابع ﴾ أن قتل الأولاد إن كان لحوف الفقر فهو سوء ظن بالله . وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم . فالأول ضدالتعظيم لأمر الله تعالى ، والثانى : ضدالشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم . والله أعلم .

﴿ الوجه الخامس ﴾ أن قرابة الأولاد قرابة الجزئية والبعضية ، وهى من أعظم الموجبات للمحبة ، فلولم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد فى الروح . وقسوة فى القلب ، وذلك من أعظم الأخلاق الذميمة ، فرغب الله فى الاحسان إلى الأولاد إزالة لهذه الخصلة الذميمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب . وقدرة البنين عليه

ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴿

اعلم أنه تعالى لما أمره بالانفاق في الآية المتقدمة علمه في هذه الآية أدب الانفاق . واعلم أنه تعالى شرح وصف عباده المؤمنين في الانفاق في سورة الفرقان فقال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، كان بين ذلك قواما) فههنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أي لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات ، والمعنى : لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط (ولا تبسطها كل البسط) أي ولا تتوسع في الانفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى في يدك شيء . وحاصل الكلام : أن الحكماء ذكروا في كتب الاخلاق أن لكل خلق طرفي إفراط ونفريط وهما مذمومان ، فالبخل إفراط في الامساك ، والتبذير إفراط في الانفاق وهما مذمومان ، والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)

ثم قال تعالى ﴿فقعد ملوما محسورا﴾ أما تفسير فقعد ، فقد سبق في الآية المتقدمة . وأما كونه ملوما فلا أنه يلوم نفسه . وأصحابه أيضا يلومونه على تضييع المال بالكلية وابقاء الأهل والولد في الضرر والمحنة ، وأما كونه محسورا فقال الفراء : تقول العرب للبعير : هو محسور اذا انقطع سيره وحسرت الدابة اذا سيرها حتى ينقطع سيرها ، ومنه قوله تعالى (ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) وجمع الحسير حسرى مثل قتلى وصرعى ، وقال القفال : المقصود تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته ، لأن ذلك المقدار من المال كأنه مطية يحمل الانسان ويباغه الى آخر الشهر أو السنة ، كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه الى آخر المنزل فاذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك اذا أنفق الانسان مقدار ما يحتاج اليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل هذا لحقه اللوم من أهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه .

ثم قال تعالى ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ والمقصود أنه عرف رسوله صلى الله عليه وسلم كونه ربا . والرب هو الذى يربى المرئوب ويقوم باصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض . والقدر في اللغة التضيق ، ومنه قوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه) وقوله تعالى (وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه) أى ضيق وانما وسع على البعض لأن ذلك هو الصلاح لهم قال تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء)

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا

بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

الشياطين) أى قرنأهم فى الدنيا والآخرة كما قال (ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) وقال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أى قرنأهم من الشياطين ، ثم إنه تعالى بين صفة الشيطان فقال (وكان الشيطان لربه كفوراً) ومعنى كون الشيطان كفوراً لربه ، هو أنه يستعمل بدنه فى المعاصى والافساد فى الأرض ، والاضلال للناس . وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالا أو جاهاً فصرفه الى غير مرضاة الله تعالى كان كفوراً للنعمة الله تعالى ، والمقصود : أن المبذرين إخوان الشياطين ، بمعنى كونهم موافقين للشياطين فى الصفة والفعل ، ثم الشيطان كفوراً لربه فيلزم كون المبذر أيضاً كفوراً لربه ، وقال بعض العلماء : خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها فى طلب الخيلاء والتفاخر ، وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين أهله ، وإعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيها على قبيح أعمالهم فى هذا الباب .

ثم قال تعالى ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ﴾ والمعنى : أنك إن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة (فقل لهم قولاً ميسوراً) أى سهلاً لنا وقوله (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) كناية عن الفقر ، لأن فاقده المال يطلب رحمة الله واحسانه . فلما كان فقد المال سبباً لهذا الطلب ولهذا الابتغاء أطلق اسم السبب على المسبب فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله تعالى ، والمعنى : أن عند حصول الفقر والقلة لا تترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن ، بل تعدى بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال ، أو تقول لهم : الله سهل ، وفى تفسير القول الميسور وجوه : الأول : القول الميسور هو الرد بالطريق الأحسن . والثانى : القول الميسور اللين السهل قال الكسائى : يسرت أيسر له القول أى لينتهله . والثالث : قال بعضهم : القول الميسور مثل قوله (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) قالوا : والميسور هو المعروف ، لأن القول المتعارف لا يجوز إلى تكلف والله أعلم . قوله تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً إن

تَعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾

الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴿

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من أعمال الخير والطاعة المذكورة في هذه الآيات وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وآت) خطاب مع من ؟ فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم فأمره الله أن يؤتى أقاربه الحقوق التي وجبت لهم في النى والغنيمة ، وأوجب عليه أيضا إخراج حق المساكين وأبناء السبيل أيضا من هذين المثاليين .

﴿والقول الثاني﴾ أنه خطاب للكل والدليل عليه أنه معطوف على قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) والمعنى : أنك بعد فراغك من بر الوالدين ، يجب أن تشغل ببر سائر الأقارب الأقرب فالأقرب ، ثم باصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل .

واعلم أن قوله تعالى (وآت ذا القربى حقه) يحمل وليس فيه بيان أن ذلك الحق ماهو ؟ وعند الشافعى رحمه الله أنه لا يجب الانفاق الاعلى الولد والوالدين ، وقال قوم يجب الانفاق على المحارم بقدر الحاجة واتفقوا على أن من لم يكن من المحارم كأبناء العم فلاحق لهم الاموادة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة فى السراء والضراء . أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما فى سورة التوبة فى تفسير آية الزكاة . ويجب أن يدفع الى المسكين ما يفي بقوته وقوت عياله . وأن يدفع الى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته الى أن يبلغ مقصده .

ثم قال تعالى ﴿ولا تبذر تبذرا﴾ والتبذير فى اللغة إفساد المال وإنفاقه فى السرف قال عثمان ابن الأسود : كنت أطوف فى المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه الى أبى قبيس وقال : لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين . ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين . وأنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر فقبل له لاخير فى السرف فقال لا سرف فى الخير ، وعن عبد الله بن عمر قال : من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال ما هذا السرف يا سعد ؟ فقال : أو فى الوضوء سرف ؟ قال نعم : وان كنت على نهر جارثم نبه تعالى على قبج التبذير باضافته اياه الى أفعال الشياطين فقال (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) والمراد من هذه الأخوة التشبه بهم فى هذا الفعل القبيح ، وذلك لأن العرب يسمون الملامم للشئ أخاه . فيقولون فلان أخو الكرم والجود ، وأخو السرف اذا كان مواظبا على هذه الأعمال . وقيل قوله (إخوان

وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا «٢٦» إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا «٢٧» وَإِمَّا

(البحث الثالث) ظاهر الأمر للوجوب فقوله (وقل رب ارحمهما) أمر وظاهر الأمر لا يفيد التكرار فيمكن في العمل بمقتضى هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة ، سئل سفيان : كم يدعو الانسان لو لديه ؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة ؟ فقال : نرجو أن يجزئه إذا دعا لها في أواخر التشهدات كما أن الله تعالى قال (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) فكانوا يرون أن التشهد يجزى عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكما أن الله تعالى قال (واذكروا الله في أيام معدودات) فهم يكررون في أدبار الصلوات .

ثم قال تعالى ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين﴾ والمعنى أنا قد أمرناكم في هذه الآية باخلاص العبادة لله تعالى وبالاحسان بالوالدين . ولا يخفى على الله ما تضررونه في أنفسكم من الاخلاص في الطاعة وعدم الاخلاص فيها ، فاعلموا أن الله تعالى مطلع على ما في نفوسكم بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها ، لأن علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الاحاطة بالكل ، فأما علم الله فنزهه عن كل هذه الأحوال ، وإذا كان الأمر كذلك كان عالما بكل ما في قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الاخلاص .

ثم قال تعالى ﴿إن تكونوا صالحين﴾ أى إن كنتم برآء عن جهات الفساد في أحوال قلوبكم كنتم أو ابين ، أى رجاعين إلى الله منقطعين إليه في كل الأعمال وسنة الله وحكمه في الأوابين أنه غفور لهم يكفر عنهم سيئاتهم ، والأواب هو الذى من عادته وديدنه الرجوع إلى أمر الله تعالى والاتجاه إلى فضله ولا يلتجئ إلى شفاعته شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جمادا يزعمون أنه يشفع لهم ، ولفظ الأواب على وزن فعال ، وهو يفيد المداومة والكثرة كقولهم : قتال وضراب والمقصود من هذه الآية أن الآية الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم إن الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال (ربكم أعلم بما في نفوسكم) يعنى أنه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ إن المبذرين كانوا إخوان

وذكر القفال رحمه الله في تقريره وجهين : الأول : أن الطائر اذا أراد ضم فرجه اليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية ، فكأنه قال للولد : اكفل والدك بأن تضمهما الى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك ، والثاني : أن الطائر اذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه واذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه . فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه .

فان قيل : كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له ؟

قلنا : فيه وجهان : الأول : أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال : حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذلك ههنا المراد . وخفض لهما جناحك الذليل ، أي المذلول . والثاني : أن مدار الاستعارة على الخيالات فهنا تخيل للذل جناحا وأثبت لذلك الجناح ضعفا تسكيلا لأمر هذه الاستعارة كما قال لييد :

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فأثبت للشمال يدا ووضع زمامها في يد الشمال فكذا ههنا وقوله (من الرحمة) معناه : ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما .

﴿ والنوع الخامس ﴾ قوله (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قال القفال رحمه الله تعالى إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقال بل أضاف اليه تعليم الأفعال وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول (رب ارحمهما) ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا . ثم يقول (كما ربياني صغيرا) يعني رب افعل بهما هذا النوع من الاحسان كما أحسنا إلى في تربيتهما إياي ، والتربية هي التنمية ، وهي من قولهم ربا الشيء إذا اتفخ ، ومنه قوله تعالى (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)

﴿ البحث الثاني ﴾ اختلف المفسرون في هذه الآية على ثلاثة أقوال :

﴿ القول الأول ﴾ أنها منسوخة بقوله تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين)

فلا ينبغي للمسلم أن يستغفر لو لديه إذا كانا مشركين ، ولا يقول : رب ارحمهما .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن هذه الآية غير منسوخة ، ولكنها مخصوصة في حق المشركين ، وهذا

أولى من القول الأول لأن التخصيص أولى من النسخ .

﴿ والقول الثالث ﴾ أنه لا نسخ ولا تخصيص لأن الوالدين إذا كانا كافرين فله أن يدعو لهما

بالهداية والارشاد ، وأن يطلب الرحمة لهما بعد حصول الايمان .

التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم أيضا للمنع من الضرب عقلا في الجملة . إلا أنا علمنا في هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة في تعظيم الوالدين بدليل قوله (وقل لهما قولا كريما) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنى على الأعلى ، والله أعلم .

(النوع الثاني) من الأشياء التي كلف الله تعالى العباد بها في حق الأبوين قوله (ولا تنهرهما)

يقال : نهره وانتهره اذا استقبله بكلام يزرجه . قال تعالى (وأما السائل فلا تنهر)

فان قيل : المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهاز بطريق الأولى ، فلما قدم المنع من التأفيف كان ذكر المنع من الانتهاز بعده عبثا . أما لو فرضنا أنه قدم المنع من الانتهاز ثم أتبعه بالمنع من التأفيف كان مقيدا حسنا ، لأنه يلزم من المنع من الانتهاز المنع من التأفيف ، فما السبب في رعاية هذا الترتيب ؟

قلنا : المراد من قوله (فلا تقل لهما أف) المنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير ، والمراد من قوله (ولا تنهرهما) المنع من اظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له .

(النوع الثالث) قوله تعالى (وقل لهما قولا كريما) واعلم أنه تعالى لما منع الانسان بالآية

المتقدمة عن ذكر القول المؤذى الموحش . والنهي عن القول المؤذى لا يكون أمرا بالقول الطيب ، لا جرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال (وقل لهما قولا كريما) والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : هو أن يقول له : يا أبتاه يا أماه ، وسئل سعيد بن المسيب : عن القول الكريم فقال : هو قول العبد المذنب للمسيء الفظ ، وعن عطاء أن يقال : هو أن تتكلم معه بشرط أن لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد اليهما نظرك ، وذلك لأن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم .

فان قيل : إن إبراهيم عليه السلام كان أعظم الناس حلما وكرما وأدبا ، فكيف قال لأبيه يا آزر على قراءة من قرأ (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) بالضم (إني أراك وقومك في ضلال مبين) فخاطبه بالاسم وهو إيذاء ، ثم نسبه ونسب قومه الى الضلال وهو أعظم أنواع الإيذاء ؟

قلنا : إن قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) يدل على أن حق الله تعالى مقدم على حق الأبوين ، فاقدام إبراهيم عليه السلام على ذلك الإيذاء إنما كان تقدما لحق الله تعالى على حق الأبوين .

(النوع الرابع) قوله (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) والمقصود منه المبالغة في التواضع ،

الثالث : قال بعضهم أف معناه قلة ، وهو مأخوذ من الأفيف وهو الشيء القليل وتف أتباع له ، كقولهم : شيطان ليطان خبيث نبيث . الرابع : روى ثعلب عن ابن الاعرابي : الأف الضجر . الخامس : قال القتيبي : أصل هذه الكلمة أنه اذا سقط عليك تراب أو رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قولك أف . ثم إنهم توسعوا فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل إليهم . السادس : قال الزجاج : أف معناه التن وهذا قول مجاهد ، لأنه قال معنى قوله (ولا تقل لهما أف) أي لا تنقذرهما كما أنهما لم يتقذراك حين كنت تخر أو تبول . وفي رواية أخرى عن مجاهد أنه اذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف .

(المسألة الرابعة) قول القائل : لا تقل لفلان أف ، مثل يضرب للمنع من كل مكروه وأذية وإن خف وقل . واختلف الأصوليون في أن دلالة هذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الايذاء دلالة لفظية أو دلالة مفهومة بمقتضى القياس . قال بعضهم : إنها دلالة لفظية ، لأن أهل العرف اذا قالوا لا تقل لفلان أف عنوا به أنه لا يتعرض له بنوع من أنواع الايذاء والايحاش ، وجرى هذا مجرى قولهم فلان لا يملك نقيرا ولا قطميرا في أنه بحسب العرف يدل على أنه لا يملك شيئا .

(والقول الثاني) أن هذا اللفظ إنما يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء بحسب القياس الجلي ، وتقريره أن الشرع اذا نص على حكم صورة وسكت عن حكم صورة أخرى . فاذا أردنا إلحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها فهذا على ثلاثة أقسام : أحدها : أن يكون ثبوت ذلك الحكم في محل السكوت أولى من ثبوته في محل الذكر مثل هذه الصورة ، فان اللفظ إنما دل على المنع من التأفيف ، والضرب أولى بالمنع من التأفيف ، وثانيها : أن يكون الحكم في محل السكوت مساويا للحكم في محل الذكر ، وهذا هو الذي يسميه الأصوليون القياس في معنى الأصل ، وضربوا لهذا مثلا وهو قوله عليه السلام «من أعتق نصيبا له من عبد قوم عليه الباقي» فان الحكم في الأئمة والعبد متساويان . وثالثها : أن يكون الحكم في محل السكوت أخفى من الحكم في محل الذكر وهو أكبر القياسات .

إذا عرفت هذا فنقول : المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي الذي يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى . والدليل عليه : أن التأفيف غير الضرب ، فالمنع من التأفيف لا يكون منعاً من الضرب ، وأيضا المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلا ، لأن الملك الكبير اذا أخذ ملكا عظيما كان عدواً له . فقد يقول للجلاد إياك وأن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبتك ، واذا كان هذا معقولا في الجملة علمنا أن المنع من

قلنا: العطف يقتضى المشاركة فجعل أحدهما بدلا والآخر توكيذاخلاف الاصل والله أعلم .
 ﴿المسألة الثالثة﴾ قال أبو الهيثم الرازى ، وأبو الفتح الموصلى ، وأبو على الجرجانى : إن كلا اسم مفرد يفيد معنى التثنية ووزنه فعل ولامه معتل بمنزلة لام حجبى ورضى وهى كلمة وضعت على هذه الخلقه يؤكد بها الاثنان خاصة ولا تكون الامضافة . والدليل عليه أنها لو كانت تثنية لوجب أن يقال فى النصب والخفض مررت بكلى الرجلين بكسر الياء كما تقول : بين يدي الرجل ومن ثلثى الليل . ويأصاحبى السجن . وطرفى النهار ولمالم يكن الأمر كذلك ، علمنا أنها ليست تثنية بل هى لفظه مفردة وضعت للدلالة على التثنية كما أن لفظه كل اسم واحد موضوع للجماعة ، فاذن أخبرت عن لفظه كما تخبر عن الواحد كقوله تعالى (وكلهم آتية يوم القيامة فردا) وكذلك اذا أخبرت عن كلا أخبرت عن واحد فقلت كلا إخوتك كان قائما قال الله تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها) ولم يقل آتتا والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (يلغى عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) معناه : أنهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الجملة فعند هذا الذكر كلف الانسان فى حق الوالدين بخمسة أشياء :
 ﴿النوع الاول﴾ قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الزجاج : فيه سبع لغات : كسر الفاء وضمها وفتحها ، وكل هذه الثلاثة بتونين وبغير تنوين فهذه ستة واللغة السابعة أفى بالياء قال الأخفش : كأنه أضاف هذا القول الى نفسه فقال قولى هذا وذكر ابن الأنبارى : من لغات هذه اللفظة ثلاثة زائدة على ما ذكره الزجاج : (أف) بكسر الألف وفتح الفاء و (أف) بضم الألف وادخال الهاء و (أف) بضم الألف وتسكين الفاء .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر : بفتح الفاء من غير تنوين ، ونافع وحفص : بكسر الفاء والتنوين ، والباقون : بكسر الفاء من غير تنوين وكلها لغات ، وعلى هذا الخلاف فى سورة الانبياء (أف لكم) وفى الاحقاف (أف لكم) وأقول : البحث المشكل ههنا أنا لما نقلنا عشرة أنواع من اللغات فى هذه اللفظة ، فما السبب فى أنهم تركوا أكثر تلك اللغات فى قراءة هذه اللفظة ، واقتصروا على وجوه قليلة منها ؟

﴿المسألة الثالثة﴾ ذكروا فى تفسير هذه اللفظة وجوها : الاول : قال الفراء : تقول العرب جعل فلان يتأفف من ريح وجدها ، معناه يقول : أف أف . الثانى : قال الأصمعى : الأف وسخ الأذن . والتف وسخ الظفر . يقال ذلك عند استقذار الشيء ، ثم كثر حتى استعملوا عند كل ما يتأذون به

أصول الطاعات التي تفيده سعادة الآخرة . وثانيها : أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثى بطاعة الله تعالى ، وثالث بال . بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة . وثالثها : أنه تعالى لم يقل : وإحسانا بالوالدين ، بل قال (وبالوالدين إحسانا) فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام . ورابعها : أنه قال (إحسانا) بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم ، والمعنى : وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحسانا عظيما كاملا . وذلك لأنه لما كان إحسانهما اليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك اليهما كذلك ، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة ، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء وفي الأمثال المشهورة أن البادى بالبر لا يكافأ .

ثم قال تعالى ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لفظ « إما » لفظة مركبة من لفظتين : إن ، وما . أما كلمة إن فهي للشرط ، وأما كلمة (ما) فهي أيضا للشرط كقوله تعالى (ما ننسخ من آية) فلما جمع بين هاتين الكلمتين أفاد التأكيد في معنى الاشتراط . إلا أن علامة الجزم لم تظهر مع نون التأكيد ، لأن الفعل يبنى مع نون التأكيد وأقول لقائل أن يقول : إن نون التأكيد إنما يليق بالموضع الذي يكون اللائق به تأكيد ذلك الحكم المذكور وتقريره وإثباته على أقوى الوجوه ، إلا أن هذا المعنى لا يليق بهذا الموضع ، لأن قول القائل : الشيء إما كذا وإما كذا ، فالمطلوب منه ترديد الحكم بين ذينك الشيئين المذكورين ، وهذا الموضع لا يليق به التقرير والتأكيد فكيف يليق بالجمع بين كلمة إما وبين نون التأكيد ؟ وجوابه : أن المراد أن هذا الحكم المتقرر المتأكد إما أن يقع وإما أن لا يقع والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الأكثر : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) وعلى هذا التقدير فقوله (يبلغن) فعل وفاعله هو قوله (أحدهما) وقوله (أو كلاهما) عطف عليه كقولك : ضرب زيد أو عمرو : ولو أسند قوله (يبلغن) إلى قوله (كلاهما) جاز لتقدم الفعل . تقول قال رجل ، وقال رجلان ، وقالت الرجال ، وقرأ حمزة والكسائي (يبلغان) وعلى هذه القراءة فقوله (أحدهما) بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين وكلاهما عطف على أحدهما فاعلا أو بدلا .

فإن قيل : لو قيل إما يبلغان كلاهما كان كلاهما توكيذا لا بدلا ، فلم زعمتم أنه بدل ؟

قلنا : لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيذا للثنتين فانتظم في حكمه ، فوجب أن يكون مثله في كونه بدلا .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال قوله (أحدهما) بدل . وقوله (أو كلاهما) توكيذ ، ويكون ذلك عطفًا للتوكيد على البدل .

والزمانة ، وقيل لأبي العلاء المعري : ماذا نكتب على قبرك ؟ قال اكتبوا عليه :
هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وقال في ترك الزوج والولد :

وتركت أولادى وهم فى نعمة المعدم التى سبقت نعيم العاجل
ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة ترمى بهم فى موبقات الآجل

وقيل للأسكندر: أستاذك أعظم منة عليك أم والدك ؟ فقال : الأستاذ أعظم منة ، لأنه تحمل
أنواع الشدائد والمحن عند تعليمى أرتعنى فى نور العلم ، وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع
لنفسه ، وأخرجنى إلى آفات عالم الكون والفساد ، ومن الكلمات المشهورة المأثورة ، خير
الآباء من علمك .

والجواب : هب أنهما فى أول الأمر طلبا لذة الوقاع إلا أن الاهتمام بايصال الخيرات ،
وفى دفع الآفات من أول دخوله فى الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع
ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات ، فسقطت هذه الشبهات والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (وبالوالدين إحسانا) قال أهل اللغة : تقدير الآية وقضى ربك ألا تعبدوا
إلا الله وأن تحسنوا ، أو يقال : وقضى ألا تعبدوا إلا إياه وأحسنوا بالوالدين إحسانا . قال صاحب
الكشاف : ولا يجوز أن تتعلق الباء فى (وبالوالدين) بالاحسان لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته
ثم لم يذكر دليلا على أن المصدر لا يجوز أن تتقدم عليه صلته . وقال الواحدى فى البسيط : الباء
فى (وبالوالدين) من صلة الاحسان وقدمت عليه كما تقول يزيد فامرر ، وهذا المثال الذى ذكره
الواحدى غير مطابق ، لأن المطلوب تقديم صلة المصدر عليه ، والمثال المذكور ليس كذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القفال : لفظ الاحسان قد يوصل بحرف الباء تارة ، وبحرف إلى
أخرى ، وكذلك الاساءة . يقال : أحسنت به وإليه . وأسأت به وإليه . قال الله تعالى (وقد
أحسن بي) وقال القائل :

أسيئ بنا أو أحسنى لاملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الاحسان إلى
الوالدين : أحدها : أنه تعالى قال فى الآية المتقدمة (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن
فأولئك كان سعيهم مشكورا) ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التى بواسطتها
يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين ، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من

﴿الوجه الأول﴾ أن السبب الحقيقي لوجود الانسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده . والسبب الظاهري هو الأبوان ، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي ، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري .

﴿الوجه الثاني﴾ أن الموجود إما قديم وإما محدث ، ويجب أن تكون معاملة الانسان مع الاله القديم بالتعظيم والعبودية ، ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله» وأحق الخلق بصرف الشفقة اليه هو الأبوان لكثرة إنعامهما على الانسان فقوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله (وبالوالدين إحسانا) إشارة إلى الشفقة على خلق الله .

﴿الوجه الثالث﴾ أن الاشتغال بشكر المنعم واجب ، ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى . وقد يكون أحد من المخلوقين منعمًا عليك ، وشكره أيضا واجب لقوله عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» وليس لأحد من الخلائق نعمة على الانسان مثل مالوالدين وتقريره من وجوه : أحدها : أن الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام «فاطمة بضعة مني» وثانيها : أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة وجدهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي واحترازهما عن إيصال الضرر اليه كالأمر الطبيعي ، ومتى كانت الدواعي إلى إيصال الخير متوفرة ، والصوارف عنه زائلة لا جرم كثير إيصال الخير . فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان . وثالثها : أن الانسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز ، يكون في إنعام الأبوين فاصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة اليه ، وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة إلى الوالدين في ذلك الوقت ، ومن المعلوم أن الانعام إذا كان واقعا على هذا الوجه كان موقعه عظيما . ورابعها : أن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير اليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض ، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط . فكان الانعام فيه أتم وأكمل ، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل مالوالدين على الولد ، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله (وبالوالدين إحسانا) والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الاله الخالق نعمة الوالدين .

فان قيل : الوالدان إنما طلبا تحصيل اللذة لنفسيهما فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصوله في عالم الآفات والخافات ، فأى انعام للأبوين على الولد ؟ حكى أن واحدا من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول : هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد . وعرضني للهوت والفقير والعمى

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
 أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا «٢٣» وَاخْفُضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ
 الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا «٢٤» رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ
 تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا «٢٥»

وانقطاعه . وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال : في هذه الآية كان الأصل ووصى ربك
 فالتصقت إحدى الواوين بالصاد فقرأه (وقضى ربك) ثم قال : ولو كان على القضاء ما عصى الله
 أحد قط ، لأن خلاف قضاء الله ممتنع ، هكذا رواه عنه الضحاك وسعيد بن جبير ، وهو قراءة
 على وعبد الله .

واعلم أن هذا القول بعيد جدا لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن ،
 ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرج عن كونه حجة ولا شك أنه طعن
 عظيم في الدين .

﴿البحث الثاني﴾ قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن
 عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق ، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم
 ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام ، ونهاية الانعام عبارة عن إعطاء الوجود
 والحياة ، والقدرة والشهرة والعقل ، وقد ثبت بالدلائل أن المعطى لهذه الأشياء هو الله تعالى
 لا غيره ، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لا غيره ، لا جرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى
 لا غيره ، فثبت بالدليل العقلي صحة قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)

قوله تعالى ﴿وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف
 ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخلض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني
 صغيرا ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾
 في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة
 بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه :

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

واستوجب الذم والخذلان ، واعلم أنه لما دل لفظ الآية على أن المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحا منصورا . والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ القعود المذكور في قوله (فتقعد مذموما مخذولا) فيه وجود : الأول : أن معناه : المكث أى فتمكث في الناس مذموما مخذولا ، وهذه اللفظة مستعملة في لسان العرب والفرس في هذا المعنى ، فاذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان في تلك البلدة فيقول المجيب : هو قاعد بأسوأ حال معناه : المكث سواء كان قائما أو جالسا . الثاني : أن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادما متفكرا على ما فرط منه . الثالث : أن المتمكن من تحصيل الخيرات يسعى في تحصيلها ، والسعى إنما يتأتى بالقيام ، وأما العاجز عن تحصيلها فانه لا يسعى بل يبقى جالسا قاعدا عن الطلب فلما كان القيام على الرجل أحد الأمور التي بها يتم الفوز بالخيرات ، وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك الممكنة والقدرة لا جرم جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات . والقعود كناية عن العجز والضعف .

﴿المسألة الخامسة﴾ قال الواحدى : قوله (فتقعد) انتصب لأنه وقع بعد الفاء جوابا للنهي وانتصابه باضمار «أن» كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك . والتقدير : لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء التي هي حرف العطف . وإنما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء في أن الثاني مسبب عن الأول ، ألا ترى أن المعنى إن انقطعت جفوتك كذلك تقدير الآية إن جعلت مع الله إلها آخر قعدت مذموما مخذولا .

قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾

اعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى ما هو الركن الأعظم في الإيمان ، أتبعه بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه وهي أنواع :

﴿النوع الأول﴾ أن يكون الانسان مشغولا بعبادة الله تعالى ، وأن يكون محترزا عن عبادة

غير الله تعالى ، وهذا هو المراد من قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وفيه بختان :

﴿البحث الأول﴾ القضاء معناه الحكم الجزم البت الذي لا يقبل النسخ . والدليل عليه أن الواحد

منا إذا أمر غيره بشيء فانه لا يقال إنه قضى عليه . أما إذا أمره أمرا جزما وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع ، فهنا يقال : قضى عليه ولفظ القضاء في أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

الجنة . والكافرين يدخلون النار ، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين ، ونظيره قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

قوله تعالى ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في بيان وجه النظم . فنقول : إنه تعالى لما بين أن الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العقاب والعذاب ، ومنهم من يريد به طاعة الله وهم أهل الثواب . ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة : لؤلها : إرادة الآخرة . وثانيها : أن يعمل عملا ويسعى سعياموافقا لطلب الآخرة . وثالثها : أن يكون مؤهنا لاجرم فصل في هذه الآية تلك المجمات فبدأ أولا بشرح حقيقة الايمان . وأشرف أجزاء الايمان هو التوحيد ونفى الشركاء والأضداد فقال (لا تجعل مع الله إلها آخر) ثم ذكر عقبيه سائر الأعمال التي يكون المقدم عليها ، والمشتغل بها ساعيا سعييا يليق بطلب الآخرة ، وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت أحوالهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المفسرون : هذا في الظاهر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن في المعنى

عام لجميع المكلفين كقوله (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) ويحتمل أيضا أن يكون الخطاب للانسان كأنه قيل : أيها الانسان لا تجعل مع الله إلها آخر ، وهذا الاحتمال عندى أولى ، لأنه تعالى عطف عليه قوله (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) إلى قوله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) وهذا لا يليق بالنبي عليه السلام ، لأن أبويه ما بلغا الكبر عنده فعلنا أن المخاطب بهذا هو نوع الانسان

﴿ المسألة الثالثة ﴾ معنى الآية أن من أشرك بالله كان مذموما مخذولا ، والذي يدل على أن

الأمر كذلك وجوه : الأول : أن المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان . الثاني : أنه لما ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر ولا مقدر إلا الواحد الأحد ، فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى ، فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله تعالى ، مع أن الحق أن كلها من الله ، فحينئذ يستحق الذم ، لأن الخالق تعالى استحق الشكر باعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله ، فقد قابل إحسان الله تعالى بالاساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وإنما قلنا إنه يستحق الخذلان ، لأنه لما أثبت شريكا لله تعالى استحق أن يفوض أمره إلى ذلك الشريك ، فلما كان ذلك الشريك معدوما بقي بلا ناصر ولا حافظ ولا معين . وذلك عين الخذلان الثالث : أن الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة ، فمن أثبت الشريك فقد وقع في جانب النقصان

بهذه الأمور الثلاثة ، فإنه تعالى عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال ، وأنه تعالى يثني عليهم بكلامه وأنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى ، وإذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلًا كانوا مشكورين على طاعتهم من قبل الله تعالى ، ورأيت في كتب المعتزلة أن جعفر بن حرب حضر عنده واحد من أهل السنة وقال : الدليل على أن الإيمان حصل بخلق الله تعالى أنا نشكر الله على الإيمان ، ولولم يكن الإيمان حاصلًا بإيجاده لامتنع أن نشكره عليه ، لأن مدح الإنسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح قال الله تعالى (ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا) فعجز الحاضرون عن الجواب . فدخل ثمامة بن الأشرس وقال : إنما نمدح الله تعالى ونشكره على ما أعطانا من القدرة والعقل . وإنزال الكتب وإيضاح الدلائل ، والله تعالى يشكرنا على فعل الإيمان . قال تعالى (فأولئك كان سعيهم مشكورا) قال فضحك جعفر بن حرب وقال صعب المسألة فسهلت .

واعلم أن قولنا : مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل كلام واضح ، لأنه تعالى هو الذي أعطى الموجب التام لحصول الإيمان فكان هو المستحق للشكر ، ولما حصل الإيمان للعبد وكان الإيمان موجبا للسعادة التامة صار العبد أيضا مشكورا ولا منافاة بين الأمرين .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن كل من أتى بفعل فاما أن يقصد بذلك الفعل تحصيل خيرات الدنيا ، أو تحصيل خيرات الآخرة ، أو يقصد به مجموعهما ، أو لم يقصد به واحدا منهما ، هذا هو التقسيم الصحيح ، أما إن قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط ، فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية .

﴿أما القسم الثالث﴾ فهو ينقسم الى ثلاثة أقسام ، لأنه إما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا ، أو يكون الطالبان متعادلين .

﴿أما القسم الأول﴾ وهو أن يكون طلب الآخرة راجحا ، فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى فيه بحث . يحتمل أن يقال : إنه غير مقبول لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم حكى عن رب العزة أنه قال «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه» وأيضا فطلب رضوان الله إما أن يقال : إنه كان سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل أو داعيا إليه ، وإما أن يقال : ما كان كذلك ، فإن كان الأول امتنع أن يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء ، لأن الحكم إذا حصل مسنداً الى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه ، وإن كان الثاني فحينئذ يكون الحامل على ذلك الفعل والداعي إليه ذلك المجموع ، وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله تعالى ، لأن المجموع الحاصل من الشيء ومن غيره يجب كونه مغايراً لكل

﴿وأما القسم الثاني﴾ وهو قوله تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) فشرط تعالى فيه شروطا ثلاثة :

﴿الشرط الأول﴾ أن يريد بعمله الآخرة أى ثواب الآخرة فإنه إن لم يحصل هذه الإرادة ، وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ولقوله عليه الصلاة والسلام «إنما الأعمال بالنيات» ولأن المقصود من الأعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبه . وهذا لا يحصل إلا إن نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته .

﴿والشرط الثاني﴾ قوله (وسعى لها سعيها) وذلك هو أن يكون العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التى بها ينال ثواب الآخرة ، ولا يكون كذلك إلا اذا كان من باب القرب والطاعات ، وكثير من الناس يتقربون الى الله تعالى بأعمال باطلة ، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان ، ولهم فيه تأويلان :

﴿التأويل الأول﴾ يقولون : إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى ، مثل أن نشتغل بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة ، ثم إن الملك والكوكب يشتغلون بعبادة الله تعالى ، فهؤلاء يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق ، إلا أنه لما كان فاسدا فى نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به .

﴿والتأويل الثاني لهم﴾ أنهم قالوا : نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الأنبياء والأولياء ، ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الأنبياء والأولياء شفعا لنا عند الله تعالى . وهذا الطريق أيضا فاسد ، وأيضا نقل عن الهند : أنهم بتقربون الى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وباحراق أنفسهم أخرى ويبالغون فى تعظيم الله تعالى ، إلا أنه لما كان الطريق فاسدا لا جرم لم ينتفع به ، وكذلك القول فى جميع فرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب .

﴿والشرط الثالث﴾ قوله تعالى (وهو مؤمن) وهذا الشرط معتبر ، لأن الشرط فى كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الايمان ، فاذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط ، ثم إنه تعالى أخص أن عند حصول هذه الشرائط يصير السعى مشكورا والعمل مبرورا .

واعلم أن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة : اعتقاد كونه محسنا فى تلك الأعمال ، والثناء عليه بالقول ، والاتبان بأفعال تدل على كونه معظما عند ذلك الشاكر . والله تعالى يعامل المطيعين

كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا «٢٠» انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ
أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا «٢١»

مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد
هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض
وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴿

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال القفال رحمه الله : هذه الآية داخلة في معنى قوله (وكل إنسان ألزمناه
طائره في عنقه) ومعناه : أن الكمال في الدنيا قسيمان ، فمنهم من يريد بالذي يعمله الدنيا ومنافعها
والرياسة فيها ، فهذا يأنف من الانقياد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والدخول في طاعتهم والاجابة
لدعوتهم ، اشفاقا من زوال الرياسة عنه ، فهذا قد جعل طائر نفسه شؤما لأنه في قبضة الله تعالى
فيؤتبه الله في الدنيا منها قدرا لا كما يشاء ذلك الانسان ، بل كما يشاء الله إلا أن عاقبته جهنم يدخلها
فيصلاها بجرها مذموما ملوما مدحورا منفيًا مطرودا من رحمة الله تعالى . وفي لفظ هذه الآية فوائد

﴿الفائدة الأولى﴾ أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالاهانة والذم بشرط أن تكون
دائمة وخالية عن شوب المنفعة ، فقوله ﴿ثم جعلنا له جهنم يصلها﴾ إشارة إلى المضرة العظيمة ، وقوله
(مذموما) إشارة إلى الاهانة والذم ، وقوله (مدحورا) إشارة إلى البعد والطرده عن رحمة الله ، وهي تفيد كون
تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبديل بالراحة والخلاص .

﴿الفائدة الثانية﴾ أن من الجهال من اذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لأجل كرامته
على الله تعالى ، وأنه تعالى بين أن مساعدة الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى ، لأن
الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها هي المصير إلى عذاب الله وإهاتته ، فهذا الانسان أعماله تشبه طائر
السوء في لزومها له وكونها سائقة له إلى أشد العذاب .

﴿الفائدة الثالثة﴾ قوله تعالى (لمن نريد) يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد ، بل
كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا ، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن
الدين ، وهذا أيضا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين اطلب الدنيا ، فانه ربما
فاتهم الدنيا فهم الأخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ
يَصَلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا « ١٨ » وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا « ١٩ » كَلَّا تَسْمَعُونَ لَأَءِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا

ازادت أمراضه شدة ، وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة ، وليس المراد أن المريض يريد أن يموت ، والتاجر يريد أن يفتقر وإنما يعنون أنه سيصير كذلك فكذا ههنا .
واعلم أن جميع الوجوه الثلاثة التي ذكرناها في التمسك بهذه الآية ، لاشك أن كلها عدول عن ظاهر اللفظ ، وأما الوجه الثاني والثالث فقد بقى سليما عن الطعن والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المشهور عند القراء السبعة (أمرنا مترفيا) بالتخفيف غير ممدودة الألف ، وروى برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس (أمرنا) بالمد . وعن أبي عمرو (أمرنا) بالتشديد فالمد على الكثير يقال : أمر القوم بكسر الميم إذا كثروا وأمرهم الله بالمد . أى كثرهم الله . والتشديد على التسليط ، أى سلطنا مترفيا ، ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ فاعلم أن المراد أن الطريق الذى ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ويتمردون فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح . وهم عاد وثمود وغيرهم ، ثم إنه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطابا لغيره وردعا وزجرا للكل فقال (وكفى بربك بذنوب عباده خيرا بصيرا) وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أنه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شئ من أحوال الخلق ، وثبت أنه قادر على كل الممكنات فكان قادرا على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه . وأيضا أنه منزه عن العيب والظلم . ومجموع هذه الصفات الثلاث أعنى العلم التام ، والقدرة الكاملة ، والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لأهل الطاعة . وخوف عظيم لأهل الكفر والمعصية .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال القراء : لو ألغيت الباء من قولك بربك جاز ، وإنما يجوز دخول الباء فى المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أويذم . كقولك : كفاك به . وأكرم به رجلا . وطاب بطعامك طعاما . وجاد بثوبك ثوبا ، أما إذا لم يكن مدحا أو ذما لم يجوز دخولها ، فلا يجوز أن يقال : قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما

نحن في تفسيرها . فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ما قاله الكعبي ، واعلم أن أحسن الناس كلاما في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة : القفال . فإنه ذكر فيه وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ قال إنه تعالى أخبر أنه لا يعذب أحدا بما يعلمه منه ما لم يعمل به . أى لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إن أمره عصاه بل يأمره فإذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) معناه : وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بأهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالآيمان بى والعمل بشرائع دينى على ما بلغهم عنى رسولى ، ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بأهلا كههم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها ، والحاصل أن المعنى : وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف فى تحقيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم ، بل أمرنا مترفيها ففسقوا ، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به .

﴿والوجه الثانى﴾ فى التأويل أن تقول : وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصى من أهلها لم نعالجهم بالعذاب فى أول ظهور المعاصى منهم ، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصى ، وإنما خص المترفين بذلك الأمر ، لأن المترف هو المتنعّم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب ، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق ، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا ، ثم قال القفال : وهذان التأويلان راجعان إلى أن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة حتى يعذر اليهم غاية الإعذار الذى يقع منه اليأس من إيمانهم ، كما قال فى قوم نوح (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وقال (إنه إن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وقال فى غيرهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) فأخبر تعالى أولا أنه لا يظهر العذاب إلا بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام . ثم أخبر ثانيا فى هذه الآية أنه إذا بعث الرسول أيضا فكذبوا لم يعالجهم بالعذاب ، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ ، فإن بقوا مصرين على الذنوب فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال ، وهذا التأويل الذى ذكره القفال فى تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله .

وأجاب الجبائى بأن قال : ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد إهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا ، وذلك لأنه ظلم وهو على الله محال ، بل المراد من الإرادة قرب تلك الحالة فكان التقدير وإذا قرب وقت إهلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل : إذا أراد المريض أن يموت

الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهى الايمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الامر عنادا وأقدموا على الفسق .

(القول الثانى) فى تفسير قوله (أمرنا مترفيا) أى أكثرنا فسادها . قال الواحدى : العرب تقول أمر القوم إذا كثروا . وأمرهم الله إذا كثروهم . وأمرهم أيضا بالمد ، روى الجرمى عن أبى زيد أمر الله القوم وأمرهم ، أى كثروهم . واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله صلى الله عليه وسلم «خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة» والمعنى مهرة قد كثرت نسلها يقولون : أمر الله المهرة أى كثرت ولدها ومن الناس من أنكروا أن يكون أمر بمعنى كثرت وقالوا أمر القوم إذا كثروا وأمرهم الله بالمد أى كثروهم ، وحملوا قوله عليه الصلاة والسلام «مهر مأمورة» على أن المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة . وأما المترف : فمعناه فى اللغة المتنعم الذى قد أبطرتة النعمة وسعة العيش (ففسقوا فيها) أى خرجوا عما أمرهم الله (فحق عليها القول) يريد : استوجبت العذاب . وهذا كالتفسير لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا) وقوله (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) فلما حكم تعالى فى هذه الآيات أنه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله ، فلا جرم ذكر ههنا أنه يأمرهم فإذا خالفوا الأمر . فعند ذلك استوجبوا الإهلاك المعبر عنه بقوله (فحق عليها القول) وقوله (فدمرناها تدميرا) أى أهلكناها إهلاك الاستئصال . والدمار هلاك على سبيل الاستئصال .

(المسألة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجود : الأول : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد إيصال الضرر اليهم ابتداء ثم توسل الى إهلاكهم بهذا الطريق . الثانى : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما خص المترفين بذلك الامر لعلمه بأنهم يفسقون . وذلك يدل على أنه تعالى أراد منهم الفسق ، والثالث : أنه تعالى قال (فحق عليها القول) بالتعذيب والكفر ، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الايمان منهم . لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا وذلك محال . والمفضى الى المحال محال . قال الكعبى : إن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدىء بالتعذيب والإهلاك لقوله (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقوله (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) وقوله (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) فكل هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يبتدىء بالاضرار ، وأيضا ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض ، فثبت أن الآيات التى تلونها محكمة ، وكذا الآية التى

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا «١٦» وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا «١٧»

واعلم أن الذي نرتضيه ونذهب إليه أن مجرد العقل سبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به ، وترك ما يتضرر به ، أما مجرد العقل لا يدل على أنه يجب على الله تعالى شيء . وذلك لأننا مجبولون على طلب النفع والاحتراس عن الضرر ، فلا جرم كان العقل وحده كافيا في الوجوب في حقنا والله تعالى منزه عن طلب النفع والهرب من الضرر ، فامتنع أن يحكم العقل عليه بوجوب فعل أو ترك فعل والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴿ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أمرنا مترفيها) في تفسير هذا الأمر قولان :
 ﴿ القول الأول ﴾ أن المراد منه الأمر بالفعل ، ثم إن لفظ الآية لا يدل على أنه تعالى بماذا يأمرهم فقال الأكثرون : معناه أنه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات ، ثم إنهم يخالفون ذلك الأمر ويفسقون وقال صاحب الكشاف : ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون ، إلا أن هذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضى ما ذكرناه ، أن المأمور به إنما حذف لأن قوله (ففسقوا) يدل عليه يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرا لا يفهم منه ، إلا أن المأمور به قيام أو قراءة فكذاهنا لما قال (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصاني أو تخالفني فان هذا لا يفهم منه أي أمرته بالمعصية والمخالفة ؛ لأننا نقول : إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له ، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الاتيان بضد المأمور به فكونه فسقا ينافي كونه مأمورا به ، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأمورا بها ، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق ، وهذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده ، فثبت أن

أحدها : أنه إذا جاء المشرع وادعى كونه نبياً من عند الله تعالى وأظهر المعجزة ، فهل يجب على المستمع استماع قوله والتأمل في معجزاته أو لا يجب ؟ فإن لم يجب فقد بطل القول بالنبوة . وإن وجب . فاما أن يجب بالعقل أو بالشرع فإن وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلي ، وإن وجب بالشرع فهو باطل ، لأن ذلك الشرع إما أن يكون هو ذلك المدعى أو غيره . والأول باطل لأنه يرجع حاصل الكلام إلى أن ذلك الرجل يقول : الدليل على أنه يجب قبول قولي أني أقول إنه يجب قبول قولي . وهذا إثبات للشيء بنفسه . وإن كان ذلك الشارع غيره كان الكلام فيه كما في الأول : ولزم إما الدور أو التسلسل وهما محالان . وثانيتها : أن الشرع إذا جاء وأوجب بعض الأفعال . وحرّم بعضها فلا معنى للإيجاب والتحرّم . إلا أن يقول : لو تركت كذا وفعلت كذا لعاقبتك فنقول : إما أن يجب عليه الاحتراز عن العقاب أو لا يجب ، فلو لم يجب عليه الاحتراز عن العقاب لم يتقرر معنى الوجوب البتة ، وهذا باطل فذاك باطل ، وإن وجب عليه الاحتراز عن العقاب ، فاما أن يجب بالعقل أو بالسمع . فإن وجب بالعقل فهو المقصود ، وإن وجب بالسمع لم يتقرر معنى هذا الوجوب إلا بسبب ترتيب العقاب عليه ، وحينئذ يعود التقسيم الأول ويلزم التسلسل وهو محال . وثالثها : أن مذهب أهل السنة أنه يجوز من الله تعالى أن يعفو عن العقاب على ترك الواجب وإذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب . فلم يبق إلا أن يقال : إن ماهية الواجب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب ، وهذا الخوف حاصل بمحض العقل ، فثبت أن ماهية الوجوب إنما تحصل بسبب هذا الخوف . وثبت أن هذا الخوف حاصل بمجرد العقل ، فلزم أن يقال : الوجوب حاصل بمحض العقل .

فان قالوا : ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم ؟

قلنا : إنه تعالى إذا عفا فقد سقط الذم ، فعلى هذا ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل ، فثبت بهذه الوجوه أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه وإذا ثبت هذا فنقول : في الآية قولان : الأول : أن تجري الآية على ظاهرها . ونقول : العقل هو رسول الله إلى الخلق ، بل هو الرسول الذي لولاه لما تقررت رسالة أحد من الأنبياء . فالعقل هو الرسول الأصلي ، فكان معنى الآية وما كنا معذبين حتى نبعث رسول العقل . والثاني : أن نخصر عموم الآية فنقول : المراد وما كنا معذبين في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفة وجوبها إلا بالشرع إلا بعد مجيء الشرع . وتخصيص العموم وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه عند قيام الدلائل . وقد بينا قيام الدلائل الثلاثة ، على أنا لو نفينا الوجوب العقلي لزمنا نفي الوجوب الشرعي والله أعلم .

الحكم الاول

قال الجبائي في الآية دلالة على أنه تعالى لا يعذب الاطفال بكفر آبائهم ، وإلا لكان الطفل مؤاخذا بذنب أبيه ، وذلك على خلاف ظاهر هذه الآية .

الحكم الثاني

روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الميت ليعذب ببكاء أهله» فعائشة طعنت في صحة هذا الخبر ، واحتجت على صحة ذلك الطعن بقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فان تعذيب الميت بسبب بكاء أهله أخذ للانسان بجرم غيره . وذلك خلاف هذه الآية .

الحكم الثالث

قال القاضي : دلت هذه الآية على أن الوزر والاثم ليس من فعل الله تعالى . وبيانه من وجوه : أحدها : أنه لو كان كذلك لامتنع أن يؤخذ العبد به كما لا يؤخذ بوزر غيره . وثانيها : أنه كان يجب ارتفاع الوزر أصلا ، لأن الوزر إنما يصح أن يوصف بذلك إذا كان مختارا يمكنه التحرز ، ولهذا المعنى لا يوصف الصبي بهذا .

الحكم الرابع

أن جماعة من قدماء الفقهاء امتنعوا من ضرب الدية على العاقلة ، وقالوا : لأن ذلك يقتضى مؤاخذا الانسان بسبب فعل الغير ، وذلك على مضادة هذه الآية .

وأجيب عنه بأن المخطئ ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل ، فكيف يصير غيره مؤاخذا بسبب ذلك الفعل ، بل ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء من الله تعالى .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال أصحابنا وجوب شكر المنعم لا يثبت بالعقل بل بالسمع ، والدليل عليه قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وجه الاستدلال أن الوجوب لا يتقرر ماهيته إلا بترتيب العقاب على الترك ، ولعقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية ، فوجب أن لا يتحقق الوجوب قبل الشرع . ثم أكدوا هذه الآية بقوله تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وبقوله (ولو أنا أهلكتناهم بعداب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)

ولقائل أن يقول : هذا الاستدلال ضعيف ، وبيانه من وجهين : الأول : أن نقول : لولم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي البتة ، وهذا باطل فذاك باطل بيان الملازمة من وجوه :

مَنْ اهْتَدَى فَاَتَمَّ يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَاتَمَّ يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

واعلم أن الحق أن الأحوال الظاهرة التي وردت فيها الروايات حق وصدق لامرية فيها ،
واحتتمال الآية لهذه المعاني الروحانية ظاهر أيضا ، والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الاقرار
بالكل . والله أعلم بحقائق الأمور .

قوله تعالى ﴿من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر
أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى لما قال في الآية الأولى (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)
ومعناه : أن كل أحد مختص بعمل نفسه ، عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى أقرب إلى الأفهام وأبعد
عن الغلط فقال (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) يعني أن ثواب العمل الصالح
مختص بفاعله ، ولا يتعدى منه إلى غيره ، ويتأكد هذا بقوله (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن
سعيه سوف يرى) قال الكعبي : الآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر . وأنه غير مجبور على
عمل بعينه أصلا لأن قوله (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) إنما يليق
بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد . أما المجبور على أحد الطرفين ، الممنوع من الطرف
الثاني فهذا لا يليق به .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى أعاد تقرير أن كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله (ولا تزر وازرة
أخرى) قال الزجاج : يقال وزر يزر فهو وازر ووزر وزرا وزرة ، ومعناه : أثم يَأْتُمُّ إِثْمًا قَالَ :
وفي تأويل الآية وجهان : الأول : أن المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره ، وأيضا غيره لا يؤاخذ بذنبه
بل كل أحد مختص بذنب نفسه . والثاني : أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالأثم ، لأن غيره عمله كما
قال الكفار (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)
واعلم أن الناس تمسكوا بهذه الآية في إثبات أحكام كثيرة .

أن يحصل لكل واحد من تلك الأعمال أثر ما في جوهر النفس ، فانا لما رأينا أن عند توالى القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقب في الحجر ، علمنا أن لكل واحد من تلك القطرات أثراً ما في حصول ذلك الثقب وإن كان ضعيفا قليلا ، وإن كانت الكتابة أيضا في عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلاح الناس على جعلها معارف لألفاظ مخصوصه ، فعلى هذا : دلالة تلك النقوش على تلك المعاني المخصوصة دلالة كائنة جوهرية واجبة الثبوت ، ممتعة الزوال ، كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش أولى باسم الكتاب من الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والاصطلاح .

وإذا عرفت هاتين المقدمتين فنقول : إن كل عمل يصدر من الانسان كثيرا كان أو قليلا قويا كان أو ضعيفا . فانه يحصل منه لا محالة في جوهر النفس الانسانية أثر مخصوص ، فان كان ذلك الأثر أثراً لجذب جوهر الروح من الخلق إلى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات . وإن كان ذلك الأثر أثراً لجذب الروح من حضرة الحق إلى الاشتغال بالخلق كان ذلك من موجبات الشقاوة والخذلان . إلا أن تلك الآثار تخفى دأدام الروح متعلقا بالبدن ، لأن اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الأحوال وتجليها وظهورها ، فاذا انقطع تعلق الروح عن تدبير البدن فهناك تحصل القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام « من مات فقد قامت قيامته » ومعنى كون هذه الحالة قيامة أن النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة في هذا الجسد السفلي ، فاذا انقطع ذلك التعلق ، قامت النفس وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلوى ، فهذا هو المراد من كون هذه الحالة قيامة ، ثم عند حصول القيامة بهذا المعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء ، وقيل له (فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا) معناه : ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتابا مشتملا على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الأحوال الدنيوية ، ويكون هذا الكتاب في هذا الوقت منشورا ، لأن الروح حين كانت في البدن كانت هذه الأحوال فيه مخفية فكانت كالمطوية . أما بعد انقطاع التعاق الجسداني ظهرت هذه الأحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد أن كانت مطوية ، وظاهرة بعد أن كانت مخفية ، وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح فيقال له في تلك الحالة (اقرأ كتابك) ثم يقال له (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) فان تلك الآثار إن كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لا محالة ، وإن كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لا محالة ، فهذا تفسير هذه الآية بحسب الأحوال الروحانية .

(اقرأ كتابك) قال الحسن : يقرؤه أميا كان أو غير أمي ، وقال بكر بن عبدالله : يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها ، وسيئاته في جوف صحيفته وهو يقرؤها ، حتى اذا ظن أنها قد أوقته قال الله تعالى «اذهب فقد غفرتما لك فيما بيني وبينك» فيعظم سروره ، ويصير من الذين قال في حقهم (وجود يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) ثم يقول (هاؤم اقرؤا كتابيه)

وأما قوله ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ أى محاسباً . قال الحسن : عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك . قال السدي : يقول الكافر يومئذ إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد . فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) والله أعلم .
﴿المسألة الرابعة﴾ قال حكيم الاسلام : هذه الآية في غاية الشرف ، وفيها اسرار عجيبة في أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ أنه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذى يطير اليه ، وذلك لأنه تعالى قدر لكل أحد في الأزل مقدارا من الخير والشر ، فذلك الحكم الذى سبق في علمه الأزل وحكمه الأزل لا بد وأن يصل اليه ، فذلك الحكم كأنه طائر يطير اليه من الأزل الى ذلك الوقت ، فاذا حضر ذلك الوقت وصل اليه ذلك الطائر وصولا لا خلاص له البتة ولا انحراف عنه البتة . واذا علم الانسان في كل قول وفعل ولمحة وفكرة أنه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله اليه على منهج معين وطريق معين ، وأنه لا بد وأن يصل اليه ذلك الطائر . فعند ذلك عرف أن الكفاية الأبدية لا تتم إلا بالعناية الأزلية .
﴿والبحث الثانى﴾ أن هذه التقديرات إنما تقدرت بالزام الله تعالى . وذلك باعتبار أنه تعالى جعل لكل حادث حادثا متقدما عليه لحصول الحادث المتأخر . فلما كان وضع هذه السلسلة من الله لا جرم كان الكل من الله . وعند هذا يتخيل الانسان طيورا لانهاية لها ولا غاية لأعدادها ، فانه تعالى طيرها من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب ، وأنها صارت وطارت طيرانا لا بداية له ولا غاية له ، وكان كل واحد منها متوجها إلى ذلك الانسان المعين فى الوقت المعين بالصفة المعينة ، وهذا هو المراد من قوله (الزمانه طائره فى عنقه)

﴿البحث الثالث﴾ أن التجربة تدل على أن تكرار الأعمال الاختيارية تفيد حدوث الملكة النفسانية الراسخة فى جوهر النفس . ألا ترى أن من واطب على تكرار قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظا ، ومن واطب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له .
إذا عرفت هذا فنقول : لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة ووجب

أن يعبر عن تلك الأحوال المقدره بلفظ الطائر ، فقوله (وكل إنسان أزمانه طائر في عنقه) كناية عن أن كل ما قدره الله تعالى ومضى في علمه حصوله ، فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه . واعلم أن هذا من أدل الدلائل على أن كل ما قدره الله تعالى للإنسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع بمتنع العدم ، وتقريره من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ أن تقدير الآية : وكل إنسان أزمانه عمله في عنقه ، فيبين تعالى أن ذلك العمل لازم له ، وما كان لازما للشيء كان ممتنع الزوال عنه و واجب الحصول له وهو المقصود .
 ﴿والوجه الثاني﴾ أنه تعالى أضاف ذلك الالتزام الى نفسه ، لأن قوله (أزمانه) تصریح بأن ذلك الالتزام إنما صدر منه ، ونظيره قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) وهذه الآية دالة على أنه لا يظهر في الأبد إلا ما حكم الله به في الأزل ، واليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة» والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (في عنقه) كناية عن اللزوم كما يقال : جعلت هذا في عنقك أى قلدتك هذا العمل وأزمتك الاحتفاظ به ، ويقال : قلدتك كذا وطوقتك كذا ، أى صرفته اليك وأزمته إياك ، ومنه قلده السلطان كذا. أى صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق ، ومنه يقال : فلان يقلد فلانا أى جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه . قال أهل المعاني : وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء بهذا المعنى لأن الذى يكون عليه إما أن يكون خيرا يزينه أو شرا يشينه ، وما يزين يكون كالطوق والحلى ، والذى يشين فهو كالغل ، فههنا عمله إن كان من الخيرات كان زينة له ، وإن كان من المعاصى كان كالغل على رقبته .

ثم قال تعالى ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾ قال الحسن : يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك . فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، حتى اذا امت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة . قوله (ونخرج له) أى من قبره يجوز أن يكون معناه : نخرج له ذلك لأنه لم يركتابه فى الدنيا فاذا بعث أظهر له ذلك وأخرج من الستر ، وقرأ يعقوب (ويخرج له يوم القيامة كتابا) أى يخرج له الطائر أى عمله كتابا منشورا ، كقوله تعالى (وإذا الصحف نشرت) وقرأ ابن عاصر (يلقاه) من قولهم : لقيت فلانا الشيء أى استقبلته به . قال تعالى (ولقاهم نضرة وسرورا) وهو منقول بالتشديد من لقيت الشيء ولقانيه زيد ،

ثم قال تعالى ﴿اقرأ كتابك﴾ والتقدير يقال له : وهذا القائل هو الله تعالى على السنة الملائكة

﴿الوجه الأول﴾ أنه تعالى لما قال (وكل شيء فصلناه تفصيلاً) كان معناه أن كل ما يحتاج إليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكوراً . وكل ما يحتاج إليه من شرح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، فقد صار مذكوراً . وإذا كان الأمر كذلك فقد أزيحت الاعتذار ، وأزيلت العلل فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فقد أزمانه طائر في عنقه ونقول له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً)

﴿الوجه الثاني﴾ أنه تعالى لما بين أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا ، مثل آتئ الليل والنهار وغيرهما كان منعماً عليهم بأعظم وجوه النعم . وذلك يقتضى وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فإنه يكون مسؤولاً عن أعماله وأقواله

﴿الوجه الثالث﴾ في تقرير النظم أنه تعالى لما بين أنه ما خلق الخلق إلا ليشغلوا بعبادته كما قال (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) فلما شرح أحوال الشمس والقمر والليل والنهار . كان المعنى : إنى إنما خلقت هذه الأشياء لتتفجعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي ، وإذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته أنه هل أتى بتلك الخدمة والطاعة . أو تمرد وعصى وبغى ، فهذا هو الوجه في تقرير النظم .

﴿المسألة الثانية﴾ في تفسير لفظ ، الطائر . قولان :

﴿القول الأول﴾ أن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه . أو يحتاج إلى ازعاجه . وإذا طار فهل يطير متيامناً أو متيامراً أو صاعداً إلى الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة . فلما كثر ذلك منهم سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس (قالوا إنا تطيرنا بكم) إلى قوله (قالوا طائر كم معكم) فقوله (وكل إنسان أزمانه طائر في عنقه) أى كل إنسان أزمانه عمله في عنقه . وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد (أزمانه طيره في عنقه)

﴿القول الثاني﴾ قال أبو عبيدة : الطائر عند العرب الحظ وهو الذى تسميه الفرس البخت ، وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر ، والتحقيق فى هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم . والعمر والرزق ، والسعادة والشقاوة . والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وأن ينحرف عنه . بل لا بد وأن يصل إلى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية . فتللك الأشياء المقدره كأنها تطير اليه وتصير اليه ، فهذا المعنى لا يبعد

وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَاهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا «١٣» اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا «١٤»

رجل محبث إذا كان أصحابه خبيثاء . ورجل مضعف إذا كانت ذراريه ضعافا ، فكذا قوله : والنهار مبصرا ، أى أهله بصراء .

واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة منافع الليل والنهار ، قال (وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا) وقال أيضا (جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) ثم قال تعالى ﴿ولتبتغوا فضلا من ربكم﴾ أى لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم (ولتعلموا عدد السنين والحساب)

واعلم أن الحساب مبنى على أربع مراتب : الساعات والأيام والشهور والسنون ، فالعدد للسنين ، والحساب لمادون السنين ، وهى الشهور والأيام والساعات ، وبعد هذه المراتب الأربع لا يحصل الا التكرار . كما أنهم رتبوا العدد على أربع مراتب : الآحاد والعشرات والمئات والالوف ، وليس بعدها إلا التكرار والله أعلم .

ثم قال ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ والمعنى : أنه تعالى لما ذكر أحوال آتئ الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ، ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا ، فلما شرح الله تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق . كان ذلك تفصيلا نافعا وبيانا كاملا ، فلا جرم قال (وكل شيء فصلناه تفصيلا) أى كل شيء بكم إليه حاجة فى مصالح دينكم ودنياكم ، فقد فصلناه وشرحناه ، وهو كقوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) وقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) وقوله (تدمر كل شيء بأمر ربها) وإنما ذكر المصدر وهو قوله (تفصيلا) لأجل تأكيد الكلام وتقريره ، كأنه قال : وفصلناه حقاً وفصلناه على الوجه الذى لا مزيد عليه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وكل إنسان أزمانه طائرُه في عنقه ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى كيفية النظم وجوه :

فطمس عنه الضوء . ومعنى المحو في اللغة : إذهاب الأثر . تقول : محوته ومحوه وانمحي وامتحى إذا ذهب أثره . وأقول : حمل المحو في هذه الآية على الوجه الأول أولى ، وذلك لأن اللام في قوله (لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) متعلق بما هو مذكور قبل ، وهو محو آية الليل . وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله . إذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه ، لأن سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر ، وأهل التجارب يبنوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه ، مثل أحوال البحار في المد والجزر . ومثل أحوال التجربات على ما ذكره الأطباء في كتبهم . وأيضا بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور ، وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الأهلة كما قال (ولتعلموا عدد السنين والحساب) فثبت أن حمل المحو على ما ذكرناه أولى . وأقول أيضا : لو حملنا المحو على الكلف الحاصل في وجه القمر ، فهو أيضا برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين في المبدأ والمعاد ، أما دلالاته على صحة قولهم في المبدأ ، فلأن جرم القمر جرم بسيط عند الفلاسفة . فوجب أن يكون متشابه الصفات ، فحصول الأحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على أنه ليس بسبب الطبيعة . بل لأجل أن الفاعل المختار خصص بعض أجزائه بالنور القوي ، وبعض أجزائه بالنور الضعيف ، وذلك يدل على أن مدبر العالم فاعل مختار لا موجب بالذات . وأحسن ما ذكره الفلاسفة في الاعتذار عنه ، أنه ارتكز في وجه القمر أجسام قليلة الضوء . مثل ارتكاز الكواكب في أحرام الأفلاك ، فلما كانت تلك الأجرام أقل ضوءاً من جرم القمر ، لا جرم شوهدت تلك الأجرام في وجه القمر كالكلف في وجه الانسان ، وهذا لا يفيد مقصود الخصم ، لأن جرم القمر لما كان متشابه الأجزاء فلم ارتكزت تلك الأجرام الظلمانية في بعض أجزاء القمر دون سائر الأجزاء ؟ وبمثل هذا الطريق يتمسك في أحوال الكواكب ، وذلك لأن الفلك جرم بسيط متشابه الأجزاء فلم يكن حصول جرم الكواكب في بعض جوانبه أولى من حصوله في سائر الجوانب ؟ وذلك يدل على أن اختصاص ذلك الكوكب بذلك الموضع المعين من الفلك لأجل تخصيص الفاعل المختار ، وكل هذه الدلائل إنما يراد من تقريرها وإيرادها التنبيه على أن المؤثر في العالم فاعل بالاختيار لا موجب بالذات والله أعلم .

أما قوله «وجعلنا آية النهار مبصرة» ففيه وجهان : الأول : أن معنى كونها مبصرة أى مضيئة وذلك لأن الاضاءة سبب لحصول الابصار ، فأطلق اسم الابصار على الاضاءة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب . والثاني : قال أبو عبيدة يقال : قد أبصر النهار إذا صار الناس يبصرون فيه ، كقوله :

أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه ، فكذلك الوقت والزمان لا يكمل الانتفاع به إلا بالنهار والليل .

﴿والوجه الثاني﴾ في تقرير النظم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ، وذلك الأقوم ليس إلا ذكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة . لا جرم أردفه بذكر دلائل التوحيد ، وهو عجائب العالم العلوى والسفلى .

﴿الوجه الثالث﴾ أنه لما وصف الانسان بكونه عجولا أى منتقلا من صفة الى صفة ومن حالة الى حالة ، بين أن كل أحوال هذا العالم كذلك ، وهو الانتقال من النور الى الظلمة وبالضد ، وانتقال نور القمر من الزيادة الى النقصان وبالضد . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ في قوله (وجعلنا الليل والنهار آيتين) قولان :

﴿القول الأول﴾ أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار . والمعنى : أنه تعالى جعلهما دليلا للخلق على مصالح الدين والدنيا . أما في الدين : فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له ، مع كونهما متعاقبين على الدوام ، من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما ، بل لا بد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة ، وأما في الدنيا : فلأن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار ، فلو لا الليل لما حصل السكون والراحة ، ولو لا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش .

ثم قال تعالى ﴿فجونا آية الليل﴾ وعلى هذا القول : تكون الاضافة في آية الليل والنهار للتبيين ، والتقدير : فجونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي نفس النهار مبصرة . ونظيره قولنا : نفس الشيء وذاته ، فكذلك آية الليل هي نفس الليل ، ويقال أيضا : دخلت بلاد خراسان أى دخلت البلاد التي هي خراسان ، فكذلك ههنا .

﴿القول الثاني﴾ أن يكون المراد وجعلنا نرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر ، فجونا آية الليل وهي القمر ، وفي تفسير نحو القمر قولان :

﴿القول الأول﴾ المراد منه ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان في النور ، فيبدو في أول الأمر في صورة الهلال ، ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدرا كاملا ، ثم يأخذ في الاتقاص قليلا قليلا ، وذلك هو المحو . إلى أن يعود إلى المحاق .

﴿والقول الثاني﴾ المراد من نحو القمر الكلف الذى يظهر في وجهه يروى أن الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء ، فأرسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فأمر جناحه على وجه القمر

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً
لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا
تَفْصِيلًا «١٢»

﴿البحث الرابع﴾ القياس : إثبات الواو في قوله (ويدع) إلا أنه حذف في المصحف من الكتابة ،
لأنه لا يظهر في اللفظ ، أما لم تحذف في المعنى لأنها في موضع الرفع ، ونظيره (سندع الزبانية . وسوف
يؤت الله المؤمنين . ويوم يناد المناد . فما تغن النذر) ولو كان بالواو والياء لكان صوابا هذا كلام
الفراء . وأقول : إن هذا يدل على أنه سبحانه قد عصم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فإن إثبات
الياء والواو في أكثر ألفاظ القرآن وعدم إثباتهما في هذه المواضع المعدودة يدل على أن هذا
القرآن نقل كما سمع ، وأن أحدا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله .

ثم قال تعالى ﴿ وكان الانسان عجولا ﴾ وفي هذا الانسان قولان :

﴿القول الأول﴾ آدم عليه السلام ، وذلك لأنه لما انتهت الروح إلى سرته نظر إلى جسده
فأعجبه فذهب لينهض فلم يقدر ، فهو قوله (وكان الانسان عجولا)

﴿والقول الثاني﴾ أنه محمول على الجنس ، لأن أحدا من الناس لا يعرى عن عجلة ، ولو تركها
لكان تركها أصلح له في الدين والدنيا . وأقول : بتقدير أن يكون المراد هو القول الأول ، كان
المقصود عائدا إلى القول الثاني ، لأننا إذا حملنا الانسان على آدم عليه الصلاة والسلام كان المعنى أن
آدم الذي كان أصل البشر لما كان موصوفا بهذه العجلة وجب أن تكون هذه صفة لازمة للكل ،
فكان المقصود عائدا إلى القول الثاني والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا
من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في تقرير النظم وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما أوصل إلى الخلق من نعم الدين وهو القرآن
أتبعه ببيان ما أوصل اليهم من نعم الدنيا فقال (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وكما أن القرآن ممتزج
من المحكم والمتشابه ، فكذلك الدهر مركب من النهار والليل . فالحكم كالنهار ، والمتشابه كالليل ، وكما

وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

فان قيل : هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود ، وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالآخرة ، فكيف يليق بهذا الموضع قوله (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) قلنا عنه جوابان : أحدهما : أن أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين ، والثاني : أن بعضهم قال (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) فهم في هذا القول صاروا كالمسكرين للآخرة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا﴾ وفي الآية مباحث : (البحث الأول) اعلم أن وجه النظم هو أن الانسان بعد أن أنزل الله عليه القرآن وخصه بهذه النعمة العظيمة والكرامة الكاملة ، قد يعدل عن التمسك بشرائعه والرجوع الى بياناته ، ويقدم على مالا فائدة فيه فقال (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير)

(البحث الثاني) اختلفوا في المراد من دعاء الانسان بالشر على أقوال :

(القول الأول) المراد منه : النضر بن الحرث ، حيث قال (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) فأجاب الله دعاءه وضربت رقبته ، فكان بعضهم يقول : ائتنا بعذاب الله . وآخرون يقولون : متى هذا الوعد ان كنتم صادقين . وإنما فعلوا ذلك للجهل واعتقاد أن محمداً كاذب فيما يقول .

(والقول الثاني) المراد أنه في وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله ، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة أسيرا فأقبلت بين الليل فقالت له : مالك تئن ؟ فشكى ألم القدر فأرخت له من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبي عليه الصلاة والسلام دعابه فأعلم بشأنه ، فقال عليه الصلاة والسلام «اللهم اقطع يدها» فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «إني سألت الله أن يجعل دعائي على من لا يستحق عذابا من أهلي رحمة لاني بشر أعضب كما تغضبون ، فلترد سودة يدها»

(والقول الثالث) أقول : يحتمل أن يكون المراد : أن الانسان قد يباليغ في الدعاء طلبا لشيء يعتقد أن خيره فيه ، مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره ، وهو يباليغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء ، وإنما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها .

واعلم أن قوله تعالى (دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا) يدل على كون هذا الدين مستقيما . وقوله في هذه الآية (التي هي أقوم) يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان . وأقول : قولنا هذا الشيء أقوم من ذلك ، إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة . ثم كان حصول معنى الاستقامة في إحدى صورتين أكثر وأكمل من حصوله في الصورة الثانية ، وهذا محال لأن المراد من كونه مستقيما كونه حقا وصدقا ، ودخول التفاوت في كون الشيء حقا وصدقا محال . فكان وصفه بأنه أقوم مجازا . إلا أن لفظ الأفعال قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا : الله أكبر أى الله كبير . وقولنا : الأشج والناقص أعدلا بنى مروان أى عادلا بنى مروان ، أو يحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف . والله أعلم .

﴿البحث الثاني﴾ قوله (التي هي أقوم) نعت لموصوف محذوف . والتقدير : يهدى للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق . ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله (ادفع بالتي هي أحسن) أى بالخصلة التي هي أحسن .

أما قوله ﴿ويدشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾ فاعلم أنه تعالى وصف القرآن بثلاثة أنواع من الصفات :

﴿الصفة الأولى﴾ أنه يهدى للتي هي أقوم ، وقد مر تفسيره .

﴿والصفة الثانية﴾ أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير ، وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هاديا إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الإصلاح ، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر ، وذلك هو الأجر الكبير لأن الطريق الأقوم لا بد وأن يفيد الربح الأكبر والنفع الأعظم .

﴿والصفة الثالثة﴾ قوله (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) وذلك لأن الاعتقاد الأصوب والعمل الإصلاح ، كما يجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم . فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل .

واعلم أن قوله (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة) عطف على قوله (أن لهم أجرا كبيرا) والمعنى أنه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بشوابهم وبعقاب أعدائهم ، ونظيره قوله : بشرت زيدا أنه سيعطى وبأن عدوه سيمنع .

فان قيل : كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب ؟

قلنا : مذكور على سبيل التهكم ، أو يقال إنه من باب إطلاق اسم الضدين على الآخر ، كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا «٩» وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَتَيْنَاهُمُ
عَذَابًا أَلِيمًا «١٠»

ثم قال ﴿وإن عدتم عدنا﴾ يعني : أن بعثنا عليكم من بعثنا ، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي ، ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم ، فإن عدتم مرة أخرى الى المعصية عدنا الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى . قال القفال : وإنما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن بنى إسرائيل (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) ثم قال (وإن عدتم عدنا) أى وإلهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي ، وهو التكذيب لمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ماورد في التوراة والانجيل ، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب . فجرى على بنى النضير وقریظة وبنى قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ، ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لاملك لهم ولاسلطان . ثم قال تعالى ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ والحصير فاعيل فيحتمل أن يكون بمعنى الفاعل ، أى وجعلنا جهنم حاصرة لهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول ، أى جعلناها موضعا محصورا لهم ، والمعنى أن عذاب الدنيا وإن كان شديدا قويا إلا أنه قد يتفقت بعض الناس عنه ، والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص عنه ، إما بالموت وإما بطريق آخر ، وأما عذاب الآخرة فإنه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجاء في الخلاص عنه ، فهؤلاء الأقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدا .

قوله تعالى ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح ما فعله في حق عباده المخالسين وهو الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم . وإيتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام ، وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسلية أنواع البلاء عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة ، لا جرم أثني على القرآن فقال (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)

قسطنطين الملك . والله أعلم بأحوالهم ، ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الأقباط .

﴿المسألة الثانية﴾ جواب قوله (فاذا جاء) محذوف تقديره : فاذا جاء ، وعد الآخرة بعثناهم ليسوؤا وجوهكم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم عليه من قوله (بعثنا عليكم عبادا لنا) ثم قال (ليسوؤا وجوهكم) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ يقال : ساءه يسوءه أى أحزنه ، وانما عزا الإساءة الى الوجود ، لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة فى القلب انما تظهر على الوجه . فان حصل الفرح فى القلب ظهرت النضرة والاشراق والاسفار فى الوجه . وان حصل الحزن والخوف فى القلب ظهر الكلوح والغبرة والسواد فى الوجه ، فلهذا السبب عزيت الإساءة الى الوجود فى هذه الآية . ونظير هذا المعنى كثير فى القرآن .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ العامة : ليسوؤا على صيغة المغايبه ، قال الواحدى : وهى موافقة للمعنى ولللفظ . أما المعنى فهو أن المبعوثين هم الذين يسوؤونهم فى الحقيقة ، لأنهم هم الذين يقتلون ويأسرون وأما اللفظ فلأنه يوافق قوله (وليدخلوا المسجد) وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة (ليسوء) على إسناد الفعل الى الواحد ، وذلك الواحد يحتمل أن يكون أحد أشياء ثلاثة : إما اسم الله سبحانه لأن الذى تقدم هو قوله : ثم ردنا وأمددنا ، وكل ذلك ضمير عائذ الى الله تعالى ، وإما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله (بعثنا) والفعل المتقدم يدل على المصدر كقوله تعالى (ولا تحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) وقال الزجاج : ليسوء الوعد وجوهكم . وقرأ الكسائى بالنون وهذا على اسناد الفعل الى الله تعالى كقوله : بعثنا عليكم وأمددنا .

ثم قال تعالى ﴿وليتبروا ماعلوا تبيرا﴾ يقال : تبر الشيء تبرا اذا هلك وتبره أهلكه . قال الزجاج : كل شىء جعلته مكسرا ومفتتا فقد تبرته ، ومنه قيل : تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره . ومنه قوله تعالى (إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) وقوله (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وقوله (ماعلوا) يحتمل ماغلبوا عليه وظفروا به ، ويحتمل ويتبروا ماداموا غالبين ، أى مادام سلطانهم جاريا على بنى إسرائيل ، وقوله (تبيرا) ذكر للمصدر على معنى تحقيق الخبر وإزالة الشك فى صدقه كقوله (وكلم الله موسى تكليما) أى حقا ، والمعنى : وليدمروا ويخربوا ماغلبوا عليه .

ثم قال تعالى ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ والمعنى : لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقاهه منكم يا بنى إسرائيل .

لِّلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴿٨﴾
وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم لما عصوا ساط عليهم أقواما قصدوهم بالقتل والنهب والسبي ، ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة ، فعند ذلك ظهر أنهم إن أطاعوا فقد أحسنوا إلى أنفسهم ، وإن أصروا على المعصية فقد أساءوا إلى أنفسهم ، وقد تقرر في العقول أن الاحسان إلى النفس حسن مطلوب ، وأن الاساءة إليها قبيحة ، فلهذا المعنى قال تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها)

﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدى : لا بد ههنا من إضمار ، والتقدير : وقلنا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، والمعنى : إن أحسنتم بفعل الطاعات فقد أحسنتم الى أنفسكم من حيث أن ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات ، وإن أسأتم بفعل المحرمات أسأتم الى أنفسكم من حيث أن بشؤم تلك المعاصى يفتح الله عليكم أبواب العقوبات .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال النحويون : إنما قال (وإن أسأتم فلها) للتقابل والمعنى : فاليها أو فعلها مع أن حروف الاضافة يقوم بعضها مقام بعض . كقوله تعالى (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) أى إليها .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال أهل الاشارات هذه الآية تدل على أن رحمة الله تعالى غالبه على غضبه بدليل أنه لما حكى عنهم الاحسان أعاده مرتين فقال (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال (وإن أسأتم فلها) ولولا أن جانب الرحمة غالب وإلا لما كان كذلك .

ثم قال تعالى ﴿فاذا جاء وعد الآخرة﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال المفسرون : معناه وعد المرة الأخيرة ، وهذه المرة الأخيرة هي إقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام . قال الواحدى : فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسى أبغض خلقه اليه فسبى بنى اسرائيل وقتل وخرّب بيت المقدس أقول : التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه الصلاة والسلام . ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة ، ومعلوم أن الملك الذى انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له :

إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا ﴿٧﴾ عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم

إذا ثبت هذا فنقول : عدم وقوع ذلك الفساد عنهم يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبا . وإنقلاب حكمه الجازم باطلا ، وإنقلاب علمه الحق جهلا ، وكل ذلك محال ، فكان عدم إقدامهم على ذلك الفساد محالا ، فكان إقدامهم عليه واجبا ضروريا لا يقبل النسخ والرفع ، مع أنهم كلفوا بتركه ولعنوا على فعله ، وذلك يدل على قولنا : إن الله قد يأمر بشيء ويصد عنه ، وقد ينهى عن شيء ويقضى بتحصيله ، فهذا أحد وجوه الاستدلال بهذه الآية .

﴿الوجه الثاني﴾ في الاستدلال بهذه الآية قوله تعالى (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد والمراد أولئك الذين تسلطوا على بني إسرائيل بالقتل والنهب والأسر ، فبين تعالى أنه هو الذي بعثهم على بني إسرائيل ، ولا شك أن قتل بني إسرائيل ونهب أموالهم وأسر أولادهم كان مشتملا على الظلم الكثير والمعاصي العظيمة . ثم إنه تعالى أضاف كل ذلك إلى نفسه بقوله (ثم بعثنا عليكم) وذلك يدل على أن الخير والشر والطاعة والمعصية من الله تعالى .

أجاب الجبائي عنه من وجهين : الأول : المراد من (بعثنا عليكم) هو أنه تعالى أمر أولئك الأقوام بغزو بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الفساد ، فأضيف ذلك الفعل إلى الله تعالى من حيث الأمر والثاني : أن يكون المراد خلعنا بينهم وبين بني إسرائيل ، وما ألقينا الحرف من بني إسرائيل في قلوبهم . وحاصل الكلام أن المراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع .

واعلم أن الجواب الأول ضعيف : لأن الذين قصدوا تخريب بيت المقدس وإحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال إنهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى . والجواب الثاني أيضا ضعيف ، لأن البعث على الفعل عبارة عن التقوية عليه وإلقاء الدواعي القوية في القلب . وأما التخلية فعبارة عن عدم المنع ، والأول فعل ، والثاني ترك ، فتفسير البعث بالتخلية تفسير لأحد الضدين بالآخر وأنه لا يجوز . فثبت صحة ما ذكرناه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تبييرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن

تزوج بامرأة من بنى اسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بنى اسرائيل إلى بيت المقدس ففعل ، وبعده مدة قامت فيهم الانبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا ، فهو قوله (ثم رددنا لكم الكرة عليهم)

﴿والقول الثاني﴾ إن المراد من قوله (بعثنا عليكم عبادا لنا) أن الله تعالى سلط عليهم جالوت حتى أهلكتهم وأبادهم وقوله (ثم رددنا لكم الكرة) هو أنه تعالى قوى طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود حتى قتل جالوت فذاك هو عود الكرة .

﴿والقول الثالث﴾ إن قوله (بعثنا عليكم عبادا لنا) هو أنه تعالى ألقى الرعب من بنى إسرائيل في قلوب الجوس ، فلما كثرت المعاصي فيهم أزال ذلك الرعب عن قلوب الجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وإفنائهم وإهلاكهم .

واعلم أنه لا يتعاق كثير غرض في معرفة أوائل الأقسام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط عليهم أقواما قتلوهم وأفنوهم .

ثم قال تعالى ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ قال الليث : الجوس والجوسان التردد خلال الديار ، والبيوت في الفساد ، والحلال هو الانفراج بين الشيتين ، والديار ديار بيت المقدس ، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير جاسوا فعن ابن عباس فتشوا وقال أبو عبيدة : طلبوا من فيها . وقال ابن قتبية : عاثوا وأفسدوا ، وقال الزجاج : طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه . قال الواحدى : الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ما قالوه .

ثم قال تعالى ﴿وكان وعدا مفعولا﴾ أى كان قضاء الله بذلك قضاء جزما حتما لا يقبل النقض والنسخ ، ثم قال تعالى (ثم رددنا لكم الكرة) أى أهلكتنا أعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم ، (وجعلناكم أكثر نفيرا) النفير العدد من الرجال وأصله من نفر مع الرجل من عشيرته وقومه ، والنفير والنافروا أحد ، كالقدير والقادر ، وذكرنا معنى نفر عند قوله (فلولا نفر من كل فرقة) وقوله (انفروا خفافا)

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في مسألة القضاء والقدر من وجوه : الأول : أنه تعالى قال (وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا) وهذا القضاء أقل احتمالاته . الحكم الجزم . والخبر الحتم ، ثبت أنه تعالى أخبر عنهم أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصى خبرا جزما حتما لا يقبل النسخ ، لأن القضاء معناه الحكم الجزم على مباشر حناه . ثم إنه تعالى أكد ذلك القضاء مزيدا تأكيد فقال (وكان وعدا مفعولا)

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
 عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ
 فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ
 وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأممدناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾
 اعلم أنه تعالى لما ذكر إنعامه على بني إسرائيل بانزال التوراة عليهم . وبأنه جعل التوراة هدى لهم ، بين أنهم ما اهدتوا بهدها ، بل وقعوا في الفساد فقال (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين) وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ القضاء في اللغة عبارة عن قطع الأشياء عن احكام ، ومنه قوله (فقضاهن سبع سموات) وقول الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود

فقوله (وقضينا) أي أعلنناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا اليهم . ولفظ (إلى) صلة للإيحاء ، لأن معنى قضينا أوحينا اليهم كذا . وقوله (لتفسدن) يريد المعاصي وخلاف أحكام التوراة وقوله (في الأرض) يعني أرض مصر وقوله (ولتعلمن علوا كبيرا) يعني أنه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاء عظيم ، لأنه يقال لكل متجبر : قد علا وتعظم ، ثم قال (فاذا جاء وعد أولاهما) يعني أولى المرتين (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) والمعنى : أنه إذا جاء وعد الفساق في المرة الأولى أرسلنا عليكم قوما أولى بأس شديد ، ونجدة وشدة ، والبأس القتال ، ومنه قوله تعالى (وحين البأس) ومعنى بعثنا عليكم أرسلنا عليكم وخلينا بينكم وبينهم خاذلين إياكم . واختلفوا في أن هؤلاء العباد من هم ؟ قيل : إن بني إسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء ، وذلك أول الفسادين فسلط الله عليهم بختنصر . فقتل منهم أربعين ألفا من يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرض نفسه فبقوا : هناك في الذل إلى أن قبض الله ملكا آخر غزا أهل بابل وانفق أن

﴿البحث الثالث﴾ قوله (وكيلا) أى ربا تكون أموركم اليه . أقول حاصل الكلام فى الآية : أنه تعالى ذكر تشرىف محمد صلى الله عليه وسلم بالاسراء ، ثم ذكر عقيبه تشرىف موسى عليه الصلاة والسلام بانزال التوراة عليه ، ثم وصف التوراة بكونها هدى . ثم بين أن التوراة إنما كان هدى لاشتاله على النهى عن اتخاذ غير الله وكيلا ، وذلك هو التوحيد ، فرجع حاصل الكلام بعد رعاية هذه المراتب أنه لا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا منقبة أعظم من أن يصير المرء غرقا فى بحر التوحيد وأن لا يعول فى أمر من الأمور إلا على الله ، فان نطق ، نطق بذكر الله ، وإن تفكر ، تفكر فى دلائل تنزيه الله تعالى ، وإن طلب ، طلب من الله . فيكون كله لله وبالله ، ثم قال (ذرية من حملنا مع نوح) وفى نصب ذرية وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أن يكون نصبا على النداء يعنى : يا ذرية من حملنا مع نوح وهذا . قول مجاهد لأنه قال : هذا نداء قال الواحدى : وإنما يصح هذا على قراءة من قرأ بالتاء كأنه قيل : لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا مع نوح فى السفينة قال قتادة : الناس كلهم ذرية نوح لأنه كان معه فى السفينة ثلاثة بنين : سام . وحام . ويافث . فالناس كلهم من ذرية أولئك ، فكان قوله يا ذرية من حملنا مع نوح ، قائما مقام قوله (يا أيها الناس)

﴿الوجه الثانى﴾ فى نصب قوله (ذرية) أن الاتخاذ فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله (واتخذ الله ابراهيم خليلا) والتقدير : لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دونى وكيلا ، ثم إنه تعالى أتى على نوح فقال (إنه كان عبدا شكورا) أى كان كثير الشكر ، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أكل قال «الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاجنى» وإذا شرب قال «الحمد لله الذى أسقانى ولو شاء أظمأنى» وإذا اكتسى قال «الحمد لله الذى كسانى ولو شاء أعرانى» وإذا احتذى قال «الحمد لله الذى حذانى ولو شاء أحفانى» وإذا قضى حاجته قال «الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ولو شاء حبسه» وروى أنه كان إذا أراد الافطار عرض طعامه على من آمن به فان وجدته محتاجا آثره به .

فان قيل : قوله (إنه كان عبدا شكورا) ما وجه ملايمته لما قبله ؟

قلنا : التقدير كأنه قال : لا تتخذوا من دونى وكيلا ولا تشركو أبى ، لأن نوحا عليه الصلاة والسلام كان عبدا شكورا ، وإنما يكون العبد شكورا لو كان موحدا لا يرى حصول شىء من النعم إلا من فضل الله . وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام ، كما أن آباءكم اقتدوا به والله أعلم .

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكَيْلًا «٢» ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا «٣»

﴿المسألة الرابعة﴾ أما العروج الى السموات والى ما فوق العرش ، فهذه الآية لا تدل عليه .
ومنهم من استدل عليه بأول سورة والنجم ، ومنهم من استدل عليه بقوله تعالى (لتركن طبقا عن
طبق) وتفسيرهما مذكور في موضعه ، وأما دلالة الحديث فكما سلف والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا
ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن الكلام في الآية التي قبل هذه الآية ، وفيها انتقل من الغيبة
الى الخطاب ومن الخطاب الى الغيبة ، لأن قوله (سبحان الذي أسرى) فيه ذكر الله على سبيل الغيبة
وقوله (باركنا حوله لئريه من آياتنا) فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور وقوله (إنه هو السميع
البصير) يدل على الغيبة وقوله (وآتينا موسى الكتاب) الخ يدل على الحضور وانتقال الكلام من
الغيبة إلى الحضور وبالعكس يسمى صنعة الالتفات .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أسرى
به ، وذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه فقال
(وآتينا موسى الكتاب) بمعنى التوراة (وجعلناه هدى) أى يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من
ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق وقوله (ألا تتخذوا من دوني وكيلا) وفيه أبحاث
﴿البحث الأول﴾ قرأ أبو عمرو (ألا يتخذوا) بالياء خبرا عن بنى إسرائيل ، والباقون بالتاء
على الخطاب ، أى قلنا لهم لا تتخذوا .

﴿البحث الثانى﴾ قال أبو على الفارسي : إن قوله (ألا تتخذوا) فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن
تكون (أن) ناصبة للفعل فيكون المعنى . وجعلناه هدى لئلا تتخذوا . وثانيها : أن تكون (أن)
بمعنى أى التي للتفسير . وانصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قراءة العامة كما انصرف منها إلى
الخطاب . والأمر في قوله (وانطلق الملا منهم أن امشوا) فكذلك انصرف من الغيبة الى النهى
في قوله (ألا تتخذوا) وثالثها : أن تكون (أن) زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمرة والتقدير :
وجعلناه هدى لبني إسرائيل فقلنا لا تتخذوا من دوني وكيلا .

به فكان حديث المعراج سيدا لفتنة الناس ، فثبت أن ذلك رؤيا رآه في المنام .
 ﴿الشبهة الرابعة﴾ أن حديث المعراج اشتمل على أشياء بعيدة ، منها ماروى من شق بطنه وتطهيره
 بماء زمزم وهو بعيد ، لأن الذى يمكن غسله بالماء هو النجاسات العينية ولا تأثير لذلك فى تطهير
 القلب عن العقائد الباطلة والأخلاق المذمومة ، ومنها ماروى من ركوب البراق وهو بعيد ، لأنه
 تعالى لما سيره من هذا العالم إلى عالم الأفلاك ، فأى حاجة إلى البراق ، ومنها ماروى أنه تعالى
 أوجب خمسين صلاة ثم إن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى إلى أن
 عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه الصلاة والسلام . قال القاضى : وهذا يقتضى نسخ
 الحكم قبل حضوره ، وأنه يوجب البداء وذلك على الله تعالى محال ، فثبت أن ذلك الحديث مشتمل
 على ما لا يجوز قبوله فكان مردودا .

والجواب عن الوجوه العقلية قد سبق فلانعيدها .

﴿والجواب عن الشبهة الثانية﴾ ما ذكره الله تعالى وهو قوله (لنريه من آياتنا) وهذا كلام
 مجمل وفى تفصيله وشرحه وجوه : الأول : أن خيرات الجنة عظيمة ، وأهوال النار شديدة ، فلو أنه
 عليه الصلاة والسلام ماشاهدهما فى الدنيا ، ثم شاهدهما فى ابتداء يوم القيامة فربما رغب فى خيرات
 الجنة أو خاف من أهوال النار ، أما لما شاهدهما فى الدنيا فى ليلة المعراج فحينئذ لا يعظم وقعهما
 فى قلبه يوم القيامة فلا يبقى مشغول القلب بهما ، وحينئذ يتفرغ للشفاعة . الثانى : لا يمتنع أن تكون
 مشاهدته ليلة المعراج للأتبياء والملائكة ، صارت سببا لتكامل مصلحته أو مصلحتهم . الثالث :
 أنه لا يبعد أنه اذا صعد الفلك وشاهد أحوال السموات والكرسى والعرش ، صارت مشاهدة
 أحوال هذا العالم وأهواله حقيرة فى عينه ، فتحصل له زيادة قوة فى القلب باعتبارها يكون فى شروعه
 فى الدعوة إلى الله تعالى أكمل . وقلة التفاتة إلى أعداء الله تعالى أقوى ، يبين ذلك أن من عين قدرة الله
 تعالى فى هذا الباب ، لا يكون حاله فى قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره فى الجهاد وغيره
 الا أضعاف ما يكون عليه حال من لم يعاين .

واعلم أن قوله (لنريه من آياتنا) كالدلالة على أن فائدة ذلك الاسراء مختصة به وعائدة إليه
 على سبيل التعيين .

﴿والجواب عن الشبهة الثالثة﴾ أنا عند الانتهاء الى تفسير تلك الآية فى هذه السورة نبين أن
 تلك الرؤيا رؤيا عيان لا رؤيا منام .

﴿والجواب عن الشبهة الرابعة﴾ لا اعتراض على الله تعالى فى أفعاله فهو يفعل ما يشاء ويحكم
 ما يريد ، والله أعلم .

فان قالوا : أليس أنه يضيف ذاته إلى نفسه ، فيقول ذاتي ونفسي فيلزمكم أن تكون نفسه مغايرة لذاته ، وهذا محال .

قلنا : نحن لا نتمسك بمجرد اللفظ حتى يلزمنا ما ذكرتموه ، بل إنما نتمسك بمحض العقل ، فان صريح العقل يدل على أن الانسان موجود واحد . وذلك الشيء الواحد يأخذ بآلة اليد ويبصر بآلة العين ، ويسمع بآلة الأذن . فالانسان شيء واحد ، وهذه الأعضاء آلات له في هذه الأفعال . وذلك يدل على أن الانسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والآلات ، فثبت بهذه الوجوه أن الانسان شيء مغاير لهذه البنية ولهذا الجسد .

إذا ثبت هذا فتقول (سبحان الذي أسرى بعبده) المراد من العبد جوهر الروح وعلى هذا التقدير فلم يبق في الآية دلالة على حصول الاسراء بالجسد .

فان قالوا : فالاسراء بالروح ليس بأمر مخالف للعادة ، فلا يليق به أن يقال (سبحان الذي أسرى بعبده)

قلنا : هذا أيضا بعيد ، لأنه لا يبعد أن يقال : إنه حصل لروحه من أنواع المكاشفات والمشاهدات ما لم يحصل لغيره البتة ، فلا جرم كان هذا الكلام لا نقا به . فهذا تقرير وجه السؤال على الاستدلال بهذه الآية في إثبات المعراج بالروح والجسد معا .

والجواب : أن لفظ العبد لا يتناول إلا مجموع الروح والجسد ، والدليل عليه قوله تعالى (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى) ولا شك أن المراد من العبد ههنا مجموع الروح والجسد . وقال أيضا في سورة الجن (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) والمراد بمجموع الروح والجسد فكذا ههنا ، وأما الخبر فهو الحديث المروي في الصحيح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ، ثم منه إلى السموات ، واحتج المنكرون له بوجوه : أحدها : بالوجوه العقلية وهي ثلاثة : أولها : أن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة . وثانيها : أن صعود الجرم الثقيل إلى السموات غير معقول . وثالثها : أن صعوده إلى السموات يوجب انخراق الأفلاك ، وذلك محال .

(والشبهة الثانية) أن هذا المعنى لو صح لكان أعظم من سائر المعجزات . وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه في ادعاء النبوة . فاما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه أحد ولا يشاهده أحد . فانه يكون ذلك عبثا ، وذلك لا يليق بالحكيم .

(والشبهة الثالثة) تمسكوا بقوله (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) وماتلك الرؤيا الاحديث المعراج ، وإنما كان فتنة للناس؟ لأن كثيرا ممن آمن به لما سمع هذا الكلام كذبه وكفر

حصولها في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممتعاً ، والذي يدل عليه أننا بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهياتها ، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام ، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد صلى الله عليه وسلم أمر ممكن الوجود في نفسه .

وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات ، و ثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن ، فوجب كونه تعالى قادراً عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه . أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب ، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام ، بل هو حاصل في جميع المعجزات ، فانقلاب العصا ثعباناً تبلغ سبعين ألف حبل من الحبال والعصى ، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب ، وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصم ، وظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب ، وكذا القول في جميع المعجزات فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع ، لزم الجزم بفساد القول بأثبتات المعجزات . وإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والابطال فكذا ههنا ، فهذا تمام القول في بيان أن القول بالمعراج ممكن غير ممتنع والله أعلم .

(المقام الثانى) في البحث عن وقوع المعراج قال أهل التحقيق : الذى يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر ، أما القرآن فهو هذه الآية ، وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح ، فوجب أن يكون الاسراء حاصلًا لمجموع الجسد والروح .

واعلم أن هذا الاستدلال موقوف على أن الانسان هو الروح وحده أو الجسد وحده أو مجموع الجسد والروح ، أما القائلون بأن الانسان هو الروح وحده ، فقد احتجوا عليه بوجوه : أحدها : أن الانسان شيء واحد باق من أول عمره إلى آخره ، والأجزاء البدنية في التبدل والتغير والانتقال والباقي غير متبدل فالانسان مغاير لهذا البدن . وثانيها : أن الانسان قد يكون عارفاً بذاته المخصوصة حال ما يكون غافلاً عن جميع أجزائه البدنية ، والمعلوم مغاير للمغفول عنه ، فالانسان مغاير لهذا البدن وثالثها : أن الانسان يقول بمقتضى فطرته السليمة يدي . ورجلي . ودماعى . وقلبي ، وكذا القول في سائر الأعضاء فيضيف كلها إلى ذاته المخصوصة . والمضاف غير المضاف إليه فداته المخصوصة وجب أن تكون مغايرة لكل هذه الأعضاء .

يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بنى آدم . ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوسواس في قلوب بنى آدم ، فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس فلائذ يسلموا جواز مثلها في حق أكبر الأنبياء كان أولى ، وهذا الإلزام قوى على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان ، أما الذين يقولون إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني ، فهذا الإلزام غير وارد عليهم ، إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل .

فان قالوا : هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأهم أجسام لطيفة ، ولا يتمتع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها ، أما الانسان فانه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيما ؟

قلنا : نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد يمكن في نفس الأمر ، وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضا ممكنة الحصول في جسم البدن الانساني ، فذاك مقام آخر سيأتى تقريره إن شاء الله تعالى ﴿الوجه الخامس﴾ أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام (غدوها شهرور وواحها شهر) بل نقول : الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة ، وذلك أيضا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة ﴿الوجه السادس﴾ أن القرآن يدل على أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك) وإذا كان يمكننا في حق بعض الناس . علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود .

﴿الوجه السابع﴾ إن من الناس من يقول الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينه ويتصل بالمبصر ثم إذا فتحنا العين ونظرنا الى رجل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا الى رجل في تلك اللحظة اللطيفة ، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لامن الممتنعات . فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة الى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه .

﴿المقدمة الثانية﴾ في بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون

أولى بالامكان ، فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة إلى ما فوق العرش فى مقدار ثلث من الليل أمر ممكن فى نفسه ، وإذا كان كذلك كان حصوله فى كل الليل أولى بالامكان والله أعلم .

﴿الوجه الثانى﴾ وهو أنه ثبت فى الهندسة أن قرص الشمس يساوى كرة الأرض مائة وستين وكذا مرة . ثم إننا نشاهد أن طلوع القرص يحصل فى زمان لطيف سريع ، وذلك يدل على أن بلوغ الحركة فى السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن فى نفسه .

﴿الوجه الثالث﴾ أنه كما يستبعد فى العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش ، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانى من فوق العرش إلى مركز العالم ، فإن كان القول بمعراج محمد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الواحدة متمتعاً فى العقول ، كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة والسلام من العرش إلى مكة فى اللحظة الواحدة متمتعاً ، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طبعاً فى نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة ، فثبت أن القائمين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحد ، يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه الصلاة والسلام فى اللحظة من العرش إلى مكة ، ولما كان ذلك باطلاً كان ما ذكره أيضاً باطلاً .

فإن قالوا : نحن لانقول إن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ينتقل من مكان إلى مكان ، وإنما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد صلى الله عليه وسلم حتى يظهر فى روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضراً متجلياً فى ذات جبريل عليه الصلاة والسلام .

قلنا : تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء ، فأما جمهور المسلمين فهم مقرون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم . وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة ، وإذا كان كذلك كان الالتزام المذكور قوياً ، روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل . وذهبوا إلى أبى بكر وقالوا له : إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر : إن كان قد قال ذلك فهو صادق ، ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل ، فكلمها ذكر شيئاً قال أبو بكر صدقت . فلما تم الكلام قال أبو بكر أشهد أنك رسول الله حقاً ، فقال له الرسول : وأنا أشهد أنك الصديق حقاً . وحاصل الكلام أن أبابكر رضى الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أ كذبه فى هذا ؟

﴿الوجه الرابع﴾ أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس ويسلمون أنه هو الذى

مراد من
النزول

المسجد فأما أنه دخل ذلك المسجد أم لا فليس فى اللفظ دلالة عليه ، وقوله (لنريه من آياتنا) يعنى مارأى فى تلك الليلة من العجائب والآيات التى تدل على قدرة الله تعالى .

فان قالوا : قوله (لنريه من آياتنا) يدل على أنه تعالى ما أراه إلا بعض الآيات ، لأن كلمة (من) تفيد التبويض ، وقال فى حق إبراهيم (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) فيلزم أن يكون معراج إبراهيم عليه السلام أفضل من معراج محمد صلى الله عليه وسلم .

قلنا : الذى رآه إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، والذى رآه محمد صلى الله عليه وسلم بعض آيات الله تعالى ، ولا شك أن آيات الله أفضل .

ثم قال ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أى أن الذى أسرى بعبده هو السميع لأقوال محمد ، البصير بأفعاله ، العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء ، مقرونة بالصدق والصفاء ، فلهذا السبب خصه الله تعالى بهذه الكرامات ، وقبل : المراد سميع لما يقولون الرسول فى هذا الأمر ، بصير بما يعملون فى هذه الواقعة

﴿المسألة الثانية﴾ اختلف فى كيفية ذلك الاسراء ، فالأكثر من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأقلون قالوا : إنه ما أسرى إلا بروحه حكى عن محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن حذيفة أنه قال ذلك رؤيا . وأنه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أسرى بروحه . وحكى هذا القول أيضا عن عائشة رضى الله عنها ، وعن معاوية رضى الله عنه . واعلم أن الكلام فى هذا الباب يقع فى مقامين : أحدهما : فى إثبات الجواز العقلى . والثانى : فى الوقوع .

﴿أما المقام الأول﴾ وهو إثبات الجواز العقلى . فنقول : الحركة الواقعة فى السرعة إلى هذا الحد ممكنة فى نفسها . والله تعالى قادر على جميع الممكنات ، وذلك يدل على أن حصول الحركة فى هذا الحد من السرعة غير ممتنع ، فنفتقر ههنا إلى بيان مقدمتين :

﴿المقدمة الأولى﴾ فى إثبات أن الحركة الواقعة إلى هذا الحد ممكنة فى نفسها ويدل عليه وجوه :
 ﴿الوجه الأول﴾ أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور وقد ثبت فى الهندسة أن نسبة القطر الواحد إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع ، فيلزم أن تكون نسبة نصف القطر إلى نصف الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع . وبتقدير أن يقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم فهو لم يتحرك إلا بمقدار نصف القطر فلما حصل فى ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر

تعالى (إن لك في النهار سبحاً) أي تباعداً . فمعنى : سبح الله تعالى ، أي بعبده ونزهه عما لا ينبغي وتتمام المباحث العقلية في لفظ التسبيح قد ذكرناها في أول سورة الحديد ، وقد جاء في لفظ التسبيح معان أخرى : أحدها : أن التسبيح يذكر بمعنى الصلاة ، ومنه قوله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين) أي من المصلين ، والسبحة الصلاة النافلة ، وإنما قيل للمصلي مسبح : لأنه معظم لله بالصلاة ومنزه له عما لا ينبغي . وثانيها : ورد التسبيح بمعنى الاستثناء في قوله تعالى (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون) أي تستثنون وتأويله أيضاً يعود إلى تعظيم الله تعالى في الاستثناء بمشيئته ، وثالثها : جاء في الحديث « لأحرقت سبحات وجهه ما أدركت من شيء » قيل معناه نور وجهه ، وقيل سبحات وجهه ، نور وجهه الذي إذا رآه الرائي قال : سبحان الله ، وقوله (أسرى) قال أهل اللغة : أسرى وسرى لغتان : وقوله (بعبده) أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام ، وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال : سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري قال : لما وصل محمد صلوات الله عليه إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في العارج أوحى الله تعالى إليه : يا محمد بم أشرفك ؟ قال « يارب بأن تنسبني إلى نفسك بالعبودية » فأنزل الله فيه (سبحان الذي أسرى بعبده) وقوله (ليلاً) نصب على الظرف .

فان قيل : الاسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟ .

قلنا : أراد بقوله (ليلاً) بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء . وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية ، واختلفوا في ذلك الليل قال مقاتل : كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة ، ونقل صاحب الكشاف عن أنس والحسين أنه كان ذلك قبل البعثة ، وقوله (من المسجد الحرام) اختلفوا في المكان الذي أسرى به منه ، فقيل هو المسجد الحرام بعينه . وهو الذي يدل عليه ظاهر لفظ القرآن ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق » وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب . والمراد على هذا القول بالمسجد الحرام الحرم لا حاطته بالمسجد والتباسه به ، وعن ابن عباس الحرم كله مسجد ، وهذا قول الأكثرين وقوله (إلى المسجد الأقصى) اتفقوا على أن المراد منه بيت المقدس . وسمى بالأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام وقوله (الذي باركنا حوله) قيل بالثمار والأزهار ، وقيل بسبب أنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة .

واعلم أن كلمة (إلى) لانتهاه الغاية فدلوا قوله (إلى المسجد الأقصى) أنه وصل إلى حد ذلك

سورة الاسراء

مكية . الا الآيات : ٢٦ و ٢٢ و ٢٢ و ٥٧ ومن آية ٧٣ الى غاية آية ٨٠ فمدنية
وآياتها : ١١١ ، نزلت بعد القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «١»

سورة بني إسرائيل

عدها : مائة آية وعشر آيات

عن ابن عباس أنها مكية . غير قوله (وإن كادوا يستفزونك من الأرض) الى قوله (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) فانها مدنيات ، نزلت حين جاء وفد ثقيف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله
لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال النحويون : (سبحان) اسم علم للتسبيح . يقال : سبحت الله تسبيحاً
وسبحانا ، فالتسبيح هو المصدر . وسبحان اسم علم للتسبيح كقولك : كفرت اليمين تكفيراً وكفرانا
وتفسيره تنزيه الله تعالى من كل سوء . قال صاحب النظم : السبح في اللغة التباعد ، يدل عليه قوله

قال المصنف رحمه الله : تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة بزمان معتدل ،
وقال رحمه الله : الحق عزيز . والطريق بعيد . والمركب ضعيف . والقرب بعد . والوصل هجر .
والحقائق مصونة . والمعاني في غيب الغيب محصونة . والأسرار فيما وراء العز مخزونة ، ويبد الخلق
القليل والقال والكامل ليس الا الله ذى الاكرام والجلال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا
محمد النبي الأسمى وآله وصحبه وسلم .

(البحث الثالث) هذا من الكلام المقلوب ، لأن الضيق صفة ، والصفة تكون حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة ، فكان المعنى فلا يكن الضيق فيك . الا أن الفائدة في قوله (ولا تك في ضيق) هو أن الضيق اذا عظم وقوى صار كالشيء المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالقميص المحيط به ، فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنى والله أعلم .

(المرتبة الرابعة) قوله (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وهذا يجري مجرى التهديد لأن في المرتبة الأولى رغب في ترك الانتقام على سبيل الرمز . وفي المرتبة الثانية عدل عن الرمز الى التصريح وهو قوله (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وفي المرتبة الثالثة أمرنا بالصبر على سبيل الجزم ، وفي هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد في فعل الانتقام فقال (إن الله مع الذين اتقوا) عن استيفاء الزيادة (والذين هم محسنون) في ترك أصل الانتقام ، فان أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين . ومن وقف على هذا الترتيب عرف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرفق واللطف مرتبة فمرتبة ، ولما قال الله لرسوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ذكر هذه المراتب الأربعة ، تنبيها على أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعة على هذا الوجه ، وعند الوقوف على هذه اللطائف يعلم العاقل أن هذا الكتاب الكريم بحر لا ساحل له .

(المسألة الثالثة) قوله (إن الله مع الذين اتقوا) معيته بالرحمة والفضل والرتبة ، وقوله (الذين اتقوا) إشارة إلى التعظيم لأمر الله تعالى . وقوله (والذين هم محسنون) إشارة الى الشفقة على خلق الله ، وذلك يدل على أن كمال السعادة للانسان في هذين الأمرين أعنى التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، وعبر عنه بعض المشايخ فقال : كمال الطريق صدق مع الحق . وخلق مع الخلق ، وقال الحكماء : كمال الانسان في أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وعن هرم ابن حيان أنه قيل له عند القرب من الوفاة أوص ، فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي ، ولكنني أوصيكم بخواتيم سورة النحل .

(المسألة الرابعة) قال بعضهم : إن قوله تعالى (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) منسوخ بآية السيف ، وهذا في غاية البعد ، لأن المقصود من هذه الآية تعليم حسن الأدب في كيفية الدعوة إلى الله تعالى ، وترك التعدي وطلب الزيادة ، ولا تعلق لهذه الأشياء بآية السيف ، وأكثر المفسرين مشغوفون بتكثير القول بالذيخ . ولا أرى فيه فائدة والله أعلم بالصواب .

﴿المرتبة الأولى﴾ قوله (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به) يعنى أن رغبتهم فى استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه ، فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله ورحمته وفى قوله (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به) دليل على أن الأولى له أن لا يفعل ، كما أنك إذا قلت للمريض : إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح ، كان معناه أن الأولى بك أن لا تأكله ، فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على أن الأولى تركه .

﴿المرتبة الثانية﴾ الانتقال من التعريض إلى التصريح وهو قوله (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام ، لأن الرحمة أفضل من القسوة والانتفاع أفضل من الايلام .

﴿المرتبة الثالثة﴾ وهو ورود الأمر بالجزم بالترك وهو قوله (واصبر) لأنه فى المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى ، وفى هذه المرتبة الثالثة صرح بالأمر بالصبر ، ولما كان الصبر فى هذا المقام شاقاً شديداً ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال (وما صبرك إلا بالله) أى بتوفيقه ومعونته وهذا هو السبب الكلى الأصلى المفيد فى حصول الصبر وفى حصول جميع أنواع الطاعات . ولما ذكر هذا السبب الكلى الأصلى ذكر بعده ما هو السبب الجزئى القريب فقال (ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون) وذلك لأن إقدام الانسان على الانتقام ، وعلى إنزال الضرر بالغير لا يكون إلا عند هيجان الغضب . وشدة الغضب لا تحصل إلا لأحد أمرين : أحدهما : فوات نفع كان حاصله فى الماضى واليه الاشارة بقوله (ولا تحزن عليهم) قيل معناه : ولا تحزن على قتلى أحد ، ومعناه لا تحزن بسبب فوت أولئك الأصدقاء . ويرجع حاصله الى فوت النفع . والسبب الثانى : لشدة الغضب توقع ضرر فى المستقبل ، واليه الاشارة بقوله (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) ومن وقف على هذه اللطائف عرف أنه لا يمكن كلام أدخل فى الحسن والضبط من هذا الكلام ببقى فى لفظ الآية مباحث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ ابن كثير (ولاتك فى ضيق) بكسر الضاد ، وفى النمل مثله ، والباقون : بفتح الضاد فى الحرفين . أما الوجه فى القراءة المشهورة فأمرور : قال أبو عبيدة : الضيق بالكسر فى قلة المعاش والمساكن ، وما كان فى القلب فانه الضيق . وقال أبو عمرو : الضيق بالكسر الشدة والضيق بفتح الضاد الغم ، وقال القتيبي : ضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين واينولين . وبهذا الطريق قلنا إنه تصح قراءة ابن كثير .

﴿البحث الثانى﴾ قرئ (ولاتكن فى ضيق)

﴿القول الأول﴾ وهو الذى عليه العامة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة وقد مثلوا به . قال « والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك » فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عما أراد . وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء . وأبى بن كعب والشعبي وعلى هذا قالوا إن سورة النحل كلها مكية إلا هذه الآيات الثلاث

﴿والقول الثانى﴾ أن هذا كان قبل الأمر بالسيف والجهاد . حين كان المسلمون قد أمروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبدؤوا بالقتال وهو قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذى يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وفى هذه الآية أمر الله بأن يعاقبوا بمثل ما يصيبهم من العقوبة ولا يزيدوا .

﴿والقول الثالث﴾ أن المقصود من هذه الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم ، وهذا قول مجاهد والنخعى وابن سيرين قال ابن سيرين : إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ منه مثله ، وأقول : إن حمل هذه الآية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب فى كلام الله تعالى وذلك يطرق الطعن اليه وهو فى غاية البعد ، بل الأصوب عندي أن يقال : المراد أنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بأحد الطرق الثلاثة وهى الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالطريق الأحسن . ثم إن تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم ، وبالاعراض عنه والحكم عليه بالكفر والضلالة وذلك مما يشوش القلوب ويوحش الصدور ، ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعى بالقتل تارة ، وبالضرب ثانياً وبالشتم ثالثاً ، ثم إن ذلك المحق إذا شاهد تلك السفاهات ، وسمع تلك المشاغبات لابد وأن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب ، فعند هذا أمر المحقين فى هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة ، فهذا هو الوجه الصحيح الذى يجب حمل الآية عليه .

فان قيل : فهل تقدحون فيما روى أنه عليه السلام ترك العزم على المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الآية ؟

قلنا : لا حاجة إلى القدح فى تلك الرواية ، لأننا نقول : تلك الواقعة داخلية فى عموم هذه الآية فيمكن التمسك فى تلك الواقعة بعموم هذه الآية ، إنما الذى ينازع فيه أنه لا يجوز قصر هذه الآية على هذه الواقعة ، لأن ذلك يوجب سوء الترتيب فى كلام الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب :

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَإِنَّ صَبْرَهُمْ لَهُو خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ «١٢٦» وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ

مِمَّا يَمْكُرُونَ «١٢٧» إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ «١٢٨»

للدعوة وهو الالتزام والاحكام . فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الاحسن ، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيها على أنه لا يحصل الدعوة ، وإنما الغرض منه شيء آخر ، والله أعلم .

واعلم أن هذه المباحث تدل على أنه تعالى أدرج في هذه الآية هذه الأسرار العلية الشريفة مع أن أكثر الخلق كانوا غافلين عنها ، فظهر أن هذا الكتاب الكريم لا يهتدى إلى مافيه من الأسرار إلا من كان من خواص أولى الأبصار .

ثم قال تعالى ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ والمعنى : أنك مكلف بالدعوة إلى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة ، فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك ، فهو تعالى أعلم بالضالين وأعلم بالمهتدين ، والذي عندي في هذا الباب أن جواهر النفوس البشرية مختلفة بالماهية ، فبعضها نفوس مشرقة صافية قليلة التعلق بالجسمانيات كثيرة الانجذاب الى عالم الروحانيات . وبعضها مظلمة كدرة قوية التعلق بالجسمانيات عديمة الالتفات الى الروحانيات ، ولما كانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها ، لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها ، فلهذا قال تعالى : اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع في حصول الهداية للكل ، فإنه تعالى هو العالم بضلال النفوس الضالة الجاهلة وباشراق النفوس المشرقة الصافية فلكل نفس فطرة مخصوصة وماهية مخصوصة ، كما قال (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وإن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر والذين هم محسنون﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدي : هذه الآية فيها ثلاثة أقوال :

وهي الموعظة الحسنة . وثالثها : الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إزام الخصوم وإخامهم . وذلك هو الجدل ، ثم هذا الجدل على قسمين :

﴿ القسم الأول ﴾ أن يكون دليلا مركبا من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور . أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل ، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن .

﴿ والقسم الثاني ﴾ أن يكون ذلك الدليل مركبا من مقدمات باطلة فاسدة إلا أن قائلها يحاول ترويحها على المستمعين بالسفاهة والشغب . والحيل الباطلة ، والطرق الفاسدة ، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل إنما اللائق بهم هو القسم الأول ، وذلك هو المراد بقوله تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) فثبت بما ذكرنا انحصار الدلائل والحجج في هذه الأقسام الثلاثة المذكورة في هذه الآية .

إذا عرفت هذا فنقول : أهل العلم ثلاث طوائف : الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية ، والمكاملة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهي الحكمة ، والقسم الثاني الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية ، والمكاملة اللائقة هؤلاء المجادلة التي تفيد الإخام والالزام ، وهذان القسمان هما الطرفان . فالأول : هو طرف الكمال . والثاني : طرف النقصان .

﴿ وأما القسم الثالث ﴾ فهو الواسطة ، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين ، وفي النقصان والردالة إلى حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية ، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية ، والمكاملة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة ، وأدناها المجادلة ، وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون . وأوسطهم عامة الخائق وهم أرباب السلامة . وفيهم الكثرة والغلبة ، وأدنى المراتب ، الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة ، فقوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة) معناه ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالحكمة ، وهي البراهين القطعية اليقينية وعوام الخلق بالموعظة الحسنة ، وهي الدلائل اليقينية الاقناعية الظنية ، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل .

ومن لطائف هذه الآية أنه قال ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين . لأن الدعوة إن كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة ، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة ، أما الجدل فليس من باب الدعوة ، بل المقصود منه غرض آخر مغاير

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

قلنا : يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم ، فجعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه والله أعلم .
 ﴿والقول الثاني﴾ في اختلافهم في السبت ، أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة ، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة .
 ثم قال تعالى ﴿وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ والمعنى : أنه تعالى سيحكم يوم القيامة للمحققين بالثواب وللمبطلين بالعقاب .
 قوله تعالى ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾
 اعلم أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه السلام ، بين الشيء الذي أمره بمتابعته فيه ، فقال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة)

واعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن ، وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض ، وجب أن تكون طرقا متغايرة متباينة ، وما رأيت للمفسرين فيه كلاما ملخصا مضبوطا .
 واعلم أن الدعوة الى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة وبينه ، والمقصود من ذكر الحجة ، إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين ، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وإخامه .

أما القسم الأول : فينقسم أيضا الى قسمين ، لأن الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض ، وإما أن لا تكون كذلك ، بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والاقناع الكامل ، فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة . أولها : الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية ، وذلك هو المسمى بالحكمة ، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات ، وهي التي قال الله في صفتها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) وثانيها : الأمارات الظنية والدلائل الاقناعية

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «١٢٤»

قوله تعالى ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بمتابعة إبراهيم عليه السلام ، وكان محمد عليه السلام اختار يوم الجمعة ، فهذه المتابعة إنما تحصل إذا قلنا إن إبراهيم عليه السلام كان قد اختار في شرعه يوم الجمعة ، وعند هذا لسائل أن يقول : فلم اختار اليهود يوم السبت ؟

فأجاب الله تعالى عنه بقوله (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) وفي الآية قولان :

﴿القول الأول﴾ روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أمرهم موسى بالجمعة وقال : تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما واحدا وهو يوم الجمعة لاتعملوا فيه شيئا من أعمالكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك ، وقالوا : لانزيد إلا اليوم الذى فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت ، فجعل الله تعالى السبت لهم وشدد عليهم فيه ، ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضا بالجمعة ، فقالت النصرى : لانزيد أن يكون عيدهم بعد عيدنا واتخذوا الأحد . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد»

إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى (على الذين اختلفوا فيه) أى على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت ، فاختلفوا في السبت كان اختلافا على نبيهم في ذلك اليوم أى لأجله ، وليس معنى قوله (اختلفوا فيه) أن اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت ، ومنهم من لم يقل به ، لأن اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله (اختلفوا فيه) بهذا ، بل الصحيح ما قدمناه .

فان قال قائل : هل فى العقل وجه يدل على أن يوم الجمعة أفضل من يوم السبت ؟ وذلك لأن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم فى ستة أيام ، وبدأ تعالى بالخلق والتكوين من يوم الأحد وتم فى يوم الجمعة . فكان يوم السبت يوم الفراغ ، فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك الأعمال ، فعينوا السبت لهذا المعنى ، وقالت النصرى : مبدأ الخلق والتكوين هو يوم الأحد ، فنجعل هذا اليوم عيداً لنا ، فهذان الوجهان معقولان ، فما الوجه فى جعل يوم الجمعة عيداً لنا ؟

في الآخرين) وقال آخرون : هو قول المصلي منا كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وقيل الصدق . والوفاء . والعبادة .

﴿الصفة التاسعة﴾ قوله (وإنه في الآخرة لمن الصالحين)

فان قيل : لم قال (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) ولم يقل : وإنه في الآخرة في أعلى مقامات الصالحين ؟ قلنا : لأنه تعالى حكى عنه أنه قال (رب هب لي حكماً وألحقتني بالصالحين) فقال ههنا (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) تنبيهاً على أنه تعالى أجاب دعاءه ثم ان كونه من الصالحين لا ينفي أن يكون في أعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك في آية أخرى وهي قوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء)

واعلم أنه تعالى لما وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة قال (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ قال ، قوم إن النبي صلى الله عليه وسلم كان على شريعة إبراهيم عليه السلام ، وليس له شرع هو به منفرد ، بل المقصود من بعثته عليه السلام إحياء شرع إبراهيم عليه السلام وعول في إثبات مذهبه على هذه الآية وهذا القول ضعيف ، لأنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه ما كان من المشركين ، فلما قال (واتبع ملة إبراهيم) كان المراد ذلك .

فان قيل : النبي صلى الله عليه وسلم إنما نفي الشرك وأثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية وإذا كان كذلك لم يكن متابعاً له فيمتنع حمل قوله (أن اتبع) على هذا المعنى فوجب حمله على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها .

قلنا : يحتمل أن يستكون المراد الأمر بمتابعته في كيفية الدعوة الى التوحيد . وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن .

﴿البحث الثاني﴾ قال صاحب الكشاف : لفظه «ثم» في قوله (ثم أوحينا إليك) تدل على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلال محله والايذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة وأجل ما أوتى من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته من قبل ، أن هذه اللفظة دلت على تباعد هذا النعت في المراتبة عن سائر المدائح التي مدحه الله بها .

لاسم المسبب على السبب ، وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم عليه السلام فإنه كان وحده .

(الصفة الثانية) كونه قانتا لله ، والقانت هو القائم بما أمره الله تعالى به قال ابن عباس رضى

الله عنهما : معناه كونه مطيعا لله .

(الصفة الثالثة) كونه حنيفا والحنيف المائل إلى ملة الاسلام ميلا لا يزول عنه . قال ابن عباس

رضى الله عنهما : إنه أول من اختتن وأقام مناسك الحج وضحي ، وهذه صفة الحنيفية .

(الصفة الرابعة) قوله (ولم يك من المشركين) معناه أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر

والذي يقرر كونه كذلك أن أكثر همته عليه السلام كان في تقرير علم الأصول فذكر دليل إثبات

الصانع مع ملك زمانه وهو قوله (ربى الذى يحيى ويميت) ثم أبطل عبادة الأصنام والكواكب

بقوله (لا أحب الآفلين) ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أن ألقوه في النار ، ثم طلب من

الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ليحصل له مزيد الطمأنينة ، ومن وقف على علم القرآن علم أن إبراهيم

عليه السلام كان غارقا في بحر التوحيد .

(الصفة الخامسة) قوله (شاكرآ لأنعمه) روى أنه عليه السلام كان لا يتغدى إلا مع

ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخبر غداه فاذا هو يقوم من الملائكة في صورة البشر فدعاهم

إلى الطعام فأظهروا أن بهم علة الجذام فقال : الآن يجب على مؤاكلتكم فلولا عز تكم على الله تعالى

لما ابتلاكم بهذا البلاء .

فان قيل : لفظ الأنعم جمع قلة ، ونعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة .

فلم قال (شاكرآ لأنعمه) .

قلنا : المراد أنه كان شاكرآ لجميع نعم الله إن كانت قليلة فكيف الكثيرة .

(الصفة السادسة) قوله (اجتباه) أى اصطفاه للنبوة . والاجتباه هو أن تأخذ الشيء بالكلية

وهو افتعال من جبيت ، وأصله جمع الماء في الحوض والجلابية هى الحوض .

(الصفة السابعة) قوله (وهدها إلى صراط مستقيم) أى فى الدعوة إلى الله والترغيب فى الدين

الحق والتنفير عن الدين الباطل . نظيره قوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه)

(الصفة الثامنة) قوله (وآتيناه فى الدنيا حسنة) قال قتادة إن الله حبيه إلى كل الخلق فكل

أهل الأديان يقرون به . أما المسلمون . واليهود . والنصارى فظاهر . وأما كفار قريش وسائر

العرب فلا فخر لهم إلا به . وتحقيق الكلام أن الله أجاب دعاه فى قوله (واجعل لى لسان صدق

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٠» شَاكِرًا
لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «١٢١» وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «١٢٢» ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٣»

قوله تعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتبه
وهده إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا
إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾
اعلم أنه تعالى لما زيف في هذه السورة مذاهب المشركين في أشياء ، منها قولهم بآيات الشركاء
والإزداد لله تعالى ، ومنها طعنهم في نبوة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وقولهم لو أرسل الله رسولا
لسكان ذلك الرسول من الملائكة . ومنها قولهم بتحليل أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أباحها الله
تعالى . فلما بالغ في إبطال مذاهبهم في هذه الأقوال ، وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين
وقدوة الأصوليين ، وهو الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع . والمشركون
كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجود الاقتداء به ، لاجرم ذكره الله تعالى في آخر
هذه السورة ، وحكى عنه طريقته في التوحيد ليصير ذلك حاملا لهؤلاء المشركين على الإقرار
بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، واعلم أنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بصفات :
﴿الصفة الأولى﴾ أنه كان أمة ، وفي تفسيره وجوه : الأول : أنه كان وحده أمة من الأمم
لكماله في صفات الخير كقوله .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

الثاني : قال مجاهد ، كان مؤمنا وحده . والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في زيد بن عمرو بن نفيل «يبعثه الله أمة وحده» الثالث :
أن يكون أمة فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والبعية ، فالأمة هو الذي يؤتم به ، ودليله قوله (إني جاعلك
للناس إماما) الرابع : أنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ممتازين عن سواهم
بالتوحيد والدين الحق ، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقا

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١١٩»

فقال (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) وهو الذى سبق ذكره فى سورة الأنعام .
ثم قال تعالى ((وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)) وتفسيره هو المذكور فى قوله تعالى
(بظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم)

قوله تعالى ((ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك
من بعدها لغفور رحيم))

اعلم أن المقصود بيان أن الاقتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة
والرحمة . ولفظ السوء يتناول كل ما لا ينبغى وهو الكفر والمعاصى ، وكل من عمل السوء فأنما يفعله
بالجهالة ، أما الكفر فلأن أحدا لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا ، فانه مالم يعتقد كون ذلك المذهب
حقا وصدقا ، فانه لا يختاره ولا يرضيه ، وأما المعصية فما لم تصر الشهوة غالبة للمقل والعلم لم تصدر عنه
تلك المعصية ، فثبت أن كل من عمل السوء فأنما يقدم عليه بسبب الجهالة ، فقال تعالى : إنافد بالغنا
فى تهديد أولئك الكفار الذين يحللون ويحرمون بمقتضى الشهوة والفرية على الله تعالى ، ثم إنا
بعد ذلك نقول : إن ربك فى حق الذين عملوا السوء بسبب الجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك ، أى من
بعد تلك السيئة ، وقيل : من بعد تلك الجهالة ، ثم إنهم بعد التوبة عن تلك السيئات أصلحوا ، أى
آمنوا وأطاعوا الله .

ثم أعاد قوله ((إن ربك من بعدها)) على سبيل التأكيد . ثم قال (لغفور رحيم) والمعنى : أنه
لغفور رحيم لذلك السوء الذى صدر عنهم بسبب الجهالة ، وحاصل الكلام أن الانسان وإن كان
قد أقدم على الكفر والمعاصى دهورا دهورا وأمدا مديدا ، فاذا تاب عنه وآمن وأن بالأعمال الصالحة
فإن الله غفور رحيم . يقبل توبته ويخلصه من العذاب .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «١١٨»

فان قالوا : حمل الآية عليه يؤدي إلى التكرار ، لأن قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) عين ذلك .

والجواب : أن قوله (لما تصف ألسنتكم الكذب) ليس فيه بيان كذب على الله تعالى ، فأعاد قوله (لتفتروا على الله الكذب) ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثيرة . وهو أنه تعالى يذكر كلاماً ثم يعيده بعينه مع فائدة زائدة . الثاني : أن تكون (ما) موصولة ، والتقدير : ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام ، وحذف لفظ فيه لكونه معلوماً (المسألة الثالثة) قوله تعالى ﴿ تصف ألسنتكم الكذب ﴾ من فصيح الكلام وبلغه كأن ماهية الكذب وحقيقته مجهولة وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب ويوضح ماهيته ، وهذا مبالغة في وصف كلامهم بكونه كذباً ، ونظيره قول أبي العلاء المعري :

سرى برق المعرفة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

والمعنى : أن سرى ذلك البرق يصف الكلال فكذاهنا ، والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ المعنى : أنهم كانوا ينسبون ذلك التحريم والتحليل إلى الله تعالى ويقولون : إنه أمرنا بذلك . وأظن أن هذا اللام ليس لام الغرض ، لأن ذلك الافتراء ما كان غرضاً لهم بل كان لام العاقبة كقوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) قال الواحدى : وقوله (لتفتروا على الله الكذب) بدل من قوله (لما تصف ألسنتكم الكذب) لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله تعالى ، ففسر وصفهم الكذب بالافتراء على الله تعالى ، ثم أوعد المفتريين ، وقال (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) ثم بين أن ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب ، فقال (متاع قليل) قال الزجاج المعنى : متاعهم متاع قليل ، وقال ابن عباس : بل متاع كل الدنيا متاع قليل ، ثم يردون إلى عذاب أليم ، وهو قوله (ولهم عذاب أليم)

قوله تعالى ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين ما يحل وما يحرم لأهل الاسلام ، أتبعه ببيان ما خص اليهود به من المحرمات

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ «١١٦» مَتَاعٌ
قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «١١٧»

حصر المحرمات في هذه الأربع سورتان مكيتان . وسورتان مدينتان ، فان سورة البقرة مدنية .
وسورة المسائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة ، فمن أنكر حصر التحريم في هذه الأربع إلا ما خصه
الاجماع والدلائل القاطعة كان في محل أن يخشى عليه ، لأن هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات
في هذه الأربع كان شرعا ثابتا في أول أمر مكة وآخرها ، وأول المدينة وآخرها وأنه تعالى
أعاد هذا البيان في هذه السور الأربع قطعاً للأعداء وإزالة للشبهة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله
الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما حصر المحرمات في تلك الأربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر
وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الأربع تارة ، وفي النقصان عنها أخرى . فانهم كانوا يجرمون
البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وكانوا يقولون ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم
على أزواجنا ، فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضا في المحللات وذلك لأنهم حللوا الميتة والدم ولحم
الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى ، فالله تعالى بين أن المحرمات هي هذه الأربعة ، وبين أن الأشياء
التي يقولون إن هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله ، ثم ذكر الوعيد الشديد على هذا
الكذب ، وأقول : انه تعالى لما بين هذا الحصر في هذه السور الأربع ، ثم ذكر في هذه الآية أن
الزيادة عليها والنقصان عنها كذب وافتراء على الله تعالى . وموجب للوعيد الشديد علمنا أنه لا مزيد
على هذا الحصر ، والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ في انتصاب الكذب في قوله (لما تصف ألسنتكم الكذب) وجهان:
الأول : قال الكسائي . والزجاج (ما) مصدرية ، والتقدير : ولا تقولوا : لأجل وصف ألسنتكم
الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال : لا تقولوا : لكذا وكذا وكذا .

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «١١٥»

اعلم أنه تعالى لما ذكر المثل ذكر الممثل فقال (ولقد جاءهم) يعني أهل مكة (رسول منهم) يعني من أنفسهم يعرفونه بأصله ونسبه (فكذبوه فأخذهم العذاب) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعني الجوع الذى كان بمكة . وقيل : القتل يوم بدر ، وأقول قول ابن عباس : أولى لأنه تعالى قال بعده (فكلوا مما رزقكم الله إن كنتم إياه تعبدون) يعني أن ذلك الجوع إنما كان بسبب كفركم فاتركوا الكفر حتى تأكلوا . فلهذا السبب قال (فكلوا مما رزقكم الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما : فكلوا يامعشر المسلمين مما رزقكم الله يريد من الغنائم . وقال الكلبي : إن رواء مكة كملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا وقالوا عادت الرجال فما بال النسوان والصبيان . وكانت الميرة قد قطعت عنهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن في حمل الطعام إليهم فحمل إليهم العظام فقال الله تعالى (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) والقول ما قال ابن عباس رضى الله عنهما : وبدل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل) الآية يعني أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الحباثت وهى الميتة والدم .

قوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

اعلم أن هذه الآية الى آخرها مذكورة في سورة البقرة مفسرة هناك ولا فائدة في الاعادة وأقول إنه تعالى حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة في هذه السورة لأن لفظة (إنما) تفيد الحصر وحصرها أيضا في هذه الأربعة في سورة الأنعام في قوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم) وهاتان السورتان مكيتان ، وحصرها أيضا في هذه الأربعة في سورة البقرة لأن هذه الآية بهذه اللفظة وردت في سورة البقرة وحصرها أيضا في سورة المسائدة فانه تعالى قال في أول هذه السورة (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) فأباح الكل إلا ما يتلى عليهم . وأجمعوا على أن المراد بقوله (عليكم) هو قوله تعالى في تلك السورة (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) فذكر تلك الأربعة المذكورة في تلك السور الثلاثة . ثم قال (والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكركم) وهذه الأشياء داخلة في الميتة ، ثم قال (وما ذبح على نصب) وهو أحد الأقسام الداخلة تحت قوله (وما أهل به لغير الله) فثبت أن هذه السور الأربعة دالة على

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾
 فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ
 تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع . والثاني : أن ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات . فأشبهه اللباس . فالحاصل أنه حصل في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق ، وحالة تشبه الملبوس ، فاعتبر الله تعالى كلا الاعتبارين . فقال (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)

﴿والوجه الثاني﴾ أن التقدير إن الله عرفها لباس الجوع والخوف الأأنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظر فلانا وذق ما عنده . قال الشاعر :

ومن يذق الدنيا فاني طعمتها وسيق إلينا عذبا وعذابها

وإلباس الجوع والخوف هو ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال فكما تقول : تعرفت سوء أثر الخوف والجوع على فلان . كذلك يجوز أن تقول : ذقت لباس الجوع والخوف على فلان .

﴿والوجه الثالث﴾ أن يحمل لفظ اللبس على المماساة ، فصار التقدير : فأذاقها الله مساس الجوع والخوف .

ثم قال تعالى ﴿بما كانوا يصنعون﴾ قال ابن عباس : يريد بفعلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم حين كذبوه وأخرجوه من مكة وهموا بقتله . قال الفراء : ولم يقل بما صنعت ، ومثله في القرآن كثير ، ومنه قوله تعالى (بجاءها بأسنا بيانا أوهم قائلون) ولم يقل قائلة ، وتحقيق الكلام أنه تعالى وصف القرية بأنها مطمئنة يأتيها رزقها رغدا فكفرت بأنعم الله ، فكل هذه الصفات ، وإن أجريت بحسب اللفظ على القرية ، إلا أن المراد في الحقيقة أهلها ، فلا جرم قال في آخر الآية (بما كانوا يصنعون) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ، فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون﴾

له ، والظروف من الأزمنة والأمكنة توصف بما حلها . كما يقال : طيب وحر وبارد .
 ((والصفة الثانية)) قوله (مطمئنة) قال الواحدي : معناها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون
 الى الانتقال عنها لخوف أو ضيق . أقول : إن كان المراد من كونها مطمئنة : أنهم لا يحتاجون
 الى الانتقال عنها بسبب الخوف ، فهذا هو معنى كونها آمنة ، وإن كان المراد أنهم لا يحتاجون
 إلى الانتقال عنها بسبب الضيق ، فهذا هو معنى قوله (يأتيها رزقها رغداً من كل مكان) وعلى كلا
 التقديرين فإنه يلزم التكرار .

والجواب : أن العقلاء قالوا :

ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية

فقوله (آمنة) إشارة إلى الأمن ، وقوله (مطمئنة) إشارة إلى الصحة ، لأن هواء ذلك البلد لما
 كان ملائماً لأمزجتهم اطمأنوا اليه واستقروا فيه ، وقوله (يأتيها رزقها رغداً من كل مكان) إشارة
 إلى الكفاية . قال المفسرون : وقوله (من كل مكان) السبب فيه إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام
 وهو قوله (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) ثم انه تعالى لما وصف
 القرية بهذه الصفات الثلاثة قال (فكفرت بأنعم الله) الأنعم جمع نعمة مثل أشد وشدة أقول ههنا
 سؤال : وهو أن الأنعم جمع فية ، فكان المعنى : أن أهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم
 فعذبها الله ، وكان اللائق أن يقال : إنهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب ، فما السبب
 في ذكر جمع القلة ؟

والجواب : المقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى يعني أن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب
 فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب ، وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة
 والخصب . ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالغوا
 في اذيائه فلا جرم سلط الله عليهم البلاء . قال المفسرون : عذبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا
 الجيف والعظام والعلهز والقد ، أما الخوف فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث اليهم السرايا
 فيغيرون عليهم . ونقل أن ابن الراوندي قال لابن الأعرابي الأديب : هل يذاق اللباس ؟ قال ابن
 الأعرابي : لا لباس ولا لباس يأبها النسناس ، هب أنك تشك أن محمداً ما كان نبياً أما كان عريباً وكان
 مقصود ابن الراوندي الطعن في هذه الآية ، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس فكان الواجب أن
 يقال : فكساهم الله لباس الجوع ، أو يقال : فأذاقهم الله طعم الجوع . وأقول جوابه من وجوه :
 ((الوجه الأول)) أن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان : أحدهما : أن المذوق هو

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

حقه من غير نقصان ، ولو أنه تعالى أزال عقاب المذنب بسبب الشفاعة لم يصح ذلك .
والجواب : لانزاع أن ظاهر العمومات يدل على قولكم ، إلا أن مدحنا أن التمسك بظواهر العمومات لا يفيد القطع ، وأيضا فظواهر الوعيد معارضة بظواهر الوعد ، ثم بينا في سورة البقرة في تفسير قوله (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) أن جانب الوعد راجح على جانب الوعيد من وجوه كثيرة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة هددهم أيضا بآفات الدنيا وهو الوقوع في الجوع والخوف ، كما ذكره في هذه الآية .

﴿المسألة الثانية﴾ المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشيء موجودا أو لم يكن موجودا . وقد يضرب بشيء موجود معين ، فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا ويحتمل أن تكون قرية معينة ، وعلى هذا التقدير الثاني : فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها ، والأكثر من المفسرين على أنها مكة ، والأقرب أنها غير مكة لأنها ضربت مثلا لمكة ، ومثل مكة يكون غير مكة .

﴿المسألة الثالثة﴾ ذكر الله تعالى لهذه القرية صفات :

﴿الصفة الأولى﴾ كونها آمنة أي ذات أمن لا يغار عليهم كما قال (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) والأمر في مكة كان كذلك ، لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض . أما أهل مكة : فانهم كانوا أهل حرم الله ، والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم .

واعلم أنه يجوز وصف القرية بالأمن ، وإن كان ذلك لأهلها لاجل أنها مكان الأمن وظرف

وشكروا في الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إنهم أسلموا وهاجروا فنزلت هذه الآية فيهم ، وقيل : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتد ، فلما كان يوم الفتح أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إنه أسلم وحسن إسلامه ، وهذه الرواية إنما تصح لو جعلنا هذه السورة مدنية أو جعلنا هذه الآية منها مدنية ، ويحتمل أن يكون المراد أن أولئك الضعفاء المعذبين تكلموا بكلمة الكفر على سبيل التقية ، فقوله (من بعد ما فتنوا) يحتمل كل واحد من هذه الوجوه الأربعة ، وليس في اللفظ ما يدل على التعيين .

إذا عرفت هذا فنقول : إن كانت هذه الآية نازلة فيمن أظهر الكفر ، فالمراد أن ذلك مما لا إثم فيه ، وأن حاله إذا هاجر وجاهد وصبر كحال من لم يكره ، وإن كانت واردة فيمن ارتد فالمراد أن التوبة والقيام بما يجب عليه يزيل ذلك العقاب ويحصل له الغفران والرحمة ، فالهاء في قوله (من بعدها) تعود إلى الأعمال المذكورة فيما قبل ، وهي الهجرة والجهاد والصبر .

أما قوله «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» ففيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال الزجاج (يوم) منصوب على وجهين : أحدهما : أن يكون المعنى (إن ربك من بعدها لغفور رحيم يوم تأتي) يعني أنه تعالى يعطى الرحمة والغفران في ذلك اليوم الذي يعظم احتياج الإنسان فيه إلى الرحمة والغفران ، والثاني : أن يكون التقدير : وذكرهم أو اذكر يوم كذا وكذا ، لأن معنى القرآن العظمة والانذار والتذكير .

﴿البحث الثاني﴾ لقائل أن يقول : النفس لا تكون لها نفس أخرى ، فما معنى قوله (كل نفس تجادل عن نفسها) .

والجواب : النفس قد يراد به بدن الحي وقد يراد به ذات الشيء وحقيقته ، فالنفس الأولى هي الجثة والبدن . والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته ولا يهمه شأن غيره . قال تعالى (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) وعن بعضهم : تزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : يارب نفسي نفسي حتى أن إبراهيم الخليل عليه السلام يفعل ذلك ، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم (هؤلاء أضلونا السبيلا) وقولهم (والله ربنا ما كنا مشركين)

ثم قال تعالى «وتوفي كل نفس ما عملت» فيه محذوف . والمعنى : توفي كل نفس جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان ، وقوله (وهم لا يظلمون) قال الواحدى : معناه لا ينقصون . قال القاضى : هذه الآية من أقوى ما يدل على ما نذهب إليه في الوعيد ، لأنها تدل على أنه تعالى يوصل إلى كل أحد

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا أَنْ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ
مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَادِلٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا عَمَلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادته الآخرة ، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم
خسرانه ، فلهذا السبب قال (لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون) أي هم الخاسرون لا غيرهم ،
والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من
بعدها لغفور رحيم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون﴾
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة حال من كفر بالله من بعد إيمانه وحال
من أكره على الكفر ، فذكر بسبب الخوف كلمة الكفر وحال من لم يذكرها ، ذكر بعده حال من
هاجر من بعد ما فتن فقال (إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا)

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن عامر (فتنوا) بفتح الفاء على إسناد الفعل إلى الفاعل ، والباقون بضم
الفاء على فعل مالم يسم فاعله . أما وجه القراءة الأولى فأمر : الأول : أن يكون المراد أن أكبر
المشركين وهم الذين آذوا فقراء المسلمين لو تابوا وهاجروا وصبروا فإن الله يقبل توبتهم ، والثاني :
أن فتن وأفتن بمعنى واحد ، كما يقال : مان وأمان بمعنى واحد ، والثالث : أن أولئك الضعفاء لما
ذكروا كلمة الكفر على سبيل التقية فكأنهم فتنوا أنفسهم ، وإنما جعل ذلك فتنة ، لأن الرخصة
في إظهار كلمة الكفر ما نزلت في ذلك الوقت . وأما وجه القراءة بفعل مالم يسم فاعله فظاهر ، لأن
أولئك المفتونين هم المستضعفون الذين حملهم أفوياء المشركين على الردة والرجوع عن الإيمان ،
فبين تعالى أنهم إذا هاجروا وجاهدوا وصبروا فإن الله تعالى يغفر لهم تكلمهم بكلمة الكفر .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (من بعد ما فتنوا) يحتمل أن يكون المراد بالفتنة : هو أنهم عذبوا ،
ويحتمل أن يكون المراد هو أنهم خوفوا بالتعذيب ، ويحتمل أن يكون المراد أن أولئك المسلمين
ارتدوا . قال الحسن : هؤلاء الذين هاجروا من المؤمنين كانوا بمكة ، فعرضت لهم فتنة فارتدوا

ثم قال تعالى ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أى رجحوا الدنيا على الآخرة والمعنى : أن ذلك الارتداد وذلك الاقدام على الكفر لأجل أنه تعالى ما هداهم إلى الايمان وما عصمهم عن الكفر . قال القاضى : المراد أن الله لا يهديهم إلى الجنة فيقال له هذا ضعيف ، لأن قوله (وأن الله لا يهدى القوم الكافرين) معطوف على قوله (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) فوجب أن يكون قوله (وأن الله لا يهدى القوم الكافرين) علة وسببا موجبا لاقدامهم على ذلك الارتداد ، وعدم الهداية يوم القيامة إلى الجنة ليس سببا لذلك الارتداد . ولا علة له بل سببا عنه ومعلولا له فبطل هذا التأويل ، ثم أكد بيان أنه تعالى صرفهم عن الايمان فقال (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) قال القاضى : الطبع ليس يمنع من الايمان ويدل عليه وجوه : الأول : أنه تعالى ذكر ذلك فى معرض الذم لهم ، ولو كانوا عاجزين عن الايمان به لما استحقوا الذم بتركه . والثانى : أنه تعالى أشرك بين السمع والبصر وبين القلب فى هذا الطبع ومعلوم من حال السمع والبصر أن مع فقدهما قد يصح أن يكون مؤمنا فضلا عن طبع يلحقهما فى القلب . والثالث : وصفهم بالغفلة . ومن منع من الشيء لا يوصف بأنه غافل عنه ، فثبت أن المراد بهذا الطبع السمة والعلامة التى يخلقها فى القلب ، وقد ذكرنا فى سورة البقرة معنى الطبع والحتم ، وأقول هذه الكلمات مع التقريرات الكثيرة ، ومع الجوابات القوية المذكورة فى أول سورة البقرة وفى سائر الآيات فلا فائدة فى الاعداد .

ثم قال تعالى ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ قال ابن عباس : أى عما يراد بهم فى الآخرة .

ثم قال ﴿لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون﴾ واعلم أن الموجب لهذا الخسران هو أن الله تعالى وصفهم فى الآيات المتقدمة بصفات ستة .

﴿الصفة الأولى﴾ أنهم استوجبوا غضب الله .

﴿والصفة الثانية﴾ أنهم استحقوا العذاب الأليم .

﴿والصفة الثالثة﴾ (أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة)

﴿والصفة الرابعة﴾ أنه تعالى حرمهم من الهداية .

﴿والصفة الخامسة﴾ أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

﴿والصفة السادسة﴾ أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلاجرم

لايسعون فى دفعها ، فثبت أنه حصل فى حقهم هذه الصفات الستة التى كل واحد منها من أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات . ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الانسان الدنيا

﴿المرتبة الثانية﴾ أن يصير ذلك الفعل مباحا ولا يصير واجبا ، ومثاله ما إذا أكرهه على التلطف بكلمة الكفر فهنا يباح له ولكنه لا يجب كما قررناه .

﴿المرتبة الثالثة﴾ أن لا يجب ولا يباح بل يحرم ، وهذا مثل ما إذا أكرهه إنسان على قتل إنسان آخر أو على قطع عضو من أعضائه فهنا يبقى الفعل على الحرمة الأصلية ، وهل يسقط القصاص عن المكره أم لا؟ قال الشافعي رحمه الله : في أحد قوله يجب القصاص ويدل عليه وجهان الأول : أنه قتله عمدا عدوانا فيجب عليه القصاص لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) والثاني : أجمعنا على أن المكره إذا قصد قتله فانه يحل له أن يدفعه عن نفسه ولو بالقتل ، فلما كان توهم إقدامه على القتل يوجب اهدار دمه ، فلا أن يكون عند صدور القتل منه حقيقة يصير دمه مهذرا كان أولى والله أعلم .

﴿المسألة الثامنة﴾ من الأفعال ما يقبل الاكراه عليه كالقتل والتكلم بكلمة الكفر ، ومنه ما لا يقبل الاكراه عليه قيل : وهو الزنا ، لأن الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الآلة ، فحيث دخل الزنا في الوجود علم أنه وقع بالاختيار لا على سبيل الاكراه .

﴿المسألة التاسعة﴾ قال الشافعي رحمه الله : طلاق المكره لا يقع ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : يقع ، وحجة الشافعي رحمه الله : قوله (لا إكراه في الدين) ولا يمكن أن يكون المراد نفي ذاته لأن ذاته موجودة فوجب حمله على نفي آثاره ، والمعنى : أنه لا أثر له ولا عبرة به ، وأيضا قوله عليه السلام «رفع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وأيضا قوله عليه السلام «لا طلاق في إغلاق» أي إكراه فان قالوا : طلقها فتدخل تحت قوله (فان طلقها فلا تحل له) فالجواب لما تعارضت الدلائل ، وجب أن يبقى ما كان على ما هو قولنا والله أعلم .

﴿المسألة العاشرة﴾ قوله (وقلبه مطمئن بالايمان) يدل على أن محل الايمان هو القلب والذي محله القلب إما الاعتقاد ، وإما كلام النفس . فوجب أن يكون الايمان عبارة إما عن المعرفة وإما عن التصديق بكلام النفس والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾ أي فتحه ووسعه لقبول الكفر وانتصب صدرا على أنه مفعول لشرح ، والتقدير : ولكن من شرح بالكفر صدرا ، وحذف الضمير لأنه لا يشكل بصدور غيره إذ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره فهو نكرة يراد بها المعرفة .

ثم قال ﴿فعليهم غضب من الله﴾ والمعنى أنه تعالى حكم عليهم بالعذاب ثم وصف ذلك العذاب فقال (ولهم عذاب عظيم)

آخر أو يذكره على نية الاستفهام بمعنى الإنكار وههنا بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أنه إذا أعجله من أكرهه عن إحضار هذه النية أو لأنه لما عظم خوفه زال عن قلبه ذكر هذه النية كان ملوماً وعفو الله متوقع .

﴿البحث الثاني﴾ لو ضيق المكره الأمر عليه وشرح له كل أقسام التعريضات وطلب منه أن يصرح بأنه ما أراد شيئاً منها ، وما أراد إلا ذلك المعنى ، فههنا يتعين إما التزام الكذب ، وإما تعريض النفس للقتل . فمن الناس من قال يباح له الكذب هنا ، ومنهم من يقول ليس له ذلك وهو الذى اختاره القاضى . قال : لأن الكذب إنما يقبح لكونه كذباً ، فوجب أن يقبح على كل حال ، ولو جاز أن يخرج عن القبيح لرعاية بعض المصالح لم يمنع أن يفعل الله الكذب لرعاية بعض المصالح وحينئذ لا يبقى وثوق بوعد الله تعالى ولا بوعيده لاحتمال أنه فعل ذلك الكذب لرعاية بعض المصالح التى لا يعرفها إلا الله تعالى .

﴿المسألة السادسة﴾ أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بكلمة الكفر ، ويدل عليه وجوه : أحدها : أنا روينا أن بلالا صبر على ذلك العذاب ، وكان يقول : أحد أحد ، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : بس ما صنعت بل عظمه عليه ، فدل ذلك على أنه لا يجب التكلم بكلمة الكفر ، وثانيها : ماروى أن مسيلة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما : ماتقول فى محمد ؟ فقال رسول الله ، فقال ماتقول فى ؟ قال أنت أيضاً ، ففلاه ، وقال للآخر : ماتقول فى محمد ؟ قال رسول الله ، قال : ماتقول فى ؟ قال أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثانى فقد صدع بالحق . فهينئذ له» . وجه الاستدلال بهذا الخبر من وجهين : الأول : أنه سمي التلغظ بكلمة الكفر رخصة ، والثانى : أنه عظم حال من أمسك عنه حتى قتل . وثالثها : أن بذل النفس فى تقرير الحق أشق ، فوجب أن يكون أكثر ثواباً لقوله عليه السلام «أفضل العبادات أحزها» أى أشقها . ورابعها : أن الذى أمسك عن كلمة الكفر طهر قلبه ولسانه عن الكفر . أما الذى تلفظ بها فهب أن قلبه طاهر عنه إلا أن لسانه فى الظاهر قد تلطخ بتلك الكلمة الخبيثة ، فوجب أن يكون حال الأول أفضل والله أعلم .

﴿المسألة السابعة﴾ اعلم أن للاكراه مراتب .

﴿المرتبة الأولى﴾ أن يجب الفعل المكره عليه مثل ما إذا أكرهه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة فإذا أكرهه عليه بالسيف فههنا يجب الأكل . وذلك لأن صون الروح عن الفوات واجب ، ولا سبيل إليه فى هذه الصورة إلا بهذا الأكل ، وليس فى هذا الأكل ضرر على حيوان ولا فيه إهانة لحق الله تعالى ، فوجب أن يجب لقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)

إلا من أكره (ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله)

﴿المسألة الثانية﴾ أجمعوا على أنه لا يجب عليه التكلم بالكفر يدل عليه وجوه: أحدها: أنا رويناه أن بلالا صبر على ذلك العذاب، وكان يقول: أحد أحد. روى أن ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه. مع أنه كان بقلبه مصرا على الإيمان، منهم: عمار، وأبواه ياسر، وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم، عذبوا، فأما سمية فقيل: ربطت بين بعيرين ووخزت في قبلها بحربة وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال وقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين قتلوا في الإسلام، وأما عمار فقد أعظم ما أرادوا بلسانه مكرها، فقيل يارسول الله إن عمارا كفر، فقال كلا إن عمارا ملىء إيمانا من فرقه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول «مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر، ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا.

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (إلا من أكره) ليس باستثناء. لأن المكروه ليس بكافر فلا يصح استثناءه من الكافر. لكن المكروه لما ظهر منه بعد الإيمان ماثله يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشاكلة.

﴿المسألة الرابعة﴾ يجب ههنا بيان الإكراه الذي عنده يجوز التلفظ بكلمة الكفر. وهو أن يعذبه بعذاب لا طاقة له به، مثل التخويق بالقتل، ومثل الضرب الشديد والإيلامات القوية. قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة. رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وخباب وصهيب وبلال، وعمار، وسمية. أما الرسول عليه الصلاة والسلام فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه. وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد، ثم اجلسوا في الشمس فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية، ثم طعن الحربة في فرجها. وقال الآخرون: ما نالوا منهم غير بلال فانهم جعلوا يعذبونه فيقول: أحد أحد. حتى ملوا فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتى ملوه فتر كوه. قال عمار: كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال. فهانت عليه نفسه فتر كوه. قال خباب: لقد أوقدوا لي نارا ما أطفأها إلا ودك ظهري.

﴿المسألة الخامسة﴾ أجمعوا على أن عند ذكر كلمة الكفر يجب عليه أن يبرىء قلبه من الرضا به وأن يقتصر على التعريضات مثل أن يقول إن محمدا كذاب، ويعنى عند الكفار أو يعنى به محمدا

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ
 وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

الكذب والافتراء . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال « لا » ثم
 قرأ هذه الآية ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من
 شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على
 الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك
 هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾

اعلم أنه تعالى لما عظم تهديد الكافرين ذكر في هذه الآية تفصيلا في بيان من يكفر بلسانه
 لا بقلبه ، ومن يكفر بلسانه وقلبه معا ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (من كفر بالله من بعد إيمانه) مبتدأ خبره غير مذكور ، فلهذا السبب
 اختلف المفسرون وذكروا فيه وجوها : الأول : أن يكون قوله (من كفر) بدلا من قوله (الذين
 لا يؤمنون بآيات الله) والتقدير : إنما يفترى من كفر بالله من بعد إيمانه ، واستثنى منهم المكره
 فلم يدخل تحت حكم الافتراء ، وعلى هذا التقدير : فقوله (وأولئك هم الكاذبون) اعتراض وقع بين
 البدل والمبدل منه . الثاني : يجوز أيضا أن يكون بدلا من الخبر الذي هو الكاذبون ، والتقدير :
 وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه ، والثالث : يجوز أن ينتصب على الذم ، والتقدير : وأولئك هم
 الكاذبون ، أعنى من كفر بالله من بعد إيمانه وهو أحسن الوجوه عندي وأبعدها عن التعسف ،
 والرابع : أن يكون قوله (من كفر بالله من بعد إيمانه) شرطا مبتدأ ويحذف جوابه ، لأن جواب
 الشرط المذكور بعده يدل على جوابه كأنه قيل : من كفر بالله من بعد إيمانه فعليهم غضب من الله

الأمر كذلك كانوا أعداء للرسول صلى الله عليه وسلم وكلام العدا ضرب من الهديان ولا شهادة لهم . والثاني : أن أمر التعلم لا يتأتى في جلسة واحدة ولا يتم في الخفية ، بل التعلم إنما يتم إذا اختلف المعلم إلى المتعلم أزمنة متطاولة ومددا متباعدة ، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق أن محمدا عليه السلام يتعلم العلوم من فلان وفلان . الثالث : أن العلوم الموجودة في القرآن كثيرة وتعلمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلم في غاية الفضل والتحقيق فلو حصل فيهم إنسان بلغ في التعليم والتحقيق إلى هذا الحد لكان مشارا إليه بالأصابع في التحقيق والتدقيق في الدنيا . فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان ؟

واعلم أن الطعن في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمثال هذه الكلمات الركيكة يدل على أن الحججة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ظاهرة باهرة . فان الخصوم كانوا عاجزين عن الطعن فيها ، ولأجل غاية عجزهم عدلوا إلى هذه الكلمات الركيكة .

(المسألة الثانية) في هذه الآية دلالة قوية على أن الكذب من أكبر الكبائر وأخش الفواحش والدليل عليه أن كلمة «إنما» للحصر، والمعنى : أن الكذب والفرية لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله تعالى ، وإلا من كان كافرا وهذا تهديد في النهاية .

فان قيل : قوله (لا يؤمنون بآيات الله) فعل وقوله (وأولئك هم الكاذبون) اسم وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية قبيح فما السبب في حصوله ههنا ؟

قلنا : الفعل قد يكون لازما وقد يكون مفارقا . والدليل عليه قوله تعالى (ثم بدلهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) ذكره بلفظ الفعل . تنبيها على أن ذلك السجن لا يدوم . وقال فرعون لموسى عليه السلام (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين) ذكره بصيغة الاسم تنبيها على الدوام . وقال أصحابنا : إنه تعالى قال (وعصى آدم ربه فغوى) ولا يجوز أن يقال إن آدم عاص وعاو ، لأن صيغة الفعل لا تفيد الدوام ، وصيغة الاسم تفيده .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : قوله (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) ذكر ذلك تنبيها على أن من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر . ثم قال (وأولئك هم الكاذبون) تنبيها على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة . وهذا كما تقول : كذبت وأنت كاذب فيكون قولك وأنت كاذب زيادة في الوصف بالكذب . ومعناه : أن عادتك أن تكون كاذبا .

(المسألة الثانية) ظاهر الآية يدل على أن الكاذب المفترى الذي لا يؤمن بآيات الله والأمر كذلك . لأنه لا معنى للكفر إلا إنكار الإلهية ونبوة الأنبياء ، وهذا الإنكار مشتمل على

في هذه الآية بالقولين قال الفراء : يميلون من الميل ، وقال الزجاج : يميلون من الامالة ، أى لسان الذى يميلون القول اليه أعجمى ، وأما قوله (أعجمى) فقال أبو الفتح الموصلى : تركيب ع ج م وضع فى كلام العرب للابهام والاختفاء ، وضد البيان والايضاح ، ومنه قولهم : رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان . وعجم الذنب سمي بذلك لاستتاره واختفائه ، والعجماء البهيمة لأنها لا توضح ما فى نفسها ، وسما صلاتى الظهر والعصر عجموين ، لأن القراءة حاصلة فيهما بالسر لا بالجهر ، فأما قولهم : أعجمت الكتاب فعناه أزلت عجمته ، وأفعلت قد يأتى والمراد منه السلب كقولهم : أشكيت فلانا إذا أزلت ما يشكوه ، فهذا هو الأصل فى هذه الكلمة ، ثم إن العرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بلسانهم أعجم وأعجميا . قال الفراء وأحمد بن يحيى : الأعجم الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمى والعجمى الذى أصله من العجم قال أبو على الفارسي : الأعجم الذى لا يفصح سواء كان من العرب أو من العجم ، ألا ترى أنهم قالوا : زياد الأعجم . لأنه كانت فى لسانه عجمة مع أنه كان عربيا ، وأما معنى العربى واشتقاقه فقد ذكرناه عند قوله (الأعراب أشد كفرا ونفاقا) وقال الفراء والزجاج : فى هذه الآية يقال عرب لسانه عرابة وعروبة هذا تفسير ألفاظ الآية .

وأما تقرير وجه الجواب فاعلم أنه إنما يظهر إذا قلنا : القرآن إنما كان معجزا لما فيه من الفصاحة العائدة إلى اللفظ وكأنه قيل : هب أنه يتعلم المعانى من ذلك الأعجمى إلا أن القرآن إنما كان معجزا لما فى ألفاظه من الفصاحة فبتقدير أن تكونوا صادقين فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم يتعلم تلك المعانى من ذلك الرجل إلا أنه لا يقدح ذلك فى المقصود إذ القرآن إنما كان معجزا لفصاحته وما ذكرتموه لا يقدح فى ذلك المقصود ، ولما ذكر الله تعالى هذا الجواب أردفه بالتهديد والوعيد ، فقال (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله) أما تفسير أصحابنا لهذه الآية فظاهر ، وقال القاضى : أقوى ما قيل فى ذلك إنه لا يهديهم إلى طريق الجنة ، ولذلك قال بعده (ولهم عذاب أليم) والمراد أنهم لما تركوا الايمان بالله لا يهديهم الله إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار . ثم إنه تعالى بين كونهم كذابين فى ذلك القول فقال (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) المقصود منه أنه تعالى بين فى الآية السابقة أن الذى قالوه بتقدير أن يصح لم يقدح فى المقصود ، ثم إنه تعالى بين فى هذه الآية أن الذى قالوه لم يصح وهم كذبوا فيه ، والدليل على كونهم كاذبين فى ذلك القول وجوه : الأول : أنهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كفرون ، ومتى كان

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّلسَّانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ
 وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ولا يهديهم الله ولهم عذاب أليم إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴿

اعلم أن المراد من هذه الآية حكاية شبهة أخرى من شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم كانوا يقولون إن محمداً إنما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات لأنه يستفيد منها من إنسان آخر ويتعلمها منه . واختلفوا في هذا البشر الذي نسب المشركون النبي صلى الله عليه وسلم إلى التعلم منه قيل : هو عبدلبن عامر بن لؤى يقال له يعيش ، وكان يقرأ الكتب ، وقيل : عداس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : عبد ابن الحضرمي صاحب كتب ، وكان اسمه جبرا . وكانت قريش تقول عبد بن الحضرمي يعلم خديجة . وخديجة تعلم محمداً ، وقيل : كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام ويقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية وقيل : سلمان الفارسي ، وبالجملة فلا فائدة في تعديد هذه الأسماء والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه .

ثم إنه تعالى أجاب عنه بأن قال ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ ومعنى الالحاد في اللغة الميل يقال : لحد وألحد إذا مال عن القصد ، ومنه يقال للعادل عن الحق ملحد وقرأ حمزة والكسائي (يا لحدون) بفتح الياء والحاء ، والباقون بضم الياء وكسر الحاء قال الواحدي : والأولى ضم الياء لأنه لغة القرآن ، والدليل عليه قوله (ومن يرد فيه بالحد بظلم) والالحاد قد يكون بمعنى الإمالة ، ومنه يقال ألحدت له حدا إذا حفرته في جانب القبر مائلا عن الاستواء وقبر ملحد وماجود . ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن دين إلى دين آخر وفسر الالحاد

﴿المسألة الأولى﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان إذا نزلت آية فيها شدة . ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه ، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه ، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه ، فأنزل الله تعالى قوله (وإذا بدلنا آية مكان آية) ومعنى التبديل ، رفع الشئ . مع وضع غيره مكانه . وتبديل الآية رفعها بآية أخرى غيرها ، وهو نسخها بآية سواها ، وقوله (والله أعلم بما ينزل) اعتراض دخل في الكلام ، والمعنى : والله أعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ . والتغليظ والتخفيف . أى هو أعلم بجميع ذلك في مصالح العباد ، وهذا توخيح للكفار على قوله (إنما أنت مفتر) أى إذا كان هو أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء لأجل التبديل والنسخ . وقوله (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون حقيقة القرآن وفائدة النسخ والتبديل . وأن ذلك لمصالح العباد كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة ، ثم بعد مدة ينهيه عنها . ويأمره بضد تلك الشربة ، وقوله (قل نزله روح القدس من ربك) تفسير روح القدس مر ذكره في سورة البقرة . وقال صاحب الكشاف : روح القدس جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال : حاتم الجود وزيد الخير ، والمراد الروح المقدس ، وحاتم الجواد وزيد الخير ، والمقدس المطهر من الماء و«من» في قوله (من ربك) صلة للقرآن أى أن جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا أى ليلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب (وهدى وبشرى) مفعول لهما معطوف على محل ليثبت ، والتقدير : تثبتاً لهم وإرشادا وبشارة . وفيه تعريض بحصول أضرار هذه الصفات لغيرهم .

﴿المسألة الثانية﴾ قد ذكرنا أن مذهب أبى مسلم الأصفهاني : أن النسخ غير واقع في هذه الشريعة . فقال المراد ههنا : إذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل أنه حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، قال المشركون : أنت مفتر في هذا التبديل ، وأما سائر المفسرين فقالوا : النسخ واقع في هذه الشريعة ، والكلام فيه على الاستقصاء المذكور في سائر السور .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال الشافعي رحمه الله : القرآن لا ينسخ بالسنة ، واحتج على صحته بقوله تعالى (وإذا بدلنا آية مكان آية) وهذا يقتضى أن الآية لا تصير منسوخة إلا بآية أخرى ، وهذا ضعيف لأن هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى ولا دلالة فيها على أنه تعالى لا يبدل آية إلا بآية ، وأيضا جبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة كما ينزل بالآية ، وأيضا فالسنة قد تكون مثبتة للآية ، وأيضا فهذا حكاية كلام الكفار ، فكيف يصح التعلق به ؟ والله أعلم .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

في الصلاة أو غيرها ، وسائر الفقهاء اتفقوا على أنه ليس كذلك ، لأنه لا خلاف بينهم أنه إن لم يتعوذ قبل القراءة في الصلاة ، فصلاته ماضية ، وكذلك حال القراءة في غير الصلاة لكن حال القراءة في الصلاة آكد .

﴿المسألة الخامسة﴾ المراد بالشیطان في هذه الآية قیل ابليس ، والأقرب أنه للجنس ، لأن لجميع المردة من الشياطين حظا في الوسوسة .

واعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الناس ، فأزال الله تعالى هذا الوهم ، وبين أنه لا قدرة له البتة إلا على الوسوسة فقال (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) ويظهر من هذا أن الاستعاذة إنما تفيد إذا حضر في قلب الإنسان كونه ضعيفا ، وأنه لا يمدنه التحفظ عن وسوسة الشيطان إلا بعصمة الله تعالى ، ولهذا المعنى قال المحققون : لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله تعالى ، والتفويض الحاصل على هذا الوجه هو المراد من قوله (وعلى ربهم يتوكلون)

ثم قال ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ قال ابن عباس : يطيعونه يقال : توليته أي أطعته وتوليت عنه أي أعرضت عنه (والذين هم به مشركون) الضمير في قوله (به) إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه راجع إلى ربهم . والثاني : أنه راجع إلى الشيطان . والمعنى بسببه ، وهذا كما تقول للرجل إذا تكلم بكلمة مؤدية إلى الكفر كفرت بهذه الكلمة أي من أجلها ، فكذلك قوله (والذين هم به مشركون) أي من أجله ومن أجل حمله إياهم على الشرك بالله صاروا مشركين .

قوله تعالى ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾
اعلم أنه تعالى شرع من هذا الموضوع في حكاية شبهات منكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وفيه مسائل :

يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ « ١٠٠ »

آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴿ اعلم أنه تعالى لما قال قبل هذه الآية (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أرشد إلى العمل الذي به تخلص أعماله عن الوسوس فقال (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الشيطان ساع في إلقاء الوسوسة في القلب حتى في حق الأنبياء بدليل قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) والاستعاذة بالله مانعة للشيطان من إلقاء الوسوسة بدليل قوله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فلهذا السبب أمر الله تعالى رسوله بالاستعاذة عند القراءة حتى تبقى تلك القراءة مصونة عن الوسوسة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فاذا قرأت القرآن) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به الكل ، لأن الرسول لما كان محتاجا إلى الاستعاذة عند القراءة فغير الرسول أولى بها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفاء في قوله (فاستعذ بالله) للتعقيب فظاهر هذه الآية يدل على أن الاستعاذة بعد قراءة القرآن واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين قال الواحدى : وهو قول أبى هريرة ومالك وداود قالوا : والفائدة فيه أنه إذا قرأ القرآن استحق به ثوابا عظيما ، فان لم يأت بالاستعاذة وقعت الوسوسة في قلبه ، وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة . أما إذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوسوس وبقى الثواب مصونا عن الاحباط . أما الآكثرون من علماء الصحابة والتابعين فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة ، وقالوا : معنى الآية إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ ، وليس معناه استعذ بعد القراءة ، ومثله إذا أكلت فقل (بسم الله) وإذا سافرت فتأهب ، ونظيره قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا ، وأيضا لما ثبت أن الشيطان ألقى الوسوسة في أثناء قراءة الرسول بدليل قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ومن الظاهر أنه تعالى إنما أمر الرسول بالاستعاذة عند القراءة لدفع تلك الوسوس ، فهذا المقصود إنما يحصل عند تقديم الاستعاذة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مذهب عطاء : أنه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت القراءة

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ «٩٨» إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ
سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «٩٩» إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ

بكل ما قضاه وقدره ، وعلم أن مصلحته في ذلك ، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول فكان أبدا في الحزن والشقاء . وثانيها : أن المؤمن أبدا يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها وعلى تقدير وقوعها يرضى بها ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، فعند وقوعها لا يستعظمها بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن تلك المعارف ، فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه . وثالثها : أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى ، والقلب إذا كان مملوءا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا ، أما قلب الجاهل فانه خال عن معرفة الله تعالى فلا جرم يصير مملوءا من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا . ورابعها : أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيصة فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها ، أما الجاهل فانه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها وغمه بفقدانها . وخامسها : أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير سريعة الانقلاب فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره اليه .

واعلم أن ما كان واجبا التغير فانه عند وصوله اليه لا تنقلب حقيقته ولا تتبدل ماهيته ، فعند وصوله اليه يكون أيضا واجبا التغير ، فعند ذلك لا يطبع العاقل قلبه عليه ولا يقيم له في قلبه وزنا بخلاف الجاهل فانه يكون غافلا عن هذه المعارف فيطبع قلبه عليها ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه فعند فوته وزواله يحترق قلبه ويعظم البلاء عنده ، فهذه وجوه كافية في بيان أن عيش المؤمن العارف أطيب من عيش الكافر هذا كله إذا فسرنا الحياة الطيبة بأنها في الدنيا .

﴿والقول الثاني﴾ وهو قول السدى إن هذه الحياة الطيبة إنما تحصل في القبر .

﴿والقول الثالث﴾ وهو قول الحسن وسعيد بن جبير إن هذه الحياة الطيبة لا تحصل إلا في الآخرة والدليل عليه قوله تعالى (يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) فبين أن هذا الكدح باق إلى أن يصل إلى ربه وذلك ما قلناه ، وأما بيان أن الحياة الطيبة في الجنة فلائها حياة بلا موت وغنى بلا فقر ، وصحة بلا مرض ، وملك بلا زوال ، وسعادة بلا شقاء ، فثبت أن الحياة الطيبة ليست إلا تلك الحياة ، ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله (ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد سبق تفسيره والله أعلم .

قوله تعالى ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ إنه ليس له سلطان على الذين

﴿السؤال الأول﴾ لفظه «من» في قوله (من عمل صالحا) تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والأنثى؟

والجواب : أن هذه الآية للوعد بالخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة إثباتا للتأكيد وإزالة لوهم التخصيص .

﴿السؤال الثاني﴾ هل تدل هذه الآية على أن الايمان مغاير للعمل الصالح؟

والجواب : نعم لأنه تعالى جعل الايمان شرطا في كون العمل الصالح موجبا للثواب . وشرط الشيء مغاير لذلك الشيء .

﴿السؤال الثالث﴾ ظاهر الآية يقتضى أن العمل الصالح انما يفيد الأثر بشرط الايمان ، فظاهر قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) يدل على أن العمل الصالح يفيد الأثر سواء كان مع الايمان أو كان مع عدمه .

والجواب : أن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالايمان ، أما إفادته لأثر غير هذه الحياة الطيبة وهو تخفيف العقاب فانه لا يتوقف على الايمان .

﴿السؤال الرابع﴾ هذه الحياة الطيبة تحصل في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة .
والجواب فيه ثلاثة أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال القاضى : الأقرب أنها تحصل في الدنيا بدليل أنه تعالى أعقبه بقوله (ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ولا شبهة في أن المراد منه ما يكون في الآخرة .
ولقائل أن يقول : لا يبعد أن يكون المراد من الحياة الطيبة ما يحصل في الآخرة ، ثم إنه مع ذلك وعدمه الله على أنه إنما يجزيهم على ما هو أحسن أعمالهم فهذا لا امتناع فيه .

فان قيل : بتقدير أن تكون هذه الحياة الطيبة إنما تحصل في الدنيا فما هي ؟

والجواب : ذكروا فيه وجوها قيل : هو الرزق الحلال الطيب ، وقيل : عبادة الله مع أكل الحلال ، وقيل : القناعة ، وقيل : رزق يوم بيوم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه «قننى بما رزقتنى» وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا» قال الواحدى وقول من يقول : إنه القناعة حسن مختار لأنه لا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع ، وأما الحريص فانه يكون أبدا في الكد والعناء .

واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه : الأول : أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى ، وعرف أنه تعالى محسن كريم لا يفعل إلا الصواب كان راضيا

ثم أكد هذا التحذير فقال (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) يريد عرض الدنيا وإن كان كثيرا ، إلا أن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ، يعنى أنكم وإن وجدتم على نقض عهد الاسلام خيرا من خيرات الدنيا ، فلا تلتفتوا اليه ، لأن الذى أعده الله تعالى على البقاء على الاسلام خير وأفضل وأكمل مما يجدونه فى الدنيا على نقض عهد الاسلام إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة ، ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند الله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة . والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية ، والباقي خير من المنقطع ، والدليل عليه أن هذا المنقطع إما أن يقال : إنه كان خيرا عاليا شريفا أو كان خيرا دنيا خسيسا ، فان قلنا : إنه كان خيرا عاليا شريفا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصا حال حصوله ، وأما حال حصول ذلك الانقطاع فانها تعظم الحسرة والحزن ، وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها ، وأما إن قلنا : إن تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر أن ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع ، فثبت بهذا أن قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) برهان قاطع على أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا .

﴿البحث الثانى﴾ أن قوله (وما عند الله باق) يدل على أن نعيم أهل الجنة باق لا ينقطع . وقال جهنم بن صفوان : إنه منقطع والآية حجة عليه .
واعلم أن المؤمن اذا آمن بالله فقد التزم شرائع الاسلام والايمان . وحينئذ يجب عليه أمران : أحدهما : أن يصبر على ذلك الالتزام وأن لا يرجع عنه وأن لا ينقضه بعد ثبوته ، والثانى : أن يأتى بكل ما هو من شرائع الاسلام ولوازمه .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى رغب المؤمنين فى القسم الأول وهو الصبر على ما التزموه ، فقال (ولنجزين الذين صبروا) أى على ما التزموه من شرائع الاسلام (بأحسن ما كانوا يعملون) أى يجزيهم على أحسن أعمالهم ، وذلك لأن المؤمن قد يأتى بالمباحات والمندوبات وبالواجبات ولا شك أنه على فعل المندوبات والواجبات يثاب لا على فعل المباحات ، فلهذا قال (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ثم إنه تعالى رغب المؤمنين فى القسم الثانى وهو الايمان بكل ما كان من شرائع الاسلام فقال (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وفى الآية سؤالات :

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ
بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾ فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صدتكم
عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم
إن كنتم تعلمون ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن
ما كانوا يعملون﴾

اعلم أنه تعالى لما حذر في الآية الأولى عن نقض العهود والأيمان على الإطلاق، حذر
في هذه الآية فقال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم) وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق
الإيمان، وإلا لزم التكرير الخالي عن الفائدة في موضع واحد، بل المراد نهى أولئك الأقوام
المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، فلهذا المعنى قال المفسرون: المراد
من هذه الآية نهى الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض عهده، لأن هذا الوعيد
وهو قوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) لا يليق بنقض عهد قبله، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم على الإيمان به وشرائعه. وقوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) مثل يذكر لكل من وقع
في بلاء بعد عافية. ومحنة بعد نعمة، فإن من نقض عهد الإسلام فقد سقطت عن الدرجات العالية. ووقع
في مثل هذه الضلالة، ويدل على هذا قوله تعالى (وتذوقوا السوء) أي العذاب (بما صدتكم) أي
بصدكم (عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) أي ذلك السوء الذي تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد،

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «٩٣»

ثم قال ﴿ أن تكون أمة هي أربي من أمة ﴾ أربي أى أكثر من ربا الشيء يربو اذا زاد ، وهذه الزيادة قد تكون فى العدد وفى القوة وفى الشرف . قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز ، فهناهم الله تعالى عن ذلك . وقوله (أن تكون) معناه أنكم تتخذون أيمانكم دخلا بينكم بسبب أن تكون أمة أربي من أمة فى العدد والقوة والشرف . فقوله (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) استفهام على سبيل الإنكار ، والمعنى : أنتخذون أيمانكم دخلا بينكم بسبب أن أمة أزيد فى القوة والكثرة من أمة أخرى . ثم قال تعالى ﴿ إنما يلوكم الله به ﴾ أى بما يأمركم وينهاكم ، وقد تقدم ذكر الأمر والنهى (وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فيتميز الحق من المبطل بما يظهر من درجات الثواب والعقاب ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن

عما كنتم تعملون ﴾

اعلم أنه تعالى لما كلف القوم بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه ، أتبعه ببيان أنه تعالى قادر على أن يجمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الايمان ، ولكنه سبحانه بحكم الالهية يضل من يشاء ويهدي من يشاء . أما المعتزلة : فانهم حملوا ذلك على الاجاء . أى لو أراد أن يلجئهم الى الايمان أو إلى الكفر لقدر عليه ، إلا أن ذلك يبطل التكليف ، فلا جرم ما ألجأهم اليه وفوض الأمر الى اختيارهم فى هذه التكليف ، وأما قول أصحابنا فيه فهو ظاهر ، وهذه المناظرة قد تكررت مرارا كثيرة ، وروى الواحدى أن عزيرا قال : يارب خلقت الخلق فضل من تشاء وتهدى من تشاء ، فقال : يا عزير أعرض عن هذا . فأعاده ثانيا . فقال : أعرض عن هذا ، فأعاده ثالثا ، فقال : أعرض عن هذا وإلا محوت اسمك من النبوة . قالت المعتزلة : وما يدل على أن المراد من هذه المشيئة مشيئة الاجاء ، أنه تعالى قال بعده (ولتسألن عما كنتم تعملون) فلو كانت أعمال العباد بخالق الله تعالى لكان سؤلهم عنها عبثا ، والجواب عنه قد سبق مرارا ، والله أعلم .

أن الخبر دل على أنه متى كان الصلاح في نقض الأيمان جاز نقضها .
ثم قال ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ هذه واو الحال ، أى لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلا
عليكم بالوفاء ، وذلك أن من حلف بالله تعالى فكأنه قد جعل الله كفيلا بالوفاء بسبب ذلك الحلف
ثم قال ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ وفيه ترغيب وترهيب ، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون إن
خيرا نغير وإن شرا فشر . ثم إنه تعالى أكد وجوب الوفاء ، وتحريم النقض وقال (ولا تكونوا
كألى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في المشبه به قولان :

﴿ القول الأول ﴾ أنها امرأة من قريش يقال لها رايطة ، وقيل ريطه ، وقيل تلقب جعراء

وكانت حمقاء تغزل الغزل هي وجواربها فإذا غزلت وأبرمت أمرتهن فنقضن ماغزان .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن المراد بالمثل الوصف دون التعيين ، لأن القصد بالأمثال صرف المكلف

عنه إذا كان قبيحا ، والدعاء إليه إذا كان حسنا . وذلك يتم به من دون التعيين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من بعد قوة) أى من بعد قوة الغزل بإبرامها وقتلها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أنكاثا) قال الأزهرى : واحدها نكث وهو الغزل من الصوف

والشعر يبرم وينسج ، فإذا أحكمت النسيجة قطعتم ونكثت خيوطها المبرمة ونفشت تلك الخيوط
وخلطت بالصوف ثم غزلت ثانية ، والنكث المصدر ، ومنه يقال نكث فلان عهدته إذا نقضه
بعد إحكامه كما ينكث خيط الصوف بعد إبرامه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في انتصاب قوله (أنكاثا) وجوه : الأول : قال الزجاج : أنكاثا منصوب

لأنه بمعنى المصدر لأن معنى نكثت نقضت ، ومعنى نقضت نكثت ، وهذا غلط منه ، لأن الأنكاث
جمع نكث وهو اسم لامصدر فكيف يكون قوله (أنكاثا) بمعنى المصدر ؟ الثاني : قال الواحدي :
أنكاثا مفعول ثان كما تقول كسره أقطاعا وفرقه أجزاء على معنى جعله أقطاعا وأجزاء فكذا ههنا
قوله : نقضت غزلها أنكاثا . أى جعلت غزلها أنكاثا . الثالث : إن قوله (أنكاثا) حال مؤكدة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال ابن قتيبة : هذه الآية متصلة بما قبلها ، والتقدير : وأوفوا بعهد الله

إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل المرأة التي غزلت
غزلا وأحكمته فلما استحكمته نقضته فجعلته أنكاثا .

ثم قال تعالى ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ﴾ قال الواحدي : الدخل والدغل الغش والخيانة .

قال الزجاج : كل ما دخله عيب قيل هو مدخول وفيه دخل ، وقال غيره : الدخل ما أدخل
في الشيء على فساد .

ميمون بن مهران من عاهدته وف بعهدہ مسلماً كان أو كافراً فانما العهد لله تعالى . الثالث : قال الأصم : المراد منه الجهاد وما فرض الله في الأموال من حق . الرابع : عهد الله هو اليمين بالله ، وقال هذا القائل : إنما يجب الوفاء باليمين إذا لم يكن الصلاح في خلافه ، لأنه عليه السلام قال «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ثم ليكفر» الخامس : قال القاضي العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه ، ومعلوم أن أدلة العقل والسمع أو كد في لزوم الوفاء بما يدلان على وجوبه من اليمين . ولذلك لا يصح في هذين الدليلين التغير والاختلاف ، ويصح ذلك في اليمين وربما ندب فيه خلاف الوفاء .

ولقائل أن يقول : إنه تعالى قال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) فهذا يجب أن يكون مختصاً بالعهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله (إذا عاهدتم) يدل على هذا المعنى وحينئذ لا يبقى المعنى الذي ذكره القاضي معتبراً . ولأنه تعالى قال في آخر الآية (وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) وهذا يدل على أن الآية واردة فيمن آمن بالله والرسول ، وأيضاً يجب أن لا يحمل هذا العهد على اليمين ، لأننا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) تكراراً لأن الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان ، لأن الأمر بالفعل يستلزم النهي عن الترك إلا إذا قيل إن الوفاء بالعهد عام ويدخل تحته اليمين ، ثم إنه تعالى خص اليمين بالذكر تنبيهاً على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية ، وعند هذا نقول الأولى أن يحمل هذا العهد على ما يلتزمه الإنسان باختياره ويدخل فيه المبايعة على الأيمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد ، وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات . والأشياء التي أكدتها بالحلف واليمين ، وفي قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) مباحث :

﴿البحث الأول﴾ قال الزجاج : يقال وكنت وأكدت لغتان جيدتان ، والأصل الواو ، والهمزة بدل منها .

﴿البحث الثاني﴾ قال أصحاب أبي حنيفة رحمه الله . يمين اللغو هي يمين الغموس . والدليل عليه أنه تعالى قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) فهي في هذه الآية عن نقض الأيمان ، فوجب أن يكون كل يمين قابلاً للبر والحنث . ويمين الغموس غير قابلة للبر والحنث فوجب أن لا تكون من الأيمان . واحتج الواحدى بهذه الآية على أن يمين اللغو هي قول العرب لا والله وبلى والله . قال إنما قال تعالى (بعد توكيدها) للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم وبالعقد وبين لغو اليمين .

﴿البحث الثالث﴾ قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) عام دخله التخصيص ، لأننا بينا

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِدِهَا وَقَدْ
 جَعَلْتُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي
 نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ
 أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ
 فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

الله لا من فعل العبد ، والدليل عليه هو أن التذكرة عبارة عن طلب المتذكر خلال الطاب إما أن يكون له به شعور أو لا يكون له به شعور . فإن كان له شعور فذلك الذكر حاصل ، والحاصل لا يطلب تحصيله . وإن لم يكن له به شعور فكيف يطلبه بعينه ، لأن توجيه الطلب اليه بعينه حال ما لا يكون هو بعينه متصورا محال .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله (لعلمكم تذكرون) معناه أن المقصود من هذا الوعد أن يقدموا على تحصيل ذلك التذكر ، فإذا لم يكن التذكر فعلا له فكيف طلب منه تحصيله ، وهذا هو الذي يحتاج به أصحابنا على أن قوله تعالى (لعلمكم تذكرون) لا يدل على أنه تعالى يريد منه ذلك . والله أعلم .
 قوله تعالى ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كآلتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾

اعلم أنه تعالى لما جمع كل المسامرات والمنهيات في الآية الأولى على سبيل الاجمال ، ذكر في هذه الآية بعض تلك الأقسام . فبدأ تعالى بالأمر بالوفاء بالعهد وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكروا في تفسير قوله (بعهدالله) وجوها : الأول : قال صاحب الكشاف : عهد الله هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام لقوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدالله فوق أيديهم) أي ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توكيدها ، أي بعد توثيقها باسم الله الثاني : أن المراد منه كل عهد يلتزمه الانسان باختياره قال ابن عباس : والوعد من العهد ، وقال

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى لما قال في الآية الأولى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) أرفده بهذه الآية مشتملة على الأمر بهذه الثلاثة، والنهي عن هذه الثلاثة، كان ذلك تنبيها على أن المراد بكون القرآن تبيانا لكل شيء هو هذه التكاليف الستة وهي في الحقيقة كذلك، لأن جوهر النفس من زمرة الملائكة ومن نتائج الأرواح العالية القدسية إلا أنه دخل في هذا العالم خاليا عاريا عن التعلقات فتلك الثلاثة التي أمر الله بها هي التي ترقبها بالمعارف الإلهية والأعمال الصالحة. وتلك المعارف والأعمال هي التي ترقبها إلى عالم الغيب وسرادقات القدس، ومجاورة الملائكة المقربين في جوار رب العالمين. وتلك الثلاثة التي نهى الله عنها هي التي تصدها عن تلك السعادات وتمنعها عن الفوز بتلك الخيرات، فلما أمر الله تعالى بتلك الثلاثة، ونهى عن هذه الثلاثة فقد نبه على كل ما يحتاج إليه المسافرون من عالم الدنيا إلى مبدأ عرصة القيامة.

﴿المسألة الثانية﴾ قال الكعبي: الآية تدل على أنه تعالى لا يخلق الجور والفحشاء، وذلك من وجوه: الأول: أنه تعالى كيف ينهاهم عما يخترعه فيهم، وكيف ينهى عما يريد تحصيله فيهم. ولو كان الأمر كما قالوا لكان كأنه تعالى قال: إن الله يأمركم أن تفعلوا خلاف ما خلقه فيكم. وينهاكم عن أفعال خلقها فيكم، ومعلوم أن ذلك باطل في بديهة العقل. والثاني: أنه تعالى لما أمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى. ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فلو أنه تعالى أمر بتلك الثلاثة ثم إنه ما فعلها لدخل تحت قوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وتحت قوله (لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) الثالث: أن قوله (لعلكم تذكرون) ليس المراد منه الترحي والتمني، فإن ذلك محال على الله تعالى، فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تذكروا طاعته، وذلك يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل. الرابع: أنه تعالى لو صرح وقال: إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى، ولكنه تمنع منه ويصد عنه ولا يمكن العبد منه. ثم قال (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) ولكنه يوجد كل هذه الثلاثة في العبد شاء أم أبى وأراده منه ومنعه من تركه، ومن الاحتراز عنه لحكم كل أحد عليه بالركاكة وفساد النظم والتركيب، وذلك يدل على كونه سبحانه متعاليا عن فعل القبائح.

واعلم أن هذا النوع من الاستدلال كثير. وقد مر الجواب عنه والمعتمد في دفع هذه المشاغبات التعويل على سؤال الداعي وسؤال العلم والله أعلم.

﴿المسألة الثالثة﴾ اتفق المتكلمون من أهل السنة ومن المعتزلة على أن تذكر الأشياء من فعل

فان قالوا : لم سمي هذا المعنى بالاحسان ؟

قلنا : كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن إلى نفسه ويوصل الخير والفعل الحسن إلى نفسه ، والحاصل أن العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات ، والاحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية ، وبحسب الدواعي والصوارف ، وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية ، فهذا هو الاحسان .

واعلم أن الاحسان بالتفسير الذي ذكرناه دخل فيه التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، ومن الظاهر أن الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة . وأشرفها وأجلها صلة الرحم لاجرم أنه سبحانه أفرد بالذكر فقال (وإيتاء ذى القربى) فهذا تفصيل القول في هذه الثلاثة التي أمر الله تعالى بها . وأما الثلاثة التي نهى الله عنها ، وهي الفحشاء والمنكر والبغى . فنقول : إنه تعالى أودع في النفس البشرية قوى أربعة ، وهي الشهوانية البهيمية . والغضبية السبعية . والوهمية الشيطانية . والعقلية الملكية وهذه القوة الرابعة أعنى العقلية الملكية لا يحتاج الانسان إلى تأديبها وتهذيبها ، لأنها من جواهر الملائكة ، ومن نتائج الأرواح القدسية العلوية ، إنما المحتاج إلى التأديب والتهذيب تلك القوى الثلاثة الأول . أما القوة الشهوانية ، فهي إنما ترغب في تحصيل اللذات الشهوانية ، وهذا النوع مخصوص باسم الفحش . ألا ترى أنه تعالى سمي الزنا فاحشة فقال (إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فنقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) المراد منه المنع من تحصيل اللذات الشهوانية الخارجة عن إذن الشريعة وأما القوة الغضبية السبعية فهي : أبدا تسعى في إيصال الشر والبلاء والايذاء الى سائر الناس ، ولا شك أن الناس ينكرون تلك الحالة ، فالمنكر عبارة عن الافراط الحاصل في آثار القوة الغضبية . وأما القوة الوهمية الشيطانية فهي أبدا تسعى في الاستعلاء على الناس والترفع واطهار الرياسة والتقدم ، وذلك هو المراد من البغى ، فانه لا معنى للبغى الا التطاول على الناس والترفع عليهم ، فظهر بما ذكرنا أن هذه الألفاظ الثلاثة منطبقة على أحوال هذه القوى الثلاثة ، ومن العجائب في هذا الباب أن العقلاء قالوا : أخس هذه القوى الثلاثة هي الشهوانية ، وأوسطها الغضبية وأعلاها الوهمية . والله تعالى راعى هذا الترتيب فبدأ بالفحشاء التي هي نتيجة القوة الشهوانية ، ثم بالمنكر الذي هو نتيجة القوة الغضبية ، ثم بالبغى الذي هو نتيجة القوة الوهمية ، فهذا ما وصل اليه عقلي وخاطري في تفسير هذه الألفاظ ، فان يك صوابا فمن الرحمن ، وان يك خطأ فني ومن الشيطان والله ورسوله عنه بريئان والحمد لله على ما خصنا بهذا النوع من الفضل والاحسان إنه الملك الديان ثم قال تعالى «يعظكم لعظكم تذكرون» والمراد بقوله تعالى (يعظكم) أمره تعالى بتلك الثلاثة ونهيه عن هذه الثلاثة (لعظكم تذكرون) وفيه مسألتان :

الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها. وشرع عيسى يقتضى حل وطء الحائض ، والعدل ما حكم به شرعنا وهو أنه يحرم وطؤها احترازا عن التلطيخ بتلك الدماء الخبيثة أما لا يجب إخراجها عن الدار . وثالثها : أنه تعالى قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) يعنى متباعدين عن طرفى الإفراط والتفريط فى كل الأمور ، وقال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العبادات . قال تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ولما أخذ قوم فى المساهلة قال (أخسبتم إنما خلقناكم عبثا) والمراد من الكل رعاية العدل والوسط ، ورابعها . أن شريعتنا أمرت بالختان ، والحكمة فيه أن رأس ذلك العضو جسم شديد الحس ولأجله عظم الالتئاذ عند الوقوع . فلو بقيت تلك الجلد على ذلك العضو بقى ذلك العضو على كمال القوة وشدة الاحساس فيعظم الالتئاذ . أما اذا قطعت تلك الجلد بقى ذلك العضو عاريا فيأبى الثياب وسائر الأجسام فيتصلب ويضعف حسه ويقل شعوره فيقل الالتئاذ بالوقوع فتقل الرغبة فيه . فكأن الشريعة إنما أمرت بالختان سعيا فى تقليل تلك اللذة ، حتى يصير ميل الانسان الى قضاء شهوة الجماع الى حد الاعتدال ، وأن لاتصير الرغبة فيه غالبه على الطبع ، فالإخصاء وقطع الآلات على ما تذهب اليه المانوية مذموم لأنه إفراط ، وإبقاء تلك الجلد مبالغة فى تقوية تلك اللذة . والعدل الوسط هو الاتيان بالختان ، فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجب الرعاية فى جميع الأحوال ، ومن الكلمات المشهورة قولهم : وبالعدل قامت السموات والأرض ، ومعناه أن مقادير العناصر لو لم تكن متعادلة متكافئة ، بل كان بعضها أزيد بحسب الكمية وبحسب الكيفية من الآخر ، لاستولى الغالب على المغلوب ووهى المغلوب ، وتنقلب الطبائع كلها الى طبيعة الجرم الغالب . ولو كان بد الشمس من الأرض أقل مما هو الآن ، لعظمت السخونة فى هذا العالم واحترق كل ما فى هذا العالم ، ولو كان بعدها أزيد مما هو الآن لاستولى البرد والجود على هذا العالم . وكذا القول فى مقادير حركات الكواكب ومراتب سرعتها وبطئها ، فان الواحد منها لو كان أزيد مما هو الآن أو كان أنقص مما هو الآن لاختلت مصالح هذا العالم . فظهر بهذا السبب الذى ذكرناه صدق قولهم : وبالعدل قامت السموات والأرض ، فهذه إشارة مختصرة الى شرح حقيقة العدل . وأما الاحسان فاعلم أن الزيادة على العدل قد تكون إحسانا وقد تكون إساءة . مثاله أن العدل فى الطاعات هو أداء الواجبات . أما الزيادة على الواجبات فهى أيضا طاعات وذلك من باب الاحسان ، وبالجملة فالمبالغة فى أداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الاحسان . والدليل عليه : أن جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحسان قال «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك»

أما العدل فهو عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، وذلك أمر واجب الرعاية في جميع الأشياء ، ولا بد من تفصيل القول فيه . فنقول : الأحوال التي وقع التكليف بها إما الاعتقادات وإما أعمال الجوارح . أما الاعتقادات : فالعدل في كلها واجب الرعاية فأحدها : قال ابن عباس : إن المراد بالعدل هو قول لا إله إلا الله ، وتحقيق القول فيه أن نفي الإله تعطيل محض وإثبات أكثر من إله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان ، والعدل هو إثبات الإله الواحد وهو قول لا إله إلا الله . وثانيها : أن القول بأن الإله ليس بوجود ولا شيء ، تعطيل محض ، والقول بأنه جسم وجوهر ومركب من الأعضاء ، ومختص بالمكان تشبيه محض ، والعدل إثبات إله موجود متحقق بشرط أن يكون منزها عن الجسمية والجوهرية والأعضاء والأجزاء والمكان ، وثالثها : أن القول بأن الإله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض ، والقول بأن صفاته حادثة بتغيرة تشبيه محض . والعدل هو إثبات أن الإله عالم قادر حي مع الاعتراف بأن صفاته ليست حادثة ولا متغيرة ، ورابعها : أن القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض ، والقول بأن العبد مستقل بأفعاله قدر محض وهما مذمومان ، والعدل أن يقال : إن العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه ، وخامسها : القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شيء من الذنوب مساهلة عظيمة ، والقول بأنه تعالى يخلد في النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم ، والعدل أنه يخرج من النار كل من قال واعتقد أنه لا إله إلا الله ، فهذه أمثلة ذكرناها في رعاية معنى العدل في الاعتقادات ، وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح ، فنذكر ستة أمثلة منها : أحدها : أن قوما من نفاة التكليف يقولون : لا يجب على العبد الاشتغال بشيء من الطاعات . ولا يجب عليه الاحتراز عن شيء من المعاصي ، وليس لله عليه تكليف أصلا وقال قوم من الهند : ومن الممانوية إنه يجب على الإنسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ في تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه حتى أن الممانوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزوج ويحترزون عن أكل الطعام الطيب والهندي يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل فهذان الطريقتان مذمومان ، والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم . وثانيها : أن التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جدا ، والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جدا والوسط العدل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . قيل : كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة ، وفي شرع عيسى عليه السلام العفو . أما في شرعنا فإن شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة ، وإن شاء استوفى الدية وإن شاء عفا ، وأيضا شرع موسى يقتضي

مقرون بن عمرو : الام تدعوننا أخا قریش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) الآية فقال مقرون بن عمرو دعوت والله إلى مكارم الاخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ، وعن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على الوليد فاستعاده ، ثم قال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتهم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليجد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ في تفسير هذه الآية ، أكثر الناس في تفسير هذه الآية قال ابن عباس : في بعض الروايات العدل شهادة أن لا إله إلا الله ، والاحسان أداء الفرائض وقال في رواية أخرى العدل خلع الانداد . والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك فإن كان مؤمنا أحببت أن يزداد إيمانا . وإن كان كافرا أحببت أن يصير أخاك في الاسلام . وقال في رواية ثالثة العدل هو التوحيد . والاحسان الاخلاص فيه . وقال آخرون : يعنى بالعدل في الافعال . والاحسان في الأقوال ، فلا تفعل إلا ما هو عدل . ولا تقبل إلا ما هو احسان . وقوله (وإيتاء ذى القربى) يريد صلة الرحم بالمال فإن لم يكن فبالدعاء روى أبو مسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم إن أهل البيت ليكونوا بخارا فتمنى أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحاهم» وقوله (وينهى عن الفحشاء) قيل : الزنا ، وقيل البخل . وقيل كل الذنوب سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، وسواء كانت في القول أو في الفعل ، وأما المنكر فقيل : إنه الكفر بالله تعالى . وقيل : المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ، وأما البغى فقيل : الكبر والظلم ، وقيل : أن تبغى على أخيك . واعلم أن في المأمورات كثرة . وفي المنهيات أيضا كثرة ، وإنما حسن تفسير لفظ معين لشيء معين إذا حصل بين ذلك اللفظ وبين ذلك المعنى مناسبة . أما إذا لم تحصل هذه الحالة كان ذلك التفسير فاسدا ، فإذا فسرنا العدل بشيء والاحسان بشيء آخر وجب أن نبين أن لفظ العدل يناسب ذلك المعنى ، ولفظ الاحسان يناسب هذا المعنى ، فلما لم نبين هذا المعنى كان ذلك مجرد التحكم . ولم يكن جعل بعض تلك المعنى تفسيرا لبعض تلك الألفاظ أولى من العكس ، فثبت أن هذه الوجوه التي ذكرناها ليست قوية في تفسير هذه الآية . وأقول ظاهر هذه الآية ، يدل على أنه تعالى أمر بثلاثة أشياء ، وهي العدل والاحسان وإيتاء ذى القربى . ونهى عن ثلاثة أشياء وهي : الفحشاء : والمنكر والبغى . فوجب أن يكون العدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ثلاثة أشياء متغايرة . ووجب أن تكون الفحشاء . والمنكر . والبغى . ثلاثة أشياء متغايرة ، لأن العطف يوجب المتغايرة فنقول :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

مصدر تفعال بفتح التاء مثل تسيار وتذكار وتكرار ، وقلت : في كل اسم تفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال .

قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾

واعلم أنه تعالى لما استقصى في شرح الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب أتبعه بقوله (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) فجمع في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضا ونفلا ، وما يتصل بالاخلاق ، والآداب عموما وخصوصا ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في بيان فضائل هذه الآية روى عن ابن عباس أن عثمان بن مظعون الجمحي قال : ما أسلمت أولا إلا حياء من محمد عليه السلام . ولم يتقرر الاسلام في قلبي فخصته ذات يوم فبينما هو يحدثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء ثم خفضه عن يمينه ، ثم عاد لمثل ذلك فسألته فقال «بينما أنا أحدثك إذا بجبريل نزل عن يميني فقال : يا محمد إن الله يأمر بالعدل والاحسان العدل شهادة أن لا إله إلا الله والاحسان القيام بالفرائض وإيتاء ذى القربى ، أى صلة ذى القرابة وينهى عن الفحشاء الزنا ، والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة والبغى الاستطالة» قال عثمان : فوقع الايمان في قلبي فأتيت أبا طالب فأخبرته فقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخى ترشدوا ولئن كان صادقا أو كاذبا فانه ما يأمركم إلا بمكارم الاخلاق ، فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم من عمه اللين قال : يا عماه أتأسر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك وجهد عليه فأبى أن يسلم فنزل قوله (إنك لا تهدي من أحببت) وعن ابن مسعود رضى الله عنه إن أجمع آية في القرآن لحير وشهر هذه الآية ، وعن قتادة ليس من خلق حسن كان في الجاهلية يعمل ويستحب إلا أمر الله تعالى به في هذه الآية وليس من خلق سيء إلا نهى الله تعالى عنه في هذه الآية وروى القاضى في تفسيره عن ابن ماجه عن على عليه السلام أنه قال : أمر الله تعالى نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، فخرج وأنامعه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر : بمن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فان قريشا كذبوه فقال

من شهيد على الناس وذلك الشهيد لا بد وأن يكون غير جائز الخطأ . وإلا لافتقر إلى شهيد آخر ويمتد ذلك إلى غير النهاية وذلك باطل ، فثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجّة بقولهم وذلك يقتضى أن يكون إجماع الأمة حجة . قال أبو بكر الأصم : المراد بذلك الشهيد هو أنه تعالى ينطق عشرة من أعضاء الانسان حتى أنها تشهد عليه وهي : الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان . قال : والدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد أنه من أنفسهم وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم .

أجاب القاضى عنه من وجوه : الأول : أنه تعالى قال (شهيذا عليهم) أى على الأمة فيجب أن يكون غيرهم . الثانى : أنه قال (من كل أمة) فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمة وآحاد الاعضاء لا يصح وصفها بأنها من الأمة . وأما حمل هؤلاء الشهداء على الانبياء فبعيد ، وذلك لأن كونهم أنبياء مبعوثين إلى الخلق أمر معلوم بالضرورة فلا فائدة في حمل هذه الآية عليه .

ثم قال تعالى ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ وجه تعلق هذا الكلام بما قبله أنه تعالى لما قال (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) بين أنه أزاح علمهم فيما كلفوا فلا حجة لهم ولا معذرة .

﴿المسألة الثانية﴾ من الناس من قال : القرآن تبيان لكل شيء وذلك لأن العلوم إما دينية أو غير دينية ، أما العلوم التي ليست دينية فلا تعلق لها بهذه الآية ، لأن من المعلوم بالضرورة أن الله تعالى إنما مدح القرآن بكونه مشتملا على علوم الدين فأما ما لا يكون من علوم الدين فلا التفات إليه ، وأما علوم الدين فاما الاصول ، وإما الفروع ، أما علم الاصول فهو بتمامه موجود في القرآن وأما علم الفروع فالأصل براءة الذمة إلا ماورد على سبيل التفصيل في هذا الكتاب . وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله تعالى إلا ماورد في هذا القرآن ، وإذا كان كذلك كان القول بالقياس باطلا ، وكان القرآن وافيا ببيان كل الاحكام . وأما الفقهاء فانهم قالوا : القرآن إنما كان تبيانا لكل شيء . لأنه يدل على أن الاجماع وخبر الواحد والقياس حجة . فاذا ثبت حكم من الاحكام بأحد هذه الاصول كان ذلك الحكم ثابتا بالقرآن . وهذه المسألة قد سبق ذكرها بالاستقصاء في سورة الاعراف والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ روى الواحدى باسناده عن الزجاج أنه قال : تبيانا في معنى اسم البيان ومثل التبيان التلقا . وروى ثعلب عن الكوفيين ، والمبرد عن البصرين أنهم قالوا : لم يأت من المصادر على تفعال إلا حرفان تبيانا وتلقا ، وإذا تركت هذين اللانظنين استوى لك القياس فقلت : في كل

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِّلْمُسْلِمِينَ «٨٩»

وقوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) فالمعنى أنهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الايمان فهم في الحقيقة ازدادوا كفر اعلی كفر ، فلا جرم يزيدهم الله تعالى عذابا على عذاب ، وأيضا أتباعهم إنما اقتدوا بهم في الكفر ، فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم لقوله تعالى (وليحملن أثقالهن وأثقالا مع أثقالهن) ولقوله عليه السلام «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» ومن المفسرين من ذكر تفصيل تلك الزيادة فقال ابن عباس : المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار ، وقال بعضهم زدناهم عذابا بحيات وعقارب كأمثال البخت ، فيستغيثون بالهرب منها إلى النار ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلثمائة فقرة في كل فقرة ثلثمائة فلة من سم . وقيل : عقارب لها أنياب كالنخل الطوال .

ثم قال تعالى ﴿بما كانوا يفسدون﴾ أى هذه الزيادة من العذاب إنما حصلت معللة بذلك الصد ، وهذا يدل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال فقد عظم عذابه ، فكذلك إذا دعا إلى الدين واليقين ، فقد عظم قدره عند الله تعالى والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصي . واعلم أن الأمة عبارة عن القرن والجماعة .

إذا ثبت هذا فنقول : في الآية قولان : الأول : أن المراد أن كل نبي شاهد على أمته . والثاني : أن كل جمع وقرن يحصل في الدنيا فلا بد وأن يحصل فيهم واحد يكون شهيدا عليهم . أما الشهيد على الذين كانوا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الرسول بدليل قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وثبت أيضا أنه لا بد في كل زمان بعد زمان الرسول من الشهيد . فحصل من هذا أن عصرا من الأعصار لا يخلو

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

قلنا: فيه وجهان: الأول: قال أبو مسلم الأصفهاني: مقصود المشركين إحالة الذنب على هذه الأصنام وظنوا أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم، فعند هذا تكذبهم تلك الأصنام. قال القاضي: هذا بعيد، لأن الكفار يعلمون علما ضروريا في الآخرة أن العذاب سينزل بهم وأنه لا نصرة ولا فدية ولا شفاعة.

﴿والقول الثاني﴾ أن المشركين يقولون هذا الكلام تعجبا من حضور تلك الأصنام مع أنه لا ذنب لها. واعترافا بأنهم كانوا مخطئين في عبادتها. ثم حكى تعالى أن الأصنام يكذبونهم. فقال (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) والمعنى: أنه تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتى تقول هذا القول، وقوله (إنكم لكاذبون) بدل من القول، والتقدير: فألقوا إليهم إنكم لكاذبون.

فان قيل: إن المشركين ما قالوا: إلا أنهم لما أشاروا إلى الأصنام قالوا: إن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك وقد كانوا صادقين في كل ذلك، فكيف قالت الأصنام إنكم لكاذبون؟ قلنا: فيه وجوه، والأصح أن يقال المراد من قولهم هؤلاء شركاؤنا هو أن هؤلاء الذين كنا نقول إنهم شركاء الله في العبودية. فالأصنام كذبوهم في إثبات هذه الشركة. وقيل: المراد إنكم لكاذبون في قولكم إنا نستحق العبادة ويدل عليه قوله تعالى (كلا سيكفرون بعبادتهم)

ثم قال تعالى ﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم﴾ قال الكلبي: استسلم العابد والمعبود وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والأنداد (وضل عنهم ما كانوا يفترون) وفيه وجهان. وقيل: ذهب عنهم ما زين لهم الشيطان من أن الله شريكا وصاحبة وولدا. وقيل: بطل ما كانوا يأملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله تعالى.

قوله تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الذين كفروا، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صد الغير عن سبيل الله. وفي تفسير قوله (وصدوا عن سبيل الله) وجهان: قيل: معناه الصد عن المسجد الحرام. والأصح أنه يتناول جملة الايمان بالله والرسول وبالشرائع، لأن اللفظ عام فلا معنى للتخصيص

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا
 نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْمَ إِلَى اللَّهِ
 يُؤَمِّنُ سَلَمٌ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

آيسين من رحمة الله تعالى . ثم قال (ولاهم يستعجبون) الاستعجاب طلب العتاب ، والرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان على جزم أنه إذا عاتبه رجع إلى الرضا ، فإذا لم يطلب العتاب منه دل على أنه راسخ في غضبه وسطوته ، ثم إنه تعالى أكد هذا الوعيد فقال (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم) والمعنى أن المشركين إذا رأوا العذاب ووصلوا إليه ، فعند ذلك لا يخفف عنهم العذاب (ولاهم) أيضا (ينظرون) أى لا يؤخرون ولا يمهلون ، لأن التوبة هناك غير موجودة ، وتحقيقه ما يقوله المتكلمون من أن العذاب يجب أن يكون خالصا عن شوائب النفع ، وهو المراد من قوله (لا يخفف عنهم العذاب) ويجب أن يكون العذاب دائما وهو المراد من قوله (ولاهم ينظرون) قوله تعالى ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركائنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ اعلم أن هذا أيضا من بقية وعيد المشركين ، وفي الشركاء قولان :

﴿القول الأول﴾ أنه تعالى يبعث الأصنام التي كان يعبدها المشركون ، والمقصود من إعادتها أن المشركين يشاهدونها في غاية الذلة والحقارة . وأيضا أنها تكذب المشركين ، وكل ذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ، وإنما وصفهم الله بكونهم شركاء لوجهين : الأول : أن الكفار كانوا يسمونها بأنها شركاء الله . والثاني : أن الكفار جعلوا لهم نصيبا من أموالهم .

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد بالشركاء الشياطين الذين دعوا الكفار إلى الكفر ، وهو قول الحسن ، وإنما ذهب إلى هذا القول ، لأنه تعالى حكى عن أولئك الشركاء أنهم ألقوا إلى الذين أشركوا إنهم لكاذبون ، والأصنام جمادات فلا يصح منهم هذا القول ، فوجب أن يكون المراد من الشركاء الشياطين حتى يصح منهم هذا القول وهذا بعيد ، لأنه تعالى قادر على خلق الحياة في تلك الأصنام وعلى خاق العقل والنطق فيها ، وحينئذ يصح منها هذا القول ، ثم حكى تعالى عن المشركين أنهم إذا رأوا تلك الشركاء قالوا ربنا هؤلاء شركائنا الذين كنا ندعوا من دونك .

فان قيل : فما فائدتهم في هذا القول ؟

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ
يَسْتَعْتَبُونَ «٨٤» وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظُرُونَ «٨٥»

هذه الأصنام . والثاني : أن المراد أنهم عرفوا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرونها .
ونبوته نعمة عظيمة كما قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الثالث : يعرفون نعمة الله ثم
ينكرونها . أي لا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿وأكثرهم الكافرون﴾

فان قيل : ماعنى قوله (وأكثرهم الكافرون) مع أنه كان كلهم كافرين .

قلنا : الجواب من وجوه : الأول : إنما قال (وأكثرهم) لأنه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة
من لم يبلغ حد التكليف . أو كان ناقص العقل معتوها ، فأراد بالأكثر البالغين الأصحاء . الثاني : أن
يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند ، وحينئذ نقول إنما قال (وأكثرهم) لأنه كان فيهم من لم يكن
معاندا بل كان جاهلا بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله
الثالث : أنه ذكر الأكثر والمراد الجميع ، لأن أكثر الشيء يقوم مقام الكل . فذكر الأكثر كذكر
الجميع ، وهذا كقوله (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون وإذا
رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر أيضا من حالهم
أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد ، فذكر حال يوم القيامة فقال (ويوم نبعث من كل أمة
شهيدا) وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار وبذلك الكفر ، والمراد
بهؤلاء الشهداء الأنبياء كما قال تعالى ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء
شهيدا وقوله (ثم لا يؤذن للذين كفروا) فيه وجوه : أحدها : لا يؤذن لهم في الاعتذار لقوله
(ولا يؤذن لهم فيعتذرون) وثانيها : لا يؤذن لهم في كثرة الكلام . وثالثها : لا يؤذن لهم
في الرجوع إلى دار الدنيا وإلى التكليف . ورابعها : لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود . بل
يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود . وخامسها : لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم

أكثر ، ولذلك قال (ونزل من السماء من جبال فيها من برد) لمعرفةهم بذلك وما أنزل من الثلج أعظم ولكمهم كانوا لا يعرفونه .

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب قال المبرد : إن ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر ، قلت ثبت في العلوم العقلية أن العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر ، فان الانسان متى خطر بياله الحر خطر بياله أيضا البرد ، وكذا القول في النور والظلمة والسواد والبياض ، فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعا للشعور بالآخر . كان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر .

﴿والوجه الثالث﴾ قال الزجاج : ما وقى من الحر وقى من البرد ، فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر .

فان قيل : هذا بالضد أولى ، لأن دفع الحر يكفي فيه السراويل التي هي القمص من دون تكلف زيادة . وأما البرد فانه لا يندفع إلا بتكلف زائد .

قلنا : القميص الواحد لما كان دافعا للحر كان الاستكثار من القميص دافعا للبرد فصح ما ذكرناه ، وقوله (وسراويل تقيمكم بأسكم) يعني دروع الحديد ، ومعنى البأس الشدة ، ويريد ههنا شدة الطعن والضرب والرمي .

واعلم أنه تعالى لما عدد أقسام نعمة الدنيا قال (كذلك يتم نعمته عليكم) أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فانه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم (لعلكم تسلمون) قال ابن عباس : لعلكم يأهل مكة تخلصون لله الربوبية ، وتعلمون أنه لا يقدر على هذه الانعامات أحد سواه ، ونقل عن ابن عباس أنه قرأ (لعلكم تسلمون) بفتح التاء ، والمعنى : أنا أعطيناكم هذه السراويلات لتسلموا عن بأس الحرب ، وقيل أعطيتكم هذه النعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فسلموا من عذاب الله .

ثم قال تعالى ﴿فان تولوا فإنا معك البلاغ المبين﴾ أي فان تولوا يا محمد وأعرضوا وآثروا لذات الدنيا ومتابعة الآباء والمعاداة في الكفر فعلى أنفسهم جنوا ذلك ، وليس عليك إلا ما فعلت من التبليغ التام . ثم إنه تعالى دهمهم بأنهم يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وذلك نهاية في كفران النعمة . فان قيل : ما معنى ثم ؟

قلنا : الدلالة على أن إنكارهم أمر يستبعد بعد حصول المعرفة ، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر ، وفي المراد بهذه النعمة وجوه : الأول : قال القاضى المراد بها جميع ما ذكره الله تعالى في الآيات المتقدمة من جميع أنواع النعم ؛ ومعنى أنهم أنكروه هو أنهم ما أفردوه تعالى بالشكر والعبادة بل شكروا على تلك النعم غير الله تعالى . ولأنهم قالوا إنما حصلت هذه النعم بشفاعته

نِعِمَّتَ اللهُ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ «٨٣»

عليك البلاغ المبين يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴿
اعلم أن الانسان إما أن يكون مقميا أو مسافرا ، والمسافر إما أن يكون غنيا يمكنه استصحاب
الخيام والفساطيط ، أو لا يمكنه ذلك فهذه أقسام ثلاثة :

﴿أما القسم الأول﴾ فاليه الاشارة بقوله (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا)

﴿وأما القسم الثاني﴾ فاليه الاشارة بقوله (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا)

﴿وأما القسم الثالث﴾ فاليه الاشارة بقوله (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) وذلك لأن

المسافر إذا لم يكن له خيمة يستظل بها فانه لابد وأن يستظل بشيء آخر كالجدران والأشجار وقد
يستظل بالغمام كما قال (وظللنا عليكم الغمام)

ثم قال ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ واحد الأكنان كرن على قياس أحمال وحمل ،
ولكن المراد كل شيء وفي شيئا ، ويقال استكن وأكن إذا صار في كرن .

واعلم أن بلاد العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا السبب ذكر
الله تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة ، وأيضا البلاد المعتدلة والأوقات المعتدلة نادرة جدا
والغالب إما غلبة الحر أو غلبة البرد . وعلى كل التقديرات فلا بد للانسان من مسكن يأوى اليه ،
فكان الانعام بتحصيله عظيما ، ولما ذكر تعالى أمر المسكن ذكر بعده أمر الملبوس فقال
(وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم) السراويل القمص واحدها سربال ، قال
الزجاج : كل ما لبسته فهو سربال من قميص أو درع أو جوشن أو غيره ، والذي يدل على صحة
هذا القول أنه جعل السراويل على قسمين : أحدهما : ما يكون واقيا من الحر والبرد . والثاني :
ما يتقى به عن البأس والحروب ، وذلك هو الجوشن وغيره ، وذلك يدل على أن كل واحد من
القسمين من السراويل .

فان قيل : لم ذكر الحر ولم يذكر البرد ؟

أجابوا عنه من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ قال عطاء الخراساني : المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت

حاجتهم إلى ما يدفع الحر فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد كما قال (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها)
وسائر أنواع الثياب أشرف ، إلا أنه تعالى ذكر ذلك النوع لأنه كان إلفهم بها أشد ، واعتيادهم للبسها

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ «٨١» فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ «٨٢» يَعْرِفُونَ

وإليها الإشارة بقوله (والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا) وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله . بل الإنسان ينتقل إليه .

(والقسم الثاني) القباب والخيام والفساطيط ، وإليها الإشارة بقوله (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان . واعلم أن المراد الانطاع ، وقد تعمل العرب البيوت من الأدم وهي جلود الأنعام أى يخف عليكم حملها في أسفاركم . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (يوم ظعنكم) بفتح العين والباقون ساكنة العين . قال الواحدى : وهما لغتان كالشعر والشعر والنهر والنهر .

واعلم أن الظعن سير البادية لنجعة ، أو حضور ماء ، أو طلب مرتع ، وقد يقال لكل شاخص لسفر : ظاعن ، وهو ضد الخافض . وقوله (ويوم إقامتكم) بمعنى لا يثقل عليكم في الحالين . وقوله (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) قال المفسرون وأهل اللغة : الأصواف للضأن والأوبار للابل والأشعار للعز . وقوله (أثاثا) الأثاث أنواع متاع البيت من الفرش والأكسية . قال الفراء : ولا واحد له ، كما أن المتاع لا واحد له . قال ولو جمعت . فقلت آتثة في القليل وأث في الكثير لم يبعد . وقال أبو زيد : واحدها أثانة . قال ابن عباس في قوله (أثاثا) يريد طنائف وبسطا وثيابا وكسوة . قال الخليل : وأصله من قولهم : أث النبات والشعر إذا كثرت . وقوله (متاعا) أى ما يتمتعون به . وقوله (إلى حين) يريد إلى حين البلا ، وقيل : إلى حين الموت ، وقيل : إلى حين بعد الحين ، وقيل : إلى يوم القيامة .

فان قيل : عطف المتاع على الأثاث والعطف يقتضى المغايرة ، وما الفرق بين الأثاث والمتاع ؟ قلنا : الأثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء ، والمتاع ما يفرش في المنازل ويزين به .

قوله تعالى ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالات وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فان تولوا فانما

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا
أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

أعطى الطير جناحا يبسطه مرة ويكسره أخرى مثل ما يعملها السباح في الماء ، وخلق الهواء خلقته لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه ، والنفاذ فيه ، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا . وأما قوله تعالى (ما يسكنن إلا الله) فالمعنى : أن جسد الطير جسم ثقيل ، والجسم الثقيل يمتنع بقاءه في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه . فوجب أن يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى ، ثم من الظاهر أن بقاءه في الجو معلقا فعله وحاصل باختياره ، فثبت أن خالق فعل العبد هو الله تعالى . قال القاضى : إنما أضاف الله تعالى هذا الامساك الى نفسه ، لأنه تعالى هو الذى أعطى الآلات التى لأجلها يمكن الطير من تلك الأفعال ، فلما كان تعالى هو المسبب لذلك لاجرم صحت هذه الاضافة الى الله تعالى .

والجواب : أن هذا ترك للظاهر بغير دليل وأنه لا يجوز ، لاسيما والدلائل العقلية دلت على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

ثم قال تعالى فى آخر الآية ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وخص هذه الآيات بالمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها وإن كانت هذه الآيات آيات لكل العقلاء ، والله أعلم ، قوله تعالى ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد . وأقسام النعم والفضل ، والسكن المسكن ، وأنشد الفراء :

جاء الشتاء ولما أتخذ سكننا يا ويح كنى من حفر القراميص

والسكن ما سكنت اليه وما سكنت فيه . قال صاحب الكشاف : السكن فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يسكن اليه وينقطع اليه من بيت أو الف .

واعلم أن البيوت التى يسكن الانسان فيها على قسمين :

﴿ القسم الأول ﴾ البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت ،

وأن نصف الاثنين ماهو كان حضور هذين التصورين في الذهن علة تامة في جزم الذهن بأن الواحد محكوم عليه بأنه نصف الاثنين ، وهذا القسم هو عين العلوم البديهية .

﴿والقسم الثاني﴾ ما لا يكون كذلك وهو العلوم النظرية ، مثل أنه إذا حضر في الذهن أن الجسم ماهو وأن المحدث ماهو ، فإن مجرد هذين التصورين في الذهن لا يكفي في جزم الذهن بأن الجسم محدث ، بل لا بد فيه من دليل منفصل وعلوم سابقة . والحاصل : أن العلوم الكسبية إنما يمكن اكتسابها بواسطة العلوم البديهية ، وحدث هذه العلوم البديهية إنما كان عند حدوث تصور مريضاتها وتصور محمولاتها . وحدث هذه التصورات إنما كان بسبب إعادته هذه الحواس على جزئياتها ، فظهر أن السبب الأول لحدث هذه المعارف في النفوس والعقول هو أنه تعالى أعطى هذه الحواس ، فلهذا السبب قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ليصير حصول هذه الحواس سببا لاتتقال نفوسكم من الجهل الى العلم بالطريق الذي ذكرناه ، وهذه أبحاث شريفة عقلية محضة مدرجة في هذه الآيات . وقال المفسرون : (وجعل لكم السمع) لتسمعوا مواعظ الله (والأبصار) لتبصروا دلائل الله ، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله ، والأفئدة جمع فؤاد نحو أغربة وغراب . قال الزجاج : ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد ، وما قيل فيه فئدان كما قيل : غراب وغربان . وأقول : لعل الفؤاد إنما جمع على بناء جمع القلة تنبيها على أن السمع والبصر كثيران وأن الفؤاد قليل ، لأن الفؤاد إنما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية ، وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل يكونون مشغولين بالأفعال البهيمية والصفات السبعية ، فكان فؤادهم ليس بفؤاد ، فلهذا السبب ذكر في جمعه صيغة جمع القلة .

فان قيل : قوله تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار) عطف على قوله (أخرجكم) وهذا يقتضى أن يكون جعل السمع والبصر متأخرا عن الاخراج عن البطن ، ومعلوم أنه ليس كذلك .
والجواب : أن حرف الواو لا يوجب الترتيب ؛ وأيضا اذا حملنا السمع على الاستماع والأبصار على الرؤية زال السؤال ، والله أعلم .

أما قوله ﴿ألم يروا إلى الطير مستخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا آتاه﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي (ألم تروا) بالتاء والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره من الكفار .

﴿المسألة الثانية﴾ هذا دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ، فانه لولا أنه تعالى خلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران . وخلق الجو خلقة معها يمكن الطيران فيه لما أمكن ذلك . فانه تعالى

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائي (إمهاتكم) بكسر الهمزة ، والباقون بضمها .
 ﴿المسألة الثانية﴾ أمهاتكم أصله أماتكم ، إلا أنه زيد الهاء فيه كما زيد في اراق فتميل : اهراق
 وشدت زيادتها في الواحدة في قوله :

أمهتي خندف واليأس أبي

﴿المسألة الثالثة﴾ الانسان خلق في مبدأ الفطرة خاليا عن معرفة الأشياء .
 ثم قال ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ والمعنى : أن النفس الانسانية لما كانت
 في أول الحلقة خالية عن المعارف والعلوم بالله ، فالله أعطاه هذه الحواس ليستفيد بها المعارف
 والعلوم ، وتتمام الكلام في هذا الباب يستدعى مزيد تقرير فنقول : التصورات والتصديقات
 إما أن تكون كسبية ، وإما أن تكون بديهية ، والكسبيات انما يمكن تحصيلها بواسطة تركيبات
 البديهيات ، فلا بد من سبق هذه العلوم البديهية . وحينئذ لسائل أن يسأل فيقول : هذه العلوم
 البديهية إما أن يقال إنها كانت حاصلة منذ خلقنا أو ما كانت حاصلة . والأول باطل لأننا بالضرورة
 نعلم أنا حين كنا جنينا في رحم الأم ما كنا نعرف أن النفي والاثبات لا يجتمعان ، وما كنا نعرف
 أن الكل أعظم من الجزء .

﴿وأما القسم الثاني﴾ فإنه يقتضى أن هذه العلوم البديهية حصلت في نفوسنا بعد أمها ما كانت
 حاصلة ، فحينئذ لا يمكن حصولها إلا بكسب وطلب ، وكل ما كان كسبيا فهو مسبوق بعلم آخر
 فهذه العلوم البديهية تصير كسبية ، ويجب أن تكون مسبوقه بعلم آخر إلى غير نهاية . وكل
 ذلك محال ، وهذا سؤال قوى مشكل .

وجوابه أن نقول : الحق أن هذه العلوم البديهية ما كانت حاصلة في نفوسنا . ثم إنها حدثت
 وحصلت ، أما قوله فيلزم أن تكون كسبية .

قلنا : هذه المقدمة متنوعة ، بل نقول : إنها انما حدثت في نفوسنا بعد عدمها بواسطة إعاة
 الحواس التي هي السمع والبصر ، وتقريره أن النفس كانت في مبدأ الحلقة خالية عن جميع العلوم
 إلا أنه تعالى خلق السمع والبصر ، فاذا أبصر الطفل شيئا مرة بعد أخرى ارتسم في خياله ماهية ذلك
 المبصر ، وكذلك إذا سمع شيئا مرة بعد أخرى ارتسم في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع وكذا
 القول في سائر الحواس . فيصير حصول الحواس سببا لحضور ماهيات المحسوسات في النفس والعقل
 ثم إن تلك الماهيات على قسمين : أحد القسمين : ما يكون نفس حضوره موجبا تاما في جزم
 الذهن باسناد بعضها إلى بعض بالنفي أو الاثبات ، مثل أنه إذا حضر في الذهن أن الواحد ماهو ،

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

والابصار والافئدة لعلمكم تشكرون ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى مثل الكفار بالآبكم العاجز، ومثل نفسه بالذي يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، ومعلوم أنه يمتنع أن يكون أمرا بالعدل، وأن يكون على صراط مستقيم إلا إذا كان كاملا في العلم والقدرة، ذكر في هذه الآية بيان كونه كاملا في العلم والقدرة، أما بيان كمال العلم فهو قوله (ولله غيب السموات والأرض) والمعنى: علم الله غيب السموات والأرض وأيضا فقوله (ولله غيب السموات والأرض) يفيد الحصر معناه: أن العلم بهذه الغيوب ليس إلا لله وأما بيان كمال القدرة فقوله (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) والساعة هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة سميت ساعة لأنها تفجأ الإنسان في ساعة فيموت الخلق بصيحة واحدة، وقوله (إلا كلمح البصر) اللوح النظر بسرعة يقال لمح بصره لمح ومحانا، والمعنى: وما أمر قيام القيامة في السرعة إلا كطرف العين، والمراد منه تقرير كمال القدرة، وقوله (أو هو أقرب) معناه أن لمح البصر عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، ولا شك أن الحدقة مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ، فلمح البصر عبارة عن المرور على جملة تلك الأجزاء التي منها تألف سطح الحدقة، ولا شك أن تلك الأجزاء كثيرة، والزمان الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من آتات متعاقبة، والله تعالى قادر على إقامة القيامة في آن واحد من تلك الآتات فلذا قال (أو هو أقرب) إلا أنه لما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره. ثم قال (أو هو أقرب) تنبيها على ما ذكرناه، ولا شبهة في أنه ليس المراد طريقة الشك، بل المراد: بل هو أقرب، وقال الزجاج: المراد به الإبهام عن المخاطبين أنه تعالى يأتي بالساعة إما بقدر لمح البصر أو بما هو أسرع. قال القاضي: هذا لا يصح، لأن إقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال إنه تعالى يأتي بها في زمان، بل الواجب أن يخلقها دفعة واحدة في وقت واحد، ويفارق ما ذكرناه في ابتداء خلق السموات والأرض لأن تلك الحال حال تكليف، فلم يمتنع أن يخلقهما كذلك لما فيه من مصلحة الملائكة.

واعلم أن هذا الاعتراض إنما يستقيم على مذهب القاضي، أما على قولنا في أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فليس له قوة والله أعلم، ثم إنه تعالى عاد إلى الدلائل الدالة على وجود الصانع المختار فقال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) وفيه مسائل:

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ
 أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ

(المسألة الثانية) في المراد بهذا المثل أقوال كما في المثل المتقدم ،

(فالقول الأول) قال مجاهد : كل هذا مثل إله الخلق وما يدعى من دونه من الباطل . وأما
 الأبكم فمثل الصنم ، لأنه لا ينطق البتة . وكذلك لا يقدر على شيء ، وأيضا كل على عابديه لأنه لا ينفق
 عليهم وهم ينفقون عليه ، وأيضا الى أى مهم توجه الصنم لم يأت بخير . وأما الذى يأمر بالعدل
 فهو الله سبحانه وتعالى .

(والقول الثانى) أن المراد من هذا الأبكم : هو عبد لعثمان بن عفان كان ذلك العبد يكره
 الاسلام ، وما كان فيه خير . ومولاه وهو عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل ؛ وكان على الدين
 القويم والصراط المستقيم .

(والقول الثالث) أن المقصود منه : كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة . وكل حر
 موصوف بتلك الصفات الحميدة ، وهذا القول أولى من القول الأول ، لأن وصفه تعالى إياهما
 بكونهما رجاين يمنع من حمل ذلك على الوثن ، وكذلك بالبكم وبالسكل وبالتوجه فى جهات المنافع
 وكذلك وصف الآخر بأنه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى ، وأيضا فالمقصود تشبيهه
 صورة بصورة فى أمر من الأمور ، وذلك التشبيه لا يتم إلا عند كون إحدى الصورتين مغايرة للأخرى
 (وأما القول الثانى) فضعيف أيضا ، لأن المقصود إبانة التفرقة بين رجلين موصوفين بالصفات
 المذكورة ، وذلك غير مختص بشخص معين ، بل أيما حصل التفاوت فى الصفات المذكورة حصل
 المقصود . والله أعلم .

قوله تعالى « ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب
 إن الله على كل شيء قدير » والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع

اعلم أنه تعالى أبطل قول عبدة الأوثان والأصنام بهذا المثل الثاني، وتقريره: أنه كما تقرر في أوائل العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساويا في الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية، فلان يحكم بأن الجماد لا يكون مساويا لرب العالمين في المعبودية كان أولى، ثم نقول: في الآية مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى وصف الرجل الأول بصفات:

﴿الصفة الأولى﴾ الأبكم وفي تفسيره أقوال نقلها الواحدى . الأول: قال أبو زيد رجل أبكم، وهو العبي المقحم، وقد بكم بكا وبكامة، وقال أيضا: الأبكم الأقطع اللسان وهو الذى لا يحسن الكلام. الثانى: روى ثعلب عن ابن الاعرابى: الأبكم الذى لا يعقل. الثالث: قال الزجاج: الأبكم المطبق الذى لا يسمع ولا يبصر.

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (لا يقدر على شيء) وهو إشارة الى العجز التام والنقصان الكامل.

﴿والصفة الثالثة﴾ قوله (كل على مولاه) أى هذا الأبكم العاجز كل على مولاه. قال أهل المعانى: أصله من الغاظ الذى هو نقيض الحدة. يقال: كل السكين اذا غلظت شفرته فلم يقطع، وكل لسانه اذا غلظ فلم يقدر على الكلام، وكل فلان عن الأمر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه. فقوله (كل على مولاه) أى غليظ وثقيل على مولاه.

﴿الصفة الرابعة﴾ قوله (أينما يوجهه لايات بخير) أى أينما يرسله، ومعنى التوجيه أن ترسل صاحبك فى وجه معين من الطريق. يقال: وجهته الى موضع كذا فتوجه اليه. وقوله (لايات بخير) معناه لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم. ثم قال تعالى (هل يستوى هو) أى هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع (ومن يأمر بالعدل) واعلم أن الأمر بالعدل يجب أن يكون موصوفا بالنطق وإلا لم يكن أمرا. ويجب أن يكون قادرا، لأن الأمر مشعر بعلو المرتبة. وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادرا، ويجب أن يكون عالما حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور. فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما، وكونه أمرا يناقض كون الأول أبكم، وكونه قادرا يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شيء، وبأنه كل على مولاه، وكونه عالما يناقض وصف الأول بأنه لايات بخير،

ثم قال ﴿وهو على صراط مستقيم﴾ معناه كونه عادلا مبرا عن الجور والعبث.

إذا ثبت هذا فنقول: ظاهر فى بديهة العقل أن الأول والثانى لا يستويان، فكندا

ههنا والله أعلم.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لآيَاتٍ بَخِيرٌ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

فروى عن ابن عباس وغيره التشدد في ذلك حتى قال : لا يملك الطلاق أيضا . وأكبر الفقهاء قالوا يملك الطلاق إنما لا يملك المال ولا ماله تعلق بالمال . واختلفوا في أن المالك إذا ملكه شيئا فهل يملكه أم لا ؟ وظاهر الآية ينفيه . بقى في الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قال (ملوكا لا يقدر على شيء) وكل عبد فهو مملوك وغير قادر على التصرف ؟ قلنا : أما ذكر المملوك فليحصل الامتياز بينه وبين الحر . لأن الحر قد يقال : إنه عبد الله ، وأما قوله (لا يقدر على شيء) قد يحصل الامتياز بينه وبين المكاتب وبين العبد المأذون ، لأنهما لا يقدران على التصرف .

﴿ السؤال الثاني ﴾ (من) في قوله (ومن رزقناه) ماهى ؟

قلنا : الظاهر إنها موصوفة كأنه قيل : وحرار رزقناه ليطلق عبدا ، ولا يمتنع أن تكون موصولة .
﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال (يستون) على الجمع ؟

قلنا : معناه هل يستوى الأحرار والعبيد . ثم قال (الحمد لله) وفيه وجوه : الأول : قال ابن عباس : الحمد لله على ما فعل بأوليائه وأنعم عليهم بالتوحيد ، والثاني : المعنى أن كل الحمد لله ، وليس شيء من الحمد للأصنام ، لأنها لا نعمة لها على أحد . وقوله (بل أكثرهم لا يعلمون) يعنى أنهم لا يعلمون أن كل الحمد لله وليس شيء منه للأصنام . الثالث : قال القاضى فى التفسير : قال الرسول عليه الصلاة والسلام (قل الحمد لله) ويحتمل أن يكون خطابا لمن رزقه الله رزقا حسنا أن يقول : الحمد لله على أن ميزه فى هذه القدرة عن ذلك العبد الضعيف . الرابع : يحتمل أن يكون المراد أنه تعالى لما ذكر هذا المثل ، وكان هذا مثلا مطابقا للغرض كاشفا عن المقصود قال بعده (الحمد لله) يعنى الحمد لله على قوة هذه الحججة وظهور هذه البينة . ثم قال (بل أكثرهم لا يعلمون) يعنى أنها مع غاية ظهورها ونهاية وضوحها لا يعلمها ولا يفهمها هؤلاء الضلال .

قوله تعالى ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاة أينما وجهه لآيات بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾

أنه بقى محروما عن عبودية الله تعالى وعن طاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز . والمراد بقوله (ومن رزقناه منا رزقا حسنا) هو المؤمن فانه مشغول بالتعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله فبين تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى .
واعلم أن القول الأول أقرب ، لأن ما قبل هذه الآية وما بعدها إنما ورد في اثبات التوحيد ، وفي الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى .

﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا في المراد بقوله (عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) فقيل : المراد به الصنم لأنه عبد بدليل قوله (إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا) وأما أنه مملوك ولا يقدر على شيء فظاهر ، والمراد بقوله (ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا) عابد الصنم لأن الله تعالى رزقه المال وهو ينفق من ذلك المال على نفسه وعلى أتباعه سرا وجهرا إذا ثبت هذا فنقول : هما لا يستويان في بديهة العقل ، بل صريح العقل يشهد بأن ذلك القادر أهل حالا وأفضل مرتبة من ذلك العاجز ، فهنا صريح العقل يشهد بأن عابد الصنم أفضل من ذلك الصنم فكيف يجوز الحكم بكونه مساويا لرب العالمين في العبودية .

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد بقوله (عبدا مملوكا) عبد معين ، وقيل : هو عبد لعثمان بن عفان ، وحملوا قوله (ومن رزقناه منا رزقا حسنا) على عثمان خاصة

﴿والقول الثالث﴾ أنه عام في كل عبد بهذه الصفة وفي كل حر بهذه الصفة ، وهذا القول هو الأظهر ، لأنه هو الموافق لما أراده الله تعالى في هذه الآية ، والله أعلم .

المسألة الثالثة ﴿احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئا .

فان قالوا : ظاهر الآية يدل على أن عبداً من العبيد لا يقدر على شيء ، فلم قلتم : إن كل عبد كذلك ؟ فنقول : الذي يدل عليه وجهان : الأول : أنه ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، وكونه عبدا وصف مشعر بالذل والمقهورية . وقوله (لا يقدر على شيء) حكم مذكور عقيب . فهذا يقتضى أن العلة لعدم القدرة على شيء هو كونه عبدا ، وبهذا الطريق يثبت العموم . الثاني : أنه تعالى قال بعده (ومن رزقناه منا رزقا حسنا) فباز هذا القسم الثاني عن القسم الأول وهو العبد بهذه الصفة وهو أنه يرزقه رزقا ، فوجب أن لا يحصل هذا الوصف للعبد حتى يحصل الامتياز بين القسم الثاني وبين القسم الأول ، ولو ملك العبد لكان الله قد آتاه رزقا حسنا ، لأن الملك الحلال رزق حسن سواء كان قليلا أو كثيرا . فثبت بهذين الوجهين أن ظاهر الآية يقتضى أن العبد لا يقدر على شيء ولا يملك شيئا . ثم اختلفوا

ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا
حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

بخلقه . الثاني : قال الزجاج : أى لا تجعلوا لله مثلا ، لأنه واحد لا مثل له . الثالث : أقول يحتمل أن يكون المراد أن عبدة الأوثان كانوا يقولون : إن إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواب . أو نعبد هذه الأصنام ، ثم إن الكواكب والأصنام عبدة الاله الأكبر الأعظم ، والدليل عليه العرف فان أصغر الناس يخدمون أكبر حضرة الملك ، وأولئك الأكبر يخدمون الملك فكذا ههنا فعند هذا قال الله تعالى لهم اتركوا عبادة هذه الأصنام والكواكب ولا تضرّبوا لله الأمثال التي ذكرتموها وكونوا مخلصين في عبادة الاله الحكيم القدير .

ثم قال ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وفيه وجهان : الأول : أن الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب العظيم ، بسبب عبادة هذه الاصنام وأنتم لا تعلمون ذلك ، ولو علمتموه لتركتم عبادتها . الثاني : أن الله تعالى لما نهاكم عن عبادة هذه الاصنام فتركوا عبادتها ، وتركوا دليلكم الذى عولتم عليه وهو قولكم الاشتغال بعبادة عبدة الملك أدخل في التعظيم من الاشتغال بعبادة نفس الملك ، لأن هذا قياس ، والقياس يجب تركه عند ورود النص ، فلهذا قال (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)

ثم قال تعالى ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾

اعلم أنه تعالى أكد إبطال مذهب عبدة الاصنام بهذا المثال وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسير هذا المثل قولان :

﴿القول الأول﴾ أن المراد أنا لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء . وفرضنا حرا كريما غنيا كثيرا لانفاق سرا وجهرا ، فصرح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة والبشرية ، فكيف يجوز للعاقل أن يسوى بين الله القادر على الرزق والافضال . وبين الاصنام التي لا تملك ولا تقدر البتة .

﴿والقول الثانى﴾ أن المراد بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء هو الكافر ، فانه من حيث

ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض
شيئا ولا يستطيعون «٧٣» فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وانتم
لا تعلمون «٧٤»

ويبيحون لأنفسهم محرمات حرّمها الله عليهم . وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب
يعنى لم يحكمون بتلك الاحكام الباطلة ، وبانعام الله فى تحليل الطيبات ، وتحريم الخبيثات يحجدون
ويكفرون والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا
ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وانتم لا تعلمون﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أنواعا كثيرة فى دلائل التوحيد ، وتلك الأنواع كما أنها دلائل على
صحّة التوحيد ، فكذلك بدأ بذكر أقسام النعم الجميلة الشريفة ، ثم أتبعها فى هذه الآية بالرد على
عبدة الأصنام فقال (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا
ولا يستطيعون) أما الرزق الذى يأتى من جانب السماء فيعنى به الغيث الذى يأتى من جهة السماء ،
وأما الذى يأتى من جانب الأرض فهو النبات والثمار التى تخرج منها وقوله (من السموات
والأرض) من صفة النكرة التى هى قوله (رزقا) كأنه قيل : لا يملك لهم رزقا من الغيث والنبات
وقوله (شيئا) قال الأخصس : جعل قوله (شيئا) بدلا من قوله (رزقا) والمعنى : لا يملكون رزقا
لا قليلا ولا كثيرا ، ثم قال (ولا يستطيعون) والفائدة فى هذه اللفظة أن من لا يملك شيئا قد يكون
موصوفا باستطاعة أن يملكه بطريق من الطرق ، فبين تعالى أن هذه الاصنام لا تملك وليس لها
أيضا استطاعة تحصيل الملك .

فان قيل : إنه تعالى قال (ويعبدون من دون الله مالا يملك) فعبّر عن الاصنام بصيغة «ما»
وهى لغير أولى العلم ، ثم قال (ولا يستطيعون) والجمع بالواو والنون مختص بأولى العلم فكيف
الجمع بين الأمرين ؟

والجواب : أنه عبر عنها بلفظ «ما» اعتبارا لما هو الحقيقة فى نفس الأمر وذكر الجمع بالواو
والنون اعتبارا لما يعتقدون فيها أنها آلهة .

ثم قال تعالى ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ وفيه وجوه : الأول : قال المفسرون : يعنى لا تشبهوه

أكثر بردا ورطوبة فهو المرأة . ثم قالوا : المتى إذا انصب إلى الخصية اليمنى من الذكر . ثم انصب منه إلى الجانب الأيمن من الرحم كان الولد ذكرا تاما في الذكورة ، وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل ، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم ، كان الولد أنثى تاما في الأنوثة ، وإن انصب إلى الخصية اليمنى ، ثم انصب منها إلى الجانب الأيسر من الرحم ، كان الولد ذكرا في طبيعة الاناث . وإن انصب إلى الخصية اليسرى من الرجل ثم انصب منها إلى الجانب الأيمن من الرحم ، كان هذا الولد أنثى في طبيعة الذكور .

واعلم أن حاصل هذا الكلام أن الذكورة علتها الحرارة واليبوسة ، والأنوثة علتها البرودة والرطوبة ، وهذه العلة في غاية الضعف ، فقد رأينا في النساء من كان مزاجه في غاية السخونة وفي الرجال من كان مزاجه في غاية البرودة . ولو كان الموجب للذكورة والأنوثة ذلك لا تمتنع ذلك ، فثبت أن خالق الذكر والأنثى هو الإله القديم الحكيم . وظهر بالدلائل الذي ذكرنا صحة قوله تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا)

ثم قال تعالى ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ قال الواحدى . أصل الحفدة من الحفد وهو الخفة في الخدمة والعمل . يقال : حفد يحفد حفدا وحفوداً وحفدانا إذا أسرع ، ومنه في دعاء القنوت واليك نسعى ونحفد ، والحفدة جمع الحافد ، والحافد كل من يخف في خدمتك ويسرع في العمل بطاعتك ، يقال في جمعه الحفد بغير هاء كما يقال الرصد ، فمعنى الحفدة في اللغة الاعوان والحدام ، ثم يجب أن يكون المراد من الحفدة في هذه الآية الاعوان الذين حصلوا للرجل من قبل المرأة ، لأنه تعالى قال (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) فالاعوان الذين لا يكونون من قبل المرأة لا يدخلون تحت هذه الآية .

إذا عرفت هذا فنقول : قيل هم الاختان ، وقيل هم الأصهار ، وقيل : ولد الولد ، والأولى دخول الكل فيه . لما بينا أن اللفظ محتمل لكل بحسب المعنى المشترك الذي ذكرناه .

ثم قال تعالى ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ لما ذكر تعالى إنعامه على عبده بالمنكوح وما فيه من المنافع والمصالح ذكر إنعامه عليهم بالمطعمات الطيبة ، سواء كانت من النبات وهي الثمار والحبوب والأشربة . أو كانت من الحيوان ، ثم قال (أفبالباطل يؤمنون) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى بالاصنام . وقال مقاتل : يعنى بالشيطان ، وقال عطاء : يصدقون أن لى شريكا وصاحبة وولدا (وبنعمة الله هم يكفرون) أى بأن يضيفوها إلى غير الله ويتركوا إضافتها إلى الله تعالى . وفي الآية قول آخر وهو أنه تعالى لما قال (ورزقكم من الطيبات) قال بعده (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) والمراد منه أنهم يحرمون على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم مثل البحيرة والسائبة والوصيلة

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ
 يَكْفُرُونَ «٧٢»

قلنا : فيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أنه لما كان المعطى لكل الخيرات هو الله تعالى فمن أثبت لله شريكا فقد أضاف إليه بعض تلك الخيرات فكان جاحدا لكونها من عند الله تعالى ، وأيضا فان أهل الطبايع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم إلى الطبايع وإلى النجوم ، وذلك يوجب كونهم جاحدين لكونها من الله تعالى .

﴿والوجه الثاني﴾ قال الزجاج : المراد أنه تعالى لما قرر هذه الدلائل وبينها وأظهرها بحيث يفهمها كل عاقل ، كان ذلك إنعاما عظيما منه على الخلق ، فعند هذا قال (أفبنعمة الله) في تقريره هذه البيانات وإيضاح هذه البيّنات (يبحدون)

﴿المسألة الثالثة﴾ الباء في قوله (أفبنعمة الله) يجوز أن تكون زائدة لأن الجحود لا يعدى بالباء كما تقول : خذ الخطام وبالخطام ، وتعلقت زيدا وبزيد ، ويجوز أن يراد بالجحود الكفر فعدى بالباء لكونه بمعنى الكفر والله أعلم .

قوله تعالى ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من أحوال الناس ، ذكره الله تعالى ليستدل به على وجود الاله المختار الحكيم . وليكون ذلك تنبيها على إنعام الله تعالى على عبده بمثل هذه النعم ، فقوله (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) قال بعضهم : المراد أنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم ، وهذا ضعيف ؛ لأن قوله (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) خطاب مع الكل ، فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل ، بل هذا الحكم عام في جميع الذكور والاناث . والمعنى : أنه تعالى خلق النساء ليتزوج بهن الذكور . ومعنى (من أنفسكم) مثل قوله (فاقتلوا أنفسكم) وقوله (فسلبوا على أنفسكم) أي بعضكم على بعض . ونظير هذه الآية قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) قال الأطباء وأهل الطبيعة : التفاوت بين الذكر والأنثى إنما كان لأجل أن كل من كان أسنخن مزاجا فهو الذكر ، وكل من كان

والقوا كالعطرة عنده ، وما كان يمكنه تناول شئ ، منها ، وكان الواحد منا صحيح المزاج قوى البنية كامل القوة ، وما كان يجمل . بطنه طعاما . فذلك الملك وإن كان يفضل على هذا الفقير في المال ، إلا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك في الصحة والقوة ، وهذا باب واسع إذا اعتبره الانسان عظم تعجبه منه .
أما قوله «فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم» ففيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أن المراد من هذا الكلام تقرير ما سبق في الآية المتقدمة من أن السعادة والنحوسة لا يحصلان إلا من الله تعالى ، والمعنى أن الموالى والمماليك أنا رازقهم جميعا فهم في رزقى سواء فلا يحسبن الموالى أنهم يردون على ممالئكم من عندهم شيئا من الرزق . وإنما ذلك رزقى أجريته إليهم على أيديهم . وحاصل القول فيه أن المقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى ، وأن المالك لا يرزق العبد بل الرازق للعبد والمولى هو الله تعالى . وتحقيق القول أنه ربما كان العبد أكمل عقلا وأقوى جسما وأكثر وقوفا على المصالح والمفاسد من المولى . وذلك يدل على أن ذلة ذلك العبد وعزة ذلك المولى من الله تعالى كما قال (تعز من تشاء وتذل من تشاء)

﴿والقول الثانى﴾ أن المراد من هذه الآية الرد على من أثبت شريكاً لله تعالى . ثم على هذا القول ففيه وجهان : الأول : أن يكون هذا ردا على عبدة الأوثان والأصنام ، كأنه قيل إنه تعالى فضل الملوك على ممالئكم ، فجعل الملوك لا يقدر على ملك مع مولاه . فلما لم يجعلوا عبيدكم معكم سواء فى الملك ، فكيف تجعلون هذه الجمادات معى سواء فى المعبودية ، والثانى : قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى نصارى نجران حين قالوا إن عيسى بن مريم ابن الله . فالمنى أنكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونوا سواء . فكيف جعلتم عبدى ولدا لى وشريكا فى الالهية ؟ ثم قال تعالى ﴿فهم فيه سواء﴾ معنى الفاء فى قوله (فهم) حتى . والمعنى : فما الذين فضلوا بجاعلى رزقهم لعبيدهم ، حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء فى الملك .

ثم قال ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم فى روايه أبى بكر (تجحدون) بالثاء على الخطاب لقوله (خلقكم وفضل بعضكم) والباقون بالياء اقوله (فهم فيه سواء) واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لقرب الخبر عنه ، وأيضا فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين ، والمسلمون لا يخاطبون بجحد نعمة الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ لاشبهة فى أن المراد من قوله (أفبنعمة الله يجحدون) الإنكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم .

فان قيل : كيف يصيرون جاحدين بنعمة الله عليهم بسبب عبادة الأصنام ؟

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ
عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

صار موجودا ، ثم عدم وجب أن يكون عوده الى الوجود في المرة الثانية جائزا ، وأيضا كان ميتا حين كان نطفة ثم صار حيا ثم مات . فلما كان الموت الأول جائزا كان عود الموت جائزا ، فكذلك لما كانت الحياة الأولى جائزة . وجب أن يكون عود الحياة جائزا في المرة الثانية ، وأيضا الانسان في أول طفوليته جاهل لا يعرف شيئا . ثم صار عالما عاقلا فاهما ، فلما بلغ أرذل العمر عاد الى ما كان عليه في زمان الطفولية وهو عدم العقل والفهم ، فعدم العقل والفهم في المرة الأولى عاد بعينه في آخر العمر . فكذلك العقل الذي حصل ، ثم زال وجب أن يكون جائز العود في المرة الثانية ، وإذا ثبتت هذه الجملة ثبت أن الذي مات وعدمه فانه يجوز عود وجوده وعود حياته وعود عقله مرة أخرى . ومتى كان الامر كذلك ، ثبت أن القول بالبعث والحشر والنشر حق والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾

اعلم أن هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الانسان ، وذلك أنا نرى أكيس الناس وأكثرهم عقلا وفهما يقضى عمره في طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك ، ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلا وفهماً تفتح عليه أبواب الدنيا ، وكل شيء خطر بهاله ودار في خياله فانه يحصل له في الحال ، ولو كان السبب جهد الانسان وعقله ، لوجب أن يكون الأعتل أفضل في هذه الأحوال ، فلما رأينا أن الأعتل أقل نصيبا ، وأن الأجهل الأخص أوفر نصيبا ، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام ، كما قال تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك نحن) قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) وقال الشافعي رحمه الله تعالى :

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

واعلم أن هذا التفاوت غير محتص بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح ، وهذا بحر لا ساحل له وقد كنت مصاحبا لبعض الملوك في بعض الأسفار ، وكان ذلك الملك كثير المال والجاه . وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه ، وما كان يمكنه ركوب واحد منها ، وربما حضرت الأطعمة الشهية ،

العمر) قد بينا بالدليل أن الطبائع لا يجوز أن تكون علة لا انتقال الانسان من الكمال إلى النقصان ومن القوة إلى الضعف فلزم القطع بأن انتقال الانسان من الشباب إلى الشيخوخة ، ومن الصحة إلى الهرم ، ومن العقل الكامل إلى أن صار خرفا غافلا ليس بمقتضى الطبيعة بل يفعل الفاعل المختار ، وإذا ثبت ما ذكرنا ظهر أن الذي دل عليه لفظ القرآن قد ثبت صحته بقاطع القرآن .

ثم قال تعالى ﴿إن الله عليم قدير﴾ وهذا كالأصل الذي عليه تفريع كل ما ذكرناه وذلك لأن الطبيعة جاهلة لا تميز بين وقت المصلحة ووقت المفسدة ، فهذه الانفعالات في هذا الانسان لا يمكن إسنادها إليها . أما إله العالم ومدبره وخالقه ، فهو الكامل في العلم الكامل في القدرة ، فلاجل كمال علمه يعلم مقادير المصالح والمفاسد ، ولأجل كمال قدرته يقدر على تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، فلا جرم أمكن إسناد تخليق الحيوانات إلى إله العالم ، فلا يمكن إسناده إلى الطبائع والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ في تفسير ألفاظ الآية قال المفسرون : والله خالقكم ولم تكونوا شيئا ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، وهو أردؤه وأضعفه . يقال : رذل الشيء يردل رذالة وأرذله غيره ، ومنه قوله (إلا الذين هم أرذلنا) ومنه قوله (واتبعك الأردلون) وقوله (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) هل يتناول المسلم أو هو مختص بالكافر ؟ فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أنه يتناوله ، قيل : أنه العمر الطويل ، وعلى هذا الوجه نقل عن علي عليه السلام أنه قال : أرذل العمر خمس وسبعون سنة . وقال قتادة : تسعون سنة . وقال السدي : إنه الخرف . والقول الأول أولى : لأن الخرف معناه زوال العقل ، فقوله (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم ببد علم شيئا) يدل على أنه تعالى إنما رده إلى أرذل العمر لأجل أن يزيل عقله ، فلو كان المراد من أرذل العمل هو زوال العقل لصار الشيء عين الغاية المطلوبة منه وأنه باطل .

﴿والقول الثاني﴾ أن هذا ليس في المسلمين والمسلم لا يزداد بسبب طول العمر إلا كرامة على الله تعالى ولا يجوز أن يقال في حقه إنه يرد إلى أرذل العمر ، والدليل عليه قوله تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فبين تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ماردوا إلى أسفل سافلين . وقال عكرمة : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر . وقوله (إن الله عليم) قال ابن عباس : يريد بما صنع أولياؤه وأعداؤه (قدير) على ما يريد .

﴿المسألة الثالثة﴾ هذه الآية كما تدل على وجود إله العالم الفاعل المختار . فهي أيضا تدل على صحة البعث والقيامة ، وذلك لأن الانسان كان عندما محضاً فأوجده الله ثم أعده مرة ثانية ، فدل هذا على أنه لما كان معدوماً في المرة الأولى ، وكان عوده إلى العدم في المرة الثانية جائزاً ، فكذلك لما

كانت ؟ وأن ينتقل الانسان من سن الشباب إلى سن النقصان . قالوا : السبب فيه أنه إذا حصل هذا الاستواء ، فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر في تخفيف الرطوبة الغريزية ، فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لا تبقى بحفظ الحرارة الغريزية ، وإذا حصلت هذه الحالة ضعفت الحرارة الغريزية أيضا ، لأن الرطوبة الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية ، فاذا قل الغذاء ضعف المغتذى . فالحاصل : أن الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية . وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية ، ويلزم من ضعف إحداهما ضعف الأخرى إلى أن تنتهي إلى حيث لا يبقى من الرطوبة الغريزية شيء ، وحينئذ تنطفئ الحرارة الغريزية ، ويحصل الموت هذا منتهى ما قالوه في هذا الباب ، وهو ضعيف . لأننا نقول : إن الحرارة الغريزية إذا أثرت في تخفيف الرطوبة الغريزية وقلتها ، فلم لا يجوز أن يقال : إن القوة الغازية تورد بدلها . فعند هذا قالوا : القوة الغازية إنما تقوى على إيراد بدلها لو كانت الحرارة الغريزية قوية . فأما عند ضعفها فلا ، فنقول : فههنا لزم الدور ، لأن الرطوبة الغريزية إنما تقل وتنقص . لو لم تكن القوة الغازية وافية بإيراد بدلها ، وإنما تعجز القوة الغازية عن هذا الإيراد إذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة ، وإنما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة أن لو قلت الرطوبة الغريزية ، وإنما تحصل هذه القلة إذا عجزت الغازية عن إيراد البديل ، فثبت أن على القول الذي قالوه يلزم الدور وأنه باطل . فثبت أن تعليل انتقال الانسان من سن إلى سن بما ذكره من اعتبار الطبائع يوجب عليهم هذه المحالات المذكورة فكان القول به باطلا ، ولما بطل هذا القول وجب القطع باسناد هذه الأحوال إلى الإله القادر الختار الحكيم الرحيم الذي يدبر أبدان الحيوانات على الوجه الموافق لمصالحها ، وذلك هو المطلوب . وقد كنت أقرأ يوما من الأيام سورة والمرسلات فلما وصلت إلى قوله تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقد رنا فنعم القادرون ويل يومئذ للمكذابين) فقلت : لا شك أن المراد بهؤلاء المكذابين هم الذين نسبوا تكون الأبدان الحيوانية إلى الطبائع وتأثير الحرارة في الرطوبة ، وأنا أومن من صميم قلبي يارب العزة بأن هذه التدبيرات ليست من الطبائع بل من خالق العالم الذي هو أحكم الحاكمين وأكرم الأكرمين .

إذا عرفت هذا فقد صح بالدليل العقلي صدق قوله (والله خلقكم) لأنه ثبت أن خالق أبدان الناس وسائر الحيوانات ليس هو الطبائع بل هو الله سبحانه وتعالى . وقوله (ثم يتوفاكم) قد بينا أن السبب الذي ذكره في صيرورة الموت فاسد باطل ، وأنه يلزم عليه القول بالدور ، ولما بطل ذلك ثبت أن الحياة والموت إنما حصلتا بتخليق الله ، وبتقديره ، وقوله (ومنكم من يرد إلى أرذل

﴿والحالة الثالثة﴾ أن تقل الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية ، وعند ذلك يظهر النقصان ، ثم هذا النقصان قد يكون خفيا وهو سن الكهولة وتمامه إلى ستين سنة وقد يكون ظاهرا وهو سن الشيخوخة وتمامه إلى مائة وعشرين سنة . فهذا هو الذي حصله الأطباء في هذا الباب ، وعندى أن هذا التعليل ضعيف . ويدل على ضعفه وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنا نقول إن في أول ما كان المنى منيا وكان الدم كما كانت الرطوبات غالبية وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب ، ثم إنها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وأبانتها من حصد الدموية والمنوية إلى أن صارت عظما وغضروفا وعصبا ورباطا ، وعندما تولدت الأعضاء وكل البدن قلت الرطوبات . فوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك . فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكما له أزيد من تحليلها قبل تولد البدن ، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك ، لأن قبل تولد البدن انتقل جسم المنى والدم إلى أن صار عظما وعصبا . وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشره فلو كان تولد هذه الأعضاء بسبب تأثير الحرارة في الرطوبة لوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحليلها قبل تكون البدن ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أن تولد البدن إنما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها ، وأنه ما كان تولد البدن لأجل ما قالوه من تأثير الحرارة في الرطوبة .

﴿والوجه الثاني﴾ في إبطال هذا الكلام أن نقول : إن الحرارة الغريزية الحاصلة في بدن الانسان الكامل إما أن تكون هي عين ما كان حاصلا في جوهر النطفة أو صارت أزيد مما كانت . ونالأول باطل ، لأن الحار الغريزي الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولا شك أن جرم النطفة كان قليلا صغيرا ، فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزية إلا ذلك القدر كان في غاية القلة . ولم يظهر منه في هذا البدن أثر أصلا . وأما الثاني : ففيه تسليم أن الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن ، وإذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة . وثبت أن تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة . فوجب أن يبقى البدن الحيواني أبدا في التزايد والتكامل : وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن ازدياد حال البدن الحيواني وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة . بل بسبب تدبير الفاعل المختار .

﴿والوجه الثالث﴾ وهو الذي أوردناه على الأطباء في كتابنا الكبير في الطب فقلنا ذهب أن الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم إن الحرارة الغريزية يجب أن تصير أقل مما

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ
بَعْدَ عِلْمٍ شَدِيدًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أردل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لما ذكر تعالى بعض عجائب أحوال الحيوانات ، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس . فمنها ما هو مذکور في هذه الآية وهو إشارة إلى مراتب عمر الانسان ، والعقلاء ضبطوها في أربع مراتب : أولها : سن النشو والنماء . وثانيها : سن الوقوف وهو سن الشباب . وثالثها : سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة . ورابعها : سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة . فاحتج تعالى بانتقال الحيوان من بعض هذه المراتب إلى بعض ، على أن ذلك الناقل هو الله تعالى والأطباء الطبائعيون قالوا : المقتضى لهذا الانتقال هو طبيعة الانسان ، وأنا أحكى كلامهم على الوجه الملخص وأبين ضعفه وفساده ، وحينئذ يبق أن ذلك الناقل هو الله سبحانه ، وعند ذلك يصح بالدليل العقلي ما ذكر الله تعالى في هذه الآية . قال الطبائعيون : إن بدن الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث ، والمنى والدم جوهران حاران رطبان ، والحرارة إذا عملت في الجسم الرطب قلت رطوبته وأفادته نوع يبس ، وهذا مشاهد معلوم ، قالوا : فلا يزال ما في هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل ما فيه من الرطوبة حتى تتصلب الأعضاء ويظهر فيه الانعقاد ، ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الأعضاء . فإذا تم تكون البدن وكل فعند ذلك يفصل الجنين من رحم الأم . ومع ذلك فالرطوبات زائدة ، والدليل عليه أنك ترى أعضاء الطفل بعد انفصاله من الأم لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف ، ثم إن ما في البدن من الحرارة يعمل في تلك الرطوبات ويقللها ، قالوا : ويحصل للبدن ثلاثة أحوال .

﴿ الحالة الأولى ﴾ أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته ، وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتعدد والازدياد والنماء ، وذلك هو سن النشو والنماء ونهايته إلى ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة ﴿ الحالة الثانية ﴾ أن تصير رطوبات البدن أقل مما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الأصلية إلا أنها لا تكون زائدة على هذا القدر ، وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين ، وعند تمامه يتم الأربعون .

ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء ، والذي يدل على أنه شفاء في الجملة أنه قل معجون من المعاجين إلا وتمامه وكاله إنما يحصل بالعجن بالعسل ، وأيضا فالأشربة المتخذة منه في الأمراض البلغمية عظيمة النفع .

﴿والقول الثاني﴾ وهو قول مجاهد أن المراد: أن القرآن شفاء للناس ، وعلى هذا التقدير فقصته تولد العسل من النحل تمت عند قوله (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) ثم ابتداء وقال (فيه شفاء للناس) أي في هذا القرآن حصل ما هو شفاء للناس من الكفر والبدعة . مثل هذا الذي في قصة النحل . وعن ابن مسعود : أن العسل شفاء من كل داء . والقرآن شفاء لما في الصدور .

واعلم أن هذا القول ضعيف ويدل عليه وجهان : الأول : أن الضمير في قوله (فيه شفاء للناس) يجب عوده الى أقرب المذكورات ، وما ذلك إلا قوله (شراب مختلف ألوانه) وأما الحكم بعود هذا الضمير الى القرآن مع أنه غير مذكور فيما سبق ، فهو غير مناسب . والثاني : ما روى أبو سعيد الخدرى : أنه جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن أخى يشتكى بطنه فقال « اسقه عسلا » فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فلم يغن عنه شيئا ، فقال عليه الصلاة والسلام « اذهب واسقه عسلا » فذهب فسقاه ، فكأثما نشط من عقال ، فقال « صدق الله وكذب بطن أخيك » وحملوا قوله « صدق الله وكذب بطن أخيك » على قوله (فيه شفاء للناس) وذلك إنما يصح لو كان هذا صفة للعسل .

فان قال قائل : ما المراد بقوله عليه السلام « صدق الله وكذب بطن أخيك »

قلنا : لعله عليه السلام علم بنور الوحي أن ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك ، فلما لم يظهر نفعه في الحال مع أنه عليه السلام كان عالما بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك ، كان هذا جارا بما جرى الكذب ، فلهذا السبب أطلق عليه هذا اللفظ .

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ واعلم أن تقرير هذه الآية من وجوه : الأول : اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الأحوال التي ذكرناها . والثاني : اهتدائها الى جميع تلك الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق . والثالث : خلق الله تعالى الأجزاء النافعة في جواهر الهواء ، ثم إيقاظها على أطراف الأشجار والأوراق ، ثم الهام النحل إلى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبية دالة على أن إله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ فاسلكي سبل ربك ﴾ والمعنى : ثم كلى كل ثمرة تشتمينها فاذا أكلتها فاسلكي سبل ربك في الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل ، أو يكون المراد : فاسلكي في طلب تلك الثمرات سبل ربك . أما قوله (ذلالا) ففيه قولان : الأول : أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذلها لها ووطأها وسهلها ، كقوله (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا) الثاني : أنه حال من الضمير في (فاسلكي) أى وأنت أيها النحل ذلل منقادا لما أمرت به غير ممتنعة .

ثم قال تعالى ﴿ يخرج من بطونها ﴾ وفيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أن هذا رجوع من الخطاب الى الغيبة . والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الاحوال أن يحتج الانسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوى والسفلى ، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الانسان وقال : إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب ، لاجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه .

﴿ البحث الثاني ﴾ أنه قد ذكرنا أن من الناس من يقول : العسل عبارة عن أجزاء طلية تحدث في الهواء وتقع على أطراف الأشجار وعلى الأوراق والأزهار ، فيلقطها الزنبور بفمه ، فاذا ذهبنا الى هذا الوجه كان المراد من قوله (يخرج من بطونها) أى من أفواهها ، وكل تجريف في داخل البدن فانه يسمى بطنا ، ألا ترى أنهم يقولون : بطون الدماغ وعنوا أنها تجاوير الدماغ ، وكذا ههنا يخرج من بطونها أى من أفواهها ، وأما على قول أهل الظاهر ، وهو أن النحلة تأكل الأوراق والثمرات ثم تقيء فذلك هو العسل فالكلام ظاهر .

ثم قال تعالى ﴿ شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ اعلم أنه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاثة :

﴿ فالصفة الأولى ﴾ كونه شرابا والامر كذلك ، لانه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الاشرية .
﴿ والصفة الثانية ﴾ قوله (مختلف ألوانه) والمعنى : أن منه أحمر وأبيض وأصفر . ونظيره قوله تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود) والمقصود منه : إبطال القول بالطبع ، لأن هذا الجسم مع كونه متساوى الطبيعة لما حدث على ألوان مختلفة . دل ذلك على أن حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار . لالاجل إيجاد الطبيعة .

﴿ والصفة الثالثة ﴾ قوله (فيه شفاء للناس) وفيه قولان :

﴿ القول الأول ﴾ وهو الصحيح أنه صفة للعسل .

فان قالوا : كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرار ؟

قلنا : إنه تعالى لم يقل : إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال ، بل لما كان شفاء للبعض

قلنا : أريد به معنى البعضية ، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وشجر ، بل في مساكن توافق مصالحها وتليق بها .

﴿المسألة الثانية﴾ ظاهر قوله تعالى (أن اتخذي من الجبال بيوتا) أمر، وقد اختلفوا فيه . فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ، ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهى . وقال آخرون : ليس الأمر كذلك بل المراد منه أنه تعالى خاق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال ، والكلام المستقصى في هذه المسألة المذكور في تفسير قوله تعالى (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) .

ثم قال تعالى ﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ لفظه «من» ههنا للتبعض أو لابتداء الغاية ، ورأيت في كتب الطب أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه ، وهو أنه يحدث في الهواء ظل لطيف في الليالي ويقع ذلك الظل على أوراق الأشجار ، فقد تكون تلك الأجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار ، وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة .

﴿أما القسم الثاني﴾ فهو مثل الترنجبين فإنه ظل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الطرفاء في بعض البلدان وذلك محسوس .

﴿وأما القسم الأول﴾ فهو الذي ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغذي بها . فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئا من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتهنالك . لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها . فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل ، ومن الناس من يقول : إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة أشياء ، ثم إنه تعالى يقرب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلا ، ثم إنها تبقى مرة أخرى فذاك هو العسل ، والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء . فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل ، ولا شك أنه ظل يحدث في الهواء ويقع على أطراف الأشجار والأزهار فيكثرا ههنا . وأيضا فنحن نشاهد أن هذا النحل إنما يتغذى بالعسل ، ولذلك فإنا إذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لأجل أن تغذي بها ، فعملنا أنها إنما تغذي بالعسل وإنما تقع على الأشجار والأزهار لأنها تغذي بتلك الأجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى ﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ كلمة (من) ههنا تكون لابتداء الغاية ، ولا تكون للتبعض على هذا القول .

من الأعاجيب . والثالث : أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية ، وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي . ويكون نافذ الحكم على تلك البقية ، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران ، وذلك أيضا من الأعاجيب . والرابع : أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر ، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى ، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى وكرها . وهذا أيضا حالة عجيبية ، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة ، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام وهي حالة شبيهة بالوحي ، لاجرم قال تعالى في حقها (وأوحى ربك إلى النحل)

واعلم أن النحل قد ورد في حق الأنبياء لقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) وفي حق الأولياء أيضا قال تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين) وبمعنى الإلهام في حق البشر قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وفي حق سائر الحيوانات كما في قوله (وأوحى ربك إلى النحل) ولكل واحد من هذه الأقسام معنى خاص . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الزجاج : يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلا ، لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها ، وقال غيره النحل يذكر ويؤنث ، وهي مؤنثة في لغة الحجاز ، ولذلك أنشأ الله تعالى ، وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء .

ثم قال تعالى ﴿أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف (أن اتخذى) هي «أن» المفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول . وقرئ «بيوتا» بكسر الباء (ومن الشجر ومما يعرشون) أى يبنون ويسقفون ، وفيه لغتان . قرئ بهما ، ضم الراء وكسرها مثل يعكفون ويعكفون .

واعلم أن النحل نوعان :

﴿النوع الأول﴾ ما يسكن في الجبال والغياض ولا يتعهدها أحد من الناس .

﴿والنوع الثانى﴾ التى تسكن بيوت الناس وتكون فى تعهدات الناس ، فالأول هو المراد بقوله (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر) والثانى : هو المراد بقوله (ومما يعرشون) وهو خلايا النحل .

فان قيل : مامعنى «من» فى قوله (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) وهلا

قيل فى الجبال وفى الشجر ؟

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْ
بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجهه ، وتعدد للنعم العظيمة من
وجه آخر. قال (إن في ذلك آية لقوم يعقلون) والمعنى : أن من كان عاقلاً . علم بالضرورة أن
هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى ، فيحتج بحصولها على وجود الإله القادر
الحكيم . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون
ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبيل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس
إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن إخراج الألبان من النعم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من
ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاهرة ، وبيئات باهرة على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً
حكماً . فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على إثبات هذا المقصود .
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (وأوحى ربك إلى النحل) يقال وحى وأوحى . وهو الإلهام . والمراد
من الإلهام أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر ، وبيانه
من وجوه : الأول : أنها تبنى البيوت المسدسة من أضلاع متساوية ، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد
طباعتها ، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر
والفرجار . والثاني : أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات
فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة ، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فانه
لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة ، فاهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة

﴿ المسألة الأولى ﴾ فان قيل : بم تعلق قوله (ومن ثمرات النخيل والأعناب) قلنا : بمحذوف تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أى من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه . وقوله (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنهه الاسقاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى (الأعناب) عطف على الثمرات لاعلى النخيل ، لأنه يصير التقدير : ومن ثمرات الأعناب ، والعنب نفسه ثمرة وليست له ثمرة أخرى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى تفسير السكر وجوه : الأول : السكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرًا وسكرا . نحو : رشد رشدًا ورشدا ورشدا ، وأما الرزق الحسن فسائر ما يتخذ من النخيل والأعناب كالرب والحل والدبس والتمر والزبيب .

فان قيل : الخمر محرمة فكيف ذكرها الله فى معرض الأنعام ؟

أجابوا عنه من وجهين الأول : أن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل فى سورة المائدة . فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمر فيه غير محرمة . الثانى : أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما فى هذه الأشياء من المنافع ، وخاطب المشركين بها ، والخمر من أشربتهم فهى منفعة فى حقهم ، ثم إنه تعالى نبه فى هذه الآية أيضا على تحريمها ، وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر ، فوجب أن لا يكون السكر رزقا حسنا ، ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة ، فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة ، وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة .

﴿ القول الثانى ﴾ أن السكر هو النبيذ ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب لثناه ثم يترك حتى يشتد ، وهو حلال عند أبى حنيفة رحمه الله إلى حد السكر ، ويحتج بأن هذه الآية تدل على أن السكر حلال لأنه تعالى ذكره فى معرض الأنعام والمنته ، ودل الحديث على أن الخمر حرام قال عليه السلام « الخمر حرام لعينها » وهذا يقتضى أن يكون السكر شيئا غير الخمر ، وكل من أثبت هذه المغايرة قال إنه النبيذ المطبوخ ،

﴿ والقول الثالث ﴾ أن السكر هو الطعام . قاله أبو عبيدة ، واحتج عليه بقول الشاعر :

جعلت أعراض الكرام سكرا

أى جعلت ذمهم طعاما لك . قال الزجاج : هذا بالخمر أشبه منه بالطعام ، والمعنى أنك جعلت تتخمر بأعراض الكرام . والمعنى : أنه جعل شغفه بغية الناس وتمزيق أعراضهم جارياً مجرى شرب الخمر .

خرج . وكل ما كان كشيئا احتبس في الداخل ولم يخرج ، فهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصا موافقا لبطن الصبي سائغا للشاربين . السادس : أنه تعالى ألهم ذلك الصبي إلى المص . فإن الأم كلما ألقمت حلمة الثدي في فم الصبي فذلك الصبي في الحال يأخذ . في المص . فلولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص . وإلا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدي . السابع : أنا بينما أنه تعالى إنما خلق اللبن من فضلة الدم ، وإنما خلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان ، فالشاة لما تناولت العشب والماء فآله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الأجزاء ، ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم . ثم إن اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة ، فمافيه من الدهن يكون حاراً رطبا ، وما فيه من المائية يكون بارداً رطبا ، وما فيه من الجبينية يكون بارداً يابسا ، وهذه الطبائع ما كانت حاصلة في ذلك العشب الذي تناولته الشاة ، وظهر بهذا أن هذه الأجسام لا تزال تتقلب من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة . مع أنه لا يناسب بعضها بعضا ولا يشاكل بعضها بعضا . وعند ذلك يظهر أن هذه الأحوال إنما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد ، فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الأعلى والأسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

أما قوله «سائغا للشاربين» فمعناه : جاريا في خلقهم لذيذ أهنيئنا . يقال : ساعغ الشراب في الخلق وأساعغه صاحبه . ومنه قوله (ولا يكاد يسيغه)

﴿المسألة الخامسة﴾ قال أهل التحقيق : اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه . فكذلك يدل على إمكان الحشر والنشر . وذلك لأن هذا العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والأرض ، فخالق العالم دبر تدبيرا ، فخلق ذلك الطين نباتا وعشبا . ثم إذا أكله الحيوان دبر تدبيرا آخر فخلق ذلك العشب دما ، ثم دبر تدبيرا آخر فخلق ذلك الدم لبنا ، ثم دبر تدبيرا آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن . فهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يخلق هذه الأجسام من صفة إلى صفة ، ومن حالة إلى حالة فإذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يخلق أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك ، فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع والله أعلم .

ثم قال تعالى «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا» اعلم أنه تعالى لما ذكر بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة ، ذكر في هذه الآية بعض منافع النبات ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الرابعة﴾ اعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبية وأسرار بديعة ، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم ، وبيانه من وجود : الأول : أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذاً يخرج منه ثقل الغذاء . فاذا تناول الانسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقا كلياً لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب الى أن يكمل انضمامه في المعدة وينجذب ما صفا منه الى الكبد ويبقى الثقل هناك ، فحينئذ يفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثقل ، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم ، لأنه متى كانت الحاجة الى بقاء الغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ ، واذا حصلت الحاجة الى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح ، فحصل الانطباق تارة والانفتاح أخرى ، بحسب الحاجة وتقدير المنفعة ، مما لا يتأتى إلا بتقدير الفاعل الحكيم . الثاني : أنه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول أو المشروب ، ولا تجذب الأجزاء الكشيفة ، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكشيفة التي هي الثقل ، ولا تجذب الأجزاء اللطيفة البتة . ولو كان الأمر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن وفسد نظام هذا التركيب . الثالث : أنه تعالى أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة ، حتى أن تلك الأجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دماً ، ثم إنه تعالى أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء ، وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء . وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية ، حتى يبقى الدم الصافي موافقاً لتغذية البدن . وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن إلا بتقدير الحكيم العليم ، الرابع : أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر اليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده ، فاذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له . فاذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم ولا إلى الثدي ، بل ينصب على مجموع بدن المتغذى ، فانصباب ذلك الدم في كل وقت الى عضو آخر انصباباً موافقاً للمصلحة والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم . والخامس : أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث تعالى في حلمة الثدي ثقباً صغيراً ومسام ضيقة ، وجعلها بحيث إذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها في تلك المسام الضيقة ، ولما كانت تلك المسام ضيقة جداً ، فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء واللطافة ، وأما الأجزاء الكشيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل . والحكمة في إحداث تلك الثقوب الصغيرة ، والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة ، فكل ما كان لطيفاً

ويصير دما ، وذلك هو الهضم الثاني ، ويكون ذلك الدم مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية ، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة ، والسوداء إلى الطحال . والماء إلى الكلية . ومنها إلى المثانة . وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة ، وهي العروق النابتة من الكبد ، وهناك يحصل الهضم الثالث ، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع ، والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن .

فان قيل : فهذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن ؟

قلنا : الحكمة الالهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته . فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارا يابسا ، ومزاج الأنثى يجب أن يكون باردا رطبا ، والحكمة فيه أن الولد إنما يتكون في داخل بدن الأنثى . فوجب أن تكون الأنثى محتصة بمزيد الرطوبات لوجهين : الأول : أن الولد إنما يتولد من الرطوبات ، فوجب أن يحصل في بدن الأنثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولده . والثاني : أن الولد إذا كبر وجب أن يكون بدن الأم قابلا للتمدد حتى يتسع لذلك الولد . فإذا كانت الرطوبات غالبية على بدن الأم كان بدنها قابلا للتمدد . فيتسع للولد ، ثبت بما ذكرنا أنه تعالى خص بدن الأنثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة ، ثم إن الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الأم ، فعند انفصال الجنين تنصب إلى الثدي والضرع ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير .

إذا عرفت هذا فاعلم أن السبب الذي لأجله يتولد اللبن من الدم في حق الأنثى غير حاصل في حق الذكر فظهر الفرق .

إذا عرفت هذا التصوير فنقول : المفسرون قالوا : المراد من قوله (من بين فرث ودم) هو أن هذه الثلاثة تتولد في موضع واحد ، فالفرث يكون في أسفل الكرش ، والدم يكون في أعلاه . واللبن يكون في الوسط . وقد دللنا على أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة . ولأن الدم لو كان يتولد في أعلى المعدة والكرش كان يجب إذا قام أن يبقى الدم وذلك باطل قطعاً . وأما نحن فنقول : المراد من الآية هو أن اللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم . والدم إنما يتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث ، وهو الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش . وهذا اللبن متولد من الأجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولا . ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانياً ، فصفاه الله تعالى عن تلك الأجزاء الكثيفة العليظة ، وخلق فيها الصفات التي باعتبارها صارت لبناً موافقا لبدن الطفل . فهذا ما حصلناه في هذا المقام . والله أعلم .

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وحمزة والكسائي (نسيقكم) بضم النون ، والباقون بالفتح ، أما من فتح النون فحجته ظاهرة تقول سقيته حتى روى أسقيه قال تعالى (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وقال (والذى هو يطعمنى ويسقيني) وقال (وسقوا ماء حميا) ومن ضم النون فهو من قولك أسقاه إذا جعل له شرابا كقوله (وأسقيناكم ماء فاراتا) وقوله (فأسقيناكموه) والمعنى ههنا أنا جعلناه في كثيرته وإدامته كالسقيا ، واختار أبو عبيد الضم قال لأنه شرب دائم ، وأكثر ما يقال في هذا المقام أسقيت .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (مما في بطونه) الضمير عائد إلى الأنعام فكان الواجب أن يقال مما في بطونها ، وذكر النحويون فيه وجوها : الأول : أن لفظ الأنعام لفظ مفرد وضع لإفادة جمع ، كالرط والقوم والبقر والنعم ، فهو بحسب اللفظ لفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد ، وهو التذكير ، وبحسب المعنى جمع فيكون ضميره ضمير الجمع ، وهو التأنيث ، فلهذا السبب قال ههنا في بطونه . وقال في سورة المؤمنين (في بطونها) الثانى قوله (في بطونه) أى في بطون ما ذكرنا ، وهذا جواب الكسائي . قال المبرد : هذا شائع في القرآن . قال تعالى (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي) يعنى هذا الشيء الطالع ربي . وقال (إن هذه تذكرة فمن شاء ذكره) أى ذكر هذا الشيء .

واعلم أن هذا إنما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقى ، أما الذى يكون تأنيثه حقيقيا ، فلا يجوز ، فانه لا يجوز في مستقيم الكلام أن يقال جاريتك ذهب ، ولا غلامك ذهبت على تقدير أن نحمله على النسمة . الثالث : أن فيه إضمارا ، والتقدير : نسقيكم مما في بطونه اللبن إذ ليس كلها ذات لبن .

﴿المسألة الثالثة﴾ الفرث : سرجين الكرش . روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثا وأعلاه دما وأوسطه لبنا ، فيجرى الدم في العروق واللبن في الضرع ، ويبقى الفرث كما هو ، فذاك هو قوله تعالى (من بين فرث ودم لبنا خالصا) لا يشوبه الدم ولا الفرث .

ولقائل أن يقول : الدم واللبن لا يتولدان البتة في الكرش ، والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا ، وما رأى أحد في كرشها لادما ولا لبنا ، ولو كان تولد الدم واللبن في الكرش لوجب أن يشاهد ذلك في بعض الأحوال ، والشيء الذى دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير اليه . بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنسانا ، وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها ، فاذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافيا انجذب إلى الكبد ، وما كان كثيفا نزل إلى الأمعاء ، ثم ذلك الذى يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ «٦٥» وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمِ آبِنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ «٦٦» وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٦٧»

قوله تعالى ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا وريزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة : الآليات والنبات والمعاد ، وإثبات القضاء والقدر ، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة تقرير الآليات ، فلهذا السبب كلما امتد الكلام في فصل من الفصول في وعيد الكفار عاد إلى تقرير الآليات ، وقد ذكرنا في أول هذه السورة أنه تعالى لما أراد ذكر دلائل الآليات ابتداء بالاجرام الفلكية ، وثنى بالانسان ، وثالث بالحيوان ، ورابع بالنبات ، وخمس بذكر أحوال البحر والأرض . فههنا في هذه الآية لما عاد إلى تقرير دلائل الآليات بدأ أولا بذكر الفلكيات فقال (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) والمعنى : أنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء ويصير ذلك الماء سببا لحياة الأرض ، والمراد بحياة الأرض نبات الزرع والشجر والنور والثمر بعد أن كان لا يثمر ، وينفع بعد أن كان لا ينفع ، وتقرير هذه الدلائل قد ذكرناه مرارا كثيرة . ثم قال تعالى ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ سماع إنصاف وتدبر لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لم يسمع .

﴿ والنوع الثاني ﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآيات الاستدلال بعجائب أحوال الحيوانات وهو قوله (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه) قد ذكرنا معنى العبارة في قوله (لعبرة لأولى الأبصار) وفيه مسائل :

الشیطان إن كان شیطانا آخر لزم التسلسل ، وإن كان هو الله تعالى فهو المطلوب .
ثم قال تعالى ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ وفيه احتمالان : الأول : أن المراد منه كفار مكة وبقوله (فهو وليهم اليوم) أى الشيطان ويتولى إغواءهم وصرفهم عنك ، كما فعل بكفار الأمم قبلك . فيكون على هذا التقدير رجوع عن أخبار الأمم الماضية إلى الأخبار عن كفار مكة . الثانى : أنه أراد باليوم يوم القيامة . يقول فهو ولى أولئك الذين كفروا يزين لهم أعمالهم يوم القيامة ، وأطلق اسم اليوم على يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم ، والمقصود من قوله (فهو وليهم اليوم) هو أنه لا ولى لهم ذلك اليوم ولا ناصر ، وذلك لأنهم إذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشیطان كنزوله بهم ، ورأوا أنه لا مخلص له منه ، كما لا مخلص لهم منه ، جازأن يوبخوا بأن يقال لهم : هذا وليكم اليوم على وجه السخرية ، ثم ذكر تعالى أن مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الحجة وأزاح العلة فقال (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعنى : أنا ما أنزلنا عليك القرآن إلا لتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الأشياء التى اختلفوا فيها ، والمختلفون هم أهل الملل والأهواء . وما اختلفوا فيه ، هو الدين ، مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر ، وإثبات المعاد ونفيه ، ومثل الأحكام ، مثل أنهم حرّموا أشياء تحل كالبحيرة والسائبة وغيرهما وحلّوا أشياء تحرم كالميته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام فى قوله (لتبين) تدل على أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض ، ونظيره آيات كثيرة منها قوله (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس) وقوله (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) وجوابه : أنه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه إلى التأويل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف : قوله (هدى ورحمة) معطوفان على محل قوله (لتبين) إلا أنهما انتصبا على أنه مفعول لهما . لأنهما فعلا الذى أنزل الكتاب ، ودخلت اللام فى قوله (لتبين) لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ، وإنما ينتصب مفعولا له ما كان فعلا لذلك الفاعل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الكلبي : وصف القرآن بكونه هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، لا ينفى كونه كذلك فى حق الكل ، كما أن قوله تعالى فى أول سورة البقرة (هدى للمتقين) لا ينفى كونه هدى لكل الناس . كما ذكره فى قوله (هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان) وإنما خص المؤمنين بالذكر من حيث أنهم قبلوه فانتفعوا به ، كما فى قوله (إنما أنت منذر من يخشاها) لأنه إنما انتفع بانذاره هذا القوم فقط ، والله أعلم .

جميع الوقائع الممكنة إلى يوم القيامة ، ثم نقول القياس الذي يتمسك به في اثبات الأحكام إما أن يكون على وفق هذه القاعدة أو على خلافها . والأول باطل : لأن هذا الأصل يغنى عنه . والثاني باطل : لأن النص راجح على القياس والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قالت المعتزلة : هذه الآية دالة على أن الظلم والمعاصي ليست فعلا لله تعالى ، بل تكون أفعالا للعباد ، لأنه تعالى أضاف ظلم العباد إليهم ، وماأضافه إلى نفسه . فقال (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) وأيضا فلو كان خلقا لله تعالى لكانت مؤاخذتهم بها ظلما من الله تعالى ، ولما منع الله تعالى العباد من الظلم في هذه الآية : فيأن يكون منزها عن الظلم كان أولى ، قالوا : ويدل أيضا على أن أعمالهم مؤثرة في وجوب الثواب والعقاب أن قوله (بظلمهم) الباء فيه تدل على العلية كما في قوله (ذلك بأنهم شاقوا الله)

واعلم أن الكلام في هذه المسائل قد ذكرناه مرارا فلا نعيده . والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ ظاهر الآية يدل على أن إقدام الناس على الظلم يوجب إهلاك جميع الدواب وذلك غير جائز . لأن الدابة لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز إهلاكها بسبب ظلم الناس ؟ والجواب عنه من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ أنا لانسلم أن قوله : ماترك على ظهرها من دابة . يتناول جميع الدواب . وأجاب أبو على الجبائي عنه : أن المراد لو يؤاخذهم الله بما كسبوا من كفر ومعصية لعجل هلاكهم ، وحينئذ لا يبقى لهم نسل ، ثم من المعلوم أنه لا أحدا إلا وفي أحد آبائه من يستحق العذاب وإذا هلكوا فقد بطل نسلهم ، فكان يلزمه أن لا يبقى في العالم أحد من الناس ، وإذا بطلوا وجب أن لا يبقى أحد من الدواب أيضا ، لأن الدواب مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم . فهذا وجه لطيف حسن .

﴿والوجه الثاني﴾ أن الهلاك إذا ورد على الظلمة ورد أيضا على سائر الناس والدواب ، فكان ذلك الهلاك في حق الظلمة عذابا ، وفي حق غيرهم امتحانا . وقد وقعت هذه الواقعة في زمان نوح عليه السلام .

﴿والوجه الثالث﴾ أنه تعالى لو آخذهم لانقطع القطر وفي انقطاعه انقطاع النبت فكان لا تبقى على ظهرها دابة . وعن أبي هريرة رضى الله عنه : أنه سمع رجلا يقول إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال : لا والله بل إن الجبارى في وكرها تموت بظلم الظالم . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم . فهذه الوجوه الثلاثة من الجواب مفرعة على تسليم أن لفظة الدابة يتناول جميع الدواب .

والجواب : ثبت بالدليل أن كل الناس ليسوا ظالمين لأنه تعالى قال (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) أي فمن العباد من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ، ولو كان المقتصد والسابق ظالماً لفسد ذلك التقسيم ، فعلينا أن المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين ، فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز أن يقال كل الخلق ظالمون . وإذا ثبت هذا فنقول : الناس المذكورون في قوله (ولو يؤاخذ الله الناس) إما كل العصاة المستحقين للعقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات . وعلى هذا التقدير فيسقط الاستدلال . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ من الناس من احتج بهذه الآية على أن الأصل في المضار الحرمة ، فقال : لو كان الضرر مشروعاً لكان إما أن يكون مشروعاً على وجه يكون جزاءً على جرم صادر منهم أولاً على هذا الوجه ، والقسمان باطلان ، فوجب أن لا يكون مشروعاً أصلاً . أما بيان فساد القسم الأول ، فلقوله تعالى : ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة . والاستدلال به من وجهين : الأول : أن كلمة «لو» وضعت لا تتفاء الشيء لا تتفاء غيره . فقوله : ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة . يقتضى أنه تعالى ما أخذهم بظلمهم وأنه ترك على ظهرها من دابة . والثاني : أنه لما دلت الآية على أن لازمة أخذ الله الناس بظلمهم هو أن لا يترك على ظهرها دابة ، ثم إنا نشاهد أنه تعالى ترك على ظهرها دواب كثيرين ، فوجب القطع بأنه تعالى لا يؤاخذ الناس بظلمهم ، فثبت بهذا أنه لا يجوز أن تكون المضار مشروعاً على وجه تقع أجزية عن الجرائم .

﴿وأما القسم الثاني﴾ وهو أن يكون مشروعاً ابتداءً لا على وجه يقع أجزية عن جرم سابق ، فهذا باطل بالاجماع ، فثبت أن مقتضى هذه الآية تحريم المضار مطلقاً ، ويتأكد هذا أيضاً بآيات أخرى كقوله تعالى (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) وكقوله (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وكقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وكقوله عليه السلام «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» وكقوله «ملعون من ضر مسلماً» فثبت بمجموع هذه الآيات والأخبار أن الأصل في المضار الحرمة ، فنقول : إذا وقعت حادثة مشتملة على الضرر من كل الوجوه ، فإن وجدنا نصاً خاصاً يدل على كونه مشروعاً قضينا به تقديماً للخاص على العام ، وإلا قضينا عليه بالحرمة بناء على هذا الأصل الذي قررناه . ومنهم من قال هذه القاعدة تدل على أن كل ما يريده الإنسان وجب أن يكون مشروعاً في حقه ، لأن المنع منه ضرر ، والضرر غير مشروع بمقتضى هذا الأصل وكل ما يكرهه الإنسان وجب أن يحرم لأن وجوده ضرر والضرر غير مشروع ، فثبت أن هذا الأصل يتناول

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَّ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ «٦١»
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسْنَتَهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لِأَجْرِمِ
أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ «٦٢» تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٦٣» وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٦٤»

قوله تعالى ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله ما يكرهون وتصف اسنتهم الكذب ان لهم الحسنى لاجرم ان لهم النار وانهم مفراطون تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم ، بين أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة ، إظهاراً للفضل والرحمة والكرم ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بقوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة) من وجهين : الأول : أنه قال (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) فأضاف الظلم الى كل الناس ، ولا شك أن الظلم من المعاصي ، فهذا يقتضى كون كل إنسان آتياً بالذنب والمعصية ، والأنبياء عليهم السلام من الناس ، فوجب كونهم آتين بالذنب والمعصية . والثاني : أنه تعالى قال : ماترك على ظهرها من دابة . وهذا يقتضى أن كل من كان على ظهر الأرض فهو آت بالظلم والذنب ، حتى يلزم من إفناء كل من كان ظالماً إفناء كل الناس . أما إذا قلنا : الأنبياء عليهم السلام لم يصدر عنهم ظلم فلا يجب إفناؤهم ، وحينئذ لا يلزم من إفناء كل الظالمين إفناء كل الناس ، وأن لا يبقى على ظهر الأرض دابة ، ولما لزم علمنا أن كل البشر ظالمون سواء كانوا من الأنبياء أو لم يكونوا كذلك .

مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها فيها إلى أن تموت ، ومنهم من يرميها من شاهق جبل ، ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها ، وهم كانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية ، وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة ، ثم إنه قال (الأساء ما يحكمون) وذلك لأنهم بلغوا في الاستنكاف من البنات إلى أعظم الغايات ، فأولها : أنه يسود وجهه ، وثانيها : أنه يخشى عن القوم من شدة نفرتة عن البنات ، وثالثها : أن الولد محبوب بحسب الطبيعة ، ثم إنه بسبب شدة نفرتة عنها يقدم على قتلها ، وذلك يدل على أن النفرة عن البنات والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغا لا يزداد عليه . إذا ثبت هذا فالشيء الذي بلغ الاستنكاف منه إلى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل أن ينسبه لاله العالم المقدس العالی عن مشابهة جميع مخلوقات ؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى) (المسألة الثانية) قال القاضى : هذه الآية تدل على بطلان الجبر . لأنهم يضيفون الى الله تعالى من الظلم والفواحش ما إذا أضيف الى أحدهم أجهد نفسه في البراءة منه والتباعد عنه ، فحكمهم في ذلك مشابه لحكم هؤلاء المشركين . ثم قال : بل أعظم ، لأن إضافة البنات اليه إضافة قبج واحد ، وذلك أسهل من إضافة كل القبائح والفواحش إلى الله تعالى . فيقال للقاضى : إنه لما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد على الله تعالى أردفه الله تعالى بذكر هذا الوجه الاقناعى ، وإلا فليس كل ما قبج منا في العرف قبج من الله تعالى . ألا ترى أن رجلا زين إمامه وعبيده وبالغ في تحسين صورهن ثم بالغ في تقوية الشهوة فيهم وفيهن ، ثم جمع بين الكل وأزال الحائل والمسانع فان هذا بالاتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق ، فعلمنا أن التعويل على هذه الوجوه المبيئة على العرف ، إنما يحسن إذا كانت مسبوقه بالدلائل القطعية اليقينية ، وقد ثبتت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله ، فلا جرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الاقناعية . أما أفعال العباد فمقدتبت بالدلائل اليقينية القاطعة أن خالقها هو الله تعالى ، فكيف يمكن إلحاق أحد البابين بالآخر لولا شدة التعصب ؟ والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ﴾ والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهى احتياجهم إلى الولد ، وكرهتهم الاناث خوف الفقر والعار (ولله المثل الأعلى) أى الصفة العالیه المقدسة ، وهى كونه تعالى منزها عن الولد .

فان قيل : كيف جاء (ولله المثل الأعلى) مع قوله (فلا تضربوا لله الأمثال)

قلنا : المثل الذى يذكره الله حق وصدق والذى يذكره غيره فهو الباطل ، والله أعلم .

(فبشرهم بعذاب أليم) ومنهم من قال: المراد بالتبشير ههنا الاخبار، والقول الأول أدخل في التحقيق أما قوله ﴿ظل وجهه مسوداً﴾ فالمعنى أنه يصير متغيراً تغير مغتم، ويقال لمن لقي مكروهاً قد اسود وجهه غماً وحرناً، وأقول إنما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغم، وذلك لأن الانسان إذا قوى فرحه انشرح صدره وانبسط روح قلبه من داخل القلب، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد، وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار، وأما إذا قوى غم الانسان احتقن الروح في باطن القلب ولم يبق منه أثر قوى في ظاهر الوجه، فلا جرم يبرد الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية والكثافة، فثبت أن من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه، ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته وسواده، فللهذا السبب جعل يابض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح وغبرته وكمودته وسواده كناية عن الغم والحزن والكراهية، ولهذا المعنى قال (ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) أي تمتلئ غماً وحرناً.

ثم قال تعالى ﴿يتوارى من القوم من سوء﴾ أي يختفي ويتغيب من سوء ما بشر به، قال المفسرون: كان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بامراته توارى واختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يولد له فإن كان ذكراً ابتهج به، وإن كان أنثى حزن ولم يظهر للناس أياماً يدبر فيها أنه ماذا يصنع بها؟ وهو قوله (أيمسكه على هون أم يدسه في التراب) والمعنى: أيجبسه؟ والامسك ههنا بمعنى الحبس كقوله (أمسك عليك زوجك) وإنما قال (أيمسكه) ذكره بضمير الذكران لأن هذا الضمير عائد على «ما» في قوله (ما بشر به) والهون الهوان قال النضر بن شميل يقال إنه أهون عليه هو ناو هو انا، وأهنته هونا وهو انا، وذكرنا هذا في سورة الأنعام عند قوله (عذاب الهون) وفي أن هذا الهون صفة من؟ قولان: الأول: أنه صفة المولودة، ومعناه أنه يمسكها عن هون منه لها، والثاني: قال عطاء عن ابن عباس: أنه صفة للأب، ومعناه أنه يمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه.

ثم قال ﴿أم يدسه في التراب﴾ والدس إخفاء الشيء في الشيء، يروى أن العرب كانوا يحفرون حفيرة ويجعلونها فيها حتى تموت، وروى عن قيس بن عاصم أنه قال: يارسول الله إني واريت ثمانى بنات في الجاهلية فقال عليه السلام «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة» فقال: يانبي الله إني ذو إبل، فقال «اهد عن كل واحدة منهن هدياً» وروى أن رجلاً قال يارسول الله: ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فأمرت امرأتى أن تزنيها فأخرجتها إلى فانتهيت بها إلى واد بعيد القعر فلقيتها فيه، فقالت: ياأبت قتلتني، فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء، فقال عليه السلام «ما كان في الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما كان في الاسلام يهدمه الاستغفار» واعلم أنهم كانوا

بمنزلة قوله (فوربك انساؤنهم اجمعين عما كانوا يعملون) وعلى التقديرين فأقسم الله تعالى بنفسه أنه يسألهم، وهذا تهديد منه شديد، لأن المراد أنه يسألهم سؤال توبيخ وتهديد، وفي وقت هذا السؤال احتمالان: الأول: أنه يقع ذلك السؤال عند اقرب من الموت ومعاناة ملائكة العذاب، وقيل عند عذاب القبر. والثاني: أنه يقع ذلك في الآخرة، وهذا أولى لأنه تعالى قد أخبر بما يجرى هناك من ضروب التوبيخ عند المسألة فهو إلى الوعيد أقرب.

﴿النوع الثاني﴾ من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لله البنات، ونظيره قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله. أقول أظن أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات لأن الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء في الاستتار فأطلقوا عليهم لفظ البنات. وأيضا قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث فهذا ما يغلب على الظن في سبب إقدامهم على هذا القول الفاسد والمذهب الباطل، ولما حكى الله تعالى عنهم هذا القول قال (سبحانه) وفيه وجوه: الأول: أن يكون المراد تنزيه ذاته عن نسبة الولد إليه. والثاني: تعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح، وهو وصف الملائكة بالأنوثة ثم نسبتها بالولدية إلى الله تعالى. والثالث: قيل في التفسير معناه معاذ الله وذلك مقارب للوجه الأول.

ثم قال تعالى ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أجاز الفراء في «ما» وجهين: الأول: أن يكون في محل نصب على معنى، ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون. والثاني: أن يكون رفعا على الابتداء كأنه تم الكلام عند قوله (سبحانه) ثم ابتداء فقال (ولهم ما يشتهون) يعنى البنين وهو كقوله (أم له البنات ولكم البنون) ثم اختار الوجه الثاني وقال: لو كان نصيبا، لقال ولأنفسهم ما يشتهون، لأنك تقول جعلت لنفسك كذا وكذا، ولا تقول جعلت لك، وأبى الزجاج إجازة الوجه الأول، وقال «ما» في موضع رفع لا غير، والتقدير: ولهم الشيء الذى يشتهونه، ولا يجوز النصب لأن العرب تقول جعل لنفسه ما تشتهى، ولا تقول جعل له ما يشتهى وهو يعنى نفسه. ثم إنه تعالى ذكر أن الواحد من هؤلاء المشركين لا يرضى بالولد البنت لنفسه فالأيرتضيه لنفسه كيف ينسبه الله تعالى فقال؟ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ التبشير في عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر في تغير بشرة الوجه، ومعلوم أن السرور كما يوجب تغير البشرة فكذلك الحزن يوجب. فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة في القسمين، ويتأكد هذا بقوله

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل القاهرة فساد أقوال أهل الشرك والتشبيه ، شرح في هذه الآية تفاصيل أقوالهم وبين فسادها وسخافتها .

﴿ فالنوع الأول ﴾ من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لما لا يعلمون نصيبا وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الضمير في قوله (لما لا يعلمون) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى المشركين المذكورين في قوله (إذا فريق منكم برهبهم يشركون) والمعنى أن المشركين لا يعلمون والثاني : أنه عائد إلى الأصنام أى لا يعلم الأصنام ما يفعل عبادهما قال بعضهم : الأول أولى لوجوه : أحدها : أن نفي العلم عن الحى حقيقة وعن الجاد مجاز . وثانيها . أن الضمير في قوله (ويجعلون) عائد إلى المشركين فكذلك في قوله (لما لا يعلمون) يجب أن يكون عائد إليهم وثالثها : أن قوله (لما لا يعلمون) جمع بالواو والنون ، وهو بالعقلاء أليق منه بالأصنام التى هى جمادات ، ومنهم من قال بل القول الثانى أولى لوجوه : الأول : أننا إذا قلنا إنه عائد إلى المشركين افتقرنا إلى إضمار ، فان التقدير : ويجعلون لما لا يعلمون إلها . أو لما لا يعلمون كونه نافعا ضارا ، وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام . لم نفتقر إلى الاضمار لأن التقدير : ويجعلون لما لا علم لها ولا فهم . والثانى : أنه لو كان العلم مضافا إلى المشركين لفسد المعنى ، لأن من المحال أن يجعلوا نصيبا من رزقهم لما لا يعلمونه ، فهذا ما قيل فى ترجيح أحد هذين القولين على الآخر .

واعلم أننا إذا قلنا بالقول الأول افتقرنا فيه إلى الاضمار ، وذلك يحتمل وجوها : أحدها : ويجعلون لما لا يعلمون له حقا ، ولا يعلمون فى طاعته نفعا ولا فى الاعراض عنه ضررا ، قال مجاهد : يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه ينفعهم ويضرهم نصيبا . وثانيها : ويجعلون لما لا يعلمون إلهيتها . وثالثها : ويجعلون لما لا يعلمون السبب فى صيرورتها معبودة . ورابعها : المراد استحقر الأصنام حتى كأنها لقلتها لا تعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تفسير ذلك النصيب احتمالات : الأول : المراد منه أنهم جعلوا لله نصيبا من الحرث والأنعام يتقربون إلى الله تعالى به . ونصيبا إلى الأصنام يتقربون به إليها ، وقد شرحنا ذلك فى آخر سورة الأنعام . والثانى : أن المراد من هذا النصيب ، البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة . والحام ، وهو قول الحسن . والثالث : ربما اعتقدوا فى بعض الأشياء أنه إنما حصل باعانة بعض تلك الأصنام ، كما أن المنجمين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة . فيقولون لرحل كذا من المعادن والنبات والحيوانات ، والمشتري أشياء أخرى فكذا ههنا .

واعلم أنه تعالى لما حكي عن المشركين هذا المذهب قال (تالله لتسألن) وهذا فى هؤلاء الأقوام خاصة

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبِنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بَشُرَ
أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ
مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمَسُكُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

ورأيت الناس يصيحون بالدعاء والتضرع، فلما سكنت وطاب الهواء، وحسن أنواع الوقت نسوا في الحال تلك الزلزلة وعادوا إلى ما كانوا عليه من تلك السفاهة والجهالة، وكان هذه الحالة التي شرحها الله تعالى في هذه الآية تجرى مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الانسان.

﴿والقول الثاني﴾ أن هذه اللام لام العاقبة كقوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) يعني أن عاقبة تلك التضرعات ما كانت إلا هذا الكفر.

واعلم أن المراد بقوله (بما آتيناهم) فيه قولان: الأول: أنه عبارة عن كشف الضر وإزالة المكروه. والثاني: قال بعضهم: المراد به القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من النبوة والشرائع.

واعلم أنه تعالى توعدهم بعد ذلك فقال (فتمتعوا) وهذا لفظ أمر، والمراد منه التهديد، كقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وقوله (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا)

ثم قال تعالى ﴿فسوف تعلمون﴾ أي عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾

﴿المسألة الثالثة﴾ النعم إما دينية ، وإما دنيوية ، أما النعم الدينية فهي إما معرفة الحق لذاته وإما معرفة الخير لأجل العمل به ، وأما النعم الدنيوية فهي إما نفسانية ، وإما بديه وإما خارجية وكل واحد من هذه الثلاثة جنس تحته أنواع خارجة عن الحصر والتحديد كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) والاشارة إلى تفصيل تلك الأنواع قد ذكرناها مرارا فلا نعيدها .

﴿المسألة الرابعة﴾ إنما دخات الفاء في قوله (فمن الله) لأن الباء في قوله (بكم) متصلة بفعل مضمر ، والمعنى : ما يكن بكم أو ما حل بكم من نعمة فمن الله .

ثم قال تعالى ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ قال ابن عباس : يريد الاسقام والأمراض والحاجة (فاليه تجأرون) أى ترفعون أصواتكم بالاستغاثة ، وتضرعون اليه بالدعاء يقال : جأر يجأر جؤارا وهو الصوت الشديد كصوت البقرة ، وقال الأعشى يصف راهبا :

يرأوح من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا

والمعنى : أنه تعالى بين أن جميع النعم من الله تعالى ، ثم إذا اتفق لأحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فالى الله يجأر ، أى لا يستغيث أحدا إلا الله تعالى لعلمه بأنه لا مفرج للخلق إلا هو ، فكانه تعالى قال لهم فأين أنتم عن هذه الطريقة في حال الرخاء والسلامة ، ثم قال بعده (ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) فبين تعالى أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون وفريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر في أن لا يفرغ إلا إلى الله تعالى . وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره ، وهذا جهل وضلال ، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفرج إلا إلى الواحد ، ولا مستغاث إلا الواحد فعند زوال البلاء والضراء يجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد ، فأما أنه عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلا الله تعالى ، وعند زوال البلاء يثبت الاضداد والشركاء . فهذا جهل عظيم وضلال كال . ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)

ثم قال تعالى ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ وفي هذه اللام وجهان : الأول : أنها لام كي والمعنى أنهم أشركوا بآياته غيره في كشف ذلك الضر عنهم . وغرضهم من ذلك الاشارة أن ينكروا كون ذلك الأنعام من الله تعالى . ألا ترى أن العليل إذا اشتد وجعه تضرع إلى الله تعالى في إزالة ذلك الوجع ، فإذا زال أحال زواله على الدواء الفلاني والعلاج الفلاني ، وهذا أكثر أحوال الخلق . وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازى رحمه الله : في اليوم الذى كنت أكتب هذه الأوراق وهو اليوم الأول من محرم سنة اثنتين وستائة حصلت زلزلة شديدة . وهداة عظيمة وقت الصبح

الامكان . والامكان من لوازم الماهية فيكون حاصل الماهية حال حدوثها وحال بقاءها فتكون علة الحاجة حال حدوث الممكن وحال بقاءه ، فوجب أن تكون الحاجة حاصلة حال حدوثها وحال بقاءها . اذا عرفت هذا فقوله (وله ما في السموات والأرض) معناه : أن كل ما سوى الحق فإنه محتاج في انقلابه من العدم الى الوجود أو من الوجود الى العدم الى مرجح ومخصص ، وقوله (وله الدين واصبا) معناه أن هذا الانقياد وهذا الاحتياج حاصل دائما أبداً ، وهو إشارة إلى ما ذكرناه من أن الممكن حال بقاءه لا يستغنى عن المرجح والمخصص ، وهذه دقائق من أسرار العلوم الالهية مودعة في هذه الألفاظ الفائضة من عالم الوحي والنبوة .

ثم قال تعالى ﴿أفغير الله تتقون﴾ والمعنى : أنكم بعد ما عرفت أن إله العالم واحد وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه في وقت حدوثه ، ومحتاج إليه أيضاً في وقت دوامه وبقاءه ، فبعد العلم بهذه الأصول كيف يعقل أن يكون للانسان رغبة في غير الله تعالى أو رهبة عن غير الله تعالى ؟ فلهذا المعنى قال على سبيل التعجب (أفغير الله تتقون)

ثم قال ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه لما بين بالآية الأولى أن الواجب على العاقل أن لا يتق غير الله ، بين في هذه الآية أنه يجب عليه أن لا يشكر أحداً إلا الله تعالى ، لأن الشكر إنما يلزم على النعمة . وكل نعمة حصلت للانسان فهي من الله تعالى لقوله (وما بكم من نعمة فمن الله) فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يتق أحداً إلا الله وأن لا يشكر أحداً إلا الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الايمان حصل بخلق الله تعالى فقالوا الايمان نعمة ، وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله (وما بكم من نعمة فمن الله) ينتج أن الايمان من الله وإنما قلنا : إن الايمان نعمة ، لأن المسلمين مطبقون على قولهم : الحمد لله على نعمة الايمان ، وأيضاً فالنعمة عبارة عن كل ما يكون منتفعا به ، وأعظم الأشياء في النفع هو الايمان ، فثبت أن الايمان نعمة .

وإذا ثبت هذا فنقول : وكل نعمة فهي من الله تعالى لقوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) وهذه اللفظة تفيد العموم ، وأيضاً مما يدل على أن كل نعمة فهي من الله ، لأن كل ما كان موجوداً فهو إما واجب لذاته ، وإما ممكن لذاته ، والواجب لذاته ليس إلا الله تعالى ، والممكن لذاته لا يوجد إلا المرجح ، وذلك المرجح إن كان واجبا لذاته كان حصول ذلك الممكن بإيجاد الله تعالى وإن كان ممكناً لذاته عاد التقسيم الأول فيه ، ولا يذهب إلى التسلسل ، بل ينتهي إلى إيجاد الواجب لذاته ، فثبت بهذا البيان أن كل نعمة فهي من الله تعالى .

أن الاله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله ، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام ، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة الى الحضور ، ويقول (فاياى فارهبون) وفيه دققة أخرى وهى أن قوله (فاياى فارهبون) يفيد الحصر ، وهو أن لا يرهب الخلق الا منه ، وأن لا يرغبوا الا فى فضله واحسانه ، وذلك لأن الموجود دائما قديم وإما محدث . أما القديم الذى هو الاله فهو واحد ، وأما ماسواه فمحدث ، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبإيجاده ، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا اليه ولا رهبة إلا منه ، ففضله تندفع الحاجات وتكوينه وتخليقه تنقطع الضرورات .

ثم قال بعده ﴿وله مافى السموات والأرض﴾ وهذا حق ، لأنه لما كان الاله واحدا ، والواجب لذاته واحدا ، كان كل ماسواه حاصلًا بتخليقه وتكوينه وإيجاده ، فثبت بهذا البرهان صحة قوله (وله مافى السموات والأرض) واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، لأن أفعال العباد من جملة مافى السموات والأرض . فوجب أن تكون أفعال العباد لله تعالى . وليس المراد من كونها لله تعالى أنها مفعولة لله لأجله ولغرض طاعته . لأن فيها المباحات والمحظورات التى يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة ، لا لغرض الطاعة ، فوجب أن يكون المراد من قولنا إنها لله أنها واقعة بتكوينه وتخليقه وهو المطلوب .

ثم قال بعده ﴿وله الدين واصبا﴾ الدين ههنا الطاعة ، والواصب الدائم . يقال : وصب الشيء يصب وصبوا إذا دام ، قال تعالى (ولهم عذاب واصب) ويقال : واظب على الشيء وواصب عليه إذا داوم ، ومفازة واصبة أى بعيدة لا غاية لها . ويقال للليل واصب ، ليكون ذلك المرض لازما له . قال ابن قتيبة : ليس من أحد يدان له ويطاع ، إلا انقطع ذلك بسبب فى حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه ، فان طاعته واجبة أبدا .

واعلم أن قوله (واصبا) حال ، والعامل فيه مافى الظرف من معنى الفعل . وأقول : الدين قديعنى به الانقياد . يقال : يامن دانت له الرقاب أى انقادت . فقوله (وله الدين واصبا) أى انقياد كل ماسواه له لازم أبدا . لأن انقياد غيره له معلل بأن غيره ممكن لذاته ، والممكن لذاته يلزمه أن يكون محتاجا الى السبب فى طرفى الوجود والعدم . والماهيات يلزمها الامكان لزوما ذاتيا . والامكان يلزمه الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا ، ينتج أن الماهيات يلزمها الاحتياج الى المؤثر لزوما ذاتيا . فهذه الماهيات موصوفة بالانقياد لله تعالى اتصافا دائما واجبا لازما ممتنع التغير . وأقول : فى الآية دققة أخرى ، وهى أن العقلاء اتفقوا على أن الممكن حال حدوثه محتاج الى السبب المرجح . واختلفوا فى الممكن حال بقاءه هل هو محتاج الى السبب ؟ قال المحققون : إنه محتاج لأن علة الحاجة هى

إذا عرفت هذا فالقول بوجود الإلهين قول مستقيح في العقول ، ولهذا المعنى فإن أحدا من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال ، فقوله (لا تتخذوا إلهين اثنين) المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح . وثالثها : أن قوله (إلهين) لفظ واحد يدل على أمرين : ثبوت الإله و ثبوت التعدد ، فإذا قيل : لا تتخذوا إلهين . لم يعرف من هذا اللفظ أن النهى وقع عن إثبات الإله أو عن إثبات التعدد أو عن مجموعهما . فلما قال (لا تتخذوا إلهين اثنين) ثبت أن قوله (لا تتخذوا إلهين) نهى عن إثبات التعدد فقط ، ورابعها : أن الاثنينية منافية للالهية ، وتقريره من وجوه : الأول : أنا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجبا لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتى ومتباينين بالتحديد وما به المشاركة غير مابه المباشنة ، فكل واحد منهما مركب من جزأين . وكل مركب فهو ممكن ، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفي القول بكونهما واجبي الوجود . الثانى : أنا لو فرضنا إلهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثانى ، لأن الحركة الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسمة أصلا ولا التناوت أصلا . وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثانى ، وإذا ثبت هذا امتنع كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية . وإذا ثبت هذا فاما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال ، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما البتة . فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون إله . فثبت أن كونهما اثنين ينفي كون كل واحد منهما إله . الثالث : أنا لو فرضنا إلهين اثنين لكان إما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر ، فإن قدر ذلك إله والآخر ضعيف ، وإن لم يقدر فهو ضعيف ، والرابع : وهو أن أحدهما إما أن يقوى على مخالفة الآخر ، أو لا يقوى عليه فإن لم يقو عليه فهو ضعيف ، وإن قوى عليه فذاك الآخر إن لم يقو على الدفع فهو ضعيف ، وإن قوى عليه فالأول المغلوب ضعيف . فثبت أن الاثنينية والالهية متضادتان . فقوله (لا تتخذوا إلهين اثنين) المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الالهية وبين الاثنينية ، والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال (إنما هو إله واحد) والمعنى : أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله ، و ثبت أن القول بوجود الإلهين محال ، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق الصمد .

ثم قال بعده ﴿فياى فارهبون﴾ وهذا رجوع من الغيبة الى الحضور ، والتقدير : أنه لما ثبت

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِمَّا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِذَا فَرَغْتُمْ
 وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾
 وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرَفَالِيَهُ تَجَارُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ
 الضَّرَفَعَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ
 فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

﴿الوجه الرابع﴾ في دلالة الآية على هذا المعنى قوله (يخافون ربهم من فوقهم) وقد بينا بالدليل أن هذه الفوقية عبارة عن الفوقية بالرتبة والشرف والقدرة والقوة . فظاهر الآية يدل على أنه لا شيء فوقهم في الشرف والرتبة إلا الله تعالى ، وذلك يدل على كونهم أفضل المخلوقات والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون وله ما في السموات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن كل ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام ، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبرائه ، أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالأمر بأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وأنه غنى عن الكل فقال (لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول : إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين . فما الفائدة في قوله (إلهين اثنين)

وجوابه من وجوه : أحدها : قال صاحب النظم : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : لا تتخذوا اثنين إلهين . وثانيها : وهو الأقرب عندي أن الشيء إذا كان مستنكرا مستقبجا ، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح .

في أصول الفقه أن الحكم المرتب على الوصف يشعر بكون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف .
إذا ثبت هذا فنقول : هذا التعطيل إنما يصح لو كان المراد بالفوقية الفوقية بالقهر والقدرة
لأنها هي الموجبة للخوف ، أما الفوقية بالجهة والمكان فهي لا توجب الخوف بدليل أن حارس
البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع أنه أخس عبيده فسقطت هذه الشبهة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دللت هذه الآية على أن الملائكة مكلفون من قبل الله تعالى وأن الأمر والنهي

متوجه عليهم كسائر المكلفين ، ومتى كانوا كذلك وجب أن يكونوا قادرين على الخير والشر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ تمسك قوم بهذه الآية في بيان أن الملك أفضل من البشر من وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أنه تعالى قال (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة)

وذكرنا أن تخصيص هذين النوعين بالذكر إنما يحسن إذا كان أحد الطرفين أخس المراتب وكان الطرف
الثاني أشرفها حتى يكون ذكر هذين الطرفين منها على الباقي ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون
الملائكة أشرف خلق الله تعالى .

﴿ الوجه الثاني ﴾ أن قوله تعالى (وهم لا يستكبرون) يدل على أنه ليس في قلوبهم تكبر وترفع

وقوله (ويفعلون ما يؤمرون) يدل على أن أعمالهم خالية عن الذنب والمعصية ، فمجموع هذين الكلامين
يدل على أن بواطنهم وظواهرهم مبرأة عن الأخلاق الفاسدة والأفعال الباطلة ، وأما البشر فليسوا
كذلك . ويدل عليه القرآن والخبر ، أما القرآن فقوله تعالى (قتل الإنسان ما أ كفره) وهذا الحكم
عام في الإنسان ، وأقل مراتبه أن تكون طبيعة الإنسان مقتضية لهذه الأحوال الذميمة ، وأما الخبر
فقوله عليه السلام «مامنا إلا وقد عصى أوهم بالمعصية غير يحيى بن زكريا» ومن المعلوم بالضرورة
أن المبرأ عن المعصية والهم بها أفضل من عصى أوهم بها .

﴿ الوجه الثالث ﴾ أنه لا شك أن الله تعالى خلق الملائكة قبل البشر بأدوار متطاولة وأزمان

ممتدة ، ثم إنه وصفهم بالطاعة والخضوع والتشوع طول هذه المدة ، وطول العمر مع الطاعة يوجب
مزيد الفضيلة لوجهين : الأول : قوله عليه السلام «الشيخ في قومه كالنبي في أمته» فضل الشيخ
على الشاب ، وما ذلك إلا لأنه لما كان عمره أطول فالظاهر أن طاعته أكثر فكان أفضل . والثاني :
أنه صلى الله عليه وسلم قال «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة فلما كان
شروع الملائكة في الطاعات قبيل شروع البشر فيها لزم أن يقال إنهم هم الذين سنوا هذه السنة
الحسنة ، وهي طاعة الخالق القديم الرحيم ، والبشر إنما جاؤا بعدهم واستنوا سنتهم ، فوجب بمقتضى
هذا الخبر أن كل ما حصل للبشر من الثواب فقد حصل مثله للملائكة ولهم ثواب القدر الزائد من
الطاعة فوجب كونهم أفضل من غيرهم .

يدل على أنهم فعلوا كل ما كانوا مأمورين به ، وذلك يدل على عصمتهم عن كل الذنوب .
فان قالوا : هب أن هذه الآية تدل على أنهم فعلوا كل ما أمروا به فلم قلتم أنها تدل على أنهم
تركوا كل ما نهوا عنه ؟

قلنا : لأن كل من نهى عن شيء فقد أمر بتركه ، وحينئذ يدخل في اللفظ ، وإذا ثبت بهذه الآية
كون الملائكة معصومين من كل الذنوب ، وثبت أن إبليس ما كان معصوما من الذنوب بل كان
كافرا ، لزم القطع بأن إبليس ما كان من الملائكة .

﴿والوجه الثاني﴾ في بيان هذا المقصود أنه تعالى قال في صفة الملائكة (وهم لا يستكبرون)
ثم قال لا إبليس (استكبرت أم كنت من العالين) وقال أيضا له (اخرج منها فما يكون لك أن
تتكبر فيها) فثبت أن الملائكة لا يستكبرون . وثبت أن إبليس تكبر واستكبر . فوجب أن لا يكون من
الملائكة وأيضا لما ثبت بهذه الآية وجوب عصمة الملائكة ، ثبت أن القصة الخبيثة التي يذكرونها
في حق هاروت وماروت كلام باطل ، فان الله تعالى وهو أصدق القائلين لما شهد في هذه الآية على
عصمة الملائكة وراةهم عن كل ذنب . ووجب القطع بأن تلك القصة كاذبة باطلة . والله أعلم . واحتج
الطاعنون في عصمة الملائكة بهذه الآية فقالوا إنه تعالى وصفهم بالخوف ، ولولا أنهم يجوزون
على أنفسهم الاقدام على الكبائر والذنوب وإلا لم يحصل الخوف .

والجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى منذرهم من العقاب فقال (ومن يقل منهم إني إله
من دونه فذلك نجزيه جهنم) وهم لهذا الخوف يتركون الذنب . والثاني : وهو الأصح أن ذلك
الخوف خوف الاجلال هكذا نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ، والدليل على صحته قوله تعالى
(إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهذا يدل على أنه كلما كانت معرفة الله تعالى أتم ، كان الخوف
منه أعظم . وهذا الخوف لا يكون إلا خوف الاجلال والكبرياء . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قالت المشبهة قوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) هذا يدل على أن الاله
تعالى فوقهم بالذات .

واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهة في تفسير قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده)
والذى نزيده ههنا أن قوله (يخافون ربهم من فوقهم) معناه يخافون ربهم من أن ينزل عليهم العذاب
من فوقهم ، وإذا كان اللفظ محتملا لهذا المعنى سقط قولهم ، وأيضا يجب حمل هذه الفوقية على
الفوقية بالقدرة والقهر كقوله (وإنا فوقهم قاهرون) والذي يقوى هذا الوجه أنه تعالى لما قال
(يخافون ربهم من فوقهم) وجب أن يكون المقضى لهذا الخوف هو كون ربهم فوقهم لما ثبت

في نفسها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما ، وأنه لا يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح .
 إذا عرفت هذا فنقول : من الناس من قال : المراد بالسجود المذكور في هذه الآية السجود
 بالمعنى الثانى وهو التواضع والانقياد ، والدليل عليه أن اللائق بالدابة ليس إلا هذا السجود ومنهم
 من قال : المراد بالسجود ههنا هو المعنى الأول ، لأن اللائق بالملائكة هو السجود بهذا المعنى
 لأن السجود بالمعنى الثانى حاصل فى كل الحيوانات ، والنباتات ، والجمادات ، ومنهم من قال :
 السجود لفظ مشترك بين المعنيين ، وحمل اللفظ المشترك لأفادة مجموع معنيه جائز ، فحمل لفظ
 السجود فى هذه الآية على الأمرين معا ، أما فى حق الدابة فبمعنى التواضع ، وأما فى حق الملائكة
 فبمعنى سجد المسلمين لله تعالى ، وهذا القول ضعيف ، لأنه ثبت أن استعمال اللفظ المشترك لأفادة
 جميع مفهوماته معا غير جائز .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (من دابة) قال الأخفش : يريد من الدواب . وأخبر بالواحد كما تقول
 ما أتانى من رجل مثله ، وما أتانى من الرجال مثله ، وقال ابن عباس : يريد كل مادب على الأرض
 ﴿المسألة الثالثة﴾ لقائل أن يقول : ما الوجه فى تخصيص الدواب ، والملائكة بالذكر ؟
 فنقول فيه وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنه تعالى بين فى آية الظلال أن الجمادات بأسرها منقادة لله تعالى . وبين بهذه
 الآية أن الحيوانات بأسرها منقادة لله تعالى ، لأن أحسها الدواب وأشرفها الملائكة ، فلما بين
 فى أحسها وفى أشرفها كونها منقادة لله تعالى كان ذلك دليلا على أنها بأسرها منقادة خاضعة لله تعالى
 ﴿والوجه الثانى﴾ قال حكاء الاسلام : الدابة اشتقاقها من الديق . والديق عبارة عن الحركة
 الجسمانية ، فالدابة اسم لكل حيوان جسمانى يتحرك ويدب ، فلما بين الله تعالى الملائكة عن الدابة
 علمنا أنها ليست مما يدب . بل هى أرواح محضة مجردة . ويمكن الجواب عنه بأن الجناح للطيران
 مغاير للديق بدليل قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه) والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾
 ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المقصود من هذه الآية شرح صفات الملائكة وهى دلالة قاهرة قاطعة
 على عصمة الملائكة عن جميع الذنوب ، لأن قوله (وهم لا يستكبرون) يدل على أنهم منقادون
 لصانعهم وخالقهم ، وأنهم ماخالفون فى أمر من الأمور . ونظيره قوله تعالى (وما تنزل إلا بأمر
 ربك) وقوله (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وأما قوله (ويفعلون ما يؤمرون) فهذا أيضا

قلنا : قد دللنا على أن الجسم لا يكون متحركا لذاته . إذ لو كانت ذاته علة لهذا الجزء المخصوص من الحركة . لبقى هذا الجزء من الحركة لبقاء ذاته ، ولو بقى ذلك الجزء من الحركة لامتنع حصول الجزء الآخر من الحركة ، ولو كان الأمر كذلك لكان هذا سكونا لا حركة . فالقول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب القول بكونه ساكنا لذاته وأنه محال ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلا ، فدلنا أن الجسم يمتنع كونه متحركا لذاته ، وأيضا فقد دللنا على أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية . فاخصاص جرم الشمس بالقوة المعينة والخاصية المعينة لا بد وأن يكون بتدبير الخالق المختار الحكيم . إذا ثبت هذا فنقول : هب أن اختلاف أحوال الأظلال إنما كان لأجل حركات الشمس ، إلا أننا دللنا على أن محرك الشمس بالحركة الخاصة ليس إلا الله سبحانه كان هذا دليلا على أن اختلاف أحوال الأظلال لم يقع إلا بتدبير الله تعالى وتخليقه ، فثبت أن المراد بهذا السجود الانقياد والتواضع ، ونظيره قوله (والنجم والشجر يسجدان) وقوله (وظلالهم بالغدو والآصال) قد مر بيانه وشرحه .

(والقول الثاني) في تفسير هذا السجود ، أن هذه الأظلال واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد . قال أبو العلاء المعري في صفة واد :

بحرف يطيل الجنح فيه سجوده وللأرض زى الراهب المتعبد

فلما كانت الأظلال تشبه بشكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ ، وكان الحسن يقول : أما ظلك فسجد لربك ، وأما أنت فلا تسجد له بئسما صنعت ، وقال مجاهد : ظل الكافر يصلي وهو لا يصلي ، وقيل : ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك ساجدا أم لا .

واعلم أن الوجه الأول أقرب إلى الحقائق العقلية ، والثاني أقرب إلى الشبهات الظاهرة .

(المسألة الخامسة) قوله (يسجد) حال من الظلال وقوله (وهم داخرون) أى صاغرون . يقال : دخر يدخر دخورا ، أى صغر يصغر صغارا . وهو الذى يفعل ما تأمره شاء أم أبى ، وذلك لأن هذه الأشياء منقادة لقدرة الله تعالى وتدييره وقوله (وهم داخرون) حال أيضا من الظلال .

فان قيل : الظلال ليست من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون ؟

قلنا : لأنه تعالى لما وصفهم بالطاعة والدخور أشبهوا بالعقلاء .

أما قوله تعالى « والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة » ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قد ذكرنا أن السجود على نوعين : سجود هو عبادة كسجود المسلمين لله

تعالى . وسجود هو عبارة عن الانقياد لله تعالى والخضوع ، ويرجع حاصل هذا السجود إلى أنها

كقوله تعالى (ويولون الدبر) وثانيها : قال الفراء : كأنه إذا وحد ذهب إلى واحدة من ذوات الاظلال ، وإذا جمع ذهب إلى كلها ، وذلك لأن قوله (ما خلق الله من شيء) لفظه واحد ، ومعناه : الجمع على ما بناه فيحتمل كلا الأمرين . وثالثها : أن العرب إذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقوله (ختم الله قلوبهم وعلى سمعهم) ورابعها : أنا إذا فسرنا اليمين بالشرق كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها ، فكانت اليمين واحدة . وأما الشمال فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الاظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة ، فلذلك عبر الله تعالى عنها بصيغة الجمع والله أعلم .

(المسألة الرابعة) أما قوله (سجدا لله) ففيه احتمالات : الأول : أن يكون المراد من السجود الاستسلام والالتقياد . يقال : سجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب ، وسجدت النخلة إذا مالت لسكرة الحمل . ويقال : أسجد لقرود السوء في زمانه ، أى اخضع له . قال الشاعر :

ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

أى متواضعة . إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى دبر النيرات الفلكية ، والأشخاص الكوكبية بحيث يقع أضواؤها على هذا العالم السفلى على وجوه مخصوصة . ثم إنا نشاهد أن تلك الأضواء ، وتلك الاظلال لا تقع في هذا العالم إلا على وفق تدبير الله تعالى وتقديره ، فنشاهد أن الشمس اذا طلعت وقعت للأجسام الكشيفة أظلال ممتدة في الجانب الغربي من الأرض ، ثم كلما ازدادت الشمس طلوعا وارتفاعا ، ازدادت تلك الاظلال تقصا وانتقاصا الى الجانب الشرقى الى أن تصل الشمس الى وسط الفلك ، فاذا انحدرت الى الجانب الغربى ابتدأت الاظلال بالوقوع في الجانب الشرقى ، وكلما ازدادت الشمس انحدارا ازدادت الاظلال تمدا وترايدا في الجانب الشرقى . وكما أنا نشاهد هذه الحالة في اليوم الواحد ، فكذلك نشاهد أحوال الاظلال مختلفة في التيامن والتياسر في طول السنة ، بسبب اختلاف أحوال الشمس في الحركة من الجنوب الى الشمال وبالعكس ، فلما شاهدنا أحوال هذه الاظلال مختلفة بسبب الاختلافات اليومية الواقعة في شرق الأرض وغربها ، وبحسب الاختلافات الواقعة في طول السنة في يمين الفلك ويساره ، ورأينا أنها واقعة على وجه مخصوص وترتيب معين ، علمنا أنها منقادة لقدرة الله خاضعة لتقديره وتديره ، فكانت السجدة عبارة عن هذه الحالة .

فان قيل : لم لا يجوز أن يقال : اختلاف حال هذه الاظلال معلل باختلاف سير النير الأعظم

الذى هو الشمس ، لا لأجل تقدير الله تعالى وتديره ؟

وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ، ومنهم من أنكر ذلك . فان أبا زيد أنشد للنابغة الجعدي :

فسلام الاله يغدو عليهم وفيود الغروس ذات الظلال

فهذا الشعر قد أوقع فيه لفظ النى على ما لم تنسخه الشمس . لأن ما في الجنة من الظل ما حصل بعد أن كان زائلا بسبب نور الشمس وتقول العرب في جمع فيء أفياء وهي للعدد القليل ، وفيود للكثير كالنفوس والعيون ، وقوله (ظلاله) أضاف الظلال إلى مفرد ، ومعناه الإضافة إلى ذوى الظلال . وإنما حسن هذا . لأن الذى عاد اليه الضمير وإن كان واحدا في اللفظ وهو قوله الى ما خاق الله . إلا أنه كثير فى المعنى ، ونظيره قوله تعالى (لتستووا على ظهوره) فأضاف الظهور ، وهو جمع ، الى ضمير مفرد ، لأنه يعود الى واحد أريد به الكثرة وهو قوله (ماتر كبون) هذا كله كلام الواحدى . وهو بحث حسن . أما قوله (عن اليمين والشمال) ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ فى المراد باليمين والشمال قولان :

﴿ القول الأول ﴾ أن يمين الفلك هو المشرق وشماله هو المغرب ، والسبب فى تخصيص هذين الاسمين بهذين الجانبين أن أقوى جانبي الانسان يمينه . ومنه تظهر الحركة القوية ، فلما كانت الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق الى المغرب ، لاجرم كان المشرق يمين الفلك ، والمغرب شماله .

اذا عرفت هذا فنقول : إن الشمس عند طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك تقع الاظلال الى الجانب الغربى ، فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربى وقع الاظلال فى الجانب الشرقى ، فهذا هو المراد من تفيؤ الظلال من اليمين الى الشمال وبالعكس . وعلى هذا التقدير : فالأظلال فى أول النهار تبتدىء من يمين الفلك على الربع الغربى من الأرض ، ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك تبتدىء الأظلال من شمال الفلك وافعة على الربع الشرقى من الأرض .

﴿ القول الثانى ﴾ أن البلدة التى يكون عرضها أقل من مقدار الميل ، فان فى الصيف تحصل الشمس على يسارها ، وحينئذ يقع الاظلال على يمينهم ، فهذا هو المراد من انتقال الأظلال عن الايمان إلى الشمال وبالعكس . هذا ما حصلته فى هذا الباب ، وكلام المفسرين فيه غير ملخص .

﴿ البحث الثانى ﴾ لقائل أن يقول : ما السبب فى أن ذكر اليمين بلفظ الواحد ، والشمال

بصيغة الجمع ؟

وأجيب عنه بأشياء : أحدها : أنه وحده اليمين والمراد الجمع ولكنه ، اقتصر فى اللفظ على الواحد

داخرون والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿
في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما خوف المشركين بالأنواع الأربعة المذكورة من العذاب أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى . وتدبير أحوال الأرواح والأجسام ، ليظهر لهم أن مع كمال هذه القدرة القاهرة ، والقوة الغير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب اليهم على أحد تلك الأقسام الأربعة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزة والكسائي (أولم تروا) بالتاء على الخطاب ، وكذلك في سورة العنكبوت (أولم تروا أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده) بالتاء على الخطاب ، والباقون بالياء . فهما كناية عن الذين مكروا السيئات ، وأيضا أن ما قبله غيبة وهو قوله (أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتهم العذاب أو يأخذهم) فكذا قوله (أولم يروا) وقرأ أبو عمرو وحده (تتفيؤ) بالتاء والباقون بالياء ، وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أولم يروا إلى ما خلق الله) لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بالي . لأن المراد به الاعتبار والاعتبار لا يكون بنفس الرؤية حتى يكون معها نظر إلى الشيء وتأمل لأحواله ، وقوله (إلى ما خلق الله من شيء) قال أهل المعاني : أراد من شيء له ظل من جبل وشجر وبناء وجسم قائم ، ولفظ الآية يشعر بهذا القيد ، لأن قوله (من شيء) يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمال) يدل على أن ذلك الشيء كسيف يقع له ظل على الأرض ، وقوله (يتفيؤا ظلاله) اخبار عن قوله (شيء) وليس بوصف له ، ويتفيؤا يتفعل من الفيء يقال : فاء الظل يفيء فيئا إذا رجع وعاد بعد ما نسخه ضياء الشمس ، وأصل الفيء الرجوع ، ومنه فيء المولى وذكرنا ذلك في قوله تعالى (فان فاءوا فان الله غفور رحيم) وكذلك فيء المسلمين لما يعود على المسلمين من مال من خالف دينهم ، ومنه قوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله منهم) واصل هذا كله من الرجوع .

إذا عرفت هذا فنقول : إذا عدى فاء فانه يعدى إما بزيادة الهمزة أو بتضعيف العين . أما التعدية بزيادة الهمزة فكقوله (ما أفاء الله) وأما بتضعيف العين فكقوله فيأ الله الظل فتفيؤا وتفيؤا مطاوع فيأ . قال الأزهرى : تفيؤ الظلال رجوعها بعد اتصاف النهار ، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشى بعد ما انصرفت عنه الشمس والظل ما يكون بالغداة وهو ما مله الشمس كما قال الشاعر :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشى تذوق

قال ثعلب : أخبرت عن أبي عبيدة أن رؤبة قال : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ
 سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ «٤٨» وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
 دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ «٤٩» يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ
 مَا يُؤْمَرُونَ «٥٠»

﴿القول الأول﴾ التخوف تفعل من الخوف ، يقال خفت الشيء وتخوفته . والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب أو لابل يخيفهم أو لاثم يعذبهم بعده ، وتلك الاخافة هو أنه تعالى يهلك فرقة فتخاف التي تليها فيكون هذا أخذاً ورد عليهم بعد أن يمر بهم قبل ذلك زمانا طويلا في الخوف والوحشة .
 ﴿والقول الثاني﴾ أن التخوف هو التنقص قال ابن الاعرابي يقال : تخوفت الشيء وتخيفته إذا تنقصته ، وعن عمر أنه قال على المنبر : ماتقولون في هذه الآية ؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف التنقص ، فقال عمر : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال نعم : قال شاعرنا وأنشد :

تخوف الرجل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم .

إذا عرفت هذا فنقول : هذا التنقص يحتمل أن يكون المراد منه ما يقع في أطراف بلادهم كما قال تعالى (أولايرون أنا نأتى الأرض تنقصها من أطرافها) والمعنى أنه تعالى لا يعاجلهم بالعذاب ولكن ينقص من أطراف بلادهم إلى القرى التي تجاورهم حتى يخلص الأمر اليهم فيمتد يهلكهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتي الفناء على الكل فهذا تفسير هذه الأمور الأربعة ، والحاصل أنه تعالى خوفهم بخسف يحصل في الأرض . أو بعذاب ينزل من السماء أو بآفات تحدث دفعة واحدة حال مالا يكونون عالمين بعلاماتها ودلائلها ، أو بآفات تحدث قليلا قليلا إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم ثم ختم الآية بقوله (فان ربكم لرؤف رحيم) والمعنى أنه يمهل في أكثر الأمر لأنه رؤف رحيم فلا يعاجل بالعذاب .

قوله تعالى ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفییؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم

والجواب : أن القرآن منه محكم ، ومنه متشابه ، والمحكم يجب كونه مبينا فثبت أن القرآن ليس كله مجملا بل فيه ما يكون مجملا فقوله (لتبين للناس منازل اليهم) محمول على المجملات .

﴿المسألة الثانية﴾ ظاهر هذه الآية يقتضى أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين لكل ما أنزله الله تعالى على المكلفين ، فعند هذا قال نفاة القياس لو كان القياس حجة لما وجب على الرسول بيان كل ما أنزله الله تعالى على المكلفين من الأحكام ، لاحتمال أن يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس ، ولما دلت هذه الآية على أن المبين لكل التكليف والأحكام ، هو الرسول صلى الله عليه وسلم علمنا أن القياس ليس بحجة .

وأجيب عنه بأنه صلى الله عليه وسلم لما بين أن القياس حجة ، فمن رجع في تبين الأحكام والتكليف إلى القياس ، كان ذلك في الحقيقة رجوعا إلى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات﴾ ، المكر في اللغة عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء ، ولا بد ههنا من إضمار ، والتقدير : المكرات السيئات ، والمراد أهل مكة ومن حول المدينة . قال الكلبي : المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى ، والأقرب أن المراد سعيهم في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه على سبيل الخفية ، ثم إنه تعالى ذكر في تهديدهم أمورا أربعة : الأول : أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون . والثاني : أن يأتهم العذاب من حيث لا يشعرون . والمراد أن يأتهم العذاب من السماء من حيث يفجئهم فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط . والثالث : أن يأخذهم في قلوبهم ففهم بمعجزين ، وفي تفسير هذا التقلب وجوه : الأول : أنه يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم ، فانه تعالى قادر على إهلاكهم في السفر كما أنه قادر على إهلاكهم في الحضر . وهم لا يعجزون الله بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدر كهم الله حيث كانوا ، وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) وثانيهما : تفسير هذا اللفظ بأنه يأخذهم بالليل والنهار في أحوال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم وحقيقته في حال تصرفهم في الأمور التي يتصرف فيها أمثالهم . وثالثها : أن يكون المعنى أو يأخذهم في حال ما ينقلبون في قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين إتمام تلك الحيل قسراً . كما قال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأني يبصرون) وحمل لفظ التقلب على هذا المعنى مأخوذ من قوله (وقلبوا لك الأمور) فانهم إذا قلبوها فقد تقلبوا فيها .

﴿والنوع الرابع﴾ من الأشياء التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية على سبيل التهديد قوله تعالى

(أو يأخذهم على تخوف) وفي تفسير التخوف قولان :

واحتج بهذه الآية فقال : لما لم يكن أحد المجتهدين عالما وجب عليه الرجوع إلى المجتهد الآخر الذى يكون عالما لقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) فان لم يجب فلا أقل من الجواز .

(المسألة الثالثة) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : المكلف إذا نزلت به واقعة فان كان عالما بحكمها لم يجزله القياس ، وإن لم يكن عالما بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالما بها لظاهر هذه الآية ، ولو كان القياس حجة لما وجب عايمه سؤال العالم لأجل أنه يمكنه استنباط ذلك الحكم بواسطة القياس . فثبت أن تجوز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية فوجب أن لا يجوز ، والله أعلم .

وجوابه : أنه ثبت جواز العمل بالقياس باجماع الصحابة ، والاجماع أقوى من هذا الدليل ، والله أعلم . ثم قال تعالى ﴿ بالبينات والزبر ﴾ وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) ذكروا فى الجالب لهذه الباء وجوها : الأول : أن التقدير : وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا يوحى إليهم ، وأنكر الفراء ذلك وقال : إن صلة ما قبل إلا لا يتأخر إلى بعد . والدليل عليه : أن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل إلا مع صلته ، فالمراد بجموع المذكور اتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه . الثانى : أن التقدير : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم بالبينات والزبر ، وعلى هذا التقدير فقوله (بالبينات والزبر) متعلق بالمستثنى . الثالث : أن الجالب لهذا الباء محذوف ، والتقدير أرسلناهم بالبينات وهذا قول الفراء . قال : ونظيره مامر إلا أخوك يزيد مامر إلا أخوك ثم يقول مر يزيد . الرابع أن يقال : الذكر بمعنى العلم ، والتقدير فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون . الخامس : أن يكون التقدير : إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر فاسألوا أهل الذكر .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (بالبينات والزبر) افضة جامعة لكل ما تكامل به الرسالة ، لأن مدار أمرها على المعجزات الدالة على صدق من يدعى الرسالة وهى البينات وعلى التكليف التى يبلغها الرسول من الله تعالى إلى العباد وهى الزبر .

ثم قال تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) ظاهر هذا الكلام يقتضى أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول الله والمفتقر إلى البيان يحمل ، فظاهر هذا النص يقتضى أن القرآن كله يحمل ، فلهذا المعنى قال بعضهم متى : وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخبر لأن القرآن يحمل ، والدليل عليه هذه الآية . والخبر مبين له بدلالة هذه الآية . والمبين مقدم على المحمل .

منهم . وقالوا لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحي اليهم) والمعنى : أن عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لم يبعث رسولا إلا من البشر . فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى ، وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك أيضا طعن قديم فلا يلتفت اليه .

(المسألة الثانية) دلت الآية على أنه تعالى ما أرسل أحدا من النساء ، ودلت أيضا على أنه ما أرسل ملكا ، لكن ظاهر قوله (جاعل الملائكة رسلا) يدل على أن الملائكة رسل الله الى سائر الملائكة . فكان ظاهر هذه الآية دليلا على أنه ما أرسل رسولا من الملائكة الى الناس . قال القاضي : وزعم أبو علي الجبائي أنه لم يبعث الى الأنبياء عليهم السلام إلا من هو بصورة الرجال من الملائكة . ثم قال القاضي : لعلة أراد أن الملك الذي يرسل الى الأنبياء عليهم السلام بحضرة أمهم ، لأنه إذا كان كذلك فلا بد من أن يكون أيضا بصورة الرجال . كما روى أن جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وفي صورة سرافقة ، وإنما قلنا ذلك لأن المعلوم من حال الملائكة أن عند إبلاغ الرسالة من الله تعالى إلى الرسول قد يبقون على صورتهم الأصلية الملكية ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرتين ، وعليه تأولوا قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى) ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام أتبعه بقوله (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في المراد بأهل الذكر وجوه : الأول : قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد أهل التوراة . والذكر هو التوراة . والدليل عليه قوله تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) يعنى التوراة . الثانى : قال الزجاج : فاسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معانى كتب الله تعالى ، فانهم يعرفون أن الأنبياء كلهم بشر . والثالث ، أهل الذكر أهل العلم بأخبار الماضين ، إذ العالم بالشيء يكون ذا كرامه . والرابع : قال الزجاج : معناه سلوا كل من يذكر بعلم وتحقيق . وأقول : الظاهر أن هذه الشبهة وهى قولهم : الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر إنما تمسك بها كفار مكة ، ثم إنهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله بأن يرجعوا فى هذه المسألة إلى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها ، فان اليهودى والنصرانى لا بد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها .

(المسألة الثانية) اختلف الناس فى أنه هل يجوز للمجتهد تقليد المجتهد ؟ منهم من حكم بالجواز

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

ثم قال ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ وفي محل (الذين) وجوه: الأول: أنه بدل من قوله (والذين هاجروا) والثاني: أن يكون التقدير: هم الذين صبروا. والثالث: أن يكون التقدير: أعنى الذين صبروا وكلا الوجهين مدح، والمعنى: أنهم صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس فى سبيل الله، وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل. أما الصبر فللسعى فى قهر النفس. وأما التوكل فللانقطاع بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية إلى الحق، فالأول: هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى، والثانى: آخر هذا الطريق ونهايته، والله أعلم،

قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون أفامن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فاهم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾
وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكرى النبوة كانوا يقولون: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر، بل لو أراد بعثة رسول إلينا لكان يبعث ملكا. وقد ذكرنا تقرير هذه الشبهة فى سورة الأنعام فلا نعيد ههنا. ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) وقالوا (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقالوا (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم) وقال (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل-

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة دل ذلك على أنهم تمادوا في الغي ، والجهل ، والضلال ، وفي مثل هذه الحالة لا يبعد إقدامهم على إيذاء المسلمين وضرهم ، وإنزال العقوبات بهم ، وحيثئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا عن تلك الديار والمساكن ، فذكر تعالى في هذه الآية حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من الحسنات في الدنيا ، والأجر في الآخرة من حيث هاجروا وصبروا وتوكلوا على الله ، وذلك ترغيب لغيرهم في طاعة الله تعالى . قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة صهيب وبلال . وعمار . وخباب . وعابس . وجبير ، موليين لقريش فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام ، أما صهيب فقال لهم : أنا رجل كبير إن كنت لكم لم أنفعكم إون كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله فلما رآه أبو بكر قال : ربح البيع يا صهيب ، وقال عمر : نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله النار لأطاعه فكيف ظنك به وقد خلقها ؟ وأما سائرهم فقد قالوا بعض : أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الاسلام فتركوا عذابهم ، ثم هاجروا فنزلت هذه الآية ، وبين الله تعالى بهذه الآية عظم محل الهجرة ، ومحل المهاجرين فالوجه فيه ظاهر ، لأن بسبب هجرتهم ظهرت قوة الاسلام ، كما أن بنصرة الأنصار قويت شوكتهم ، ودل تعالى بقوله (والذين هاجروا في الله) ان الهجرة إذا لم تكن لله لم يكن لها موقع ، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى بلد . وقوله (من بعد ما ظلموا) معناه أنهم كانوا مظلومين في أيدي الكفار ، لأنهم كانوا يعذبونهم ثم قال ﴿لنبؤئهم في الدنيا حسنة﴾ وفيه وجوه : الأول : أن قوله (حسنة) صفة للبصير من قوله (لنبؤئهم في الدنيا) والتقدير : لنبؤئهم تبوئة حسنة ، وفي قراءة على عليه السلام (لنبؤئهم إيواءة حسنة) الثاني : لنزلتهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم ، وعلى العرب قاطبة . وعلى أهل المشرق والمغرب ، وعن عمر أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ذخر لك في الآخرة أكبر .

﴿والقول الثالث﴾ لنبؤئهم مباءة حسنة وهي المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم ، وهذا قول الحسن والشعبي وقتادة ، والتقدير : لنبؤئهم في الدنيا دارا حسنة أو بلدة حسنة يعنى المدينة . ثم قال تعالى ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ وأعظم وأشرف (لو كانوا يعلمون) والضمير إلى من يعود ؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد إلى الكفار ، أى لو عملوا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم ، والثاني : أنه راجع إلى المهاجرين ، أى لو كانوا يعلمون ذلك لزدوا في اجتهادهم وصبرهم .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنُبُوَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جِرَ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «٤١» الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «٤٢»

بالضرورة، لأن لفظة: كن. مركبة من الكاف والنون. وعند حضور الكاف لم تكن النون حاضرة
وعند مجيء النون تتولى الكاف، وذلك يدل على أن كلمة كن، يمتنع كونها قديمة، وإنما الذي يدعى
أصحابنا كونه قديماً صفة مغايرة للفظه كن. فالذي تدل عليه الآية لا يقول به أصحابنا، والذي يقولون
به لا تدل عليه الآية فسقط التمسك به.

﴿الوجه الثالث﴾ أن الرجل إذا قال إن فلانا لا يقدم على قول، ولا على فعل إلا ويستعين
فيه بالله تعالى فان عاقلاً لا يقول: إن استعانته بالله فعل من أفعاله فيلزم أن يكون كل استعانة مسبوقة
باستعانة أخرى إلى غير النهاية لأن هذا الكلام بحسب العرف باطل فكذلك ما قالوه.

﴿الوجه الرابع﴾ أن هذه الآية مشعرة بحدوث الكلام من وجوه:

﴿الوجه الأول﴾ أن قوله تعالى (إنما قولنا شيء إذا أردناه) يقتضى كون القول واقعا
بالارادة، وما كان كذلك فهو محدث.

﴿الوجه الثاني﴾ أنه علق القول بكلمة إذا، ولا شك أن لفظة «إذا» تدخل للاستقبال.

﴿الوجه الثالث﴾ أن قوله (أن نقول له) لا خلاف أن ذلك ينبئ عن الاستقبال.

﴿الوجه الرابع﴾ أن قوله (كن فيكون) يدل على أن حدوث الكون حاصل عقيب قوله
(كن) فتكون كلمة «كن» متقدمة على حدوث الكون بزمان واحد، والمتقدم على المحدث بزمان
واحد يجب أن يكون محدثا.

﴿الوجه الخامس﴾ أنه معارض بقوله تعالى (وكان أمر الله مفعولا. وكان أمر الله قدرا

مقدورا. الله نزل أحسن الحديث. فليأتوا بحديث مثله، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة)

فان قيل: فهب أن هذه الآية لا تدل على قدم الكلام. ولكنكم ذكرتتم أنها تدل على حدوث
الكلام فما الجواب عنه؟

قلنا. نصرف هذه الدلائل إلى الكلام المسموع الذي هو مركب من الحروف والأصوات.
ونحن نقول بكونه محدثا مخلوقا. والله أعلم.

قوله تعالى ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة
أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول : قوله (كن) إن كان خطابا مع المعدوم فهو محال ، وإن كان خطابا مع الموجود كان هذا أمراً بتحصيل الحاصل وهو محال .

والجواب : أن هذا تمثيل لنفي الكلام والمعايمة وخطاب مع الخلق بما يعقلون ، وليس خطابا للمعدوم ، لأن ما أراده الله تعالى فهو كائن على كل حال وعلى ما أراده من الاسراع ، ولو أراد خلق الدنيا والآخرة بما فيهما من السموات والأرض في قدر لمح البصر لقدرة على ذلك ، ولكن العباد خوطبوا بذلك على قدر عقولهم .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (قولنا) مبتدأ و(أن نقول) خبره و(كن فيكون) من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أى إذا أردنا حدوث شيء فليس إلا أن نقول له أحدث فيحدث عقيب ذلك من غير توقع .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ ابن عامر والكسائي (فيكون) بنصب النون ، والباقون بالرفع قال الفراء : القراءة بالرفع وجهها أن يجعل قوله (أن نقول له) كلاما تاما ثم يخبر عنه بأنه سيكون كما يقال : إنزيديا يكفيه إن أمر فيفعل فترفع قولك فيفعل على أن تجعله كلاما مبتدأ ، وأما القراءة بالنصب فوجهه أن تجعله عطفًا على أن نقول ، والمعنى : أن نقول كن فيكون هذا قول جميع النحويين قال الزجاج . ويجوز أن يكون نصبا على جواب (كن) قال أبو على لفظه «كن» وإن كانت على لفظه الامر فليس القصد به ههنا الأمر إنما هو والله أعلم الاخبار عن كون الشيء وحدثه ، وإذا كان الامر كذلك فحينئذ يبطل قوله إنه نصب على جواب (كن) والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على قدم القرآن فقالوا قوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) يدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له كن فيكون ، فلو كان قوله (كن) حادثا لافتقر إحداثه إلى أن يقول له كن . وذلك يوجب التسلسل ، وهو محال فثبت أن كلام الله قديم .

واعلم أن هذا الدليل عندى ليس فى غاية القوة ، وبيانه من وجوه :

﴿الوجه الاول﴾ أن كلمة (إذا) لا تفيد التكرار ، والدليل عليه أن الرجل إذا قال لامرأته إذا دخلت الدار فأنت طالق فدخلت الدار مرة طلقت طلقة واحدة فلو دخلت ثانيا لم تطلق طلقة ثانية فعلينا أن كلمة إذا لا تفيد التكرار ، وإذا كان كذلك ثبت أنه لا يلزم فى كل ما يحدثه الله تعالى أن يقول له كن فلم يلزم التسلسل .

﴿والوجه الثانى﴾ أن هذا الدليل إن صح لزم القول بقدم لفظه «كن» وهذا معلوم البطلان

الأول : أن محمداً كان داعياً إلى تقرير القول بالمعاد ، فإذا بطل ذلك ثبت أنه كان داعياً إلى القول بالباطل . ومن كان كذلك لم يكن رسولا صادقا . الثاني : أنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته بناء على الترغيب في الثواب والترهيب عن العقاب ، وإذا بطل ذلك بطلت نبوته .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن الشيء إذا فني وصار عدما محضا ونفيا صرفا ، فانه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئا آخر غيره . وهذا القسم واليمين إشارة إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محال في بديهة العقل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) على أنهم يحددون في قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضروري ، وأما بيان أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة فلم يذكره على سبيل التصريح . لأنه كلام جلي متبادر إلى العقول فتر كوه لهذا العذر . ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث يمكن ويدل عليه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أنه وعد حق على الله تعالى ، فوجب تحقيقه . ثم بين السبب الذي لأجله كان وعدا حقا على الله تعالى ، وهو التمييز بين المطيع ، وبين العاصي ، وبين الحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ، وهو قوله (ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) وهذه الطريقة قد بالغنا في شرحها وتقريرها في سورة (يونس)

﴿والوجه الثاني﴾ في بيان إمكان الحشر والنشر أن كونه تعالى موجدا للأشياء ومكونا لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة . وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشئته ، وليس لقدرته دافع ولا المشئته مانع فعبر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وإذا كان كذلك ، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء ووجب أن يكون قادرا عليه في الإعادة . فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق ، والقوم إنما طعنوا في صحة النبوة بناء على الطعن في هذا الأصل ، فلما بطل هذا الطعن بطل أيضا طعنهم في النبوة والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) حكاية عن الذين أشركوا . وقوله (بلى) اثبات لما بعد النفي ، أي بلى يبعثهم . وقوله (وعدا عليه حقا) مصدر مؤكد أي وعد بالبعث وعدا حقا لا خلف فيه . لأن قوله يبعثهم دل على قوله وعد بالبعث ، وقوله (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) من أمور البعث أي بلى يبعثهم ليبين لهم وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما أقسموا فيه .

ثم قال تعالى ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ وفيه مسائل :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٣٨» لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ «٣٩» إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ «٤٠»

﴿أما القراءة الأولى﴾ ففيها وجهان : الأول : فان الله لا يرشد أحدا أضله ، وبهذا فسره ابن عباس رضى الله عنهما . والثاني : أن يهدى بمعنى يهتدى . قال الفراء : العرب تقول : قدهدى الرجل يريدون قدهتدى ، والمعنى أن الله إذا أضل أحدا لم يصر ذلك مهتديا .

﴿وأما القراءة المشهورة﴾ فالوجه فيها إن الله لا يهدى من يضل ، أى من يضلّه ، فالراجع إلى الموصل الذى هو من محذوف مقدر وهذا كقوله (من يضل الله فلا هادى له) وكقوله (فمن يهديه من بعد الله) أى من بعد اضلال الله إياه .

ثم قال تعالى ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أى وليس لهم أحد ينصرهم أى يعينهم على مطاؤبهم فى الدنيا والآخرة . وأقول أول هذه الآيات موهم لمذهب المعتزلة ، وآخرها مشتمل على الوجوه الكثيرة الدالة على قولنا ، وأكثر الآيات كذلك مشتمله على الوجهين والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾
وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذا هو الشبهة الرابعة لمنكرى النبوة فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل ، فكان القول بالنبوة باطلا .

﴿أما المقام الأول﴾ فتقريره أن الانسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة ، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه ، لأن الشئ إذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فناءه وعدمه ، فالذى يعود يجب أن يكون شيئا مغايرا للأول فلا يكون عينه .
﴿وأما المقام الثانى﴾ وهو أنه لما بطل القول بالبعث بطل القول بالنبوة وتقريره من وجهين :

أجاب الجبائي : بأن المراد (فمنهم من هدى الله) لنيل ثوابه وجنته (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي العقاب . قال : وفي صفة قوله (حقت عليه) دلالة على أنها العذاب دون كلمة الكفر . لأن الكفر والمعصية لا يجوز وصفهما بأنه حق . وأيضا قال تعالى بعده (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وهذه العاقبة هي آثار الهلاك لمن تقدم من الأمم الذين استأصلهم الله تعالى بالعذاب ، وذلك يدل على أن المراد بالضلال المذكور هو عذاب الاستئصال .

وأجاب الكعبي عنه بأنه قال : قوله (فمنهم من هدى الله) أي من اهتدى فكان في حكم الله مهتديا . (ومنهم من حقت عليه الضلالة) يريد : من ظهرت ضلالتة ، كما يقال للظالم : حق ظلمك وتبين ، ويجوز أن يكون المراد : حق عليهم من الله أن يضلهم إذا ضلوا كقوله (ويضل الله الظالمين) واعلم أنا بينا في آيات كثيرة بالدلائل العقلية القاطعة أن الهدى والاضلال لا يكونان إلا من الله تعالى فلا فائدة في الاعداء ، وهذه الوجوه المتعسفة والتأويلات المستكرهة قد بينا ضعفها وسقوطها مرارا . فلا حاجة إلى الاعداء ، والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ في الطاغوت قولان : أحدهما : أن المراد به : اجتنبوا عبادة ما تعبدون من دون الله ، فسمى الكل طاغوتا ، ولا يمتنع أن يكون المراد : اجتنبوا طاعة الشيطان في دعائه لكم .

﴿المسألة الخامسة﴾ قوله تعالى (ومنهم من حقت عليه الضلالة) يدل على مذهبنا . لأنه تعالى لما أخبر عنه أنه حقت عليه الضلالة امتنع أن لا يصدر منه الضلالة ، وإلا لانقلب خبر الله الصدق كذبا . وذلك محال . ومستلزم المحال محال ، فكان عدم الضلالة منهم محالا ، ووجود الضلالة منهم واجبا عقلا ، فهذه الآية دالة على صحة مذهبنا من هذه الوجوه الكثيرة والله أعلم ، ونظائر هذه الآية كثيرة منها قوله (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) وقوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) وقوله (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون)

ثم قال تعالى ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ والمعنى : سيروا في الأرض معتبرين لتعرفوا أن العذاب نازل بكم كما نزل بهم ، ثم أكد أن من حقت عليه الضلالة فانه لا يهتدى ، فقال (إن تحرص على هداهم) أي إن تطلب بجهدك ذلك . فان الله لا يهدي من يضل ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم وحمة والكسائي (يهدى) بفتح الياء وكسر الدال . والباقون : (لا يهدي) بضم الياء وفتح الدال .

تعالى مع العباد . وهى أنه يأمر الكل بالايمن وينهاهم عن الكفر ، ثم يخلق الايمان فى البعض والكفر فى البعض . ولما كانت سنة الله تعالى فى هذا المعنى سنة قديمة فى حق كل الانبياء وكل الأمم والملل . وإنما يحسن منه تعالى ذلك بحكم كونه إلهاً نزهة عن اعتراضات المعترضين ومطالبات المنازعين ، كان إيراد هذا السؤال من هؤلاء الكفار موجبا للجهل والضلال والبعد عن الله . فثبت أن الله تعالى إنما حكم على هؤلاء باستحقاق الحزى واللعن ، لالائهم كذبوا فى قولهم (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء) بل لائهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثة الانبياء والرسول وهذا باطل ، فلا جرم استحقوا على هذا الاعتقاد مزيد الذم واللعن . فهذا هو الجواب الصحيح الذى يعول عليه فى هذا الباب . وأما من تقدمنا من المتكلمين والمفسرين فقد ذكروا فيه وجهاً آخر فقالوا : إن المشركين ذكروا هذا الكلام على جهة الاستهزاء كما قال قوم شعيب عليه السلام له (إنك لانت الحليم الرشيد) ولو قالوا ذلك معتقدين لكانوا مؤمنين ، والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى هذه الشبهة قال (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هؤلاء للكفار أبداً كانوا متمسكين بهذه الشبهة .

ثم قال ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أما المعتزلة فقالوا : معناه أن الله تعالى مامنع أحداً من الايمان وما أوقعه فى الكفر ، والرسل ليس عليهم إلا التبليغ ، فلما بلغوا التكليف وثبت أنه تعالى مامنع أحداً عن الحق كانت هذه الشبهة ساقطة . أما أصحابنا فقالوا : معناه أنه تعالى أمر الرسل بالتبليغ . فهذا التبليغ واجب عليهم . فأما أن الايمان هل يحصل أم لا يحصل فذلك لا تعاق للرسول به ، وله كنهه تعالى يهدى من يشاء باحسانه ويضل من يشاء بخذلانه ،

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج أصحابنا فى بيان أن الهدى والضلال من الله بقوله (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وهذا يدل على أنه تعالى كان أبداً فى جميع الملل والأمم آمراً بالايمن وناهياً عن الكفر .

ثم قال ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ يعنى : فمنهم من هداه الله إلى الايمان والصدق والحق ، ومنهم من أضله عن الحق وأعماه عن الصدق . وأوقعه فى الكفر والضلال ، وهذا يدل على أن أمر الله تعالى لا يوافق إرادته ، بل قد يأمر بالشىء ولا يريد به وينهى عن الشىء ويريد به كما هو مذهبنا . والحاصل أن المعتزلة يقولون : الأمر والارادة متطابقان . أه العلم والارادة فقد يختلفان ، ولفظ هذه الآية صريح فى قولنا وهو : أن الأمر بالايمن عام فى حق الكل . أما إرادة الايمان فخاصة بالبعض دون البعض .

الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ «٣٦» إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ «٣٧»

في كل مرة ر. ولا أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة
فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من
يضل وما لهم من ناصرين ﴿

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لمنكري النبوة. وتقريرها: أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر
على الطعن في النبوة فقالوا: لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان. سواء جئت أولم تجي، ولو شاء
الله الكفر فانه يحصل الكفر سواء جئت أولم تجي، وإذا كان الأمر كذلك فالكل من الله تعالى،
ولا فائدة في مجيئك وإرسالك، فكان القول بالنبوة باطلا، وفي الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن هذه الشبهة هي عين ما حكي الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله
(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين
من قبلهم) واستدلال المعتزلة به مثل استدلالهم بتلك الآية. والكلام فيه استدلالا واعتراضا عين
ما تقدم هناك فلا فائدة في الإعادة، ولا بأس بأن نذكر منه القليل. فنقول: الجواب عن هذه الشبهة
هي أنهم قالوا: لما كان الكل من الله تعالى كان بعثة الأنبياء عبثا. فنقول: هذا اعتراض على الله
تعالى، فإن قولهم: إذا لم يكن في بعثة الرسول مزيد فائدة في حصول الإيمان ودفع الكفر كانت
بعثة الأنبياء غير جائزة من الله تعالى، فهذا القول جار مجرى طلب العلة في أحكام الله تعالى وفي أفعاله،
وذلك باطل، بل الله تعالى أن يحكم في ملكه وملكوته ما يشاء ويفعل ما يريد، ولا يجوز أن يقال له:
لم فعلت هذا ولم لم تفعل ذلك؟ والدليل على أن الإنكار إنما توجه إلى هذا المعنى أنه تعالى صرح
في آخر هذه الآية بهذا المعنى فقال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن عبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت) فبين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن
عبادة الطاغوت.

ثم قال ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ والمعنى: أنه تعالى وإن أمر الكل
بالإيمان ونهى الكل عن الكفر، إلا أنه تعالى هدى البعض وأضل البعض، فهذه سنة قديمة لله

مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «٣٣» فَأَصَابَهُمْ
 سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٣٤» وَقَالَ الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا
 وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ «٣٥» وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿
 اعلم أن هذا هو الشبهة الثانية لمنكري النبوة ، فانهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل
 الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى (هل ينظرون) في التصديق
 بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك ، ويحتمل أن يقال : إن القوم لما طعنوا في القرآن
 بأن قالوا : إنه أساطير الأولين ، وذكر الله تعالى أنواع التهديد والوعيد لهم ، ثم أتبعه بذكر الوعد
 لمن وصف القرآن بكونه خيرا وصدقا وصوابا ، عاد إلى بيان أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن
 الكفر بسبب البيانات التي ذكرناها ، بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوال الباطلة إلا إذا جاءتهم
 الملائكة بالتهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال .

واعلم أن على كلا التقديرين فقد قال تعالى (كذلك فعل الذين من قبلهم) أي كلام هؤلاء
 وأفعالهم يشبه كلام الكفار المتقدمين وأفعالهم .

ثم قال ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ والتقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم
 فأصابهم الهلاك المعجل وما ظلمهم الله بذلك ، فانه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم ، ولكنهم ظلموا
 أنفسهم بأن كفروا ، وكذبوا الرسول فاستوجبوا ما نزل بهم .

ثم قال ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ والمراد أصابهم عقاب سيئات ما عملوا (وحق بهم) أي نزل
 بهم عل وجه أحاط بجوانبهم (ما كانوا به يستهزئون) أي عقاب استهزائهم ،

قوله تعالى ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبأؤنا ولا
 حرمانا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ولقد بعثنا

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ

قيل : أى دار هى هذه الممدوحة فقلت : هى جنات عدن ، وان شئت قلت : جنات عدن رفع بالابتداء ، ويدخلونها خبره ، وان شئت قلت : نعم دار المتقين خبره ، والتقدير : جنات عدن نعم دار المتقين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (جنات) يدل على القصور والبساتين وقوله (عدن) يدل على الدوام ، وقوله (تجرى من تحتها الأنهار) يدل على أنه حصل هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الأنهار جارية من تحتهم . ثم إنه تعالى قال (لهم فيها ما يشاؤون) وفيه بحثان : الأول : أن هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات ، وهذا أبلغ من قوله (فيها ما تشهى الأنفس وتلد الأعين) لأن هذين القسمين داخلان فى قوله (لهم فيها ما يشاؤون) مع أقسام أخرى . الثانى : قوله (لهم فيها ما يشاؤون) يعنى هذه الحالة لا تحصل إلا فى الجنة . لأن قوله (لهم فيها ما يشاؤون) يفيد الحصر ، وذلك يدل على أن الانسان لا يجد كل ما يريد فى الدنيا .

ثم قال تعالى ﴿ كذلك يجزى الله المتقين ﴾ أى هكذا يكون جزاء التقوى . ثم انه تعالى عاد إلى وصف المتقين فقال (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) وهذا مذكور فى مقابلة قوله (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) وقوله (الذين تتوفاهم الملائكة) صفة للمتقين فى قوله (كذلك يجزى الله المتقين) وقوله (طيبين) كلمة مختصرة جامعة للبعانى الكثيرة ، وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما أمروا به ، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق المذمومة ، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الارواح . وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا ية ألم بالموت ، وأكثر المفسرين على أن هذا التوفى هو قبض الارواح ، وان كان الحسن يقول : إنه وفاة الحشر . ثم بين تعالى أنه يقال لهم عند هذه الحالة (ادخلوا الجنة) فاحتج الحسن بهذا على أن المراد بذلك التوفى وفاة الحشر ، لأنه لا يقال عند قبض الارواح فى الدنيا ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون . ومن ذهب إلى القول الأول وهم الاكثرون يقولون : إن الملائكة لما بشروهم بالجنة صارت الجنة كأنها دارهم وكانهم فيها فيكون المراد بقولهم ، ادخلوا الجنة . أى هى خاصة لكم كأنكم فيها .

قوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذالك فعل الذين من قبلهم

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (الذين أحسنوا) وما بعده بدل من قوله (خيرا) وهو حكاية لقول الذين اتقوا ، أى قالوا هذا القول ، ويجوز أيضا أن يكون قوله (الذين أحسنوا) إخبارا عن الله ، والتقدير : إن المتقين لما قيل لهم (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) ثم إنه تعالى أكد قولهم وقال (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) وفي المراد بقوله (الذين أحسنوا) قولان ، أما الذين يقولون : إن أهل لا إله إلا الله يخرجون من النار فانهم يحملونه على قول لا إله إلا الله مع الاعتقاد الحق ، وأما المعتزلة الذين يقولون : إن فساق أهل الصلاة لا يخرجون من النار يحملون قوله (أحسنوا) على من أتى بالإيمان وجميع الواجبات واحترز عن كل المحرمات . وأما قوله (في هذه الدنيا) ففيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أنه متعلق بقوله (أحسنوا) والتقدير : للذين اتقوا بعمل الحسنة في الدنيا فلهم في الآخرة حسنة ، وتلك الحسنة هي الثواب العظيم . وقيل : تلك الحسنة هو أن ثوابها يضاعف بعشر مرات وبسبعمائة وإلى ما لا نهاية له .

﴿والقول الثاني﴾ أن قوله (في هذه الدنيا) متعلق بقوله (حسنة) والتقدير : للذين أحسنوا أن تحصل لهم الحسنة في الدنيا ، وهذا القول أولى ، لأنه قال بعده (ولدار الآخرة خير) وعلى هذا التقدير ففي تفسير هذه الحسنة الحاصلة في الدنيا وجوه : الأول : يحتمل أن يكون المراد ما يستحقونه من المدح والتعظيم والثناء والرفعة ، وجميع ذلك جزاء على ما عملوه . والثاني : يحتمل أن يكون المراد به الظفر على أعداء الدين بالحجة وبالغلبة لهم . وباستغنام أموالهم وفتح بلادهم ، كما جرى بيد وعند فتح مكة ، وقد أجلوهم عنها وأخرجوهم إلى الهجرة ، واخلاء الوطن ، ومفارقة الأهل والولد وكل ذلك مما يعظم موقعه . والثالث : يحتمل أن يكون المراد أنهم لما أحسنوا بمعنى أنهم أتوا بالطاعات فتح الله عليهم أبواب المكاشفات والمشاهدات والألطف كقوله تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وأما قوله ﴿ولدار الآخرة خير﴾ فقد بينا في سورة الأنعام في قوله (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) بالدلائل القطعية العقلية حصول هذا الخير ، ثم قال (ولنعلم دار المتقين) أى لنعم دار المتقين دار الآخرة ، فحذفت لسبق ذكرها ، هذا إذا لم تجعل هذه الآية متصلة بما بعدها ، فان وصلتها بما بعدها قلت : ولنعم دار المتقين جنات عدن ترفع جنات على أنها اسم لنعم ، كما تقول : نعم الدار دار ينزلها زيد . أما قوله (جنات عدن) ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنها إن كانت موصولة بما قبلها ، فقد ذكرنا وجه ارتفاعها ، وأما إن كانت مقطوعة ، فقال الزجاج : جنات عدن مرفوعة باضمار «هي» كأنك لما قلت ولنعم دار المتقين

اعلم أنه تعالى لمسا بين أحوال الأقوام الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أساطير الأولين : وذكر أنهم يحملون أوزارهم ومن أوزار أتباعهم . وذكر أن الملائكة تتفاهم ظلمي أنفسهم ، وذكر أنهم في الآخرة يلقون السلم ، وذكر أنه تعالى يقول لهم ادخلوا أبواب جهنم . أتبعه بذكر وصف المؤمنين الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا خيرا ، وذكر ما أعدده لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات ليكون وعد هؤلاء المذكورا مع وعيد أولئك وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قال القاضى : يدخل تحت التقوى أن يكون تاركا لكل المحرمات فاعلا لكل الواجبات ، ومن جمع بين هذين الأمرين فهو مؤمن كامل الايمان ، وقال أصحابنا : يريد الذين اتقوا الشرك وأيقنوا أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأقول : هذا أولى مما قاله القاضى ، لأننا بينا أنه يكفي في صدق قوله فلان قاتل أو ضارب كونه آتيا بقتل واحد وضرب واحد ، ولا يتوقف صدق هذا الكلام على كونه آتيا بجميع أنواع القتل وجميع أنواع الضرب . فعلى هذا قوله (وقيل للذين اتقوا) يتناول كل من أتى بنوع واحد من أنواع التقوى إلا أنا أجمعنا على أنه لا بد من التقوى عن الكفر والشرك فوجب أن لا يزيد على هذا القيد لأنه لما كان تقييد المطلق خلاف الأصل ، كان تقييد المقيد أكثر مخالفة للأصل ، وأيضا فلأنه تعالى إنما ذكر هؤلاء في مقابلة أولئك الذين كفروا وأشركوا ، فوجب أن يكون المراد من اتقى عن ذلك الكفر والشرك . والله أعلم .

(المسألة الثانية) لقائل أن يقول : إنه قال في الآية الأولى ، قالوا أساطير الأولين ، وفي هذه الآية قالوا خيرا ، فلم رفع الأول ونصب هذا؟ .

أجاب صاحب الكشاف عنه بأن قال : المقصود منه الفصل بين جواب المقر وجواب الجاحد . يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بينما مكشوفاً مفعولاً للانزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الأولين وليس من الانزال فى شيء .

(المسألة الثالثة) قال المفسرون هذا كان فى أيام الموسم . يأتى الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتى المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه فيقولون خيرا ، والمعنى : أنزل خيرا . ويحتمل أن يكون المراد الذى قالوه من الجواب موصوف بأنه خير ، وقولهم خير جامع لكونه حقا وصوابا ، ولكونهم معترفين بصحته ولزومه فهو بالضد من قول الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أن ذلك أساطير الأولين على وجه التكذيب .

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلْيُبَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾
 وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ
 الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾
 الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

وإنما أقدموا على هذا الكذب لغاية الخوف ، والذين قالوا إن الكذب لا يجوز عليهم قالوا : معنى الآية ، ما كنا نعمل من سوء عند أنفسنا أو في اعتقادنا ، وأما بيان أن الكذب على أهل القيامة هل يجوز أم لا؟ فقد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) واعلم أنه تعالى لما حكي عنهم أنهم قالوا ، ما كنا نعمل من سوء قال بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ، ولا يبعد أن يكون قائل هذا القول هو الله تعالى أو بعض الملائكة ردأ عليهم وتكذبا لهم ، ومعنى بلى الرد لقولهم (ما كنا نعمل من سوء) وقوله (إن الله عليم بما كنتم تعملون) يعني أنه عالم بما كنتم عليه في الدنيا فلا ينفعكم هذا الكذب . فانه يجازيكم على الكفر الذي علمه منكم ،

ثم صرح بذكر العقاب فقال ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾

وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب ، فيكون عقاب بعضهم أعظم من عقاب بعض ، وإنما صرح تعالى بذكر الخلود ليكون النعم والحزن أعظم .

ثم قال ﴿فلبئس مَثْوَى المتكبرين﴾ عن قبول التوحيد وسائر ما أتت به الأنبياء ، وتفسير التكبر قد مر في هذا الكتاب غير مرة . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين الذين توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾

تعبدون) وإنما حسنت هذه الإضافة لأنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، وهذا كما يقال لمن يحمل خشبة، خذ طرفك وأخذ طرفي، فأضيف الطرف إليه.

﴿البحث الثاني﴾ قوله (تשאقون فيهم) أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم، وقيل: المشاقة عبارة عن كون أحد الخصمين في شق وكون الآخر في الشق الآخر.

﴿البحث الثالث﴾ قرأ نافع (تשאقون) بكسر النون على الإضافة، والباقون بفتح النون على الجمع

ثم قال تعالى ﴿قال الذين أوتوا العلم إن الحزى اليوم والسوء على الكافرين﴾ وفيه بحثان:

﴿البحث الأول﴾ (قال الذين أوتوا العلم) قال ابن عباس: يريد الملائكة، وقال آخرون هم

المؤمنون يقولون حين يرون خزي الكفار يوم القيامة إن الحزى اليوم والسوء على الكافرين، والفائدة فيه أن الكفار كانوا ينكرون على المؤمنين في الدنيا فاذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة في معرض إهانة الكافر كان وقع هذا الكلام على الكافر وتأثيره في إيذائه أكمل وحصول الشماتة به أقوى.

﴿البحث الثاني﴾ المرجئة احتجوا بهذه الآية على أن العذاب مختص بالكافر قالوا لأن قوله

تعالى (إن الحزى اليوم والسوء على الكافرين) يدل على أن ماهية الحزى والسوء في يوم القيامة مختصة بالكافر، وذلك ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم، وتأكد هذا بقول موسى عليه السلام (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) ثم إنه تعالى وصف عذاب هؤلاء الكفار من وجه آخر فقال (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) قرأ حمزة (يتوفاهم الملائكة) بالياء لأن الملائكة ذكور، والباقون بالتاء للفظ.

ثم قال ﴿فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء﴾ وفيه قولان:

﴿القول الأول﴾ أنه تعالى حكى عنهم إلقاء السلم عند القرب من الموت، قال ابن عباس: أسلموا

وأقروا لله بالعبودية عند الموت. وقوله (ما كنا نعمل من سوء) أي قالوا ما كنا نعمل من سوء! والمراد من هذا سوء الشرك، فقالت الملائكة ردا عليهم وتكديبا: بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون من التكذيب والشرك. ومعنى بلى ردا لقولهم (ما كنا نعمل من سوء) وفيه قولان:

﴿القول الأول﴾ أنه تعالى حكى عنهم إلقاء السلم عند القرب من الموت.

﴿والقول الثاني﴾ أنه تم الكلام عند قوله (ظالمى أنفسهم) ثم عاد الكلام إلى حكاية كلام

المشركين يوم القيامة، والمعنى: أنهم يوم القيامة ألقوا السلم وقالوا ما كنا نعمل في الدنيا من سوء. ثم ههنا اختلفوا، فالذين جوزوا الكذب على أهل القيامة، قالوا: هذا القول منهم على سبيل الكذب

عظيما يبابل طوله خمسة آلاف ذراع . وقيل فرسخان ، ورام منه الصعود الى السماء ليقاتل أهلها ، فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء .

﴿والقول الثاني﴾ وهو الأصح ، أن هذا عام في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين .

أما قوله تعالى ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ أن الاتيان والحركة على الله محال ، فالمراد أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلعت بها بنيانهم من القواعد والأساس .

﴿المسألة الثانية﴾ في قوله ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ قولان :

﴿القول الأول﴾ أن هذا محض التمثيل ، والمعنى أنهم رتبوا منصوبات ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فانهم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين . فسقط السقف عليهم . ونظيره قولهم : من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه .

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد منه ما دل عليه الظاهر ، وهو أنه تعالى أسقط عليهم السقف وأتاهم تحته . والأول أقرب إلى المعنى .

أما قوله تعالى ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ ففيه سؤال : وهو أن السقف لا يختر إلا من فوقهم ، فما معنى هذا الكلام ؟

وجوابه من وجهين : الأول : أن يكون المقصود التأكيد ، والثاني : ربما خر السقف ، ولا يكون تحته أحد ، فلبا قال (فخر عليهم السقف من فوقهم) دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته ، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها . وقوله (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) إن حملنا هذا الكلام على محض التمثيل فالأمر ظاهر . والمعنى : أنهم اعتمدوا على منصوباتهم . ثم تولد البلاء منها بأعيانها ، وإن حملناه على الظاهر فالمعنى : أنه نزل ذلك السقف عليهم بغتة ، لأنه إذا كان كذلك كان أعظم في الزجر لمن سلك مثل سبيلهم ، ثم بين تعالى أن عذابهم لا يكون مقصورا على هذا القدر ، بل الله تعالى يجزئهم يوم القيامة ، والخزى هو العذاب مع الهوان ، وفسر تعالى ذلك الهوان بأنه تعالى يقول لهم (أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال الزجاج : قوله (أين شركائى) معناه : أين شركائى فى زعمكم واعتقادكم .

ونظيره قوله تعالى (أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) وقال أيضا (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
 مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ
 وَيَقُولُ آيُنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
 الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ
 فَأَلْقُوا السَّلْمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

فان قيل : إنه تعالى لما حكى عن القوم هذه الشبهة لم يجب عنها ، بل اقتصر على محض الوعيد :
 فما السبب فيه ؟

قلنا : السبب فيه أنه تعالى بين كون القرآن معجزاً بطريقتين : الأولى : أنه صلى الله عليه وسلم
 تحداهم بكل القرآن ، وتارة بعشر سور ، وتارة بسورة واحدة ، وتارة بحديث واحد ، وعجزوا عن
 المعارضة ، وذلك يدل على كونه معجزاً . الثانية : أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهو
 قوله (اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً) وأبطلها بقوله (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات
 والأرض) ومعناه أن القرآن مشتمل على الأخبار عن الغيوب ، وذلك لا يتأتى إلا من يكون عالماً
 بأسرار السموات والأرض ، فلما ثبت كون القرآن معجزاً بهذين الطريقتين ، وتكرر شرح هذين
 الطريقتين مراراً كثيرة . لاجرم اقتصر في هذه الآية على مجرد الوعيد . ولم يذكر ما يجزى مجرى
 الجواب عن هذه الشبهة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من
 فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم
 تشاققون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم
 الملائكة ظالمي أنفسهم فآلقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾
 اعلم أن المقصود من الآية المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار ، وفي المراد بالذين
 من قبلهم قولان :

﴿ القول الأول ﴾ وهو قول الأكثر من المفسرين أن المراد منه نمرود بن كنعان بنى صرحاً

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا في أن ذلك السائل من كان؟ قيل هو كلام بعضهم لبعض، وقيل هو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسوا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سأهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿المسألة الثانية﴾ لقائل أن يقول: كيف يكون تنزيل ربهم أساطير الأولين؟

وجوابه من وجوه: الأول: أنه مذکور على سبيل السخرية كقوله تعالى عنهم (إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون، وقوله (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) وقوله (يا أيها الساحر ادع لنا ربك) الثانى: أن يكون التقدير هذا الذى تذكرون أنه منزل من ربكم هو أساطير الأولين. الثالث: يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزله الله لكنه أساطير الأولين ليس فيه شىء من العلوم والفصاحة والدقائق والحقائق.

واعلم أنه تعالى لما حكى شبههم قال (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) اللام فى ليحملوا لام العاقبة، وذلك لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين لأجل أن يحملوا الأوزار، ولكن لما كانت عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام كقوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وقوله (كاملة) معناه: أنه تعالى لا يخفف من عقابهم شيئا، بل يوصل ذلك العقاب بكليته إليهم، وأقول: هذا يدل على أنه تعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين، إذ لو كان هذا المعنى حاصلًا فى حق الكل، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى، وقوله (ومن أوزار الذين يضلونهم) معناه: ويحصل للرؤساء مثل أوزار الأتباع، والسبب فيه ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أيماء دعا إلى الهدى فاتبع كان له مثل أجر من اتبعه لا ينقص من أجورهم شىء، وأيماء دعا إلى ضلالة فاتبع كان عليه مثل وزر من اتبعه لا ينقص من آثامهم شىء».

واعلم أنه ليس المراد منه أنه تعالى يوصل العقاب الذى يستحقه الأتباع إلى الرؤساء، وذلك لأن هذا لا يليق بعدل الله تعالى، والدليل عليه قوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وقوله (ولاتزر وازرة وزر أخرى) بل المعنى: أن الرئيس إذا وضع سنة قبيحة عظم عقابه، حتى أن ذلك العقاب يكون مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع، قال الواحدي: ولفظة (من) فى قوله (ومن أوزار الذين يضلونهم) ليست للتبعيض، لأنها لو كانت للتبعيض لحذف عن الأتباع بعض أوزارهم، وذلك غير جائز، لقوله عليه السلام «من غير أن ينقص من أوزارهم شىء» ولكنها للجنس. أى ليحملوا من جنس أوزار الأتباع. وقوله (بغير علم) يعنى أن هؤلاء الرؤساء إنما يقدمون على هذا الاضلال جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الاضلال ثم إنه تعالى ختم الكلام بقوله (ألا ساء ما يزررون) والمقصود المبالغة فى الزجر.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ «٢٤» لِيَحْمِلُوا
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِمَّنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ
مَائِزُونَ «٢٥»

اعلم أنه تعالى لما زيف فيما تقدم طريقة عبدة الأوثان والأصنام وبين فساد مذهبهم بالدلائل القاهرة قال (إلهكم إله واحد) ثم ذكر تعالى المأجله أصر الكفار على القول بالشرك وإنكار التوحيد فقال (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) والمعنى أن الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب. خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعون، فلا جرم ينتفعون بسماع الدلائل، ويرجعون من الباطل إلى الحق، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فانهم لا يرغبون في حصول الثواب ولا يرهبون من الوقوع في العقاب فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع إلى قول غيرهم، فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال.

ثم قال تعالى ﴿لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ والمعنى أنه تعالى يعلم أن إصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة ليس لأجل شبهة تصوروها أو إشكال تخيلوه. بل ذلك لأجل التقليد والنفرة عن الرجوع إلى الحق والشغف بنصرة مذاهب الأسلاف والتكبر والنخوة. فللهذا قال: (إنه لا يحب المستكبرين) وهذا الوعيد يتناول كل المتكبرين.

قوله تعالى ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم أليساء مائزون﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير دلائل التوحيد وأورد الدلائل القاهرة في إبطال مذاهب عبدة الأصنام، ذكر بعد ذلك شبهات منكرى النبوة مع الجواب عنها.

﴿فالشبهة الأولى﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما احتج على صحة نبوة نفسه بكون القرآن معجزة طعنوا في القرآن وقالوا: إنه أساطير الأولين، وليس هو من جنس المعجزات، وفي الآية مسائل:

إِلْهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٍ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ «٢٢» لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ «٢٣»

الأصنام أموات لا يحصل عقيب موتها الحياة . والثاني : أن هذا الكلام مع الكفار الذين
يعبدون الأوثان ، وهم في نهاية الجهالة والضلالة ، ومن تكلم مع الجاهل الغر العبي فقد يحسن أن
يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه منه الاعلام بكون ذلك المخاطب في غاية
الغباوة وأنه إنما يعيد تلك الكلمات لكون ذلك السامع في نهاية الجهالة ، وأنه لا يفهم المعنى
المقصود بالعباراة الواحدة .

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله (وما يشعرون أيا نبيعتون) والضمير في قوله (وما يشعرون) عائد إلى
الأصنام ، وفي الضمير في قوله (بيعتون) قولان : أحدهما : أنه عائد إلى العابدين للأصنام يعني أن
الأصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم ، وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم
فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم . والثاني : أنه عائد إلى الأصنام يعني أن هذه
الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى قال ابن عباس : إن الله يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها
شياطينها فيؤمر بها إلى النار .
فان قيل : الأصنام جمادات ، والجمادات لا توصف بأنها أموات ؛ ولا توصف بأنهم
لا يشعرون كذا وكذا .

والجواب عنه من وجوه : الأول : أن الجماد قد يوصف بكونه ميتا قال تعالى (يخرج الحي
من الميت) الثاني : أن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالالهية والمعبودية قيل لهم : ليس الأمر
كذلك ، بل هي أموات ولا يعرفون شيئا ، فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم . والثالث : أن
يكون المراد بقوله (والذين يدعون من دون الله) الملائكة ، وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال
الله إنهم أموات لا بد لهم من الموت غير أحياء ، أى غير باقية حياتهم (وما يشعرون أيا نبيعتون)
أى لا علم لهم بوقت بعثهم والله أعلم .

قوله تعالى ﴿إلهم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم
أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين﴾

الله لا تحصوها) وذلك يدل على أن كل هذه الأشياء نعم من الله تعالى في حق الكل . وهذا يدل على أن نعم الله واصله إلى الكفار . والله أعلم .

أما قوله ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ اعلم أنه تعالى قال في سورة إبراهيم (وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلم كفار) وقال ههنا (إن الله لغفور رحيم) والمعنى : أنه لما بين أن الإنسان لا يمكنه القيام بأداء الشكر على سبيل التفصيل . قال (إن الله لغفور رحيم) أي غفور للتقصير الصادر عنكم في القيام بشكر نعمه ، رحيم بكم حيث لم يقطع نعمه عليكم بسبب تقصيركم .

أما قوله ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ ففيه وجهان : الأول : أن الكفار كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى يسرون ضروبا من الكفر في مكائد الرسول عليه السلام فجعل هذا زجرا لهم عنها . والثاني : أنه تعالى زيف في الآية الأولى عبادة الاصنام بسبب أنه لا قدرة لها على الخلق والانعام وزيف في هذه الآية أيضا عبادتها بسبب أن الاله يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية ، وهذه الاصنام جمادات لا معرفة لها بشيء أصلا فكيف تحسن عبادتها ؟

أما قوله ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون﴾ فاعلم أنه تعالى وصف هذه الاصنام بصفات كثيرة .

﴿فالصفة الأولى﴾ أنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون قرأ حفص عن عاصم يسرون ويعلمون ويدعون كلها بالياء على الحكاية عن الغائب . وقرأ أبو بكر عن عاصم (يدعون) بالياء خاصة على المغايبة . وتسرون وتعلمون بالياء على الخطاب ، والباقون كلها بالياء على الخطاب عطفًا على ما قبله فان قيل : أليس أن قوله في أول الآية (أفمن يخلق كمن لا يخلق) يدل على أن هذه الاصنام لا تخلق شيئا وقوله ههنا (لا يخلقون شيئا) يدل على نفس هذا المعنى ، فكان هذا محض التكرير .

وجوابه : أن المذكور في أول الآية أنهم لا يخلقون شيئا ، والمذكور ههنا أنهم لا يخلقون شيئا وأنهم مخلوقون غيرهم . فكان هذا زيادة في المعنى . وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين أولا أنها لا تخلق شيئا ، ثم ثانيا أنها كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة لنيرها .

﴿والصفة الثانية﴾ قوله (أموات غير أحياء) والمعنى : أنها لو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات . أي غير جائز عليها الموت كالحى الذى لا يموت سبحانه وتعالى وأمر هذه الأصنام على العكس من ذلك .

فان قيل : لما قال (أموات) علم أنها غير أحياء فما الفائدة في قوله (غير أحياء)

والجواب من وجهين : الأول : أن الاله هو الحى الذى لا يحصل عقيب حياته موت . وهذه

بين بهذه الآية أن العبد لا يمكنه الا تيان بعبادة الله تعالى وشكر نعمه . والقيام بحقوق كرمه على سبيل الكمال والتمام ، بل العبد وإن أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات ، وبالغ في شكر نعمة الله تعالى فانه يكون مقصرا ، وذلك لأن الاشتغال بشكر النعم مشروط بعلمه بتلك النعم على سبيل التفصيل والتحصيل ، فان من لا يكون متصورا ولا مفهوما ولا معلوما امتنع الاشتغال بشكره ، إلا أن العلم بنعم الله تعالى على سبيل التفصيل غير حاصل للعبد ، لأن نعم الله تعالى كثيرة وأقسامها وشعبها واسعة عظيمة . وعقول الخلق قاصرة عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها . أنها غير معلومة على سبيل التفصيل ، وما كان كذلك امتنع الاشتغال بشكره على الوجه الذي يكون ذلك الشكر لاثقا بتلك النعم . فهذا هو المفهوم من قوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعنى : أنكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال ، وإذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام والكمال ، وذلك يدل على أن شكر الخلق قاصر عن نعم الحق ، وعلى أن طاعات الخلق قاصرة عن ربوبية الحق وعلى أن معارف الخلق قاصرة عن كنهه جلال الحق ، وبما يدل قطعا على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى أن كل جزء من أجزاء البدن الانسانى لو ظهر فيه أدنى خلل لتنقص العيش على الانسان ، وتتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل . ثم إنه تعالى يدبر أحوال بدن الانسان على الوجه الأكمل الأصلاح ، مع أن الانسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ولا بكيفية مصالحه ولا بدفع مفساده . فليكن هذا المثال حاضرا في ذهنك ، ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم من المعادن والنبات والحيوان ، وجعلها مهياة لا تتفاعدك بها ، حتى تعلم أن عقول الخلق تفتى في معرفة حكمة الرحمن في خلق الانسان فضلا عن سائر وجوه الفضل والاحسان . فان قيل : فلما قررتم أن الاشتغال بالشكر موقوف على حصول العلم بأقسام النعم ، ودلتكم على أن حصول العالم بأقسام النعم محال أو غير واقع ، فكيف أمر الله الخلق بالقيام بشكر النعم ؟ قلنا : الطريق اليه أن يشكر الله تعالى على جميع نعمه مفصلها وبجملها . فهذا هو الطريق الذى به يمكن الخروج عن عهدة الشكر ، والله أعلم .

(المسألة الثانية) قال بعضهم : إنه ليس لله على الكافر نعمة . وقال الآ كثرون : لله على الكافر والمؤمن نعم كثيرة . والدليل عليه : أن الانعام بخلق السموات والأرض والانعام بخلق الانسان من النطفة ، والانعام بخلق الأنعام وبخلق الخيل والبغال والحمير ، وبخلق أصناف النعم من الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، وبتسخير البحر لياكل الانسان منه لحما طريا ويستخرج منه حلية يلبسها كل ذلك مشترك فيه بين المؤمن والكافر . ثم أكدتعالى ذلك بقوله تعالى (وإن تعدوا نعمة

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج بعض أصحابنا بهذه الآية على أن العبد غير خالق لا أفعال نفسه فقال : إنه تعالى ميز نفسه عن سائر الأشياء التي كانوا يعبدونها بصفة الخالقية لان قوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق) الغرض منه بيان كونه ممتازا عن الابداد بصفة الخالقية وأنه إنما استحق الالهية والمعبودية بسبب كونه خالقا ، فهذا يقتضى أن العبد لو كان خالقا لبعض الاشياء لوجب كونه إلها معبودا ، ولما كان ذلك باطلا علمنا أن العبد لا يقدر على الخلق والايجاد . قالت المعتزلة : الجواب : عنه من وجوه :

﴿الوجه الاول﴾ أن المراد أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والارض والانسان والحيوان والنبات والبحار والنجوم والجبال كمن لا يقدر على خلق شيء أصلا ، فهذا يقتضى أن من كان خالقا لهذه الاشياء فانه يكون إلها ولم يلزم منه أن من يقدر على أفعال نفسه أن يكون إلها .

﴿والوجه الثاني﴾ أن معنى الآية : أن من كان خالقا كان أفضل ممن لا يكون خالقا ، فوجب امتناع التسوية بينهما في الالهية والمعبودية ، وهذا القدر لا يدل على أن كل من كان خالقا فانه يجب أن يكون إلها . والدليل عليه قوله تعالى (ألمهم أرجل يمشون بها) ومعناه : أن الذى حصل له رجل يمشى بها يكون أفضل من الذى حصل له رجل لا يقدر أن يمشى بها ، وهذا يوجب أن يكون الانسان أفضل من الصنم ، والأفضل لا يليق به عبادة الأخرس ، فهذا هو المقصود من هذه الآية ، ثم إنها لا تدل على أن من حصل له رجل يمشى بها أن يكون إلها ، فكذلك ههنا المقصود من هذه الآية بيان أن الخالق أفضل من غير الخالق ، فيمتنع التسوية بينهما في الالهية والمعبودية ، ولا يلزم منه أن بمجرد حصول صفة الخالقية يكون إلها .

﴿والوجه الثالث في الجواب﴾ أن كثيرا من المعتزلة لا يطلقون لفظ الخالق على العبد . قال الكعبي في تفسيره أنا لانقول : إنا نخلق أفعالنا : قال ابن أطلاق ذلك فقد أخطأ . إلا في مواضع ذكرها الله تعالى كقوله (وإذ تخاق من الطين كهيئة الطير) وقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) واعلم أن أصحاب أبي هاشم يطلقون لفظ الخالق على العبد . حتى أن أبا عبد الله البصير بالغ وقال إطلاق لفظ الخالق على العبد حقيقة وعلى الله مجاز ، لأن الخلق عبارة عن التقدير ، وذلك عبارة عن الظن والحسبان . وهو في حق العبد حاصل وفي حق الله تعالى محال .

واعلم أن هذه الأجوبة قوية والاستدلال بها. الآية على صحة مذهبنا ليس بقوى ، والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما بين بالآية المتقدمة أن الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل ، فكذلك أيضا كانت شرحا وتفصيلا لانواع نعم الله تعالى وأقسام احسانه أتبعه بذكر ابطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة ، والبيئات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم ، وثبت أنه هو المولى لجميع هذه النعم. والمدعى لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لاسيما إذا كان ذلك الموجود جمادا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) والمعنى : أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة على شيء أفلا تذكرون فان هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر ، ويكفي فيه أن تتنبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم ، وأنتم ترون في الشاهد إنسانا عاقلا فاهما ينعم بالنعمة العظيمة ، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الأصنام جمادات محضة ، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها ، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها .

﴿المسألة الثانية﴾ المراد بقوله (من لا يخلق) الاصنام . وأنها جمادات فلا يليق بها لفظة «من» لأنها لا أولى العلم . وأجيب عنه من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن الكفار لما سموها آلهة وعبدها ، لاجرم أجريت مجرى أولى العلم ألا ترى إلى قوله على أثره (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) ﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب أن السبب فيه المشاكلة بينه وبين من يخلق .

﴿والوجه الثالث﴾ أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف من لاعلم عنده كقوله (ألهم أرجل يمشون بها) يعنى أن الآلهة التي تدعونها حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وأذان وقلوب ، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات فكيف يصح منهم عبادتها ، وليس المراد أنه لو صحت لهم هذه الأجزاء لصح أن يعبدوا .

فان قيل : قوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق) المقصود منه إلزام عبدة الأوثان ، حيث جعلوا غير الخالق مثل الخالق في التسمية بالاله ، وفي الاشتغال بعبادتها ، فكان حق الالزام أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق .

والجواب : المراد منه أن من يخلق هذه الأشياء العظيمة ويعطى هذه المنافع الجليلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية باسم الاله . وفي الاشتغال بعبادتها والاقدام على غاية تعظيمها فوقع التعبير عن هذا المعنى بقوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق)

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا
 إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

ذكر صفة البحر وما فيه من المنافع بين أن من يسرون فيه يهتدون بالنجم ، ومنهم من قال : بل هو مطلق يدخل فيه السير في البر والبحر وهذا القول أولى ، لأنه أعم في كونه نعمة . ولأن الاهتداء بالنجم قد يحصل في الوقتين معا ، ومن الفقهاء من يجعل ذلك دليلا على أن المسافر إذا عميت عليه القبلة فانه يجب عليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات التي في الارض ، وهي الجبال والرياح ، وذلك صحيح ، لأنه كما يمكن الاهتداء بهذه العلامات في معرفة الطرق والمسالك فكذلك يمكن الاستدلال بها في معرفة طلب القبلة .

واعلم أن اشتباه القبلة إما أن يكون بعلامات لائحة أو لا يكون ، فان كانت لائحة وجب أن يجب الاجتهاد ويتوجه إلى حيث غلب على الظان أنه هو القبلة ، فان تبين الخطأ وجب الاعادة ، لأنه كان مقصرا فيما وجب عليه ، وان لم تظهر العلامات فههنا طريقان :
 ﴿ الطريق الأول ﴾ أن يكون مخيرا في الصلاة إلى أي جهة شاء لأن الجهات لما تساوت وامتنع الترجيح لم يبق إلا التخير .

﴿ الطريق الثاني ﴾ أن يصل إلى جميع الجهات حينئذ يعلم بيقين أنه خرج عن العهدة وهذا كما يقوله الفقهاء : فيمن نسي صلاة لا يعرفها بعينها أن الواجب عليه في القضاء أن يأتي بالصلوات الخمس ليكون على يقين من قضاء ما لزمه . ومنهم من يقول : الواجب منها واحدة فقط وهذا غلط لأنه لما لزمه أن يفعل الكل كان الكل واجبا . وان كان سبب وجوب كل هذه الصلوات فوت الصلاة الواحدة والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ في الآية مسائل :

(البحث الأول) أن قوله (وأنهارا) معطوف على قوله (وألقى في الأرض، رواسي) والتقدير وألقى رواسي وأنهارا . وخلق الأنهار لا يبعد أن يسمى بالالقاء فيقال : ألقى الله في الأرض أنهارا كما قال (وألقى فيها رواسي) والالقاء معناه الجعل . ألا ترى أنه تعالى قال في آية أخرى (وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها) والالقاء يقارب الانزال ، لأن الالقاء يدل على طرح الشيء من الأعلى إلى الأسفل ، إلا أن المراد من هذا الالقاء الجعل والخلق قال تعالى (وألقيت عليك محبة مني)

(البحث الثاني) أنه ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال ، فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال أتبع ذكرها بتفجير العيون والأنهار .

(النعمة الثالثة) قوله (وسبلا لعلمكم تهتدون) وهي أيضا معطوفة على قوله (وألقى في الأرض رواسي) والتقدير : وألقى في الأرض سبلا ومعناه : أنه تعالى أظهرها وبينها لأجل أن تهتدوا بها في أسفاركم ونظيره قوله تعالى في آية أخرى (وسلك لكم فيها سبلا) وقوله (لعلمكم تهتدون) أي لكي تهتدوا .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أظهر في الأرض سبلا معينة ذكر أنه أظهر فيها علامات مخصوصة حتى يتمكن المكلف من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده فقال (وعلامات) وهي أيضا معطوفة على قوله (في الأرض رواسي) والتقدير : وألقى في الأرض رواسي وألقى فيها أنهارا وسبلا وألقى فيها علامات والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الأشياء التي بها يهتدى ، وهذه العلامات هي الجبال والرياح ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق قال الاخفش تم الكلام عند قوله (وعلامات) وقوله (وبالنجم هم يهتدون) كلام منفصل عن الأول ، والمراد بالنجم الجنس كقولك : كثير الدرهم في أيدي الناس . وعن السدي هو الثريا ، والفرقدان ، وبنات نعش ، والجدى ، وقرأ الحسن (وبالنجم) بضمين وبضمة فسكون ، وهو جمع نجم كرهن ورهن والسكون تخفيف . وقيل : حذف الواو من النجم تخفيفا .

فان قيل : قوله (أن تמיד بكم) خطاب الحاضرين وقوله (وبالنجم هم يهتدون) خطاب للغائبين فما السبب فيه ؟ .

قلنا : إن قریشا كانت تكثر أسفارها لطاب المال ، ومن كثرت أسفاره كان علمه بالمنافع الحاصلة من الاهتداء بالنجوم أكثر وأتم فقوله (وبالنجم هم يهتدون) إشارة إلى قریش للسبب الذي ذكرناه . والله أعلم .

واختلف المفسرون فمنهم من قال قواه (وبالنجم هم يهتدون) مختص بالبحر ، لأنه تعالى لما

أرساها بالجبال . فان قلت : المقتضى لسكون الماء في حيزه المعين هو أن الله تعالى سكر الماء بقدرته في ذلك الحيز المخصوص ، فلم لا تقول : مثله في سكون الأرض ، وحينئذ يفسد هذا التعليل أيضا .
 ﴿السؤال الثالث﴾ أن مجموع الأرض جسم عظيم ، فبتقدير أن تميد كليته وتضطرب على وجه البحر المحيط لم تظهر تلك الحالة للناس .

فان قيل : أليس أن الأرض تحركها البخارات المحتقنة في داخلها عند الزلازل . وتظهر تلك الحركات للناس فبم تنكرون على من يقول : إنه لولا الجبال لتحركت الأرض ، إلا أنه تعالى لما أرساها بالجبال الثقال لم تقو الرياح على تحريكها .

قلنا : تلك البخارات إنما احتقنت في داخل قطعة صغيرة من الأرض . فلما حصلت الحركة في تلك القطعة الصغيرة ظهرت تلك الحركة . قال القائلون بهذا القول : إن ظهور الحركة في تلك القطعة المعينة من الأرض يجرى مجرى اختلاج يحصل في عضو معين من بدن الانسان . أما لو حركت كلية الأرض لم تظهر تلك الحركة . ألا ترى أن الساكن في السفينة لا يحس بحركة كلية السفينة وإن كانت واقعة على أسرع الوجوه وأقواها فكذا ههنا ، فهذا ما في هذا الموضوع من المباحث الدقيقة العميقة والذي عندي في هذا الموضوع المشكل أن يقال ثبت بالدلائل اليقينية أن الأرض كرة ، وثبت أن هذه الجبال على سطح هذه الكرة جارية مجرى خشونات تحصل على وجه هذه الكرة .

إذا ثبت هذا فنقول : لو فرضنا أن هذه الخشونات ما كانت حاصلة بل كانت الأرض كرة حقيقية خالية عن الخشونات والتضريسات اصارت بحيث تتحرك بالاستدارة بأدنى سبب لأن الجرم البسيط المستدير إما أن يجب كونه متحركا بالاستدارة على نفسه وإن لم يجب ذلك عقلا إلا أنه بأدنى سبب يتحرك على هذا الوجه . أما لما حصل على ظاهر سطح كرة الأرض هذه الجبال وكانت كالحشونات الواقعة على وجه الكرة فكل واحد من هذه الجبال إنما يتوجه بطبعه نحو مركز العالم وتوجه ذلك الجبل نحو مركز العالم بثقله العظيم وقوته الشديدة يكون جاريا مجرى الوتد الذي يمنع كرة الأرض من الاستدارة . فكان تخليق هذه الجبال على وجه الأرض كالأوتاد المغروزة في الكرة الممانعة لها عن الحركة المستديرة . فكانت مانعة للأرض من الميل والاضطراب بمعنى أنها منعت الأرض من الحركة المستديرة . فهذا ما وصل إليه بحثي في هذا الباب . والله أعلم بمراده .
 ﴿النعمة الثانية﴾ من النعم التي أظهرها الله تعالى على وجه الأرض هي أنه تعالى أجرى الأنهار على وجه الأرض . وأعلم أنه حصل ههنا بحثان :

﴿المسألة الثانية﴾ المشهور عن الجمهور في تفسير هذه الآية ان قالوا: إن السفينة إذا ألقيت على وجه الماء، فإنها تميد من جانب إلى جانب، وتضطرب، فاذا وضعت الأجرام الثقيلة في تلك السفينة استقرت على وجه الماء فاستوت. قالوا فكذلك لما خلق الله تعالى الأرض على وجه الماء اضطربت ومادت، فخلق الله تعالى عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال.

ولقائل أن يقول: هذا يشكل من وجوه: الأول: أن هذا التعليل إما أن يذكر مع تسليم كون الأرض والماء ثقيلة بالطبع. أو مع المنع من هذا الأصل ومع القول بأن حركات هذه الأجسام بطباعها أو ليست بطباعها بل هي واقعة بتخليق الفاعل المختار، أما على التقدير الأول فهذا التعليل مشكل، لأن على هذا الأصل لاشك أن الأرض أثقل من الماء، والأثقل من الماء يغوص في الماء ولا يبقى طافيا عليه. وإذا لم يبق طافيا عليه امتنع أن يقال: إنها تميد وتميل وتضطرب، وهذا بخلاف السفينة لأنها متخذة من الخشب وفي داخل الخشب تجويفات مملوءة من الهواء، فلهذا السبب تبقى الخشبة طافية على الماء فحينئذ تضطرب وتميد وتميل على وجه الماء، فاذا أرسيت بالأجسام الثقيلة استقرت وسكنت فظهر الفرق. وأما على التقدير الثاني وهو أن يقال: ليس للأرض ولا للماء طبائع توجب الثقل والرسوب والأرض إنما تنزل، لأن الله تعالى أجرى عادته بجعلها كذلك وإنما صار الماء محيطا بالأرض لمجرد إجراء العادة، وليس ههنا طبيعة للأرض ولا للماء توجب حالة مخصوصة. فنقول: فعلى هذا التقدير علة سكون الأرض هي أن الله تعالى يخلق فيها السكون وعلة كونها مائدة مضطربة هي أن الله تعالى يخلق فيها الحركة، وعلى هذا التقدير فإنه يفسد القول بأن الأرض كانت مائلة فخلق الله الجبال وأرساها عليها لتبقى ساكنة، لأن هذا إنما يصح إذا كانت طبيعة الأرض توجب الميدان. وطبيعة الجبال توجب الإرساء والثبات، ونحن إنما نتكلم الآن على تقدير نفي الطبائع الموجبة لهذه الأحوال، فثبت أن هذا التعليل مشكل على كل التقديرات

﴿السؤال الثاني﴾ هو أن إرساء الأرض بالجبال إنما يعقل لأجل أن تبقى الأرض على وجه الماء من غير أن تميد وتميل من جانب إلى جانب، وهذا إنما يعقل إذا كان الماء الذي استقرت الأرض على وجهه واقفا. فنقول: فما المقتضى لسكون ذلك الماء ووقوفه في حيزه المخصوص، فإن قلت: المقتضى لسكونه في ذلك الحيز المخصوص هو أن طبيعته المخصوصة توجب وقوفه في ذلك المعين، فلم لا تقول: مثله في الأرض وهو أن الطبيعة المخصوصة التي للأرض توجب وقوفها في ذلك الحيز المعين. وذلك يفيد القول بأن الأرض إنما وقفت بسبب أن الله تعالى

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ «١٥»

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ «١٦»

مضطرب . والرجوع إلى نص القرآن متعين . والله أعلم .

﴿المنفعة الثانية﴾ من منافع البحر قوله تعالى (وتستخرجون منه حلية تلبسونها) والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) والمراد : بلبسهم لبس نسائهم لأنهن من جملتهم . ولأن إقدامهن على التزين بها إنما يكون من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ، ورأيت بعض أصحابنا تمسكوا في مسألة أنه لا يجب الزكاة في الحلي المباح بحديث عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا زكاة في الحلي» فقلت هذا الحديث ضعيف الرواية وبتقدير الصحة فيمكن أن يقال فيه لفظ الحلي لفظ مفرد محلي بالآلف واللام ، وقد بينا في أصول الفقه أن هذا اللفظ يجب حمله على المعهود السابق ، والحلي الذي هو المعهود السابق هو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في هذه الآية وهو قوله (وتستخرجون منه حلية تلبسونها) فصار بتقدير صحة ذلك الخبر لازكاة في اللآلى .
وحيث يسقط الاستدلال به . والله أعلم .

﴿المنفعة الثالثة﴾ قوله تعالى (وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله) قال أهل اللغة : مخر

السفينة شقها الماء بصدرها . وعن الفراء : أنه صوت جرى الفلك بالرياح .

إذا عرفت هذا فقول ابن عباس (مواخر) أي جوارى ، إنما حسن التفسير به ، لأنها لا تشق

الماء إلا إذا كانت جارية . وقوله تعالى (ولتبتغوا من فضله) يعنى لتركبوا للتجارة فتطلبوا الريح من فضل الله . وإذا وجدتم فضل الله تعالى وإحسانه فلعلكم تقدمون على شكره ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ

وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الأرض .

﴿فالنعمة الأولى﴾ قوله (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) يعنى لثلاث تميد بكم على قول الكوفيين . وكراهة أن تميد بكم

على قول البصريين . وذكرنا هذا عند قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) والميد الحركة والاضطراب

يميناً وشمالاً . يقال : ماد يميد ميداً .

الفراء : طرا يطرا طراء بمدودا وطراوة كما يقال شقى يشقى شقاء وشقاوة .

واعلم أن في ذكر الطرى مزيد فائدة ، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالخا . لماعرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطرى فانه لما خرج من البحر المالح الزعاق الحيوان الذى لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة ، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد .

﴿المسألة الثانية﴾ قال أبو حنيفة رحمه الله : لو حلف لا يأكل اللحم فأكل لحم السمك لا يحنث قالوا : لأن لحم السمك ليس بلحم ، وقال آخرون : إنه يحنث لأنه تعالى نصر على كونه لحما في هذه الآية وليس فوق بيان الله بيان . روى أن أبا حنيفة رحمه الله لما قال بهذا القول وسمعه سفيان الثورى فأنكر عليه ذلك ، واحتج عليه بهذه الآية بعث اليه رجلا وسأله عن رجل حلف لا يصلى على البساط فصلى على الأرض هل يحنث أم لا ؟ قال سفيان : لا يحنث فقال السائل : أليس أن الله تعالى قال (والله جعل لكم الأرض بساطا) قال فعرف سفيان أن ذلك كان بتلقيين أبي حنيفة .

ولقائل أن يقول : هذا الكلام ليس بقوى ، لأن أقصى ما فى الباب أناتركنا العمل بظاهر القرآن في لفظ البساط للدليل الذى قام عليه فكيف يلزمنا ترك العمل بظاهر القرآن في آية أخرى والفرق بين الصورتين من وجهين : الأول : أنه لما حلف لا يصلى على البساط فلو أدخلنا الأرض تحت لفظ البساط لزمنا أن نمنعه من الصلاة ، لأنه ان صلى على الأرض المفروشة بالبساط لزمه الحنث لا محالة ، ولو صلى على الأرض التى لا تكون مفروشة لزمه الحنث أيضا على تقدير أن يدخل الأرض تحت لفظ البساط . فهذا يقتضى منعه من الصلاة ، وذلك مما لا سبيل اليه بخلاف ما إذا أدخلنا لحم السمك تحت لفظ اللحم ، لأنه ليس فى منعه من أكل اللحم على الاطلاق محذور فظهر الفرق . الثانى : أنا نعلم بالضرورة من عرف أهل اللغة أن وقوع اسم البساط على الأرض الخالصة مجاز أما وقوع اسم اللحم على لحم السمك فلم يعرف أنه مجاز ، فظهر الفرق والله أعلم .

وحجة أبو حنيفة رحمه الله أن : مبنى الأيمان على العادة . وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الاطلاق أن لا يفهم منه لحم السمك بدليل أنه إذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار .

والجواب : أنارأيناكم فى كتاب الأيمان تارة تعتبرون اللفظ وتارة تعتبرون العرف ، وما رأيناكم ذكرتم ضابطا بين القسمين والدليل عليه أنه إذا قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بلحم العصفور كان حقيقا بالانكار عليه . مع أنكم تقولون إنه يحنث بأكل لحم العصفور . فثبت أن العرف

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

النهار والليل مغنيا عن ذكر الشمس .

والجواب : أن حدوث النهار والليل ليس بسبب حركة الشمس . بل حدوثهما بسبب حركة الفلك الأعظم الذي دللنا على أن حركته ليست إلا بتحريك الله سبحانه . وأما حركة الشمس فانها علة لحدوث السنة لا لحدوث اليوم .

﴿السؤال الثالث﴾ مامعنى قوله (مسخرات بأمره) والمؤثر فى التسخير هو القدرة لا الأمر . والجواب : أن هذه الآية مبنية على أن الأفلاك والكواكب جمادات أم لا ، وأكثر المسلمين على أنها جمادات . فلا جرم حملوا الأمر فى هذه الآية على الخلق والتقدير ، ولفظ الأمر بمعنى الشأن والفعل كثير قال تعالى (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ومن الناس من يقول إنها ليست جمادات فههنا يحمل الأمر على الأذن والتكليف والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾

اعلم أنه تعالى لما احتج على إثبات الإله فى المرتبة الأولى بأجرام السموات ، وفى المرتبة الثانية بيدن الإنسان ونفسه . وفى المرتبة الثالثة بعجائب خلقة الحيوانات ، وفى المرتبة الرابعة بعجائب طبائع النبات ذكر فى المرتبة الخامسة الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر فبدأ منها بالاستدلال بعنصر الماء .

واعلم أن علماء الهيئة قالوا : ثلاثة أرباع كرة الأرض غائصة فى الماء . وذلك هو البحر المحيط وهو كلية عنصر الماء وحصل فى هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال بعده (والبحر يمد من بعده سبعة أبحر) والبحر الذى سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار ، ومعنى تسخير الله تعالى إياها للخلق جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها إما بالركوب أو بالغوص .

واعلم أن منافع البحار كثيرة . والله تعالى ذكر منها فى هذه الآية ثلاثة أنواع :

﴿المنفعة الأولى﴾ قوله تعالى (لتأكلوا منه لحما طريا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال ابن الأعرابي لحم طرى غير مهموز ، وقد طرو يطرو طراوة . وقال

تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة ، وثبت أن الطبيعة المؤثرة متى كانت نسبتها واحدة كان الأثر متشابهاً. وثبت أن الأثر غير متشابه ، لأن أحد جانبي تلك الورقة في غاية الصفرة ، والوجه الثاني في غاية الحمرة . فهذا يفيد القطع بأن المؤثر في حصول هذه الصفات والألوان والأحوال ليس هو الطبيعة ، بل المؤثر فيها هو الفاعل المختار الحكيم ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو المراد من قوله (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه)

وأعلم أنه لما كان مدار هذه الحجة على أن المؤثر الموجب بالذات وبالطبيعة يجب أن يكون نسبتته إلى الكل نسبة واحدة ، فلما دل الحس في هذه الأجسام النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر أحوالها ظهر أن المؤثر فيها ليس واجبا بالذات بل فاعلا مختارا فهذا تمام تقرير هذه الدلائل وثبت أن ختم الآية الأولى بقوله (لقوم يتفكرون) والآية الثانية بقوله (لقوم يعقلون) والآية الثالثة بقوله (لقوم يذكرون) هو الذي نبه على هذه فوائد النفيسة والدلائل الظاهرة والحمد لله على أطفاه في الدين والدنيا .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن عامر (والشمس والقمر والنجوم) كلها بالرفع على الابتداء . والخبر هو قوله (مسخرات) وقرأ حفص عن عاصم (والنجوم) بالرفع على أن يكون قوله (والنجوم) ابتداء وإتماما على هذا لتلايتكر لفظ التسخير ، إذ العرب لا تقول سخرت هذا الشيء مسخرا فجوابه أن المعنى أنه تعالى سخر لنا هذه الأشياء حال كونها مسخرة تحت قدرته وإرادته ، وهذا هو الكلام الصحيح . والتقدير : أنه تعالى سخر للناس هذه الأشياء وجعلها موافقة لمصالحهم حال كونها مسخرة تحت قدرة الله تعالى وأمره وإذنه . وعلى هذا التقدير فالتكرير الخالي عن الفائدة غير لازم والله أعلم .
يقى في الآية سوالات :

﴿السؤال الأول﴾ التسخير عبارة عن القهر والقسر ، ولا يليق ذلك إلا بمن هو قادر يجوز أن يقهر . فكيف يصح ذلك في الليل والنهار وفي الجمادات والشمس والقمر ؟
والجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى لما دبر هذه الأشياء على طريقة واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنتقاد المطواع ، فلهذا المعنى أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير . وعن الوجه الثاني في الجواب : وهو لا يستقيم إلا على مذهب أصحاب علم الهيئة ، وذلك لانهم يقولون : الحركة الطبيعية للشمس والقمر هي الحركة من المغرب إلى المشرق والله تعالى يحرك هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الأعظم من المشرق إلى المغرب ، فكانت هذه الحركة قسرية . فلهذا السبب ورد فيها اللفظ التسخير .

﴿السؤال الثاني﴾ إذا كان لا يحصل للنهار والليل وجود إلا بسبب حركات الشمس كان ذكر

الأول فيه . وإن لم يكن جسما ولا جسمانيا فاما أن يكون موجبا بالذات أو فاعلا مختارا والأول باطل ، لأن نسبة ذلك الموحب بالذات الى جميع الأجسام على السوية . فلم يكن بعض الأجسام بقبول بعض الآثار المعينة أولى من بعض . ولما بطل هذا ثبت أن محرك الأفلاك والكواكب هو الفاعل المختار القادر المنزه عن كونه جسما وجسمانيا . وذلك هو الله تعالى . فالحاصل أنا ولو حكمنا باسناد حوادث العالم السفلي الى الحركات الفلكية والكوكبية بهذه الحركات الكوكبية والفلكية لا يمكن إسنادها إلى أفلاك أخرى وإلا لزم التسلسل وهو محال ، فوجب أن يكون خالق هذه الحركات ومدبرها هو الله تعالى ، وإذا كانت الحوادث السفلية مستندة إلى الحركات الفلكية . وثبت أن الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه . فكان هذا اعترافا بأن الكل من الله تعالى وباحداثه وتخليقه . وهذا هو المراد من قوله (ومنخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر) يعني إن كانت تلك الحوادث السفلية لأجل تعاقب الليل والنهار وحركات الشمس والقمر . فهذه الأشياء لا بد وأن يكون حدوثها بتخليق الله تعالى وتسخيره قطعا للتسلسل . ولما تم هذا الدليل في هذا المقام لا جرم ختم هذه الآية بقوله (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) يعني أن كل من كان عاقلا علم أن القول بالتسلسل باطل ولا بد من الانتهاء في آخر الأمر إلى الفاعل المختار القدير فهذا تقرير أحد الجوابين .

والجواب الثاني عن ذلك السؤال أن نقول : نحن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث النبات والحيوان لأجل تأثير الطبايع والأفلاك والأنجم . وذلك لأن تأثير الطبايع والأفلاك والأنجم والشمس والقمر بالنسبة الى الكل واحد . ثم نرى أنه إذا تولد العنب كان قشره على طبع وعجمه على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع . بل نقول : إنا نرى في الورد ما يكون أحد وجهي الورقة الواحدة منه في غاية الصفرة . والوجه الثاني من تلك الورقة في غاية الحمرة وتلك الورقة تكون في غاية الرقة والطاقة . ونعلم بالضرورة أن نسبة الأنجم والأفلاك إلى وجهي تلك الورقة الرقيقة ، نسبة واحدة . والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل إلا فعلا واحدا . ألا ترى أنهم قالوا : شكل البسيط هو الكرة لأن تأثير الطبيعة الواحدة في المادة الواحدة يجب أن يكون متشابهها ، والشكل الذي يتشابه جميع جوانبه هو الكرة . وأيضا إذا وضعنا الشمع فإذا استضاء خمسة أذرع من ذلك الشمع من أحد الجوانب . وجب أن يحصل مثل هذا الأثر في جميع الجوانب . لأن الطبيعة المؤثرة يجب أن تتشابه نسبتها الى كل الجوانب .

إذا ثبت هذا فنقول : ظهر أن نسبة الشمس والقمر والأنجم والأفلاك والطبايع إلى وجهي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «١٢» وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ «١٣»

قوله تعالى ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك
 آيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك آية لقوم يذكرون ﴾
 في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن الله تعالى لما أجاب في هذه الآية عن السؤال الذي ذكرناه من
 وجهين : الأول أن نقول : إن حدوث الحوادث في هذا العالم السفلي مسندة إلى الاتصالات
 الفلكية . والتشكلات الكوكبية . إلا أنه لا بد لحركاتها واتصالاتها من أسباب ، وأسباب تلك الحركات
 إما ذواتها وإما أمور مغايرة لها ، والأول باطل لوجهين : الأول : أن الأجسام متماثلة ، فلو كان
 جسم علة لصفة لكان كل جسم واجب الاتصاف بتلك الصفة وهو محال ، والثاني : أن ذات الجسم
 لو كانت علة لحصول هذا الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات ،
 ولو كان كذلك ، لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغير أصلا ، وذلك يوجب كونه
 ساكنا ، ويمنع من كونه متحركا ، فثبت أن القول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب كونه ساكنا
 لذاته وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلا ، فثبت أن الجسم يمتنع أن يكون متحركا لكونه جسما ،
 فبقي أن يكون متحركا لغيره . وذلك الغير إما أن يكون ساريا فيه أو مبايناعته ، والأول باطل ، لأن
 البحث المذكور عائد في أن ذلك الجسم بعينه لم يختص بتلك القوة بعينها دون سائر الأجسام ، فثبت أن محرك
 أجسام الأفلاك والكواكب أمور مباينة عنها ، وذلك المباين إن كان جسما أو جسمانيا عادا لتقسم

التفسير الكبير

للإمام

الفخر الرازي

الجزء العشر وفتر

الطبعة الأولى

يطلب من ملتزم طبعه

عبد الرحمن محمد

ملتزم طبع المصحف الشريف بمكة المكرمة

حقوق الطبع والنقل محفوظة للملزم

طبع بالمطبعة البهية المصرية

١٣٥٧ هجرية — ١٩٣٨ ميلادية

صفحة		صفحة
٢٠٥	« ولقد كذب أصحاب الحجر »	١٨٠ قوله تعالى « والجان خلقناه من قبل »
٢٠٦	« ولقد آتيناك سبعاً من المثاني »	١٨١ « وإذ قال ربك للملائكة »
٢١٠	« لا تمدن عينيك » الآية	١٨٢ « قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين » الآية
٢١١	« وقل انى أنا النذير المبين »	١٨٣ « قال لم أكن لأسجد لبشر »
٢١٢	« كما أنزلنا على المقسمين »	١٨٤ « قال رب فأنظرني » الآية
٢١٣	« فوربك لنسألنهم أجمعين »	١٨٥ « قال رب بما أغويتني » الآية
٢١٥	« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك »	١٨٨ « الا عبادك منهم المخلصين »
٢١٦	« واعد ربك حتى يأتيك اليقين »	١٨٩ « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » الآية
٢١٧	سورة النحل	
٢١٧	« أنى أمر الله » الآية	١٩٠ « وإن جهنم لموعدهم أجمعين »
٢١٨	« سبحانه وتعالى عما يشركون »	١٩١ « ان المتقين فى جنات وعيون »
٢١٩	« ينزل الملائكة بالروح الآية »	١٩٢ « ونزغنا ما فى صدورهم من غل »
٢٢٠	« أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا »	١٩٣ « لا يمسهم فيها نصب » الآية
٢٢٢	« خلق السموات والارض »	١٩٤ « نبى عبادى » الآية
٢٢٣	« تعالى عما يشركون » الآية	١٩٥ « ونبئهم عن ضيف ابراهيم »
٢٢٤	« خلق الانسان من نطفة »	١٩٦ « قالوا لا توجل » الآية
٢٢٦	« والانعام خلقها لكم »	١٩٧ « قالوا بشرناك بالحق » الآية
٢٢٧	« لكم فيها دفء ومنافع »	١٩٨ « قال فما خطبكم » الآية
٢٢٨	« وتحمل أثقالكم الى بلد »	١٩٩ « إلا امرأته قدرنا » الآية
٢٢٩	« والحيل والبغال والحمير »	٢٠٠ « فلما جاء آل لوط المرسلون »
٢٣٠	« ويحلق ما لا تعلمون »	٢٠١ « فأسر بأهلك بقطع من الليل »
٢٣١	« وعلى الله قصد السبيل »	٢٠٢ « وجاء أهل المدينة يستبشرون »
٢٣٢	« هو الذى أنزل من السماء ماء »	٢٠٣ « ان فى ذلك لايات للمتوسمين »
٢٣٤	« ينبت لكم به الزرع والزيتون »	٢٠٤ « وان كان أصحاب الأيكة لظالمين » الآية
٢٣٥	« ان فى ذلك لاية » الآية	

صفحة	صفحة
١٤٨	١١٧
قوله تعالى «سراييلهم من قطران» الآية	قوله تعالى «توتى أكلها كل حين» الآية
١٥١	١٢١
سورة الحجر	» « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت» الآية
١٥١	١٢٢
» « تلك آيات الكتاب»	» « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا» الآية
١٥٢	١٢٣
» « ربما يود الذين كفروا»	» « وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله» الآية
١٥٤	١٢٤
» « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا»	» « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة» الآية
١٥٥	١٢٥
» « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم» الآية	» « والله الذى خلق السموات والأرض» الآية
١٥٦	١٢٨
» « ما تسبق من أمة أجلها» الآية	» « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين» الآية
١٥٧	١٣١
» « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر» الآية	» « وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا» الآية
١٥٨	١٣٥
» « لو ما تأتينا بالملائكة» الآية	» « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع» الآية
١٥٩	١٣٨
» « ما نزل الملائكة إلا بالحق»	» « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق»
١٦٠	١٣٩
» « إنا نحن نزلنا الذكر» الآية	» « ربنا اغفر لى ولوالدى»
١٦١	١٤٠
» « ولقد أرسلنا من قبلك» الآية	» « ولا تحسبن الله غافلا»
١٦٢	١٤٢
» « كذلك نسلك» الآية	» « وأنذر الناس» الآية
١٦٦	١٤٣
» « ولو فتحنا عليهم بابا» الآية	» « وقد مكروا هكرهم» الآية
١٦٧	١٤٥
» « لقالوا إنما سكرت أبصارنا»	» « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله» الآية
١٦٨	١٤٦
» « ولقد جعلنا فى السماء بروجاً»	» « يوم تبدل الأرض» الآية
١٦٩	
» « إلا من استرق السمع» الآية	
١٧٠	
» « والأرض مددناها» الآية	
١٧١	
» « وجعلنا لكم فيها معايش»	
١٧٣	
» « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه»	
١٧٥	
» « وأرسلنا الرياح لواقح»	
١٧٧	
» « وإنا لنحن نحي ونميت»	
١٧٨	
» « ولقد خلقنا الانسان من صلصال» الآية	

صفحة	صفحة
٧٩	٥١
قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » الآية	قوله تعالى « كذلك أرسلناك في أمة قد خلعت من قبلها أمم » الآية
٨٢	٥٢
« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا »	« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال » الآية
٨٥	٥٤
« واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » الآية	« ولقد استهزىء برسول من قبلك » الآية
٨٧	٥٦
« وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا »	« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الآية
٨٨	٥٨
« ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم »	« مثل الجنة التي وعد المتقون »
٩١	٥٩
« قالت رسلمهم أفى الله شك »	« والذين آتيناهم الكتاب »
٩٦	٦١
« قالت لهم رسلمهم إن نحن الا بشر مثلكم » الآية	« وكذلك أنزلناه حكما عربيا »
٩٨	٦٢
« وما لنا أن لا توكل على الله »	« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك »
٩٩	٦٣
« وقال الذين كفروا لرسلمهم »	« يعجوا الله ما يشاء ويثبت »
١٠١	٦٦
« واستفتحووا خاب كل جبار عنيد » الآية	« واما نرينك بعض الذي نعدهم » الآية
١٠٢	٦٧
« من ورأه جهنم ويسقى من ماء صديد » الآية	« أو لم يروا أنا نأتى الارض »
١٠٤	٦٨
« مثل الذين كفروا بربههم »	« وقد مكر الذين من قبلهم »
١٠٦	٦٩
« وما ذلك على الله بعزيز »	« ويقول الذين كفروا لست مرسلا » الآية
١٠٧	٧٢
« وبرزوا لله جميعا » الآية	سورة ابراهيم
١٠٩	٧٢
« وقال الشيطان لما قضى الأمر » الآية	« الر كتاب أنزلناه إليك »
١١٥	٧٥
« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات » الآية	« الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » الآية
١١٦	٧٨
« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة » الآية	« الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة » الآية

فهرست

الجزء التاسع عشر

من التفسير الكبير للامام الفخر الرازي

صفحة	صفحة
٢١	٢
قوله تعالى «قل من رب السموات والارض قل الله الآيه	قوله تعالى «وهو الذي مد الارض»
٣٤	٦
«أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها» الآيه	«وفي الارض قطع متجاورات»
٢٧	٨
«الذين استجابوا لربهم الحسنى»	«وإن تعجب فعجب قولهم»
٣٩	١٠
«الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق» الآيه	«ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة» الآيه
٤١	١٢
«والذين يصلون ما أمر الله به»	«ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه»
٤٢	١٤
«والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم» الآيه	«الله يعلم ما تحمل كل أنثى»
٤٦	١٧
«والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه» الآيه	«سواء منكم من أسر القول ومن جهر به» الآيه
٤٧	١٨
«الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر» الآيه	«له معقبات من بين يديه ومن خلفه» الآيه
٤٨	٢٣
«ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه» الآيه	«هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعا» الآيه
٤٩	٢٥
«الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب»	«ويسبح الرعد بحمده» الآيه
	٢٨
	«له دعوة الحق» الآيه
	٢٩
	«ولله يسجد من في السموات والارض» الآيه

ثم قال ﴿ ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ وههنا بحثان :

﴿ البحث الاول ﴾ في شرح كون هذه الاشياء آيات دلة على وجود الله تعالى فنقول : ان الحبة الواحدة تقع في الطين فاذا مضت على هذه الحالة مقادير معينة من الوقت نفذت في داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الأرض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها ، فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض إلى الهواء . ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الأرض وهذه الغائصة هي المسماة بعروق الشجرة ، ثم إن تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ، ثم يخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار . ثم إن تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب ، فان قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان . ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان .

إذا عرفت هذا فنقول : نسبة الطبائع السفلية إلى هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكية والتحريكات الكوكبية إلى الكل متشابهة . ومع تشابه نسب هذه الاشياء ترى هذه الاجسام مختلفة في الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة . فدل صريح العقل على أن ذلك ليس إلا لاجل فاعل قادر حكيم رحيم فهذا تقدير هذه الدلالة .

﴿ البحث الثاني ﴾ أنه تعالى ختم هذه الآية بقوله (لقوم يتفكرون) والسبب فيه أنه تعالى ذكر أنه (أنزل من السماء ماء فأنبث به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب)

ولقائل أن يقول : لانسلم أنه تعالى هو الذي أنبتها ولم لا يجوز أن يقال : إن هذه الأشياء إنما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الأربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب ؟ واذا عرفت هذا السؤال فما لم يقيم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاما وافية بافادة هذا المطلوب ، بل يكون مقام الفسك والتأمل باقيا ، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله (لقوم يتفكرون)

تم الجزء التاسع عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون ، وأوله قوله تعالى

﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ من سورة النحل . أعان الله على إكمال

﴿ البحث الثاني ﴾ قوله (فيه تسيمون) أى فى الشجر ترعون دواشيمكم يقال : أسمت المشيمة إذا خلبتها ترعى ، وسامت هى تسوم سوما إذا زرعت حيث شامت فهى سوام وسائمة قال الزجاج : أخذ ذلك من السومة وهى العلامة . وتأويلها أنها تؤثر فى الأرض برعيها علامات ، وقال غيره : لأنها تعلم للارسال فى المرعى ، وتمام الكلام فى هذا اللفظ قد ذكرناه فى سورة آل عمران فى قوله تعالى (والخيل المسومة)

أما قوله تعالى ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ ففيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ هو أن النبات الذى ينبتة الله من ماء السماء قسمان : أحدهما : معد لرعى الانعام واسامة الحيوانات ، وهو المراد من قوله (فيه تسيمون) والثانى : ما كان مخلوقاً لا تكل الانسان وهو المراد من قوله (ينبت لكم به الزرع والزيتون)

فان قيل : إنه تعالى بدأ فى هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات ، وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للانسان ، وفى آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر ما كوالانسان ، ثم بما يراعاه سائر الحيوانات فقال (كلوا وارعوا أنعامكم) فما الفائدة فيه ؟

قلنا : أما الترتيب المذكور فى هذه الآية فينبه على مكارم الأخلق وهو أن يكون اهتمام الانسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور فى الآية الأخرى ، فالمقصود منه ما هو المذكور فى قوله عليه السلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول »

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ عاصم فى رواية أبى بكر (نبت) بالنون على التفخيم والباقون بالياء ، قال الواحدى : والياء أشبه بما تقدم .

﴿ البحث الثالث ﴾ اعلم أن الانسان خلق محتاجاً إلى الغذاء ، والغذاء إما أن يكون من الحيوان أو من النبات . والغذاء الحيوانى أشرف من الغذاء النباتى ، لأن تولد أعضاء الانسان عند أكل أعضاء الحيوان أسهل من تولدها عند أكل النبات لأن المشابهة هناك أكمل وأتم والغذاء الحيوانى إنما يحصل من أسامة الحيوانات والسعى فى تنميتها بواسطة الرعى ، وهذا هو الذى ذكره الله تعالى فى الاسامة ، وأما الغذاء النباتى فقسمان : حبوب . وفواكه ، أما الحبوب فاليها الإشارة بلفظ الزرع وأما الفواكه فأشرفها الزيتون . والنخيل . والأعناب ، أما الزيتون فلأنه فاكهة من وجه وإدام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدهن ومنافع الادهان كثيرة فى الأكل والطلب واشتعال السرج ، وأما امتياز النخيل والأعناب من سائر الفواكه ، فظاهر معلوم ، وكما أنه تعالى لما ذكر الحيوانات التى ينتفع الناس بها على التفصيل ، ثم قال فى صفة البقية (ويخلق ما لا تعلمون) فكذلك ههنا لما ذكر الأنواع المنتفع بها من النبات ، قال فى صفة البقية (ومن كل الثمرات) تنبيها على أن تفصيل القول فى أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها لا يمكن ذكره فى مجلدات ، فالأولى الاقتصار فيه على الكلام المجمع .

واعلم أن الماء المنزل من السماء هو المطر ، وأما أن المطر نازل من السحاب أو من السماء فقد ذكرناه في هذا الكتاب مرارا . والحاصل : أن ماء المطر قسمان : أحدهما : هو الذي جعله الله تعالى شرابا لنا ولكل حي ، وهو المراد بقوله (لكم منه شراب) وقد بين الله تعالى في آية أخرى أن هذه النعمة جلية فقال (وجعلنا من الماء كل شيء حي)

فإن قيل : أف تقولون إن شرب الخاق ليس إلا من المطر ، أو تقولون قد يكون منه وقد يكون من غيره وهو الماء الموجود في قعر الأرض ؟

أجاب القاضى : بأنه تعالى بين أن المطر شرابنا ولم ينف أن نشرب من غيره .
واقائل أن يقول : ظاهر الآية يدل على الحصر . لأن قوله (لكم منه شراب) يفيد الحصر لأن معناه منه لا من غيره .

إذا ثبت هذا فنقول : لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الأرض من جملة ماء المطر يسكن هناك . والدليل عليه قوله تعالى في سورة المؤمنین (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض) ولا يمتنع أيضا في غير العذب وهو البحر أن يكون من جملة ماء المطر ، والقسم الثاني من المياه النازلة من السماء ما جعله الله سبباً لتكوين النبات وإليه الإشارة بقوله (ومنه شجر فيه تسميون) إلى آخر الآية . وفيه سباحة :

(البحث الأول) ظاهر هذه الآية يقتضى أن أسامة الشجر ممكنة ، وهذا إنما يصح لو كان المراد من الشجر الكلا والعشب . وههنا قولان :

(القول الأول) قال الزجاج : كل ما ثبت على الأرض فهو شجر وأنشد :

يطعمها اللحم إذا عز الشجر

يعنى أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجذبت الأرض ، وقال ابن قتيبة في هذه الآية المراد من الشجر الكلا ، وفي حديث عكرمة لانا كلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلا .

ولقائل أن يقول : إنه تعالى قال (والنجم والشجر يسجدان) والمراد من النجم ما ينجم من الأرض مما ليس له ساق ، ومن الشجر ما له ساق . هكذا قال المفسرون ، وبالجملة فلما عطف الشجر على النجم دل على التغاير بينهما . ويمكن أن يجاب عنه بأن عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضا فلفظ الشجر مشعر بالاختلاط . يقال : تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرماح إذا اختلطت وقال تعالى (حتى يحكوك فيما شجر بينهم) ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلا . فوجب جواز اطلاق لفظ الشجر عليه .

(القول الثاني) أن الأبل تقدر على رعى ورق الاشجار الكبار ، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى ما ذكرناه في القول الأول .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ «١٠»
يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «١١»

(ومنها جائز) دل على أنه تعالى لا يضل عن الدين أحدا .

أجاب أصحابنا أن المراد على الله بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح
فاما أن يبين كيفية الاغواء والاضلال فذلك غير واجب فهذا هو المراد ، والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (ولو شاء لهداكم أجمعين) يدل على أنه تعالى ماشاء هداية الكفار ، وما
أراد منهم الايمان ، لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء شيء لا انتفاء شيء غيره قوله (ولو شاء لهداكم) معناه :
لو شاء هدايتكم لهداكم ، وذلك يفيد أنه تعالى ماشاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم . وذلك
يدل على المقصود .

وأجاب الأصم عنه بأن المراد لو شاء أن يلجئكم إلى الايمان لهداكم . وهذا يدل على أن
مشيئة الاجاء لم تحصل .

وأجاب الجبائي بأن المعنى : ولو شاء لهداكم إلى الجنة وإلى نيل الثواب لكنه لا يفعل ذلك
إلا بمن يستحقه ، ولم يرد به الهدى إلى الايمان ، لأنه مقدور جميع المكلفين .

وأجاب بعضهم فقال المراد : ولو شاء لهداكم إلى الجنة ابتداء على سبيل التفضل ، إلا أنه
تعالى عرفكم للنزلة العظيمة بما نصب من الأدلة وبين ، فمن تمسك بها فاز بتلك المنازل ومن عدل
عنها فاتته وصار إلى العذاب والله أعلم .

واعلم أن هذه الكلمات قد ذكرناها مرارا وأطوارا مع الجواب فلا فائدة في الأعادة .
قوله تعالى ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به
الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾
اعلم أن أشرف أجسام العالم السفلى بعد الحيوان النبات ، فلما قرر الله تعالى الاستدلال على
وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات . أتبعه في هذه الآية بذكر الاستدلال على وجود
الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات .

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ «٩»

وثانيا : أحوال الحيوانات التي ينتفع الانسان بها انتفاعا غير ضرورى ببق القسم الثالث من الحيوانات وهى الاشياء التي لا ينتفع الانسان بها فى الغالب فذكرها على سبيل الاجمال فقال (ويخلق ما لا تعلمون) وذلك لأن أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاص الانسان فى شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبة المجلدات الكثيرة كالقطرة فى البحر فكان أحسن الأحوال ذكرها على سبيل الاجمال كما ذكر الله تعالى فى هذه الآية ، وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال : إن على يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع ، والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويعتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور ، وفى الكعبة أيضا سبعون ألفا . ثم لا يعودون اليه إلى أن تقوم الساعة .

قوله تعالى ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد قال (وعلى الله قصد السبيل) أى انما ذكرت هذه الدلائل وشرحتها ازاحة للعدر وإزالة للعلة لهلك من هلك عن بينة . ويحيى من حي عن بينة وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قالت الواحدى : القصد استقامة الطريق يقال : طريق قصد وقاصد إذا أدرك إلى مطلوبك ، إذا عرفت هذا فى الآية حذف . والتقدير : وعلى الله بيان قصد السبيل . ثم قال (ومنها جائر) أى عادل مائل ومعنى الجور فى اللغة الميل عن الحق والكنائية فى قوله (ومنها جائر) تعود على السبيل . وهى مؤنثة فى لغة الحجاز يعنى ومن السبيل ما هو جائر غير قاصد للحق وهو أنواع الكفر والضلال . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أنه يجب على الله تعالى الارشاد والهداية إلى الدين وإزاحة العلل والأعدار . لأنه تعالى قال (وعلى الله قصد السبيل) وكلمة «على» للوجوب قال تعالى (ولله على الناس حج البيت) ودلت الآية أيضا على أنه تعالى لا يضل أحدا ولا يغويه ولا يصد عنه ، وذلك لأنه تعالى لو كان فاعلا للضلال لقال (وعلى الله قصد السبيل) وعليه جائرها أو قال : وعليه الجائر فلما لم يقل كذلك بل قال فى قصد السبيل أنه عليه . ولم يقل فى جور السبيل أنه عليه بل قال

من منفعة الركوب ، فلو كان أكل لحم الخيل جائزة لكان هذا المعنى أولى بالذكر ، وحيث لم يذكره الله تعالى علينا أنه يحرم أكله ، ويمكن أيضا أن يقوى هذا الاستدلال من وجه آخر . فيقال : إنه تعالى قال في صفة الأنعام (ومنها تأكلون) وهذه الكلمة تفيد الحصر ، فيقتضى أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام ، فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل بمقتضى هذا الحصر ، ثم إنه تعالى بعد هذا الكلام ذكر الخيل والبغال والحمير وذكر أنها مخلوقة للركوب ، فهذا يقتضى أن منفعة الأكل مخصوصة بالأنعام وغير حاصلة في هذه الأشياء ، ويمكن الاستدلال بهذه الآية من وجه ثالث وهو أن قوله (لتركبوها) يقتضى أن تمام المقصود من خلق هذه الأشياء الثلاثة هو الركوب والزينة ، ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب ، بل كان حل أكلها أيضا مقصودا ، وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود ، بل يصير بعض المقصود .

وأجاب الواحدى بجواب في غاية الحسن فقال : لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذه الحيوانات لكان تحريم أكلها معلوما في مكة لأجل أن هذه السورة مكية ، ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين أن لحوم الحمر الأهلية حُرمت عام خيبر باطلا ، لأن التحريم لما كان حاصلًا قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه الشبهة فائدة . وهذا جواب حسن متين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ القائلون بأن أفعال الله تعالى معللة بالمصالح والحكم ، احتجوا بظاهر هذه الآية فانه يقتضى أن هذه الحيوانات مخلوقة لأجل المنفعة الفلانية ، ونظيره قوله (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) وقوله (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) والكلام فيه معلوم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لقائل أن يقول لما كان معنى الآية أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير

لتركبوها وليجعلها زينة لكم فلم ترك هذه العبارة ؟

وجوابه أنه تعالى لو ذكر هذا الكلام بهذه العبارة لصار المعنى أن التزين بها أحد الأمور المعتبرة في المقصود ، وذلك غير جائز ، لأن التزين بالشئ يورث العجب والته والتكبر . وهذه أخلاق مذمومة والله تعالى نهى عنها وزجر عنها فكيف يقول إنى خلقت هذه الحيوانات لتحصيل هذه المعاني بل قال : خلقها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الاعياء والمشقة ، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ، ولكنه غير مقصود بالذات . فهذا هو الفائدة في اختيار هذه العبارة . وأعلم أنه تعالى لما ذكر أولا أحوال الحيوانات التي ينتفع الانسان بها انتفاعا ضروريا

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٨»

متاحر أهل مكة كانت الى هذه البلاد . وقرى (بشق الأ نفس) بكسر الشين وفتحها ، وأكثر القراء على كسر الشين . والشق المشقة والشق نصف الشيء . وحمل اللفظ ههنا على كلا المعنيين جائز فإن حملناه على المشقة كان المعنى : لم تكونوا بالغيه إلا بالمشقة . وإن حملناه على نصف الشيء كان المعنى : لم تكونوا بالغيه إلا عند ذهاب النصف من قوتكم أو من بدنكم ويرجع عند التحقيق الى المشقة . ومن الناس من قال : المراد من قوله (والأنعام خلقها) الابل فقط بدليل أنه وصفها في آخر الآية بقوله (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه) وهذا الوصف لا يليق إلا بالابل .

قلنا : المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع حاصلة في الكل وبعضها مختص ببعض . والدليل عليه : أن قوله (ولكم فيها جمال) حاصل في البقر والغنم مثل حصوله في الابل . والله أعلم .

(المسألة الثانية) احتج منكرو كرامات الأولياء بهذه الآية فقالوا : هذه الآية تدل على أن الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد إلا بشق الأ نفس : وحمل الأثقال على الجمال ومثبو الكرامات يقولون : إن الأولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد آخر بعيدى ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة . فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلا . ولما بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور ، لأنه لا قائل بالفرق .

وجوابه : أنا نخصص عموم هذه الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرامات . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التي ينتفع الانسان بها في المنافع الضرورية والحاجات الأصلية . ذكر بعده منافع الحيوانات التي ينتفع بها الانسان في المنافع التي ليست بضرورية . فقال (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قوله (والخيل والبغال والحمير) عطف على الأنعام ، أى وخلق الأنعام لكذا وكذا ، وخلق هذه الأشياء للركوب . وقوله (وزينة) أى وخلقها زينة . ونظيره قوله تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) المعنى : وحفظناهما حفظا . قال الزجاج : نصب قوله (وزينة) على أنه مفعول له . والمعنى : وخالقها للزينة .

(المسألة الثانية) احتج القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية . فقالوا منفعة الأكل أعظم

﴿ والمنفعة الثالثة ﴾ قوله (ومنها تأكلون)

فان قيل : قوله (ومنها تأكلون) يفيد الحصر . وليس الأمر كذلك . فانه قد يؤكل من غيرها . وأيضا منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس . فلم أخرج منفعته في الذكر ؟
قلنا : الجواب عن الأول : إن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معاشهم ، وأما الأكل من غيرها كالذجاج والبط وصيد البر والبحر . فيشبهه غير المعتاد . وكالجاري مجرى التفكه . ويحتمل أيضا أن غالب أطعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التي تأكلونها منها ، وأيضا تكتسبون باكرها الأبل وتتفعون بألبانها وتاجها وجلودها . وتشترون بها جميع أطعمتكم .
والجواب عن السؤال الثاني : أن الملبوس أكثر بقاء من الطعام ، فلهذا قدمه عليه في الذكر .
واعلم أن هذه المنافع الثلاثة هي المنافع الضرورية الحاصلة من الأنعام . وأما المنافع الحاصلة من الأنعام التي هي ليست بضرورية فأمور :

﴿ المنفعة الأولى ﴾ قوله تعالى (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) الراحة رد الأبل بالعشى الى مراحتها حيث تأوى اليه ليلا ، ويقال : سرح القوم إبلهم سرحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى . قال أهل اللغة : هذه الراحة أكثر ما تكون أيام الربيع اذا سقط الغيث وكثر الكلاء وخرجت العرب للنعجة ، وأحسن ما يكون النعم في ذلك الوقت .
واعلم أن وجه التجميل بها أن الراعي اذا روحها بالعشى وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الراحة والتسريح الألفية ، وتجابوب فيها الثغاء والرغاء . وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها .

فان قيل : لم قدمت الراحة على التسريح ؟

قلنا : لأن الجمال في الراحة أكثر . لأنها تقبل ملاءى البطون حافلة الضروع . ثم اجتمعت في الحظائر حاضرة لأهلها بخلاف التسريح . فانها عند خروجها الى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار ، فظهر أن الجمال في الراحة أكثر منه في التسريح .

﴿ والمنفعة الثانية ﴾ قوله (وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس إن ربكم

لرؤوف رحيم) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الاثقال جمع ثقل وهو متاع المسافر لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس .

قال ابن عباس : يريد من مكة الى المدينة . أو الى اليمن . أو الى الشام . أو الى مصر . قال الواحدي : هذا قوله والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير ابل لثقت عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد ، لأن

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن أشرف الاجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الانسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة . وهي الحواس الظاهرة والباطنة . والشموة والغضب . ثم هذه الحيوانات قسمان : منها ما ينتفع الانسان بها . ومنها الا يكون كذلك . والقسم الأول : أشرف من الثاني . لأنه لما كان الانسان أشرف الحيوانات وجب في كل حيوان يكون ارتفاع الانسان به أكمل . وأكثر أن يكون أكمل وأشرف من غيره . ثم نقول : والحيوان الذي ينتفع الانسان به إما أن ينتفع به في ضروريات معيشته مثل الأكل واللبس أو لا يكون كذلك . وإنما ينتفع به في أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها . والقسم الأول أشرف من الثاني . وهذا القسم هو الانعام ، فلهذا السبب بدأ الله بذكره في هذه الآیة . فقال (والانعام خلقها لكم

واعلم أن الأنعام عبارة عن الأزواج الثمانية وهي : الضأن . والمعز . والابل . والبقر . وقد يقال أيضا : الأنعام ثلاثة : الابل . والبقر . والغنم . قال صاحب الكشاف : وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الابل ، وقوله (والأنعام) منصوبة وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله تعالى (واقمر قدرناه منازل) ويجوز أن يعطف على الانسان . أي خلق الانسان والأنعام . قال الواحدي : تم الكلام عند قوله (والأنعام خلقها) ثم ابتداء وقال (لكم فيها دفء) ويجوز أيضا أن يكون تمام الكلام عند قوله (لكم) ثم ابتداء وقال (فيها دفء) قال صاحب النظم : أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله (خلقها) والدليل عليه أنه عطف عليه قوله (ولكم فيها جمال) والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى لما ذكر أنه خلق الأنعام للمكلفين أتبعه بتعدد تلك المنافع . واعلم أن منافع النعم منها ضرورية . ومنها غير ضرورية . والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية .

﴿المنفعة الأولى﴾ قوله (لكم فيها دفء) وقد ذكر هذا المعنى في آية أخرى فقال (ومن أوصافها وأوبارها وأشعارها) والدفء عند أهل اللغة ما يستدفأ به من الأكسية ، قال الأصمعي : ويكون الدفء السخونة . يقال : أقعد في دفء هذا الحائط . أي في كنهه . وقرئ (دفء) بطرح الحمزة وإلقاء حركتها على الفاء .

﴿والمنفعة الثانية﴾ قوله (ومنافع) قالوا : المراد نسلها ودرها . وإنما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم . لأن النسل والدر قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود . وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل .

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ «٥» وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ «٦» وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِبَشِقَةِ الْإِنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ «٧»

بتدبير إله مختار حكيم ينقل الأرواح من نقصانها إلى كالاتها ومن جهالاتها إلى معارفها بحسب الحكمة والاختيار ، فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين)

وإذا عرفت هذه الدقيقة أمكنتك التنبه لوجوه كثيرة .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى إنما يخلق الانسان من النطفة بواسطة تغيرات كثيرة مذكورة في القرآن العزيز منها قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) إلا أنه تعالى اختصر ههنا لأجل أن ذلك الاستقصاء مذکور في سائر الآيات ، وقوله (فاذا هو خصيم مبين) فيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال الواحدي : الخصيم بمعنى المخاصم . قال أهل اللغة : خصيمك الذي يخاصمك وفعيل بمعنى مفاعل معروف كالنسيب بمعنى المناسب ، والعشير بمعنى المعاشر ، والأكيل والشريب ويجوز أن يكون خصيم فاعلا من خصم يخضم بمعنى اختصم ، ومنه قراءة حمزة (تأخذهم وهم يخضمون) ﴿البحث الثاني﴾ لقوله (فاذا هو خصيم مبين) وجهان : أحدهما : فاذا هو منطبق مجادل عن نفسه ، منازع للخصوم بعد أن كان نطفة قدرة . وجمادا لا حس له ولا حركة . والمقصود منه : أن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل إلا بتدبير مدبر حكيم عليم والثاني : فاذا هو خصيم لربه . منكر على خالقه . قائل (من يحيي العظام وهي رميم) والغرض منه وصف الانسان بالافراط في الوقاحة والجهل ، والتمادي في كفران النعمة ، والوجه الأول أوفق ، لأن هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الكفر والكفران .

قوله تعالى ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ وفيه مسائل :

(وَأما القسم الثاني) وهو أن يقال: النطفة جسم مركب من أجزاء مختلفة في الطبيعة والماهية فقول: بتقدير أن يكون الأمر كذلك، فانه يجب أن يكون تولد البدن منها بتدبير فاعل مختار حكيم وبيانه من وجوه:

(الوجه الأول) أن انطفة رطوبة سريعة الاستحانة، وإذا كان كذلك كانت الأجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع والنسبة، فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله في الأسفل، والجزء الذي هو مادة القلب قد يحصل في الفوق، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا تكون أعضاء الحيوان على هذا الترتيب المعين أمرا دائما ولا أكثريا، وحيث كان الأمر كذلك، علمنا أن حدوث هذه الأعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم.

(والوجه الثاني) أن النطفة تقدر أنها جسم مركب من أجزاء مختلفة الطبائع، إلا أنه يجب أن ينتهي تحليل تركيبها إلى أجزاء يكون كل واحد منها في نفسه جسما بسيطا، وإذا كان الأمر كذلك، فلو كان المدبر لها قوة طبيعية لكان كل واحد من تلك بسائط يجب أن يكون شكله هو الكرة فكان يلزم أن يكون الحيوان على شكل كرات مضمومة بعضها إلى بعض، وحيث لم يكن الأمر كذلك، علمنا أن مدبر أبدان الحيوانات ليس هي الطبائع ولا تأثيرات الأنجم والأفلاك، لأن تلك التأثيرات متشابهة، فعلمنا أن مدبر أبدان الحيوانات فاعل مختار حكيم، وهو المطلوب، وهذا هو الاستدلال بأبدان الحيوانات على وجود الإله المختار، وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى (خلق الانسان من نطفة) وأما الاستدلال على وجود الصانع المختار الحكيم بأحوال النفس الانسانية فهو المراد من قوله (فاذا هو خصيم مبين) وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) في بيان وجه الاستدلال وتقريره: أن النفوس الانسانية في أول الفطرة أقل فهما وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات، ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجئ إلى الأم، ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والغذاء الذي لا يوافقه وأما ولد الانسان فانه حال انفصاله عن بطن الأم، لا يميز البتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع، فظهر أن الانسان في أول الحدوث أنقص حالا وأقل فطنة من سائر الحيوانات ثم إن الانسان بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يقوى على مساحة السموات والأرض ويقوى على معرفة ذات الله وصفاته وعلى معرفة أصناف المخلوقات من الأرواح والأجسام والفلكيات والعنصریات ويقوى على إيراد الشبهات القوية في دين الله تعالى والخصومات الشديدة في كل المطالب فانتقال نفس الانسان من تلك البلاد المفرطة إلى هذه الكياسة المفرطة لا بد وأن يكون

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾

ههنا إبطال قول من يقول : الأجسام قديمة ، والسموات والأرض أزلية . فزه الله سبحانه نفسه عن أن يشاركه غيره في الأزلية والقدم والله أعلم .

قوله تعالى ﴿خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين﴾

اعلم أن أشرف الأجسام بعد الأفلاك والكواكب هو الانسان ، فلما ذكر الله تعالى الاستدلال على وجود الاله الحكيم بأجرام الأفلاك ، أتبعه بذكر الاستدلال على هذا المطلوب بالانسان . واعلم أن الانسان مركب من بدن ونفس ، فقوله تعالى (خلق الانسان من نطفة) اشارة إلى الاستدلال ببدنه على وجود الصانع الحكيم ، وقوله (فاذا هو خصيم مبين) اشارة الى الاستدلال بأحوال نفسه على وجود الصانع الحكيم .

﴿أما الطريق الأول﴾ فتقريره أن نقول : لاشك أن النطفة جسم متشابه الأجزاء بحسب الحس والمشاهدة ، إلا أن من الأطباء من يقول إنه مختلف الأجزاء في الحقيقة ، وذلك لأنه انما يتولد من فضلة الهضم الرابع ، فان الغذاء يحصل له في المعدة هضم أول وفي الكبد هضم ثان . وفي العروق هضم ثالث . وعند وصوله إلى جواهر الأعضاء هضم رابع . ففي هذا الوقت وصل بمض أجزاء الغذاء إلى العظم وظهر فيه أثر من الطبيعة العظيمة ، وكذا القول في اللحم والعصب والعروق وغيرها ثم عند استيلاء الحرارة على البدن عند هيجان الشهوة يحصل ذوبان من جملة الأعضاء ، وذلك هو النطفة ، وعلى هذا التقدير تكون النطفة جسماً مختلف الأجزاء والطبائع .

إذا عرفت هذا فنقول : النطفة في نفسها إما أن تكون جسماً متشابه الأجزاء في الطبيعة والمساهية ، أو مختلف الأجزاء فيها ، فان كان الحق هو الأول لم يجز أن يكون المقتضى لتولد البدن منها هو الطبيعة الحاصلة في جوهر النطفة ودم الطمث ، لأن الطبيعة تأثيرها بالذات والايجاب لا بالتدبير والاختيار . والقوة الطبيعية إذا عملت في مادة متشابهة الأجزاء وجب أن يكون فعلها هو الكرة ، وعلى هذا الحرف عولوا في قولهم البسائط يجب أن تكون أشكالها الطبيعية في الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة ، لوجب أن يكون شكلها الكرة . وحيث لم يكن الأمر كذلك ، علمنا أن المقتضى لحدوث الأبدان الحيوانية ليس هو الطبيعة ، بل فاعل مختار ، وهو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار .

فالأدون ، وهذا الطريق هو المذكور في هذه السورة ، وذلك لأنه تعالى ابتدأ في الاحتجاج على وجود الاله المختار بذكر الأجرام العالية الفلكية ، ثم ثنى بذكر الاستدلال بأحوال الانسان . ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال الحيوان . ثم رابع بذكر الاستدلال بأحوال النبات . ثم خمس بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الأربعة ، وهذا الترتيب في غاية الحسن .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول :

(النوع الأول) من الدلائل المذكورة على وجود الاله الحكيم الاستدلال بأحوال السموات والأرض فقال (خالق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) إن لفظ الخالق من كم وجه يدل على الاحتياج إلى الخالق الحكيم ، ولا بأس بأن نعيد تلك الوجوه ههنا . فنقول : الخلق عبارة عن التقدير بمقدار مخصوص ، وهذا المعنى حاصل في السموات من وجوه : الأول : أن كل جسم متناه نجسم السماء متناه ، وكل ما كان متناهيا في الحجم والقدر . كان اختصاصه بذلك القدر المعين دون الأزيد والأقل . أمرا جائزا ، وكل جائز فلا بد له من مقدر ومخصص ، وكل ما كان مفتقرا إلى الغير فهو محدث الثاني : وهو أن الحركة الأزلية ممتنعة ، لأن الحركة تقتضى المسبوقية بالغير ، والأزل ينافيه فالجمع بين الحركة والأزل محال .

إذا ثبت هذا فنقول : إما أن يقال إن الأجرام والأجسام كانت معدومة في الأزل ، ثم حدثت أو يقال إنها وإن كانت موجودة في الأزل إلا أنها كانت ساكنة ثم تحركت . وعلى التقديرين فلحركاتها أول ، فحدثت الحركة من ذلك المبدأ دون ما قبله أو ما بعده خالق وتقدير ، فوجب افتقاره إلى مقدر وخالق ومخصص له . الثالث : أن جسم الفلك مركب من أجزاء بعضها حصلت في عمق جرم الفلك وبعضها في سطحه ، والذي حصل في العمق كان يعقل حصوله في السطح وبالعكس ، وإذا ثبت هذا كان اختصاص كل جزء بموضعه المعين أمرا جائزا فيفتقر إلى المخصص والمقدر ، وبقية الوجوه المذكورة في أول سورة الأنعام .

واعلم أنه سبحانه لما احتج بالخالق والتقدير على حدوث السموات والأرض قال بعده (تعالى عما يشركون) والمراد أن القائلين بقدم السموات والأرض كأنهم أثبتوا لله شريكا في كونه قديما أزليا فنزه نفسه عن ذلك ، وبين أنه لا قديم إلا هو . وبهذا البيان ظهر أن الفائدة المطلوبة من قوله (سبحانه وتعالى عما يشركون) في أول السورة غير الفائدة المطلوبة من ذكر هذه الكلمة ههنا ، لأن المطلوب هناك إبطال قول من يقول : إن الأصنام تشفع للكفار في دفع العقاب عنهم . والمقصود

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ «٣»

﴿وأما المرتبة الثانية﴾ وهي السعادات البدنية فهي أيضا قسمان : الصحة الجسدانية ، وكالات القوى الحيوانية ، أعنى القوى السبع عشرة البدنية .

﴿وأما المرتبة الثالثة﴾ وهي السعادات المتعلقة بالصفات العرضية البدنية ، فهي أيضا قسمان : سعادة الأصول والفروع ، أعنى كمال حال الآباء . وكمال حال الأولاد .

﴿وأما المرتبة الرابعة﴾ وهي أخس المراتب فهي السعادات الحاصلة بسبب الأمور المنفصلة وهي المال والجاه ، فثبت أن أشرف مراتب السعادات هي الأحوال النفسانية ، وهي محصورة في كالات القوة النظرية والعملية ، فلهذا السبب ذكر الله ههنا أعلى حال هاتين القوتين فقال (أن أندروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)

قوله تعالى ﴿خالق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فيما سبق أن معرفة الحق لذاته ، وهي المراد من قوله (أنه لا إله إلا أنا) ومعرفة الخير لأجل العمل به وهي المراد من قوله (فاتقون) روح الأرواح ، ومطلع السعادات ، ومنبع الخيرات والكرامات ، أتبعه بذكر الدلائل على وجود الصانع الاله تعالى وكمال قدرته وحكمته . واعلم أنا بينا أن دلائل الالهيات . إما التمسك بطريقة الامكان في الذوات أو في الصفات . أو التمسك بطريقة الحدوث في الذوات أو في الصفات أو بمجموع الامكان والحدوث في الذوات أو الصفات ، فهذه طرق ستة ، والطريق المذكور في كتب الله تعالى المنزلة ، هو التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغيرات الأحوال . ثم هذا الطريق يقع على وجهين : أحدهما : أن يتمسك بالأظهر فالأظهر مترقيا إلى الأخفى فالأخفى ، وهذا الطريق هو المذكور في أول سورة البقرة ، فإنه تعالى قال (اعبدوا ربكم الذى خلقكم) فجعل تعالى تغير أحوال نفس كل واحد دليلا على احتياجه إلى الخالق . ثم ذكر عقبيه الاستدلال بأحوال الآباء والأمهات ، وإليه الإشارة بقوله (والذين من قبلكم) ثم ذكر عقبيه الاستدلال بأحوال الأرض ، وهي قوله (الذى جعل لكم الأرض فراشا) لأن الأرض أقرب إلينا من السماء ، ثم ذكر في المرتبة الرابعة قوله (والسما بناء) ثم ذكر في المرتبة الخامسة الأحوال المتولدة من تركيب السماء بالأرض ، فقال (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم)

﴿الثانى من الدلائل القرآنية﴾ أن يحتاج الله تعالى بالأشرف فالأشرف نازلا الى الأدون

إذا عرفت هذا فنقول : إذا أوحى الله تعالى إلى الملك فعلم ذلك الملك بأن ذلك الوحي وحي الله علم ضروري أو استدلالى . وبتقدير أن يكون استدلاليا فكيف الطريق إليه ؟ وأيضا الملك إذا بلغ ذلك الوحي إلى الرسول فعلم الرسول بكونه ملسكا صادقا لاشيطانا رجيا ضروري أو استدلالى فان كان استدلاليا فكيف الطريق إليه ؟ فهذه مقامات ضيقة ، وتمام العلم بها لا يحصل إلا بالبحث عن حقيقة الملك وكيفية وحي الله إليه ، وكيفية تبليغ الملك ذلك الوحي إلى الرسول . فأما إذا أجرينا هذه الأمور على الكلمات المألوفة صعب المرام وزال النظام ، وذلك لأن آيات القرآن ناطقة بأن هذا الوحي والتنزيل إنما حصل من الملائكة أو نقول : هب أن آيات القرآن لم تدل على ذلك إلا أن احتمال كون الأمر كذلك قائم فى بديهة العقل .

وإذا عرفت هذا فنقول : لانعلم كون جبريل عليه السلام صادقا معصوما عن الكذب والتليس إلا بالدلائل السمعية . وصحة الدلائل السمعية موقوفة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وصدقه يتوقف على أن هذا القرآن معجز من قبل الله تعالى ، لامن قبل شيطان خبيث ، والعلم بذلك يتوقف على العلم بأن جبريل صادق محق مبرأ عن التليس وعن أفعال الشيطان ، وحينئذ يلزم الدور ، فهذا مقام صعب . أما إذا عرفنا حقيقة النبوة وعرفنا حقيقة الوحي زالت هذه الشبهة بالكلية ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذه الآية تدل على أن الروح المشار إليها بقوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) ليس إلا مجرد قوله (لا إله إلا أنا فاتقون) وهذا كلام حق ، لأن مراتب السعادات البشرية أربعة : أولها : النفسانية . وثانيها : البدنية ، وفى المرتبة الثالثة : الصفات البدنية التى لا تكون من الوازم وفى المرتبة الرابعة الأمور المنفصلة عن البدن .

﴿ أما المرتبة الأولى ﴾ وهى الكمالات النفسانية ، فاعلم أن النفس لها قوتان : إحداهما : استعدادها لقبول صور الموجودات من عالم الغيب ، وهذه القوة هى القوة المسماة بالقوة النظرية . وسعادة هذه القوة فى حصول المعارف . وأشرف المعارف وأجلها معرفة أنه لا إله إلا هو ، واليه الاشارة بقوله (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا) والقوة الثانية للنفس : استعدادها للتصرف فى أجسام هذا العالم ، وهذه القوة هى القوة المسماة بالقوة العملية ، وسعادة هذه القوة فى الاتيان بالأعمال الصالحة ، وأشرف الأعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى ، واليه الاشارة بقوله (فاتقون) ولما كانت القوة النظرية أشرف من القوة العملية لا جرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية ، وهى قوله (لا إله إلا أنا) على كمالات القوة العملية وهى قوله (فاتقون)

من رقدة الجهالة ، ونوم الغفلة ، وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية إلى أوج الملكية ، فظهر أن إطلاق لفظ الروح على الوحي في غاية المناسبة والمشاكله ، وبما يقوى ذلك أنه تعالى أطلق لفظ الروح على جبريل عليه السلام في قوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وعلى عيسى عليه السلام في قوله (روح الله) وإنما حسن هذا الإطلاق ، لأنه حصل بسبب وجودهما حياة القلب وهي الهداية والمعارف ، فلما حسن إطلاق اسم الروح عليهما لهذا المعنى ، فلأن يحسن إطلاق لفظ الروح على الوحي والتنزيل كان ذلك أولى .

﴿ والقول الثاني ﴾ في هذه الآية وهو قول أبي عبيدة إن الروح ههنا جبريل عليه السلام ، والباء في قوله (بالروح) بمعنى مع كقولهم خرج فلان بثيابه ، أى مع ثيابه وركب الأمير بسلاحه أى مع سلاحه ، فيكون المعنى : ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل ، والأول أقرب ، وتقرير هذا الوجه : أنه سبحانه وتعالى ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جبريل وحده ، بل في أكثر الأحوال كان ينزل مع جبريل أفواجا من الملائكة ، ألا ترى أن في يوم بدر وفي كثير من الغزوات كان ينزل مع جبريل عليه السلام أقوام من الملائكة ، وكان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ملك الجبال . وتارة ملك البحار . وتارة رضوان . وتارة غيرهم . وقوله (من أمره) يعنى أن ذلك التنزيل والنزول لا يكون إلا بأمر الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى (وما تنزل إلا بأمر ربك) وقوله (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وقوله (وهم من خشيته مشفقون) وقوله (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) وقوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) فكل هذه الآيات دالة على أنهم لا يقدمون على عمل من الأعمال إلا بأمر الله تعالى وإذنه ، وقوله (على من يشاء من عباده) يريد الأنبياء الذين خصهم الله تعالى برسالاته . وقوله (أن أنذروا) قال الزجاج (أن) بدل من الروح والمعنى : ينزل الملائكة بأن أنذروا ، أى أعلموا الخلائق أنه لا إله إلا أنا ، والإنذار هو الإعلام مع التخويف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في الآية فوائد : الفائدة الأولى : أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يكون إلا بواسطة الملائكة ، وبما يقوى ذلك أنه تعالى قال في آخر سورة البقرة (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فبدأ بذكر الله سبحانه ثم أتبعه بذكر الملائكة ، لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير واسطة ، وذلك الوحي هو الكتب ، ثم إن الملائكة يوصلون ذلك الوحي إلى الأنبياء فلا جرم كان الترتيب الصحيح هو الابتداء بذكر الله تعالى ، ثم بذكر الملائكة ، ثم بذكر الكتب وفي الدرجة الرابعة بذكر الرسل .

كيف يمكنك أن تعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ، وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته ؟

فأجاب الله تعالى عنه بقوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وتقرير هذا الجواب أنه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبده ويأمر ذلك العبد بأن يبلغ إلى سائر الخلق أن إله العالم واحد كلّفهم بمعرفة التوحيد والعبادة وبين أنهم إن فعلوا ذلك فازوا بخيرى الدنيا والآخرة ، وإن تمردوا وقعوا في شر الدنيا والآخرة . فهذا الطريق صار مخصوصا بهذه المعارف من دون سائر الخلق . وظهر بهذا الترتيب الذى لخصناه أن هذه الآيات منتظمة على أحسن الوجوه والله أعلم . وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى (ينزل) بالياء وكسر الزاى وتشديدها ، والملائكة بالنصب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ينزل) بضم الياء وكسر الزاى وتخفيفها ، والأول من التفعيل ، والثانى من الأفعال ، وهما لغتان :

﴿المسألة الثانية﴾ روى عن عطاء عن ابن عباس قال : يريد بالملائكة جبريل وحده . قال الواحدى : وتسمية الواحد باسم الجمع إذا كان ذلك الواحد رئيسا مقدما جائز كقوله تعالى (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه . وإنا أنزلناه . وإنا نحن نزلنا الذكر) وفي حق الناس كقوله (الذين قال لهم الناس) وفيه قول آخر سيأتى شرحه بعد ذلك وقوله (بالروح من أمره) فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أن المراد من الروح الوحي وهو كلام الله ونظيره قوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وقوله (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) قال أهل التحقيق الجسد موات كشيء مظلم ، فإذا اتصل به الروح صار حيا لطيفا نورانيا . فظهرت آثار النور في الحواس الخمس ، ثم الروح أيضا ظلمانية جاهلة . فإذا اتصل العقل بها صارت مشرقة نورانية كما قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ثم العقل أيضا ليس بكامل النورانية والصفاء والأشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أحوال عالم الأرواح والأجساد ، وعالم الدنيا والآخرة ، ثم إن هذه المعارف الشريفة الالهية لاتكمل ولا تصفو إلا بنور الوحي والقرآن .

إذا عرفت هذا فنقول : القرآن والوحي به تكمل المعارف الالهية ، والمكاشفات الربانية وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل ، والعقل به يكمل جوهر الروح ، والروح به يكمل حال الجسد ، وعند هذا يظهر أن الروح الأصلية الحقيقى هو الوحي والقرآن . لأن به يحصل الخلاص

قيام الساعة ، ثم إن القوم لما لم يشاهدوا شيئاً من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الايتان بذلك العذاب وقالوا له اثبتنا به . وروى أنه لما نزل قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن . فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئاً مما تخوفنا به ، فنزل قوله (اقتراب للناس حسابهم) فأشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزل قوله (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم فنزل قوله (فلا تستعجلوه) والحاصل أنه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئاً نسبوه الى الكذب . فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وفي تقرير هذا الجواب وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أنه وإن لم يأت ذلك العذاب الا أنه كان واجب الوقوع والشئ اذا كان بهذه الحالة والصفة فانه يقال في الكلام المعتاد انه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك بجرى الواقع يقال لمن طلب الاغاثة وقرب حصولها : قد جاءك الغوث فلا تجزع .

﴿والوجه الثاني﴾ وهو أن يقال ان أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع ، فأما المحكوم به فانه لم يقع ، لأنه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج الى الوجود والحاصل كأنه قيل : أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الأزل إلى الأبد فصح قولنا أتى أمر الله ، إلا أن المحكوم به والمأمور به انما لم يحصل ، لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت .

﴿السؤال الثاني﴾ قالت الكفار : هب انا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقول من أنه تعالى حكم بانزال العذاب علينا إما في الدنيا وإما في الآخرة ، إلا أنا نعبد هذه الأصنام فانها شفعاؤنا عند الله فهي تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعته هذه الأصنام .

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله (سبحانه وتعالى عما يشركون) فنهى نفسه عن شركة الشركاء والأضداد ، والأنداد وأن يكون لأحد من الأرواح والأجسام أن يشفع عنده إلا بأذنه و(ما) في قوله (عما يشركون) يجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : سبحانه وتعالى عن اشراكهم ويجوز أن تكون بمعنى الذى ، أى سبحانه وتعالى عن هذه الأصنام التي جعلوها شركاء لله ، لأنها جمادات خسيصة ، فأى مناسبة بينها وبين أدون الموجودات فضلاً عن أن يحكم بكونها شركاء لمدير الأرض والسموات .

﴿السؤال الثالث﴾ هب أنه تعالى فضى على بعض عباده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن

سورة النحل

مكية ، إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية
وآياتها : ١٢٨ ، نزلت بعد سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ
بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾

سورة النحل

مكية غير ثلاث آيات في آخرها

وحكى الأصم عن بعضهم أن كلها مدنية ، وقال آخرون : من أولها الى قوله (كن فيكون)
مدنى وما سواه فسكى ، وعن قتادة بالعكس .
واعلم أن هذه السورة تسمى سورة النعم وهى مائة وعشرون وثمان آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره
على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾
فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن معرفة تفسير هذه الآية مرتبة على سوالات ثلاثة :

﴿ فالسؤال الأول ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بعذاب الدنيا تارة وهو
القتل والاستيلاء عليهم كما حصل فى يوم بدر ، وتارة بعذاب يوم القيامة ، وهو الذى يحصل عند

واختلف الناس في أنه كيف صار الاقبال على هذه الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب والحزن؟ فقال العارفون المحققون إذا اشتغل الانسان بهذه الأنواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الربوبية، ومتى حصل ذلك الانكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها فلا يستوحش من فقدانها ولا يستريح بوجدانها، وعند ذلك يزول الحزن والغم. وقالت المعتزلة: من اعتقد تنزيه الله تعالى عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق، فإنه يعلم أنه عدل منزّه عن إنزال المشاق به من غير غرض ولا فائدة فيئذ يطيب قلبه، وقال أهل السنة اذ انزل بالعباد بعض المكروهات فزع الى الطاعات كأنه يقول: تجب على عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات، وقوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال ابن عباس رضى الله عنهما: يريد الموت وسمى الموت باليقين لأنه أمر متيقن.

فان قيل: فأى فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه اذا مات سقطت عنه العبادات؟ قلنا: المراد منه (واعبد ربك) في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة، والله أعلم.

تم تفسير هذه السورة، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلم.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ «٩٧» فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ «٩٨» وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «٩٩»

أى بما تؤمر به من الشرائع ، فحذف الجار كقوله :

أمرتك الخير فافعل ماأمرت به

الثانى : أن تكون «ماء» مصدرية أى فاصدع بأمرك وشأنك . قالوا : وما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية .

ثم قال تعالى ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أى لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة . قال بعضهم : هذا منسوخ بآية القتال وهو ضعيف ، لأن معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخا .

ثم قال ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ قيل : كانوا خمسة نفر من المشركين : الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدى بن قيس والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أکفيکم فأوما إلى عقب الوليد ثم بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لآخذه فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات ، وأوما إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال لدغت لدغت واتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات ، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمى ، وأشار إلى أنف عدى بن قيس ، فامتخط قيحا فمات وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات .

واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين وفى أسمائهم وفى كيفية طريق استهزائهم ، ولا حاجة إلى شىء منها ، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو قدره وعظم منصبه . ودل القرآن على أن الله تعالى أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون وأولئك المستهزؤون قال له (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) لأن الجبلة البشرية والمزاج الانسانى يقتضى ذلك فعند هذا قال له (فسبح بحمد ربك) فأمره بأربعة أشياء بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة

لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين . فيعود قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) على الكل ، ولا معنى لقول من يقول إن السؤال إنما يكون عن الكفر أو عن الإيمان ، بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الأعمال ، لأن اللفظ عام فيتناول الكل .

فان قيل : كيف الجمع بين قوله (لنسألنهم أجمعين) وبين قوله (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) أجاوبوا عنه من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يسئلون سؤال الاستفهام لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم ، وإنما يسئلون سؤال التقرير يقال لهم لم فعلتم كذا ؟

ولقائل أن يقول : هذا الجواب ضعيف ، لأنه لو كان المراد من قوله (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) سؤال الاستفهام لما كان في تخصيص هذا النفي بقوله يومئذ فائدة لأن مثل هذا السؤال على الله تعالى محال في كل الأوقات .

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب أن يصرف النفي الى بعض الأوقات ، والاثبات الى وقت آخر ، لأن يوم القيامة يوم طويل .

ولقائل أن يقول : قوله (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) هذا تصريح بأنه لا يحصل السؤال في ذلك اليوم ، فلو حصل السؤال في جزء من أجزاء ذلك اليوم لحصل التناقض .

﴿والوجه الثالث﴾ أن نقول : قوله (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) يفيد عموم النفي وقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) عائد إلى المقتسمين وهذا خاص ولا شك أن الخاص مقدم على العام . أما قوله (فاصدع بما تؤمر) فاعلم أن معنى الصدع في اللغة الشق والفصل ، وأنشد ابن السكيت لجرير :

هذا الخليفة فارضوا ما قضى لكم بالحق يصدع ما في قوله حيف

فقال يصدع يفصل ، وتصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قوله تعالى (يومئذ يصدعون) قال الفراء : يتفرقون . والصدع في الزجاجة الابانة ، أقول ولعل ألم الرأس إنما سمي صداعا لأن قحف الرأس عند ذلك الألم كأنه ينشق . قال الأزهرى : وسمى الصبح صديعا كما يسمى فلقا ، وقد انصدع وانفلق الفجر وانفطر الصبح .

إذا عرفت هذا فقول (فاصدع بما تؤمر) أى فرق بين الحق والباطل ، وقال الزجاج : فاصدع أظهر ما تؤمر به يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا كقولك صرح بها ، وهذا في الحقيقة يرجع أيضا الى الشق والتفريق ، أما قوله (بما تؤمر) ففيه قولان : الأول : أن يكون «ما» بمعنى الذى

فَوَرَّبِكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «٩٢» عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٣» فَأَصْدَعُ بِمَا تَوَمَّرُ
وَأَعْرَضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ «٩٤» إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ «٩٥» الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ «٩٦»

﴿البحث الأول﴾ في هذا اللفظ قولان : الأول : أنه صفة للمقتسمين . والثاني : أنه مبتدأ ،
وخرجه هو قوله (لنسألنهم) وهو قول ابن زيد .

﴿البحث الثاني﴾ ذكر أهل اللغة في واحد عضين قولين :

﴿القول الأول﴾ أن واحدها عضه مثل عزة وبرة وثبة ، وأصلها عضوة من عضيت الشيء
إذا فرقه . وكل قطعة عضه ، وهي مما نقص منها واوهى لام الفعل ، والتعضية التجزئة والتفريق ،
يقال : عضيت الجزور والشاة تعضية إذا جعلتها أعضاء وقسمتها ، وفي الحديث «لا تعضية في ميراث
إلا فيما احتمل القسمة» أي لا تجزئه فيما لا يحتمل القسمة كالجوهرة والسيف . فقوله (جعلوا القرآن
عضين) يريد جزؤه أجزاء ، فقالوا : سحر وشعر وأساطير الأولين ومفترى .

﴿والقول الثاني﴾ أن واحدها عضه وأصلها عضه ، فاستثقلوا الجمع بين هاءين ، فقالوا عضه كما
قالوا شفة ، والأصل شفهة بدليل قولهم : شافهت مشافهة ، وسنة وأصلها سنهة في بعض الأقوال ،
وهو مأخوذ من العضه بمعنى الكذب ، ومنه الحديث «إياكم والعضه» وقال ابن السكيت : العضه
بأن يعضه الانسان ويقول فيه ما ليس فيه . وهذا قول الخليل فيما روى الليث عنه ، فعلى هذا القول
معنى قوله تعالى (جعلوا القرآن عضين) أي جعلوه مفترى . وجمعت العضه جمع ما يعقل لما لحقها
من الحذف ، فجعل الجمع بالواو والنون عوضا عما لحقها من الحذف .

قوله تعالى ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين
إنا كفيناك المستهزين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) يحتمل أن يكون راجعا الى المقتسمين الذين
جعلوا القرآن عضين ، لأن عود الضمير إلى الأقرب أولى ، ويكون التقدير أنه تعالى أقسم بنفسه
أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه . اقتسام القرآن وعن سائر المعاصي ، ويحتمل
أن يكون راجعا الى جميع المكلفين لأن ذكرهم قد تقدم في قوله (وقل إني أنا النذير المبين) أي

أو شاعر ، فأنزل الله تعالى بهم خزياً فماتوا شرمية ، والمعنى : أنذر تكم مثل ما نزل بالمقتسمين .
 ﴿والقول الثاني﴾ وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات أن المقتسمين هم اليهود والنصارى ، واختلفوا فى أن الله تعالى لم سماهم مقتسمين ؟ فقليل لأنهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي . وقال عكرمة : لأنهم اقتسموا القرآن استهزاء به ، فقال بعضهم : سورة كذالى . وقال بعضهم : سورة كذالى . وقال مقاتل بن حبان : اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر ، وقال بعضهم شعر ، وقال بعضهم كذب . وقال بعضهم : أساطير الأولين .

﴿والقول الثالث﴾ فى تفسير المقتسمين . قال ابن زيد : هم قوم صالح تقاسموا نبيته وأهله ، فرمهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم ، فعلى هذا ، الاقتسام من القسم لامن القسمة ، وهو اختيار ابن قتيبة .

﴿البحث الثالث﴾ أن قوله (كما أنزلنا على المقتسمين) يقتضى تشبيهه شىء بذلك فما ذلك الشىء ؟
 والجواب عنه من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين ، حيث قالوا بعنادهم وجهلهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما فاققسموه إلى حق وباطل .

فإن قيل : فعلى هذا القول كيف توسط بين المشبه والمشبه به قوله (ولا تمدن عينيك) إلى آخره ؟
 قلنا : لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم . اعتراض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهى عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم .

﴿والوجه الثاني﴾ أن يتعلق هذا الكلام بقوله (وقل إني أنا النذير المبين)

واعلم أن هذا الوجه لا يتم إلا بأحد أمرين : إما التزام إضمار أو التزام حذف ، أما الإضمار فهو أن يكون التقدير إني أنا النذير المبين عذاباً كما أنزلناه على المقتسمين ، وعلى هذا الوجه ، المفعول محذوف وهو المشبه ، ودل عليه المشبه به ، وهذا كما تقول : رأيت كالقمر فى الحسن ، أى رأيت انساناً كالقمر فى الحسن ، وأما الحذف فهو أن يقال : الكاف زائدة محذوفة ، والتقدير : إني أنا النذير المبين ما أنزلناه على المقتسمين ، وزيادة الكاف له نظير وهو قوله تعالى (ليس كمثل شىء) والتقدير : ليس بمثل شىء ، وقال بعضهم : لاجابة إلى الإضمار والحذف ، والتقدير : إني أنا النذير أى أنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين وقوله (الذين جعلوا القرآن عضين) فيه بحثان :

وَقُلْ إني أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ «٨٩» كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ «٩٠» الَّذِينَ جَعَلُوا
الْقُرْآنَ عِضِينَ «٩١»

ثم قال (ولا تحزن عليهم) ان لم يؤمنوا فيقوى بمكانهم الاسلام وينتعش بهم المؤمنون . والحاصل
أن قوله (ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم) نهى له عن الالتفات الى أموالهم وقوله
(ولا تحزن عليهم) نهى له عن الالتفات اليهم وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن .

ثم قال ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ الحفض : معناه في اللغة نقيض الرفع ، ومنه قوله تعالى
في صفة القيامة (خافضة رافعة) أى أنها تخفض أهل المعاصى ، وترفع أهل الطاعات ، فالخفض
معناه الوضع ، وجناح الانسان يده . قال الليث : بدا الانسان جناحاه ، ومنه قوله (واضمم اليك
جناحك من الرهب) وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع ، والمقصود أنه تعالى لما
نهاه عن الالتفات الى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين ، ونظيره قوله
تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وقال فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
(أشداء على الكفار رحماء بينهم)

قوله تعالى ﴿وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾
اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالزهد فى الدنيا ، وخفض الجناح للمؤمنين . أمره بأن يقول للقوم
(إني أنا النذير المبين) فيدخل تحت كونه نذيرا ، كونه مبلغا لجميع التكليف . لأن كل ما كان واجبا
ترتب على تركه عقاب وكل ما كان حراما ترتب على فعله عقاب فكان الاخبار بحصول هذا العقاب
داخلا تحت لفظ النذير ، ويدخل تحته أيضا كونه شارحا لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار ،
ثم أردفه بكونه مبينا ، ومعناه كونه آتيا فى كل ذلك بالبيانات الشافية والبيانات الوافية . ثم قال بدمه
(كما أنزلنا على المقتسمين) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ اختلفوا فى أن المقتسمين من هم ؟ وفيه أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس : هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الايمان
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب عددهم من أربعين . وقال مقاتل بن سليمان : كانوا ستة
عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها
لا تغتروا بالخارج منا ، والمدعى للنبوته فانه مجنون ، وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن

القرآن وهذا القول عين الأول والتفاوت ليس إلا بقليل والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ لفظه «من» في قوله (سبعاً من المثاني) قال الزجاج فيها وجهان : أحدهما : أن تكون للتبعيض من القرآن أى ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التى يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال ويجوز أن تكون من صلة . والمعنى : آتيناك سبعاً هي المثاني كما قال (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) المعنى : اجتنبوا الأوثان ، لا أن بعضها رجس والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ فاعلم أنه تعالى لماعرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين ، وهو أنه آتاه سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ، نهاه عن الرغبة في الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه اليها رغبة فيها وفي مد العين أقوال :

﴿القول الأول﴾ كأنه قيل له إنك أوتيت القرآن العظيم فلا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات إلى الدنيا ومنه الحديث «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وقال أبو بكر : من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً ، وقيل : وافى من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير ، فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينها بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع .

﴿القول الثاني﴾ قال ابن عباس (لا تمدن عينيك) أى لا تمن ما فضلنا به أحداً من متاع الدنيا ، وقرر الواحدى هذا المعنى فقال : إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر ونحوه ، وإدامة النظر إلى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه . وكان صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى ما يستحسن من متاع الدنيا ، وروى أنه نظر إلى نعم بنى المصطلق ، وقد عبست فى أبوالها وأبعارها فتقنع فى ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست فى أبوالها وأبعارها هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أنفخاها إذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهى أحسن ما تكون .

﴿والقول الثالث﴾ قال بعضهم (ولا تمدن عينيك) أى لا تحسدن أحداً على ما أوتي من الدنيا قال القاضى : هذا بعيد ، لأن الحسد من كل أحد قبيح ، لأنه إرادة لزوال نعم الغير عنه ، وذلك يجرى بجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه ، وذلك من كل أحد قبيح ، فكيف يحسن تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم به ؟

أما قوله تعالى ﴿أزواجاً منهم﴾ قال ابن قتيبة أى أصنافاً من الكفار ، والزوج فى اللغة الصنف

إذا وصل ذلك الشيء إلى محمد صلى الله عليه وسلم . فأما الذي أنزله إلى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد إلى محمد عليه السلام ، فهذا الكلام لا يصدق فيه . وأما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بانزاه على محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك جارياً مجرى ما نزل عليه فهذا أيضاً ضعيف ، لأن إقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر .

﴿ والقول الثالث ﴾ في تفسير السبع المثاني إنها هي السور التي هي دون الطوال والمئين وفوق المفصل ، واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الانجيل . وأعطاني المثاني مكان الزبور ، وفضلني ربي بالمفصل قال الواحدى : والقول في تسمية هذه السور مثاني كقول في تسمية الطوال مثاني . وأقول إن صح هذا التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا غبار عليه وإن لم يصح فهذا القول مشكل . لأننا بينا أن المسمى بالسبع المثاني يجب أن يكون أفضل من سائر السور ، وأجمعوا على أن هذه السور التي سموها بالمثاني ليست أفضل من غيرها ، فيمتنع حمل السبع المثاني على تلك السور .

﴿ والقول الرابع ﴾ أن السبع المثاني هو القرآن كله ، وهو منقول عن ابن عباس في بعض الروايات ، وقول طاوس قالوا : ودليل هذا القول قوله تعالى (كتاباً متشابهاً مثاني) فوصف كل القرآن بكونه مثاني ثم اختلف القائلون بهذا القول في أنه ما المراد بالسبع ، وما المراد بالمثاني ؟ أما السبع فذكر فيه وجوها : أحدها : أن القرآن سبعة أسباع . وثانيها : أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم . التوحيد . والنبوة ، والمعاد . والقضاء ، والقدر . وأحوال العالم ، والقصص ، والتكاليف . وثالثها : أنه مشتمل على الأمر والنهي ، والخبر والاستخبار ، والنداء ، والقسم ، والأمثال . وأما وصف كل القرآن بالمثاني ، فلأنه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف ، وهذا القول ضعيف أيضاً ، لأنه لو كان المراد بالسبع المثاني القرآن ، لكان قوله (والقرآن العظيم) عطفاً للشيء على نفسه ، وذلك غير جائز .

وأجيب عنه بأنه إنما حسن إدخال حرف العطف فيه لاختلاف اللفظين كقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم

وأعلم أن هذا وإن كان جائزاً لأجل وروده في هذا البيت ، إلا أنهم أجمعوا على أن الأصل خلافه

﴿ والقول الخامس ﴾ يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة . لأنها سبع آيات ، ويكون المراد

بالمثاني كل القرآن ويكون التقدير : ولقد آتيناك سبع آيات هي الفاتحة وهي من جملة المثاني الذي هو

إنه تعالى عطف السبع المثاني على القرآن، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وجب أن يكون السبع المثاني غير القرآن، إلا أن هذا يشكل بقوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وكذلك قوله (وملائكته وجبريل وميكال) وللخصم أن يجيب: بأنه لا يبعد أن يذكر الكل، ثم يعطف عليه ذكر بعض أجزائه وأقسامه لكونه أشرف الأقسام. أما إذا ذكر شيء ثم عطف عليه شيء آخر كان المذكور أولا مغايرا للمذكور ثانيا، وههنا ذكر السبع المثاني، ثم عطف عليه القرآن العظيم، فوجب حصول المغايرة.

والجواب الصحيح: أن بعض الشيء مغاير لمجموعه، فلم لا يكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف، والله أعلم،

الحكم الثاني

أنه لما كان المراد بقوله (سبعا من المثاني) هو الفاتحة، دل على أن هذه السورة أفضل سور القرآن من وجهين: أحدهما: أن أفرادها بالذكر مع كونها جزءا من أجزاء القرآن، لا بد وأن يكون لاختصاصها بمزيد الشرف والفضيلة، والثاني: أنه تعالى لما أنزلها مرتين دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما رأينا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم واظب على قراءتها في جمع الصلوات طول عمره، وما أقام سورة أخرى مقامها في شيء من الصلوات دل ذلك على أنه يجب على المكلف أن يقرأها في صلاته وأن لا يقيم سائر آيات القرآن مقامها وأن يحترز عن هذا الإبدال فإن فيه خطرا عظيما والله أعلم.

(القول الثاني) في تفسير قوله (سبعا من المثاني) إنها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة معا. قالوا: وسميت هذه السور مثاني؛ لأن الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثبتت فيها وأنكر الربيع هذا القول. وقال هذه الآية مكية وأكثر هذه السور السبعة مدنية. وما نزل شيء منها في مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها.

وأجاب قوم عن هذا الاشكال: بأن الله تعالى أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا. ثم أنزله على نبيه منها نجوما، فلما أنزله إلى السماء الدنيا، وحكم بانزاله عليه، فهو من جملة ما آتاه، وإن لم ينزل عليه بعد.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) وهذا الكلام إنما يصدق

اعلم أنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم بها ، لأن الانسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه سهل عليه الصبح والتجاوز ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن قوله (آتيناك سبعا) يحتمل أن يكون سبعا من الآيات وأن يكون سبعا من السور وأن يكون سبعا من الفوائد . وليس في اللفظ ما يدل على التعيين . وأما المثاني : فهو صيغة جمع . واحده مثناة ، والمثناة كل شيء يثنى ، أي يجعل اثنين من قولك : ثنيت الشيء إذا عطفته أو ضمنت إليه آخر ، ومنه يقال : لركبتي الدابة ومر فقيا مثاني ، لأنها ثنتي بالفخذ والعضد ، ومثاني الوادي معاطفه . إذا عرفت هذا فنقول : سبعا من المثاني مفهومه سبعة أشياء من جنس الأشياء التي ثنتي ولا شك أن هذا القدر مجمل ولا سبيل إلى تعيينه إلا بدليل منفصل وللناس فيه أقوال : الأول : وهو قول أكثر المفسرين : إنه فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبيرة وقتادة ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال : هي السبع المثاني رواه أبو هريرة ، والسبب في قوع هذا الاسم على الفاتحة أنها سبع آيات ، وأما السبب في تسميتها بالمثاني فوجوه : الأول : أنها ثنتي في كل صلاة بمعنى أنها تقرأ في كل ركعة ، والثاني : قال الزجاج : سميت مثاني لأنها يثنى بعدها ما يقرأ معها ، الثالث : سميت آيات الفاتحة مثاني ، لأنها قسمت قسمين اثنين . والدليل عليه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » والحديث مشهور ، الرابع : سميت مثاني لأنها قسيان ثناء ودعاء ، وأيضا النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء ، والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء ، الخامس : سميت الفاتحة بالمثاني . لأنها نزلت مرتين مرة بمكة في أوائل منازل من القرآن ومرة بالمدينة ، السادس : سميت بالمثاني . لأن كلماتها مثناة مثل (الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) وفي قراءة عمر (غير المغضوب عليهم وغير الضالين) السابع : قال الزجاج : سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكوته .

واعلم أنا إذا حملنا قوله (سبعا من المثاني) على سورة الفاتحة فهذه أحكام :

الحكم الأول

نقل القاضي عن أبي بكر الأصم أنه قال : كان ابن مسعود يكتب في مصحفه فاتحة الكتاب رأى أنها ليست من القرآن . وأقول : لعل حجته فيه أن السبع المثاني لما ثبت أنه هو الفاتحة . ثم

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى
مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

وأعرضوا عنها وجب في الحكمة إهلاكم وتطهير وجه الأرض منهم ، وهذا النظم حسن إلا أنه إنما يستقيم على قول المعتزلة ، قال الجبائي : دلت الآية على أنه تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا حقا وبكون الحق لا يكون الباطل ، لأن كل ما فعل باطلا وأريد بفعله كون الباطل لا يكون حقا ولا يكون مخلوقا بالحق ، وفيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون أن أكثر ما خلقه الله تعالى بين السموات والأرض من الكفر والمعاصي باطل .

واعلم أن أصحابنا قالوا هذه الآية تدل على أنه سبحانه هو الخالق لجميع أعمال العباد ، لأنها تدل على أنه سبحانه هو الخالق للسموات والأرض وكل ما بينهما . ولا شك أن أفعال العباد بينهما فوجب أن يكون خالقها هو الله سبحانه ، وفي الآية وجه آخر في النظم وهو أن المقصود من ذكر هذه القصص تصيير الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام على سفاهة قومه فإنه إذ سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله تعالى بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل تحمل تلك السفاهات على محمد صلى الله عليه وسلم . ثم إنه تعالى لما بين أنه أنزل العذاب على الأمم السالفة فعند هذا قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (وإن الساعة لآتية) وإن الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسنتك وسيئاتهم ، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل والانصاف فكيف يليق بحكمته إهمال أمرك ، ثم إنه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم فقال (فاصفح الصفح الجميل) أي فأعرض عنهم ، واحتمل ما تلقى منهم إعراضا جميلا بحلم وإغضاء ، وقيل . هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد ، لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح . فكيف يصير منسوخا .

ثم قال ﴿إن ربك هو الخالق العليم﴾ ومعناه أنه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك ، وإذا كان كذلك فأنما خلقهم مع هذا التفاوت ، ومع العلم بذلك التفاوت . أما على قول أهل السنة فلمحض المشيئة والارادة . وأما على قول المعتزلة فلاجل المصلحة والحكمة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخلض جناحك للمؤمنين﴾

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ «٨٠» وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
 مُعْرِضِينَ «٨١» وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ «٨٢» فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ
 مُصْبِحِينَ «٨٣» فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٨٤» وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ «٨٥»
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ «٨٦»

أنه مبين لغيره ، لأن الطريق يهdy إلى المقصد .

قوله تعالى ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا
 ينحِتون من الجبال بيوتاً آمينين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾
 هذا هو القصة الرابعة ، وهي قصة صالح قال المفسرون : الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وقوله
 (المرسلين) المراد منه صالح وحده ، ولعل القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل وقوله (وآتيناهم
 آياتنا) يريد النافذة ، وكان في النافذة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وظهور نتاجها
 عند خروجها . وكثرة لبنها وأضاف الايتاء اليهم وإن كانت النافذة آية لصالح لأنها آيات رسولهم ،
 وقوله (فكانوا عنها معرضين) يدل على أن النظر والاستدلال واجب وأن التقليد مذموم وقوله
 (وكانوا ينحِتون من الجبال) قد ذكرنا كيفية ذلك النحت في سورة الأعراف وقوله (آمينين)
 يريد من عذاب الله ، وقال الفراء (آمينين) أن يقع سقفهم عليهم وقوله (فما أغنى عنهم ما كانوا
 يكسبون) أي مادفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال وبن جمع تلك
 الأموال . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصَّفْحَ

الجميل إن ربك هو الخلاق العليم﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار فكانته قيل : الأهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم
 الكريم . فأجاب عنه بأنني إنما خلقت الخاق ليكونوا مشغولين بالعبادة والطاعة فاذا تركوها

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ

مبين ﴿٧٩﴾

في فلان كذا أى عرفت وسم ذلك وسمته فيه .

ثم قال ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ الضمير في قوله (وإنها) عائد إلى مدينة قوم لوط ، وقد سبق ذكرها في قوله (وجاء أهل المدينة) وقوله (لبسبيل مقيم) أى هذه القرى وماظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندرس ولم يخف (والذين يرون) من الحجاز إلى الشام يشاهدونها .

ثم قال ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أى كل من آمن بالله وصدق الأنبياء والرسل عرف أن ذلك إنما كان لأجل أن الله تعالى انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال ، أما الذين لا يؤمنون بالله فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعها ، وعلى حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وان كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبامام مبين﴾

اعلم أن هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة . فأولها : قصة آدم وإبليس . وثانيها : قصة ابراهيم ولوط . وثالثها : هذه القصة ، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض فكذبوا شعيباً فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة ، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء ، والأيكة الشجر الملتف يقال : أيكة وأيك كشجرة وشجر . قال ابن عباس : الأيك هو شجر المقل ، وقال الكلبي : الأيكة الغيضة ، وقال الزجاج : هؤلاء أهل موضع كان ذا شجر . قال الواحدي : ومعنى إن واللام للتوكيد وان ههنا هي المخففة من الثقلية ، وقوله (فانتقمنا منهم) قال المفسرون : اشتد الحر فيهم أياما ، ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا عن آخرهم وقوله (وإنهما) فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ المراد قرى قوم لوط عليه السلام والأيكة .

﴿والقول الثاني﴾ الضمير للأيكة ومدين لأن شعيبا عليه السلام كان مبعوثا إليهما فلما ذكر

الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله (لبامام مبين) أى بطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به . قال الفراء والزجاج : إنما جعل الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع . قال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتى به حتى يصير الى الموضع الذى يريد وقوله (مبين) يحتمل أنه مبين في نفسه ويحتمل

بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) وفي قراءة أبي وهو أب لهم . والكلام في هذه المباحث قد مر بالاستقصاء في سورة هود عليه السلام .

أما قوله ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ العمر والعمر واحد وسُمي الرجل عمرا تفاؤلا أن يبقى ومنه قول ابن أحرر ذهب الشباب وأخلق العمر

وعمر الرجل يعمر عمرا وعمرا . فاذا أقسموا به قالوا : لعمرك وعمرك فتحوا العين لا غير .

قال الزجاج : لأن الفتح أخف عليهم وهم يكثرون القسم بلعمرى ولعمرك فالتزموا الألف .

﴿المسألة الثانية﴾ في قوله (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) قولان : الأول : أن المراد أن

الملائكة قالت للوط عليه السلام (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) أى فى غوايتهم يعمهون ، أى

يتحيرون فكيف يقبلون قولك ، ويلتفتون إلى نصيحتك . والثاني : أن الخطاب لرسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وأنه تعالى أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد ، وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على

الله تعالى قال النحويون : ارتفع قوله (لعمرك) بالابتداء والخبر محذوف ، والمعنى : لعمرك قسمي

وحذف الخبر ، لأن في الكلام دليلا عليه وباب القسم يحذف منه الفعل نحو : بالله لأفعلن ،

والمعنى : أحلف بالله فيحذف لعلم المخاطب بأنك حالف .

ثم قال تعالى ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ أى صيحة جبريل عليه السلام قال أهل المعاني : ليس في الآية

دلالة على أن تلك الصيحة صيحة جبريل عليه السلام فإن ثبت ذلك بدليل قوى قيل به وإلا فليس

في الآية دلالة إلا على أنه جاءهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله (مشرقين) يقال شرق الشارق يشرق

شروقالكل ماطلع من جانب الشرق ، ومنه قولهم ماذر شارق أى طلع طالع فقوله (مشرقين) أى

داخلين في الشروق يقال أشرق الرجل إذا دخل في الشروق ، وهو بزوغ الشمس .

واعلم أن الآية تدل على أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب : أحدها : الصيحة الهائلة

المنكرة . وثانيها : أنه جعل عاليها سافلها . وثالثها : أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل . وكل هذه

الأحوال قد مر تفسيرها في سورة هود .

ثم قال تعالى ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ يقال توسمت في فلان خيرا أى رأيت فيه أثرا

منه وتفرسته فيه ، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير المتوسمين قيل : المتفرسين . وقيل الناظرين ،

وقيل المتفكرين ، وقيل المعتبرين ، وقيل المتبصرين . قال الزجاج : حقيقة المتوسمين في اللغة المثبتون

في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته ، والمتوسم الناظر في السمة الدالة تقول : توسمت

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي
 إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمْ
 الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبَسَبِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعين لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهُون فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾

اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط ، وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤه إلا أن القصة تدل على أنهم جاؤا دار لوط . قيل : إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط . وقيل : امرأة لوط أخبرتهم بذلك ، وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد مارأينا قط أصبح وجهها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا إلى دار لوط طلبها منهم لأولئك المرد والاستبشار إظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا أضيافه كلامين :

﴿الكلام الأول﴾ قال (إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون) يقال فضحه يفضحه فضحا وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار، والمعنى أن الضيف يجب اكرامه فاذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك اهانة بي . ثم أكد ذلك بقوله (واتقوا الله ولا تخزون) فأجابوه بقولهم (أولم ننهك عن العالمين) والمعنى : ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة .

﴿والكلام الثاني﴾ مما قاله لوط قوله (هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين) قيل المراد بناته من صلبه ، وقيل : المراد نساء قومه ، لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم وهو كقوله تعالى (الذي أولى

فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقَطْعِ مَنْ اللَّيْلِ وَاتَّبِعَ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ
وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ
مَقْطُوعٌ مَصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

ماذكروه بقولهم (وأيتناك بالحق) قال الكلبي : بالعذاب ، وقيل باليقين والأمر الثابت الذى لا شك فيه وهو عذاب أولئك الأقوام ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم (وإننا لصادقون)
قوله تعالى ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾
قرى (فأسر) بقطع الهمزة ووصلها من أسرى، وسرى . وروى صاحب الكشاف عن صاحب الاقليد فسر (من) السير والقطع آخر الليل . قال الشاعر :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

وقوله (واتبع أدبارهم) معناه : اتبع آثار بناتك وأهلك . وقوله (ولا يلتفت منكم أحد) الفائدة فيه أشياء : أحدها : لئلا يتخلف منكم أحد فينال العذاب . وثانيها : لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء ، وثالثها : معناه الاسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه كما تقول : اهض لشأنك ولا تعرج على شىء ورابعها : لولا بقى منه متاع فى ذلك الموضوع ، فلا يرجع بسببه البتة . وقوله (وامضوا حيث تؤمرون) قال ابن عباس : يعنى الشام . قال المفضل : حيث يقول لكم جبريل . وذلك لأن جبريل عليه السلام أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة أهلها ماعملوا مثل عمل قوم لوط . وقوله (وقضينا إليه) عدى قضينا بالى ، لأنه ضمن معنى أو حينا ، كأنه قيل : وأوحينا له مقضيا مبتوتا ، ونظيره قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل) وقوله (ثم اقضوا إلى) ثم إنه فسر . بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفى إبهامه أولا ، وتفسيره ثانيا تفخيم الأمر وتعظيم له . وقرأ الأعمش (إن) بالكسر على الاستئناف كان قائلا قال أخبرنا عن ذلك الأمر ، فقال إن دابر هؤلاء ، وفى قراءة ابن مسعود . وقلنا (ان دابر هؤلاء) ودابرهم آخرهم ، يعنى يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله (مصبحين) أى حال ظهور الصبح .

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ «٦١» قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ مُنكَرُونَ «٦٢» قَالُوا
بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ «٦٣» وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ «٦٤»

في الخير والشر ، وقيل في معنى (قدرنا) كتبنا . قال الزجاج : دبرنا . وقيل قضينا ، والكل متقارب .
﴿المسألة الثانية﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم (قدرنا) بتخفيف الدال ههنا وفي النمل ، وقرأ الباقون
فيهما بالتشديد . قال الواحدي يقال : قدرت الشيء وقدرته ، ومنه قراءة ابن كثير (نحن قدرنا بينكم
الموت) خفيفا ، وقراءة الكسائي (والذي قدر فهدى) ثم قال : والمشددة في هذا المعنى أكثر
استعمالا لقوله تعالى (وقدر فيها أقواتها) وقوله (وخلق كل شيء فقدره تقديرا)
﴿المسألة الثالثة﴾ لقائل أن يقول : لم أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ،
ولم لم يقولوا : قدر الله تعالى ؟

والجواب : إنما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما يقول خاصة
الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والامر هو الملك لا هم ، وإنما يريدون بذكر هذا الكلام اظهار
ما لهم من الاختصاص بذلك الملك ، فكذا ههنا والله أعلم .
﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (إنها لمن الغابرين) في موضع مفعول التقدير قضينا أنها تتخلف وتبقى
مع من يبقى حتى تهلك كما يهلكون . ولا تكون ممن يبقى مع لوط فتصل إلى النجاة والله أعلم .
قوله تعالى ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه
يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون﴾

اعلم أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ذهبوا
بعد ذلك إلى لوط وإلى آله ، وأن لوطا وقومه ما عرفوا أنهم ملائكة الله ، فلماذا قال لهم (إنكم قوم
منكرون) وفي تأويله وجوه : الأول : أنه إنما وصفهم بأنهم منكرون ، لأنه عليه الصلاة والسلام
ما عرفهم ، فلما هجموا عليه استنكر منهم ذلك وخاف أنهم دخلوا عليه لأجل شر يوصلونه إليه ،
فقال هذه الكلمة . والثاني : أنهم كانوا شبابا مردا حسان الوجوه ، فخاف أن يهجم قومه عليه
بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة . والثالث : أن النكرة ضد المعرفة فقوله (إنكم قوم منكرون) أي
لا أعرفكم . ولا أعرف أنكم من أي الأقوام ، ولأي غرض دخلتم على ، فعند هذه الكلمة قالت
الملائكة ، بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، أي بالعذاب الذي كانوا يشكون في نزوله ، ثم أكدوا

ولو كان تمام المقصود من المجيء هو ذكر تلك البشارة لكانوا في أول ما دخلوا عليه ذكروا تلك البشارة ، فلما لم يكن الأمر كذلك علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الطريق أنه ما كان بجيشهم لمجرد هذه البشارة بل كان لغرض آخر فلا جرم سألمهم عن ذلك الغرض فقال (فما خطبكم أيها المرسلون) ثم حكى تعالى عن الملائكة أنهم قالوا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم عليه السلام بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لاهلاكهم واستئصالهم وأيضا فقولهم (إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين) يدل على أن المراد بذلك الأرسال اهلاك القوم أما قوله تعالى ﴿إلا آل لوط﴾ فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه .

فان قيل : قوله (إلا آل لوط) هل هو استثناء منقطع أو متصل ؟

قلنا قال صاحب الكشاف : إن كان هذا الاستثناء استثناء من (قوم) كان منقطعاً ، لأن القوم موصوفون بكونهم مجرمين وآل لوط ما كانوا مجرمين ، فاختلف الجنسان ، فوجب أن يكون الاستثناء منقطعاً . وان كان استثناء من الضمير في (مجرمين) كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وخدمهم كما قال (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ثم قال صاحب الكشاف : ويختلف المعنى بحسب اختلاف هذين الوجهين ، وذلك لأن آل لوط يخرجون في المنقطع من حكم الأرسال ، لأن على هذا التقدير الملائكة أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة وما أرسلوا إلى آل لوط أصلاً ، وأما في المتصل فالملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء وأما قوله (إنا لمنجوهم أجمعين) فاعلم أنه قرأ حمزة والكسائي (منجوهم) خفيفة ، والباقون مشددة وهما لغتان .

أما قوله تعالى ﴿إلا امرأته﴾ قال صاحب الكشاف : هذا استثناء من الضمير المجرور في قوله (منجوهم) وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء ، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه . كما لو قيل : أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته . وكما لو قال : المطلق لامرأته أنت طالق ثلاثاً إلا ثنتين إلا واحدة ، وكما إذا قال : المقر لفلان على عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهما . فأما في هذه الآية فقد اختلف الحكيان ، لأن قوله (إلا آل لوط) متعلق بقوله (أرسلنا) أو بقوله (مجرمين) وقوله (إلا امرأته) قد تعلق بقوله (منجوهم) فكيف يكون هذا استثناء من استثناء .

وأما قوله ﴿قدرنا إياها لمن الغابرين﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن معنى التقدير في اللغة : جعل الشيء على مقدار غيره . يقال : قدر هذا الشيء بهذا أي اجعله على مقداره ، وقدر الله تعالى الأقوات أي جعلها على مقدار الكفاية . ثم يفسر التقدير بالقضاء ، فقال : قضى الله عليه كذا ، وقدره عليه أي جعله على مقدار ما يكفي

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ «٥٧» قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ «٥٨»

إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ «٥٩» إِلَّا مَرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ «٦٠»

﴿المسألة الأولى﴾ هذا الكلام حق ، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمر : أحدها : أن يجهل كونه تعالى قادرا عليه . وثانيها : أن يجهل كونه تعالى عالما باحتياج ذلك العبد اليه . وثالثها : أن يجهل كونه تعالى منزها عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الأمور سبب للضلال ، فلهذا المعنى قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي (يقنط) بكسر النون ولا تقنطوا كذلك ، والباقون بفتح النون وهما لغتان : قنط يقنط ، نحو ضرب يضرب . وقنط يقنط نحو علم يعلم ، وحكى أبو عبيدة : قنط يقنط بضم النون ، قال أبو علي الفارسي : قنط يقنط بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل من أعلى اللغات يدل على ذلك اجتماعهم في قوله (من بعد ما قنطوا) وحكاية أبي عبيدة تدل أيضاً على أن قنط بفتح النون أكثر . لأن المضارع من فعل يجيء على يفعل ويفعل مثل فسق يفسق ويفسق ولا يجيء مضارع فعل على يفعل . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (فما خطبكم) سؤال عما لأجله أرسلهم الله تعالى ، والخطب والشأن والأمر سواء : إلا أن لفظ الخطب أدل على عظم الحال .

فان قيل : إن الملائكة لما بشروه بالولد الذكر العليم فكيف قال لهم بعد ذلك (فما خطبكم أيها المرسلون)

قلنا : فيه وجوه : الأول : قال الأصم : معناه ما الأمر الذي توجهتم له سوى البشرى . الثاني : قال القامحى : إنه علم أنه لو كان كمال المقصود إيصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافياً ، فلما رأى جمعا من الملائكة علم أن لهم غرضاً آخر سوى إيصال البشارة فلا جرم قال (فما خطبكم أيها المرسلون) الثالث : يمكن أن يقال إنهم إنما قالوا : إنا نبشرك بغلام عليم . في معرض إزالة الخوف والوجل . ألا ترى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما خاف قالوا له : لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم .

ذلك أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقبله شاباً ، ثم يعطيه الولد ، والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب .

فان قيل : فاذا كان معنى الكلام ما ذكرتم فلم قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قلنا : إنهم بينوا أن الله تعالى بشره بالولد مع إبقائه على صفة الشيخوخة وقولهم : فلا تكن من القانطين . لا يدل على أنه كان كذلك ، بدليل أنه صرح في جوابهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) وفيه جواب آخر ، وهو أن الانسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه . فاذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلمات مضطربة من ذلك الفرح في ذلك الوقت . وقيل أيضاً : إنه يستطيب تلك البشارة فر بما يعيد السؤال لسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين وأكثر طلباً للتأذيذ بسماع تلك البشارة . وطلباً لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله (ولكن ليطمئن قلبي) وقيل أيضاً : استفهم بأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم؟

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع (تبشرون) بكسر النون خفيفة في كل القرآن ، وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها . والباقون بفتح النون خفيفة ، أما الكسر والتشديد فتقديره تبشرونني أدغمت نون الجمع في نون الاضافة . وأما الكسر والتخفيف فعلى حذف نون الجمع استئقالا لاجتماع المثلين وطباً للتخفيف قال أبو حاتم : حذف نافع الياء مع النون . قال : وإسقاط الحرفين لا يجوز . وأجيب عنه : بأنه أسقط حرفاً واحداً وهي النون التي هي علامة للرفع . وعلى أن حذف الحرفين جائز قال تعالى في موضع (ولا تك) وفي موضع (ولا تكن) فأما فتح النون فعلى غير الاضافة والنون علامة للرفع وهي مفتوحة أبداً . وقوله (بشرناك بالحق) قال ابن عباس : يريد بما قضاه الله تعالى والمعنى : أن الله تعالى قضى أن يخرج من صلب ابراهيم اسحق عليه السلام . ويخرج من صلب اسحق مثل ما أخرج من صلب آدم فانه تعالى بشر بأنه يخرج من صلب اسحق أكثر الأنبياء فقوله (بالحق) اشارة إلى هذا المعنى وقوله (فلا تكن من القانطين) نهى لابراهيم عليه السلام عن القنوط وقد ذكرنا كثيراً أن نهى الانسان عن الشيء لا يدل على كون المنهى فاعلاً للمنهى عنه كما في قوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ثم حكى تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) وفيه مسألان :

أخبرتهم وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعدد الكبر . وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضا بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وكل ذلك يقوى ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين ، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار .

﴿المسألة الثانية﴾ الضيف في الأصل مصدر ضاف يضيف إذا أتى إنسانا لطاب القرى ، ثم سمي به ، ولذلك وحده في اللفظ وهم جماعة .

فان قيل : كيف سماهم ضيفا مع امتناعهم عن الأكل ؟

قلنا : لما ظن إبراهيم أنهم إنما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك . وقيل أيضا : إن من يدخل دار الإنسان ويلتجئ إليه يسمى ضيفا وإن لم يأكل ، وقوله تعالى (إذ دخلوا عليه فقلوا سلاما) أي نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما ، فقال إبراهيم (إنا منكم وجلون) أي خائفون ، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل . وقيل : لأنهم دخلوا عليه بغير إذن وبغير وقت وقرأ الحسن (لا توجل) بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه . وقرئ لا تأجل ولا توجل من واجله بمعنى أوجله ، وهذه القصة قد مر ذكرها بالاستقصاء في سورة هود . وقوله (قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام علم) فيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ حمزة : (إنا نبشرك) بفتح النون ، وتخفيف الباء ، والباقون : (نبشرك) بالتحديد .

﴿البحث الثاني﴾ قوله (إنا نبشرك) استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل ، والمعنى : انك بمثابة الأمن المبشر فلا توجل .

﴿البحث الثالث﴾ قوله (إنا نبشرك بغلام علم) بشروه بأمرين : أحدهما : أن الولد ذكر والآخر أنه يصير عالما ، واختلفوا في تفسير العلم . فقيل : بشروه بنبوته بعده . وقيل : بشروه بأنه علم بالدين . ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : أبشركموني على أن مسنى الكبر فيم تبشرون ، فعنى (على) ههنا للحال أي حالة الكبر ، وقوله (فيم تبشرون) فيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ لفظ ما ههنا استفهام بمعنى التعجب كأنه قال : بأي عجيبة تبشرون ؟

فان قيل : في الآية اشكالان : الأول : أنه كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر وإنكار قدرة الله تعالى في هذا الموضع كفر . الثاني : كيف قال (فيم تبشرون) مع أنهم قد بينوا ما بشروه به ، وما فائدة هذا الاستفهام . قال القاضي : أحسن ما قيل في الجواب عن

وَنَبِّئُهُمْ عَنِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرُ مَوْنِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ تَبَشُّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرُنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله (سبحان الذى أسرى بعبده) وثانيتها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيدياً لفظاً ثلاثة : أولها : قوله (أنى) وثانيتها : قوله (أنا) وثالثتها : ادخال حرف الألف واللام على قوله (الغفور الرحيم) ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال (وأن عذابى هو العذاب الأليم) وثالثتها : أنه أمر رسوله أن يبلغ اليهم هذا المعنى فكانت أشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة . ورابعها : أنه لما قال (نبيء عبادى) كان معناه نبيء كل من كان معترفا بعبوديتى ، وهذا لما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى . وعن قتادة قال : بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ما تورع من حرام . ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه » أى قبلها وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه ، وهم يضحكون فقال « أتضحكون والنار بين أيديكم » فنزل قوله (نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم قال ابشرتموني على ان مسني الكبر فيم تبشرون قالوا بشرنك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ فى تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد ، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الأشقياء والسعداء . أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا فى الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومخذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء . فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام ، والضمير فى قوله (ونبئهم) راجع الى قوله (عبادى) والتقدير : ونبيء عبادى عن ضيف إبراهيم ، يقال : أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة اذا

نَبِيٌّ عِبَادِي أَنَّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٤٩» وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ «٥٠»

إخواننا على سرر متقابلين) إشارة إلى نفي المضار الروحانية وقوله (لا يمسهم فيها نصب) إشارة إلى نفي المضار الجسمانية .

﴿وأما القيد الرابع﴾ وهو كون تلك المنافع دأمة آمنة من الزوال فإليه الإشارة بقوله (وما هم منها بمخرجين) فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الأربعة المعتبرة في ماهية الثواب والحكام الإسلام في هذه الآية مقال ، فانهم قالوا : المراد من قوله (ونزعنا ما في صدورهم من غل) إشارة إلى أن الأرواح القدسية النطقية نقيية مطهرة عن علائق القوى الشهوانية والغضبية ، مبرأة عن حوادث الوهم والخيال ، وقوله (إخواننا على سرر متقابلين) معناه أن تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الأجسام ونوازع الخيال والأوهام ، ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الأنوار الإلهية ، وتلألأت بتلك الأضواء الصمدية . فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المزايا المتقابلة المتحاذية ، فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله (إخواننا على سرر متقابلين) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿نبي عبادي أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾

في الآية مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ أثبتت الهمزة الساكنة في (نبي) صورة ، وما أثبتت في قوله (دفع) . وجزءه لأن ما قبلها ساكن فهي تحذف كثيرا وتلقى حركتها على الساكن قبلها ، ف(نبي) في الخط على تحقيق الهمزة ، وليس قبل همزة (نبي) ساكن فاجرؤها على قياس الأصل :

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن عباد الله قسمان : منهم من يكون متقيا ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة ، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال (نبي عبادي)

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، فههنا وصفهم بكونهم عباداً له ، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورا رحيمًا . فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفورا رحيمًا ومن أنكر ذلك كان مستوجبا للعقاب الأليم . وفي الآية لطائف : أحداها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله (عبادي) وهذا تشریف عظيم . ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا

من قولهم : أغل في جوفه وتغلغل ، أى ان كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم ، وعن علي عليه السلام أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، وحكى عن الحرث بن الأعور أنه كان جالسا عند علي عليه السلام إذ دخل زكريا بن طلحة فقال له علي : مرحبا بك يا ابن أخي ، أما والله إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى في حقهم (ونزعنا ما في صدورهم من غل) فقال الحرث : كلا بل الله أعدل من أن يحوطك وطلحة في مكان واحد . قال عليه السلام : فلن هذه الآية ؟ لأم لك يا أعور ، وروى أن المؤمنين يحبسون علي باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض ، ثم يؤمر بهم إلى الجنة . وقد نقي الله قلوبهم من الغل والغش ، والحقد والحسد ، وقوله (إخوانا) نصب على الحال وليس المراد الأخوة في النسب بل المراد الأخوة في المودة والمخالصة كما قال (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقوله (علي سرر متقابلين) السرير معروف والجمع أسرة وسرر قال أبو عبيدة يقال : سرر وسرر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فان جمعه فعل وفعل نحو : سرر وسرر ، وجدد وجدد قال المفضل : بعض تميم وكلب يفتحون ، لأنهم يستقلون ضمتين متواليتين في حرفين من جنس واحد وقال بعض أهل المعاني : السرير مجلس رفيع مهيا للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور . قال الليث : وسرير العيش مستقره الذى اطمأن اليه في حال سروره وفرحه قال ابن عباس : يريد علي سرر من ذهب مكلاة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية ، وقوله (متقابلين) التقابل التواجه . وهو نقيض التدابر ، ولاشك أن المواجهة أشرف الأحوال وقوله (لا يمسهم فيها نصب) النصب الاعياء والتعب أى لا يأنالهم فيها تعب (وما هم منها بمخرجين) والمراد به كونه خلودا بلا زوال وبقاء بلا فناء ، وكألا بلا نقصان ، وفوزا بلا حرمان .

واعلم أن للثواب أربع شرائط : وهى أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة .

﴿أما القيد الاول﴾ وهو كونها منفعة فاليه الاشارة بقوله (إن المتقين فى جنات وعيون)

﴿وأما القيد الثانى﴾ وهو كونها مقرونة بالتعظيم فاليه الاشارة بقوله (ادخلوها بسلام آمنين)

لأن الله سبحانه إذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الاجلال .

﴿وأما القيد الثالث﴾ وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر ، فاعلم أن المضار

إما أن تكون روحانية ، وإما أن تكون جسمانية ، أما المضار الروحانية فهى الحقد ، والحسد ، والغل ، والغضب . وأما المضار الجسمانية فكألا عياء والتعب فقوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غل

لكل من اتقى عن شيء واحد ، إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم ، وأيضا فإن هذه الآية وردت عقيب قول إبليس (إلا عبادك منهم المخلصين) وعقيب قول الله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فلاجل هذه الدلائل اعتبرنا الايمان في هذا الحكم فوجب أن لايزيد فيه قيد آخر . لأن تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق لمقتضى الأصل والظاهر . فثبت أن قوله (إن المتقين في جنات وعيون) يتناول جميع القائلين بلاإله إلاالله محمد رسول الله قولوا واعتقادا سواء كانوا من أهل الطاعة أو من أهل المعصية وهذا تقرير بين ، وكلام ظاهر .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (في جنات وعيون) أما الجنات فأربعة لقوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال (ومن دونهما جنتان) فيكون المجموع أربعة وقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) يؤكد ماقلناه . لأن من آمن بالله لاينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله (ولمن خاف) يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة ، وأما العيون فيحتمل أن يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى في قوله (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من نحر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الأنهار .

فان قيل : أتقولون إن كل واحد من المتقين يختص بعيون ، أو تجرى تلك العيون من بعض إلى بعض قيل : لايمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز أن يختص كل أحد بعين وينتفع به كل من في خدمته من الحور والولدان ، ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم ، ويحتمل أن يكون يجرى من بعضهم إلى بعض لأنهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله (ادخلوها بسلام آمنين) يحتمل أن القائل لقوله (ادخلوها) هو الله تعالى وأن يكون ذلك القائل بعض ملائكته ، وفيه سؤال لأنه تعالى حكم قبل هذه الآية بأنهم في جنات وعيون ، وإذا كانوا فيها فكيف يمكن أن يقال لهم (ادخلوها)

والجواب عنه من وجهين : الأول : لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها (ادخلوها بسلام) الثاني : لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم ادخلوها وقوله (ادخلوها بسلام آمنين) المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة ، والأمن من زوالها .

ثم قال تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) والغل الحقد الكامن في القلب وهو مأخوذ

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ «٤٥» ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ «٤٦» وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ «٤٧» لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَجَسٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ «٤٨»

في خبء . ثم وقف عليه بالتشديد .

﴿المسألة الثانية﴾ الجزء بعض الشيء ، والجمع الأجزاء ، وجزأته جعلته أجزاء ، والمعنى : أنه تعالى يجزى أتباع إبليس أجزاء . بمعنى أنه يجعلهم أقساما وفرقا ، ويدخل في كل قسم من أقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف . والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة . فلا جرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم بمخرجين﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في قوله (إن المتقين) قولان :

﴿القول الأول﴾ قال الجبائي وجمهور المعترزة : القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا جميع المعاصي . قالوا : لأنه اسم مدح فلا يتناول إلا من يكون كذلك .

﴿والقول الثاني﴾ وهو قول جمهور الصحابة والتابعين ، وهو المنقول عن ابن عباس أن المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به . وأقول : هذا القول هو الحق الصحيح ، والذي يدل عليه هو أن المتقي هو الآتي بالتقوى مرة واحدة ، كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة واحدة ، والقاتل هو الآتي بالقتل مرة واحدة . فكما أنه ليس من شرط الوصف كونه ضاربا وقاتلا كونه آتيا بجميع أنواع الضرب والقتل ، فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه آتيا بجميع أنواع التقوى ، والذي يقوى هذا الكلام أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيا بالتقوى ، لأن كل فرد من أفراد المساهمة فانه يجب كونه مشتملا على تلك المساهمة ، فالآتي بالتقوى يجب أن يكون متقيا ، فثبت أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متقيا ، ولهذا التحقيق اتفق المفسرون على أن ظاهر الأمر لا يفيد التكرار .

إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر قوله (إن المتقين في جنات وعيون) يقتضى حصول الجنات والعيون

إبليس باختياره صار متبعاً له ، ولكن حصول تلك المتابعة أيضاً ليس لأجل أن إبليس يقهره على تلك المتابعة أو يجبره عليها . والحاصل في هذا القول : أن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطاناً . فبين تعالى كذبه فيه ، وذكر أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلاً ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس أنه قال (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) وقال تعالى في آية أخرى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) قال الجبائي : هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وإزالة عقولهم كما يقوله العامة ، وربما نسبوا ذلك إلى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه ، وفي الآية قول آخر ، وهو أن إبليس لما قال (إلا عبادك منهم المخلصين) فذكر أنه لا يقدر على اغواء المخلصين صدقه الله في هذا الاستثناء فقال (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فلهمنا قال الكلبي : العباد المذكورون في هذه الآية هم الذين استثناهم إبليس .

واعلم أن على القول الأول يمكن أن يكون قوله (إلا من اتبعك) استثناء ، لأن المعنى : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين فإن لك عليهم سلطاناً بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي .

وأما على القول الثاني فيمتنع أن يكون استثناء ، بل تكون لفظة (إلا) بمعنى لكن ، وقوله (إن جهنم لموعدهم أجمعين) قال ابن عباس : يريد إبليس وأشياعه ، ومن اتبعه من الغاوين . ثم قال تعالى ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ وفيه قولان :

﴿ القول الأول ﴾ إنها سبع طبقات : بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات ، ويدل على كونها كذلك . قوله تعالى (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)

﴿ والقول الثاني ﴾ إن قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام : ولكل قسم باب ، وعن ابن جريج : أولها : جهنم . ثم لظى . ثم الحطمة . ثم السعير . ثم سقر . ثم الجحيم . ثم الهاوية . قال الضحاك : الطبقة الأولى . فيها أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون . والثانية : لليهود . والثالثة : للنصارى والرابعة : للصابئين . والخامسة : للمجوس . والسادسة : للمشركين . والسابعة : للمنافقين . وقوله (لكل باب منهم جزء مقسوم) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر (جزء مقسوم) والباقون (جز) بتخفيف الزاي . وقرأ الزهري (جز) بالتشديد ، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي ، كقولك : خب

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ «٤٢»
 وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ «٤٣» لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ
 مَّقْسُومٌ «٤٤»

﴿وأما الثالث﴾ وهو أن يشتمل على الجهتين إلا أن جانب الله يكون راجحاً ، فهذا يرجح أن يكون من المخلصين ، لأن المثل يقابله المثل ، فيبقى القدر الزائد خالصاً عن الشوب .

﴿وأما الرابع والخامس﴾ فظاهر أنه ليس من المخلصين في حق الله تعالى ، والحاصل أن القسم الأول : اخلاص في حق الله تعالى قطعاً . والقسم الثاني : يرجح من فضل الله أن يجعله من قسم الاخلاص وأساساً الأقسام فهو خارج عن الاخلاص قطعاً والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿قال هذا صراط على مستقيم﴾ ففيه وجوه : الأول : أن إبليس لما قال (إلا عبادك منهم المخلصين) فلفظ المخلص يدل على الاخلاص ، فقوله هذا عائد إلى الاخلاص ، والمعنى : أن الاخلاص طريق على وإلى ، أى أنه يؤدي إلى كرامتى وثوابى ، وقال الحسن : معناه هذا صراط إلى مستقيم ، وقال آخرون : هذا صراط من مر عليه ، فكانه مر على وعلى رضوانى وكرامتى وهو كما يقال طريقك على . الثانى : أن الاخلاص طريق العبودية فقوله (هذا صراط على مستقيم) أى هذا الطريق فى العبودية طريق على مستقيم . الثالث : قال بعضهم : لما ذكر إبليس أنه يغوى بنى آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته فقال تعالى (هذا صراط على) أى تفويض الأمور إلى إرادتى ومشيتى طريق على مستقيم الرابع معناه : هذا صراط على تقريره وتأكيده ، وهو مستقيم حق وصدق ، وقرأ يعقوب (صراط على) بالرفع والتنوين على أنه صفة لقوله (صراط) أى هو على بمعنى أنه رفيع مستقيم لا عوج فيه . قال الواحدى : معناه أن طريق التفويض الى الله تعالى والايمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم . قوله تعالى ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم

اعلم أن إبليس لما قال (لازيتن لهم فى الأرض ولاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) أوهم هذا الكلام أن له سلطاناً على عباد الله الذين يكونون من المخلصين . فبين تعالى فى هذه الآية أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين . بل من اتبع منهم

فنعول : تأثير زيادة المشقة إنما هو في كثرة الثواب على أحد التقديرين ، وفي الالقاء في العذاب الشديد على التقدير الثاني وهو التقدير الأكثر الأغلب ، وكل من يراعى المصالح ، فان رعاية هذا التقدير الثاني أولى عنده من رعاية التقدير الأول ، لأن دفع الضرر العظيم أولى من السعى في طلب النفع الزائد الذي لا حاجة إلى حصوله أصلا ، ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة ، وأما قوله المراد من قوله (رب بما أغويتني) الخيبة عن الرحمة أو الاضلال عن طريق الجنة فنقول : كل هذا بعيد ، لأنه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة وهو الذي أضل نفسه عن طريق الجنة ، لأنه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة ، وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى . فثبت أن الاشكالات لازمة وأن أجوبتهم ضعيفة . والله أعلم .

وأما قوله «إلإعبادك منهم المخلصين» ففيه مسائل :

«المسألة الأولى» اعلم أن إبليس استثنى المخلصين ، لأنه علم أن كيدته لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه ، وذكرت في مجلس التذكير أن الذي حمل إبليس على ذكر هذا الاستثناء أن لا يصير كاذباً في دعواه فلما احترز إبليس عن الكذب علمنا أن الكذب في غاية الخساسة .

«المسألة الثانية» قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام في كل القرآن ، والباقون بفتح اللام . وجه القراءة الأولى أنهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الايمان والتوحيد ، ومن فتح اللام فمعناه : الذين أخلصهم الله بالهداية والايمن ، والتوفيق ، والعصمة ، وهذه القراءة تدل على أن الاخلاص والايمن ليس إلامن الله تعالى .

«المسألة الثالثة» الاخلاص جعل الشيء خالصا عن شائبة الغير . فنقول : كل من أتى بعمل فاما أن يكون قد أتى به لله فقط . أو لغير الله فقط . أو لمجموع الأمرين ، وعلى هذا التقدير الثالث فاما أن يكون طلب رضوان الله راجحا أو مرجوحا أو معادلا ، والتقدير : الرابع أن يأتي به لالغرض أصلا وهذا محال ، لأن الفعل بدون الداعية محال .

«أما الأول» فهو الاخلاص في حق الله تعالى ، لأن الحامل له على ذلك الفعل طلب رضوان الله ، وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير ، فهذا هو الاخلاص .

«وأما الثاني» وهو الاخلاص في حق غير الله ، فظاهر أن هذا لا يكون إخلاصا في حق الله تعالى .

فان ذلك الكافر ، والمعاصي كان يأتي بذلك الكفر والمعصية . فلما كان الأمر كذلك . لا جرم أمهله هذه المدة .

﴿ الطريق الثاني ﴾ وهو طريق أبي هاشم أنه لا يبعد أن يقال : إنه تعالى علم أن أنواعا يقعون بسبب وسوسته في الكفر والمعصية ، إلا أن وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية . بل الكافر والمعاصي بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية ، أقصى ما في الباب أن يقال : الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها ، إلا أن على هذا التقدير تصير وسوسته سببا لزيادة المشقة في أداء الطاعات . وذلك لا يمنع الحكيم من فعله . كما أن إنزال المشاق وإنزال المتشابهات صار سببا لمزيد الشبهات ، ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكنا ههنا ، وهذان الطريقتان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثاني .

﴿ وأما السؤال الثالث ﴾ وهو أن إعلاؤه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصي والاكثر منها ، لجوابه أن هذا إنما يلزم إذا كان علم إبليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة في المعاصي . أما إذا علم الله تعالى من حاله أن ذلك لا يوجب التفاوت البتة ، فالسؤال زائل . وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع .

﴿ وأما السؤال الخامس ﴾ وهو أن إبليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين ، فقد أجابوا عنه بأنه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى : أحدها : المراد بما خيبتني من رحمتك لأخيبهم بالدعاء إلى معصيتك . وثانيها : المراد كما أضللتني عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضا عنه بالدعاء إلى المعصية . وثالثها : أن يكون المراد بالاغواء الأول الخيبة ، وبالتالي الاضلال . ورابعها : أن المراد باغواء الله تعالى إياه هو أنه أمره بالوجود لآدم فأفضى ذلك إلى غيه . يعني أنه حصل ذلك الغي عقبيه باختيار إبليس ، فاما أن يقال : إن ذلك الأمر صار موجبا لذاته لحصول ذلك الغي . فمعلوم أنه ليس الأمر كذلك . هذا جملة كلام القوم في هذا الباب وكله ضعيف . أما قوله إنه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة إبليس فنقول : هذا باطل ، ويدل عليه القرآن والبرهان ، أما القرآن فقوله تعالى (فأزلهما الشيطان) فأضاف تلك الزلة إلى الشيطان ، وقال (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فأضاف الاخراج اليه . وقال موسى عليه السلام (هذا من عمل الشيطان) وكل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان في تلك الأفعال أثرا . وأما البرهان فلأن بداية العقول شاهدة بأنه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه أبدا في القبائح . وينفره عن الخيرات . مثل شخص كان حاله بالضد منه . والعلم بهذا التفاوت ضروري . وأما قوله إن وجوده يصير سببا لزيادة المشقة في الطاعة

ومجتهدون في الضلال والاعواء ، فلو كان مراد الله تعالى هو الارشاد والهداية لكان من الواجب إبقاء المرشدين والمحققين وإعلاك المضلين والمغوين ، وحيث فعل بالضد منه ، علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر . الثالث : أنه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون الى يوم الدين كان ذلك اغراء له بالكفر والقيح ، لأنه أيس عن المغفرة والفوز بالجنة يجترى حينئذ على أنواع المعاصي والكفر . الرابع : أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل ، مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل إلا زيادة الكفر والمعصية ، وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لأنواع العذاب الشديد كان هذا الامهال سببا لمزيد عذابه ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعمقه . الخامس : أنه صرح بأن الله أغواه فقال (رب بما أغويتني) وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه لا يقال : هذا كلام إبليس وهوليس بحجة ، وأيضا فهو معارض بقول إبليس (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) فأضاف الاغواء الى نفسه ، لأنا نقول .

﴿ أما الجواب عن الأول ﴾ فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فان الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقا فيما قال .

﴿ وأما الجواب عن الثاني ﴾ فهو أنه قال في هذه الآية (رب بما أغويتني لأزينن لهم) فالمراد ههنا من قوله (لأزينن لهم) هو المراد من قوله في تلك الآية (لأغوينهم أجمعين) إلا أنه بين في هذه الآية أنه إنما أمكنه أن يزين لهم الأباطيل لأجل أن الله تعالى أغواه قبل ذلك ، وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص (هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا)

﴿ السؤال السادس ﴾ انه قال (رب بما أغويتني) وهذا اعتراف بأن الله تعالى أغواه فنقول : إما أن يقال : إنه كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه ، أو ما عرف ذلك ، فان كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه امتنع كونه غاويا لأنه إنما يعرف أن الله تعالى أغواه إذا عرف أن الذي هو عليه جهل وباطل . ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة ، وأما إن قلنا : بأنه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه أن يقول (رب بما أغويتني) فهذا مجموع السؤلات الواردة في هذه الآية .

﴿ أما الاشكال الأول ﴾ فللمعزلة فيه طريقان :

﴿ الطريق الأول ﴾ وهو طريق الجبائي أنه تعالى إنما أمهل إبليس تلك المدة الطويلة ، لأنه تعالى علم أنه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته ، فيتقدير أن لا يوجد إبليس ولا وسوسته

فان قيل : لما أجابه الله تعالى الى مطلوبه لزم أن لا يموت الى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضا ، فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية .

قلنا : يحمل قوله (إلى يوم يبعثون) الى ما يكون قريبا منه . والوقت الذي يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث . وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام الى الوجه الأول . وثالثها : أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه إلا الله تعالى ، وليس المراد منه يوم القيامة .

فان قيل : إنه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت ، لأن فيه إغراء بالمعاصي ، وذلك لا يجوز على الله تعالى .

أجيب عنه بأن هذا الالتزام إنما يتوجه إذا كان وقت قيام القيامة معلوما للمكلف . فأما إذا علم أنه تعالى أمهله إلى وقت قيام القيامة إلا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الإغراء بالمعاصي .

وأجيب عن هذا الجواب بأنه وإن لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعمين إلا أنه علم في الجملة أن من وقت خلقه آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة .

أما قوله تعالى ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ ففيه بحثان : **البحث الأول** الباء في (بما أغويتني) للقسم ومصدرية ، وجواب القسم لأزينن . والمعنى أقسم بأغوائك إياي لأزينن لهم ، ونظيره قوله تعالى (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) إلا أنه في ذلك الموضوع أقسم بعزة الله ، وهي من صفات الذات ، وفي قوله (بما أغويتني) أقسم باغواء الله وهو من صفات الأفعال . والفقهاء قالوا : القسم بصفات الذات صحيح ، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه ، ونقل الواحدى عن قوم آخرين أنهم قالوا : الباء ههنا بمعنى السبب ، أى بسبب كونى غاويا لأزينن كقول القائل ، أقسم فلان بمعصيته ليدخل النار ، وبطاعته ليدخل الجنة .

البحث الثانى اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يريد خاق الكفر فى الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه : الأول : أن إبليس استمهل وطلب البقاء الى قيام القيامة . مع أنه صرح بأنه إنما يطلب هذا الامهال والابقاء لاغواء نبي آدم وإضلالهم ، وأنه تعالى أمهله وأجابه الى هذا المطلوب ، ولو كان تعالى يراعى مصالح المكلفين فى الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل ، ولما مكثه من الاغواء والاضلال والوسوسة . الثانى : أن أكابر الأنبياء والأولياء مجددون ومجتهدون فى إرشاد الخلق الى الدين الحق . وأن إبليس ورهطه وشيعته مجددون

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ «٣٦» قَالَ فَانْكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ «٣٧» إِلَى
 يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ «٣٨» قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «٣٩» إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ «٤٠» قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
 مُسْتَقِيمٌ «٤١»

في كلامهم كقولهم (مادامت السموات والأرض) في التأبيد . والثاني : أنك مذموم مدعو عليك
 باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذاباً
 ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه .

قوله تعالى ﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم
 قال رب بما أغويتنى لأزوين لهم فى الأرض ولاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا
 صراط على مستقيم ﴾
 فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فأنظرنى) متعلق بما تقدم . والتقدير : إذا جعلتنى رجماً ملعوناً إلى
 يوم الدين ، فأنظرنى فطلب الابقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة إلى وقت قيام القيامة . لأن
 قوله (إلى يوم يبعثون) المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة ، وقوله (فانك من المنظرين
 إلى يوم الوقت المعلوم) اعلم أن إبليس استنظر إلى يوم البعث والقيامة ، وغرضه منه أن لا يموت
 لأنه اذا كان لا يموت قبل يوم القيامة ، وظاهره أن بعد قيام القيامة لا يموت أحد . فحينئذ يلزم منه
 أن لا يموت البتة . ثم إنه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت
 المعلوم) واختلفوا فى المراد منه على وجوه : أحدها : أن المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة
 الأولى حين يموت كل الخلاق ، وإنما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم ؟ لأن من المعلوم أن يموت
 كل الخلاق فيه . وقيل : إنما سماه الله تعالى بهذا الاسم ، لأن العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير
 كما قال تعالى (إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) وقال (إن الله عنده علم الساعة) وثانيها :
 أن المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذى ذكره إبليس وهو قوله (إلى يوم يبعثون) وإنما سماه
 تعالى بيوم الوقت المعلوم ؟ لأن إبليس لما عينه وأشار إليه بعينه صار ذلك كالمعلوم .

بعض المتكلمين : إنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله ، إلا أن هذا ضعيف ، لأن إبليس قال في الجواب (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال) فقوله (خلقته) خطاب الحضور لا خطاب الغيبة ، وظاهره يقتضى أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة وأن إبليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة ، وكيف يعقل هذا مع أن مكالمته الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب ، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم ، ولعل الجواب عنه أن مكالمته الله تعالى إنما تكون منصبا عاليا إذا كان على سبيل الاكرام والاعظام . فأما إذا كان على سبيل الإهانة والاذلال فلا . وقوله (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماً مسنون) فيه بحثان :

(البحث الأول) اللام في قوله (لأسجد) لتأكيد النفي ، ومعناه : لا يصح منى أن أسجد لبشر

(البحث الثاني) معنى هذا الكلام أن كونه بشرا يشعر بكونه جسما كشيئا وهو كان روحانيا

لطيفا ، فالتفرقة حاصلة بينهما في الحال من هذا الوجه . كأنه يقول : البشر جسماني كشيء له بشرة ، وأنا روحاني لطيف ، والجسماني الكشيف أدون حالا من الروحاني اللطيف ، والأدون كيف يكون مسجودا للأعلى ، وأيضا أن آدم مخلوق من صلصال تولد من حماً مسنون . فهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هو النار وهي أشرف العناصر ، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون إبليس أشرف من آدم ، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون . فالكلام الأول إشارة إلى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية ، وهو فرق حاصل في الحال والكلام الثاني إشارة إلى الفرق الحاصل بحسب العنصر والأصل ، فهذا مجموع شبهة إبليس وقوله تعالى (قال فاخرج منها فانك رجيم) فهذا ليس جوابا عن تلك الشبهة على سبيل التصريح ، ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه . وتقديره أن الذي قاله الله تعالى نص ، والذي قاله إبليس قياس . ومن عارض النص بالقياس كان رجيا ملعونا . وتمام الكلام في هذا المعنى ذكرناه مستقصى في سورة الأعراف ، وقوله (فاخرج منها) قيل المراد من جنة عدن ، وقيل من السموات ، وقيل من زمرة الملائكة ، وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره في سورة الأعراف وقوله (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله (مالك يوم الدين)

فان قيل : كلمة (إلى) تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل إلا إلى يوم القيامة ، وعند قيام القيامة يزول اللعن .

أجابوا عنه من وجوه : الأول : المراد منه التأييد ، وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس

قولان : الأول : فاذا سويت شكله بالصورة الانسانية والخلقة البشرية . والثاني : فاذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطباع وتناسب الأمشاج كما قال تعالى (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) وأما قوله ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ ففيه مباحث : الأول : أن النفخ اجراء الريح في تجاوزيف جسم آخر ، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح ، وإلا لما صح وصفها بالنفخ إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم إلى نفسه تشريفا له وتكريما . وقوله (فقعوا له ساجدين) فيه مباحث : أحدها : أن ذلك السجود كان لآدم في الحقيقة أو كان آدم كالقابلة لذلك السجود ، وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة . وثانيها : أن المسأورين بالسجود لآدم عليه السلام هم كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الأرض ، من الناس من لا يجوز أن يقال : إن أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام ، والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة (الأعراف) في صفة الملائكة (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) فقوله (وله يسجدون) يفيد الحصر ، وذلك يدل على أنهم لا يسجدون إلا لله تعالى وذلك ينافي كونهم ساجدين لآدم عليه السلام . أو لأحد غير الله تعالى أقصى ما في الباب أن يقال : إن قوله تعالى (فقعوا له ساجدين) يفيد العموم ، إلا أن الخاص مقدم على العام . وثالثها : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى كما نفخ الروح في آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له ، لأن قوله (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) مذکور بقاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي وقوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) قال الخليل وسيدويه قوله (كلهم أجمعون) توكيد بعد توكيد ، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال : لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم ، فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ، ثم بعد هذا بقي احتمال آخر . وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر فلما قال (أجمعون) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال : وقول الخليل وسيدويه أجود ، لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله (إلا إبليس) أجمعوا على أن إبليس كان مأمورا بالسجود لآدم ، واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا ؟ وقد سبقت هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة وقوله (أبي أن يكون مع الساجدين) استئناف وتقديره أن قائلا قال : هلا سجد فقيل : أبي ذلك واستكبر عنه أما قوله ﴿قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين﴾ فاعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله (قال يا إبليس) أي قال الله تعالى له يا إبليس وهذا يقتضى أنه تعالى تكلم معه ، فعند هذا قال

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ «٢٨»
فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ «٢٩» فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ
كُلُّهُمْ أَسْمَاءً «٣٠» إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ «٣١» قَالَ يَا إِبْلِيسُ
مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ «٣٢» قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ «٣٣» قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَانْكَرِمْ رَجِيمٌ «٣٤» وَإِنَّ عَلَيْكَ
اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ «٣٥»

قلنا : هذا على مذهبنا ظاهر ، لأن البنية عندنا ليست شرطا لامكان حصول الحياة ، فالتعالى قادر على خلق الحياة والعلم في الجوهر الفرد ، فكذلك يكون قادرا على خلق الحياة والعقل في الجسم الحار ، واستدل بعضهم على أن الكواكب تمتنع حصول الحياة فيها قال : لأن الشمس في غاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) بل المعتمد في نفي الحياة عن الكواكب الاجماع .

قوله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويتة ونفخت فيه من روجي فقعو له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾
اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الانسان الأول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا ابليس فانه أبى وتمرد ، وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) ما تفسير كونه بشرا ، فالمراد منه كونه جسما كشيئا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر ، والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالا من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره . وأما قوله (فاذا سويتة) فقيهه

صالحا ، وبين كونه حماً مسنوناً تفاوت ، وأما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعلة ، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن ، وقال أبو عبيدة والآخران حمأة بوزن كجأة وقوله (مسنون) فيه أقوال : الأول . قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله (مسنون) أى متغير قال أبو الهيثم يقال سن الماء ، فهو مسنون أى تغير . والدليل عليه قوله تعالى (لم يتسنه) أى لم يتغير . الثانى : المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سنت الحجر إذا حكته عليه ، والذي يخرج من بينهما يقال له السنن وسمى المسن مسناً لأن الحديد يسن عليه . والثالث : قال الزجاج : هذا اللفظ مأخوذ من أن موضوع على سنن الطريق لأنه متى كان كذلك فقد تغير . الرابع : قال أبو عبيدة : المسنون المصبوب ، والسن والصب يقال سن الماء على وجهه سناً . الخامس : قال سيبويه : المسنون المصور على صورة ومثال ، من سنة الوجه وهى صورته ، السادس : روى عن ابن عباس أنه قال : المسنون الطين الرطب ، وهذا يعود الى قول أبى عبيدة ، لأنه اذا كان رطباً يسيل وينبسط على الأرض ، فيكون مسنوناً بمعنى أنه مصبوب .

أما قوله تعالى ﴿والجان خلقناه﴾ فاختلّفوا فى أن الجان من هو ؟ فقال عطاء عن ابن عباس : يريد إبليس ، وهو قول الجسن ومقاتل وقتادة . وقال ابن عباس فى رواية أخرى : الجان هو أب الجن وهو قول الآخرى ، وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، كما سمي الجنين جنينا لهذا السبب ، والجنين متوار فى بطن أمه ، ومعنى الجان فى اللغة الساتر من قولك : جن الشيء اذا ستره ، فالجان المذكور ههنا يمتثل أنه سمي جانا لأنه يستر نفسه عن أعين بنى آدم ، أو يكون من باب الفاعل الذى يراد به المفعول ، كما يقال : فى لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية ، واختلّفوا فى الجن فقال بعضهم : إنهم جنس غير الشياطين : والأصح أن الشياطين قسم من الجن ، فكل من كان منهم مؤمناً فانه لا يسمى بالشيطان ، وكل من كان منهم كافراً يسمى بهذا الاسم ، والدليل على صحة ذلك : أن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، فكل من كان كذلك كان من الجن ، وقوله تعالى (خلقناه من قبل) قال ابن عباس : يريد من قبل خاق آدم ، وقوله (من نار السموم) معنى السموم فى اللغة : الريح الحارة تكون بالنهار وقد تكون بالليل ، وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها الفح وأوار ، على ما ورد فى الخبر أنها لفح جهنم . قيل : سميت سموماً لأنها بلطفها تدخل فى مسام البدن . وهى الخروق الخفية التى تكون فى جلد الانسان يبرز منها عرقه وبخار باطنه . قال ابن مسعود : هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التى خلق الله بها الجان وتلا هذه الآية .

فان قيل : كيف يعقل خلق الجان من النار ؟

﴿المسألة الثانية﴾ ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع الأول بوجود حوادث لأول لها ، وإذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث الى حادث أول هو أول الحوادث ، وإذا كان كذلك فلا بد من انتهاء الناس الى إنسان هو أول الناس ، وإذا كان كذلك فذلك الانسان الأول غير مخلوق من الأبوين فيكون مخلوقا لا محالة بقدره الله تعالى . فقوله (ولقد خلقنا الانسان) إشارة الى ذلك الانسان الأول . والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم عليه السلام . ونقل في كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف آدم أو أكثر وأقول : هذا لا يقدح في حدوث العالم بل الأمر كيف كان ، فلا بد من الانتهاء الى إنسان أول هو أول الناس . واما أن ذلك الانسان هو أبونا آدم . فلا طريق الى إثباته إلا من جهة السمع .

واعلم أن الجسم محدث ، فوجب القطع بأن آدم عليه السلام وغيره من الأجسام يكون مخلوقا عن عدم محض ، وأيضا دل قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) على أن آدم مخلوق من تراب ، ودلت آية أخرى على أنه مخلوق من الطين . وهى قوله (إني خالق بشر من طين) وجاء في هذه الآية أن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون ، والأقرب أنه تعالى خلقه أولا من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار ، ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أى جنس من الأجسام كان ، بل هو قادر على خلقه ابتداء . وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصالحهم ومصالحة الجن . لأن خلق الانسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى الصلصال قولان : قيل الصلصال الطين اليابس الذى يصلصل وهو غير مطبوخ ، وإذا طبخ فهو فخار . قالوا : إذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل . وإذا توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة . قال المفسرون : خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه فى الشمس أربعين سنة . فصار صلصالا كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به . ولم يروا شيئا من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح . وحقبة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الانسان فجفف فكانت الريح إذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالا .

﴿والقول الثانى﴾ الصلصال ذو المنتن من قولهم صل اللحم واصل إذا نتن وتغير ، وهذا القول عندى ضعيف . لأنه تعالى قال (من صلصال من حمأ مسنون) وكونه حمأ مسنونا يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على أن هذا الصلصال إنما تولد من الحمأ المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالا مغايراً لكونه حمأ مسنونا ، ولو كان كونه صلصالا عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَآءٍ مَسْنُونٍ «٢٦» وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ
مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ «٢٧»

المتخلفين عن طاعة الله . الثاني : أراد بالمستقدمين الصف الأول من أهل الصلاة ، وبالمستأخرين الصف الآخر ، روى أنه صلى الله عليه وسلم رغب في الصف الأول في الصلاة ، فزادهم الناس عليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والمعنى : أنا نجزيهم على قدر نياتهم . الثالث : قال الضحاك ومقاتل : يعنى في وصف القتال . الرابع : قال ابن عباس في رواية أبي الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوم يتقدمون إلى الصف الأول للثلايروها وآخرون يتخلفون ويتأخرون ليروها وإذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله تعالى هذه الآية . الخامس : قيل المستقدمون هم الأدوات . والمستأخرون هم الأحياء . وقيل المستقدمون هم الأمم السالفة ، والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال عكرمة : المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق .

واعلم أنه تعالى لما قال (وإنا لنحن نحيي ونميت) أتبعه بقوله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) تنبيها على أنه لا يخفى على الله شيء من أحوالهم . فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود . وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات . ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة .

وأما قوله ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ فالمراد منه التنبيه على أن الحشر والنشر والبعث والقيامة أمر واجب وقوله (إنه حكيم عليم) مومناه : أن الحكمة تقتضى وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة في أول سورة يونس عليه السلام .

قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون والجآن خلقناه من قبل من نار السموم ﴾

وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فانه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد فى الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب .

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ
وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ يُحْشِرُهُمْ إِنَّهٗ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

سقيا لكم وربما قالوا في أسقى سقى كقول لبيد يصف سحابا :

أقول و صوبه منى بعيد يحط السيب من قتل الجبال
سقى قومی بنی نجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال

فقوله : سقى قومی ليس يريد به ما يروى عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقيا لبلادهم يخصبون بها ، وبعيد أن يسأل لقومه ما يروى العطاش ولغيرهم ما يخصبون به ، وأما سقيا السقية فلا يقال فيها أسقاه ، وأما قول ذى الرمة :

وأسقيه حتى كاد مما أبنه تكلمنى أحجاره بملاعبه

فمضى أسقيه أدعوه بالسقاء ، وأقول سقاه الله وقوله (وما أتم له بخازنين) يعنى به ذلك الماء المنزل من السماء يعنى لستم له بحافظين .

قوله تعالى ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾

اعلم أن هذا هو النوع السادس من دلائل التوحيد وهو الاستدلال بحصول الأحياء والاماتة لهذه الحيوانات على وجود الاله القادر المختار .

أما قوله ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ ففيه قولان : منهم من حملة على القدر المشترك بين إحياء النبات والحيوان ومنهم من يقول : وصف النبات بالأحياء مجاز فوجب تخصيصه بأحياء الحيوان ولما ثبت بالدلائل العقلية أنه لا قدرة على خلق الحياة الا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلا قاطعا على وجود الاله الفاعل المختار ، وقوله ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ يفيد الحصر أى لا قدرة على الأحياء ولا على الاماتة إلا لنا ، وقوله ﴿ونحن الوارثون﴾ معناه : انه اذا مات جميع الخلائق ، فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده ، فكان هذا شبيها بالارث فكان وارثا من هذا الوجه .

وأما قوله ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ ففيه وجوه : الأول : قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء : المستقدمين يريد أهل طاعة الله تعالى والمستأخرين يريد

معناها النسبة وهو كما يقال : درهم وازن ، أى ذو وزن ، وراح وسائف ، أى ذو ربح وذو سيف قال الواحدى : هذا الجواب ليس بمغنٍ ، لأنه كان يجب أن يصح اللاحق . بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشيء ، لأن اللاحق هو المذنوب إلى اللقحة ، ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة إلى اللقحة فصح هذا الجواب والله أعلم .

﴿الوجه الثالث﴾ فى الجواب أن الريح فى نفسها لافح وتقريره بطريقتين :

﴿الطريق الأول﴾ أن الريح حاصلة للسحاب ، والدليل عليه قوله سبحانه (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا) أى حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة . بمعنى أنها حاملة تحمل السحاب والماء .

﴿والطريق الثانى﴾ قال الزجاج : يجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير ، كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بالخير ، وهذا كما تقول العرب : قد لقحت الحرب وقد نتجت ولدا أنكسد يشبهون ما تشتمل عليه من ضروب الشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد أن لم يكن متحركا لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيئا من لوازم ذاته ، والا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال ، فلم يبق إلا أن يقال : إنه يتحرك بتحرك الفاعل المختار ، والأحوال التى تذكرها الفلاسفة فى سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها فى هذا الكتاب مرارا فأبطلناها . وبيننا أنه لا يمكن أن يكون شىء منها سببا لحدوث الرياح ، فبقى أن يكون محركها هو الله سبحانه .

وأما قوله ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ ففيه مباحث : الأول : أن ماء المطر هل ينزل من السماء أو ينزل من ماء السحاب ؟ وبتقدير أن يقال إنه ينزل من السحاب كيف أطلق الله على السحاب لفظ السماء ؟ وثانها : أنه ليس السبب فى حدوث المطر ما يذكره الفلاسفة بل السبب فيه أن الفاعل المختار ينزله من السحاب إلى الأرض لغرض الاحسان إلى العباد كما قال ههنا (فأسقيناكموه) قال الأزهري : تقول العرب لكل ما كان فى بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى أسقيته . أى جعلته شربا له ، وجعلت له منها مسقى ، فإذا كانت السقيا لسقيه . قالوا سقاه ، ولم يقولوا أسقاه . والذى يؤكد هذا اختلاف القراء فى قوله (نسقيكم مما فى بطونه) فقرؤا باللغتين ، ولم يختلفوا فى قوله (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وفى قوله (والذى هو يطعمنى ويسقيني) قال أبو على : سقيته حتى روى وأسقيته نهرا ، أى جعلته شربا له وقوله (فأسقيناكموه) أى جعلناه

﴿المسألة الثانية﴾ تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية في إثبات أن المعدوم شيء قال لأن قوله تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) يقتضى أن يكون لجميع الأشياء خزائن ، وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى ، ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هي تلك الموجودات من حيث أنها موجودة ، لأننا بينا أن المراد من قوله تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم) الاحداث والابداع والانشاء والتكوين . وهذا يقتضى أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله مقدما على حدوثها ودخولها في الوجود ، وإذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى ، بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث أنها حقائق وماهيات ، ثم إنه تعالى أنزل بعضها أى أخرج بعضها من العدم الى الوجود .

ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله : لاشك أن لفظ الخزائن إنما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل ، فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرا على إيجاد تلك الأشياء وتكوينها وإخراجها من العدم الى الوجود ؟ وعلى هذا التقدير : يسقط الاستدلال ، والمباحث الدقيقة باقية ، والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وارسلنا الرياح لواقح﴾ فاعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في وصف الرياح بأنها لواقح . أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس : الرياح لواقح للشجر وللسحاب ، وهو قول الحسن وقادة والضحاك وأصل هذا من قولهم : لفتح الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى الماء فيها فحملت . فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب . قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية : يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء وتمجه في السحاب ، ثم إنه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير القاحها للسحاب ، وأما تفسير القاحها للشجر فما ذكره .

فان قيل : كيف قال (لواقح) وهي ملقحة ؟

والجواب : ما ذهب اليه أبو عبيدة أن (لواقح) ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وأنشد لسهيل يرثى أخاه :

ليبك يزيد يائس ذو ضراعة وأشعث مما طوحته الطوامح

أراد المطوحات ، وقرر ابن الأنباري ذلك فقال : تقول العرب أبقل النبات فهو بأقل يريدون فهو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح ، عبارة عن ملقح .

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب قال الزجاج : يجوز أن يقال لها لواقح وان ألحقت غيرها لأن

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى رحمه الله : الخزان جمع الخزانة ، وهى اسم المكان الذى يخزن فيه الشئ أى يحفظ والخزانة أيضا عمل الخازن ، ويقال : خزن الشئ يخزنه اذا أحرزه فى خزانة ، وعامة المفسرين على أن المراد بقوله (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه) هو المطر ، وذلك لأنه هو السبب للأرزاق والمعاش بنى آدم وغيرهم من الطيور والوحوش ، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعاش بين أن خزائن المطر الذى هو سبب المعاش عنده ، أى فى أمره وحكمه وتدبيره ، وقوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) قال ابن عباس رحمهما الله : يريد قدر الكفاية . وقال الحكم : ما من عام بأكثر مطرا من عام آخر ، ولكنه يطر قوم ويحرم قوم آخرون ، وربما كان فى البحر ، يعنى أن الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم ، غير أنه يصرفه الى من يشاء حيث شاء كما شاء .

ولقائل أن يقول : لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى ، فان قوله تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم) لا يدل على أنه تعالى ينزله فى جميع الأعوام على قدر واحد ، وإذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكما من غير دليل . وأقول أيضا : تخصيص قوله تعالى (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه) بالمطر تحكم محض ، لأن قوله (وإن من شئ) يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل ، وهو الموجود القديم الواجب لذاته ، وقوله (إلا عندنا خزائنه) إشارة الى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى . وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له ، ومملوكة يخرجها من العدم الى الوجود كيف شاء إلا أنه تعالى وإن كانت مقدوراته غير متناهية إلا أن الذى يخرجها منها الى الوجود يجب أن يكون متناهيا لأن دخول ما لا نهاية له فى الوجود محال فقوله (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه) إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية وقوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) إشارة الى أن كل ما يدخل منها فى الوجود فهو متناه . ومتى كان الخارج منها الى الوجود متناهيا كان لا محالة مختصا فى الحدوث بوقت دقتر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلا عنه ، وكان مختصا بحين معين مع جواز حصوله فى سائر الأحياء بدلا عن ذلك الحين ، وكان مختصا بصفات معينة ، مع أنه كان يجوز فى العقل حصول سائر الصفات بدلا عن تلك الصفات ، وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين ، والصفات المعينة بدلا عن أصدادها لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر ، وهذا هو المراد من قوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) والمعنى : أنه لولا القادر المختار الذى خصص تلك الأشياء بتلك الأحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة ، والمراد من الانزال الاحداث والانشاء والابداع كقوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وقوله (وأنزلنا الحديد) والله أعلم .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ «٢١» وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقِينَا كُمُوهَ وَمَا نَمُوتُ لَهُ بِخَازِنِينَ «٢٢»

قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) والثاني: أنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله حيث قال (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها) فكأنها عند الحاجة تطالب أرزاقها من خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة، فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل، ألا ترى أنه قال (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) فذكرها بصيغة جمع العقلاء، وقال في الأصنام (فانهم عدوى) وقال (كل في فلك يسبحون) فكذا ههنا لا يبعد إطلاق اللفظة المختصة بالعقلاء على الوحش والطيور لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت في بعض الحكايات أنه قلت للمياه في الأودية والجبال واشتد الحر في عام من الأعوام فحكى عن بعضهم أنه رأى بعض الوحش رافعا رأسه إلى السماء عند اشتداد عطشه قال: فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت بحيث امتلأت الأودية منها.

﴿والاجتمالك الثالث﴾ أنا نحمل قوله (ومن لستم له برازقين) على الاماء والعبيد، وعلى الوحش والطيور. وإنما أطلق عليها صيغة من تغلبا لجانب العقلاء على غيرهم.

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (ومن لستم له برازقين) لا يجوز أن يكون مجرورا عطفا على الضمير المجرور في لكم، لأنه لا يعطف على الضمير المجرور، لا يقال أخذت منك وزيد إلا باعادة الخافض كقوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) واعلم أن هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ (تساءلون به والأرحام) بالخفض وقد ذكرنا هذه المسألة هنالك. والله أعلم.

قوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما نمن لكم إلا بقدر معلوم﴾ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما نمن لكم إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح اعلم أنه تعالى لما بين أنه أنبت في الأرض كل شيء موزون وجعل فيها معاش أتبعه بذكر ما هو كالسبب لذلك فقال (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) وهذا هو النوع الرابع ﴿من الدلائل المذكورة في هذه السورة على تقرير التوحيد، وفي الآية مسائل:

ومن الماء والهواء كذلك ، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص ، ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص ، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فآله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع .

﴿والوجه الثالث﴾ في تفسير هذا اللفظ أن أهل العرف يقولون : فلان موزون الحركات أي حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة ، وهذا الكلام كلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا عن اللغو والسخف فكان المراد منه أنه موزون بميزان الحكمة والعقل وبالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب ، فقوله (وأثبتنا فيها من كل شيء موزون) أي متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة .

﴿والوجه الرابع﴾ في تفسير هذا اللفظ أن الشيء الذي ينبت من الأرض نوعان : المعادن والنبات : أما المعادن فهي بأسرها موزونة وهي الأجساد السبعة والأحجار والأملاح والزجاج وغيرها . وأما النبات فيرجع عاقبتها الى الوزن ، لأن الجيوب توزن ، وكذلك الفواكه في الأكثر والله أعلم . وقوله تعالى (وجعلنا لكم فيها معاش) فيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكرنا الكلام في المعاش في سورة الاعراف وقوله (ومن لستم له برازقين) فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أنه معطوف على محل لكم ، والتقدير : وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين .

﴿والقول الثاني﴾ أنه عطوف على قوله (معاش) والتقدير : وجعلنا لكم معاش ومن لستم له برازقين ، وعلى هذا القول فقيه احتمالات ثلاثة :

﴿الاحتمال الأول﴾ أن كلمة «من» مختصة بالعقلاء فوجب أن يكون المراد من قوله (ومن لستم له برازقين) العقلاء وهم العيال والمالِك والخدم والعبيد ، وتقرير الكلام أن الناس يطنون في أكثر الأمر أنهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد ، وذلك خطأ فان الله هو الرزاق يرزق الخادم والمخدوم ، والمملوك والمالك فانه لولا أنه تعالى خالق الأطعمة والأشربة . وأعطى القوة الغذائية والهاضمة ، وإلا لم يحصل لأحد رزق .

﴿والاحتمال الثاني﴾ وهو قول الكلبى قال : المراد بقوله (ومن لستم له برازقين) الوحش والطيور

فان قيل : كيف يصح هذا التأويل مع أن صيغة من مختصة بمن يعقل ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين : الأول : أن صيغة من قد وردت في غير العقلاء ، والدليل عليه

في الأرض رواسى أن تميد بكم) وفي تفسيره وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ قال ابن عباس : لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها .

فان قيل : أتقولون إنه تعالى خلق الأرض بدون الجبال فمالت بأهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك أو تقولون إن الله خلق الأرض والجبال معا .
قلنا : كلا الوجهين محتمل .

﴿والوجه الثاني﴾ في تفسير قوله (وألقينا فيها رواسى) يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال .

﴿النوع الثالث﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (وأنبئنا فيها من كل شيء موزون) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أن الضمير في قوله (وأنبئنا فيها) يشمل أن يكون راجعا إلى الأرض وأن يكون راجعا إلى الجبال الرواسى ، إلا أن رجوعه إلى الأرض أولى لأن أنواع النبات المنتفع بها إنما تتولد في الأراضى ، فأما الفواكة الجبلية فقليلة النفع ، ومنهم من قال : رجوع ذلك الضمير إلى الجبال أولى ، لأن المعادن إنما تتولد في الجبال ، والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات .

﴿البحث الثاني﴾ اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة . قال القاضى : وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى يعلم المقدار الذى يحتاج اليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى فى الأرض ذلك المقدار ، ولذلك أتبعه بقوله (وجعلنا لكم فيها معاش) لأن ذلك الرزق الذى يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين : الأول : بحسب الأكل والانفعا بعينه . والثانى : أن ينتفع بالتجارة فيه . والقائلون بهذا القول قالوا : الوزن إنما يراد لمعرفة المقدار فكان اطلاق لفظ الوزن لأرادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على المسبب قالوا : ويتأكد ذلك أيضا بقوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وقوله (وإن من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم)

﴿والوجه الثاني﴾ فى تفسير هذا اللفظ أن هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم ، فلا بد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ «١٩»
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ «٢٠»

عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ، ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق ، وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيوب معجزا وبهذا الطريق يندفع الدور . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين﴾
اعلم أنه تعالى لما شرح الدلائل السماوية في تقرير التوحيد . أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، وهي أنواع :

﴿النوع الأول﴾ قوله تعالى (والأرض مددناها) قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء ، وفيه احتمال آخر ، وذلك لأن الأرض جسم ، والجسم هو الذي يكون تمتدا في الجهات الثلاثة ، وهي الطول والعرض والثنخ ، وإذا كان كذلك ، فتمدد جسم الأرض في هذه الجهات الثلاثة مختص بمقدار معين لما ثبت أن كل جسم فانه يجب أن يكون متناهيا . وإذا كان كذلك كان تمدد جسم الأرض مختصا بمقدار معين مع أن الازدياد عليه معقول ، والانتقاص عنه أيضا معقول ، وإذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الأزيد والأنقص اختصاصا بأمر جائز . وذلك يجب أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر ، وهو الله سبحانه وتعالى .

فان قيل : هل يدل قوله (والأرض مددناها) على أنها بسيطة ؟

قلنا : نعم لأن الأرض بتقدير كونها كرة ، فهي كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها ، اذا نظر اليها . فانها ترى كالسطح المستوي ، واذا كان كذلك زال ما ذكره من الاشكال ، والدليل عليه قوله تعالى (والجبال أوتادا) سهاها أوتادا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية ، فكذا ههنا .

﴿النوع الثاني﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (وألقينا فيها رواسي) وهي الجبال الثابت ، واحدها راسي ، والجمع راسية ، وجمع الجمع رواسي ، وهو كقوله تعالى (وألقى

يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول : معنى الرجم في اللغة الرمي بالحجارة . ثم قيل للقتل رجم تشبيهاً له بالرجم بالحجارة ، والرجم أيضاً السب والشتم لأنه رمى بالقول القبيح ومنه قوله (لأرجمنك) أي لأسبئك ، والرجم اسم لكل ما يرمى به ، ومنه قوله (وجعلناهما رجوما للشياطين) أي مراعى لهم ، والرجم القول بالظن ، ومنه قوله (رجما بالغيب) لأنه يرميه بذلك الظن والرجم أيضاً اللعن والطرده ، وقوله الشيطان الرجم ، قد فسروه بكل هذه الوجوه . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت الشياطين لا تحجب عن السموات ، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها الى الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رمى بشهاب . وقوله (إلا من استرق السمع) لا يمكن حمل لفظة (إلا) ههنا على الاستثناء ، بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم إلا أنهم ممنوعون من دخولها ، وإنما يحاولون القرب منها ، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق . فوجب أن يكون معناه : لكن من استرق السمع . قال الزجاج : موضع (من) نصب على هذا التقدير . قال : وجاز أن يكون في موضع خفض ، والتقدير : إلا من . قال ابن عباس : في قوله (إلا من استرق السمع) يريد الخطفة اليسيرة ، وذلك لأن المارد من الشياطين يعملو فيرمى بالشهاب فيجرقه ولا يقتله ، ومنهم من يحيله فيصير غولا يضل الناس في البراري . وقوله (فاتبعه) ذكرنا معناه في سورة الأعراف في قصة بلعم بن باعوراني قوله (فاتبعه الشيطان) معناه لحقه ، والشهاب شعلة نار ساطع ، ثم يسمى الكواكب شهابا ، والسنان شهابا لأجل أنهما لما فيهما من البريق يشبهان النار .

واعلم أن في هذا الموضع أبحاثا دقيقة ذكرناها في سورة الملك وفي سورة الجن ، ونذكر منها ههنا إشكالا واحدا ، وهو أن لقائل أن يقول : إذا جوزتم في الجملة أن يصعد الشيطان الى السموات ويختلط بالملائكة ويسمع أخبار الغيوب عنهم ، ثم إنها تنزل وتلقى تلك الغيوب على الكهنة فعلى هذا التقدير وجب أن يخرج الأخبار عن المغيبات عن كونه معجزا لأن كل غيب يخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق . لا يقال إن الله تعالى أخبر أنهم معجزوا عن ذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم لأننا نقول هذا العجز لا يمكن إثباته إلا بعد القطع بكون محمد رسولا وكون القرآن حقا ، والقطع بهذا لا يمكن إلا بواسطة المعجز ، وكون الاخبار عن الغيب معجزا لا يثبت إلا بعد إبطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال ، ويمكن أن يجاب عنه بأن ثبت كون محمد صلى الله

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَاتٍ لِّلنَّاظِرِينَ «١٦» وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ «١٧» إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَّبِينٌ «١٨»

هذا الذي يرى أنه محمد بن عبدالله ليس هو ذلك الرجل وإنما هو شيطان ، ولعل هذه المعجزات التي نشاهدها ليس لها حقائق ، بل هي تكون من باب الآراء الباطلة من ذلك الساحر ، وإذا حصل هذا التجويز بطل الكل . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكري النبوة ، وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد . ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية ، ومنها أرضية ، بدأ منها بذكر الدلائل السماوية ، فقال (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين) قال الليث : البرج واحد من بروج الفلك ، والبروج جمع وهي اثنا عشر برجا . ونظيره قوله تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا) وقال (والسماء ذات البروج) ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار ، هو أن طبائع هذه البروج مختلفة على هو متفق عليه بين أرباب الأحكام ، وإذا كان الأمر كذلك فالفلك مركب من هذه الأجزاء المختلفة في الماهية والأبعاد المختلفة في الحقيقة ، وكل مركب فلا بد له من مركب يركب تلك الأجزاء والأبعاد بحسب الاختيار والحكمة . فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار ، وهو المطلوب ، وأما قوله (وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك في تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) فلا نعيد ههنا إلا القدر الذي لا بد منه قوله (وزيناها) أي بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) أي للبعثرين بها والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله (وحفظناها من كل شيطان رجيم)

فان قيل : ماعنى وحفظناها من كل شيطان رجيم ، والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأى حاجة إلى حفظ السماء منه .

قلنا : لما منعه من القرب منها ، فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان . فحفظ الله السماء مهم كما قد

﴿القول الأول﴾ أن قوله (فظلوا فيه يعرجون) من صفة المشركين . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج وينظرون الى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، والى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا فى تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله .

﴿القول الثانى﴾ أن هذا العروج للملائكة ، والمعنى : أنه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا أبوابا من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرخوا ذلك عن وجهه . ولقالوا : إن السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الاباطيل التى لاحقيقة لها وقوله (لقالوا إنما سكرت أبصارنا) فيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير (سكرت) بالتخفيف ، والباقون مشددة الكاف قال الواحدى سكرت غشيت وسددت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا : وأصله من السكر وهو سد الشق لثلا ينفجر الماء ، فكأن هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجرى . والتشديد يوجب زيادة وتكثيرا وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مأخوذ من سكر الشراب يعنى أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فاذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد أخرى . وقال أبو عبيدة (سكرت أبصارنا) أى غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها ، وعلى هذا القول أصله من السكون يقال : سكرت الريح سكرًا إذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لاريح فيها وقال أوس :

جدلت على ليلة ساهرة فليست بطلق ولا ساكرة

ويقال : سكرت عينه سكرًا إذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى : سكرت أبصارنا. أى سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج . وقال أبو على الفارسى : سكرت صارت بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها ، وكان معنى السكر قطع الشيء عن سننه الجارى ، فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه فى الجرىة ، والسكر فى الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء فى حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه فى الصحو ، فهذه أقوال أربعة فى تفسير (سكرت) وهى فى الحقيقة متقاربة . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الجبائى : من جوز قدرة السحرة على أن يأخذوا بأعين الناس حتى يروهم الشيء على خلاف ما هو عليه لم يصح إيمانه بالأنبياء والرسل ، وذلك لأنهم اذا جوزوا ذلك فلعل

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

مضت سنة الله في الأولين بأن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم . وهذا أليق بظاهر اللفظ .

قوله تعالى ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا

بل نحن قوم مسحورون﴾

اعلم أن هذا الكلام هو المذكور في سورة الأنعام في قوله (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس
فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) والحاصل : أن القوم لما طلبوا نزول
ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام في كونه رسولا من عند الله تعالى بين الله تعالى
في هذه الآية أن بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين
يظن أنا نراهم فنحن في الحقيقة لانراهم . والحاصل : أنه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة في نزول الملائكة
فلهذا السبب ما أنزلهم .

فان قيل : كيف يجوز من الجماعة العظيمة أن يصيروا شاكين في وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة
في النهار الواضح ، ولو جاز حصول الشك في ذلك كانت السفسطة لازمة ، ولا يبقى حينئذ اعتماد
على الحس والمشاهدة .

أجاب القاضى عنه : بأنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون ، وإنما وصفهم بأنهم يقولون
هذا القول . وقد يجوز أن يقدم الانسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة ، ثم سأل نفسه
وقال : أفيصح من الجمع العظيم أن يظهروا الشك في المشاهدات . وأجاب بأنه يصح ذلك إذا جمعهم
عليه غرض صحيح معتبر من مواطاة على دفع حجة أو غلبة خصم ، وأيضا فهذه الحكاية
إنما وقعت عن قوم مخصوصين ، سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم إنزال الملائكة ، وهذا
السؤال ما كان إلا من رؤساء القوم ، وكانوا قليلي العدد ، وإقدام العدد القليل على ما يجرى
بجرى المكابرة جائز .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (فظلوا فيه يعرجون) يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا إذا فعله
بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل إلا اكل عمل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل ،
والمصدر الظلول ، وقوله (فيه يعرجون) يقال : عرج يعرج عروجا ، ومنه المعارج ، وهى المصاعد
التي يصعد فيها ، وللمفسرين فى هذه الآية قولان :

لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب . فلما كان كل أحد لا يقصد إلا الايمان والحق ثم إنه لا يحصل ذلك . وإنما يحصل الكفر والباطل ، علمنا أن حصول ذلك الكفر ليس منه .

فان قالوا : إنما حصل ذلك الكفر لأنه ظن أنه هو الايمان . فنقول : فعلى هذا التقدير إنما رضى بتحصيل ذلك الجهل لأجل جهل آخر سابق عليه فينقل الكلام إلى ذلك الجهل السابق فان كان ذلك لأجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال ، وإلا وجب انتهاء كل الجهالات إلى جهل أول سابق حصل في قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى ، وذلك هو الذى قلناه : أن المراد من قوله (كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون) والمعنى : نجعل فى قلوبهم أن لا يؤمنوا به . وهو أنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها . وأيضاً قدماء المفسرين مثل : ابن عباس وتلامذته أطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها . والتأويل الذى ذكره المعتزلة تأويل مستحدث لم يقل به أحد من المتقدمين ، فكان مردوداً ، وروى القاضى عن عكرمة أن المراد كذلك نسلك القسوة فى قلوب المجرمين ، ثم قال القاضى : إن القسوة لا تحصل إلا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره ويعاند ، فلا يصح اضافته إلى الله تعالى ، فيقال للقاضى : إن هذا يجرى مجرى المكابرة ، وذلك لأن الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى أنه كلما رآه تغير لونه واصفر وجهه ، وربما ارتعدت أعضاؤه ولا يقدر على الالتفات إليه والاصغاء لقوله . فحصول هذه الأحوال فى قلبه أمر اضطرارى لا يمكنه دفعها عن نفسه ، فكيف يقال : إنها حصلت بفعله واختياره ؟

فان قالوا : إنه يمكنه ترك هذه الأحوال . والرجوع إلى الانقياد والقبول . فنقول هذا مغالطة محضة ، لأنك إن أردت أنه مع حصول هذه النفرة الشديدة فى القلب ، والنبوة العظيمة فى النفس يمكنه أن يعود إلى الانقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة . وإن أردت أن عند زوال هذه الأحوال النفسانية يمكنه العود إلى القبول والتسليم فهذا حق ، إلا أنه لا يمكنه إزالة هذه الدواعى والصوارف عن القلب فانه ان كان الفاعل لها هو الانسان لا فتقر فى تحصيل هذه الدواعى والصوارف إلى دواعى سابقة عليها ولزم الذهاب إلى مالا نهاية له وذلك محال ، وان كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح انه تعالى هو الذى يسلك هذه الدواعى والصوارف فى القلوب وذلك عين ما ذكرناه والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ ففيه قولان : الأول : أنه تهديد لكفار مكة بقول قد مضت سنة الله باهلاك من كذب الرسل فى القرون الماضية . الثانى : وهو قول الزجاج : وقد

لم يلتفت اليه ولم يؤمن به ، فصار فعل الله تعالى كاهدر الضائع ، وصار الكافر والشيطان كالعالم الدافع ، وإذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة في قوله (نسلكه) غير لائق بهذا المقام ، فثبت بهذا التأويل الذي ذكره فاسد .

﴿ والوجه الثاني ﴾ أنه لو كان المراد ما ذكره لوجب أن يقال (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) ولا يؤمنون به ، أى ومع هذا السعى العظيم في تحصيل إيمانهم لا يؤمنون . أمالم يذكر الواو فعلنا أن قوله (لا يؤمنون به) كالتفسير ، والبيان لقوله (نسلكه في قلوب المجرمين) وهذا إنما يصح إذا كان المراد أنا نسلك الكفر والضلال في قلوبهم .

﴿ والوجه الثالث ﴾ أن قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) بعيد ، وقوله (يستهنون) قريب ، وعود الضمير إلى أقرب المذكورات هو الواجب . أما قوله : لو كان الضمير في قوله (نسلكه) عائداً الى الاستهزاء لكان في قوله (لا يؤمنون به) عائداً اليه ، وحينئذ يلزم التناقض . قلنا : الجواب عنه من وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أن مقتضى الدليل عود الضمير الى أقرب المذكورات . ولا مانع من اعتبار هذا الدليل في الضمير الأول وحصل المانع من اعتباره في الضمير الثاني فلا جرم قلنا : الضمير الأول عائداً الى الاستهزاء ، والضمير الثاني عائداً الى الذكر ، وتفريق الضمائر المتعاقبة على الأشياء المختلفة ليس بقليل في القرآن ، أليس أن الجبائي والكعبي والقاضي قالوا في قوله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً أثرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاهاما صالحاً جعلنا له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون) فقالوا هذه الضمائر من أول الآية إلى قوله (جعلنا له شركاء) عائداً إلى آدم وحواء ، وأما في قوله (جعلنا له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون) عائداً إلى غيرهما ، فهذا ما اتفقوا عليه في تفاسيرهم ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لا يلزم من تعاقب الضمائر عودها إلى شيء واحد بل الأمر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا والله أعلم .

﴿ والوجه الثاني ﴾ في الجواب قال بعض الأدباء من أصحابنا قوله (لا يؤمنون به) تفسير للكناية في قوله (نسلكه) والتقدير: كذلك نسلك في قلوب المجرمين أن لا يؤمنوا به . والمعنى نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به .

﴿ والوجه الثالث ﴾ وهو أننا بينا بالبراهين العقلية القاهرة أن حصول الإيمان والكفر يمتنع أن يكون بالعبد ، وذلك لأن كل أحد إنما يريد الإيمان والصدق . والعلم والحق ، وأن أحداً

ثبت صحة قولنا المراد من قوله (كذلك نسلك في قلوب المجرمين) هو أنه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسوله في قلوب المجرمين . لانا نقول : إن كان الضمير في قوله (كذلك نسلك) عائداً الى الاستهزاء . فوجب أن يكون الضمير في قوله (لا يؤمنون به) عائداً أيضاً الى الاستهزاء . لأنهما ضميران متعاقبان وتلاصقا . فوجب عودهما الى شيء واحد . فوجب أن لا يكونا ضميرين بل ضمير واحد . فوجب التناقض ، لأن الكافر لا بد وأن يكون مؤمناً بكفره . والذي لا يكون كذلك هو المسلم العالم ببطلان الكفر فلا يصدق به ، وأيضا فلو كان تعالى هو الذي يسلك الكفر في قلب الكافر ويخلق فيه فما أحد أولى بالعدر من هؤلاء الكفار . ولكان على هذا التقدير يمنع أن يذمهم في الدنيا وأن يعاقبهم في الآخرة عليه . ثبت أنه لا يمكن حمل هذه الآية على هذا الوجه . فنقول : التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى (كذلك نسلك) عائداً الى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل هذه الآية (إنا نحن نزلنا الذكر) وقال بعده (كذلك نسلك) أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين ، والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم واصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عنادا وجهلا . فكان هذا موجبا للحق الذم الشديد بهم . ويدل على صحة هذا التأويل وجهان : الأول : أن الضمير في قوله (لا يؤمنون به) عائداً الى القرآن بالاجماع فوجب أن يكون الضمير في قوله (كذلك نسلك) عائداً اليه أيضاً لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شيء واحد . والثاني : أن قوله (كذلك) معناه : مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيهاً لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من أعمال نفسه . ولم يجز لعمل من أعمال الله ذكر في سابقة هذه الآية إلا قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) فوجب أن يكون هذا معطوفاً عليه ومشبهاً به ، ومتى كان الأمر كذلك كان الضمير في قوله (نسلك) عائداً إلى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم .

والجواب : لا يجوز أن يكون الضمير في قوله (نسلك) عائداً على الذكر . ويدل عليه وجود :

(الوجه الأول) أن قوله (كذلك نسلك) مذكور بحرف النون ، والمراد منه إظهار نهاية التعظيم والجلالة . ومثل هذا التعظيم إنما يحسن ذكره إذا فعل فعلا يظهر له أثر قوى كامل بحيث صار المنازع والمدافع له مغلوباً مقهوراً . فأما إذا فعل فعلا ولم يظهر له أثر البتة . صار المنازع والمدافع غالباً قاهراً . فان ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحا في هذا المقام . والأمر ههنا كذلك لأنه تعالى سلك أسماء القرآن وتحفيظه وتعليمه في قلب الكافر لأجل أن يؤمن به ، ثم إنه

أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء هكذا كانت . ولك أسوة في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجمع الأنبياء عليهم السلام ، فهذا هو الكلام في نظم الآية وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية محذوف والتقدير: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا . إلا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه . وقوله (في شيع الأولين) أي في أمم الأولين واتباعهم . قال الفراء الشيع الأتباع واحدهم شيعة . وشيعة الرجل أتباعه . والشيععة الأمة سموا بذلك ، لأن بعضهم شايح بعضا وشاكلة . وذكرنا الكلام في هذا الحرف عند قوله (أو يلبسكم شيعا) قال الفراء : وقوله (في شيع الأولين) من إضافة الصفة إلى الموسوف كقوله (حق اليقين) وقوله (بجانب الغربي) وقوله (وذلك دين القيمة) أما قوله (وما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن) أي عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكره تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن السبب الذي يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور . الأول : أنهم يستقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات . والثاني : أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة ، وذلك شاق شديد على الطباع . والثالث : أن الرسول متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم طاعته وخدمته . وذلك أيضا في غاية المشقة . والرابع : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون فقيرا ولا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة . والخامس : خذلان الله لهم والقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم ، وهذا هو السبب الأصلي ؛ فلهذه الأسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الأنبياء عليهم السلام في هذه الأعمال القبيحة والأفعال المنكرة أما قوله تعالى ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في الخيط والرمح في المطعون ، وقيل : في قوله (ما سلكتكم في سقر) أي أدخلكم في جهنم . وذكر أبو عبيدة وأبو عبيد : سلكته وأسلكته بمعنى واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار ، فقالوا قوله (كذلك نسلكه) أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين . قالت المعتزلة : لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ ، فلا يمكن أن يكون الضمير عائدا إليه لا يقال : إنه تعالى قال (وما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن) وقوله (يستهزؤن) يدل على الاستهزاء ، فالضمير في قوله (كذلك نسلكه) عائده ، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال ،

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ «١٠» وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ «١١» كَذَلِكَ نَسْلُكُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ «١٢» لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ «١٣»

وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته ، وقال آخرون : أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده
 بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف ، وقال آخرون
 المراد بالحفظ هو أن أحدا لو حاول تغييره بجرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا : هذا كذب وتغيير
 لكلام الله تعالى حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى
 لقال له كل الصبيان : أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا ، فهذا هو المراد من قوله
 (واناله لحافظون)

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ ، فانه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف
 والتحريف والتغيير . إما في الكثير منه أو في القليل ، وبقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات
 التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات
 وأيضاً أخبر الله تعالى عن بقاءه محفوظاً عن التغيير والتحريف ، وانقضى الآن قريباً من ستمائة سنة
 فكان هذا إخباراً عن الغيب . فكان ذلك أيضاً معجزاً قاهراً .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج القاضى بقوله (إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) على فساد قول
 بعض الامامية في أن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال : لأنه لو كان الأمر كذلك لما
 بقى القرآن محفوظاً ، وهذا الاستدلال ضعيف ، لأنه يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه ، فالامامية الذين
 يقولون إن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان ، لعلمهم بقولون إن هذه الآية من جملة الزوائد
 التي ألحقت بالقرآن ، فثبت أن إثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجري مجرى إثبات الشيء نفسه وأنه
 باطل والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾
 كذلك نسلك في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين
 اعلم أن القوم لما أساؤا في الأدب وخاطبوه بالسماهة وقالوا : انك لمجنون ، فالتة تعالى ذكر

ثم قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أن القوم إنما قالوا (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) لاجل أنهم سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول «إن الله تعالى نزل الذكر على» ثم إنه تعالى حقق قوله في هذه الآية فقال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

فأما قوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ فهذه الصيغة وإن كانت للجمع إلا أن هذا من كلام الملوك عند إظهار التعظيم فإن الواحد منهم إذا فعل فعلاً أو قال قولاً قال : إنا فعلنا كذا وقلنا كذا فكذا ههنا .

﴿المسألة الثانية﴾ الضمير في قوله (له لحافظون) إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ إنه عائد إلى الذكر يعنى : وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان ، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وقال : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)

فإن قيل : فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله فلا خوف عليه .

والجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه فانه تعالى لما أن حفظه قيصهم لذلك قال أصحابنا : وفي هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية من أول كل سورة لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن ، والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصوناً من الزيادة والنقصان ، فلم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصوناً عن التغيير ، ولما كان محفوظاً عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضاً أن يظن بهم النقصان ، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة .

﴿والقول الثاني﴾ أن الكناية في قوله (له) راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى وإنا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء ، وقوى ابن الأنباري هذا القول فقال : لما ذكر الله الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه ، لكونه أمراً معلوماً كما في قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) فإن هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا ، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهاً لظاهر التنزيل والله أعلم

﴿المسألة الثالثة﴾ إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن قال بعضهم : حفظه بأن جعله معجراً مابيننا لكلام البشر فمعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن فصار كونه معجزاً كحاطة السور بالمدينة لأنه يحصنها ويحفظها ، وقال آخرون : إنه تعالى صانه

الموعود ، وهذا هو المراد بقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاهم العذاب) ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله (مانزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) فنقول : إن كان المراد من قولهم (لو ماتنا بتينا بالملائكة) هو الوجه الأول ، كان تقرير هذا الجواب أن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وعند حصول الفائدة ، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم ، وعلى هذا التقرير : فيصير إنزالهم عبثا باطلا ، ولا يكون حقا ، فلهذا السبب ما أنزلهم الله تعالى . وقال المفسرون : المراد بالحق ههنا الموت ، والمعنى : أنهم لا ينزلون إلا بالموت ، وإلا بعذاب الاستئصال ، ولم يبق بعد نزولهم انظار ولا إمهال ، ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة ، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة . وأما إن كان المراد من قوله تعالى (لو ماتنا بتينا بالملائكة) استعجالهم في نزول العذاب الذي كان الرسول عليه السلام يتوعدهم به ، فتقرير الجواب أن الملائكة لا تنزل إلا بعذاب الاستئصال ، وحكمنا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نفعل بهم ذلك ، وأن نهم لهم لما علمنا من إيمان بعضهم ، ومن إيمان أولاد الباقيين .

(المسألة الثانية) قال الفراء والزجاج : لولا ولوما لغتان : معناهما : هلا ويستعملان في الخبر والاستفهام ، فالخبر مثل قولك لولا أنت لفعلت كذا ، ومنه قوله تعالى (لولا أتمم لكننا مؤمنين) والاستفهام كقولهم (لولا أنزل عليه ملك) وكهذه الآية . وقال الفراء : لوما الميم فيه بدل عن اللام في لولا ، ومثله استولى على الشيء واستوى عليه ، وحكى الأصمعي : خالته وخالته إذا صادقته ، وهو خلى وخلقى أى صديق .

(المسألة الثالثة) قوله (مانزل الملائكة إلا بالحق) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم : (مانزل) بالنون وبكسر الزاي والتشديد ، والملائكة بالنصب لوقوع الانزال عليها . والمنزل هو الله تعالى ، وقرأ أبو بكر عن عاصم (مانزل) على فعل مالم يسمى فاعله ، والملائكة بالرفع . والباقون : ما تنزل الملائكة على اسناد فعل النزول الى الملائكة والله أعلم .

(المسألة الرابعة) قوله (وما كانوا اذا منظرين) يعنى : لو نزلت الملائكة لم ينظروا أى يمهلوا فان التكليف يزول عند نزول الملائكة . قال صاحب النظم : لفظ اذن مركبة من كلمتين : من اذ وهو اسم بمنزلة حين . ألا ترى أنك تقول : أتيتك إذ جئتني . أى حين جئتني . ثم ضم إليها أن ، فصار إذ أن . ثم استقلوا همزة ، فحذفوها فصار اذن . ومجى لفظه اذن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير : وما كانوا منظرين اذ كان ما طلبوا ، وهذا تأويل حسن .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

الصادقين ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴿٩﴾
اعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد الكفار ذكر بعده شبههم في إنكار نبوته .

﴿فالشبهة الأولى﴾ أنهم كانوا يحكمون عليه بالجنون ، وفيه احتمالات : الأول : أنه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشى فظنوا أنها جنون ، والدليل عليه قوله (ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) وأيضا قوله (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) والثاني : أنهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله تعالى ، فالرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فرمما قال له هذا جنون وأنت مجنون لبعد ما يذكره من طريقة العقل ، وقوله (إنك لمجنون) في هذه الآية يحتمل الوجهين .

أما قوله ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ففيه وجهان : الأول . أنهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون (إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) وكما قال قوم شعيب (إنك لأنت الحليم الرشيد) وكما قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) لأن البشارة بالعذاب ممتنعة . والثاني : (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) في زعمه واعتقاده ، وعند أصحابه وأتباعه . ثم حكى عنهم أنهم قالوا في تقرير شبههم (لوما تاتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ المراد لو كنت صادقا في ادعاء النبوة لأنيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة ، لأن المرسل الحكيم إذا حاول تحصيل أمر ، وله طريق يفضى الى تحصيل ذلك المقصود قطعا ، وطريق آخر قد يفضى وقد لا يفضى ، ويكون في محل الشكوك والشبهات ، فان كان ذلك الحكيم أراد تحصيل ذلك المقصود ، فانه يحاول تحصيله بالطريق الأول لا بالطريق الثاني ، وإنزال الملائكة الذين يصدقونك ، ويقررون قولك طريق يفضى الى حصول هذا المقصود قطعا ، والطريق الذي تقرر به صحة نبوتك طريق في محل الشكوك والشبهات ، فلو كنت صادقا في ادعاء النبوة لوجب في حكمة الله تعالى إنزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك وحيث لم تفعل ذلك علمنا أنك لست من النبوة في شيء ، فهذا تقرير هذه الشبهة ، ونظيرها قوله تعالى في سورة الأنعام (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) وفيه احتمال آخر : وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا به ، فالقوم طالبوه بنزول العذاب وقالوا له (لوما تاتينا بالملائكة) الذين ينزلون عليك ينزلون علينا بذلك العذاب

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ

إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾

رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا مرجح محال . وإنما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لأن إله العالم خصه به بعينه ، وإذا كان كذلك ، فقدرة الاله وإرادته اقتضت ذلك التخصيص . وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه ، ولما كان تغير صفات الله تعالى أعنى القدرة والإرادة والعلم والحكمة ممتنعاً كان تغير ذلك الاختصاص ممتنعاً .

إذا عرفت هذا فنقول : هذا الدليل بعينه قائم في أفعال العباد أعنى أن الصادر من زيد هو الإيمان والطاعة . ومن عمرو هو الكفر والمعصية . فوجب أن يمتنع دخول التغير فيهما . فان قالوا . هذا إنما يلزم لو كان المقتضى لحدوث الكفر والإيمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيتة . أما إذا قلنا : المقتضى لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيتتهما سقط ذلك .

قلنا : قدرة زيد وعمرو ومشيتتهما إن كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين فخالق تلك القدرة والمشيتة الموجبتين لذلك الفعل هو الذي قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الإلزام ، وإن لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده ، كان رجحان أحد الطرفين على الآخر لم يكن مرجح . فقد عاد الأمر إلى أنه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل ، وإن كان لمخصص فذلك المخصص إن كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل ، وإن كان هو الله تعالى فحينئذ يعود البحث إلى أن فعل العبد إنما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى ، وحينئذ لا يعود الإلزام .

(المسألة الثالثة) دلت الآية على أن كل من مات أو قتل فأنما مات بأجله ، وإن من قال :

يجوز أن يموت قبل أجله فمخطئ .

فان قالوا : هذا الاستدلال إنما يتم إذا حملنا قوله (وما أهلكنا) على الموت ، أما إذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم .

قلنا : قوله (وما أهلكنا) إما أن يدخل تحته الموت أو لا يدخل ، فان دخل فالاستدلال ظاهر لازم . وإن لم يدخل فنقول : إن ما لأجله وجب في عذاب الاستئصال أن لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم في الموت ، فوجب أن يكون الحكم ههنا كذلك ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (ذرهم يأكلون ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) أتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) في الهلاك والعذاب وإنما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم في الكتاب معجلاً ، والذين تأخروا كان وقت هلاكهم في الكتاب مؤجراً وذلك نهاية في الزجر والتحذير .

﴿المسألة الثانية﴾ قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذي كان الله ينزله بالملكذابين المعاندين كما بينه في قوم نوح وقوم هود وغيرهم ، وقال آخرون : المراد بهذا الهلاك الموت . قال القاضي : والأقرب ما تقدم ، لأنه في الزجر أبلغ ، فبين تعالى أن هذا الأمهال لا ينبغي أن يغتر به العاقل لأن العذاب مدخر ، فان لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال قوم آخرون : المراد بهذا الهلاك مجموع الأمرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت ، لأن كل واحد منهما يشارك الآخر في كونه هلاكاً ، فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذي يدخل فيه القسمان معاً .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال الفراء : لو لم تكن الواو مذكورة في قوله (ولها كتاب) كان صواباً كما في آية أخرى وهي قوله (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) وهو كما تقول : مارأيت أحداً إلا وعليه ثياب وان شئت قلت : إلا عليه ثياب

أما قوله ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى : من في قوله (من أمة) زائدة مؤكدة كقولك : ما جاءني من أحد ، وقال آخرون : إنها ليست بزائدة لأنها تفيد التبعية أى هذا الحكم لم يحصل في بعض من أبعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك في إفادة عموم النفي أكد .

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب النظم معنى سبق إذا كان واقعاً على شخص كان معناه أنه جاز وخلف كقولك سبق زيد عمراً ، أى جازه وخلفه وراءه ، ومعناه أنه قصر عنه وما بلغه ، وإذا كان واقعاً على زمان كان بالعكس في ذلك ، كقولك : سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل إتيانه ولم يبلغه فقوله (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) معناه أنه لا يحصل ذلك إلا قبل ذلك الوقت ولا بعده ، بل إنما يحصل في ذلك الوقت بعينه ، والسبب فيه أن اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذي قبله أو بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع ، لاعتن مرجح ولا عن مخصص فان

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ «٤» مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ «٥»

الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهُي عن حديثه . قال النكسائي والأصمعي : كل شيء تركته فقد
لهيت عنه وأنشد :

صرمت جبالك فاله عنها زينب ولقد أطلت عتابها لو تعتب
فقوله فاله عنها أى تركها وأعرض عنها . قال المفسرون : شغلهم الأمل عند الأخذ بحظهم
عن الايمان والطاعة فسوف يعلمون .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يصد عن الايمان ويفعل
بالمكلف ما يكون له مفسدة فى الدين ، والدليل عليه أنه تعالى قال لرسوله (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا
ويلههم الأمل) فحكم بأن إقبالهم على التمتع واستغراقهم فى طول الأمل يلهيهم عن الايمان والطاعة
ثم إنه تعالى أذن لهم فيها ، وذلك يدل على المقصود . قالت المعتزلة : ليس هذا إذنا وتجويزا بل
هذا تهديد ووعيد .

قلنا : ظاهر قوله (ذرهم) إذن أقصى ما فى الباب أنه تعالى نبه على أن إقبالهم على هذه الأعمال
يضرهم فى دينهم ، وهذا عين ما ذكرناه من أنه تعالى أذن فى شيء مع أنه نص على كون ذلك الشيء
مفسدة لهم فى الدين .

﴿المسألة الثالثة﴾ دلت الآية على أن إثارة التلذذ والتنعم وما يؤدى اليه طول الأمل ليس من
أخلاق المؤمنين ، وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين . والأخبار فى ذم الأمل كثيرة
فمنها ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان : الحرص على
المال وطول الأمل» . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه نطق ثلاث نطق وقال «هذا ابن آدم . وهذا
الأمل . وهذا الأجل ، ودون الأمل تسع وتسعون منية فان أخذته إحداهن . وإلا فالحرم من
ورائه» . وعن على عليه السلام أنه قال : إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ، فان
طول الأمل ينسى الآخرة . واتباع الهوى يصد عن الحق . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها
وما يستأخرون﴾

(ربما يود الذين كفروا) على محمل آخر ، والأصح ما قاله الزجاج فانه قال : الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما ، وهذا الوجه هو الأصح . وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوها . قال الضحاك : المراد منه ما يكون عند الموت . فان الكافر إذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلما . وقيل : إن هذه الحالة تحصل إذا اسودت وجوههم ، وقيل : بل عند دخولهم النار ونزول العذاب ، فانهم يقولون (أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل) وروى أبو موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لهم : أستم مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم ، وقد صرتم معنا في النار ، فيفضل الله تعالى بفضله رحمة ، فيأمر باخراج كل من كان من أهل القبلة من النار ، فيخرجون منها ، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية . وعلى هذا القول أكثر المفسرين ، وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما يزال الله يرحم المؤمنين ، ويخرجهم من النار ، ويدخلهم الجنة بشفاعته الأنبياء والملائكة ، حتى أنه تعالى في آخر الأمر يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنة . قال : فهنا لك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . قال القاضي : هذه الروايات مبنية على أنه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار ، وعلى أن شفاعته الرسول مقبولة في إسقاط العقاب ، وهذان الأصلان عنده مردودان ، فعند هذا حمل هذا الخبر على وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه وهو أنه تعالى يؤخر ادخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة أنه تعالى لا يدخلهم الجنة ، ثم إنه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم وهناك يودون لو كانوا مسلمين ، قال فبهذه الطريق تصحح هذه الأخبار والله أعلم .

فان قيل : إذا كان أهل القيامة قد يتمنون أمثال هذه الأحوال وجب أن يتمنى المؤمن الذي يقل ثوابه درجة المؤمن الذي يكثر ثوابه ، والمتمنى لما لم يجده يكون في الغصة وتأم القلب وهذا يقتضى أن يكون أكثر المؤمنين في الغصة وتأم القلب .

قلنا : أحوال أهل الآخرة لا تقاس بأحوال أهل الدنيا ، فانه سبحانه أَرْضَى كل أحد بما فيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال (ونزعنا ما في صدورهم من غل) والله أعلم .

أما قوله تعالى «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) المعنى : دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولاخلاق

لهم في الآخرة وقوله (ويلههم الأمل) يقال : لهيت عن الشيء الهى لهيا ، وجاء في الحديث أن ابن

وَنَبِّئُهُمْ عَنِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرُؤُنِي عَلَيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِمْ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله (سبحان الذى أسرى بعبده) وثانيها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيذ بألفاظ ثلاثة : أولها : قوله (أنى) وثانيها : قوله (أنا) وثالثها : ادخال حرف الألف واللام على قوله (الغفور الرحيم) ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال (وأن عذابي هو العذاب الأليم) وثالثها : أنه أمر رسوله أن يبلغ اليهم هذا المعنى فكان أنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة . ورابعها : أنه لما قال (نبي عبادى) كان معناه نبي كل من كان معترفا بعبوديتى ، وهذا لما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى . وعن قتادة قال : بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ما تورع من حرام . ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه » أى قتلها وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه ، وهم يضحكون فقال « أتضحكون والنار بين أيديكم » فنزل قوله (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ونبئهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلا ما قال انا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم قال ابشرتموني على ان مسنى الكبر فيم تبشرون قالوا ابشرك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون﴾
 فى الآيه مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد . ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الأشقياء والسعداء ، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء . ومخذرا عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء . فبدأ أولا بقصة إبراهيم عليه السلام ، والضمير في قوله (ونبئهم) راجع الى قوله (عبادى) والتقدير : ونبي عبادى عن ضيف إبراهيم ، يقال : أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تمبئة اذا

نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٤٩» وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ «٥٠»

إخوانا على سرر متقابلين) إشارة إلى نفي المضار الروحانية وقوله (لا يمسهم فيها نصب) إشارة إلى نفي المضار الجسمانية .

﴿وأما القيد الرابع﴾ وهو كون تلك المنافع دائمة آمنة من الزوال فإليه الإشارة بقوله (وما هم منها بمخرجين) فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الأربعة المعتمدة في ماهية الثواب والحكماء الاسلام في هذه الآية مقال ، فانهم قالوا : المراد من قوله (ونزعنا ما في صدورهم من غل) إشارة إلى أن الأرواح القدسية النطقية نقيصة مطهرة عن علائق القوى الشهوانية والغضبية ، مبرأة عن حوادث الوهم والخيال ، وقوله (إخوانا على سرر متقابلين) معناه أن تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الأجسام ونوازع الخيال والأوهام ، ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الأنوار الالهية ، وتلألأت بتلك الأضواء الصمدية . فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المزايا المتقابلة المتحاذية ، فلما كونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله (إخوانا على سرر متقابلين) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم﴾

في الآية مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ أثبتت الهمزة الساكنة في (نبي) صورة ، وما أثبتت في قوله (دفع) . وجزءه لأن ما قبلها ساكن فهي تحذف كثيرا وتلقى حركتها على الساكن قبلها ، ف(نبي) في الخط على تحقيق الهمزة ، وليس قبل همزة (نبي) ساكن فاجروها على قياس الأصل :

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن عباد الله قسمان : منهم من يكون متقيا ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة ، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال (نبي عبادى)

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم . فههنا وصفهم بكونهم عباداً له ، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورا رحيماً . فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في جقه كون الله غفورا رحيماً ومن أنكر ذلك كان مستوجبا للعقاب الاليم . وفي الآية لطائف : احداها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله (عبادى) وهذا تشریف عظيم . ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدا

من قولهم : أغل في جوفه وتغلغل ، أى ان كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم ، وعن علي عليه السلام أنه قال : أرجو أن أكون أنا و عثمان و طلحة و الزبير منهم ، وحكى عن الحرث بن الأعور أنه كان جالسا عند علي عليه السلام إذ دخل زكريا بن طلحة فقال له علي : مرحبا بك يا ابن أخي ، أما والله إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى في حقهم (ونزعنا ما في صدورهم من غل) فقال الحرث : كلا بل الله أعديل من أن يملك و طلحة في مكان واحد . قال عليه السلام : فلن هذه الآية ؟ لأم لك يا أعور ، وروى أن المؤمنين يحبسون علي باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض ، ثم يؤمر بهم إلى الجنة . وقد نقي الله قلوبهم من الغل والغش ، والحقد والحسد ، وقوله (إخوانا) نصب على الحال وليس المراد الأخوة في النسب بل المراد الأخوة في المودة والمخالصة كما قال (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقوله (علي سرر متقابلين) السرير معروف والجمع أسرة و سرر قال أبو عبيدة يقال : سرر و سرر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فان جمعه فعل وفعل نحو : سرر و سرر . و جدد و جدد قال المفضل : بمض تميم و كلب يفتحون ، لأنهم يستقلون ضمتين متواليتين في حرفين من جنس واحد وقال بعض أهل المعاني : السرير مجلس رفيع مهيا للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور . قال الليث : و سرير العيش مستقره الذي اطمأن اليه في حال سروره وفرحه قال ابن عباس : يريد علي سرر من ذهب مكلاة بالزرجد والدر والياقوت ، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية ، وقوله (متقابلين) التقابل التواجه . وهو نقيض التدابر . ولا شك أن المواجهة أشرف الأحوال وقوله (لا يمسهم فيها نصب) النصب الاعياء والتعب أى لا ينالهم فيها تعب (وما هم منها بمخرجين) والمراد به كونه خلودا بلا زوال و بقاء بلا فناء ، وكألا بلا نقصان ، وفوزا بلا حرمان .

واعلم أن للثواب أربع شرائط : وهى أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة .

﴿أما القيد الاول﴾ وهو كونها منفعة فاليه الاشارة بقوله (إن المتقين في جنات و عيون)

﴿وأما القيد الثانى﴾ وهو كونها مقرونة بالتعظيم فاليه الاشارة بقوله (ادخلوها بسلام آمنين)

لأن الله سبحانه إذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الاجلال .

﴿وأما القيد الثالث﴾ وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر ، فاعلم أن المضار

إما أن تكون روحانية ، وإما أن تكون جسمانية ، أما المضار الروحانية فهى الحقد ، والحسد . والغل ، والغضب . وأما المضار الجسمانية فكألا عياء والتعب فقوله (ونزعنا ما في صدورهم من غل

لكل من اتقى عن شيء واحد ، إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم ، وأيضا فإن هذه الآية وردت عقيب قول إبليس (إلا عبادك منهم المخلصين) وعقيب قول الله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فلاجل هذه الدلائل اعتبرنا الايمان في هذا الحكم فوجب أن لايزيد فيه قيد آخر ، لأن تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق لمقتضى الاصل والظاهر . فثبت أن قوله (إن المتقين في جنات وعيون) يتناول جميع القائلين بلاإله إلاالله محمد رسول الله قولوا واعتقادا سواء كانوا من أهل الطاعة أو من أهل المعصية وهذا تقرير بين ، وكلام ظاهر .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (في جنات وعيون) أما الجنات فأربعة لقوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال (ومن دونهما جنتان) فيكون المجموع أربعة وقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) يؤكد ماقلناه . لأن من آمن بالله لاينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله (ولمن خاف) يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة ، وأما العيون فيحتمل أن يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى في قوله (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الأنهار .

فان قيل : أتقولون إن كل واحد من المتقين يختص بعيون ، أو تجرى تلك العيون من بعض إلى بعض قيل : لايمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز أن يختص كل أحد بعين وينتفع به كل من في خدمته من الحور والولدان ، ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم ، ويحتمل أن يكون يجرى من بعضهم إلى بعض لأنهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله (ادخلوها بسلام آمنين) يحتمل أن القائل لقوله (ادخلوها) هو الله تعالى وأن يكون ذلك القائل بعض ملائكته ، وفيه سؤال لأنه تعالى حكم قبل هذه الآية بأنهم في جنات وعيون ، وإذا كانوا فيها فكيف يمكن أن يقال لهم (ادخلوها)

والجواب عنه من وجهين : الأول : لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها (ادخلوها بسلام) الثاني : لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم ادخلوها وقوله (ادخلوها بسلام آمنين) المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة ، والأمن من زوالها .

ثم قال تعالى ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ والغل الحقد الكامن في القلب وهو مأخوذ

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَجَسٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

في خبء ، ثم وقف عليه بالتشديد .

﴿المسألة الثانية﴾ الجزء بعض الشيء ، والجمع الأجزاء ، وجزأته جعلته أجزاء ، والمعنى : أنه تعالى يجزئ أتباع إبليس أجزاء . بمعنى أنه يجعلهم أقساما وفرقا ، ويدخل في كل قسم من أقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف . والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة . فلا جرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم بمخرجين﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب ، وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في قوله (إن المتقين) قولان :

﴿القول الأول﴾ قال الجبائي وجمهور المعتزلة : القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا

جميع المعاصي . قالوا : لأنه اسم مدح فلا يتناول إلا من يكون كذلك .

﴿والقول الثاني﴾ وهو قول جمهور الصحابة والتابعين ، وهو المنقول عن ابن عباس أن المراد

الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به . وأقول : هذا القول هو الحق الصحيح ، والذي يدل

عليه هو أن المتقى هو الآتى بالتقوى مرة واحدة ، كما أن الضارب هو الآتى بالضرب مرة واحدة ،

والقاتل هو الآتى بالقتل مرة واحدة ، فكما أنه ليس من شرط الوصف كونه ضاربا وقاتلا

كونه آتيا بجميع أنواع الضرب والقتل ، فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه

آتيا بجميع أنواع التقوى ، والذي يقوى هذا الكلام أن الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يكون

آتيا بالتقوى ، لأن كل فرد من أفراد المساهية فانه يجب كونه مشتملا على تلك المساهية . فالآتى بالتقوى

يجب أن يكون متقيا ، فثبت أن الآتى بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متقيا ، ولهذا

التحقيق اتفق المفسرون على أن ظاهر الأمر لا يفيد التكرار .

إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر قوله (إن المتقين في جنات وعيون) يقتضى حصول الجنات والعيون

إبليس باختياره صار متبعاً له ، ولكن حصول تلك المتابعة أيضاً ليس لأجل أن إبليس يقهره على تلك المتابعة أو يجبره عليها . والحاصل في هذا القول : أن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطاناً . فبين تعالى كذبه فيه ، وذكر أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلاً ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس أنه قال (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) وقال تعالى في آية أخرى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتكلمون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) قال الجبائي : هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وإزالة عقولهم كما يقوله العامة ، وربما نسبوا ذلك إلى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه ، وفي الآية قول آخر ، وهو أن إبليس لما قال (إلا عبادك منهم المخلصين) فذكر أنه لا يقدر على اغواء المخلصين صدقه الله في هذا الاستثناء فقال (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فلهذا قال الكلبي : العباد المذكورن في هذه الآية هم الذين استثناهم إبليس .

واعلم أن على القول الأول يمكن أن يكون قوله (إلا من اتبعك) استثناء ، لأن المعنى : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين فإن لك عليهم سلطاناً بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي .

وأما على القول الثاني فيمتنع أن يكون استثناء ، بل تكون لفظة (إلا) بمعنى لكن ، وقوله (إن جهنم لموعدهم أجمعين) قال ابن عباس : يريد إبليس وأشياعه ، ومن اتبعه من الغاوين . ثم قال تعالى ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ وفيه قولان :

﴿ القول الأول ﴾ إنها سبع طبقات : بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات ، ويدل على كونها كذلك . قوله تعالى (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)

﴿ والقول الثاني ﴾ إن قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام : ولكل قسم باب ، وعن ابن جريج : أولها : جهنم . ثم لظى . ثم الحطمة . ثم المعير . ثم سقر . ثم الجحيم . ثم الهاوية . قال الضحاك : الطبقة الأولى . فيها أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون . والثانية : لليهود . والثالثة : للنصارى والرابعة : للصابئين . والخامسة : للمجوس . والسادسة : للمشركين . والسابعة : للمنافقين . وقوله (اكل باب منهم جزء مقسوم) وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر (جزء مقسوم) والباقون (جزء) بتخفيف الزاى . وقرأ الزهري (جزء) بالشديد ، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى ، كقولك : خب

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ «٤٢»
 وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ «٤٣» لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ
 مَّقْسُومٌ «٤٤»

(وأما الثالث) وهو أن يشتمل على الجهتين إلا أن جانب الله يكون راجحاً ، فهذا يرجح أن يكون من المخلصين ، لأن المثل يقابله المثل ، فيبقى القدر الزائد خالصاً عن الشوب .

(وأما الرابع والخامس) فظاهر أنه ليس من المخلصين في حق الله تعالى ، والحاصل أن القسم الأول : اخلاص في حق الله تعالى قطعاً . والقسم الثاني : يرجح من فضل الله أن يجعله من قسم الاخلاص وأساساً الأقسام فهو خارج عن الاخلاص قطعاً والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿قال هذا صراط على مستقيم﴾ ففيه وجوه : الأول : أن إبليس لما قال (إلا عبادك منهم المخلصين) فلفظ المخلص يدل على الاخلاص ، فقوله هذا عائد إلى الاخلاص ، والمعنى : أن الاخلاص طريق على وإلى ، أى أنه يؤدي إلى كرامتى وثوابى ، وقال الحسن : معناه هذا صراط إلى مستقيم ، وقال آخرون : هذا صراط من مر عليه ، فكأنه مر على وعلى رضوانى وكرامتى وهو كما يقال طريقك على . الثانى : أن الاخلاص طريق العبودية فقوله (هذا صراط على مستقيم) أى هذا الطريق فى العبودية طريق على مستقيم . الثالث : قال بعضهم : لما ذكر إبليس أنه يغوى بنى آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته فقال تعالى (هذا صراط على) أى تفويض الأمور إلى إرادتى ومشيتى طريق على مستقيم الرابع معناه : هذا صراط على تقريره وتأكيده ، وهو مستقيم حق وصدق ، وقرأ يعقوب (صراط على) بالرفع والتنوين على أنه صفة لقوله (صراط) أى هو على بمعنى أنه رفيع مستقيم لا عوج فيه . قال الواحدى : معناه أن طريق التفويض إلى الله تعالى والايمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم . قوله تعالى ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .

اعلم أن إبليس لما قال (لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) أومهم هذا الكلام أن له سلطاناً على عباد الله الذين يكونون من المخلصين . فبين تعالى فى هذه الآية أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين . بل من اتبع منهم

فنقول : تأثير زيادة المشقة إنما هو في كثرة الثواب على أحد التقديرين ، وفي الالتقاء في العذاب الشديد على التقدير الثاني وهو التقدير الأكثر الأغلب ، وكل من يراعى المصالح ، فان رعاية هذا التقدير الثاني أولى عنده من رعاية التقدير الأول . لأن دفع الضرر العظيم أولى من السعي في طلب النفع الزائد الذي لا حاجة إلى حصوله أصلاً ، ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة ، وأما قوله المراد من قوله (رب بما أغويتني) الخيبة عن الرحمة أو الاضلال عن طريق الجنة فنقول : كل هذا بعيد ، لأنه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة وهو الذي أضل نفسه عن طريق الجنة ، لأنه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة ، وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى . فثبت أن الاشكالات لازمة وأن أجوبتهم ضعيفة . والله أعلم .

وأما قوله «إلعبادك منهم المخلصين» ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن إبليس استثنى المخلصين ، لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه ، وذكرت في مجلس التذكير أن الذي حمل إبليس على ذكر هذا الاستثناء أن لا يصير كاذباً في دعواه فلما احتزرت إبليس عن الكذب علمنا أن الكذب في غاية الحساسية .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام في كل القرآن ، والباقون بفتح اللام . وجه القراءة الأولى أنهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الايمان والتوحيد ، ومن فتح اللام فعناه : الذين أخلصهم الله بالهداية والايمان ، والتوفيق ، والعصمة . وهذه القراءة تدل على أن الاخلاص والايمان ليس إلامن الله تعالى .

﴿المسألة الثالثة﴾ الاخلاص جعل الشيء خالصاً عن شائبة الغير . فنقول : كل من أتى بعمل فاما أن يكون قد أتى به لله فقط . أو لغير الله فقط . أو لمجموع الأمرين ، وعلى هذا التقدير الثالث فاما أن يكون طلب رضوان الله راجحاً أو مرجوحاً أو معادلاً ، والتقدير : الرابع أن يأتي به لالغرض أصلاً وهذا محال ، لأن الفعل بدون الداعية محال .

﴿أما الأول﴾ فهو الاخلاص في حق الله تعالى ، لأن الحامل له على ذلك الفعل طلب رضوان الله ، وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير ، فهذا هو الاخلاص .

﴿وأما الثاني﴾ وهو الاخلاص في حق غير الله ، فظاهر أن هذا لا يكون اخلاصاً في حق الله تعالى .

فان ذلك الكافر ، والمعاصي كان يأتي بذلك الكفر والمعصية . فلما كان الأمر كذلك . لاجرم أمهله هذه المدة .

﴿الطريق الثاني﴾ وهو طريق أبي هاشم أنه لا يبعد أن يقال : إنه تعالى علم أن أقواما يقعون بسبب وسوسته في الكفر والمعصية ، إلا أن وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية . بل الكافر والمعاصي بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية ، أقصى ما في الباب أن يقال : الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها ، إلا أن على هذا التقدير تصير وسوسته سببا لزيادة المشقة في أداء الطاعات . وذلك لا يمنع الحكيم من فعله . كما أن إنزال المشاق وإنزال المتشابهات صار سببا لمزيد الشبهات ، ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكنا ههنا ، وهذان الطريقان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثاني .

﴿وأما السؤال الثالث﴾ وهو أن إعلانه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصي والاكتثار منها ، بخوابه أن هذا إنما يلزم إذا كان علم إبليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة في المعاصي . أما إذ علم الله تعالى من حاله أن ذلك لا يوجب التفاوت البتة ، فالسؤال زائل . وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع .

﴿وأما السؤال الخامس﴾ وهو أن إبليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين ، فقد أجابوا عنه بأنه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى : أحدها : المراد بما خيبتني من رحمتك لأخيبهم بالدعاء إلى معصيتك . وثانيها : المراد كما أضللتني عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضا عنه بالدعاء إلى المعصية . وثالثها : أن يكون المراد بالاغواء الأول الحية . وبالثاني الاضلال . ورابعها : أن المراد باغواء الله تعالى إياه هو أنه أمره بالوجود لآدم فأفضى ذلك إلى غيه . يعنى أنه حصل ذلك الغي عقيب اختيار إبليس ، فاما أن يقال : إن ذلك الأمر صار موجبا لذاته لحصول ذلك الغي ، فمعلوم أنه ليس الأمر كذلك . هذا جملة كلام القوم في هذا الباب وكلامه ضعيف . أما قوله إنه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة إبليس فنقول : هذا باطل . ويدل عليه القرآن والبرهان ، أما القرآن فقوله تعالى (فأزلهما الشيطان) فاضاف تلك الزلة إلى الشيطان ، وقال (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فأضاف الاخراج اليه . وقال موسى عليه السلام (هذا من عمل الشيطان) وكل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان في تلك الأفعال أثرا . وأما البرهان فلأن بداية العقول شاهدة بأنه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه أبدا في القبائح . وينفره عن الخيرات . مثل شخص كان حاله بالضد منه ، والعلم بهذا التفاوت ضروري . وأما قوله إن وجوده يصير سببا لزيادة المشقة في الطاعة

ومجتهدون في الضلال والاعواء ، فلو كان مراد الله تعالى هو الارشاد والهداية لكان من الواجب إبقاء المرشدين والمحققين وإهلاك المضلين والمغوين ، وحيث فعل بالضد منه ، علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر . الثالث : أنه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون الى يوم الدين كان ذلك اغراء له بالكفر والقيح ، لأنه أيسر عن المغفرة والفوز بالجنة يجترى حينئذ على أنواع المعاصي والكفر . الرابع : أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل ، مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل إلا زيادة الكفر والمعصية ، وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لأنواع العذاب الشديد كان هذا الامهال سببا لمزيد عذابه ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعقابه . الخامس : أنه صرح بأن الله أغواه فقال (رب بما أغويتني) وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه لا يقال : هذا كلام إبليس وهوليس بحجة ، وأيضا فهو معارض بقول إبليس (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) فأضاف الاغواء الى نفسه ، لأننا نقول .

﴿أما الجواب عن الأول﴾ فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فان الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقا فيما قال .

﴿وأما الجواب عن الثاني﴾ فهو أنه قال في هذه الآية (رب بما أغويتني لأزينن لهم) فالمراد ههنا من قوله (لأزينن لهم) هو المراد من قوله في تلك الآية (لأغوينهم أجمعين) إلا أنه بين في هذه الآية أنه إنما أمكنه أن يزين لهم الأباطيل لأجل أن الله تعالى أغواه قبل ذلك ، وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض وبتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص (هؤلاء الذين أغويننا أغويناهم كما غويننا)

﴿السؤال السادس﴾ انه قال (رب بما أغويتني) وهذا اعتراف بأن الله تعالى أغواه فنقول : إما أن يقال : إنه كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه ، أو ما عرف ذلك ، فان كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه امتنع كونه غاويا لأنه إنما يعرف أن الله تعالى أغواه إذا عرف أن الذي هو عليه جهل وباطل . ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة ، وأما إن قلنا : بأنه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه أن يقول (رب بما أغويتني) فهذا مجموع السؤلات الواردة في هذه الآية .

﴿أما الاشكال الأول﴾ فللمعتزلة فيه طريقتان :

﴿الطريق الأول﴾ وهو طريق الجبائي أنه تعالى إنما أمهل إبليس تلك المدة الطويلة ، لأنه تعالى علم أنه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته ، فبتقدير أن لا يوجد إبليس ولا وسوسته

فان قيل : لما أجابه الله تعالى الى مطلوبه لزم أن لا يموت الى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضا ، فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية .

قلنا : يحمل قوله (إلى يوم يبعثون) الى ما يكون قريبا منه . والوقت الذي يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث . وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام الى الوجه الأول . وثالثها : أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه إلا الله تعالى ، وليس المراد منه يوم القيامة .

فان قيل : إنه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت ، لأن فيه إغراء بالمعاصي ، وذلك لا يجوز على الله تعالى .

أجيب عنه بأن هذا الالتزام إنما يتوجه إذا كان وقت قيام القيامة معلوما للمكلف . فأما إذا علم أنه تعالى أمهله إلى وقت قيام القيامة إلا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الاغراء بالمعاصي .

وأجيب عن هذا الجواب بأنه وإن لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين إلا أنه علم في الجملة أن من وقت خلقه آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة .

أما قوله تعالى ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين ﴾ ففيه بحثان : (البحث الأول) الباء في (بما أغويتني) للقسم وما مصدرية ، وجواب القسم لأزينن . والمعنى أقسم باغوائك إياي لأزينن لهم ، ونظيره قوله تعالى (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) إلا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله ، وهي من صفات الذات ، وفي قوله (بما أغويتني) أقسم باغواء الله وهو من صفات الأفعال . والفقهاء قالوا : القسم بصفات الذات صحيح ، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه . ونقل الواحدى عن قوم آخرين أنهم قالوا : الباء ههنا بمعنى السبب ، أى بسبب كونى غاويا لأزينن كقول القائل ، أقسم فلان بمعصيته ليدخل النار ، وبطاعته ليدخل الجنة .

(البحث الثانى) اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يريد خلق الكفر فى الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه : الأول : أن إبليس استمهل وطلب البقاء الى قيام القيامة . مع أنه صرح بأنه إنما يطلب هذا الامهال والابقاء لاغواء بنى آدم وإضلالهم ، وأنه تعالى أمهله وأجابه الى هذا المطلوب ، ولو كان تعالى يراعى مصالح المكلفين فى الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل ، ولما مكثه من الاغواء والاضلال والسوسة . الثانى : أن أكبر الأنبياء والأولياء مجدون ومجتهدون فى إرشاد الخلق الى الدين الحق ، وأن إبليس ورهطه وشيعته مجدون

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ «٣٦» قَالَ فَانْكُ مِنَ الْمُنْظَرِينَ «٣٧» إِلَى
يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ «٣٨» قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «٣٩» إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ «٤٠» قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ «٤١»

في كلامهم كقولهم (مادامت السموات والأرض) في التأييد . والثاني : أنك مذموم مدعو عليك
باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذاباً
ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه .

قوله تعالى ﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم
قال رب بما أغويتنى لأزوين لهم فى الأرض ولاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا
صراط على مستقيم ﴾
فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فأنظرنى) متعلق بما تقدم . والتقدير : إذا جعلتنى رجماً ملعوناً إلى
يوم الدين ، فأنظرنى فطلب الأبقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة إلى وقت قيام القيامة . لأن
قوله (إلى يوم يبعثون) المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة ، وقوله (فانك من المنظرين
إلى يوم الوقت المعلوم) اعلم أن إبليس استنظر إلى يوم البعث والقيامة ، وغرضه منه أن لا يموت
لأنه إذا كان لا يموت قبل يوم القيامة ، وظاهره أن بعد قيام القيامة لا يموت أحد . فحينئذ يلزم منه
أن لا يموت البتة . ثم إنه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت
المعلوم) واختلفوا فى المراد منه على وجوه : أحدها : أن المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة
الأولى حين يموت كل الخلائق . وإنما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم ؟ لأن من المعلوم أن يموت
كل الخلائق فيه . وقيل : إنما سماه الله تعالى بهذا الاسم ، لأن العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير
كما قال تعالى (إنما عليها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) وقال (إن الله عنده علم الساعة) وثانيها :
أن المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذى ذكره إبليس وهو قوله (إلى يوم يبعثون) وإنما سماه
تعالى بيوم الوقت المعلوم ؟ لأن إبليس لما عينه وأشار إليه بعينه صار ذلك كالمعلوم .

بعض المتكلمين : إنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله ، إلا أن هذا ضعيف ، لأن إبليس قال في الجواب (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال) فقوله (خلقته) خطاب الحضور لا خطاب الغيبة ، وظاهره يقتضى أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة وأن إبليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة ، وكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب ، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم ، ولعل الجواب عنه أن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصباً عالياً إذا كان على سبيل الإكرام والاعظام . فأما إذا كان على سبيل الإهانة والاذلال فلا . وقوله (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) فيه بحثان :

(البحث الأول) اللام في قوله (لأسجد) لتأكيد النفي ، ومعناه : لا يصح مني أن أسجد لبشر (البحث الثاني) معنى هذا الكلام أن كونه بشراً يشعر بكونه جسماً كشيءاً وهو كان روحانياً لطيفاً ، فالفرقة حاصلة بينهما في الحال من هذا الوجه . كأنه يقول : البشر جسماني كشيء له بشرة ، وأنا روحاني لطيف ، والجسماني الكثيف أدون حالاً من الروحاني اللطيف ، والأدون كيف يكون مسجوداً للأعلى ، وأيضاً أن آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون . فهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هو النار وهي أشرف العناصر ، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون إبليس أشرف من آدم ، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون . فالكلام الأول إشارة إلى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية ، وهو فرق حاصل في الحال والكلام الثاني إشارة إلى الفرق الحاصل بحسب العنصر والأصل ، فهذا مجموع شبهة إبليس وقوله تعالى (قال فاخرج منها فانك رجيم) فهذا ليس جواباً عن تلك الشبهة على سبيل التصريح ، ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه . وتقريره أن الذي قاله الله تعالى نص ، والذي قاله إبليس قياس . ومن عارض النص بالقياس كان رجيماً ملعوناً . وتمام الكلام في هذا المعنى ذكرناه مستقصى في سورة الأعراف . وقوله (فاخرج منها) قيل المراد من جنة عدن ، وقيل من السموات ، وقيل من زمرة الملائكة ، وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره في سورة الأعراف وقوله (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله (مالك يوم الدين) فان قيل : كلمة (إلى) تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل إلا إلى يوم القيامة ، وعند قيام القيامة يزول اللعن .

أجابوا عنه من وجوه : الأول : المراد منه التأييد ، وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس

قولان : الأول : فاذا سويت شكله بالصورة الانسانية والخلقة البشرية . والثاني : فاذا سويت اجزاء بدنه باعتدال الطبايع وتناسب الأمشاج كما قال تعالى (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) وأما قوله «ونفخت فيه من روحي» ففيه مباحث : الأول : أن النفخ اجراء الريح في تجاويرف جسم آخر ، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح ، وإلا لما صح وصفها بالنفخ إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم إلى نفسه تشريفا له وتكريما . وقوله (فقعوا له ساجدين) فيه مباحث : أحدها : أن ذلك السجود كان لآدم في الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود ، وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة . وثانيها : أن المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الأرض ، من الناس من لا يجوز أن يقال : إن أكبر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام ، والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة (الأعراف) في صفة الملائكة (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) فقوله (وله يسجدون) يفيد الحصر، وذلك يدل على أنهم لا يسجدون إلا لله تعالى وذلك ينافي كونهم ساجدين لآدم عليه السلام . أو لأحد غير الله تعالى أقصى ما في الباب أن يقال : إن قوله تعالى (فقعوا له ساجدين) يفيد العموم ، إلا أن الخاص مقدم على العام . وثالثها : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى كما نفخ الروح في آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له ، لأن قوله (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) مذكور بقاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي وقوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) قال الخليل وسيدويه قوله (كلهم أجمعون) تؤكد بعد تأكيد ، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال : لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم ، فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ، ثم بعد هذا بقي احتمال آخر. وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر فلما قال (أجمعون) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال : وقول الخليل وسيدويه أجود ، لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالا وقوله (إلا إبليس) أجمعوا على أن إبليس كان مأمورا بالسجود لآدم ، واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا ؟ وقد سبقتم هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة وقوله (أبي أن يكون مع الساجدين) استئناف وتقديره أن قائلا قال : هلا سجد فقيل : أبي ذلك واستكبر عنه أما قوله «قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين» فاعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله (قال يا إبليس) أي قال الله تعالى له يا إبليس وهذا يقتضى أنه تعالى تكلم معه ، فعند هذا قال

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾
فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ
كُلُّهُمْ أَسْمَاءً ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ
مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
الْلَعْنََةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾

قلنا : هذا على هذبننا ظاهر ، لأن البنية عندنا ليست شرطا لامكان حصول الحياة ، فالتة تعالى قادر على خلق الحياة والعلم فى الجوهر الفرد ، فكذلك يكون قادرا على خلق الحياة والعقل فى الجسم الحار ، واستدل بعضهم على أن الكواكب يتمتع حصول الحياة فيها قال : لأن الشمس فى عاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) بل المعتمد فى نفي الحياة عن الكواكب الاجماع .

قوله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سوئته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الانسان الأول واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا ابليس فانه أبى وتمرد ، وفى الآية مسائل :

(المسألة الأولى) ما تفسير كونه بشرا . فالمراد منه كونه جسما كشيئا يباشر ويلاقى والملائكة والجن لا يباثرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر ، والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالا من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره . وأما قوله (فاذا سوئته) ففيه

صالحا ، وبين كونهما مسنونا تفاوت ، وأما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعلة ، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن . وقال أبو عبيدة والآن كثيرون حمأة بوزن كحأة وقوله (مسنون) فيه أقوال : الأول . قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله (مسنون) أى متغير قال أبو الهيثم يقال سن الماء ، فهو مسنون أى تغير . والدليل عليه قوله تعالى (لم يتسنه) أى لم يتغير . الثانى : المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سندت الحجر إذا حككته عليه ، والذي يخرج من بينهما يقال له السنن وسمى المسن مسنا لأن الحديد يسن عليه . والثالث : قال الزجاج : هذا اللفظ مأخوذ من أ موضع على سنن الطريق لأنه متى كان كذلك فقد تغير . الرابع : قال أبو عبيدة : المسنون المصبوب ، والسن والصب يقال سن الماء على وجهه سنا . الخامس : قال سيبويه : المسنون المصور على صورة ومثال ، من سنة الوجه وهى صورته ، السادس : روى عن ابن عباس أنه قال : المسنون الطين الرطب ، وهذا يعود الى قول أبى عبيدة ، لأنه اذا كان رطبا يسيل وينبسط على الأرض ، فيكون مسنونا بمعنى أنه مصبوب .

أما قوله تعالى ﴿والجان خلقناه﴾ فاختلّفوا فى أن الجان من هو ؟ فقال عطاء عن ابن عباس : يريد إبليس ، وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة . وقال ابن عباس فى رواية أخرى : الجان هو أب الجن وهو قول الأكثرين ، وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، كما سمي الجنين جنينا لهذا السبب ، والجنين متوار فى بطن أمه ، ومعنى الجان فى اللغة السائر من قولك : جن الشيء اذا ستره ، فالجان المذكور ههنا يحتمل أنه سمي جانا لأنه يستر نفسه عن أعين بنى آدم ، أو يكون من باب الفاعل الذى يراد به المفعول ، كما يقال : فى لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية ، واختلّفوا فى الجن فقال بعضهم : إنهم جنس غير الشياطين . والأصح أن الشياطين قسم من الجن ، فكل من كان منهم مؤمنا فانه لا يسمى بالشيطان ، وكل من كان منهم كافرا يسمى بهذا الاسم ، والدليل على صحة ذلك : أن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، فكل من كان كذلك كان من الجن ، وقوله تعالى (خلقناه من قبل) قال ابن عباس : يريد من قبل خاق آدم ، وقوله (من نار السموم) معنى السموم فى اللغة : الريح الحارة تكون بالنهار وقد تكون بالليل ، وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لفتح وأوار ، على ماورد فى الخبر أنها لفتح جهنم . قيل : سميت سموما لأنها بلطفها تدخل فى مسام البدن ، وهى الخروق الحفمية التى تكون فى جلد الانسان يبرز منها عرقه وبخار باطنه . قال ابن مسعود : هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق الله بها الجان وتلا هذه الآية .

فان قيل : كيف يعقل خلق الجان من النار ؟

﴿المسألة الثانية﴾ ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع الأول بوجود حوادث لأول لها ، وإذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث الى حادث أول هو أول الحوادث ، وإذا كان كذلك فلا بد من انتهاء الناس الى إنسان هو أول الناس ، وإذا كان كذلك فذلك الانسان الأول غير مخلوق عن الأبوين فيكون مخلوقا لا محالة بقدرة الله تعالى . فقوله (ولقد خلقنا الانسان) إشارة الى ذلك الانسان الأول . والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم عليه السلام . ونقل في كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألب ألف آدم أو أكثر وأقول : هذا لا يقدح في حدوث العالم بل الأمر كيف كان ، فلا بد من الانتهاء الى إنسان أول هو أول الناس . وأما أن ذلك الانسان هو أبونا آدم . فلا طريق الى إثباته إلا من جهة السمع .

واعلم أن الجسم محدث ، فوجب التقطع بأن آدم عليه السلام وغيره من الأجسام يكون مخلوقا عن عدم محض ، وأيضا دل قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) على أن آدم مخلوق من تراب ، ودلت آية أخرى على أنه مخلوق من الطين ، وهي قوله (إني خالق بشر من طين) وجاء في هذه الآية أن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون . والأقرب أنه تعالى خلقه أولا من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار . ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أى جنس من الأجسام كان ، بل هو قادر على خلقه ابتداء . وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصالحتهم ومصالحة الجن . لأن خلق الانسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه .

﴿المسألة الثالثة﴾ في الصلصال قولان : قيل الصلصال الطين اليابس الذى يصلصل وهو غير مطبوخ ، وإذا طبخ فهو فخار . قالوا : اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل . واذا توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة . قال المفسرون : خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركذ فى الشمس أربعين سنة . فصار صلصالا كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به ، ولم يروا شيئا من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح . وحقيقة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الانسان نجف فكانت الريح إذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالا .

﴿والقول الثانى﴾ الصلصال ذو المنتن من قولهم صل اللحم واصل إذا نتن وتغير ، وهذا القول عندى ضعيف . لأنه تعالى قال (من صلصال من حمأ مسنون) وكونه حمأ مسنونا يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على أن هذا الصلصال إنما تولد من الحمأ المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالا مغايراً لكونه حمأ مسنونا ، ولو كان كونه صلصالا عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَءٍ مَسْنُونٍ «٢٦» وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ
مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ «٢٧»

المتخلفين عن طاعة الله . الثاني : أراد بالمستقدمين الصف الأول من أهل الصلاة ، وبالمستأخرين الصف الآخر ، روى أنه صلى الله عليه وسلم رغب في الصف الأول في الصلاة ، فازدحم الناس عليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والمعنى : أنا نجزيهم على قدر نياتهم . الثالث : قال الضحاك ومقاتل : يعنى في وصف القتال . الرابع : قال ابن عباس في رواية أبي الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوم يتقدمون إلى الصف الأول للتلايمروها وآخرون يتخلفون ويتأخرون ليروها وإذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله تعالى هذه الآية . الخامس : قيل المستقدمون هم الأموات . والمستأخرون هم الأحياء . وقيل المستقدمون هم الأمم السالفة ، والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال عكرمة : المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق .

واعلم أنه تعالى لما قال (وإنا لنحن نحي ونميت) أتبعه بقوله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) تنبيها على أنه لا يخفى على الله شيء من أحوالهم . فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود . وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات . ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة .

وأما قوله ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ فالمراد منه التنبيه على أن الحشر والنشر والبعث والقيامة أمر واجب وقوله (إنه حكيم عليم) معناه : أن الحكمة تقتضى وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة في أول سورة يونس عليه السلام .

قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون والجنان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فانه تعالى لما استدلل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة أرفده بالاستدلال بتخليق الانسان على هذا المطلوب .

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ «٢٣» وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ
وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ «٢٤» وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ «٢٥»

سقى لكم وربما قالوا في أسقى سقى كقول لبيد يصف سحابا :

أقول وصوبه منى بعيد يحط السيب من قتل الجبال

سقى قومي بنى نجد وأسقى نмира والقبائل من هلال

فقوله : سقى قومي ليس يريد به ما يروى عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقىا لبلادهم يخصبون بها . وبعيد أن يسأل لقومه ما يروى العطاش ولغيرهم ما يخصبون به . وأما سقىا السقىة فلا يقال فيها أسقاه ، وأما قول ذى الرمة :

وأسقىه حتى كاد مما أبته تكلمنى أحجاره بملاعبه

فمضى أسقىه أذعوله بالسقاء . وأقول سقاه الله وقوله (وما أنتم له بخازنين) يعنى به ذلك الماء المنزل من السماء يعنى لستم له بحافظين .

قوله تعالى ﴿ وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾

اعلم أن هذا هو النوع السادس من دلائل التوحيد وهو الاستدلال بحصول الأحياء والاماتة لهذه الحيوانات على وجود الآله القادر المختار .

أما قوله ﴿ وإنا لنحن نحي ونميت ﴾ ففيه قولان : منهم من حمله على القدر المشترك بين إحياء النبات والحيوان ومنهم من يقول : وصف النبات بالأحياء مجاز فوجب تخصيصه بأحياء الحيوان ولما ثبت بالدلائل العقلية أنه لا قدرة على خلق الحياة الا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلا قاطعا على وجود الآله الفاعل المختار . وقوله ﴿ وإنا لنحن نحي ونميت ﴾ يفيد الحصر أى لا قدرة على الأحياء ولا على الاماتة إلا لنا ، وقوله ﴿ ونحن الوارثون ﴾ معناه : انه اذا مات جميع الخلائق ، فيئذ يزول ملك كل أحد عند موته ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده . فكان هذا شبيها بالارث فكان وارثا من هذا الوجه .

وأما قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ ففيه وجوه : الأول : قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء : المستقدمين يريد أهل طاعة الله تعالى والمستأخرين يريد

معناها النسبة وهو كما يقال : درهم وازن ، أى ذو وزن ، وراح وسائف ، أى ذو ربح وذو سيف قال الواحدى : هذا الجواب ليس بمعنى ، لأنه كان يجب أن يصح اللاحق . بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشيء ، لأن اللاحق هو المنسوب إلى اللقحة ، ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة إلى اللقحة فصح هذا الجواب والله أعلم .

﴿ والوجه الثالث ﴾ فى الجواب أن الريح فى نفسها لافح وتقريره بطريقتين :

﴿ الطريق الأول ﴾ أن الريح حاصلة للسحاب ، والدليل عليه قوله سبحانه (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا) أى حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة . بمعنى أنها حاملة تحمل السحاب والماء .

﴿ والطريق الثانى ﴾ قال الزجاج : يجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير ، كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بالخير ، وهذا كما تقول العرب : قد لقحت الحرب وقد تتجت ولدا أنكند يشبهون ما تشتمل عليه من ضروب الشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد أن لم يكن متحركا لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيئا من لوازم ذاته ، والا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال ، فلم يبق إلا أن يقال : إنه يتحرك بتحريك الفاعل المختار ، والأحوال التى تذكرها الفلاسفة فى سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها فى هذا الكتاب مرارا فأبطلناها . وبيننا أنه لا يمكن أن يكون شيء منها سببا لحدوث الرياح ، فبقى أن يكون محركها هو الله سبحانه .

وأما قوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ ففيه مباحث : الأول : أن ماء المطر هل ينزل من السماء أو ينزل من ماء السحاب ؟ وبتقدير أن يقال إنه ينزل من السحاب كيف أطلق الله على السحاب لفظ السماء ؟ وثانيها : أنه ليس السبب فى حدوث المطر ما يذكره الفلاسفة بل السبب فيه أن الفاعل المختار ينزله من السحاب إلى الأرض لغرض الإحسان إلى العباد كما قال ههنا (فأسقيناكموه) قال الأزهري : تقول العرب لكل ما كان فى بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى أسقيته . أى جعلته شربا له ، وجعلت له منها مسقى ، فإذا كانت السقيا لسقيه . قالوا سقاه ، ولم يقولوا أسقاه . والذى يؤكد هذا اختلاف القراء فى قوله (نسقيكم مما فى بطونه) فقرأوا باللغتين ، ولم يختلفوا فى قوله (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وفى قوله (والذى هو يطعمنى ويسقيني) قال أبو على : سقيته حتى روى وأسقيته نهرا ، أى جعلته شربا له وقوله (فأسقيناكموه) أى جعلناه

﴿المسألة الثانية﴾ تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية في إثبات أن المعدوم شيء قال لأن قوله تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) يقتضى أن يكون لجميع الأشياء خزائن ، وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى ، ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هي تلك الموجودات من حيث أنها موجودة ، لأننا بينا أن المراد من قوله تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم) الاحداث والابداع والانشاء والتكوين . وهذا يقتضى أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله متقدما على حدوثها ودخولها في الوجود ، وإذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى ، بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث أنها حقائق وماهيات ، ثم إنه تعالى أنزل بعضها أى أخرج بعضها من العدم الى الوجود .

ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله : لاشك أن لفظ الخزائن إنما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل ، فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرا على إيجاد تلك الأشياء وتكوينها وإخراجها من العدم الى الوجود ؟ وعلى هذا التقدير : يسقط الاستدلال ، والمباحث الدقيقة باقية ، والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وارسلنا الرياح لواقح﴾ فاعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في وصف الرياح بأنها لواقح . أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس : الرياح لواقح للشجر وللسحاب ، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وأصل هذا من قولهم : لقمحت الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى الماء فيها فحملت ، فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب . قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية : يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء وتمججه في السحاب ، ثم إنه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير القاحها للسحاب ، وأما تفسير القاحها للشجر فما ذكره .

فان قيل : كيف قال (لواقح) وهي ملقحة ؟

والجواب : ما ذهب اليه أبو عبيدة أن (لواقح) ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وأنشد لسهيل يرثى أخاه :
ليك يزيد يائس ذو ضراعة وأشعث مما طوحته الطوامح

أراد المطوحات ، وقرر ابن الأنباري ذلك فقال : تقول العرب أبقل النبت فهو بأقل يريدون فهو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح ، عبارة عن ملقح .

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب قال الزجاج : يجوز أن يقال لها لواقح وان ألحقت غيرها لأن

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدي رحمه الله : الخزان جمع الخزانة ، وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ والخزانة أيضا عمل الخازن ، ويقال : خزن الشيء يخزنه إذا أحرزه في خزانة ، وعامة المفسرين على أن المراد بقوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) هو المطر ، وذلك لأنه هو السبب للأرزاق والمعاش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش ، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعاش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعاش عنده ، أي في أمره وحكمه وتدبيره ، وقوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) قال ابن عباس رحمهما الله : يريد قدر الكفاية . وقال الحكم : ما من عام بأكثر مطرا من عام آخر ، ولكنه يمتطر قوم ويحرم قوم آخرون ، وربما كان في البحر ، يعني أن الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم ، غير أنه يصرفه الى من يشاء حيث شاء كما شاء .

ولقائل أن يقول : لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى ، فان قوله تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم) لا يدل على أنه تعالى ينزله في جميع الأعوام على قدر واحد ، وإذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكما من غير دليل . وأقول أيضا : تخصيص قوله تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) بالمطر تحكما محض ، لأن قوله (وإن من شيء) يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل ، وهو الموجود القديم الواجب لذاته ، وقوله (إلا عندنا خزائنه) إشارة الى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى . وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له ، ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء إلا أنه تعالى وإن كانت مقدوراته غير متناهية إلا أن الذي يخرجها منها إلى الوجود يجب أن يكون متناهيا لأن دخول ما لا نهاية له في الوجود محال فقوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية وقوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) إشارة الى أن كل ما يدخل منها في الوجود فهو متناه . ومقى كان الخارج منها إلى الوجود متناهيا كان لا محالة مختصا بالحدوث بوقت وقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلا عنه ، وكان مختصا بجز معين مع جواز حصوله في سائر الأحيان بدلا عن ذلك الجز ، وكان مختصا بصفات معينة ، مع أنه كان يجوز في العقل حصول سائر الصفات بدلا عن تلك الصفات ، وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والجز المعين ، والصفات المعينة بدلا عن أصدادها لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر ، وهذا هو المراد من قوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) والمعنى : أنه لولا القادر المختار الذي خصص تلك الأشياء بتلك الأحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة ، والمراد من الانزال الاحداث والانشاء والابداع كقوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وقوله (وأنزلنا الحديد) والله أعلم .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَا كَمُوهَ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع) والثاني: أنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقا على الله حيث قال (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها) فكأنها عند الحاجة تطلب أرزاقها من خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة، فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل، ألا ترى أنه قال (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) فذكرها بصيغة جمع العقلاء، وقال في الأصنام (فانهم عدولي) وقال (كل في فلك يسبحون) فكذا ههنا لا يبعد إطلاق اللفظة المختصة بالعقلاء على الوحش والطيور لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت في بعض الحكايات أنه قلت المياه في الأودية والجبال واشتد الحر في عام من الأعوام فحكى عن بعضهم أنه رأى بعض الوحش رافعا رأسه إلى السماء عند اشتداد عطشه قال: فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت بحيث امتلأت الأودية منها.

﴿والاجتهال الثالث﴾ أنا نحمل قوله (ومن لستم له برازقين) على الاماء والعبيد، وعلى الوحش والطيور، وإنما أطلق عليها صيغة من تغلبا لجانب العقلاء على غيرهم.

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (ومن لستم له برازقين) لا يجوز أن يكون مجرورا عطفا على الضمير المجرور في لكم، لأنه لا يعطف على الضمير المجرور، لا يقال أخذت منك وزيد إلا باعادة الخافض كقوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح)

واعلم أن هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ (تساءلون به والأرحام) بالخفض وقد ذكرنا هذه المسألة هنالك. والله أعلم.

قوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنه أثبت في الأرض كل شيء موزون وجعل فيها معاش أتبعه بذكر ما هو كالسبب لذلك فقال (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه)

﴿وهذا هو النوع الرابع﴾ من الدلائل المذكورة في هذه السورة على تقرير التوحيد،

وفي الآية مسائل :

ومن الماء والهواء كذلك ، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص ، ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص ، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فآله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلوه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع .

﴿والوجه الثالث﴾ في تفسير هذا اللفظ أن أهل العرف يقولون : فلان موزون الحركات أى حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة ، وهذا الكلام كلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا عن اللغو والسخف فكان المراد منه أنه موزون بميزان الحكمة والعقل وبالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب ، فقوله (وأنبئنا فيها من كل شيء موزون) أى متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة .

﴿والوجه الرابع﴾ في تفسير هذا اللفظ أن الشيء الذى ينبت من الأرض نوعان : المعادن والنبات : أما المعادن فهى بأسرها موزونة وهى الأجساد السبعة والأحجار والأملاح والزجاجات وغيرها ، وأما النبات فيرجع عاقبتها الى الوزن ، لأن الحبوب توزن ، وكذلك الفواكه فى الأكثر والله أعلم . وقوله تعالى (وجعلنا لكم فيها معاش) فيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكرنا الكلام فى المعاش فى سورة الاعراف وقوله (ومن لستم له برازقين) فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أنه معطوف على محل لكم ، والتقدير : وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين .

﴿والقول الثانى﴾ أنه عطف على قوله (معاش) والتقدير : وجعلنا لكم معاش ومن لستم له برازقين ، وعلى هذا القول ففيه احتمالات ثلاثة :

﴿الاحتمال الأول﴾ أن كلمة «من» مختصة بالعقلاء فوجب أن يكون المراد من قوله (ومن لستم له برازقين) العقلاء وهم العيال والمالِك والخدم والعبيد ، وتقرير الكلام أن الناس يطنون فى أكثر الأمر أنهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد ، وذلك خطأ فان الله هو الرزاق برزق الخادم والمخدوم ، والمملوك والمالك فانه لولا أنه تعالى خالق الأطعمة والأشربة ، وأعطى القوة الغذائية والهاضمة ، وإلا لم يحصل لأحد رزق .

﴿والاحتمال الثانى﴾ وهو قول الكلبى قال : المراد بقوله (ومن لستم له برازقين) الوحش والطيور فان قيل : كيف يصح هذا التأويل مع أن صيغة من مختصة بمن يعقل ؟ قلنا : الجواب عنه من وجهين : الأول : أن صيغة من قد وردت فى غير العقلاء ، والدليل عليه

في الأرض رواسي أن تميد بكم) وفي تفسيره وجهان :

(الوجه الأول) قال ابن عباس : لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها .

فان قيل : أتقولون إنه تعالى خلق الأرض بدون الجبال فمالت بأهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك أو تقولون إن الله خلق الأرض والجبال معا .
قلنا : كلا الوجهين محتمل .

(والوجه الثاني) في تفسير قوله (وألقينا فيها رواسي) يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال .

(النوع الثالث) من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (وأنبئنا فيها من كل شيء موزون) وفيه بحثان :

(البحث الأول) أن الضمير في قوله (وأنبئنا فيها) يحتمل أن يكون راجعا إلى الأرض وأن يكون راجعا إلى الجبال الرواسي ، إلا أن رجوعه إلى الأرض أولى لأن أنواع النبات المنتفع بها إنما تتولد في الأراضي . فأما الفواكة الجبلية فقليلة النفع . ومنهم من قال : رجوع ذلك الضمير إلى الجبال أولى ، لأن المعادن إنما تتولد في الجبال ، والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات .

(البحث الثاني) اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه :

(الوجه الأول) أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة . قال القاضي : وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج اليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى في الأرض ذلك المقدار ، ولذلك أتبعه بقوله (وجعلنا لكم فيها معايش) لأن ذلك الرزق الذي يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين : الأول : بحسب الأكل والانتفاع بعينه . والثاني : أن ينتفع بالتجارة فيه . والقائلون بهذا القول قالوا : الوزن إنما يراد لمعرفة المقدار فكان اطلاق لفظ الوزن لأرادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على المسبب قالوا : ويتأكد ذلك أيضا بقوله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وقوله (وإن من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم)

(والوجه الثاني) في تفسير هذا اللفظ أن هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنما يخاق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم ، فلا بد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ «١٩»
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ «٢٠»

عليه وسلم رسولا بسائر المعجزات ، ثم بعد العلم بنبوته تقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق ، وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيوب معجزا وبهذا الطريق يندفع الدور . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين﴾
اعلم أنه تعالى لما شرح الدلائل السماوية في تقرير التوحيد . أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، وهي أنواع :

﴿النوع الأول﴾ قوله تعالى (والأرض مددناها) قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء ، وفيه احتمال آخر ، وذلك لأن الأرض جسم ، والجسم هو الذي يكون ممتدا في الجهات الثلاثة ، وهي الطول والعرض والثنخ ، وإذا كان كذلك ، فتمدد جسم الأرض في هذه الجهات الثلاثة مختص بمقدار معين لما ثبت أن كل جسم فانه يجب أن يكون متناهيا . وإذا كان كذلك كان تمدد جسم الأرض مختصا بمقدار معين مع أن الازدياد عليه معقول ، والاتقاص عنه أيضا معقول ، وإذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الأزيد والأنقص اختصاصا بأمر جائز . وذلك يجب أن يكون بتخصيص محصص وتقدير مقدر ، وهو الله سبحانه وتعالى .

فان قيل : هل يدل قوله (والأرض مددناها) على أنها بسيطة ؟

قلنا : نعم لأن الأرض بتقدير كونها كرة ، فهي كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها ، اذا نظر اليها ، فانها ترى كالسطح المستوي ، واذا كان كذلك زال ما ذكره من الاشكال ، والدليل عليه قوله تعالى (والجبال أوتادا) سماها أوتادا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية ، فكذا ههنا .

﴿النوع الثاني﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (والقينا فيها رواسي) وهي الجبال الثوابت ، واحدها راسي ، والجمع راسية ، وجمع الجمع رواسي ، وهو كقوله تعالى (وألقي

يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول : معنى الرجم في اللغة الرمي بالحجارة . ثم قيل للقتل رجم تشبيهاً له بالرجم بالحجارة ، والرجم أيضاً السب والشتم لأنه رمى بالقول القبيح ومنه قوله (لارجمك) أى لأسبنك ، والرجم اسم لكل ما يرمى به ، ومنه قوله (وجعلناهما رجوما للشياطين) أى مرأى لهم ، والرجم القول بالظن ، ومنه قوله (رجما بالغيب) لأنه يرميه بذلك الظن والرجم أيضاً اللعن والطرده ، وقوله الشيطان الرجم ، قد فسروه بكل هذه الوجوه . قال ابن عباس رضی الله عنهما : كانت الشياطين لا تحجب عن السموات ، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها الى الكهنة . فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات . فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رمى بشهاب . وقوله (إلا من استرق السمع) لا يمكن حمل لفظة (إلا) ههنا على الاستثناء ، بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظه منهم إلا أنهم ممنوعون من دخولها ، وإنما يحاولون القرب منها ، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق . فوجب أن يكون معناه : لكن من استرق السمع . قال الزجاج : موضع (من) نصب على هذا التقدير . قال : وجاز أن يكون في موضع خفض ، والتقدير : إلا من . قال ابن عباس : في قوله (إلا من استرق السمع) يريد الخطفة اليسيرة ، وذلك لأن المسارد من الشياطين يعملو فيرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله ، ومنهم من يحمله فيصير غولا يضل الناس في البرارى . وقوله (فأتبعه) ذكرنا معناه في سورة الأعراف في قصة بلعم بن باعور في قوله (فأتبعه الشيطان) معناه لحقه ، والشهاب شعلة نار ساطع ، ثم يسمى الكواكب شهابا ، والسنان شهابا لأجل أنهما لما فيهما من البريق يشبهان النار .

واعلم أن في هذا الموضوع أبحاثا دقيقة ذكرناها في سورة الملك وفي سورة الجن ، ونذكر منها ههنا إشكالا واحدا ، وهو أن لقائل أن يقول : إذا جوزتم في الجملة أن يصعد الشيطان الى السموات ويختلط بالملائكة ويسمع أخبار الغيوب عنهم ، ثم إنها تنزل وتلقى تلك الغيوب على الكهنة فعلى هذا التقدير وجب أن يخرج الأخبار عن المغيبات عن كونه معجزا لأن كل غيب يخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا على الصدق ، لا يقال إن الله تعالى أخبر أنهم معجزوا عن ذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم لأننا نقول هذا العجز لا يمكن إثباته إلا بعد القطع بكون محمد رسولا وكون القرآن حقا ، والقطع بهذا لا يمكن إلا بواسطة المعجز . وكون الأخبار عن الغيب معجزا لا يثبت إلا بعد إبطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال ، ويمكن أن يجاب عنه بأن ثبت كون محمد صلى الله

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ «١٦» وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ «١٧» إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ «١٨»

هذا الذي يرى أنه محمد بن عبدالله ليس هو ذلك الرجل وإنما هو شيطان ، ولعل هذه المعجزات التي نشاهدها ليس لها حقائق ، بل هي تكون من باب الآراء الباطلة من ذلك الساحر ، وإذا حصل هذا التجويز بطل الكل . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكري النبوة ، وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد . ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية ، ومنها أرضية ، بدأ منها بذكر الدلائل السماوية ، فقال (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين) قال الليث : البرج واحد من بروج الفلك ، والبروج جمع وهي اثنا عشر برجاً ، ونظيره قوله تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا) وقال (والسماء ذات البروج) ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار ، هو أن طبائع هذه البروج مختلفة على هو متفق عليه بين أرباب الأحكام ، وإذا كان الأمر كذلك فالفلك مركب من هذه الأجزاء المختلفة في الماهية والأبعاد المختلفة في الحقيقة ، وكل مركب فلا بد له من مركب يركب تلك الأجزاء والأبعاد بحسب الاختيار والحكمة . فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار ، وهو المطلوب ، وأما قوله (وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك في تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) فلا نعيد ههنا إلا القدر الذي لا بد منه قوله (وزيناها) أي بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) أي للبعثرين بها والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله (وحفظناها من كل شيطان رجيم)

فان قيل : مامعنى وحفظناها من كل شيطان رجيم ، والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأى حاجة إلى حفظ السماء منه .

قلنا : لما منعه من القرب منها ، فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان . فحفظ الله السماء مهم كما قد

﴿القول الأول﴾ أن قوله (فظلوا فيه يعرجون) من صفة المشركين . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج وينظرون الى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، و الى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا فى تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من الشقاق القمر وما خص به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذى لا يستطيع الجن والانس أن يأتوا بمثله .

﴿القول الثانى﴾ أن هذا العروج للملائكة ، والمعنى : أنه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا أبوابا من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرخوا ذلك عن وجهه ، ولقالوا : إن السحرة سحرنا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الاباطيل التى لاحقيقة لها وقوله (لقالوا إنما سكرت أبصارنا) فيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير (سكرت) بالتخفيف ، والباقون مشددة الكاف قال الواحدى سكرت غشيت وسددت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا : وأصله من السكر وهو سد الشق لثلا ينفجر الماء ، فكان هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجرى . والتشديد يوجب زيادة وتكثيرا وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مأخوذ من سكر الشراب يعنى أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فاذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد أخرى ، وقال أبو عبيدة (سكرت أبصارنا) أى غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها ، وعلى هذا القول أصله من السكون يقال : سكرت الريح سكرًا إذا سكنت وسكر الحر يسكر و ليلة ساكرة لاريح فيها وقال أوس :

جدلت على ليلة ساهرة فليست بطلق ولا ساكرة

ويقال : سكرت عينه سكرًا إذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى : سكرت أبصارنا. أى سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج . وقال أبو على الفارسى : سكرت صارت بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها ، وكان معنى السكر قطع الشيء عن سننه الجارى . فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه فى الجرية ، والسكر فى الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء فى حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه فى الصحو ، فهذه أقوال أربعة فى تفسير (سكرت) وهى فى الحقيقة متقاربة ، والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الجبائى : من جوز قدرة السحرة على أن يأخذوا بأعين الناس حتى يروهم الشيء على خلاف ما هو عليه لم يصح إيمانه بالأنبياء والرسل ، وذلك لأنهم اذا جوزوا ذلك فاعل

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

مضت سنة الله في الأولين بأن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم . وهذا أليق بظاهر اللفظ .

قوله تعالى ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا

بل نحن قوم مسحورون﴾

اعلم أن هذا الكلام هو المذكور في سورة الأنعام في قوله (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس
فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) والحاصل : أن القوم لما طلبوا نزول
ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام في كونه رسولا من عند الله تعالى بين الله تعالى
في هذه الآية أن بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين
يظن أنا نراهم فنجن في الحقيقة لانراهم . والحاصل : أنه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة في نزول الملائكة
فلهذا السبب ما أنزلهم .

فان قيل : كيف يجوز من الجماعة العظيمة أن يصيروا شاكين في وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة
في النهار الواضح ، ولو جاز حصول الشك في ذلك كانت السفسطة لازمة ، ولا يبق حينئذ اعتماد
على الحس والمشاهدة .

أجاب القاضى عنه : بأنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون ، وإنما وصفهم بأنهم يقولون
هذا القول . وقد يجوز أن يقدم الانسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة ، ثم سأل نفسه
وقال : أفيصح من الجمع العظيم أن يظهروا الشك في المشاهدات . وأجاب بأنه يصح ذلك إذا جمعهم
عليه غرض صحيح معتبر من مواطأة على دفع حجة أو غلبة خصم ، وأيضا فهذه الحكاية
إنما وقعت عن قوم مخصوصين ، سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم إنزال الملائكة ، وهذا
السؤال ما كان إلا من رؤساء القوم ، وكانوا قليل العدد ، وإقدام العدد القليل على ما يجرى
بجرى المكابرة جائز .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (فظلوا فيه يعرجون) يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا إذا فعله
بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات بيت إلا بالليل ،
والمصدر الظلول ، وقوله (فيه يعرجون) يقال : عرج يعرج عروجا ، ومنه المعارج ، وهى المصاعد
التي يصعد فيها ، وللمفسرين فى هذه الآية قولان :

لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب . فلما كان كل أحد لا يقصد إلا الإيمان والحق ثم إنه لا يحصل ذلك . وإنما يحصل الكفر والباطل ، علمنا أن حصول ذلك الكفر ليس منه .

فان قالوا : إنما حصل ذلك الكفر لأنه ظن أنه هو الإيمان . فنقول : فعلى هذا التقدير إنما رضى بتحصيل ذلك الجهل لأجل جهل آخر سابق عليه . فينقل الكلام إلى ذلك الجهل السابق فان كان ذلك لأجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال ، وإلا وجب انتهاء كل الجهالات إلى جهل أول سابق حصل في قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى ، وذلك هو الذى قلناه : أن المراد من قوله (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون) والمعنى : نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به . وهو أنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها . وأيضا قدماء المفسرين مثل : ابن عباس وتلامذته أطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها . والتأويل الذى ذكره المعتزلة وتأويل مستحدث لم يقل به أحد من المتقدمين ، فكان مردوداً ، وروى القاضى عن عكرمة أن المراد كذلك نسلك القسوة في قلوب المجرمين ، ثم قال القاضى : إن القسوة لا تحصل إلا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره ويعاند ، فلا يصح اضافته إلى الله تعالى ، فيقال للقاضى : إن هذا يجرى مجرى المكابرة ، وذلك لأن الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى أنه كلما رآه تغير لونه واصفر وجهه ، وربما ارتعدت أعضاؤه ولا يقدر على الالتفات إليه والاصغاء لقوله . فحصول هذه الأحوال في قلبه أمر اضطرارى لا يمكنه دفعها عن نفسه ، فكيف يقال : إنها حصلت بفعله واختياره ؟

فان قالوا : إنه يمكنه ترك هذه الأحوال ، والرجوع إلى الانقياد والقبول . فنقول هذا مغالطة محضة ، لأنك إن أردت أنه مع حصول هذه النفرة الشديدة في القلب ، والنبوة العظيمة في النفس يمكنه أن يعود إلى الانقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة . وإن أردت أن عند زوال هذه الأحوال النفسانية يمكنه العود إلى القبول والتسليم فهذا حق . إلا أنه لا يمكنه إزالة هذه الدواعى والصوارف عن القلب فانه ان كان الفاعل لها هو الانسان لافتقر في تحصيل هذه الدواعى والصوارف إلى دواعى سابقة عليها ولزم الذهاب إلى مالا نهاية له وذلك محال ، وان كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح انه تعالى هو الذى يسلك هذه الدواعى والصوارف في القلوب وذلك عين ما ذكرناه والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ ففيه قولان : الأول : أنه تهديد لكفار مكة يقول قد مضت سنة الله بأهلك من كذب الرسل في القرون الماضية . الثانى : وهو قول الزجاج : وقد

لم يلتفت اليه ولم يؤمن به ، فصار فعل الله تعالى كاهدر الضائع ، وصار الكافر والشيطان كالثالب الدافع ، وإذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة في قوله (نسلكه) غير لائق بهذا المقام ، فثبت بهذا التأويل الذى ذكره فاسد .

﴿ والوجه الثانى ﴾ أنه لو كان المراد ما ذكره لوجب أن يقال (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) ولا يؤمنون به ، أى ومع هذا السعى العظيم فى تحصيل إيمانهم لا يؤمنون . أمالم يذكر الواو فعلمنا أن قوله (لا يؤمنون به) كالتفسير ، والبيان لقوله (نسلكه فى قلوب المجرمين) وهذا إنما يصح إذا كان المراد أنا نسلك الكفر والضلال فى قلوبهم .

﴿ والوجه الثالث ﴾ أن قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) بعيد ، وقوله (يستهبئون) قريب ، وعود الضمير إلى أقرب المذكورات هو الواجب . أما قوله : لو كان الضمير فى قوله (نسلكه) عائداً الى الاستهزاء لكان فى قوله (لا يؤمنون به) عائداً اليه ، وحينئذ يلزم التناقض . قلنا : الجواب عنه من وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أن مقتضى الدليل عود الضمير الى أقرب المذكورات ، ولا مانع من اعتبار هذا الدليل فى الضمير الأول وحصل المانع من اعتباره فى الضمير الثانى فلا جرم قلنا : الضمير الأول عائداً الى الاستهزاء ، والضمير الثانى بائد الى الذكر . وتفريق الضمائر المتعاقبة على الأشياء المختلفة ليس بقليل فى القرآن ، أليس أن الجبائى والكعبي والقاضى قالوا فى قوله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين فلما آتاهاما صالحاً جعلنا له شركاء فيما آتاهاما فتعالى الله عما يشركون) فقالوا هذه الضمائر من أول الآية إلى قوله (جعلنا له شركاء) عائدة إلى آدم وحواء ، وأما فى قوله (جعلنا له شركاء فيما آتاهاما فتعالى الله عما يشركون) عائدة إلى غيرهما ، فهذا ما تفقوا عليه فى تفاسيرهم ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لا يلزم من تعاقب الضمائر عودها إلى شىء واحد بل الأمر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا والله أعلم .

﴿ والوجه الثانى ﴾ فى الجواب قال بعض الأدباء من أصحابنا قوله (لا يؤمنون به) تفسير للكناية فى قوله (نسلكه) والتقدير: كذلك نسلك فى قلوب المجرمين أن لا يؤمنوا به . والمعنى نجعل فى قلوبهم أن لا يؤمنوا به .

﴿ والوجه الثالث ﴾ وهو أننا بالبراهين العقلية القاهرة أن حصول الإيمان والكفر يمتنع أن يكون بالعبء ، وذلك لأن كل أحد إنما يريد الإيمان والصدق . والعلم والحق ، وأن أحداً

فثبت صحة قولنا المراد من قوله (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) هو أنه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسوله في قلوب المجرمين ، لانا نقول : إن كان الضمير في قوله (كذلك نسلكه) عائداً الى الاستهزاء وجب أن يكون الضمير في قوله (لا يؤمنون به) عائداً أيضا الى الاستهزاء لأنهما ضميران متعاقبا وتلاصقا ، فوجب عودهما الى شيء واحد . فوجب أن لا يكونا مؤمنين بذلك الاستهزاء ، وذلك يوجب التناقض ، لأن الكافر لا بد وأن يكون مؤمنا بكفره والذي لا يكون كذلك هو المسلم العالم ببطان الكفر فلا يصدق به . وأيضا فلو كان تعالى هو الذي يسلك الكفر في قلب الكافر ويخلقه فيه فما أحد أولى بالعدر من هؤلاء الكفار ، ولكن على هذا التقدير يمتنع أن يذمهم في الدنيا وأن يعاقبهم في الآخرة عليه . فثبت أنه لا يمكن حمل هذه الآية على هذا الوجه . فنقول : التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى (كذلك نسلكه) عائداً الى الذكر الذي هو القرآن فانه تعالى قال قبل هذه الآية (إنا نحن نزلنا الذكر) وقال بعده (كذلك نسلكه) أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين ، والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم واصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عنادا وجهلا . فكان هذا موجبا للحوق للذم الشديد بهم . ويدل على صحة هذا التأويل وجهان : الأول : أن الضمير في قوله (لا يؤمنون به) عائداً الى القرآن بالاجماع فوجب أن يكون الضمير في قوله (كذلك نسلكه) عائداً اليه أيضاً لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شيء واحد . والثاني : أن قوله (كذلك) معناه : مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيهاً لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من أعمال نفسه . ولم يجر لعمل من أعمال الله ذكر في سابقة هذه الآية إلا قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) فوجب أن يكون هذا معطوفاً عليه ومشبهاً به ، ومتى كان الأمر كذلك كان الضمير في قوله (نسلكه) عائداً إلى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم .

والجواب : لا يجوز أن يكون الضمير في قوله (نسلكه) عائداً على الذكر . ويدل عليه وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أن قوله (كذلك نسلكه) مذكور بحرف النون ، والمراد منه إظهار نهاية التعظيم والجلالة . ومثل هذا التعظيم إنما يحسن ذكره إذا فعل فعلا يظهر له أثر قوى كامل بحيث صار المنازع والمدافع له مغلوبا مقهورا . فأما إذا فعل فعلا ولم يظهر له أثر البتة . صار المنازع والمدافع غالبا قاهرا ، فان ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحا في هذا المقام ، والأمر ههنا كذلك لأنه تعالى سلك أسماء القرآن وتحفيظه وتعليمه في قلب الكافر لأجل أن يؤمن به . ثم إنه

أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء هكذا كانت . ولك أسوة في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجمع الأنبياء عليهم السلام ، فهذا هو الكلام في نظم الآية وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية محذوف والتقدير: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا . إلا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه . وقوله (في شيع الأولين) أي في أمم الأولين واتباعهم . قال الفراء الشيع الأتباع واحدهم شيعة . وشيعة الرجل أتباعه . والشيععة الأمة سموا بذلك ، لأن بعضهم شايع بعضا وشاكله . وذكرنا الكلام في هذا الحرف عند قوله (أو يلبسكم شيعة) قال الفراء : وقوله (في شيع الأولين) من إضافة الصفة إلى الموسوف كقوله (حق اليقين) وقوله (بجانب الغربي) وقوله (وذلك دين القيمة) أما قوله (وما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن) أي عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن السبب الذي يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور . الأول : أنهم يستنقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات . والثاني : أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما أفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة ، وذلك شاق شديد على الطباع . والثالث : أن الرسول متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم طاعته وخدمته . وذلك أيضا في غاية المشقة . والرابع : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون فقيرا ولا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة . والخامس : خذلان الله لهم والقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم ، وهذا هو السبب الأصلي ؛ فلهذه الأسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الأنبياء عليهم السلام في هذه الأعمال القبيحة والأفعال المنكرة

أما قوله تعالى ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في الخيط والرمح في المطعون ، وقيل : في قوله (ما سلككم في سقر) أي أدخلكم في جهنم . وذكر أبو عبيدة وأبو عبيد : سلكته وأسلكته بمعنى واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار ، فقالوا قوله (كذلك نسلكه) أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين . قالت المعتزلة : لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ ، فلا يمكن أن يكون الضمير عائدا إليه لا يقال : إنه تعالى قال (وما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن) وقوله (يستهزؤن) يدل على الاستهزاء . فالضمير في قوله (كذلك نسلكه) عائده ، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال ،

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ «١٠» وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ «١١» كَذَلِكَ نَسُكُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ «١٢» لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَقَدْ خَلَتْ سِنَةُ الْأَوَّلِينَ «١٣»

وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته ، وقال آخرون : أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده
 بأن قيص جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف ، وقال آخرون
 المراد بالحفظ هو أن أحدا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا : هذا كذب وتغيير
 للكلام الله تعالى حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى
 لقال له كل الصبيان : أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا ، فهذا هو المراد من قوله
 (وانا له لحافظون)

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ ، فانه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف
 والتحريف والتغيير . إما في الكثير منه أو في القليل ، وبقاء هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات
 التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات
 وأيضاً أخبر الله تعالى عن بقاءه محفوظاً عن التغيير والتحريف ، وانقضى الآن قريباً من ستمائة سنة
 فكان هذا إخباراً عن الغيب . فكان ذلك أيضاً معجزاً قاهراً .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج القاضى بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) على فساد قول
 بعض الامامية في أن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال : لأنه لو كان الأمر كذلك لما
 بقى القرآن محفوظاً ، وهذا الاستدلال ضعيف ، لأنه يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه ، فالامامية الذين
 يقولون إن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان ، لعلمهم بقولون إن هذه الآية من جملة الزوائد
 التي ألحقت بالقرآن . فثبت أن اثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجري مجرى إثبات الشيء نفسه وأنه
 باطل والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون
 كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾
 اعلم أن القوم لما أساءوا في الأدب وخاطبوه بالسب واللعن وقالوا : انك لمجنون . فالثبت تعالى ذكر

ثم قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وفيه مسائل :
 ﴿المسألة الأولى﴾ أن القوم إنما قالوا (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) لأجل أنهم سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول «إن الله تعالى نزل الذكر علي» ثم إنه تعالى حقق قوله في هذه الآية فقال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

فأما قوله ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ فهذه الصيغة وإن كانت للجمع إلا أن هذا من كلام المملوك عند إظهار التعظيم فإن الواحد منهم إذا فعل فعلاً أو قال قولاً قال : إنا فعلنا كذا وقلنا كذا فكذا ههنا .

﴿المسألة الثانية﴾ الضمير في قوله (له لحافظون) إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان :
 ﴿القول الأول﴾ إنه عائد إلى الذكر يعنى : وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان ، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وقال : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)

فإن قيل : فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله فلا خوف عليه .

والجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه فانه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا : وفي هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية من أول كل سورة لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن ، والحفظ لا معنى له إلا لأن يبقى مصوناً من الزيادة والنقصان ، فلم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصوناً عن التغيير ، ولما كان محفوظاً عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضاً أن يظن بهم النقصان ، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة .

﴿والقول الثاني﴾ أن الكناية في قوله (له) راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى وإنا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء ، وقوى ابن الأنباري هذا القول فقال : لما ذكر الله الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه ، لكونه أمراً معلوماً كما في قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) فإن هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا ، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل والله أعلم
 ﴿المسألة الثالثة﴾ إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن فاختلّفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن قال بعضهم : حفظه بأن جعله معجراً مبيناً لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن فصار كونه معجراً كحاطة السور بالمدينة لأنه يحصنها ويحفظها ، وقال آخرون : إنه تعالى صانه

الموعود ، وهذا هو المراد بقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله (مانزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) فنقول : إن كان المراد من قولهم (لوما أتينا بالملائكة) هو الوجه الأول ، كان تقرير هذا الجواب أن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وعند حصول الفائدة . وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم ، وعلى هذا التقرير : فيصير إنزالهم عبثا باطلا ، ولا يكون حقا ، فلهذا السبب ما أنزلهم الله تعالى . وقال المفسرون : المراد بالحق ههنا الموت ، والمعنى : أنهم لا ينزلون إلا بالموت ، وإلا بعذاب الاستئصال ، ولم يبق بعد نزولهم انظار ولا إمهال ، ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة ، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة ، وأما إن كان المراد من قوله تعالى (لوما أتينا بالملائكة) استعجالهم في نزول العذاب الذي كان الرسول عليه السلام يتوعدهم به ، فتقرير الجواب أن الملائكة لا تنزل إلا بعذاب الاستئصال . وحكمنا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نفعل بهم ذلك ، وأن نهملهم لما علمنا من إيمان بعضهم . ومن إيمان أولاد الباقيين .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الفراء والزجاج : لولا ولوما لغتان : معناهما : هلا ويستعملان في الخبر والاستفهام ، فالخبر مثل قولك لولا أنت لفعلت كذا ، ومنه قوله تعالى (لولا أتممنا مؤمنين) والاستفهام كقولهم (لولا أنزل عليه ملك) وكهذه الآية . وقال الفراء : لوما الميم فيه بدل عن اللام في لولا ، ومثله استولى على الشيء واستوى عليه ، وحكى الأصمعي : خالته وخالته إذا صادته ، وهو خلى وخلى أى صدق .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (مانزل الملائكة إلا بالحق) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم : (مانزل) بالنون وبكسر الزاي والتشديد ، والملائكة بالنصب لوقوع الانزال عليها . والمنزل هو الله تعالى ، وقرأ أبو بكر عن عاصم (مانزل) على فعل مالم يسمى فاعله ، والملائكة بالرفع . والباقون : ما تنزل الملائكة على اسناد فعل النزول الى الملائكة والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (وما كانوا اذا منظرين) يعنى : لو نزلت الملائكة لم ينظروا أى يمهلوا فان التكليف يزول عند نزول الملائكة . قال صاحب النظم : لفظ اذن مركبة من كلمتين : من اذ وهو اسم بمنزلة حين . ألا ترى أنك تقول : أتيتك إذ جئتني ، أى حين جئتني . ثم ضم إليها أن ، فصار إذ أن . ثم استقلوا الهمزة ، فحذفوها فصار اذن . ومجىء لفظه اذن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير : وما كانوا منظرين اذ كان ما طلبوا ، وهذا تأويل حسن .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ «٩»

الصادقين ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴿
اعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد الكفار ذكر بعده شبههم في إنكار نبوته .

﴿فالشبهة الأولى﴾ أنهم كانوا يحكمون عليه بالجنون ، وفيه احتمالات : الأول : أنه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشى فظنوا أنها جنون ، والدليل عليه قوله (ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) وأيضا قوله (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) والثاني : أنهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله تعالى ، فالرجل اذا سمع كلاما مستبعدا من غيره فرمى بما قال له هذا جنون وأنت مجنون لبعده ما يذكره من طريقة العقل ، وقوله (إنك لمجنون) في هذه الآية يحتمل الوجهين .

أما قوله ﴿يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ففيه وجهان : الأول . أنهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون (إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) وكما قال قوم شعيب (إنك لأنت الحليم الرشيد) وكما قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) لأن البشارة بالعذاب ممتنعة . والثاني : (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) فى زعمه واعتقاده ، وعند أصحابه وأتباعه . ثم حكى عنهم أنهم قالوا فى تقرير شبههم (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ المراد لو كنت صادقا فى ادعاء النبوة لأتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة ، لأن المرسل الحكيم إذا حاول تحصيل أمر ، وله طريق يفضى الى تحصيل ذلك المقصود قطعا ، وطريق آخر قد يفضى وقد لا يفضى ، ويكون فى محل الشكوك والشبهات ، فان كان ذلك الحكيم أراد تحصيل ذلك المقصود ، فانه يحاول تحصيله بالطريق الأول لا بالطريق الثانى ، وإنزال الملائكة الذين يصدقونك ، ويقررون قولك طريق يفضى الى حصول هذا المقصود قطعا ، والطريق الذى تقرر به صحة نبوتك طريق فى محل الشكوك والشبهات ، فلو كنت صادقا فى ادعاء النبوة لوجب فى حكمة الله تعالى إنزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك وحيث لم تفعل ذلك علمنا أنك لست من النبوة فى شيء ، فهذا تقرير هذه الشبهة ، ونظيرها قوله تعالى فى سورة الأنعام (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) وفيه احتمال آخر : وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا به ، فالقوم طالبوه بنزول العذاب وقالوا له (لوما تأتينا بالملائكة) الذين ينزلون عليك ينزلون علينا بذلك العذاب

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ
 إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾

رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا مرجح محال . وإنما اختصر حدوثه بذلك الوقت المعين لأن إله العالم خصصه به بعينه ، وإذا كان كذلك ، فقدرة الاله وإرادته اقتضت ذلك التخصيص . وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه ، ولما كان تغير صفات الله تعالى أعنى القدرة والارادة والعلم والحكمة بمنعاً كان تغير ذلك الاختصاص بمنعاً .

إذا عرفت هذا فنقول : هذا الدليل بعينه قائم في أفعال العباد أعنى أن الصادر من زيد هو الايمان والطاعة . ومن عمرو هو الكفر والمعصية . فوجب أن يمتنع دخول التغير فيهما . فان قالوا . هذا إنما يلزم لو كان المقتضى لحدوث الكفر والايمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيتته . أما إذا قلنا : المقتضى لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيتتهما سقط ذلك .

قلنا : قدرة زيد وعمرو ومشيتتهما إن كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين بخالق تلك القدرة والمشيتة الموجبتين لذلك الفعل هو الذي قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الالزام ، وإن لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده ، كان رجحان أحد الطرفين على الآخر لم يكن مرجح . فقد عاد الأمر إلى أنه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل ، وإن كان لمخصص فذلك المخصص إن كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل ، وإن كان هو الله تعالى حينئذ يعود البحث إلى أن فعل العبد إنما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى ، وحينئذ لا يعود الالزام .

﴿المسألة الثالثة﴾ دلت الآية على أن كل من مات أو قتل فأنما مات بأجله ، وإن من قال : يجوز أن يموت قبل أجله فمخطئ .

فان قالوا : هذا الاستدلال إنما يتم إذا حملنا قوله (وما أهلكنا) على الموت ، أما إذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم .

قلنا : قوله (وما أهلكنا) إما أن يدخل تحته الموت أو لا يدخل ، فان دخل فلا استدلال ظاهر لازم . وإن لم يدخل فنقول : إن ما لأجله وجب في عذاب الاستئصال أن لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم في الموت ، فوجب أن يكون الحكم ههنا كذلك ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (ذرهم يأكلون ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) أتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى (وما أهلكننا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) في الهلاك والعذاب وإنما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم في الكتاب معجلاً ، والذين تأخروا كان وقت هلاكهم في الكتاب مؤجراً وذلك نهاية في الزجر والتحذير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذي كان الله ينزله بالمسكين المعاندين كما بينه في قوم نوح وقوم هود وغيرهم ، وقال آخرون : المراد بهذا الهلاك الموت . قال القاضي : والأقرب ما تقدم ، لأنه في الزجر أبلغ . فبين تعالى أن هذا الأمهال لا ينبغي أن يغتر به العاقل لأن العذاب مدخر ، فان لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال قوم آخرون : المراد بهذا الهلاك مجموع الأمرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت ، لأن كل واحد منهما يشارك الآخر في كونه هلاكاً ، فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذي يدخل فيه القسمان معاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الفراء : لو لم تكن الواو مذكورة في قوله (ولها كتاب) كان صواباً كما في آية أخرى وهي قوله (وما أهلكننا من قرية إلا لها منذرون) وهو كما تقول : مارأيت أحداً إلا وعليه ثياب وان شئت قلت : إلا عليه ثياب

أما قوله ﴿ ماتسبِق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدي : من في قوله (من أمة) زائدة مؤكدة كقولك : ما جاءني من أحد ، وقال آخرون : إنها ليست بزائدة لأنها تفيد التبعية أي هذا الحكم لم يحصل في بعض من أبعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك في إفادة عموم النفي أكد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب النظم معنى سبق إذا كان واقعاً على شخص كان معناه أنه جاز وخلف كقولك سبق زيد عمراً ، أي جازه وخلفه وراءه ، ومعناه أنه قصر عنه وما بلغه ، وإذا كان واقعاً على زمان كان بالعكس في ذلك ، كقولك : سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل إتيانه ولم يبلغه فقوله (ماتسبِق من أمة أجلها وما يستأخرون) معناه أنه لا يحصل ذلك الأجل قبل ذلك الوقت ولا بعده ، بل إنما يحصل في ذلك الوقت بعينه ، والسبب فيه أن اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذي قبله أو بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع ، لاعتن مرجح ولا عن مخصص فان

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ «٤» مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ «٥»

الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهُى عن حديثه . قال الكسائي والأصمعي : كل شيء تركته فقد
لهيت عنه وأنشد :

صرمت حبالك فاله عنها زينب ولقد أطلت عتابها لو تعبت
فقوله فاله عنها أى اتركها وأعرض عنها . قال المفسرون : شغلهم الأمل عند الأخذ بحظهم
عن الايمان والطاعة فسوف يعلمون .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يصد عن الايمان ويفعل
بالمسكف ما يكون له مفسدة فى الدين ، والدليل عليه أنه تعالى قال لرسوله (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا
ويلههم الأمل) فحكم بأن إقبالهم على التمتع واستغراقهم فى طول الأمل يلهيهم عن الايمان والطاعة
ثم إنه تعالى أذن لهم فيها ، وذلك يدل على المقصود . قالت المعتزلة : ليس هذا إذنا وتجويزا بل
هذا تهديد ووعد .

قلنا : ظاهر قوله (ذرهم) إذن أقصى ما فى الباب أنه تعالى نبه على أن إقبالهم على هذه الأعمال
يضرهم فى دينهم ، وهذا عين ما ذكرناه من أنه تعالى أذن فى شيء مع أنه نص على كون ذلك الشيء
مفسدة لهم فى الدين .

﴿المسألة الثالثة﴾ دلت الآية على أن إثارة التلذذ والتنعم وما يؤدى اليه طول الأمل ليس من
أخلاق المؤمنين ، وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين . والأخبار فى ذم الأمل كثيرة
فمنها ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان : الحرص على
المال وطول الأمل» . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه نطق ثلاث نطق وقال «هذا ابن آدم ، وهذا
الأمل . وهذا الأجل ، ودون الأمل تسع وتسعون منية فان أخذته إحداهن . وإلا فالهرم من
ورائه» . وعن على عليه السلام أنه قال : إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ، فان
طول الأمل ينسى الآخرة . واتباع الهوى يصد عن الحق . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها
وما يستأخرون﴾

(ربما يورد الذين كفروا) على محمل آخر ، والأصح ما قاله الزجاج فإنه قال : الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ود لو كان مسلما ، وهذا الوجه هو الأصح . وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوها . قال الضحاك : المراد منه ما يكون عند الموت ، فإن الكافر إذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلما . وقيل : إن هذه الحالة تحصل إذا اسودت وجوههم ، وقيل : بل عند دخولهم النار ونزول العذاب ، فانهم يقولون (أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل) وروى أبو موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لهم : أستم مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا : فما أغنى دينكم إسلامكم ، وقد صرتم معنا في النار ، فيفضل الله تعالى بفضله رحمة ، فيأمر باخراج كل من كان من أهل القبلة من النار ، فيخرجون منها ، فيخينذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية . وعلى هذا القول أكثر المفسرين ، وروى مجاهد عن ابن عباس رضی الله عنهما قال : ما يزال الله يرحم المؤمنين ، ويخرجهم من النار ، ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة ، حتى أنه تعالى في آخر الأمر يقول : من كان من المسلمين فيدخل الجنة . قال : فهنا لك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . قال القاضي : هذه الروايات مبنية على أنه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار ، وعلى أن شفاعة الرسول مقبولة في إسقاط العقاب ، وهذان الأصلان عنده مردودان ، فعند هذا حمل هذا الخبر على وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه وهو أنه تعالى يؤخر ادخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة أنه تعالى لا يدخلهم الجنة . ثم إنه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم وهناك يودون لو كانوا مسلمين ، قال فهذه الطريق تصحح هذه الأخبار والله أعلم .

فان قيل : إذا كان أهل القيامة قد يتمنون أمثال هذه الأحوال وجب أن يتمنى المؤمن الذي يقل ثوابه درجة المؤمن الذي يكثر ثوابه ، والمتمنى لما لم يجده يكون في الغصة وتأم القلب وهذا يقتضى أن يكون أكثر المؤمنين في الغصة وتأم القلب .

قلنا : أحوال أهل الآخرة لا تقاس بأحوال أهل الدنيا ، فالله سبحانه أرضى كل أحد بما فيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال (ونزعنا ما في صدورهم من غل) والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المعنى : دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولاخلاق

لهم في الآخرة وقوله (ويلههم الأمل) يقال : لهيت عن الشيء الهى لهيا ، وجاء في الحديث أن ابن

الكافر الاسلام مقطوع به ، وكلمة رب تفيد الظن ، وأيضا أن ذلك التمني يكثر ويتصل . فلا يليق به لفظة (ربما) مع أنها تفيد التقليل .

والجواب عنه من وجوه :

(الوجه الأول) أن من عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظا وضع للتقليل . وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظا وضع للشك ، والمقصود منه : إظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض ، فيقولون : ربما ندمت على ما فعلت . ولعلك تندم على فعلك وإن كان العلم حاصلا بكثرة الندم ووجوده بغير شك ، ومنه قول القائل :

قد أترك القرن مصفرا أنامله

(والوجه الثاني) في الجواب أن هذا التقليل أبلغ في التهديد ، ومعناه : أنه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن هذا الفعل فكيف كثيره ؟

(والوجه الثالث) في الجواب أن يشغلهم العذاب عن تمنى ذلك الا في القليل .

(المسألة الرابعة) اتفقوا على أن كلمة «رب» مختصة بالدخول على الماضي كما يقال : ربما قصدني عبد الله ، ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها . وقال بعضهم : ليس الأمر كذلك والدليل عليه قول الشاعر :

ربما تكره النفوس من الأمر

وهذا الاستدلال ضعيف . لآنا بينا أن كلمة «رب» في هذا البيت داخله على الاسم وكلامنا في أنها إذا دخلت على الفعل وجب كون ذلك الفعل ماضيا ، فأين أحدهما من الآخر ؟ إلا أني أقول قول هؤلاء الأدباء إنه لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بالدليل العقلي ، وإنما الرجوع فيه الى النقل والاستعمال ، ولو أنهم وجدوا بيتا مشتملا على هذا الاستعمال لقالوا إنه جائز صحيح . وكلام الله أقوى وأجل وأشرف ، فلم لم يتمسكوا بوروده في هذه الآية على جوازها وصحته . ثم نقول إن الأدباء أجابوا عن هذا السؤال من وجهين : الأول : قالوا إن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه ، فكأنه قيل : ربما ودوا . الثاني : أن كلمة «ما» في قوله (ربما يود الذين كفروا) اسم (ويود) صفة له ، والتقدير : رب شيء يوده الذين كفروا . قال الزجاج : ومن زعم أن الآية على اضمار كان وتقديره ربما يود الذين كفروا فقد خرج بذلك عن قول سيديويه : ألا ترى أن كان لا تضر عنده ولم يحز عبد الله المقبول وأنت تريد كان عبد الله المقبول .

(المسألة الخامسة) في تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين فإن كل أحد حمل قوله

رب وردت مضمومة ومفتوحة ، أما إذا كانت مضمومة فالباء قدوردت مشددة ومخففة وساكنة وعلى كل التقديرات تارة مع حرف ما ، وتارة بدونها وأيضا تارة مع التاء وتارة بدونها وأنشدوا :

أسمى ما يدريك أن رب فتية باكرت لذتهم بأذكر مسرع

ورب بتسكين الباء وأنشدوا بيت الهذلي :

أزهـيران يشب القذال فاني رب هيضل مرس كفتت بهيضل

والهيضل جماعة متسلحة ، وأيضا هذه الكلمة قد تجيء حالتى تشديد الباء وتخفيفها مع حرف «ما» كقولك : ربما وربما وتارة مع التاء ، وحرف «ما» كقولك : ربما وربما هذا كله إذا كانت الراء من رب مضمومة وقد تكون مفتوحة ، فيقال : رب وربما وربما وربما حكاية قطرب قال أبو علي : من الحروف ما دخل عليه حرف التانيث ، نحو : ثم وثمت ، ورب وربت ، ولا ولات ، فهذه اللغات بأسرها رواها الواحدى فى البسيط .

﴿المسألة الثانية﴾ رب حرف جر عند سيبويه ، ويلحقها «ما» على وجهين : أحدهما : أن تكون نكرة بمعنى شىء ، وذلك كقوله :

رب ما تكره النفوس من الآم ر له فرجة كحل العقال

فما فى هذا البيت اسم والدليل عليه عود الضمير اليه من الصفة ، فان المعنى رب شىء. تكرهه النفوس وإذا عاد الضمير اليه كان اسما ولم يكن حرفا ، كما أن قوله تعالى (أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين) لما عاد الضمير اليه علمنا بذلك أنه اسم ، وبما يدل على أن «ما» قد يكون اسما اذا وقعت بعد رب وقوع من بعدها فى قول الشاعر :

يارب من ينقص أزوادنا رحن على نقصانه واغتدين

فكما دخلت رب على كلمة «من» وكانت نكرة ، فكذلك تدخل على كلمة (ما) فهذا ضرب والضرب الآخر أن تدخل ما كافة كما فى هذه الآية . والنحويون يسمون ما هذه الكافة يريدون أنها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذى كان له ، وإذا حصل هذا الكف فينبذ تهيأ للدخول على مالم تكن تدخل عليه ، ألا ترى أن رب إنما تدخل على الاسم المفرد نحو رب رجل يقول ذلك ولا تدخل على الفعل ، فلما دخلت «ما» عليها هيأتها للدخول على الفعل كنهه الآية ، والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ اتفقوا على أن رب موضوعة للتقليل ، وهى فى التقليل نظيرة كم فى التكثير ، فاذا قال الرجل : ربما زارنا فلان ، دل ربما على تقليله الزيارة . قال الزجاج : ومن قال إن رب يعنى بها الكثرة ، فهو ضد ما يعرفه أهل اللغة . وعلى هذا التقدير : فههنا سؤال ، وهو أن تمنى

سورة الحجر

مكية . إلا آية : ٨٧ ، فمدنية

وآياتها : ٩٩ ، نزلت بعد سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تَلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ «١» رَبَّمَا يُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ «٢» ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ «٣»

سورة الحجر

تسعون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبین ربما یود الذین کفروا لو کانوا مسلمین ذرهم یأکلوا
ویتمتعوا ویلهم الأمل فسوف یعلمون﴾

اعلم أن قوله (تلك) إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات . والمراد بالكتاب والقرآن المبین
الكتاب الذی وعد الله تعالى به محمداً صلى الله علیه وسلم وتکبیر القرآن للتفخیم ، والمعنى : تلك
الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل فی كونه کتابا وفي كونه قرآنا مفیداً للبیان .

أما قوله ﴿ربما یود الذین کفروا لو کانوا مسلمین﴾ ففیه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع وعاصم (ربما) خفيفة الباء والباقون مشددة قال أبو حاتم : أهل
الحجاز یخففون ربما ، وقیس وبکر یثقلونها ، وأقول فی هذه اللفظة لغات ، وذلك لأن الراء من

التي يتجلى فيها قدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلال، معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وأفعاله .

﴿والشعبة الثانية﴾ القوة العملية وسعادتها في أن تصير موصوفة بالأخلاق الفاضلة التي تصير مبادئ لصدور الأفعال الكاملة عنها ، ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (وليعلموا أنما هو إله واحد) إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله (وليدكر أولوا الألباب) إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فان الفائدة في هذا التذکر ، إنما هو الاعراض عن الأعمال الباطلة والاقبال على الأعمال الصالحة ، وهذه الخاتمة كالدليل القاطع في أنه لا سعادة للإنسان إلا من هاتين الجهتين .

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والاقبال على العمل الصالح ، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل ، فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال القاضى : أول هذه السورة وآخرها يدل على أن العبد مستقل بفعله ، إن شاء أطاع وإن شاء عصى ، أما أول هذه السورة فهو قوله تعالى (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) فانا قد ذكرنا هناك أن هذا يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية ، وأما آخر السورة فلأن قوله (وليدكر أولوا الألباب) يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذه السورة ، وإنما ذكر هذه النصائح والمواعظ لأجل أن ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين ويتركوا الكفر والمعصية ، فظهر أن أول هذه السورة وآخرها متطابقان في إفادة هذا المعنى . واعلم أن الجواب المستقصى عنه مذكور في أول السورة فلا فائدة في الإعادة .

﴿المسألة الرابعة﴾ هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله ، لأنه تعالى بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل لتذكير أولى الألباب ، فلو لا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولى الألباب لما كان الأمر كذلك .

قال المصنف رحمه الله تعالى ورضى عنه : تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة ختم بالخير والغفران في صحراء بغداد ، ونسأل الله الخلاص من الغموم والأحزان والفوز بدرجات الجنان . والخلاص من دركات النيران ، إنه الملك المنان ، الرحيم الديان ، بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم .

بعضهم (من قطران) والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المنهاهي حره . قال أبو بكر بن الانباري :
وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفتنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والأغالل التي كانت عليهم
(الصفة الثالثة) قوله تعالى (وتغشى وجوههم النار) ونظيره قوله تعالى (أمن يتقى بوجهه سوء

العذاب يوم القيامة) وقوله (يوم يسحبون في النار على وجوههم)

واعلم أن موضع المعرفة والنيكرة والعلم والجهل هو القلب ، وموضع الفكر والوهم والخيال
هو الرأس . وأثر هذه الأحوال إنما تظهر في الوجه ، فلهذا السبب خص الله تعالى هاتين العضوين
بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب (نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة) وقال في الوجه
(وتغشى وجوههم النار) بمعنى تغشى ، ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال (ليجزى الله كل
نفس ما كسبت) قال الواحدى : المراد منه أنفس الكفار لأن ماسبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء
لأهل الايمان ، وأقول يمكن اجراء اللفظ على عمومه . لأن لفظ الآية يدل على أنه تعالى يجزى
كل شخص بما يليق بعمله وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية ، كان جزاؤهم
هو هذا العقاب المذكور ، ولما كان كسب المؤمنين الايمان والطاعة ، كان اللائق بهم هو الثواب
وأيضاً أنه تعالى لما عاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان أولى .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ والمراد أنه تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذى
يستحقونه . وحظ العقل منه أن الاخلاق الظلمانية هي المبادئ لحصول الآلام الروحانية وحصول
تلك الاخلاق في النفس على قدر صدور تلك الأعمال منهم في الحياة الدنيا ، فان الملكات النفسانية
إنما تحصل في جوهر النفس بسبب الافعال المتكررة ، وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت
بحسب تلك الافعال في كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب .

ثم قال تعالى ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ أى هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس ، أى كفاية في الموعظة
ثم اختلفوا فقيل : إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن ، وقيل : بل إشارة إلى كل هذه السورة .
وقيل : بل إشارة إلى المذكور من قوله (ولا تحسبن) إلى قوله (سريع الحساب) وأما قوله (ولينذروا
به) فهو معطوف على محذوف أى لينتصحووا (ولينذروا به) أى بهذا البلاغ .

ثم قال ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قد ذكرنا في هذا الكتاب مراراً أن النفس الانسانية لها شعبتان : القوة

النظرية وكمال حالها في معرفة الموجودات بأقسامها وأجناسها وأنواعها حتى تصير النفس كالمرآة

بالعناية الصمدانية ، وإن كان الثاني فتلك النفس تفارق مع الأسف والحزن والبلاء الشديد ، بسبب الميل الى عالم الجسم ، وهذا هو المراد بقوله (وإذا النفوس زوجت) وشيطان النفس الكافرة هي الملكات الباطلة ، والحوادث الفاسدة ، وهو المراد من قول عطاء : إن كل كافر مع شيطانه يكون مقرونا في الأصفاد.

﴿والقول الثاني﴾ في تفسير قوله (مقرنين في الأصفاد) هو قرن بعض الكفار ببعض ، والمراد أن تلك النفوس الشقية والأرواح المكدرة الظلمانية ، لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها الى بعض ، وتنادى ظلمة كل واحدة منها الى الأخرى ، فاندركل واحدة منها الى الأخرى في تلك الظلمات ، والخسارات هي المراد بقوله (مقرنين في الأصفاد)

﴿والقول الثالث﴾ قال زيد بن أرقم : قرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم بالأغلال ، وحظ العقل من ذلك أن الملكات الحاصلة في جوهر النفس إنما تحصل بتكرير الأفعال الصادرة من الجوارح والأعضاء ، فإذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة ، صارت في المثال كأن أيديها وأرجلها قرنت وغلت في رقابها . وأما قوله (في الأصفاد) ففيه وجهان : أحدها : أن يكون ذلك متعلقا بمقرنين ، والمعنى : يقربون بالأصفاد ، والثاني : أن لا يكون متعلقا به ، والمعنى : أنهم مقرنون مقيدون ، وحظ العقل معلوم مما سلفت الإشارة اليه .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله تعالى (سرايلهم من قطران) السرايل جمع سربال وهو القميص ، والقطران فيه ثلاثة لغات : قطران وقطران وقطران ، بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء وبفتح القاف وكسر الطاء ، وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ويطل به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته ، وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف . ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلى كالسرايل ، وهي القمص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب ، لذع القطران وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم . واللون الوحش . وتتن الريح ، وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين ، وأقول حظ العقل من هذا أن جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال ، وهذا البدن جار مجرى السربال والقميص له . وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم ، فأنما يحصل بسبب هذا البدن ، فلهذا البدن لذع وحرقة في جوهر النفس ، لأن الشهوة والحرص والغضب إنما تتسارع إلى جوهر الروح بسببه ، وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذي يخفى لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول التتن والعفونة ، فتشبه هذا الجسد بسرايل من القطران والقطر ، وقرأ

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد بتبديل الذات . قال ابن مسعود : تبديل بأرض كالمضنة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة ، فهذا شرح هذين القولين ، ومن الناس من رجح القول الأول . قال لأن قوله (يوم تبذل الأرض) المراد هذه الأرض ، والتبديل صفة مضافة إليها . وعند حصول الصفة لا بد وأن يكون الموصوف موجودا ، فلما كان الموصوف بالتبديل هو هذه الأرض وجب كون هذه الأرض باقية عند حصول ذلك التبديل ، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبديل ، وإلا لا تمتنع حصول التبديل ، فوجب أن يكون الباقي هو الذات . فثبت أن هذه الآية تقتضى كون الذات باقية ، والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون : إن عند قيام القيامة لا يعدم الله الذوات والأجسام ، وإنما يعدم صفاتها وأحوالها .

واعلم أنه لا يبعد أن يقال : المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم ، ويجعل السموات الجنة ، والدليل عليه قوله تعالى (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين) وقوله (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) والله أعلم .

أما قوله تعالى ﴿وبرزوا لله الواحد القهار﴾ فنقول أما البروز لله فقد فسرناه في قوله تعالى (وبرزوا لله جميعاً) وإنما ذكر الواحد القهار ههنا . لأن الملك إذا كان لمالك واحد غلاب لا يغالب قهار لا يقهر فلا مستغاث لأحد الى غيره فكال الأمر في غاية الصعوبة ، ونظيره قوله (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ولما وصف نفسه سبحانه بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم . فقال (وترى المجرمين يومئذ)

واعلم أنه تعالى ذكر من صفات عجزهم وذلتهم أمورا :

﴿فالصفة الأولى﴾ كونهم مقرنين في الأصفاد . يقال : قرنت الشيء بالشيء إذا شدته به ووصلته . والقرآن اسم للجبل الذى يشد به شيطان . وجاء ههنا على التكثير لكثرة أولئك القوم والأصفاد جمع صفت وهو القيد .

إذا عرفت هذا فنقول : في قوله (مقرنين) ثلاثة أوجه : أحدها : قال الكلبي : مقرنين كل كافر مع شيطان في غل ، وقال عطاء : هو معنى قوله (وإذا النفوس زوجت) أى قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحوار العين ، ونفوس الكافرين بقربانهم من الشياطين ، وأقول حظ البحث العقلي منه أن الانسان إذا فارق الدنيا ، فاما أن يكون قد راض نفسه وهنيتها ودعاها إلى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته ، أو ما فعل ذلك ، بل تركها متوغلة في الذات الجسدانية مقبلة على الأحوال الوهمية والخيالية ، فان كان الأول فملك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الالهية . والسعادة

سَرِيعِ الْحُسَابِ «٥١» هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ «٥٢»

نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد
وليذكر أولوا الألباب ﴿

اعلم أن الله تعالى لما قال (عزيز ذو انتقام) بين وقت انتقامه فقال (يوم تبدل الأرض غير الأرض)
وعظم من حال ذلك اليوم ، لأنه لأمر أعظم في العقول والنفوس من تغيير السموات والأرض
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر الزجاج في نصب يوم وجهين ، إما على الظرف لانتقام أو على البدل من
قوله (يوم يأتيهم العذاب)

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن التبديل يحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون الذات باقية وتبديل
صفتها بصفة أخرى . والثاني : أن تفتى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى ، والدليل على أن ذكر
لفظ التبديل لارادة التغيير في الصفة جائز ، أنه يقال بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وسويتها خاتماً
فنقلتها من شكل إلى شكل ، ومنه قوله تعالى (فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات) ويقال : بدلت
قميصي جبة . أى نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى ، ويقال : تبدل زيد إذا تغيرت أحواله ،
وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبديل في الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير ، ومنه قوله
(بدلناهم جلوداً غيرها) وقوله (بدلناهم بجننتهم جنتين) إذ اعرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من
هذين المفهومين ففي الآية قولان :

﴿القول الأول﴾ أن المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات . قال ابن عباس رضى الله عنهما :
هى تلك الأرض إلا أنها تغيرت فى صفاتها ، ففسر عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى ،
فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
«يبدل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظى فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً»
وقوله (والسموات) أى تبدل السموات غير السموات ، وهو كقوله عليه السلام «لا يقتل مؤمن
بكافر ولا ذو عهد فى عهده» والمعنى : ولا ذو عهد فى عهده بكافر ، وتبديل السموات بانتثار
كواكبها وانفطارها . وتكوير شمسها ، وخسوف قمرها ، وكونها أبواباً ، وأنها تارة تكون كالمهل
وتارة تكون كالدهان .

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾
يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّابِيلِهِمْ مِنْ
قَطْرَانَ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ

لأن الله تعالى وعد نبيه إظهار دينه على كل الأديان . ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) أى قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم ، والمعنى : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، أى وكان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التى هى دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودلائل شريعته ، وقرأ على وعمرو (أن كان مكرهم)

قوله تعالى ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾

اعلم أنه تعالى قال فى الآية الأولى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) وقال فى هذه الآية (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم يقم القيامة ولم ينتقم للظالمين من الظالمين ، لزم إما كونه غافلا وإما كونه مخلفا فى الوعد ، ولما تقرر فى العقول السليمة أن كل ذلك محال كان القول بأنه لا يقم القيامة باطلا وقوله (مخلف وعده رسله) يعنى قوله (إنا لننصر رسنانا) وقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى)

فان قيل : هلا قيل مخلف رسله وعده . ولم قدم المفعول الثانى على الأول ؟

قلنا : ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا ، إن الله لا يخلف الميعاد ، ثم قال (رسله) ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه إخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ، وقرىء (مخلف وعد رسله) بجر الرسل ونصب الوعد . والتقدير : مخلف رسله وعده ، وهذه القراءة فى الضعف . كمن قرأ قتل أولادهم شركائهم ثم قال (إن الله عزيز) أى غالب لا يماكر ذو انتقام لأوليائه .

قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَّابِيلِهِمْ مِنْ قَطْرَانَ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفة عقابهم أتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال (وقد مكروا مكرهم) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا في أن الضمير في قوله (وقد مكروا) إلى ماذا يعود؟ على وجوه :
 الأول : أن يكون الضمير عائداً إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول الصحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات . والثاني : أن يكون المراد به قوم محمد صلى الله عليه وسلم والدليل عليه قوله (وأندر الناس) يا محمد وقد مكر قومك مكرهم ، وذلك المكر هو الذي ذكره الله تعالى في قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) وقوله (مكرهم) أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم . الثالث : أن المراد من هذا المكر ما نقل أن نمرود حاول الصعود إلى السماء فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور ، وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الأربعة من التابوت عصياً أربعا وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم إنه جلس مع حاجبه في ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الدنيا عن عين نمرود ورأى السماء بجالها فنكس تلك العصى التي علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت إلى الأرض ، فهذا هو المراد من مكرهم . قال القاضي : وهذا بعيد جداً لأن الخطر فيه عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة في تأويل الآية البتة .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (وعند الله مكرهم) فيه وجهان : الأول : أن يكون المكر مضافاً إلى الفاعل كالأول . والمعنى : ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكرهم أعظم منه . والثاني : أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول ، والمعنى : وعند الله مكرهم الذي يمكر بهم وهو عقابهم الذي يستحقونه بآتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون .

أما قوله تعالى ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ فاعلم أنه قرأ الكسائي وحده (لتزول) بفتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى منه ، والباقي بكسر الأولى ونصب الثانية .

﴿أما القراءة الأولى﴾ فعناها أن مكرهم كان معداً لأن تزول منه الجبال ، وليس المقصود من هذا الكلام الاخبار عن وقوعه ، بل التعظيم والتحويل وهو كقوله (تكاد السموات يتفطرن منه) ﴿وأما القراءة الثانية﴾ فالمعنى : أن لفظة «إن» في قوله (وإن كان مكرهم) بمعنى «ما» واللام المكسورة بعدها يعني بها الجحد . ومن سبيلها نصب الفعل المستقبل . والنحويون يسمونها لام الجحد ومثله قوله تعالى (وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ما كان الله ليذر المؤمنين) والجبال ههنا مثل الأمر النبي صلى الله عليه وسلم ولأمرددين الاسلام وإعلامه ودلالته على معنى أن ثبوتها كثبوت الجبال الراسية

وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ

مِنْهُ الْجِبَالُ «٤٦»

أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل) واختلفوا في المراد بقوله (أخرنا إلى أجل قريب) فقال بعضهم طلبوا الرجعة إلى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه ، وقال : بل طلبوا الرجوع إلى حال التكليف بدليل قولهم : نجب دعوتك وتتبع الرسل ، وأما على قول أبي مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيباً لهم (أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ومعناه ما ذكره الله تعالى في آية أخرى ، وهو قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) إلى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من انكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لأن التقريع بهذا الجنس أقوى ، ومعنى : ما لكم من زوال. لا شبهة في أنهم كانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى ، ومن هذه الدار إلى دار المجازاة ، لأنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة إلى موت أو عن شباب إلى هرم أو عن فقر إلى غنى ، ثم إنه تعالى زادهم تقريعاً آخر بقوله (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) يعني سكنتم في مساكن الذين كفروا قبلكم . وهم قوم نوح وعاد وثمود ، وظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية ، لأن من شاهد هذه الأحوال وجب عليه أن يعتبر ، فإذا لم يعتبر كان مستوجباً للذم والتقريع .

ثم قال ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ وظهر لكم أن عاقبتهم عادت إلى الوبال والخزى والنكال فان قيل : ولماذا قيل (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكتهم لأجل تكذيبهم؟

قلنا : إنهم علموا أن أولئك المتقدمين كانوا طالبين للدنيا ثم إنهم فنوا وانقرضوا فعندهذا يعلمون أنه لا فائدة في طلب الدنيا ، والواجب الجد والاجتهاد في طلب الدين ، والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفاً وجلاً فيكون ذلك زجراً له هذا إذا قرئ بالثاء أما إذا قرئ بالنون فلا شبهة فيه لأن التقدير كأنه تعالى قال أولم تبين لكم كيف فعلنا بهم ، وليس كل ما بين لهم تبينوه . أما قوله ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ فالمراد ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل ، وذلك في كتاب الله كثير . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقدمكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى
 أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبِجْ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ
 مِنْ زَوَالٍ «٤٤» وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
 فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ «٤٥»

في وقت حصولها فليل : إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك
 اليوم بأنه يوم يقوم الحساب ، وقيل : إنها تحصل عند ما يميز فريق عن فريق ، والسعداء يذهبون
 الى الجنة . والأشقياء الى النار . وقيل : بل يحصل عند إجابة الداعي والقيام من القبور ، والأول
 أولى للدليل الذي ذكرناه ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب
 دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا
 أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾
 اعلم أن قوله (يوم يأتيهم العذاب) فيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال صاحب الكشاف (يوم يأتيهم العذاب) مفعول ثان لقوله (وأنذر)
 وهو يوم القيامة

﴿البحث الثاني﴾ الألف واللام في لفظ (العذاب) للبهود السابق ، يعني : وأنذر الناس يوم
 يأتيهم العذاب الذي تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم ، وكونهم مهطعين مقنعى رؤسهم ،

﴿البحث الثالث﴾ الانذار هو التخويف بذكر المضار ، والمفسرون يجمعون على أن قوله (يوم
 يأتيهم العذاب) هو يوم القيامة ، وحمله أبو مسلم على أنه حال المعاينة ، والظاهر يشهد بخلافه ، لأنه
 تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتي فيه وأنهم يسألون الرجعة ، ويقال لهم (أولم تكونوا أقسمتم
 من قبل ما لكم من زوال) ولا يليق ذلك إلا بيوم القيامة . وحجة أبي مسلم : أن هذه الآية شبيهة
 بقوله تعالى (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل
 قريب فأصدق) ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار في ذلك اليوم ، فقال (فيقول الذين ظلموا ربنا

أن المقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم كان عدم الانتقام لأجل غفاته عن ذلك الظلم ، ولما كان امتناع هذه الغفلة معلوما لكل أحد لا جرم كان عدم الانتقام محالا . والثالث : أن المراد ولا تحسبناه يعاملهم ماملة الغافل عما يعملون ، وان كان معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقيروالقطمير . الرابع : أن يكون هذا الكلام وإن كان خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم في الطاهر ، إلا أنه يكون في الحقيقة خطاباً مع الأمة ، وعن سفيان بن عيينة : أنه تسلية للظلم وتهديد للظالم . ثم بين تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات .

﴿الصفة الأولى﴾ أنه تشخص فيه الأَبصار . يقال : شخص بصر الرجل اذا بقيت عينه مفتوحة لا يطر فيها ، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة .
﴿والصفة الثانية﴾ قوله (مهطعين) وفي تفسير الاهطاع أقوال أربعة :

﴿القول الأول﴾ قال أبو عبيدة هو الاسراع . يقال : أهطع البعير في سيره واستهطع اذا أسرع وعلى هذا الوجه . فالمعنى : أن الغالب من حال من يبقى بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً . فبين الله تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد ، فانهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين ، أى مسرعين نحو ذلك البلاء .

﴿القول الثاني﴾ في الاهطاع قال أحمد بن يحيى : المهطع الذى ينظر فى ذل وخشوع .

﴿والقول الثالث﴾ المهطع الساكت .

﴿والقول الرابع﴾ قال الليث : يقال للرجل إذا قر وذل أهطع .

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله (مقنعي رؤسهم) والاقناع رفع الرأس والنظر فى ذل وخشوع ، فقوله (مقنعي رؤسهم) أى رافعي رؤسهم والمعنى أن المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرُق رأسه عنه لكي لا يراه . فبين تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤسهم .

﴿الصفة الرابعة﴾ قوله (لا يرتد إليهم طرفهم) والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص ، فقوله (تشخص فيه الابصار) لا يفيد كون هذا الشخوص دائماً وقوله (لا يرتد إليهم طرفهم) يفيد دوام هذا الشخوص ، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة فى قلوبهم .

﴿الصفة الخامسة﴾ قوله (وأفئدتهم هواء) الهواء الخلاء الذى لم تشغله الاجرام ثم جعل وصفاً فقيل قلب فلان هواء اذا كان خالياً لا قوة فيه ، والمراد بيان أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والافكار لعظم ما ينالهم من الحسرة . ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور ، لكثرة ما فيه من الحزن . اذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴿٤٣﴾

فالجواب عنه من وجوه : الأول : أن المنع منه لا يعلم إلا بالتوقيف فلعلة لم يجد منه منعاً فظن كونه جائزاً . الثاني : أراد بوالديه آدم وحواء . الثالث : كان ذلك بشرط الاسلام . ولقائل أن يقول : لو كان الأمر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلا ولو لم يكن لبطل قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) وقال بعضهم : كانت أمه مؤمنة ، ولهذا السبب خص أباه بالذكر في قوله تعالى (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) والله أعلم وفي قوله (يوم يقوم الحساب) قولان : الأول : يقوم أى يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل ، والدليل عليه قولهم : قامت الحرب على ساقها ، ونظيره قوله ترجمات الشمس ، أى أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل . الثاني : أن يسند الى الحساب قيام أهله على سبيل المجاز مثل قوله (واسأل القرية) أى أهلها والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾
اعلم أنه لما بين دلائل التوحيد ثم حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أن يصونه عن الشرك . وطلب منه أن يوفقه للأعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على وجود يوم القيامة ، وما يدل على صفة يوم القيامة ، أما الذى يدل على وجود القيامة فهو قوله (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون) فالمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم ينتقم للظالم من الظالم ، لزم أن يكون إما غافلاً عن ذلك الظالم أو عاجزاً عن الانتقام ، أو كان راضياً بذلك الظلم ، ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالاً على الله امتنع أن لا ينتقم للظالم من الظالم .

فان قيل : كيف يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفاً بالغفلة ؟
والجواب من وجوه : الأول : المراد به التثيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً ، كقوله (ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر) وكقوله (يا أيها الذين آمنوا) والثاني :

المطلوب ، بل قال (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) أى أنك تعلم ما فى قلوبنا وضمائرنا . ثم قال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق) وذلك يدل ظاهراً على أنهما يبقيان بعد موته وأنه مشغول القلب بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة الى الدعاء أفضل من الدعاء قال عليه السلام حاكياً عن ربه أنه قال «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» ثم قال (إن ربي لسميع الدعاء)

واعلم أنه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لاعلى وجه الايضاح والتصريح قال : (إن ربي لسميع الدعاء) أى هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أصرح وقوله : سميع الدعاء . من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده .

﴿المطلوب الخامس﴾ قوله (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا إن قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام (اجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) يدل على أن ترك المنهيات لا يحصل إلا من الله وقوله (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) يدل على أن فعل المسأورات لا يحصل إلا من الله . وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصرأ على أن الكحل من الله .

﴿المسألة الثانية﴾ تقدير الآية : رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى . أى واجعل بعض ذريتى كذلك لأن كلمة «من» فى قوله (ومن ذريتى) للتبعية . وإما ذكر هذا التبعية لأنه علم باعلام الله تعالى أنه يكون فى ذريته جمع من الكفار وذلك قوله (لا ينال عهدى الظالمين)

﴿المطلوب السادس﴾ أنه عليه السلام لما دعا الله فى المطالب المذكورة دعا الله تعالى فى أن يقبل دعاءه فقال (ربنا وتقبل دعاء) وقال ابن عباس : يريد عبادتى بدليل قوله تعالى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله)

﴿المطلوب السابع﴾ قوله (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وفيه مسألتان .

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول : طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه وإن كان قاطعاً بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعاً بحصوله ؟

والجواب : المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته .

﴿المسألة الثانية﴾ إن قال قائل كيف جاز أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين ؟

فقال إلى الله أكلكم ، قالت آله أمرك بهذا ؟ قال نعم : قالت إذن لا تخشى .

ثم قال ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ وفيه قولان : أحدهما : أنه كلام الله عز وجل تصديقاً لابراهيم عليه السلام كقوله (وكذلك يفعلون) والثاني : أنه من كلام ابراهيم عليه السلام يعنى وما يخفى على الذى هو عالم الغيب من شيء فى كل مكان ، ولفظ «من» يفيد الاستغراق كأنه قيل : وما يخفى عليه شيء ما .

ثم قال ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ﴾ وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أن القرآن يدل على أنه تعالى إنما أعطى ابراهيم عليه السلام هذين الولدين أعنى اسمعيل واسحق على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى الروايات . فقيل لما ولد اسمعيل كان سن ابراهيم تسعاً وتسعين سنة ، ولما ولد اسحق كان سنه مائة واثنى عشرة سنة . وقيل ولد له اسمعيل لأربع وستين سنة وولد اسحق لتسعين سنة ، وعن سعيد بن جبير : لم يولد لابراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة ، وإنما ذكر قوله (على الكبر) لأن المنة بهية الولد فى هذا السن أعظم ، من حيث أن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة . والظفر بالحاجة فى وقت اليأس من أعظم النعم . ولأن الولادة فى تلك السن العالية كانت آية لابراهيم .

فان قيل : إن ابراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء عندما أسكن اسمعيل وهاجر أمه فى ذلك الوادى ، وفى ذلك الوقت ما ولد له اسحق فكيف يمكنه أن يقول (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق)

قلنا قال القاضى : هذا الدليل يقتضى أن ابراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام فى زمان آخر لا عقب ماتقدم من الدعاء . ويمكن أيضاً أن يقال : انه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر اسمعيل وظهور اسحق وإن كان ظاهر الروايات بخلافه .

﴿ البحث الثانى ﴾ على فى قوله (على الكبر) بمعنى مع كقول الشاعر :

إنى على ما ترين من كبرى أعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو فى موضع الحال ومعناه : وهب لى فى حال الكبر .

﴿ البحث الثالث ﴾ فى المناسبة بين قوله (ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء) وبين قوله (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق) وذلك هو كأنه كان فى قلبه أن يطلب من الله إعانتها وإعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا

ثم قال ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾ وفيه مباحث :

﴿البحث الاول﴾ قال الاصمعي هوى يهوى هويًا بالفتح إذا سقط من علو إلى سفلى . وقيل : (تهوى إليهم) تريد هم ، وقيل : تسرع إليهم . وقيل : تنحط إليهم وتنحدر إليهم وتنزل . يقال : هوى الحجر من رأس الجبل يهوى إذا انحدر وانصب ، وهوى الرجل إذا انحدر من رأس الجبل .

﴿البحث الثانى﴾ أن هذا الدعاء جامع للدين والدنيا . أما الدين فلا أنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى . وأما الدنيا : فلا أنه يدخل فيه ميل الناس إلى نقل المعاشات إليهم بسبب التجارات ، فلاجل هذا الميل يتسع عيشهم ، ويكثر طعامهم ولباسهم .

﴿البحث الثالث﴾ كلمة (من) فى قوله (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) تفيد التبعية ، والمعنى : فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة إليهم . قال مجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند . وقال سعيد بن جبير : لو قال أفئدة الناس . لحجت اليهود والنصارى والمجوس ، ولكنه قال (أفئدة من الناس) فهم المسلمون .

ثم قال ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أنه لم يقل : وارزقهم الثمرات ، بل قال (وارزقهم من الثمرات) وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات إليهم .

﴿البحث الثانى﴾ يحتمل أن يكون المراد بإيصال الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارات وإنما يكون المراد : عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل الثمار منها .

ثم قال ﴿لعلهم يشكرون﴾ وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات ، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات .

﴿المطلوب الرابع﴾ قوله (ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن)

واعلم أنه عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم ، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور فى المستقبل ، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها ، فقال (ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) والمعنى : انك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا ، قيل : ما نخفى من الوجد بسبب حصول الفرقه بينى وبين إسماعيل ، وما نعلن من البكاء ، وقيل : ما نخفى من الحزن المتمكن فى القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع إلى من تكلمنا؟

وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد .
 ﴿ والمطلوب الثاني ﴾ أن يرزقه الله التوحيد ، ويصونه عن الشرك ، وهو قوله (واجنبنى وبني
 أن نعبد الأصنام .

﴿ والمطلوب الثالث ﴾ قوله (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم)
 فقوله (من ذريتي) أى بعض ذريتي وهو إسماعيل ومن ولد منه (بواد) هو وادى مكة (غير ذي
 زرع) أى ليس فيه شيء من زرع ، كقوله (قرآنا عربيا غير ذي عوج) بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج
 عند بيتك المحرم : وذكروا في تسميته المحرم وجوها : الأول : أن الله حرم التعرض له والتهاون به ،
 وجعل ما حوله حرماً لمكانه ، الثانى : أنه كان لم يزل ممتنعاً عزياً يهابه كل جبار كالشئ المحرم الذى
 حقه أن يجتنب ، الثالث : سمي محرماً لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه . الرابع : أنه حرم على
 الطوفان أى امتنع منه كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستعمل عليه ، الخامس : أمر الصائرين إليه أن
 يجرموا على أنفسهم أشياء كانت تحمل لهم من قبل ، السادس : حرم موضع البيت حين خلق السموات
 والأرض وحفه بسبعة من الملائكة ، وهو مثل البيت المعمور الذى بناه آدم ، فرفع الى السماء
 السابعة . السابع : حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والأقذار وغيرها : روى أن هاجر كانت أمة
 لسارة فوهبها لإبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام ، فقالت سارة : كنت أرجو أن
 يهب الله لى ولد آمن خليله فمنعني ورزقه خادمى ، وقالت لإبراهيم : بعدهما منى فنقلهما الى مكة وإسماعيل
 رضيع ، ثم رجع فقالت هاجر : الى من تكلنا ؟ فقال الى الله . ثم دعا الله تعالى بقوله (ربنا
 إني أسكنت من ذريتي بواد) إلى آخر الآية ثم إنها عطشت وعطش الصبي فانتبت بالصبي إلى موضع
 زمزم فضرب بقدمه ففارت عينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله أم إسماعيل لولا
 أنها عجلت لكانت زمزم عينا معنا» ثم إن إبراهيم عليه السلام عاد بعد كبر إسماعيل واشتغل هو
 مع إسماعيل برفع قواعد البيت . قال القاضى : أكثر الأمور المذكورة فى هذه الحكاية بعيدة لأنه
 لا يجوز لإبراهيم عليه السلام أن ينقل ولده إلى حيث لا طعام ولا ماء مع أنه كان يمكنه أن ينقلهما
 إلى بلدة أخرى من بلاد الشام لاجل قول سارة . إلا إذا قلنا : إن الله أعلم أنه يحصل هناك ماء
 وطعام ، وأقول : أما ظهور ماء زمزم فيحتمل أن يكون إرهاباً لإسماعيل عليه السلام ، لأن ذلك
 عندنا جائز خلافاً للمعتزلة وعند المعتزلة أنه معجزة لإبراهيم عليه السلام .

ثم قال ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ واللام متعلقة بأسكنت أى أسكنت قوماً من ذريتي ، وهم
 إسماعيل وأولاده بهذا الوادى الذى لا زرع فيه ليقيموا الصلاة .

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ وَمَا نُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

وأما الرابع: وهو أن تحمل المغفرة والرحمة على تعجيل العقاب أو ترك تعجيل الامامة فنقول
هذا باطل، لأن كفار زماننا هذا أكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع أن أهل
الاسلام متفقون على أنهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك
تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ماقررناه من الدليل والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا
الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا إنك تعلم
ما نخفي وما نعلن وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء الحمد لله الذي وهب لي على الكبر
إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا
اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضوع أنه طلب في دعائه أموراً سبعة .
﴿المطلوب الأول﴾ طلب من الله نعمة الامان وهو قوله (رب اجعل هذا البلد آمناً) والابتداء
بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من
مصالح الدين والدنيا إلا به ، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقال الأمن أفضل ،
والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فانها تصح بعد زمان ، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل
ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فانها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت

على دينه فانه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته . والثاني : أن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكافر غير جائزة ، ولما بطل هذا ثبت أن قوله (ومن عصاني فانك غفور رحيم) شفاعة في العصاة الذين لا يكونون من الكفار .

وإذا ثبت هذا فنقول : تلك المعصية إما أن تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو من الكبائر قبل التوبة ، والأول والثاني باطلان لأن قوله (ومن عصاني) اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر ، وأيضا فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه ، فثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة ، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم لوجوه : الأول : أنه لا قائل بالفرق . والثاني : وهو أن هذا المنصب أعلى المناصب فلو حصل لإبراهيم عليه السلام مع أنه غير حاصل لمحمد صلى الله عليه وسلم لكان ذلك نقصانا في حق محمد عليه السلام . والثالث : أن محمدا صلى الله عليه وسلم مأمور بالاعتداء بإبراهيم عليه السلام لقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقوله (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) فهذا وجه قريب في إثبات الشفاعة لمحمد صلى الله عليه وسلم وفي إسقاط العقاب عن أصحاب الكبائر . والله أعلم .

إذا عرفت هذا فلنذكر أقوال المفسرين : قال السدي معناه : ومن عصاني ثم تاب ، وقيل : إن هذا الدعاء إنما كان قبل أن يعلم أن الله تعالى لا يغفر الشرك ، وقيل من عصاني بأقامته على الكفر فانك غفور رحيم . يعنى أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الاسلام ، وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا أو يكون المراد أن لا تعجل اختراهمم فتفوتهم التوبة . واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة .

أما الأول : وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد أبطلناه .

وأما الثاني : وهو قوله إن هذه الشفاعة إنما كانت قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك فنقول : هذا أيضاً بعيد ، لأننا بينا أن مقدمة هذه الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون مراد إبراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة في إسقاط عقاب الكافر .

وأما الثالث : وهو قوله المراد من كونه (غفورا رحيمًا) أن ينقله من الكفر إلى الإيمان فهو أيضاً بعيد ، لأن المغفرة والرحمة مشعرة بإسقاط العقاب ولا إشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر إلى صفة الإيمان والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثالث من وجوه : الأول : قال صاحب الكشاف : قوله (و بنى) أراد بنى من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله (واجنبنى) والثاني : قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم . الثالث : قال مجاهد : لم يعبد أحد من ولد إبراهيم عليه السلام صنما . والصنم هو التمثال المصنوع وهو ليس بمصور فهو وثن . وكفار قريش ما عبدوا التمثال وإنما كانوا يعبدون أحجارا مخصوصة وأشجارا مخصوصة ، وهذا الجواب ليس بقوى ، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك . الرابع : أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية (فمن تبعني فإنه مني) وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ، ونظيره قوله تعالى لنوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) . والخامس : لعله وإن كان عمم في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض ، وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام ، ونظيره قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام (قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين)

(المسألة الثالثة) احتج أصحابنا بقوله (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) على أن الكفر والايمان من الله تعالى . وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويحجب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التباعد من الكفر والتقريب من الايمان ليس إلا من الله تعالى ، وقول المعتزلة إنه محمول على اللطاف فاسد . لأنه عدول عن الظاهر . ولأننا قد ذكرنا وجوها كثيرة في إفساد هذا التأويل .

ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) واتفق كل الفرق على أن قوله (أضللن) مجاز لأنها جمادات ، والجماد لا يفعل شيئا البتة ، إلا أنه لما حصل الاضلال عند عبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتم الدنيا وغرتم ، أى اقتنوا بها واغتروا بسببها . ثم قال (فمن تبعني فإنه مني) يعنى من تبعني في ديني واعتقادي فإنه مني ، أى جار مجرى بعضى لفرط اختصاصه بى وقربه منى ومن عصانى فى غير الدين فإنك غفور رحيم ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة فى حق أصحاب الكبائر من أمته ، والدليل عليه أن قوله (ومن عصانى فإنك غفور رحيم) صريح فى طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة فنقول : أولئك العصاة إما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك ، والأول باطل من وجهين : الأول : أنه عليه السلام بين فى مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) وأيضا قوله (فمن تبعني فإنه مني) يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه

مكة . وثانيها : أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن البتة ، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادة الأصنام . وثالثها : أنه طلب من الله تعالى أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاء ، ولأن كفار قريش كانوا من أولاده ، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام . فان قالوا : إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء آبائهم ، والدعاء مخصوص بالأبناء ، فنقول : فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبناءه من صلبه ، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحق ، وهما كانا من أكبر الأنبياء ، وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم ، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء . والجواب عن السؤال الأول من وجهين : الأول : أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء ، والمراد منه : جعل تلك البلدة آمنة من الخراب ، والثاني : أن المراد جعل أهلها آمنين ، كقوله (واسأل القرية) أي أهل القرية ، وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين . وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن ، وهو أن الخائف كان اذا التجأ الى مكة أمن ، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضا ، ومن ذلك أمن الوحش فانهم يقربون من الناس اذا كانوا بمكة ، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة ، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه .

﴿والوجه الثاني﴾ أن يكون المراد من قوله (اجعل هذا البلد آمنا) أي بالأمر والحكم يجعله آمنا وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة .

والجواب : عن السؤال الثاني قال الزجاج : معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال (واجعلنا مسلمين لك) أي ثبتنا على الاسلام .

ولقائل أن يقول : السؤال ؟ باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى ثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الاصنام فما الفائدة في هذا السؤال والصحيح عندي في الجواب وجهان : الأول : أنه عليه السلام وان كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الاصنام إلا أنه ذكر ذلك هضما للنفس واطهارا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب . والثاني : أن الصوفية يقولون : إن الشرك نوعان : شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون ، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسائط وبالاسباب الظاهرة . والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسائط ولا يرى متصرفا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله (واجنبني وبني أن نعبد الاصنام) المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ «٣٥» رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ «٣٦»

الكثيرة فانت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها ، فحصل لك عند أخذها وصفان : وهما كونك ظلوما
كفاراً ، ولى وصفان عند إعطائها وهما كونى غفوراً رحيماً ، والمقصود كأنه يقول : إن كنت
ظلوما فأنا غفور . وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تفصيرك إلا بالتوفير
ولا أجازى جفاء إلا بالوفاء ، ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة .

قوله تعالى ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام رب
إنهم أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾
اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه وأنه لا يجوز عبادة غيره
تعالى البتة حكى عن إبراهيم عليه السلام مبالغته في إنكار عبادة الأوثان .
واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أشياء : أحدها : قوله (رب اجعل
هذا البلد آمناً) والمراد : مكة آمناً ذا أمن .

فان قيل : أى فرق بين قوله (اجعل هذا بلداً آمناً) وبين قوله (اجعل هذا البلد آمناً)
قلنا : سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فلا يخافون ، وفي الثاني : أن يزيل
عنها الصفة التي كانت حاصلة لها ، وهي الخوف ، ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الأمان كأنه قال
هو بلد مخوف فاجعله آمناً ، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة . وثانيها : قوله (واجنبني وبنى أن
نعبد الأصنام) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرئ (واجنبني) وفيه ثلاث لغات جنبه واجنبه وجنبه . قال الفراء :
أهل الحجاز يقول جنبني بالتحفيف ، وأهل نجد يقولون جنبني شره واجنبني شره ، وأصله
جعل الشيء عن غيره على جانب وناحية .

﴿المسألة الثانية﴾ لقائل أن يقول : الاشكال على هذه الآية من وجوه : أحدها : أن إبراهيم
عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمناً ، وما قبل الله دعاه ، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على

أن عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلا واحدا ثم بذلك العقل يتأمل الانسان في عجائب
 حكمة الله تعالى في أقل الأشياء لما أدرك منها إلا القليل ، فسبحانه تقديس عن أوهام المتوهمين .
 ﴿المثال الثاني﴾ أنك اذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها
 أما الأمور التي قبلها : فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته
 قائما على الوجه الأصوب ، لأن الخنطة لا بد منها ، وأنها لا تنبت إلا بمعونة الفصول الأربعة ،
 وتركيب الطبائع وظهور الرياح والأمطار ، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك ، واتصال
 بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات ، وفي كفيتهما في الجهة والسرعة والبطء
 ثم بعد أن تكون الخنطة لا بد من آلات الطحن والخبز ، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد
 في أرحام الجبال ، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة
 عليها . ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية هي أول هذه الآلات ، فتأمل أنها كيف تكونت على
 الأشكال المخصوصة : ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر الأربعة ،
 وهي الأرض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق . فهذا هو النظر فيما تقدم
 على حصول هذه اللقمة . وأما النظر فيما بعد حصولها : فتأمل في تركيب بدن الحيوان ، وهو أنه
 تعالى كيف خلق الأبدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة ، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل
 وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار . ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الأشياء إلا بمعرفة
 علم التشريح وعلم الطب بالكلية ، فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا
 بمعرفة جملة الأمور ، والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هذه المباحث ، فظهر بهذا البرهان القاهر
 صحة قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ثم إنه تعالى قال (إن الانسان لظلوم كفار)
 قيل : يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها . وقيل : ظلوم في الشدة يشكرو ويجزع ،
 كفار في النعمة يجمع ويمنع . والمراد من الانسان ههنا : الجنس ، يعني أن عادة هذا الجنس هو هذا
 الذي ذكرناه ، وههنا بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أن الانسان مجبول على النسيان وعلى الملامة ، فاذا وجد نعمة نسيها في الحال
 وظلها بترك شكرها ، وإن لم ينسها فانه في الحال يملها فيقع في كفران النعمة ، وأيضا ان نعم الله
 كثيره فمتى حاول التأمل في بعضها غفل عن الباقي .

﴿البحث الثاني﴾ أنه تعالى قال في هذا الموضوع (إن الانسان لظلوم كفار) وقال في سورة
 النحل (إن الله لغفور رحيم) ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول : إذا حصلت النعم

(والحجة العاشرة) قوله (وآتاكم من كل ما سألتموه) ثم إنه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك أنه لم يقتصر عليها ، بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها التعديد والاحصاء فقال (وآتاكم من كل ما سألتموه) والمفعول محذوف تقديره من كل مسئول شيئا ، وقرىء (من كل) بالتنوين (و ما سألتموه) نفي ومحله نصب على الحال ، أى آتاكم من جميع ذلك غير سائله ويجوز أن تكون «ما» موصولة والتقدير : آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به ، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) قال الواحدى : النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر يقال : أنعم الله عليه ينعم إنعاما ونعمة أقيم الاسم مقام الانعام كقوله : أنفقت عليه إنفاقا ونفقة بمعنى واحد ، ولذلك لم يجمع لأنه فى معنى المصدر ، ومعنى قوله (لا تحصوها) أى لا تقدرؤن على تعديد جميعها لكثرتها .

واعلم أن الانسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع ، فعليه أن يتأمل فى شىء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين .

(المثال الاول) أن الأطباء ذكروا أن الاعصاب قسمان ، منها دماغية ومنها نخاعية . أما الدماغية فانها سبعة ثم اتعبوا أنفسهم فى معرفة الحكيم الناشئة من كل واحد من تلك الأرواح السبعة ، ثم مما لاشك فيه أن كل واحد من الأرواح السبعة تنقسم الى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضا إلى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ولو أن شعبة واحدة اختلفت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلفت مصالح البنية ، ثم إن تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جداً ، ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة ، فاذا نظر الانسان فى هذا المعنى عرف أن الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فانت لعظم الضرر عليه وعرف قطعاً أنه لا سبيل له الى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى (وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها) وكما اعتبرت هذا فى الشظايا العصبية فاعتبر مثله فى الشرايين والأوردة ، وفى كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحراً لا ساحل له ، وإذا اعتبرت هذا فى بدن الانسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى فى نفسه وروحه ، فان عجائب عالم الأرواح أكثر من عجائب عالم الأجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الأفلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف

للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا أنه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التي باعتبارها يصبح جرى السفينة ، ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا أنه وسع الأنهار وجعل فيها من العمق مايجوز جرى السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار لأجل أنه تعالى هو الخالق لهذه الأحوال ، وهو المدبر لهذه الأمور والمسخر لها حسنت إضافة السفن إليه .

﴿ البحث الثاني ﴾ أنه تعالى أضاف ذلك التسخير إلى أمره لأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال فيه إنه أمر بكذا تعظيماً لشأنه ، ومنهم من حمل على ظاهر قوله (إنما أمرنا شيء إذ أردناه أن نقول له كن فيكون) وتحقيق هذا الوجه راجع إلى ما ذكرناه .

﴿ البحث الثالث ﴾ الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز ، والمعنى أنه لما كان يجرى على وجه الماء كما يشبهه الملاح صار كأنه حيوان مسخر له .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ قوله تعالى (وسخر لكم الأنهار) واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات لاجرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات ، وأيضاً ماء البحر لا يصلح للشرب ، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار .

﴿ الحجة السادسة والسابعة ﴾ قوله (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين)

واعلم أن الانتفاع بالشمس والقمر عظيم ، وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله (وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) ومنها قوله (الشمس والقمر بحسبان) ومنها قوله (وجعل فيها سراجا وقمرأ منيرا) ومنها قوله (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وقوله (دائبين) معنى الدؤب في اللغة مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب يدأب دأبا ودؤبا وقد ذكرنا هذا في قوله (قال تزرعون سبع سنين دأبا) قال المفسرون : قوله (دائبين) معناه يدأبان في سيرهما وإنارتهم وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان فان الشمس سلطان النهار . والقمر سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة ، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء في أول هذا الكتاب .

﴿ الحجة الثامنة والتاسعة ﴾ قوله (وسخر لكم الليل والنهار)

واعلم أن منافعها المذكورة في القرآن كقوله تعالى (وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا) وقوله (وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) قال المتكلمون : تسخير الليل والنهار مجاز لأنهما عرضان ، والاعراض لا تسخر .

﴿البحث الثالث﴾ قال قوم : إنه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة ، وذلك لأن في هذا المعنى مصلحة للمكلفين ، لأنهم إذا علموا أن هذه المنافع القليلة يجب أن تتحمل في تحصيلها المشاق والمتاعب ، فالمنافع العظيمة الدائمة في الدار الآخرة أولى أن تتحمل المشاق في طلبها . وإذا كان المرء يترك الراحة واللذات طلباً لهذه الخيرات الحقيرة ، فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى . ولهذا السبب لما زال التكليف في الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب . هذا قول المتكلمين . وقال قوم آخرون : إنه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء ، والمسألة كلامية محضنة ، وقد ذكرناها في سورة البقرة .

﴿البحث الرابع﴾ قال أبو مسلم : لفظ (الثمار) يقع في الأغلب على ما يحصل على الأشجار ، ويقع أيضاً على الزروع والنبات ، كقوله تعالى (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) ﴿البحث الخامس﴾ قال تعالى (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) والمراد أنه تعالى إنما أخرج هذه الثمرات لأجل أن تكون رزقا لنا ، والمقصود أنه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات إيصال الخير والمنفعة إلى المكلفين ، لأن الاحسان لا يكون إحساناً إلا إذا قصد المحسن بفعله إيصال النفع إلى المحسن إليه .

﴿البحث السادس﴾ قال صاحب الكشاف : قوله (من الثمرات) بيان للرزق ، أى أخرج به رزقا هو ثمرات ، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول أو نصبا على المصدر من أخرج لأنه في معنى رزق ، والتقدير : ورزق من الثمرات رزقا لكم .

﴿فأما الحجة الرابعة﴾ وهى قوله (وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره) ونظيره قوله تعالى (ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام) ففيها مباحث :

﴿البحث الأول﴾ أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجارى في البحر ، وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى أن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الريح في التجارات ، ثم إن هذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهى الجمال أو بسفن البحر وهى الفلك المذكور في هذه الآية .

فان قيل : مامعنى وسخر لكم الفلك مع أن تركيب السفينة من أعمال العباد ؟

قلنا : أما على قولنا إن فعل العبد خلق الله تعالى فلا سؤال ، وأما على ذهب المعتزلة فقد أجاب القاضى عنه فقال : لولا أنه تعالى خلق الاشجار الصلبة التى منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه

وَالنَّهَارَ «٢٣» وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا
إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ «٢٤»

دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها
إن الانسان لظلوم كفار

اعلم أنه لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، وكانت العمدة العظمى
والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته ، وفي حصول الشقاوة
فقدان هذه المعرفة ، لا جرم ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على
وجود الصانع وكال علمه وقدرته . وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل . أولها : خلق السموات .
وثانيها : خلق الأرض ، واليهما الإشارة بقوله تعالى (الله الذي خلق السموات والأرض)
وثالثها : (وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) ورابعها : قوله (وسخر لكم الفلك
لتجري في البحر بأمره) وخامسها : قوله (وسخر لكم الأنهار) وسادسها وسابعها : قوله (وسخر لكم
الشمس والقمر دابّين) وثامنها وتاسعها : قوله (وسخر لكم الليل والنهار) وعاشرها : قوله (وآتاكم
من كل ما سألتموه) وهذه الدلائل العشرة قد مر ذكرها في هذا الكتاب . وتقريرها وتفسيرها مراراً
وأطواراً ولا بأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد . فاعلم أن قوله تعالى (الله) مبتدأ ، وقوله (الذي
خلق) خبره . ثم إنه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والأرض ، وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن
السماء والأرض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم ، وإنما بدأ بذكرهما ههنا لأنهما هما
الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الأدلة المذكورة بعد ذلك فانه قال بعده (وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) وفيه مباحث :

(البحث الأول) لولا السماء لم يصح انزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء
فيه ، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب .

(البحث الثاني) قوله (وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وفيه قولان : الأول : أن الماء نزل من السحاب
وسمى السحاب سماء اشتقاقاً من السمو ، وهو الارتفاع . والثاني : أنه تعالى أنزله من نفس السماء ،
وهذا بعيد ، لأن الانسان ربما كان واقفاً على قلة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فاذا نزل من ذلك
الجبل يرى ذلك الغيم مطراً عليهم وإذا كان هذا أمراً مشاهداً بالبصر كان النزاع فيه باطلاً .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ
الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْأَنْهَارَ «٣٢» وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ

صرفه الى البذل في طاعة الله تعالى . فهذه الثلاثة هي الطاعات المعتبرة ، وهي الايمان والصلاة
والزكاة وتام مايجب أن يقال في هذه الأمور الثلاثة ذكرناه في قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب
ويقومون الصلاة ومارزقناهم ينفقون)

(المسألة الرابعة) قالت المعتزلة : الآية تدل على أن الرزق لا يكون حراما ، لأن الآية دلت
على أن الانفاق من الرزق ممدوح ، ولا شيء من الانفاق من الحرام بممدوح . فينتج أن الرزق ليس
بحرام . وقد مر تقرير هذا الكلام مرارا .

(المسألة الخامسة) في انتصاب قوله (سرا وعلانية) وجوه : أحدها : أن يكون على الحال
أى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين . وثانيها : على الظرف أى وقت سر وعلانية . وثالثها :
على المصدر أى انفاق سر وانفاق علانية . والمراد اخفاء التطوع وعلان الواجب .

واعلم أنه تعالى لما أمر باقامة الصلاة وابتاء الزكاة قال (من قبل أن يأتى يوم لا يبيع فيه
ولا خلال) قال أبو عبيدة : البيع ههنا الفداء والخلال المخالة ، وهو مصدر من خالت خلا لا ومخاللة .
وهى المصادقة . قال مقاتل : إنما هو يوم لا يبيع فيه ولا شراء ولا مخاللة ولا قرابة . فكأنه تعالى
يقول : أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق في مثل هذا اليوم الذى لا تحصل فيه
مبايعة ولا مخاللة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة (لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة)
فان قيل : كيف نفي المخاللة في هاتين الآيتين ، مع أنه تعالى أثبتا في قوله (الأخلاء يومئذ بعضهم
لبعض عدو إلا المتقين)

قلنا : الآية الدالة على نفي المخاللة محمولة على نفي المخاللة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس ، والآية
الدالة على ثبوت المخاللة محمولة على حصول المخاللة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ، ومحبة الله
تعالى والله أعلم .

قوله تعالى (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات
رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ «٣١»

بالضم فانه يحتمل الوجهين ، وإذا قرىء بالنصب فلا يحتمل إلا لام العاقبة لأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم . وتحقيق القول فى لام العاقبة أن المقصود من الشيء لا يحصل إلا فى آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل . وكل ما حصل فى العاقبة كان شبيها بالأمر المقصود فى هذا المعنى ، والمشابهة أحد الأمور المصححة لحسن المجاز . فلهذا السبب حسن ذكر اللام فى العاقبة ، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال (قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار) والمراد أن حال الكافر فى الدنيا كيف كانت ، فانها بالنسبة إلى ما سيصل إليه من العقاب فى الآخرة تمتع ونعيم ، فلهذا المعنى قال (قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار) وأيضا أن هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفرا ، فأولئك كانوا فى الدنيا فى نعم كثيرة فلا جرم حسن قوله تعالى (قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار) وهذا الأمر يسمى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى (اعملوا ما شئتم) وكقوله (قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار)

قوله تعالى ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا يبيع فيه ولا خلال ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا ، أمر المؤمنين فى هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة فى المجاهدة بالنفس والمال ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى (لعبادى) بسكون الياء ، والباقون : بفتح الياء لالتقاء

الساكنين فحرك الى النصب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (يقيموا) وجهان : الأول : يجوز أن يكون جوابا لأمر محذوف

هو المقول تقديره : قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا . الثانى : يجوز أن يكون هو أمرا مقولا محذوفا منه لام الأمر ، أى ليقيموا . كقولك : قل لزيد ليضرب عمرا وإنما جاز حذف اللام ، لأن قوله (قل) عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يحز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن الانسان بعد الفراغ من الايمان لا قدرة له على التصرف فى شيء

الإلى نفسه أو فى ماله . أما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود فى الصلاة . وأما المال فيجب

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ
اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

فاذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة . وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول الى المطلوب .

وأما قوله تعالى ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ فاعلم أن الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله ، فانه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم انه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة :

﴿الصفة الأولى﴾ انها تكون خبيثة فمنهم من قال انها الثوم . لانه صلى الله عليه وسلم وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة . وقيل : إنها الكراث . وقيل : إنها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار وقيل : إنها شجرة الشوك .

واعلم أن هذا التفصيل لا حاجة اليه ، فان الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم ، وقد تكون بحسب الصورة والمنظر . وقد تكون بحسب اشتهاها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وإن لم تكن موجودة ، إلا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعا في المطلوب .

﴿والصفة الثانية﴾ قوله (اجتثت من فوق الأرض) وهذه الصفة في مقابلة قوله (أصلها ثابت) ومعنى اجتثت استؤصلت . وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها ، وقوله (من فوق الأرض) معناه : ليس لها أصل ولا عرق ، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة .

﴿والصفة الثالثة﴾ قوله ما لها من قرار ، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية ، والمعنى أنه ليس لها استقرار . يقال : قر الشيء قرارا . كقولك : ثبت ثباتا ، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت .

واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال ، وذلك لانه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة وخالية عن كل المنافع . أما كونها موصوفة بالمضار فاليه الاشارة بقوله (خبيثة) وأما كونها خالية عن كل المنافع فاليه الاشارة بقوله (اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف: في نصب قوله (كلمة طيبة) وجهان: الأول: أنه منصوب بمضمر. والتقدير: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وهو تفسير لقوله (ضرب الله مثلا) الثاني: قال ويجوز أن ينتصب مثلا. وكلمة بضرب، أي ضرب كلمة طيبة مثلا بمعنى جعلها مثلا، وقوله (كشجرة طيبة) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هي كشجرة طيبة. الثالث: قال صاحب حل العقد أظن أن الأوجه أن يجعل قوله (كلمة) عطف بيان، والكاف في قوله (كشجرة) في محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة.

﴿المسألة الثالثة﴾ قال ابن عباس: الكلمة الطيبة هي قول لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي النخلة في قول الأكرين. وقال صاحب الكشاف: إنها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان، وأراد بشجرة طيبة الثمرة، لأنه لم يذكرها للدلالة الكلام عليها أصلا، أي أصل هذه الشجرة الطيبة ثابت، وفرعها أي أعلاها في السماء، والمراد الهواء لأن كل ماسك وعلاك فهو سماء (توتى) أي هذه الشجرة (أكلها) أي ثمرها وما يؤكل منها كل حين، واختلفوا في تفسير هذا الحين فقال ابن عباس: ستة أشهر، لأن بين حملها إلى صرامها ستة أشهر، جاء رجل إلى ابن عباس فقال: نذرت أن لا أكلم أخى حتى حين، فقال: الحين ستة أشهر، وتلا قوله تعالى (توتى أكلها كل حين) وقال مجاهد وابن زيد: سنة، لأن الشجرة من العام إلى العام تحمل الثمرة. وقال سعيد ابن المسيب: شهران، لأن مدة إطعام النخلة شهران. وقال الزجاج: جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طال أم قصرت، والمراد من قوله (توتى أكلها كل حين) أنه ينتفع بها في كل وقت وفي كل ساعة ليلا أو نهارا أو شتاء أو صيفا. قالوا: والسبب فيه أن النخلة إذا تركوا عليها الثمر من السنة إلى السنة انتفعوا بها في جميع أوقات السنة. وأقول: هؤلاء وإن أصابوا في البحث عن مفردات ألفاظ الآية، إلا أنهم بعدوا عن إدراك المقصود، لأنه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة. ولا حاجة بنا إلى أن تلك الشجرة هي النخلة أم غيرها، فانا نعلم بالضرورة أن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه، سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن، لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل، واختلافهم في تفسير الحين أيضا من هذا الباب، والله أعلم بالأمور.

ثم قال ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ والمعنى: أن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم،

ويدخل فيه الرحمه والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب . والسعى فى إيصال الحب اليه . ورفع الشر عنهم ، ومقابلة الاساءة بالاحسان . وهذه الاقسام أيضا غير متناهية وهى فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فان الانسان كلما كان أكثر توغلا فى معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل .

﴿وأما الصفة الرابعة﴾ فهى قوله تعالى (توتى أكلها كل حين باذن ربها) فهذه الشجرة أو هذه الصفة من الاشجار الجسمانية ، لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة فى حصولها والسبب لاينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة فى أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال (فاعتبروا يا أولى الابصار) وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ونطقه بالصدق والصواب ، كما قال (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) وقال عليه السلام «قولوا الحق ولو على أنفسكم» وهذا الانسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة فى أرض قلبه أقوى وأكمل ، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ، وربما توغل فى هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئا لاحظ الحق فيه ، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئا إلا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله . فهذا هو المراد من فوله سبحانه وتعالى (توتى أكلها كل حين باذن ربها) وأيضا فما ذكرناه إشارة الى الالهامات النفسانية والملكات الروحانية التى تحصل فى جواهر الأرواح ، ثم لايزال يصعد منها فى كل حين ولحظة ولحمة كلام طيب وعمل صالح وخشوع وخشوع وبكاء وتذلل ، كثمرة هذه الشجرة .

وأما قوله ﴿باذن ربها﴾ ففيه دققة عجيبة . وذلك لأن عند حصول هذه الأحوال السنية . والدرجات العالية قد يفرح الانسان بها من حيث هى هى . وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هى هى . وإنما يفرح بها من حيث أنها من المولى ، وعند ذلك فيكون فرحه فى الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال ، ولذلك قال بعض المحققين : من آثر العرفان للعرفان : فقد قال بالقانى . ومن آثر العرفان لا للعرفان ، بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول . فقد ظهر بهذا التقرير الذى شرحناه والبيان الذى فصلناه أن هذا المثال الذى ذكره الله تعالى فى هذا الكتاب مثال هاد الى عالم القدس . وحضرة الجلال ، وسرادقات الكبرياء ، فنسأل الله تعالى مزيد الاهتمام والرحمة إنه سميع مجيب وذكر بعضهم : فى تقرير هذا المثال كلاما لا بأس به . فقال : إنما مثل الله سبحانه وتعالى الايمان بالشجرة ، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة . إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وأغصان عالية . كذلك الايمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة فى القلب . وقول باللسان . وعمل بالأبدان . والله أعلم .

النفس متحدًا به وكان النفس عند حصول ذلك الاشراف تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الاشراف فهذا فرق عظيم بين البابين .

﴿والوجه الثاني﴾ في الفرق أن في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذاتية . والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية ، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله . وصفات جلاله وإكرامه ، فوجب أن تكون نسبة إحدى اللذتين إلى الأخرى كنسبة أحد المدركين إلى الآخر .

﴿الوجه الثالث﴾ في الفرق أن اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال . لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير ، أما كمال الحق وجلاله فانه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضاً ممتنع التغير ، فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه . واعلم أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تبيهاً للعقل السليم على سائرهما . وأما الصفة الثانية وهي كون هذه الشجرة ثابتة الأصل ، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل ، وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية . وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء ، وأيضاً مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلى جلال الله تعالى ، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه في ذاته نور النور ومبدأ الظهور ، وذلك مما يمتنع عقلاً زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود في جميع صفاته . والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه ، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة .

﴿الصفة الثالثة﴾ لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها في السماء .

واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الالهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني .

﴿أما النوع الأول﴾ فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام «التعظيم لأمر الله» ويدخل فيه التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح ، وفي عالم الاجسام ، وفي أحوال عالم الافلاك والكواكب . وفي أحوال العالم السفلي ، ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى ، والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء في ذكر هذه الاقسام غير مطموح فيه لأنها أحوال غير متناهية .

﴿وأما النوع الثاني﴾ فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام «والشفقة على خلق الله»

ويدخل فيه الرحمه والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب . والسعى في إيصال الخير اليهم ورفع الشر عنهم ، ومقابلة الاساءة بالاحسان . وهذه الاقسام أيضا غير متناهية وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فان الانسان كلما كان أكثر توغلا في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل .

﴿وأما الصفة الرابعة﴾ فهي قوله تعالى (تؤتى أكلاها كل حين باذن ربها) فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الاشجار الجسمانية ، لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبارة كما قال (فاعتبروا يا أولى الابصار) وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ونطقه بالصدق والصواب ، كما قال (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) وقال عليه السلام «قولوا الحق ولو على أنفسكم» وهذا الانسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل ، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ، وربما توغل في هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئا لاحظ الحق فيه ، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئا إلا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله . فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى (تؤتى أكلاها كل حين باذن ربها) وأيضا فما ذكرناه إشارة الى الالهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح ، ثم لا يزال يصعد منها في كل حين والحظة ولحمة كلام طيب وعمل صالح وخشوع وبكاء وتذلل ، كشجرة هذه الشجرة .

وأما قوله ﴿باذن ربها﴾ ففيه دققة عجيبة ، وذلك لأن عند حصول هذه الأحوال السنية . والدرجات العالية قد يفرح الانسان بها من حيث هي هي . وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هي هي . وإنما يفرح بها من حيث أنها من المولى ، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال ، ولذلك قال بعض المحققين : من آثر العرفان للعرفان : فقد قال بالفانى . ومن آثر العرفان لا للعرفان ، بل للبعرفان فقد خاض لجة الوصول . فقد ظهر بهذا التقرير الذى شرحناه والبيان الذى فصلناه أن هذا المثال الذى ذكره الله تعالى في هذا الكتاب مثال هاد الى عالم القدس . وحضرة الجلال ، وسرادقات الكبرياء ، فنسأل الله تعالى مزيد الاهتمام والرحمة إنه سميع مجيب وذكر بعضهم : فى تقرير هذا المثال كلاما لا بأس به . فقال : إنما مثل الله سبحانه وتعالى الايمان بالشجرة ، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة ، إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وأغصان عالية . كذلك الايمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة فى القلب . وقول باللسان . وعمل بالأبدان . والله أعلم .

النفس متجدا به وكأن النفس عند حصول ذلك الاشرار تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الاشرار فهذا فرق عظيم بين البابين .

﴿والوجه الثاني﴾ في الفرق أن في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذاتية . والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية ، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله . وصفات جلاله وإكرامه . فوجب أن تكون نسبة إحدى اللذتين إلى الأخرى كنسبة أحد المدركين إلى الآخر .

﴿الوجه الثالث﴾ في الفرق أن اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال ، لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير ، أما كمال الحق وجلاله فانه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضاً ممتنع التغير ، فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه . واعلم أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيهاً للعقل السليم على سائرهما . وأما الصفة الثانية وهي كون هذه الشجرة ثابتة الأصل ، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل ، وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية ، وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء ، وأيضاً مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلي جلال الله تعالى ، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه في ذاته نور النور ومبدأ الظهور ، وذلك مما يمتنع عقلا زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود في جميع صفاته . والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه ، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة .

﴿الصفة الثالثة﴾ لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها في السماء .

واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الالهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني .

﴿أما النوع الأول﴾ فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام «التعظيم لأمر الله» ويدخل فيه التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح ، وفي عالم الاجسام ، وفي أحوال عالم الافلاك والكواكب ، وفي أحوال العالم السفلي . ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى ، والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء في ذكر هذه الاقسام غير مطموح فيه لأنها أحوال غير متناهية .

﴿وأما النوع الثاني﴾ فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام «والشفقة على خلق الله»

﴿والصفة الثانية﴾ قوله (أصلها ثابت) أى راسخ باق آمن الانقلاب والانقطاع والزوال والنفاء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان فى معرض الانقراض والانقضاء ، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه . أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضى فإنه يعظم الفرح بوجوده ويكمل السرور بسبب الفوز به .

﴿والصفة الثالثة﴾ قوله (وفرعها فى السماء) وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين : الأول : أن ارتفاع الأغصان وقوتها فى التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق والثانى : أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب .

﴿والصفة الرابعة﴾ قوله (توتى أكلها كل حين باذن ربها) والمراد : أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة . وهى أن ثمراتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة فى كل الأوقات ، ولا تكون مثل الأشجار التى يكون ثمارها حاضرا فى بعض الأوقات دون بعض ، فهذا شرح هذه الشجرة التى ذكرها الله تعالى فى هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة فى تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة ، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لا يجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل فى الفوز بها .

إذا عرفت هذا فنقول : معرفة الله تعالى والاستغراق فى محبته وفى خدمته وطاعته ، تشبه هذه الشجرة فى هذه الصفات الأربع .

﴿أما الصفة الأولى﴾ وهى كونها طيبة فهى حاصلة ، بل نقول : لا طيب ولا لذىذ فى الحقيقة إلا هذه المعرفة . وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت ، لأن ادراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن . فلاجل حصول تلك الملائمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسى ، ليس إلا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق فى الاتباع به فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيدة جدا ، بل نقول : اللذة الحاصلة من ادراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالا من اللذة الحاصلة بسبب اشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة بسبب أن سطح الحاس يلاقى سطح المحسوس فقط ، فاما أن يقال إن جوهر المحسوس نفذ فى جوهر الحاس فليس الأمر كذلك ، لأن الاجسام يمتنع تداخلها أما ههنا فعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الاشراق صار ساريا فى جوهر

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا
 فِي السَّمَاءِ «٢٤» تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِأَذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
 لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ «٢٥» وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ
 الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ «٢٦»

عليكم) والرب الرحيم يحيمهم أيضا بهذه الكلمة كما قال (سلام قولا من رب رحيم)
 واعلم أن السلام مشتق من السلاوة وإلا ظهر أن المراد أنهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها
 أو فنون آلامها وأسقامها ، وأنواع غمومها وهمومها ، وما أصدق ما قالوا ، فان السلامة من محن
 عالم الأجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم ، لا سيما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة
 الروحانية والسعادة الملكية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن (وأدخل الذين آمنوا) على معنى وأدخلهم أنا ، وعلى هذه القراءة
 فقوله (بأذن ربهم) متعلق بما بعده ، أي تحييتهم فيها سلام بأذن ربهم . يعنى : أن الملائكة
 يحيونهم بأذن ربهم .

قوله تعالى ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء
 تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة
 كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾
 اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ، ذكر مثلا للبين الحال في حكم هذين
 القسمين ، وهو هذا المثل . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها
 ﴿ فالصفة الأولى ﴾ لتلك الشجرة كونها طيبة ، وذلك يحتمل أموراً . أحدها كونها طيبة المنظر
 والصورة والشكل . وثانيها : كونها طيبة الرائحة . وثالثها : كونها طيبة الثمرة يعنى أن الفواكه المتولدة
 منها تكون لذيدة مستطابة . ورابعها : كونها طيبة بحسب المنفعة يعنى أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك
 يعظم الانتفاع بها ، ويجب حمل قوله : شجرة طيبة ، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها
 يحصل كمال الطيب .

وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ «٢٣»

﴿المسألة الأولى﴾ «ما» في قوله (إني كفرت بما أشر كتموني من قبل) فيه قولان : الأول : كلف مصدرية والمعنى : كفرت بأشراكم إياي مع الله تعالى في الطاعة . والمعنى : أنه جحد ما كان يعتقد أولئك الاتباع من كون إبليس شريكا لله تعالى في تدبير هذا العالم وكفر به ، أو يكون المعنى أنهم كانوا يطيعون الشيطان في أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله في أعمال الخير وهذا هو المراد بالاشراك . والثاني : وهو قول الفراء أن المعنى أن إبليس قال : إني كفرت بالله الذي أشر كتموني به من قبل كفركم . والمعنى : أنه كان كفره قبل كفر أولئك الاتباع ويكون المراد بقوله (ما) في هذا الموضع «من» والقول هو الأول . لأن الكلام إنما ينتظم بالتفسير الأول . ويمكن أن يقال أيضا الكلام منتظم على التفسير الثاني . والتقدير كأنه يقول : لا تأثير لوسوستي في كفركم بدليل أني كفرت قبل أن وقعتم في الكفر وما كان كفرى بسبب وسوسة أخرى وإلا لزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع في الكفر شيء آخر سوى الوسوسة ، وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام .
أما قوله ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالأظهر أنه كلام الله عز وجل وأن كلام إبليس تم قبل هذا الكلام . ولا يبعد أيضا أن يكون ذلك من بقية كلام إبليس قطعاً لا طامع أو تلك الكفار عن الاعانة والاعانة ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾
وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح أحوال الأشقياء من الوجود الكثيرة شرح أحوال السعداء . وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى (وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) وكونها دائمة أشير إليه بقوله (خالدين فيها) والتعظيم حصل من وجهين : أحدهما : أن تلك المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره . والثاني : قوله (تحيتهم فيها سلام) لأن بعضها يحبي بعضها بهذه الكلمة . والملائكة يحبونهم بها كما قال (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام

هذا التقدير يمتنع أن يقال إنها أجسام كثيفة ، بل لا بد من القول بأنها أجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيباً عجيباً وهي أن تكون مع لطاقها لا تقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الاجرام اللطيفة في عمق الاجرام الكثيفة غير مستبعد ألا ترى أن الروح الانسانية جسم لطيف ، ثم إنه نفذ في داخل عمق البدن فاذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن ، أليس أن جرم الناري سرى في جرم الفحم ، وماء الورد يسرى في ورق الورد ، ودهن السمسم يجرى في جسم السمسم فكذا ههنا ، فظهر بما قررنا أن القول باثبات الجن والشياطين أمر لا تحمله العقول ولا تبطله الدلائل ، وأن الاصرار على الانكار ليس إلا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة ، ولما ثبت أن القول بالشياطين ممكن في الجملة . فنقول : الأحق والأولى أن يقال : الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور . والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب ، كما قال الله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وهذا الكلام من المتهورات عند قدماء الفلاسفة ، فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(السؤال الثاني) لم قال الشيطان (فلا تلوموني ولو موأ أنفسكم) وهو أيضاً ملوم بسبب اقدمه على تلك الوسوسة الباطلة .

والجواب : أراد بذلك فلا تلوموني على ما فعلتم ولو موأ أنفسكم عليه ، لأنكم عدلتم عما توجبته هداية الله تعالى لكم . ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) قال ابن عباس : بمغيشكم ولا منقذكم ، قال ابن الأعرابي : الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث . يقال : صرخ فلان اذا استغاث وقال : واغوثاه . وأصرحته أغثته .

(المسألة الثانية) قرأ حمزة : بمصرخي بكسر الياء . قال الواحدى : وهى قراءة الأعمش ويحيى ابن وثاب . قال الفراء : ولعلها من وهم القراء فانه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن أن الباء في قوله (بمصرخي) خافضة لجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لأن الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال ، وبما نرى أنهم وهموا فيه قوله (نوله ما تولى ونصله جهنم) بجزم الهاء . ظنوا والله أعلم . أن الجزم في الهاء وهو خطأ ، لأن الهاء في موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه ، ومن النحويين من تكلف في ذكر وجه لصحته إلا أن الأكثرين قالوا إنه لحن والله أعلم .

ثم قال تعالى حكاية عنه ﴿إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾ وفيه مسائل :

إذا عرفت هذا فنقول : فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسماً يحتاج إلى الولوج في داخل البدن بل هو جوهر روحاني خبيث الفعل مجبول على الشر ، والنفس الانسانية أيضا كذلك فلا يبعد على هذا التقدير في أن يلقي شيء من تلك الأرواح أنواعا من الوسوس والاباطيل الى جوهر النفس الانسانية ، وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالا ثانيا . وهو أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع . فهى طوائف ، وكل طائفة منها في تدبير روح من الأرواح السماوية بعينها ، فروع من النفوس البشرية تكون حسنة الأخلاق كريمة الأفعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الأمر ، وهى تكون منتسبة إلى روح معسین من الأرواح السماوية ، وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة ، وعدم المبالاة بأمر من الأمور . وهى تكون منتسبة إلى روح آخر من الأرواح السماوية وهذا الأرواح البشرية كالاولاد لذلك الروح السماوى وكالنتائج الحاسلة ، وكالفروع المتفرعة عليها . وذلك الروح السماوى هو الذى يتولى إرشادها إلى مصالحها ، وهو الذى يخصها بالالهامات حالتى النوم واليقظة . والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوى بالطباع التام ولاشك أن لذلك الروح السماوى الذى هو الأصل والينبوع شعباً كثيرة ونتائج كثيرة وهى بأسرها تكون من جنس روح هذا الانسان وهى لأجل مشاكلها ومجانستها يعين بعضها بعضاً على الأعمال اللائقة بها والأفعال المناسبة لطبائعها ، ثم إنها إن كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الاعانة مسماة بالالهام . وإن كانت شريرة خبيثة قبيحة الأعمال كانت شياطين وكانت تلك الاعانة مسماة بالوسوسة ، وذكر بعض العلماء أيضاً فيه احتمالا ثالثاً ، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الانسانية إذا فارقت أبدانها قويت فى تلك الصفات التى اكتسبتها فى تلك الأبدان وكملت فيها فاذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة فى بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنأ لتلك النفس المفارقة ، فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ، ومعاونة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم إن كان هذا المعنى فى أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاما وان كان فى باب الشركان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفرعاً على القول باثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز ، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا اثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿وأما القول الثانى﴾ وهو أن الملائكة والشياطين لا بد وأن تكون أجساما فنقول : إن على

لازما طبيعيا وبيانه أن أعضاء الانسان بحكم السلامة الأصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك ، والاقدام والاحجام ، فما لم يحصل في القلب ميل الى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فانه يمتنع صدور الفعل ، وذلك الميل هو الارادة الجازمة ، والقصد الجازم . ثم إن تلك الارادة الجازمة لا تحصل إلا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع أو سبب للضرر فان لم يحصل فيه هذا الاعتقاد لم يحصل الميل لا إلى الفعل ولا إلى الترك ، فالحاصل أن الانسان إذا أحس بشيء ترتب عليه شعوره بكونه ملائما له أو بكونه منافرا له أو بكونه غير ملائم ولا منافر ، فان حصل الشعور بكونه ملائما له ترتب عليه الميل الجازم إلى الفعل وان حصل الشعور بكونه منافرا له ترتب عليه الميل الجازم إلى الترك ، وان لم يحصل لاهذا ولاذاك لم يحصل الميل لا إلى ذلك الشيء ولا إلى ضده ، بل بقى الانسان كما كان . وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل .

إذا عرفت هذا فنقول : صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعي الحاصل أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه . وصدور الميل عن تصور كونه خيرا أو تصور كونه شرا أمر واجب فلا يكون للشيطان فيه مدخل . وحصول كونه خيرا أو تصور كونه شرا عن مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه ، فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات إلا في أن يذكره شيئا بأن يلقى اليه حديثه مثل أن الانسان كان غافلا عن صورة امرأة فيلقى الشيطان حديثها في خاطره فالشيطان لا قدرة له إلا في هذا المقام ، وهو عين ما حكى الله تعالى عنه أنه قال (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني) يعني ما كان مني إلا مجرد هذه الدعوة فأما بقية المراتب فما صدرت مني وما كان لي فيها أثر البتة . بقي في هذا المقام سؤالان .

(السؤال الأول) كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الانسان وإلقاء الوسوسة إليه .

والجواب : للناس في الملائكة والشياطين قولان :

(القول الأول) أن ما سوى الله بحسب القسمة العقلية على أقسام ثلاثة : المتحيز ، والحال في المتحيز . والذى لا يكون متحيزا ولا حالا فيه ، وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل البتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به ، وهذا هو المسمى بالأرواح فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة . وإن كانت خبيثة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين .

والمعاصي وألجئتم إليها ، إلا أن دعوتكم أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي و يبنى قال النحويون : ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله (إلا أن دعوتكم) من جنس قولهم ماتحتهم إلا الضرب . وقال الواحدى : إنه استثناء منقطع ، أى لكن دعوتكم وعندى أنه يمكن أن يقال كلمة «إلا» ههنا استثناء حقيقى ، لأن قدرة الانسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة يكون بالقهر والقسر ، وتارة يكون بتقوية الداعية فى قلبه بالقاء الوسوس اليه ، فهذا نوع من أنواع التسلط . ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج أعضائه وجوارحه ، وعلى ازالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية ، ثم قال (فلا تلومنى ولو موأ أنفسكم) يعنى ما كان منى إلا الدعاء والوسوسة . وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم بحجى أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولى ولا تلتفتوا الى فلما رجحتم قولى على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا على فى هذا الباب . وفى الآية مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أشياء : الأول : أنه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يقال : فلا تلومنى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه الثانى : ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الانسان وعلى تعويج أعضائه وعلى ازالة العقل عنه كما تقول المحشوية والعوام . الثالث : أن هذه الآية تدل على أن الانسان لا يجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير ، وعند هذا يظهر أنه لا يجوز عقاب أولاد الكفار بسبب كفر آبائهم .

أجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به .

وأجاب الخصم عنه : بأنه لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه وأظهر انكاره . وأيضا فلا فائدة فى ذلك اليوم فى ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد . ألا ترى أن قوله (إن الله وعدكم وعد الحق و وعدتكم فأخلفتكم) كلام حق وقوله (وما كان لي عليكم من سلطان) قول حق بدليل قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآية تدل على أن الشيطان الاصلى هو النفس . وذلك لأن الشيطان بين أنه ما أتى الا بالوسوسة ، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير البتة ، فدل هذا على أن الشيطان الاصلى هو النفس .

فان قال قائل : بينوا لنا حقيقة الوسوسة .

قلنا : الفعل إنما يصدر عن الانسان عند حصول أمور أربعة يترتب بعضها على البعض ترتيبا

﴿القول الأول﴾ قال المفسرون : إذا استقر أهل الجنة في الجنة . وأهل النار في النار ، أخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريره فيقوم في النار فيما بينهم خطيباً ويقول ما أخبر الله عنه بقوله (وقال الشيطان لما قضي الأمر)

﴿القول الثاني﴾ أن المراد من قوله (قضى الأمر) لما انقضت المحاسبة ، والقول الأول أولى ، لأن آخر أمر أهل القيامة استقرار المطيعين في الجنة واستقرار الكافرين في النار ، ثم يدوم الأمر بعد ذلك .

﴿والقول الثالث﴾ وهو أن مذهبنا أن الفساق من أهل الصلاة يخرجون من النار ويدخلون الجنة فلا يبعد أن يكون المراد من قوله (لما قضي الأمر) ذلك الوقت ، لأن في ذلك الوقت تنقطع الأحوال المعتبرة ، ولا يحصل بعده إلا دوام ما حصل قبل ذلك ، وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم . فحمل اللفظ عليه أولى . لاسيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم يقول الكافر قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا فأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول» أما قوله ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ ففيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ المراد أن الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم ، وتقرير الكلام أن النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الآخروية والكمالات النفسانية والله يدعو إليها ويرغب فيها كما قال (والآخرة خير وأبقى)

﴿البحث الثاني﴾ قوله (وعد الحق) من باب إضافة الشيء إلى نفسه كقوله (حب الصيد) ومسجد الجامع على قول الكوفيين ، والمعنى : وعدكم الوعد الحق ، وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق أو الأمر الحق أو يكون التقدير وعدكم الحق . ثم ذكر المصدر تأكيدياً .

﴿البحث الثالث﴾ في الآية إضمار من وجهين : الأول : أن التقدير إن الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد ، لأنهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولأنه ذكر في وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى . الثاني : أن في قوله (ووعدتكم فأخلفتكم) الوعد يقتضى مفعولاً ثانياً وحذف ههنا للعلم به ، والتقدير : ووعدتكم أن لا الجنة ولا نار ، ولا حشر ولا حساب .

أما قوله ﴿وما كان لى عليكم من سلطان﴾ أى قدرة ومكنة وتسلط وقهر فاقهركم على الكفر

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
تَلُمُونِي وَلَوْ مَوَّأْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ
بِمَآ أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

الأول : قال ابن عباس : معناه لو أُرشدنا الله لأرشدناكم ، قال الواحدى : معناه أنهم إنما دعوهم إلى الضلال ، لأن الله تعالى أضلهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم إلى الضلال . ولو هداهم لدعوهم إلى الهدى قال صاحب الكشاف : لعلمهم قالوا ذلك دع أنهم كذبوا فيه وبدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم)

واعلم أن المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفا لأصول مشايخه فلا يقبل منه ، الثانى : قال صاحب الكشاف : يجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فالطف بنا ربنا واهدنا هديناكم إلى الإيمان ، وذكر القاضى هذا الوجه وزيفه بأن قال : لا يجوز حمل هذا على اللطف ، لأن ذلك قد فعله الله تعالى . والثالث : أن يكون المعنى لوخلصنا الله من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة هديناكم ، والدليل على أن المراد من الهدى هذا الذى ذكرناه أن هذا هو الذى التمسوه وطلبوه . فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى .

ثم قال ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ أى مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية ونظيره (اصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم) ثم قالوا : مالنا من محيص ، أى منجى ومهرب ، والمحيص قد يكون مصدرا كالمغيب والمشيبي . ومكانا كالمبيت والمضيق ، ويقال حاص عنه وحاص بمعنى واحد . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾
اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التى وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفره الانس . أوردتها بالمناظرة التى وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الانس فقال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر) وفى المراد بقوله (لما قضى الأمر) وجوه :

(البحث الثالث) قال أبو بكر الأصم قوله (وبرزوا لله) هو المراد من قوله في الآية السابقة

(ومن ورائه عذاب غليظ)

واعلم أن قوله (وبرزوا لله) قريب من قوله (يوم تبلى السرائر) فساله من قوة ولاناصر) وذلك لأن البواطن تظهر في ذلك اليوم والاحوال الكامنة تنكشف فان كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية . وأحوالهم العلوية . ووجوههم المشرقة ، وأرواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لها نور الجلال ؛ ويعظم فيها اشراق عالم القدس ، فما أجل تلك الاحوال وان كانوا من الاشقياء برزوا لموقف العظمة . ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين في خزي الخجالة ، ومذلة الفضيحة ، وموقف المهانة والفرع . نعوذ بالله منها . ثم حكي الله تعالى أن الضعفاء يقولون للرؤساء : هل تقدرون علي دفع عذاب الله عنا ؟ والمعنى : أنه انما اتبعناكم لهذا اليوم ، ثم إن الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذل . قالوا (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من عذاب الله من محيص) ومن المعلوم أن اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزي الكامل التام ، فكان المقصود من ذكر هذه الآية : استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدم ذكره من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها ، والله أعلم .

(المسألة الثانية) كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة في بعض المصاحف ، والسبب فيه أنه كتب

على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها الى الواو ، ونظيره علماء بني إسرائيل .

(المسألة الثالثة) الضعفاء الاتباع والعوام . والذين استكبروا هم السادة والكبراء . قال ابن

عباس : المراد أكبرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى (إنا كنا لكم تبعاً) أي في الدنيا . قال الفراء وأكثر أهل اللغة : التبعية تابع مثل خادم وخدم وياقرو بقر وحارس وحرس وراصد ورصد . قال الزجاج : وجائز أن يكون مصدراً سمي به ، أي كنا ذوى تبع .

واعلم أن هذه التبعية يحتمل أن يقال : المراد منها التبعية في الكفر ، ويحتمل أن يكون المراد

منها التبعية في أحوال الدنيا (فهل أتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنا .

فان قيل : فما الفرق بين من في قوله (من عذاب الله) وبينه في قوله (من شيء)

قلنا : كلاهما للتبعية بمعنى : هل أتم مغنون عنا بعض شيء هو عذاب الله أي بعض عذاب

الله . وعند هذا حكي الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا (لو هدانا الله لهديناكم) وفيه وجوه

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونٌ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سِوَاءَ
عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ «٢١»

قوله تعالى ﴿وبرزوا لله جميعا﴾ فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ﴿

اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقبيه أن أعمالهم تصير محبطة باطالة ، ذكر في هذه الآية كيفية خجالتهم عند تمسك أتباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم . وهذا إشارة الى العذاب الروحاني الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ برز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء . ومنه يقال للمكان الواسع : البراز لظهوره ، وقيل في قوله (وترى الأرض بارزة) أى ظاهرة لا يسترها شيء ، وامرأة بارزة اذا كانت تظهر للناس . ويقال : برز فلان على أقرانه اذا فاقهم وسبقهم ، وأصله في الخيل اذا سبق أحدها . قيل برز عليها كأنه خرج من غارها فظهر .
إذا عرفت هذا فنقول : ههنا أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قوله (وبرزوا) ورد بلفظ الماضي وان كان معناه الاستقبال ، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره قوله (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة)

﴿البحث الثاني﴾ قد ذكرنا أن البروز في اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا في حق الله تعالى محال ، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه : الأول : أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى ، فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية . الثاني : أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه . الثالث : وهو تأويل الحكماء أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوظائف بقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ماسواها وذلك هو البروز لله .

في يوم ذى عصفوف ، وان شئت قلت : في يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكورا قبل ذلك . وقرىء في يوم عاصف بالاضافة .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (لا يقدرّون مما كسبوا على شيء) أى لا يقدرّون مما كسبوا على شيء متّفع به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وذلك لأنه ضاع بالكلية وفسد ، وهذه الآية دالة على كون العبد مكتسبا لأفعاله .

واعلم أنه تعالى لما تم هذا المثال قال (ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ وجه النظم أنه تعالى لما بين أن أعمالهم تصير باطلة ضائعة ، بين أن ذلك البطلان والاحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله واعراضهم عن العبودية فان الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ابتداء ، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لداعية الحكمة والصواب .

﴿المسألة الثانية﴾ قوا حمزة والكسائى (خائق السموات والأرض) على اسم الفاعل على أنه خبر أن السموات والأرض على الاضافة كقوله (فاطر السموات والأرض . فائق الاصباح . وجاعل الليل سكنا) والباقون خلق على فعل الماضى (السموات والأرض) بالنصب لأنه مفعول .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (بالحق) نظير لقوله فى سورة يونس (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) ولقوله فى آل عمران (ربنا ما خلقنا هذا باطلا) ولقوله فى ص (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) أما أهل السنة فيقولون إلا بالحق وهو دلالتها على وجود الصانع وعلمه وقدرته ، وأما المعتزلة فيقولون : إلا بالحق ، أى لم يخلق ذلك عبثا بل لغرض صحيح .

ثم قال تعالى ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ والمعنى : أن من كان قادرا على خلق السموات والأرض بالحق ، فبأن يقدر على إفناء قوم وإماتهم وعلى إيجاد آخرين وإحيائهم كان أولى ، لأن القادر على الأصعب الأعظم بأن يكون قادرا على الأسهل الأضعف أولى . قال ابن عباس : هذا الخطاب مع كفار مكة ، يريد أميتكم يامعشر الكفار ، وأخلق قوما خيرا منكم وأطوع منكم .

ثم قال ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أى ممتنع لما ذكرنا أن القادر على إفناء كل العالم وإيجاده بأن يكون قادرا على إفناء أشخاص مخصوصين وإيجاده أمثالهم أولى وأحرى . والله أعلم .

إلا العقاب الشديد، وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعاً باطلاً، وذلك هو الخسران الشديد .
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في ارتفاع قوله (مثل الذين) وجوه : الأول : قال سيديويه : التقدير : وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم ، وقوله (كرماد) جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم فقيل : أعمالهم كرماد . الثاني : قال الفراء : التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتماداً على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله (أعمالهم) ومثله قوله تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه) أى خلق كل شيء ، وكذا قوله (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة . الثالث : أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد ، كقولك صفة زيد عرضه مصون ، وماله مبذول . الرابع : أن تكون أعمالهم بدلا من قوله (مثل الذين كفروا) والتقدير : مثل أعمالهم وقوله (كرماد) هو الخبر . الخامس : أن يكون المثل صلة وتقديره : الذين كفروا أعمالهم .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال ، هو أن الريح لعاصف تطير الرماد وتفرق أجزائه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر . فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر ، ثم اختلفوا في المراد بهذه الأعمال على وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن المراد منها ما عملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع . وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم ، ولولا كفرهم لاتفعوا بها .

﴿والوجه الثاني﴾ أن المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلفوه من كفرهم الذى ظنوه إيماناً وطريقاً إلى الخلاص ، والوجه في خسرتهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل لى ينتفعوا بها فصارت وبالاعليهم .

﴿والوجه الثالث﴾ أن المراد من هذه الأعمال كلا القسمين ، لأنهم إذ أروا الأعمال التى كانت فى أنفسهم خيرات قد بطلت ، والأعمال التى ظنوها خيرات وأفتوا فيها أعمارهم قد بطلت أيضا وصارت من أعظم الموجبات لعذابهم فلا شك أنه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى (ذلك هو الضلال البعيد) .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرى الرياح فى يوم عاصف جعل العصف لليوم ، وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك : يوم ماطر وليسلة ساكرة ، وإنما السكور لريحها قال الفراء : وإن شئت قلت

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ «١٨» أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ «١٩»
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ «٢٠»

﴿والقول الثاني﴾ أن كاد للمقاربة فقوله (لا يكاد) لنفي المقاربة يعنى : ولم يقارب أن يسيغه فكيف

يحصل الاساعة كقوله تعالى (لم يكديراها) أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها .

فان قيل : فقد ذكرتم الدليل على حصول الاساعة ، فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه .

قلنا : عنه جوابان : أحدهما : أن المعنى : ولا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع .

الثانى : أن الدليل الذى ذكرتم إنما دل على وصول بعض ذلك الشراب إلى جوف الكافر ، إلا أن ذلك ليس باساعة ، لأن الاساعة فى اللغة إجراء الشراب فى الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه ، أى لا يستطيعه ولا يشربه شربا بمره واحده وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة والله أعلم .

﴿النوع الثالث﴾ مما ذكره الله تعالى فى وعيد هذا الكافر قوله (ويأتيه الموت من كل مكان

وما هو بميت) والمعنى : أن موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات ، ومع ذلك فانه لا يموت وقيل من كل جزء من أجزاء جسده .

﴿النوع الرابع﴾ قوله (ومن ورائه عذاب غليظ) وفيه جهان : الأول : أن المراد من العذاب

الغليظ كونه دائما غير منقطع . الثانى : أنه فى كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله . قال المفضل : هو قطع الأنفاس وحبسها فى الأجساد ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدر

مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ
يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية المتقدمة بين فى هذه الآية أن أعمالهم بأسرها

تصير ضائعة باطلة لا ينتفعون بشىء منها . وعند هذا يظهر كمال خسراتهم لأنهم لا يجدون فى القيامة

ويقال: الموت من وراء الانسان. الثاني: قال ابن الأنباري «وراء» بمعنى بعد. قال الشاعر:
وليس وراء الله للمرء مذهب

أى وليس بعد الله مذهب .

إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى حكم عليه بالخيمة في قوله (وخاب كل جبار عنيد)

ثم قال ﴿من ورائه جهنم﴾ أى ومن بعده الخيمة يدخل جهنم .

﴿النوع الثانى﴾ مما ذكره الله تعالى من أحوال هذا الكافر قوله (ويسقى من ماء صديد يتجرعه

ولا يكاد يسيغه) وفيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ علام عطف (ويسقى)

الجواب: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلتقى فيها ويسقى من ماء صديد .

﴿السؤال الثانى﴾ عذاب أهل النار من وجوه كثيرة . فلم خص هذه الحالة بالذكر ؟

الجواب: يشبه أن تكون هذه الحالة أشد أنواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله (ويأتيه

الموت من كل مكان وما هو بميت)

﴿السؤال الثالث﴾ ما وجه قوله (من ماء صديد)

الجواب: أنه عطف بيان والتقدير: أنه لما قال (ويسقى من ماء) فكأنه قيل: وما ذلك الماء

فقال (صديد) والصديد ما يسيل جلود أهل النار . وقيل: التقدير ويسقى من ماء كالصديد . وذلك

بأن يخلق الله تعالى فى جهنم ما يشبه الصديد فى النتن والغلاظ والقذارة ، وهو أيضاً يكون فى نفسه

صديداً ، لأن كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم . وإن يستغيثوا

يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب)

﴿السؤال الرابع﴾ ما معنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه .

الجواب: التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار . ويقال: ساغ الشراب فى الحلق

يسوغ سوفاً وأساغه إساعة . واعلم أن (يكاد) فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أن نفيه اثبات ، وإثباته نفي ، فقوله (ولا يكاد يسيغه) أى ويسيغه بعد إبطاء

لأن العرب تقول: ما كدت أقوم ، أى قمت بعد إبطاء قال تعالى (فذبوها وما كادوا يفعلون) يعنى

فعلوا بعد إبطاء ، والدليل على حصول الإساءة قوله تعالى (يصره به مائى بطونهم والجنود)

ولا يحصل الصهر إلا بعد الإساءة ، وأيضاً فإن قوله (يتجرعه) يدل على أنهم أساغوا الشيء بعد

الشيء فكيف يصح أن يقال بعده إنه يسيغه البتة .

ثم قال تعالى ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ وفيه مسألان :

﴿المسألة الأولى﴾ إن قلنا : المستفتحون هم الرسل ، كان المعنى أن الرسل استفتحوا فنصروا وظفروا بمقصودهم وفازوا (وخاب كل جبار عنيد) وهم قومهم ؛ وإن قلنا : المستفتحون هم الكفرة ، فكان المعنى : أن الكفار استفتحوا على الرسل ظنا منهم أنهم على الحق والرسل على الباطل (وخاب كل جبار عنيد) منهم وما أفلح بسبب استفتاحه على الرسل .

﴿المسألة الثانية﴾ الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . ومنه قوله تعالى (ولم يكن جبارا عصيا) قال أبو عبيدة عن الأحرر : يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة ، وحكى الزجاج : الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والنجبار والجبرياء . قال الواحدي : فهى ثمان لغات فى مصدر الجبار ، وفى الحديث أن امرأة حضرت النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أمرا فأبت عليه فقال «دعوها فإنها إجبارة» أى مستكبرة ، وأما العنيد فقد اختلف أهل اللغة فى اشتقاقه ، قال النضر ابن شميل : العنود الخلاف والتباعد والترك ، وقال غيره : أصله من العند وهو الناحية يقال : فلان يمشى عندا ، أى ناحية ، فعنى عاند وعند . أخذ فى ناحية معرضا ، وعاند فلان فلانا إذا جانبه وكان منه على ناحية .

إذا عرفت هذا فنقول : كونه جبارا متكبرا إشارة إلى الخلق النفسانى وكونه عنيدا إشارة إلى الأثر الصادر عن ذلك الخلق ، وهو كونه مجابنا عن الحق منحرفا عنه ، ولا شك أن الانسان الذى يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق ، كان خائبا عن كل الخيرات . خاسرا عن جميع أقسام السعادات ،

واعلم أنه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا ، وصف كيفية عذابه بأمر : الأول : قوله (من ورائه جهنم) وفيه إشكال وهو أن المراد : أمامه جهنم ، فكيف أطلق لفظ الورا على القدام والأمام ؟

وأجابوا عنه من وجوه : الأول : أن لفظ «وراء» اسم لما يوارى عنك . وقدام وخلف متوار عنك ، فصح إطلاق لفظ «وراء» على كل واحد منهما . قال الشاعر :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضا : الموت وراء كل أحد . الثانى : قال أبو عبيدة وابن السكيت : الورا من الاضداد يقع على الخلف والقدام ، والسبب فيه أن كل ما كان خلفا فانه يجوز أن ينقلب قداما وبالعكس ، فلا جرم جاز وقوع لفظ الورا على القدام ، ومنه قوله تعالى (وكان وراءهم ملك يأخذ أى أمامهم ،

الثاني: أن المقام مصدر كالقيامه ، يقال : قام قياما ومقاما . قال الفراء : ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي إياه كقوله (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) الثالث (ذلك لمن خاف مقامي) أى إقامتي على العدل والصواب فإنه تعالى لا يقضى إلا بالحق ولا يحكم إلا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف البتة ، الرابع : (ذلك لمن خاف مقامي) أى مقام العائد عندى وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول ، الخامس : (ذلك لمن خاف مقامي) أى لمن خافنى ، وذكر المقام ههنا مثل ما يقال : سلام الله على المجلس الفلانى العالى . والمراد : سلام الله على فلان فكبنا ههنا . ثم قال تعالى ﴿ وخاف وعيد ﴾ قال الواحدي : الوعيد اسم من أوعد إيعادا وهو التهديد . قال ابن عباس : خاف ما أوعدت من العذاب .

واعلم أنه تعالى ذكر أولا قوله (ذلك لمن خاف مقامي) ثم عطف عليه قوله (وخاف وعيد) فهذا يقتضى أن يكون الخوف من الله تعالى مغيرا للخوف من وعيد الله . ونظيره : أن حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله ، وهذا مقام شريف عال فى أسرار الحكمة والتصديق . ثم قال ﴿ واستفتحوا ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ للاستفتاح ههنا معنيان : أحدهما : طلب الفتح بالنصرة ، فقوله (واستفتحوا) أى واستنصروا الله على أعدائهم ، فهو كقوله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) والثانى : الفتح الحكيم والقضاء ، فقول ربنا (واستفتحوا) أى واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم ، وهو مأخوذ من الفتحا وهى الحكومة كقوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق)

إذا عرفت هذا فنقول : كلا القولين ذكره المفسرون . أما على القول الأول فالمستفتحون هم الرسل ، وذلك لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أسوا من إيمانهم (قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وقال موسى (ربنا اطمس) الآية . وقال لوط (رب انصرنى على القوم المفسدين) وأما على القول الثالث : وهو طلب الحكمة والقضاء فالأولى أن يكون المستفتحون هم الأمم وذلك أنهم قالوا : اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا . ومنه قول كفار قريش : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . وكقول آخرين ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف : قوله (واستفتحوا) معطوف على قوله (فأوحى إليهم) وقرىء واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على قوله (لنهلكن) أى أوحى إليهم ربهم ، وقال لهم (لنهلكن) وقال لهم (استفتحوا)

القبائل وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار ، بل كانوا في ظاهر الأمر معهم من غير اظهار مخالفة قالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الأمر على دينهم فلهذا السبب قالوا (أو لتعودن في ملتنا)

(الوجه الثانى) أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب فى كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلمهم توهموا ذلك مع أنه ما كان الأمر كما توهموه .

(الوجه الثالث) لعل الخطاب وان كان فى الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال : إنهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار .

(الوجه الرابع) قال صاحب الكشاف : العود بمعنى الصيرورة كثير فى كلام العرب .

(الوجه الخامس) لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل ارسالهم على ملّة من الملل ، ثم إنه تعالى أوحى اليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى . وبقى الأقوام على تلك الشريعة التى صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر ، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة .

(الوجه السادس) لا يبعد أن يكون المعنى . أو لتعودن فى ملتنا . أى إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معاينة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقبح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل والله أعلم .

واعلم أن الكفار لما ذكروا هذا الكلام قال تعالى (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) قال صاحب الكشاف (لنهلكن الظالمين) حكاية تقتضى ضمها القول أو اجراء الايحاء مجرى القول لأنه ضرب منه ، وقرأ أبو حيوة (ليهلكن الظالمين وليسكننكم) بالياء اعتبارا لأوحى فان هذا اللفظ لفظ الغيبة ونظيره قولك أقسم زيد ليخرجن ولاخرجن ، والمراد بالأرض أرض الظالمين وديارهم) ونظيره قوله (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها . وأورثكم أرضهم وديارهم) وعن النبي صلى الله عليه وسلم « من آذى جاره أورثه الله داره » واعلم أن هذه الآية تدل على أن من توكل على ربه فى دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه .

ثم قال تعالى (ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) فقوله ذلك إشارة الى أن ما قضى الله تعالى به من اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم اثر ذلك الأمر حق لمن خاف مقامى وفيه وجوه : الأول : المراد موقفى وهو موقف الحساب ، لأن ذلك الموقف موقف الله تعالى الذى يقف فيه عباده يوم القيامة ، ونظيره قوله (وأما من خاف مقام ربه) وقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا
فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ «١٣» وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ «١٤» وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ «١٥»
مَنْ وَرَاءَهُ جَهَنَّمَ وَيَسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ «١٦» يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ
الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ وَرَاءَهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ «١٧»

وأما قوله في آخر الآية ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ المراد منه الأمر بالتوكل على الله في دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم ، وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لأن قوله (وعلى الله فليتوكل) وارد في موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين ، وقيل أيضا الأول ذكر لاستحداث التوكل . والثاني للسعي في ابقائه وادامته والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورأه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورأه عذاب غليظ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الأنبياء عليهم السلام . أنهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) والمعنى : ليسكون أحد الأمرين لا محالة إما اخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا . والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين . وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين ، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة .

فان قيل : هذا يومهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها

قلنا : الجواب من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن أولئك الانبياء عليهم السلام انما نشؤا في تلك البلاد وكانوا من تلك

(ومالنا أن لا نتوكل على الله) ثم لما فرغوا من أنفسهم أمروا أتباعهم بذلك وقالوا (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وذلك يدل على أن الأمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولاً ، ورأيت في كلام الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله فصلاً حسناً وحاصله : أن الانسان إما أن يكون ناقصاً أو كاملاً أو خالياً عن الوصفين ، أما الناقص فاما أن يكون ناقصاً في ذاته وامكنه لا يسعى في تنقيص حال غيره ، وإما أن يكون ناقصاً ويكون مع ذلك ساعياً في تنقيص حال الغير ، فالأول هو الضال ، والثاني هو الضال المضل ، وأما الكامل فاما أن يكون كاملاً ولا يقدر على تكميل الغير وهم الأولياء ، وإما أن يكون كاملاً ويقدر على تكميل الناقصين وهم الأنبياء ولذلك قال عليه السلام «علماء أمتي كأنياء بني اسرائيل» ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الاكمال والاضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية ، لاجرم كانت مراتب الولاية والحياة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان فالولى هو الانسان الكامل الذى لا يقوى على التكميل ، والنبي هو الانسان الكامل المكمل . ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل إنسانين ناقصين . وقد تكون أقوى من ذلك فينبى بتكميل عشرة ومائة . وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس في العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العالم من مقام الجهل إلى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا إلى طلب الآخرة . وذلك مثل روح محمد صلى الله عليه وسلم ، فان وقت ظهوره كان العالم مملوئاً من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصراني وهم حلولية . ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر . ومن عبدة الأوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج إلى بيان فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سرت قوة روحه في الأرواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك إلى التوحيد . ومن التجسيم إلى التنزيه . ومن الاستغراق في طلب الدنيا إلى التوجه إلى عالم الآخرة ، فمن هذا المقام ينكشف للانسان مقام النبوة والرسالة .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (وما لنا أن لا نتوكل على الله) إشارة إلى ما كانت حاصلة لهم من كالات نفوسهم ، وقولهم في آخر الأمر ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ، إشارة إلى تأثير أرواحهم الكاملة في تكميل الأرواح الناقصة فهذه أسرار عالية مخزونة في ألفاظ القرآن ، فمن نظر في علم القرآن وكان غافلاً عنها كان محروماً من أسرار علوم القرآن والله أعلم ، وفي الآية وجه آخر وهو أن قوله (وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان إلا بأذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) المراد منه أن الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا عليها ، فان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها .

﴿وأما الشبهة الثانية﴾ وهى قولهم : إطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقا . لأنه يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق العظيم ، فجوابه : عين الجواب المذكور عن الشبهة الأولى ، لأن التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه . ولا يبعد أن يخص بعض عباده بهذه العطية وأن يحرم الجمع العظيم منها .

﴿وأما الشبهة الثالثة﴾ وهى قولهم : إنا لانرضى بهذه المعجزات التى أتيتم بها ، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية .

فالجواب عنها : قوله تعالى (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) وشرح هذا الجواب أن المعجزة التى جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام ، فأما الأشياء التى طلبتموها فهى أمور زائدة والحكم فيها لله تعالى فان خلقها وأظهرها فله الفضل . وإن لم يخلقها فله العدل . ولا يحكم عليه بعد ظهور قدر الكفاية . ثم إنه تعالى حكى عن الأنبياء والرسل عليهم السلام أنهم قالوا بعد ذلك (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) والظاهر أن الأنبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم أخذوا فى السفاهة والتخويف والوعيد ، وعند هذا قالت الأنبياء عليهم السلام : لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد أوحى اليهم أن أولئك الكفرة لا يقدر على إيصال الشر والآفة اليهم وإن لم يكن حصل هذا الوحي ، فلا يبعد منهم أن لا يلتفتوا إلى سفاهتهم لما أن أرواحهم كانت مشرقة بالمعارف الالهية مشرقة بأضواء عالم الغيب . والروح متى كانت موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالى بالأحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزناً فى حالتى السراء والضراء وطورى الشدة والرخاء فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا أطعاهم عما سوى الله ، والذي يدل على أن المراد ما ذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم (ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا) يعنى أنه تعالى لما خصنا بهذه الدرجات الروحانية ، والمعارف الالهية الربانية فكيف يليق بنا أن لا نتوكل على الله بل ، اللائق بنا أن لا نتوكل إلا عليه ولا نعول فى تحصيل المهمات إلا عليه ، فان من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مكان الاخلاص والمكاشفة يقبح به أن يرجع فى أمر من الأمور إلى غير الحق سواء كان ملكا له أو ملكا أو روحا أو جسما . وهذه الآية دالة على أنه تعالى يعصم أوليائه المخلصين فى عبوديته من كيد أعدائهم ومكرهم ، ثم قالوا (ولنصبرن على ما آذيتمونا) فان الصبر مفتاح الفرج ، ومطلع الخيرات . والحق لا بد وأن يصير غالبا قاهراً ، والباطل لا بد وأن يصير مغلوبا مقهوراً . ثم أعادوا قولهم (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) والفائدة فيه أنهم أمروا أنفسهم بالتوكل على الله فى قوله

قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنَّ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَكُمُ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
 مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ «١١» وَمَا أَنَا إِلَّا أَنْتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ
 مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ «١٢»

قوله تعالى ﴿قالت رسولهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمين على من يشاء من عباده
 وما كان لنا أن نأتيكم بسطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا أن لا نتوكل على الله
 وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾
 اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة، حكى عن الأنبياء عليهم
 السلام جوابهم عنها .

﴿أما الشبهة الأولى﴾ وهي قولهم (إن أتمم إلا بشر مثلنا) فجوابه : أن الأنبياء سلموا أن الأمر
 كذلك ، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والانسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة
 لأن هذا المنصب منصب يمين الله به على من يشاء من عباده ، فإذا كان الأمر كذلك فقد
 سقطت هذه الشبهة .

واعلم أن هذا المقام فيه بحث شريف دقيق ، وهو أن جماعة من حكماء الاسلام قالوا : إن
 الانسان مالم يكن في نفسه وبدنه مخصوصا بخواص شريفة علوية قدسية ، فإنه يمتنع عقلا حصول
 صفة النبوة له . وأما الظاهريون من أهل السنة والجماعة ، فقد زعموا أن حصول النبوة عطية من الله
 تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده ، ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الانسان عن سائر الناس
 بمزيد إشراق نفساني وقوة قدسية ، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، فإنه تعالى بين أن حصول النبوة ليس
 إلا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه ، والكلام في هذا الباب غامض غائض دقيق ، والأولون
 أجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعا منهم ، واقتصروا على قولهم
 (ولكن الله يمين على من يشاء من عباده) بالنبوة ، لأنه قد علم أنه تعالى لا يخصهم بتلك الكرامات
 إلا وهم موصوفون بالفضائل التي لأجلها استوجبوا ذلك التخصيص ، كما قال تعالى (الله أعلم
 حيث يجعل رسالته)

وجهان : الأول : المعنى أنكم إن آمنتم أخرج الله موتكم إلى أجل مسمى وإلا عاجلكم بعدد الاستئصال .
الثاني : قال ابن عباس : المعنى يمتعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت .

فان قيل : أليس إنه تعالى قال (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فكيف قال ههنا (ويؤخركم إلى أجل مسمى)

قلنا : قد تكلمنا في هذه المسألة في سورة الأنعام في قوله (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) ثم حكى تعالى أن الرسل لما ذكروا هذه الأشياء لأولئك الكفار قالوا (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين)

واعلم أن هذا الكلام مشتمل على ثلاثة أنواع من الشبه :

(فالشبهة الأولى) أن الأشخاص الانسانية متساوية في تمام الماهية ، فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحد . وهو أن يكون الواحد منهم رسولا من عند الله مطالعا على الغيب مخالطا لزمرة الملائكة ، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال أيضا كانوا يقولون : إن كنت قد فارقتنا في هذه الأحوال العالية الالهية الشريفة ، وجب أن تفارقنا في الأحوال الخسيسة . وهي الحاجة إلى الأكل والشرب والحدث والوقاع ، وهذه الشبهة هي المراد من قولهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا)

(والشبهة الثانية) التمسك بطريقة التقليد ، وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الأوثان . قالوا ويبعد أن يقال : إن أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خوارهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين . وأن الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه . والعوام ربما زادوا في هذا الباب كلما آخر ، وذلك أن الرجل العالم إذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له إن كلامك إنما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين ، أما المناظرة مع الميت فسهلة . فهذا كلام يذكره الحمقى والرعايا وأولئك الكفار أيضا ذكروه ، وهذه الشبهة هي المراد من قوله (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا)

(والشبهة الثالثة) أن قالوا المعجز لا يدل على الصدق أصلا ، وإن كانوا سلموا على أن المعجز يدل على الصدق ، إلا أن الذي جاء به أولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا أنها أمور معتادة . وأنها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، وإلى هذا النوع من الشبهة الإشارة بقوله (فأتونا بسلطان مبين) فهذا تفسير هذه الآية بحسب الواسع والله أعلم .

منها مغفورا . ثم قال وفيه وجه آخر وهو أن الكافر قد ينسى بعض ذنوبه في حال توبته وإنابته فلا يكون المغفور منها إلا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس في هذه الكلمة .

﴿المسألة الرابعة﴾ أقول هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة في حق أهل الايمان والدليل عليه أنه قال (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) وعد بغفران بعض الذنوب مطلقا من غير اشتراط التوبة . فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقا من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لانعاد الاجماع على أنه تعالى لا يغفر الكفر الا بالتوبة عنه والدخول في الايمان فوجب أن يكون البعض الذي يغفر له من غير التوبة هو ماعد الكفر من الذنوب .

فان قيل : لم لا يجوز أن يقال كلمة (من) صلة على ما قاله أبو عبيدة أو نقول : المراد من البعض ههنا هو الكل على ما قاله الواحدى . أو نقول : المراد منها إبدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدى أيضا أو نقول : المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر في الخطاب على ما قاله صاحب الكشف أو نقول : المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الأصم . أو نقول : المراد منه الذنوب التي يذكرها الكافر عند الدخول في الايمان على ما قاله القاضى ، فنقول : هذه الوجوه بأسرها ضعيفة أما قوله : إنها صلة فعناها الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد ، والعاقل لا يجوز المصير اليه من غير ضرورة ، فأما قول الواحدى : المراد من كلمة (من) ههنا هو الكل فهو عين ما قاله أبو عبيدة لأن حاصله أن قوله (يغفر لكم من ذنوبكم) هو أنه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن أبي عبيدة ، وحكى عن سيبويه إنكاره ، وأما قوله : المراد منه إبدال السيئة بالحسنة فليس في اللغة أن كلمة من تفيد الابدال ، وأما قول صاحب الكشف : المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشرىف فهو من باب الطامات ، لأن هذا التبويض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب ، وإن لم يحصل كان هذا الجواب فاسدا ، وأما قول الأصم فقد سبق ابطاله ، وأما قول القاضى فجوابه : ان الكافر اذا أسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» فثبت أن جميع ما ذكره من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرنا أنه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ماعد الكفر ، وأما الكفر فهو أيضا من الذنوب وأنه تعالى لا يغفره الا بالتوبة ، واذا ثبت أنه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط أن يأتي بالايمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان أولى ، هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال ، والله أعلم بمقيقة الحال .

﴿النوع الثانى﴾ مما وعد الله تعالى به في هذه الآية قوله (ويؤخركم الى أجل مسمى) وفيه

(الوجه الخامس) أن الاعتراف بوجود الاله المختار المكلف . وبوجود المعاد أحوط ، فوجب المصير اليه فهذه مراتب أربعة : أولها : أن الاقرار بوجود الاله أحوط ، لأنه لو لم يكن موجوداً فلا ضرر في الاقرار بوجوده وإن كان موجوداً ففي إنكاره أعظم المضار . وثانيها : الاقرار بكونه فاعلاً مختاراً لأنه لو كان موجباً فلا ضرر في الاقرار بكونه مختاراً ، أما لو كان مختاراً ففي إنكار كونه مختاراً أعظم المضار . وثالثها : الاقرار بأنه كلف عباده ، لأنه لو لم يكلف أحداً من عبيده شيئاً فلا ضرر في اعتقاد أنه كلف العباد ، أما إنه لو كلف ففي إنكار تلك التكاليف أعظم المضار . ورابعها : الاقرار بوجود المعاد فإنه إن كان الحق أنه لا معاد فلا ضرر في الاقرار بوجوده ، لأنه لا يفوت إلا هذه اللذات الجسمانية وهي حقيرة ومنقوصة وإن كان الحق هو وجوب المعاد ففي إنكاره أعظم المضار فظهر أن الاقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير اليه ، لأن بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الامكان .

(المسألة الثالثة) لما أقام الدلالة على وجود الاله بدليل كونه فاطر السموات والارض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين ، الأول : قوله (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) قال صاحب الكشف : لو قال قائل مامعنى التبويض في قوله من ذنوبكم . ثم أجاب فقال ماجاء هكذا إلا في خطاب الكافرين . كقوله (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم) وقال في خطاب المؤمنين (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) إلى أن قال (يغفر لكم ذنوبكم) والاستقراء يدل على صحة ما ذكرناه . ثم قال : وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين في المعاد ، وقيل : إنه أراد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم . هذا كلام هذا الرجل ، وقال الواحدى : فى البسيط ، قال أبو عبيدة (من) زائدة ، وأنكر سيبويه زيادتها فى الواجب ، وإذا قلنا : إنها ليست زائدة فههنا وجهان : أحدهما أنه ذكر البعض ههنا وأريد به الجميع توسعاً ، والثانى : أن (من) ههنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة ، وقال القاضى ذكر الأصم إن كلمة (من) ههنا تفيد التبويض ، والمعنى أنكم إذا تبتم فانه يغفر لكم الذنوب التى هى من الكبائر ، فأما التى تكون من باب الصعائر فلا حاجة إلى غفرانها لأنها فى أنفسها مغفورة . قال القاضى : وقد أهدى فى هذا التأويل ، لأن الكفار صغائرهم ككبائرهم فى أنها لا تغفر إلا بالتوبة وإيمانها تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابها فأما من لا ثواب له أصلا فلا يكون شيء من ذنوبه صغيراً ولا يكون شيء

وجود الصانع المختار وعلى حصول التكليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجود النبي . أما دلالتها على وجود الصانع المختار ، فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول : من الذى ضربني وماذاك إلا أن شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما -تحدث بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل فعلها ، ولأجل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى ، وأما دلالتها على وجوب التكليف ، فلأن ذلك الصبي ينادى ويصيح ويقول : لم ضربني ذلك الضارب ؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال الانسانية داخله تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف ، وأن الانسان ما خلق حتى يفعل أى فعل شاء واشتهى ، وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وينادى يمكنه طلب ذلك الجزاء فانه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى ، وأما دلالتها على وجوب النبوة فلا أنهم يحتاجون إلى انسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ولا معنى للنبي إلا الانسان الذى يقدر هذه الأمور ويبين لهم هذه الاحكام ، فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الانسان لا بد له من هذه الأمور الأربعة .

﴿الوجه الثانى﴾ فى التنبيه على أن الاقرار بوجود الصانع بديهى هو أن الفطرة شاهد بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة . مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم ، وبان حكيم ، ومعلوم أن آثار الحكمة فى العالم العلوى والسفلى أكثر من آثار الحكمة فى تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار النقش الى النقاش ، والبناء الى البانى ، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم الى الفاعل المختار الحكيم كان أولى .

﴿الوجه الثالث﴾ أن الانسان إذا وقع فى محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى فى ظنه رجاء المعاونة من أحد ، فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالافتقار إلى الصانع المدبر .

﴿الوجه الرابع﴾ أن الموجود إما أن يكون غنياً عن المؤثر أو لا يكون ، فان كان غنياً عن المؤثر فهو الموجود الواجب لذاته . فانه لا معنى للواجب لذاته إلا الموجود الذى لا حاجة به إلى غيره . وإن لم يكن غنياً عن المؤثر فهو محتاج ، والمحتاج لا بد له من المحتاج اليه وذلك هو الصانع المختار .

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ
مَنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ
تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ «١٠»

قلنا: كأنهم قالوا: إما أن نكون كافرين برسالتكم أو أن لم ندع هذا الجزم واليقين فلا أقول
من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم ، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف
بنبوتكم والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من
ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد
آبائنا فأتونا بسطان مبين ﴾

اعلم أن أولئك الكفار لما قالوا للرسول وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم
وهل تشكون في الله ، وفي كونه فاطر السموات والأرض و فاطرا لأنفسنا وأرواحنا وأرزاقنا
وجميع مصالحنا وإنا لاندعوكم إلا إلى عبادة هذا الاله المنعم . ولا نمنعكم إلا عن عبادة غيره وهذه
المعاني يشهد صريح العقل بصحتها ، فكيف قلتم : وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ؟ وهذا
النظم في غاية الحسن . وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أفي الله شك) استفهام على سبيل الإنكار . فلما ذكر هذا المعنى أردفه
بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار ، وهو قوله (فاطر السموات والأرض) وقد ذكرنا في هذا
الكتاب أن وجود السموات والأرض كيف يدل على احتياجه إلى الصانع المختار الحكيم مراراً
وأطواراً فلا نعيدها ههنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف : أدخلت همزة الإنكار على الظرف . لأن الكلام ليس
في الشك إنما هو في أن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك ، وأقول من الناس من ذهب إلى أنه
قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار ، ويدل على أن الفطرة
الأولية شاهدة بذلك وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ قال بعض العقلاء : إن من لطم على وجه صبي لطمه فتلك اللطمه تدل على

﴿الوجه الأول﴾ قال أبو مسلم الأصفهاني: المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لأن اسماع الحجة انعام عظيم والانعام يسمى يدا. يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفا، وقد يذكر اليد، والمراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) فالبيئات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد، وأيضا العهود التي كانوا يتون بها مع القوم أيادى وجمع اليد في العدد القليل هـ الأيدي وفي العدد الكثير هو الأيادي، فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي، وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم. فإذا لم تقبل صارت مردودة الى حيث جاءت، ونظيره قوله تعالى (اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) فلما كان القبول تلقيا بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردا في الأفواه، فهذا تمام كلام أبي مسلم في تقرير هذا الوجه.

﴿الوجه الثاني﴾ نقل محمد بن جرير عن بعضهم أن معنى قوله (فردوا أيديهم في أفواههم) أنهم سكتوا عن الجواب يقال للرجل إذا أمسك عن الجواب، رديده في فيه وتقول العرب كلمت فلانا في حاجة فرد يده في فيه إذا سكت عنه فلم يجب، ثم انه زيف هذا الوجه وقال: انهم أجابوا بالكذب لأنهم قالوا (إنا كفرنا بما أرسلتم به)

﴿الوجه الثالث﴾ المراد من الأيدي نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الأنبياء فقد عرضوا تلك النعم للازالة والابطال فقوله (ردوا أيديهم في أفواههم) أي ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التي صدرت عن أفواههم ولا يبعد حمل «في» على معنى الباء لأن حروف الجر لا يمتنع إقامة بعضها مقام بعض.

﴿النوع الثاني﴾ من الأشياء التي حكاه الله تعالى عن الكفار قولهم (إنا كفرنا بما أرسلتم به) والمعنى: انا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم فيه لأنهم ما أقرروا بأنهم أرسلوا.

واعلم أن المرتبة الأولى هو أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام وحاولوا اسكات الأنبياء عن تلك الدعوى. وهذه المرتبة الثانية أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة.

﴿والنوع الثالث﴾ قولهم (وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) قال صاحب الكشاف: وقرىء (تدعونا) بادغام النون (مريب) موقع في الرية أودى رية من أرابه، والرية قلق النفس وأن لا تظمن إلى الامر.

فان قيل: لما ذكروا في المرتبة الثانية أنهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين في صحة قولهم؟

نفي العلم بدواتهم إذ لو كانت ذواتهم معلومة . وكان المجهول هو مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفي العلم بدواتهم . ولما كان ظاهر الآية دليلاً على نفي العلم بدواتهم لا جرم كان الأقرب هو القول الثاني . ثم إنه تعالى حكى عن هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم أنه لما جاءتهم رسالتهم بالبينات والمعجزات أتوا بأمر : أولها : قوله (فردوا أيديهم في أفواههم) وفي معناه قولان : الأول : أن المراد باليد والضم الجارحتان المعلومتان . والثاني : أن المراد بهما شيء غير هاتين الجارحتين ، وإنما ذكرهما مجازاً وتوسعاً . أما من قال بالقول الأول ففيه ثلاثة أوجه :

﴿الوجه الأول﴾ أن يكون الضمير في (أيديهم) و(أفواههم) عائداً إلى الكفار ، وعلى هذا ففيه احتمالات : الأول : أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم ، ونظيره قوله تعالى (عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهذا القول مروى عن ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله تعالى . وهو اختيار القاضي والثاني : أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية ، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبة الضحك فوضع يده على فيه . والثالث : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث ، وهذا مروى عن الكلبي . والرابع : أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به ، أي هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه ، وليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق ألا ترى إلى قوله (فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به)

﴿الوجه الثاني﴾ أن يكون الضميران راجعين إلى الرسل عليهم السلام وفيه وجهان : الأول : أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . الثاني : أن الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فان من ذكر كلاماً عند قوم وأنكروه وخافهم ، فذلك المتكلم ربما وضع يده نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود إلى ذلك الكلام البتة .

﴿الوجه الثالث﴾ أن يكون الضمير في أيديهم يرجع إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل وفيه وجهان : الأول : أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء عليهم السلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكديباً لهم ورد عليهم . والثاني : أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء عليهم السلام منعاً لهم من الكلام ، ومن بالغ في منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك . أما على القول الثاني : وهو أن ذكر اليد والضم توسع ومجاز ففيه وجوه :

واعلم أن قولنا (إن تكفروا أتمم ومن في الأرض جميعا) سواء حمل على الكفر الذى يقابل الايمان أو على الكفران الذى يقابل الشكر . فالمعنى لا يتفاوت البتة . فانه تعالى غنى عن العالمين في كالاته وفي جميع نعوت كبرياته وجلاله .

ثم إنه تعالى قال ﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ وذكر أبو مسلم الأصفهاني أنه يحتمل أن يكون ذلك خطاباً من موسى عليه السلام لقومه والمقصود منه أنه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم ، ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكروهم أمر القرون الأولى ، والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين . وهذا المقصود حاصل على التقديرين إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم واعلم أنه تعالى ذكر أقواماً ثلاثة ، وهم : قوم نوح وعاد وثمود .

ثم قال تعالى (والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) وذكر صاحب الكشاف فيه احتمالين : الأول : أن يكون قوله (والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً والثاني : أن يقال قوله (والذين من بعدهم) معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله (لا يعلمهم إلا الله) فيه قولان :

﴿ القول الأول ﴾ أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله ، لأن المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلاً كذبوا رسلاً لم نعرفهم أصلاً ، ولا يعلمهم إلا الله والقائلون بهذا القول الثاني طعنوا في قول من يصل الأنساب إلى آدم عليه السلام كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفي الله عنها عن العباد ، وعن ابن عباس : بين عدنان وبين إسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (وقروناً بين ذلك كثيراً) وقوله (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنا . كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد . وقال « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم . وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق » قال القاضي : وعلى هذا الوجه لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام الى هذا الوقت ، لأنه إن أمكن ذلك لم يبعد أيضاً تحصيل العلم بالأنساب الموصولة .

فان قيل : أى القولين أولى ؟

قلنا : القول الثانى عندى أقرب ، لأن قوله تعالى (لا يعلمهم إلا الله) نفي العلم بهم ، وذلك يقتضى

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَتَمُّ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾
 أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا
 كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى ﴿وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾
 اعلم أن موسى عليه السلام لما بين أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا وفي الآخرة ، والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد ، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة . بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر ، وصاحب الكفران . أما المعبود والمشكور فانه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران ، فلا جرم قال تعالى (وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد) والغرض منه بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة الى العابد لا لمنافع عائدة الى المعبود ، والذي يدل على أن الأمر كذلك ما ذكره الله في قوله (إن الله لغني) وتفسيره أنه واجب الوجود لذاته . واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته ، فانه لو لم يكن واجب الوجود لذاته . لافتقر رجحان وجوده على عدمه الى مرجح فلم يكن غنيا ، وقد فرضناه غنيا هذا خلف ، فثبت أن كونه غنيا يوجب كونه واجب الوجود في ذاته ، وإذا ثبت أنه واجب الوجود لذاته ، كان أيضا واجب الوجود بحسب جميع كالاته ، إذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال ، لافتقر في حصول ذلك الكمال الى سبب منفصل ، فحينئذ لا يكون غنيا ، وقد فرضناه غنيا هذا خلف . فثبت أن ذاته كافية في حصول جميع كالاته ، وإذا كان الأمر كذلك كان حميدا لذاته ، لانه لا معنى للحميد إلا الذي استحق الحمد . فثبت بهذا التقرير الذي ذكرناه أن كونه غنيا حميدا يقتضى أن لا يزداد بشكر الشاكرين ، ولا ينتقص بكفران الكافرين ، فلهذا المعنى قال (إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد) وهذه المعاني من لطائف الأسرار .

فأجرى (تأذن) مجرى قال لأنه ضرب من القول ، وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه (وإذا قال ربك لئن شكرتم)

واعلم أن المقصود من الآية بيان أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه ، ولا بد ههنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عند الاشتغال بالشكر، أما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ، وأما الزيادة في النعم فهي أقسام : منها النعم الروحانية ، ومنها النعم الجسمانية ، أما النعم الروحانية فهي أن الشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه ، ومن كثر احسانه إلى الرجل أحبه الرجل لا محالة ، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله واحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى ، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين ، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يصير حبه للنعم شاغلا له عن الالتفات إلى النعمة ، ولا شك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفة ، فثبت أن الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية ، وأما مزيد النعم الجسمانية ، فلأن الاستقراء دل على أن من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر ، كان وصول نعم الله إليه أكثر ، وبالجملة فالشكر إنما حسن موقعه ، لأنه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من عالم الغرور إلى عالم القدس ، فهو المقام الشريف العالى الذى يوجب السعادة فى الدين والدنيا وأما قوله «ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» فالمراد منه الكفران ، لا الكفر ، لأن الكفر المذكور فى مقابلة الشكر ليس إلا الكفران ، والسبب فيه أن كفران النعمة لا يحصل إلا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله ، والجاهل بها جاهل بالله ، والجاهل بالله من أعظم أنواع العقاب والعذاب وأيضا فههنا دقيقة أخرى وهى أن ماسوى الواحد الأحد الحق يمكن لذاته وكل يمكن لذاته فوجوده إنما يحصل بإيجاد الواجب لذاته . وعدمه إنما يحصل باعدام الواجب لذاته ، وإذا كان كذلك فكل ماسوى الحق فهو منقاد للحق مطواع له ، وإذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله ، انقاد لصاحب ذلك القلب ما سواه ، لأن حضور ذلك النور فى قلبه يستخدم كل ماسواه بالطبع ، وإذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيساً فيستخدمه كل ماسواه ويستحقره كل ما يغيره فهذا الطريق الذوقى يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا والآخرة ، وأما الاعراض عن معرفة الحق بالاشتغال بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح أبواب الآفات والخافات فى الدنيا والآخرة .

وَإِذْ تَأْذِنُ رَبُّكَ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى ، حكى عن موسى عليه السلام أنه ذكرهم بها فقال (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) فقله (إذ أنجاكم) ظرف للنعمة بمعنى الانعام ، أى اذكروا إنعام الله عليكم فى ذلك الوقت . بقى فى الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ذكر فى سورة البقرة (يذبحون) وفى سورة الاعراف (يقتلون) وههنا (ويذبحون) مع الواو فما الفرق ؟

والجواب : قال تعالى فى سورة البقرة (يذبحون) بغير واو لأنه تفسير لقوله (سوء العذاب) وفى التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول : أتانى القوم زيد وعمرو . لانك أردت أن تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى (ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب) فالأثام لما صار مفسرا بمضاعفة العذاب لاجرم حذف عنه الواو . أما فى هذه السورة فقد أدخل الواو فيه ، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقله (ويذبحون) نوع آخر من العذاب لأنه تفسير لما قبله

﴿السؤال الثانى﴾ كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم ؟

والجواب من وجهين : أحدهما : أن تمكين الله إياهم حتى فعلوا ما فعلوا كان بلاء من الله . والثانى : وهو أن ذلك إشارة إلى الانجاء . وهو بلاء عظيم ، والبلاء هو الابتلاء ، وذلك قد يكون بالنعمة تارة ، وبالحنّة أخرى . قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وهذا الوجه أولى لأنه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم)

﴿السؤال الثالث﴾ هب أن تذييع الأبناء كان بلاء . أما استحياء النساء كيف يكون بلاء .

الجواب : كانوا يستخدمونهن بالاستحياء فى الخلاص منه نعمة . وأيضا ابقاؤهن منفردات عن الرجال فيه أعظم المضار .

قوله تعالى ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾

اعلم أن قوله (وإذ تأذن ربكم) من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ، ومعنى (تأذن) أذن ربكم . ونظير تأذن وأذن تواعد وأوعد وتفضل وأفضل . ولا بد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل ، كأنه قيل : وإذ أذن ربكم إيذانا بليغا ينتفى عنده الشكوك . وتنزاح الشبهة ، والمعنى : وإذ تأذن ربكم . فقال (لئن شكرتم)

أما قوله «وذكرهم بأيام الله» فاعلم أنه تعالى أمر موسى عليه السلام في هذا المقام بشيئين : أحدهما : أن يخرجهم من ظلمات الكفر ، والثاني : أن يذكرهم بأيام الله ، وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدي : أيام جمع يوم ، واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس الى غروبها ، وكانت الأيام في الاصل أيوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون ، فأدغمت إحداهما في الأخرى وغلبت الياء .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها . يقال : فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفي المثل من ير يوماً ير له معناه من رأى في يوم مسروراً بمصرع غيره ير في يوم آخر حزناً بمصرع نفسه وقال تعالى (وتلك الأيام نداؤها بين الناس)

إذا عرفت هذا فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسول في سائر ما سلف من الأيام ، والترهيب والوعيد : أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسول ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام ، مثل ما نزل بعباد وممود وغيرهم من العذاب ، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب .

واعلم أن أيام الله في حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء وهي الأيام التي كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون . ومنها ما كان أيام الراحة والنعمة مثل إنزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام .

ثم قال تعالى ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ والمعنى أن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صباراً شكوراً ، لأن الحال إما أن يكون حال محنة وبلية أو حال منحة وعطية فان كان الأول ، كان المؤمن صباراً ، وإن كان الثاني كان شكوراً . وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين فان جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته كان مشغولاً بالشكر ، وإن جرى بما لا يلائم طبعه كان مشغولاً بالصبر .

فان قيل : إن ذلك التذكيرات آيات للكل فلماذا خص الصبار الشكور بها ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم لما كانوا هم المتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات إلا لهم كما في قوله (هدى للمتقين) وقوله (إنما أنت منذر من يخشاه) والثاني : لا يبعد أن يقال : الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله إلا لمن كان صابراً أو شاكراً ، أما الذي لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات .

لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ وَيَدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ «٦»

إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويدبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك
بلاء من ربكم عظيم
وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أنه تعالى لما بين أنه إنما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم
من الظلمات إلى النور. وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الأرسال وفي تلك البعثة. أتبع ذلك بشرح
بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم معهم تصبيراً للرسول عليه السلام على أذى قومه
وإرشاداً له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الأنبياء عليهم السلام
فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام، فقال (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) قال الأصم : آيات موسى عليه
السلام هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وخلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإظلال
الجبل وإنزال المن والسلوى . وقال الجبائي : أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه من بني
إسرائيل بآياته وهي دلالته وكتبه المنزلة عليه ، وأمره أن يبين لهم الدين . وقال أبو مسلم الأصفهاني :
إنه تعالى قال في صفة محمد صلى الله عليه وسلم (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات
إلى النور) وقال في حق موسى عليه السلام (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) والمقصود :
بيان أن المقصود من البعثة واحد في حق جميع الأنبياء عليهم السلام . وهو أن يسعوا في إخراج
الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات .

(المسألة الثانية) قال الزجاج : قوله (أن أخرج قومك) أي بأن أخرج قومك . ثم قال (أن)
ههنا تصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي . ويكون المعنى : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي أخرج قومك .
كأن المعنى قلنا له : أخرج قومك . ومثله قوله (وانطلق المأثمهم أن امشوا) أي امشوا ، والتأويل
قيل لهم : امشوا ، وتصلح أيضاً أن تكون المحففة التي هي للخبر ، والمعنى : أرسلناه بأن يخرج قومه
إلا أن الجار حذف ووصلت (أن) بلفظ الأمر ، ونظيره قولك : كتبت إليه أن قم وأمرته أن قم .
ثم إن الزجاج حكى هذين القولين عن سيويه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ «ه» وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

الكلام من حيث المعنى، كأنه تعالى قال: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه، ثم قال ومع أن الأمر كذلك فإنه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء، والغرض منه التنبيه على أن تقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوى البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية، وإنما كان الأمر كذلك لأجل أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى. أما قوله ثانياً: لو كان الضلال حاصلًا بخلق الله تعالى لكان الكافر أن يقول له: ما الفائدة في بيانك ودعوتك؟ فنقول: يعارضه أن الخصم يسلم أن هذه الآيات اخبار عن كونه ضالاً فيقول له الكافر: لما أخبر إلهك عن كونى كافراً فان آمنتم صار إلهك كاذباً فهل أقدر على جعل إلهك كاذباً، وهل أقدر على جعل علمه جهلاً. وإذا لم أقدر عليه فكيف يأمرنى بهذا الايمان، فثبت أن هذا السؤال الذى أورده الخصم علينا هو أيضاً وارد عليه. وأما قوله ثالثاً: يلزم أن يكون الرضا بالكفر واجباً، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قلنا: ويلزمك أيضاً على مذهبك أنه يجب على العبد السعى فى تكذيب الله وفى تجهيله، وهذا أشد استحالة مما ألزمته علينا. لأنه تعالى لما أخبر عن كفره وعلم كفره فإزالة الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلاً وخبره الصدق كاذباً. وأما قوله رابعاً: إن مقدمة الآية وهى قوله تعالى (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) يدل على صحة الاعتزال فنقول: قد ذكرنا أن قوله (باذن ربهم) يدل على صحة مذهب أهل السنة. وأما قوله خامساً: أنه تعالى وصف نفسه فى آخر الآية بكونه حكماً وذلك ينافى كونه تعالى خالقاً للكفر مريداً له. فنقول: وقد وصف نفسه بكونه عزيزاً والعزیز هو الغالب القاهر فلو أراد الايمان من الكافر مع أنه لا يحصل أو أراد عمل الكفر منهم، وقد حصل لما بقى عزيزاً غالباً. فثبت أن الوجوه التى ذكروها ضعيفة، وأما التأويلات الثلاثة التى ذكروها فقد مر إبطالها فى هذا الكتاب مراراً فلا فائدة فى الاعادة.

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمت الله عليكم

على المقصود والغرض أكمل ، وهذا الكلام إنما يصح لو كان مقصود الله تعالى من إرسال الرسل حصول الايمان للمكلفين ، فأما لو كان مقصوده الاضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائماً لهذا المقصود . والثاني : أنه عليه السلام إذا قال لهم إن الله يخلق الكفر والاضلال فيكم ، فلمهم أن يقولوا له فما الفائدة في بيانك ، وما المقصود من ارسالك . وهل يمكننا أن نزيل كفر خلقه الله تعالى فينا عن أنفسنا وحينئذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل . الثالث : أنه إذا كان الكفر حاصلًا بتخليق الله تعالى ومشيئته . وجب أن يكون الرضا به واجبا لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وذلك لا يقوله عاقل . والرابع : أنا قد دللنا على أن مقدمة هذه الآية وهو قوله (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) يدل على مذهب العدل ، وأيضا مؤخرة الآية يدل عليه ، وهو قوله (وهو العزيز الحكيم) فكيف يكون حكيمًا من كان خالقًا للكفر والقبائح ومريداً لها ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل قوله (فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد ، فوجب المصير إلى التأويل ، وقد استقصينا ما في هذه التأويلات في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى (يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا) ولا بأس باعادة بعضها ، فالأول أن المراد بالاضلال : هو الحكم بكونه كافرا ضالا كما يقال : فلان يكفر فلانا ويضله ، أى يحكم بكونه كافرا ضالا ، والثاني : أن يكون الاضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار ، والهداية عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة ، والثالث : أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله ولم يتعرض له صار كأنه أضله ، والمهتدى لما أعانه بالالطاف صار كأنه هو الذى هداه . قال صاحب الكشاف : المراد بالاضلال : التخليع ومنع الالطاف وبالهداية التوفيق والالطف .

والجواب عن قولهم : أولاً أن قوله تعالى (ليبين لهم) لا يليق به أن يضلهم .

قلنا : قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر ، فإن كان الفعل الثاني مشاكلاً للأول نسقته عليه ، وإن لم يكن مشاكلاً له استأنفته ورفعته . ونظيره قوله تعالى (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله) فقوله (ويأبى الله) في موضع رفع لا يجوز إلا ذلك ، لأنه لا يحسن أن يقال : يريدون أن يأبى الله . فلما لم يمكن وضع الثاني موضع الأول بطل العطف ، ونظيره أيضا قوله (لنبين لكم ونقر في الأرحام) ومن ذلك قولهم : أردت أن أزورك فيمنعني المطر بالرفع غير منسوق على ما قبله لما ذكرناه ، ومثله قول الشاعر :

يريد أن يعر به فيعجمه

إذا عرفت هذا فنقول : ههنا قال تعالى (ليبين لهم) ثم قال (فيضل الله من يشاء) ذكر فيضل بالرفع فدل على أنه مذكور على سبيل الاستئناف وأنه غير معطوف على ما قبله ، وأقول تقرير هذا

كان الأمر كذلك ، كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل ، وعن الغلط والخطأ أبعد ، فهذا هو وجه النظم .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج بعض الناس بهذه الآية على أن اللغات اصطلاحية لا توقيفية . قال لأن التوقيف لا يحصل إلا بارسال الرسل ، وقد دلت هذه الآية على أن إرسال جميع الرسل لا يكون إلا بلغة قومهم . وذلك يقتضى تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل ، وإذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف ، فوجب حصولها بالاصطلاح .

﴿المسألة الثالثة﴾ زعم طائفة من اليهود يقال لهم : العيسوية أن محمداً رسول الله لكن إلى العرب إلى سائر الطوائف ، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين : الأول : أن القرآن لما كان نازلاً بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب . وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب ، ومن لا يكون عربياً لم يكن القرآن حجة عليه . الثانى : قالوا إن قوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) المراد بذلك اللسان لسان العرب ، وذلك يقتضى أن يقال : إنه ليس له قوم سوى العرب ، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط .

والجواب : لم لا يجوز أن يكون المراد من (قومه) أهل بلده ، وليس المراد من (قومه) أهل دعوته . والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) بل إلى الثقليين ، لأن التحدى كما وقع مع الانس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)

﴿المسألة الرابعة﴾ تمسك أصحابنا بقوله تعالى (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) على أن الضلال والهداية من الله تعالى ، والآية صريحة في هذا المعنى . قال الأصحاب : وما يؤكد هذا المعنى ما روى : أن أبا بكر وعمر أقبلوا في جماعة من الناس وقد ارتفعت أصواتهما ، فقال عليه السلام «ما هذا» فقال بعضهم : يارسول الله يقول أبو بكر الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا ، ويقول : عمر كلاهما من الله ، وتبع بعضهم أبا بكر وبعضهم عمر ، فتعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله أبو بكر ، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه ، ثم أقبل على عمر فتعرف ما قاله وعرف البشر في وجهه . ثم قال «أقضى بينكما كما قضى به اسرافيل بين جبريل وميكائيل ، قال جبريل مثل مقالتك يا عمر وقال ميكائيل مثل مقالتك يا أبا بكر فقضاء اسرافيل أن القدر كله خيره وشره من الله تعالى وهذا قضائى بينكما» قالت المعتزلة : هذه الآية لا يمكن اجراءها على ظاهرها وبيانها من وجوه : الأول : أنه تعالى قال (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليعين لهم) والمعنى : أنا إنما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ليعين لهم تلك التكليف بلسانهم ، فيكون ادراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٤»

﴿والمرتبة الثانية﴾ أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق . ويحاول تقييح صقته بكل ما يقدر عليه من الحيل ، وهذا هو النهاية في الضلال والاضلال . واليه الإشارة بقوله (ويبغونها عوجا) قال صاحب الكشاف الأصل في الكلام أن يقال : ويبغون لها عوجا . فحذف الجار وأوصل الفعل ، ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لأحوال هؤلاء الكفار قال في صفتهم (أولئك في ضلال بعيد) وإنما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنا بينما أن أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق . فان شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد . مثل السواد والبياض ، فكذا ههنا الضلال الذي يكون واقعا على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فانه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال .

﴿والوجه الثاني﴾ أن يكون المراد أنه يبعد ردهم عن طريقة الضلال إلى الهدى ، لأنه قد تمكن ذلك في نفوسهم .

﴿والوجه الثالث﴾ أن يكون المراد من الضلال الهلاك . والتقدير : أولئك في هلاك يطول عليهم فلا ينقطع . وأراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه .

قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾
في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) كان هذا إنعاما على الرسول من حيث أنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاما أيضا على الخلق من حيث أنه أرسل إليهم من خلاصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الايمان ، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين . أما بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة ، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق . فكان هذا الانعام في حقه أفضل وأكمل ، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق ، فهو أنه تعالى ذكر أنه مبعوث رسولا إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم ، فانه متى

يفيد أعظم العذاب . وذكر من صفاتهم ثلاثة أنواع : الأول : قوله (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) إن شئت جعلت «الذين» صفة الكافرين في الآية المتقدمة . وإن شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله (أو لئلك) وإن شئت نصبته على الذم .

(المسألة الثانية) الاستحباب طلب محبة الشيء ، وأقول إن الانسان قد يحب الشيء ولكنه لا يحب كونه محبا لذلك الشيء . مثل من يميل طبعه إلى الفسق والفجور . ولكنه يكره كونه محبا لهما ، أما إذا أحب الشيء وطلب كونه محبا له ، وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله (الذين يستحبون الحياة الدنيا) يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية . ولا يكون الانسان كذلك إلا إذا كان غافلا عن الحياة الأخرية ، وعن معاييب هذه الحياة العاجلة . ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة ، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب فأحدها : أن بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والاسقام والغموم والهموم والخوف والأحزان . وثانيها : أن هذه اللذات في الحقيقة لا حاصل لها إلا دفع الآلام . بخلاف اللذات الروحانية فإنها في أنفسها لذات وسعادات وثالثها : أن سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والانقراض والانتضاء . ورابعها : أنها حقيرة قليلة ، وبالجملة فلا يجب هذه الحياة إلا من كان غافلا عن معاييبها وكان غافلا عن فضائل الحياة الروحانية الأخرية . ولذلك قال تعالى (والآخرة خير وأبقى) فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه .

(المسألة الثالثة) إنما قال (يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) لأن فيه اضمارا ، والتقدير : يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ، فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموما إلا بعد أن يضاف إليه إثارها على الآخرة ، فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذموما حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة .

(النوع الثاني) من الصفات التي وصف الله الكفار بها قوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) واعلم أن من كان موحدا فاستحباب الدنيا فهو ضال ، ومن منع الغير من الوصول إلى سبيل الله ودينه فهو مضل ، فالمرتبة الأولى إشارة إلى كونهم ضالين ، وهذه المرتبة الثانية وهي كونهم صادين عن سبيل الله ، إشارة إلى كونهم مضلين .

(والنوع الثالث) من تلك الصفات قوله (ويبغونها عوجا) واعلم أن الاضلال على مرتبتين : (المرتبة الأولى) أنه يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى المنهج القويم والصرراط المستقيم

الشبهة في أن ذلك العزيز من هو؟ فعطف عليها قوله (الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) ازالة لتلك الشبهة. الثالث: قال صاحب الكشاف: الله عطف بيان للعزيز الحميد، وتحقيق هذا القول ماقررناه فيما تقدم. الرابع: قد ذكرنا في أول هذا الكتاب أن قولنا الله في أصل الوضع مشتق إلا أنه بالعرف صار جارياً مجرى الاسم العلم فحيث يبدأ بذكره ويعطف عليه سائر الصفات فذلك لأجل أنه جعل اسم علم، وأما في هذه الآية حيث جعل وصفا للعزيز الحميد، فذلك لأجل أنه حمل على كونه لفظاً مشتقاً فلا جرم بقي صفة. الخامس: أن الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزاً حميداً. فلما قال (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بأذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) بقي في خاطر عبدة الاوثان أنه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن، فأزال الله تعالى هذه الشبهة وقال (الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) يدل على أنه تعالى غير مختص بمجهة العلو البتة، وذلك لأن كل ماسماك وعلاك فهو سماء، فلو حصل ذات الله تعالى في جهة فوق، لكان حاصلها في السماء، وهذه الآية دالة على أن كل ما في السموات فهو ملكه، فلزم كونه ملكاً لنفسه وهو محال، فدلّت هذه الآية على أنه منزّه عن الحصول في جهة فوق.

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خالق لأعمال العباد لأنه قال (له ما في السموات وما في الأرض) وأعمال العباد حاصلة في السموات والأرض فوجب القول بأن أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له، والمملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله تعالى، وإذا ثبت أنها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى، وإلا لكان العبد قد منع الله تعالى من إيقاع مقدوره وذلك محال.

واعلم أن قوله تعالى (له ما في السموات وما في الأرض) يفيد الحصر والمعنى. أن ما في السموات وما في الأرض له لاغيره، وذلك يدل على أنه لا مالك إلا الله ولا حاكم إلا الله. ثم إنه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال (وويل للكافرين من عذاب شديد) والمعنى: أنهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذي هو المالك للسموات والأرض ولكل ما فيهما إلى عبادة ما لا يملك ضرراً ولا تنفعاً ولا يخلق ولا يخلق، ولا إدراك لها ولا فعل، فالويل ثم الويل لمن كان كذلك، وإنما خص هؤلاء بالويل، لأن المعنى يولولون من عذاب شديد ويصيحون منه ويقولون ياويلاه. ونظيره قوله تعالى (دعوا هنالك ثبورا) ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذي

والحق عندنا هو الأول . ويدل عليه وجوه : الأول : أن الاسم المشتق عبارة عن شيء ما حصل له المشتق منه ، فالأسود مفهومه شيء ما حصل له السواد ، والناطق مفهومه شيء ما حصل له النطق . فلو كان قولنا الله اسماً مشتقاً من معنى لكان المفهوم منه أنه شيء ما حصل له ذلك المشتق منه ، وهذا المفهوم كلى لا يمتنع من حيث هو وعن وقوع الشركة فيه . فلو كان قولنا الله لفظاً مشتقاً لكان مفهومه صالحاً لوقوع الشركة فيه ، ولو كان الأمر كذلك لما كان قولنا لا إله إلا الله موجبا للتوحيد ، لأن المشتق هو قولنا الله وهو غير مانع من وقوع الشركة فيه ولما اجتمعت الأمة على أن قولنا لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم . الثانى : أنه كلما أردنا أن نذكر سائر الصفات والأسماء ذكرنا أولاً قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولا يمكننا أن نعكس الأمر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلنا أن الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الألفاظ دالة على الصفات والنعوت . الثالث : أن ما سوى قولنا الله كلها دالة ، إما على الصفات السلبية ، كقولنا : القدوس السلام ، أو على الصفات الاضافية ، كقولنا الخالق الرازق أو على الصفات الحقيقية كقولنا : العالم القادر ، أو على ما يتركب من هذه الثلاثة ، فلم يكن قولنا : الله . اسماً للذات المخصوصة لكان جميع أسماء الله تعالى ألفاظاً دالة على صفاته ، ولم يحصل فيها ما يدل على ذاته المخصوصة . وذلك بعيد ، لأنه يبعد أن لا يكون له من حيث أنه هو اسم مخصوص ، والرابع : قوله تعالى (هل تعلم له سمياً) والمراد هل تعلم من اسمه الله غير الله ، وذلك يدل على أن قولنا : الله . اسم لذاته المخصوصة ، وإذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن أن يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى (هو الله الخالق البارئ المصور) فاما أن يعكس فيقال : هو الخالق المصور البارئ الله ، فذلك غير جائز .

وإذا ثبت هذا فنقول : الذين قرؤا (الله الذى له مافى السموات) بالرفع أرادوا أن يجعلوا قوله (الله) مبتدأ ويجعلوا ما بعده خبراً عنه وهذا هو الحق الصحيح ، فأما الذين قرؤا (الله) بالجر عطفاً على (العزیز الحميد) فهو مشكل لما بينا أن الترتيب الحسن أن يقال : الله الخالق . وإما أن يقال : الخالق الله فهذا لا يحسن ، وعند هذا اختلفوا فى الجواب على وجوه : الأول : قال أبو عمرو بن العلاء : القراءة بالخفض على التقديم والتأخير ، والتقدير : صراط الله العزيز الحميد الذى له مافى السموات ، والثانى : أنه لا يبعد أن يذكر الصفة أولاً ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى . كما يقال : مررت بالامام الأجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله (صراط العزيز الحميد الذى له مافى السموات) وتحقيق القول فيه : أنا بينا أن الصراط إنما يكون ممدوحاً محموداً اذا كان صراطاً للعالم القادر الغنى ، والله تعالى عبر عن هذه الأمور الثلاثة بقوله (العزیز الحميد) ثم لما ذكر هذا المعنى وقعت

اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ «٢» الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُوتُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ «٣»

الى النور بتكرير العامل كقوله (الذين استضعفوا لمن آمن منهم) الثاني: يجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: الى أى نور فقيل (الى صراط العزيز الحميد)

(المسألة التاسعة) قالت المعتزلة: الفاعل إنما يكون آتيا بالصواب والصلاح، تاركا للقيح والعبث اذا كان قادراً على كل المقدورات عالماً بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات، فانه إن لم يكن قادراً على الكل فربما فعل القيح بسبب العجز، وإن لم يكن عالماً بكل المعلومات فربما فعل القيح بسبب الجهل، وإن لم يكن غنيا عن كل الحاجات فربما فعل القيح بسبب الحاجة. أما اذا كان قادراً على الكل عالماً بالكل غنيا عن الكل امتنع منه الاقدام على فعل القيح. فقوله (العزيز) إشارة الى كمال القدرة، وقوله (الحميد) إشارة الى كونه مستحقاً للحمد في كل أفعاله، وذلك إنما يحصل اذا كان عالماً بالكل غنيا عن الكل. فثبت بما ذكرنا أن صراط الله إنما كان موصوفاً بكونه شريفاً رفيعاً عالياً لكونه صراطاً مستقيماً لئلا الموصوف بكونه عزيزاً حميداً، فلهذا المعنى: وصف الله نفسه بهذين الوصفين في هذا المقام.

(المسألة العاشرة) إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد، لأن الصحيح أن أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادراً، ثم بعد ذلك العلم بكونه عالماً، ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيا عن الحاجات، والعزيز هو القادر. والحميد هو العالم الغنى، فلما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً بالكل غنيا عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد والله أعلم

قوله تعالى ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد﴾ في الآية مسائل:

(المسألة الأولى) قرأ نافع وابن عامر (الله) مرفوعاً بالابتداء وخبره ما بعده، وقيل التقدير هو الله. والباقون بالجر عطفاً على قوله (العزيز الحميد) وههنا بحث، وهو أن جماعة من المحققين ذهبوا إلى أن قولنا: الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله تعالى. وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق،

﴿المسألة الخامسة﴾ احتج أصحابنا على صحة قولهم في أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى (باذن ربهم) فإن معنى الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا باذن ربهم ، والمراد بهذا الاذن إما الأمر ، وإما العلم ، وإما المشيئة والخلق . وحمل الاذن على الأمر محال ، لأن الاخراج من الجهل إلى العلم لا يتوقف على الأمر ، فانه سواء حصل الأمر أو لم يحصل ، فإن الجهل متميز عن العلم . والباطل متميز عن الحق ، وأيضا حمل الاذن على العلم محال ، لأن العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات إلى النور تابع لذلك الخروج ويمتنع أن يقال إن حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق إلا أن يكون المراد من الاذن المشيئة والتخليق ، وذلك يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه اخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بمشيئة الله وتخليقه .

فان قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الاذن الاطاف .

قلنا : لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول : المراد بالاذن إما أن يكون أمراً يقتضى ترجيح جانب الوجود على جانب العدم أو لا يقتضى ذلك ، فان كان الثاني لم يكن فيه أمر البتة ، فامتنع أن يقال إنه مما حصل بسببه ولأجله فبقى الأول وهو أن المراد من الاذن معنى يقتضى ترجيح جانب الوجود على جانب العدم . وقد دللنا في الكتب العقلية على أنه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك إلا الداعية الموجبة وهو عين قولنا والله أعلم .

﴿المسألة السادسة﴾ القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم والامام ، احتجوا عليه بهذه الآية . وقالوا إنه تعالى صرح في هذه الآية بأن الرسول هو الذى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان ، وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا من طريق التعليم .

وجوابنا : أن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون كالمبته ، وأما المعرفة فهى إنما تحصل بالدليل والله أعلم .

﴿المسألة السابعة﴾ الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة . وأن طريق الخير ليس إلا الواحد ، لأنه تعالى قال (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) فبعبء عن الجهل والكفر بالظلمات وهى صيغة جمع وعبر عن الايمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد ، وذلك يدل على أن طرق الجهل كثيرة ، وأما طريق العلم والايمان فليس إلا الواحد .

﴿المسألة الثامنة﴾ فى قوله تعالى (إلى صراط العزيز الحميد) وجهان : الأول : أنه بدل من قوله

وجوابنا : أن الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهي محدثة بلا نزاع .
 ﴿المسألة الثانية﴾ قالت المعتزلة : اللام في قوله (لتخرج الناس) لام الغرض والحكمة . وهذا يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذا الغرض . وذلك يدل على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية المصالح .

أجاب أصحابنا عنه بأن من فعل فعلا لأجل شيء آخر فهذا إنما يفعله لو كان عاجزا عن تحصيل هذا المقصود إلا بهذه الوسطة وذلك في حق الله تعالى محال ، وإذا ثبت بالدلائل أنه يمتنع تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه بالعلل ، ثبت أن كل ظاهر أشعر به فانه مؤول محمول على معنى آخر .
 ﴿المسألة الثالثة﴾ إنما شبه الكافر بالظلمات لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبهه الايمان بالنور لأنه نهاية ما ينجلي به طريق هدايته .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال القاضي : هذه الآية فيها دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات : أحدها : أنه تعالى لو كان يخلق الكافر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب . وثانيها : أنه تعالى أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فان كان خالق ذلك الكافر هو الله تعالى فكيف يصح من الرسول عليه الصلاة والسلام إخراجهم منه وكان للكافر أن يقول : إنك تقول : إن الله خلق الكافر فينا فكيف يصح منك أن تخرجنا منه فان قال لهم : أنا أخرجكم من الظلمات التي هي كفر مستقبل لا واقع ، فلهم أن يقولوا : إن كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الإخراج ، وإن لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا إخراج . وثالثها : أنه صلى الله عليه وسلم إنما يخرجهم من الكافر بالكتاب بأن يتلوه عليهم ليتدبروه وينظروا فيه فيعملوا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالما قادرا حكيما ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ يقبلوا منه كل ما أداه اليهم من الشرائع ، وذلك لا يصح إلا إذا كان الفعل لهم ويقع باختيارهم ، ويصح منهم أن يقدموا عليه ويتصرفوا فيه .

والجواب : عن الكل أن نقول : الفعل الصادر من العبد إما أن يصدر عنه حال استواء الداعي إلى الفعل والترك . أو حال رجحان أحد الطرفين على الآخر ، والأول باطل ، لأن صدور الفعل رجحان الجانب الوجود على جانب العدم ، وحصول الرجحان حال حصول الاستواء محال . والثاني : عين قولنا لأنه يمتنع صدور الفعل عنه إلا بعد حصول الرجحان ، فان كان ذلك الرجحان منه عاد السؤال ، وإن لم يكن منه بل من الله تعالى ، فينتزح يكون المؤثر الأول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله أعلم .

سورة إبراهيم

مكية إلا آيتي ٢٨ و ٢٩ فمدنيتان

وآياتها ٥٢ نزلت بعد سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن

ربهم إلى صراط العزيز الحميد «١»

سورة إبراهيم

عليه السلام خمسون وآيتان مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط

العزيز الحميد﴾

اعلم أن الكلام في أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد . ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء ، وإنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله (الر كتاب) معناه أن السورة المسماة بالر كتاب أنزلناه إليك لغرض كذا وكذا فقوله (الر) مبتدأ وقوله (كتاب) خبره وقوله (أنزلناه إليك) صفة لذلك الخبر وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ دلت هذه الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلا من عند الله تعالى .

قالت المعتزلة : النازل والمنزل لا يكون قديما

تم تفسير هذه السورة يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة إحدى وستمائة . وأنا أتمس من كل من نظر في كتابي هذا وانتفع به أن يخص ولدي محمدا بالرحمة والغفران ، وأن يذكرني بالدعاء . وأقول في مرثية ذلك الولد شعرا :

أرى معالم هذا العالم الفاني ممزوجة بمخافات وأحزان
خيراته مثل أحلام مفزعة وشره في البرايا دائم داني

مدنية ، وأيضاً فإثبات النبوة بقول الواحد والاثني مع كونهما غير معصومين عن الكذب لا يجوز ، وهذا السؤال واقع .

﴿القول الثاني﴾ أراد بالكتاب القرآن ، أى أن الكتاب الذى جئتم به معجز قاهر وبرهان باهر ، إلا أنه لا يحصل العلم بكونه معجزاً إلا لمن علم مافى هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة ، واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة . فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه علم كونه معجزاً . فقوله (ومن عنده علم الكتاب) أى ومن عنده علم القرآن وهو قول الأصم .

﴿القول الثالث﴾ ومن عنده علم الكتاب المراد به : الذى حصل عنده علم التوراة والانجيل ، يعنى : أن كل من كان عالماً بهذين الكتابين علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهداً على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول حق من عند الله تعالى .

﴿القول الرابع﴾ ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى ، وهو قول الحسن ، وسعيد بن جبير ، والزجاج قال الحسن : لا والله ما يعنى إلا الله ، والمعنى : كفى بالذى يستحق العبادة وبالذى لا يعلم علم مافى اللوح إلا هو شهيدا بينى وبينكم ، وقال الزجاج : الأشبه أن الله تعالى لا يستشهد على صحة حكمه بغيره ، وهذا القول مشكل ، لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزاً فى الجملة إلا أنه خلاف الأصل . لا يقال : شهد بهذا زيد والفقير ، بل يقال : شهد به زيد الفقير ، وأما قوله إن الله تعالى لا يستشهد بغيره على صدق حكمه فبعيد ، لأنه لما جاز أن يقسم الله تعالى على صدق قوله بقوله (والتين والزيتون) فأى امتناع فيما ذكره الزجاج .

﴿وأما القراءة الثانية﴾ وهى قوله (ومن عنده علم الكتاب) على من الجارة فالمعنى : ومن لدنه علم الكتاب ، لأن أحداً لا يعلم الكتاب إلا من فضله وإحسانه وتعليمه ، ثم على هذه القراءة فقيه أيضاً فراءتان : ومن عنده علم الكتاب ، والمراد العلم الذى هو ضد الجهل ، أى هذا العلم إنما حصل من عند الله .

﴿والقراءة الثانية﴾ ومن عنده علم الكتاب بضم العين وبكسر اللام وفتح الميم على ما لم يسم فاعله ، والمعنى : أنه تعالى لما أمر نبيه أن يحتج عليهم بشهادة الله تعالى على ما ذكرناه ، وكان لا معنى لشهادة الله تعالى على نبوته إلا إظهار القرآن على وفق دعواه ، ولا يعلم كون القرآن معجزاً إلا بعد الاحاطة بما فى القرآن وأسراره ، بين تعالى أن هذا العلم لا يحصل إلا من عند الله ، والمعنى : أن الوقوف على كون القرآن معجزاً لا يحصل إلا إذا شرف الله تعالى ذلك العبد بأن يعلمه علم القرآن . والله تعالى أعلم بالصواب .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ

عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ «٤٣»

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (وسيعلم الكافر) على لفظ المفرد والباقون على الجمع قال صاحب الكشاف قرئ (الكفار، والكافرون، والذين كفروا، والكفر) أى أهله قرأ جناح بن حبيش (وسيعلم الكافر) من أعلمه أى سيخبر .

﴿المسألة الثانية﴾ المراد بالكافر الجنس كقوله تعالى (إن الانسان لني خسر) والمعنى : إنهم وإن كانوا جهالا بالعواقب فسيعلمون لمن العاقبة الخيمة . وذلك كالزجر والتهديد .

﴿والقول الثانى﴾ وهو قول عطاء يريد المستهزئين وهم خمسة ، والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون .

﴿والقول الثالث﴾ وهو قول ابن عباس يريد أبا جهل . والقول الأول هو الصواب .

قوله تعالى ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن

عنده علم الكتاب﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن القوم أنهم أنكروا كونه رسولا من عند الله . ثم إنه تعالى احتج عليهم بأمرين : الأول : شهادة الله على نبوته ، والمراد من تلك الشهادة أنه تعالى أظهر المعجزات الدالة على كونه صادقا فى ادعاء الرسالة ، وهذا أعلى مراتب الشهادة . لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الأمر كذلك . أما المعجز فانه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله تعالى ، فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة . والثانى : قوله (ومن عنده علم الكتاب) وفيه قراءتان : إحداهما : القراءة المشهورة (ومن عنده) يعنى والذي عنده علم الكتاب . والثانية (ومن عنده علم الكتاب) وكلمة «من» ههنا لا بتداء الغاية أى ومن عندالله حصل علم الكتاب . أما على القراءة الأولى ففي تفسير الآية أقوال :

﴿القول الأول﴾ أن المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه

وسلم وهم : عبدالله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، وتميم الدارى . ويروى عن سعيد بن جبیر : أنه كان يبطل هذا الوجه ويقول : السورة مكية فلا يجوز أن يراد به ابن سلام وأصحابه . لأنهم آمنوا فى المدينة بعد الهجرة . وأجيب عن هذا السؤال بأن قيل : هذه السورة وإن كانت مكية إلا أن هذه الآية

كيف آمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع؟

ثم قال تعالى مؤكداً لهذا المعنى ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ معناه : لا راد لحكمه . والمعقب هو الذى يعقبه بالرد والابطال ، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يعقب غريمه بالافتضاء والطلب .

فان قيل : ما محل قوله (لا معقب لحكمه)

قلنا : هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه خالياً عن المدافع والمعارض والمنازع .

ثم قال ﴿وهو سريع الحساب﴾ قال ابن عباس يريد سريع الانتقام يعنى أن حسابه للجازاة بالخير والشر يكون سريعاً قريباً لا يدفعه دافع .

أما قوله ﴿وقدمكر الذين من قبلهم﴾ يعنى أن كفار الأمم الماضية قدمكروا برسولهم وأنبيائهم مثل نمرود مكر بآبراهيم ، فرعون مكر بموسى ، واليهود مكروا بعيسى .

ثم قال ﴿فله المكر جميعاً﴾ قال الواحدى : معناه أن مكر جميع الماكرين له ومنه ، أى هو حاصل بتخليقه وإرادته ، لأنه ثبت أن الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد ، وأيضاً فذلك المكر لا يضر إلا باذن الله تعالى ولا يؤثر إلا بتقديره ، وفيه تسليمة للنبي صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم ، كأنه قيل له : اذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره فى الممكور به أيضاً من الله وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى وأن لا يكون الرجاء إلا من الله تعالى ، وذهب بعض الناس الى أن المعنى : فله جزاء المكر ، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم . قال الواحدى : والأول أظهر لقولين بدليل قوله (يعلم ماتكسب كل نفس) يريد أن أكساب العباد بأسرها معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع ، وإذا كان كذلك فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع ، وكل ما علم الله عدمه كان ممتنع الوقوع ، وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك ، فكان الكل من الله تعالى . قالت المعتزلة : الآية الأولى إن دلت على قولكم ، فالآية الثانية وهى قوله (يعلم ماتكسب كل نفس) دلت على قولنا ، لأن الكسب هو الفعل المشتمل على دفع هضرة أو جلب منفعة . ولو كان حدوث الفعل بخلق الله تعالى لم يكن لقدرة العبد فيه أثر ، فوجب أن لا يكون للعبد كسب .

وجوابه : أن مذهبنا أن مجموع القدرة مع الداعى مستلزم للفعل . وعلى هذا التقدير فالكسب حاصل للعبد . ثم إنه تعالى أكد ذلك التهديد فقال (وسيعلم الكافر لمن عقبي الدار) وفيه مسألتان :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ
 وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ «٤١» وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاللَّهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ
 مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ «٤٢»

سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره ، فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته
 ورسالته وعلينا الحساب . والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراج والأمان .

قوله تعالى ﴿ أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لامعقب لحكمه وهو
 سريع الحساب وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعا يعلم ماتكسب كل نفس وسيعلم الكفار
 لمن عقبى الدار ﴾

اعلم أنه تعالى لما وعد رسوله بأن يريه بعض ما وعده أو يتوفاه قبل ذلك . بين في هذه الآية
 أن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت . وقوله (أولم يروا أنا نأتى الأرض
 ننقصها من أطرافها) فيه أقوال :

(القول الأول) المراد أنا نأتى أرض الكفرة ننقصها من أطرافها وذلك لأن المسلمين يستولون
 على أطراف مكة يأخذونها من الكفرة قهرا وجبرا فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين
 من أقوى العلامات والأمارات على أن الله تعالى ينجز وعده . ونظيره قوله تعالى (أفلا يرون أنا نأتى
 الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) وقوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق)

(والقول الثانى) وهو أيضاً منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قوله (ننقصها من أطرافها)
 المراد : موت أشرافها وكبرائها وعلماؤها وذهاب الصلحاء والأخيار ، وقال الواحدى : وهذا القول
 وإن احتمله اللفظ إلا أن اللائق بهذا الموضع هو الوجه الأول . ويمكن أن يقال هذا الوجه أيضاً
 لا يليق بهذا الموضع ، وتقريره أن يقال : أولم يروا ما يحدث فى الدنيا من الاختلافات خراب بعد
 عمارة ، وموت بعد حياة ، وذل بعد عز ، ونقص بعد كمال ، وإذا كانت هذه التغيرات مشاهدة
 محسوسة فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا
 عزيزين ، ويجعلهم مهطورين بعد أن كانوا قاهرين ، وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام
 بما قبله . وقيل (ننقصها من أطرافها) بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم . فهؤلاء الكفرة

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيَنَّكَ فَامَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ «٤٠»

قلنا: ذلك المحو والاثبات أيضا مما جف به القلم فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه .
(المسألة الخامسة) قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى ، وهو أن يعتقد شيئا ثم يظهر له
أن الأمر بخلاف ما اعتقده ، وتمسكوا فيه بقوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت)
واعلم أن هذا باطل لأن علم الله من لوازم ذاته المخصوصة ، وما كان كذلك كان دخول التغير
والتبدل فيه محالا .

(المسألة السادسة) أما (أم الكتاب) فالمراد أصل الكتاب ، والعرب تسمى كل ما يجري مجرى
الأصل للشيء أما له ومنه أم الرأس الدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهي أم لما حولها من
القرى ، فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب ، وفيه قولان :

(القول الأول) أن أم الكتاب هو اللوح المحفوظ ، وجميع حوادث العالم العلوى والعالم
السفلى مثبت فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان الله ولا شيء معه ثم خلق اللوح وأثبت
فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة» قال المتكلمون : الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه
تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل ، وعلى هذا التقدير : فعند الله كتابان :
أحدهما : الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وذلك الكتاب محل المحو والاثبات . والكتاب
الثاني هو اللوح المحفوظ ، وهو الكتاب المشتمل على تعيين جميع الأحوال العلوية والسفلية ، وهو
الباقى . روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات
بقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ،
وللحكمة في تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة .

(والقول الثاني) إن أم الكتاب هو علم الله تعالى ، فانه تعالى عالم بجميع المعلومات من
الموجودات والمعدومات وإن تغيرت ، إلا أن علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير ، فالمراد بأم
الكتاب هو ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو تتوفينك فإنا عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾
اعلم أن المعنى (وإما نرينك بعض الذي نعدهم) من العذاب (أو تتوفينك) قبل ذلك ، والمعنى :

ويزيد فيه ، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والايمن والكفر ، وهو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لأشقياء . وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(والقول الثاني) أن هذه الآية خاصة في بعض الأشقياء دون البعض ، وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه : الأول : المراد من المحو والاثبات : نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر بدلا عن الأول . الثاني : أنه تعالى يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة ، لأنهم مأورون بكتابة كل قول وفعل ويثبت غيره ، وطعن أبو بكر الأصم فيه فقال : إنه تعالى وصف الكتاب بقوله (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وقال أيضا (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)

أجاب القاضى عنه : بأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الذنوب . والمباح لا صغيرة ولا كبيرة ، وللأصم أن يجيب عن هذا الجواب فيقول : إنكم باصطلاحكم خصصتم الصغيرة بالذنوب الصغيرة ، والكبيرة بالذنوب الكبيرة ، وهذا مجرد اصطلاح المتكلمين . أما في أصل اللغة فالصغير والكبير يتناولان كل فعل وعرض ، لأنه إن كان حقيرا فهو صغير ، وإن كان غير ذلك فهو كبير ، وعلى هذا التقرير فقوله (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) يتناول المباحات أيضا . الثالث : أنه تعالى أراد بالمحو أن من أذنب أثبت ذلك الذنب في ديوانه ، فإذا تاب عنه محى من ديوانه . الرابع : (يمحو الله ما يشاء) وهو من جاء أجله . ويدع من لم يجيء أجله ويثبته . الخامس : أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فإذا مضت السنة محيت ، وأثبت كتاب آخر للمستقبل . السادس : يمحو نور القمر ، ويثبت نور الشمس . السابع : يمحو الدنيا ويثبت الآخرة . الثامن : أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة ، وفيه حث على الانقطاع إلى الله تعالى . التاسع : تغير أحوال العبد فما مضى منها فهو المحو . وما حصل وحضر فهو الاثبات . العاشر : يزيل ما يشاء ، ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحدا فهو المنفرد بالحكم كما شاء ، وهو المستقل بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والاغناء والافقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه .

واعلم أن هذا الباب فيه مجال عظيم .

فان قال قائل : أستم ترعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف . فكيف

يستقيم مع هذا المعنى المحو والاثبات ؟

رعاية المصالح عند المعتزله فهذا أمام التحقيق في تفسير هذه الآية ، ثم ههنا مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله تعالى (لكل أجل كتاب) فيه أقوال الأول : أن لكل شيء وقتاً مقدراً فالآيات التي سألوها لها وقت معين حكم الله به . وكتبه في اللوح المحفوظ فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكمتهم الفاسدة . ولو أن الله أعطاهم ما التمسوا لكان فيه أعظم الفساد . الثاني : أن لكل حادث وقتاً معيناً قضى الله حصوله فيه كالحياة والموت والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ، ولا يتغير البتة عن ذلك الوقت . والثالث : أن هذا من المقلوب والمعنى : أن لكل كتاب منزل من السماء أجلاً ينزل فيه ، أى لكل كتاب وقت يعمل به ، فوقت العمل بالتوراة والانجيل قد انقضى ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر . والرابع : لكل أجل معين كتاب عند الملائكة الحفظة فللإنسان أحوال أولها نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم يصير شاباً ثم شيخاً ، وكذا القول في جميع الأحوال من الإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحسن والقبح . الخامس : كل وقت معين مشتمل على مصلحة خفية ومنفعة لا يعلمها إلا الله تعالى ، فإذا جاء ذلك الوقت حدث ذلك الحادث ولا يجوز حدوثه في غيره . واعلم أن هذه الآية صريحة في أن السكل بقضاء الله وبقدره وأن الأمور مرهونة بأوقاتها . لأن قوله (لكل أجل كتاب) معناه أن تحت كل أجل حادث معين ، ويستحيل أن يكون ذلك التعيين لأجل خاصية الوقت فإن ذلك محال ، لأن الأجزاء المعروضة في الأوقات المتعاقبة متساوية . فوجب أن يكون اختصاص كل وقت بالحادث الذي يحدث فيه بفعل الله تعالى واختياره . وذلك يدل على أن السكل من الله تعالى وهو نظير قوله عليه السلام «جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»

﴿المسألة الثانية﴾ (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (ويثبت) ساكنة التاء خفيفة الباء من أثبت يثبت ، والباقون بفتح التاء وتشديد الباء من التثبيت ، ووحجة من خفف أن ضد المحو الإثبات لا التثبيت . ولأن التشديد للتكثير ، وليس القصد بالمحو التكثير ، فكذلك ما يكون في مقابلته . ومن شدد احتج بقوله (وأشدتثبيتاً) وقوله (فثبتوا)

﴿المسألة الثالثة﴾ المحو ذهاب أثر الكتابة ، يقال : محاه يمحوه محواً إذا أذهب أثره . وقوله (ويثبت) قال النحويون : أراد ويثبته إلا أنه استغنى بتعدية للفعل الأول عن تعدية الثاني . وهو كقوله تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات)

﴿المسألة الرابعة﴾ في هذه الآية قولان :

﴿القول الأول﴾ إنها عامة في كل شيء ، كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : إن الله يمحو من الرزق

تعالى عنه بقوله (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) وبالجملة فهذا الكلام يصلح أن يكون جواباً عن الشبهة المتقدمة . ويصلح أن يكون جواباً عن هذه الشبهة ، فقد كان لسليمان عليه السلام ثلاثمائة امرأة مهيرة وسبعائة سرية . ولداود مائة امرأة .

﴿والشبهة الرابعة﴾ قالوا لو كان رسولا من عند الله لكان أى شيء طلبنا منه من المعجزات أتى به ولم يتوقف ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس برسول ، فأجاب الله عنه بقوله (وما كان لرسول أن يأتى بأية إلا بأذن الله) وتقريره : أن المعجزة الواحدة كافية في إزالة العذر والعلة . وفي إظهار الحجج والبينة ، فأما الزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ولا اعتراض لأحد عليه في ذلك .

﴿الشبهة الخامسة﴾ أنه عليه السلام كان يخوفهم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه . ثم إن ذلك الموعود كان يتأخر فلما لم يشاهدوا تلك الأمور احتجوا بها على الطعن في نبوته . وقالوا : لو كان نبياً صادقا لما ظهر كذبه .

فأجاب الله عنه بقوله (لكل أجل كتاب) يعنى نزول العذاب على الكفار وظهور الفتح والنصر للأولياء قضى الله بحصولها في أوقات معينة مخصوصة ، ولكل حادث وقت معين (ولكل أجل كتاب) فقبل حضور ذلك الوقت لا يحدث ذلك الحادث فتأخر تلك المواعيد لا يدل على كونه كاذبا .

﴿الشبهة السادسة﴾ قالوا : لو كان في دعوى الرسالة محكما نسخ الأحكام التي نص الله تعالى على ثبوتها في الشرائع المتقدمة نحو التوراة والانجيل ، لكنه نسخها وحرفها نحو تحريف القبلة ، ونسخ أكثر أحكام التوراة والانجيل ، فوجب أن لا يكون نبيا حقا .

فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ويمكن أيضا أن يكون قوله (لكل أجل كتاب) كالمقدمة لتقرير هذا الجواب ، وذلك لانا نشاهد أنه تعالى يخلق حيوانا عجيب الحلقة بديع الفطرة من قطرة من النطفة ثم يبقيه مدة مخصوصة ثم يميتة ويفرق أجزاءه وأبعاضه فلما لم يمتنع أن يحيى أولا ، ثم يميت ثانيا فكيف يمتنع أن يشرع الحكم في بعض الأوقات ، ثم ينسخه في سائر الأوقات فكان المراد من قوله (لكل أجل كتاب) ما ذكرناه ، ثم إنه تعالى لما قرر تلك المقدمة قال (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) والمعنى : أنه يوجد تارة ويعدم أخرى ، ويحيى تارة ويميت أخرى ، ويعفى تارة ويفقر أخرى . فكذلك لا يعدم أن يشرع الحكم تارة ثم ينسخه أخرى بحسب ما اقتضته المشيئة الإلهية عند أهل السنة وبحسب ما اقتضته

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَنْ يَأْتِيَ بآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ
وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

كان حكا عربياً، لأن الله تعالى جعله كذلك ووصفه بهذه الصفة، وكل ما كان كذلك فهو محدث .
والجواب: أن كل هذه الوجوه دالة على أن المركب من الحروف والأصوات محدث
ولانزاع فيه والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ روى أن المشركين كانوا يدعون به إلى ملة آباءه فتوعده الله تعالى على متابعتهم
في تلك المذاهب مثل أن يصلى إلى قبلتهم بعد أن حوله الله عنها . قال ابن عباس : الخطاب مع النبي
صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وقيل : بل الغرض منه حث الرسول عليه السلام على القيام بحق
الرسالة وتحذيره من خلافها ، ويتضمن ذلك أيضا تحذير جميع المكلفين ، لأن من هو أرفع منزلة
إذا حذر هذا التحذير فهم أحق بذلك وأولى .

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي
بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾
اعلم أن القوم كانوا يذكرون أنواعا من الشبهات في إبطال نبوته .
﴿فالشبهة الأولى﴾ قولهم (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق) وهذه الشبهة
إنما ذكرها الله تعالى في سورة أخرى .

﴿والشبهة الثانية﴾ قولهم : الرسول الذى يرسله الله إلى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة
كما حكى الله عنهم في قوله (لو ما أتينا بالملائكة) وقوله (لولا أنزل عليه ملك)
فأجاب الله تعالى عنه ههنا بقوله (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) يعنى
أن الأنبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فاذا جاز ذلك في حقهم
فلم لا يجوز أيضاً مثله في حقه .

﴿الشبهة الثالثة﴾ عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة الزوجات وقالوا : لو كان رسولا
من عند الله لما كان مشتغلا بأمر النساء بل كان معرضاً عنهن مشتغلا بالنسك والزهد ، فأجاب الله

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ» (٣٧)

يبطل قول نفاة التكليف ، ويبطل القول بالجبر المحض . وخامسها : قوله (ولا أشرك به) وهذا يدل على نفي الشركاء والانداد والاضداد بالكلية . ويدخل فيه ابطال قول كل من أثبت معبودا سوى الله تعالى . سواء قال : إن ذلك المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الأصنام والأوثان والأرواح العلوية أو يزدان واهرمن على ما يقوله المجوس أو النور والظلمة على ما يقوله التنوية . وسادسها : قوله (اليه أدعوا) والمراد منه أنه كما وجب عليه الاتيان بهذه العبادات فسكذلك يجب عليه الدعوة إلى عبودية الله تعالى وهو اشارة الى نبوته . وسابعها : قوله (واليه مآب) وهو اشارة إلى الحشر والنشر والبعث والقيامة فاذا تأمل الانسان في هذه الألفاظ القليلة ووقف عليها عرف أنها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين .

قوله تعالى ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ماجاءك من العلم مالك من

الله من ولي ولا واق﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى شبه إنزاله حكما عربيا بما أنزل إلى من تقدم من الأنبياء ، أى

كما أنزلنا السكتب على الأنبياء بلسانهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن . والكنيانية في قوله (أنزلناه) تعود إلى «ما» في قوله (يفرحون بما أنزل إليك) يعنى القرآن .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (أنزلناه حكما عربيا) فيه وجوه : الأول : حكمة عربية مترجمة بلسان

العرب . الثانى : القرآن مشتمل على جميع أقسام التكليف ، فالحكم لا يمكن إلا بالقرآن ، فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة . الثالث : أنه تعالى حكم على جميع المكافين بقبول القرآن والعمل به فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكما .

واعلم أن قوله (حكما عربيا) نصب على الحال ، والمعنى : أنزلناه حال كونه حكما عربيا .

﴿المسألة الثالثة﴾ قالت المعتزلة : الآية دالة على حدود القرآن من وجوه : الأول : أنه تعالى

وصفه بكونه منزلا وذلك لا يليق إلا بالحدث . الثانى : أنه وصفه بكونه عربيا والعربى هو الذى حصل بوضع العرب واصطلاحهم وما كان كذلك كان محدثا . الثالث : أن الآية دالة على أنه إنما

اعلم أن في المراد بالكتاب قولين : الأول : أنه القرآن والمراد أن أهل القرآن يفرحون بما أنزل على محمد من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والاحكام والقصاص ومن الاحزاب الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول الحسن وقتادة .
فان قيل : الاحزاب ينكرون كل القرآن .

قلنا : الاحزاب لا ينكرون كل ما في القرآن ، لأنه ورد فيه إثبات الله تعالى وإثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الأنبياء . والاحزاب ما كانوا ينكرون كل هذه الأشياء .

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد بالكتاب التوراة والانجيل . وعلى هذا التقدير ففي الآية قولان : الأول : قال ابن عباس : الذين آتيناهم الكتاب . هم الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران . وثمانية باليمن . واثنان وثلاثون بأرض الحبشة . وفرحوا بالقرآن ، لأنهم آمنوا به وصدقوه والاحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين قال القاضي : وهذا الوجه أولى من الأول لأنه لا شبهة في أن من أوتي القرآن فانهم يفرحون بالقرآن . أما إذا حملناه على هذا الوجه ظهرت الفائدة ويمكن أن يقال : إن الذين أوتوا القرآن يزداد فرحهم به لما رأوا فيه من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة ، فلهذا السبب حكى الله تعالى فرحهم به . والثاني : والذين آتيناهم الكتاب اليهود أعطوا التوراة . والنصارى أعطوا الانجيل ، يفرحون بما أنزل في هذا القرآن ، لأنه مصدق لما معهم . ومن الأحزاب من سائر الكفار من ينكر بعضه ، وهو قول مجاهد . قال القاضي : وهذا لا يصح . لأن قوله (يفرحون بما أنزل اليك) يعم جميع ما أنزل اليه ، ومعلوم أنهم لا يفرحون بكل ما أنزل اليه ويمكن أن يجاب فيقال إن قوله (بما أنزل اليك) لا يفيد العموم بدليل جواز ادخال لفظي الكل والبعض عليه ، ولو كانت كلمة «ما» للعموم لكان ادخال لفظ الكل عليه تكريرا وإدخال لفظ البعض عليه نقصا . ثم إنه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء اليه في معرفة المبدأ والمعاد في ألفاظ قليلة منه فقال (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعوا وإليه مآب) وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به ، وفيه فوائد : أولها : أن كلمة «إنما» للتحصر ومعناها إنى ما أمرت بالإبادة الله تعالى ، وذلك يدل على أنه لا تكليف ولا أمر ولا نهى إلا بذلك . وثانيها : أن العبادة غاية التعظيم ، وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك . وثالثها : أن عبادة الله تعالى لا تمكن إلا بعد معرفته ولا سبيل إلى معرفته إلا بالدليل . فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال في معرفة ذات الصانع وصفاته ، وما يجب ويجوز ويستحيل عليه . ورابعها : أن عبادة الله واجبة ، وهو

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ
يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا
وَإِلَيْهِ مَأْبٍ ﴿٣٦﴾

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث : أولها : تجري من تحتها الأنهار .
وثانيها : أن أكلها دائم . والمعنى : أن جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها . أما جنات الآخرة
فثمارها دائمة غير منقطعة . وثالثها : أن ظلها دائم أيضاً ، والمراد أنه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا
قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) ثم إنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات
الثلاثة بين أن ذلك عقيب الذين اتقوا يعنى عاقبة أهل التقوى هى الجنة ، وعاقبة الكافرين النار .
وحاصل الكلام من هذه الآية أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام .
واعلم أن قوله (أكلها دائم) فيه مسائل ثلاث :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه يدل على أن أكل الجنة لا تفتى كما يحكى عن جهنم وأتباعه .
﴿المسألة الثانية﴾ أنه يدل على أن حركات أهل الجنة لا تنتهى الى سكون دائم . كما يقوله
أبو الهذيل وأتباعه .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال القاضى : هذه الآية تدل على أن الجنة لم تخلق بعد ، لأنها لو كان مخلوقة
لوجب أن تفتى وأن ينقطع أكلها لقوله تعالى (كل من عليها فان . وكل شئ هالك إلا وجهه) لكن
لا ينقطع أكلها لقوله تعالى (أكلها دائم) فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة . ثم قال : فلا ننكر أن
يحصل الآن فى السموات جنات كثيرة يتمتع بها الملائكة ومن يعدحيا من الأنبياء والشهداء وغيرهم
على ما روى فى ذلك . إلا أن الذى نذهب اليه أن جنة الخلد خاصة إنما تخلق بعد الاعادة .

والجواب : أن دليلهم مركب من آيتين : أحدهما : قوله (كل شئ هالك إلا وجهه) والأخرى
قوله (أكلها دائم وظلها) فإذا أدخلنا التخصيص فى أحد هذين العمومين سقط دليلهم فنحن نخصص
أحد هذين العمومين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة ، وهو قوله تعالى (وجنة عرضها السموات
والأرض أعدت للمتقين)

قوله تعالى ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه
قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبٍ﴾

مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا
تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ «٣٥»

فبالقتل ، والقتال ، واللعن ، والذم ، والاهانة ، وهل يدخل المصائب والأمراض في ذلك أم لا ؟
اختلفوا فيه ، قال بعضهم : إنها تدخل فيه ، وقال بعضهم : إنها لا تكون عقابا ، لأن كل أحد
نزلت به مصيبة فانه مأمور بالصبر عليها ، ولو كان عقابا لم يجب ذلك ، فالمراد على هذا القول :
من الآية القتل ، والسبي ، واغتنام الأموال ، واللعن ، وإنما قال (ولعذاب الآخرة أشق) لأنه
أزيد إن شئت بسبب القوة والشدة ، وإن شئت بسبب كثرة الأنواع ، وإن شئت بسبب أنه
لا يختلط بها شيء من موجبات الراحة ، وإن شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع ، ثم بين بقوله
(وما لهم من الله من واق) أى أن أحدا لا يقيمهم منازلهم من عذاب الله . قال الواحدى : أ كثر
القراء وقفوا على القاف من غير إثبات ياء في قوله (واق) وكذلك في قوله (ومن يضل الله فما له من هاد)
وكذلك في قوله (وال) وهو الوجه لأنك تقول في الوصل : هذا هاد . ووال . وواق ، فتحذف الياء
لسكونها والتقاءهما مع التنوين . فاذا وقفت انحذف التنوين في الوقف في الرفع والجر ، والياء كانت انحذف
فيصادف الوقف الحركة التي هي كسرة في غير فاعل فتحذفها كما تحذف سائر الحركات التي تقف
عليها فيصير هاد . ووال . وواق . وكان ابن كثير يقف بالياء في هادى . ووالى . وواقى . ووجهه
ما حكى سيويه أن بعض من يوثق به من العرب يقول : هذا داعى فيقفون بالياء .

قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى
الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر عذاب الكفار في الدنيا والآخرة ، أتبعه بذكر
ثواب المتقين وفي قوله (مثل الجنة) أقوال : الأول : قال سيويه (مثل الجنة) مبتدأ وخبره
مخدوف والتقدير : فيما قصصنا عليكم مثل الجنة . والثاني : قال الزجاج : مثل الجنة جنة من صفتها
كذا وكذا . والثالث : مثل الجنة مبتدأ وخبره تجري من تحتها الأنهار ، كما تقول صفة زيد اسم .
والرابع : الخبر هو قوله (أكلها دائم) لأنه الخارج عن العادة كأنه قال (مثل الجنة التي وعد المتقون
تجري من تحتها الأنهار) كما تعلمون من حال جناتكم إلا أن هذه أكلها دائم .

فالمزِين في قلب ذلك الشيطان إن كان شيطاناً آخر لزم التسلسل ، وإن كان هو الله فتمدّ زال السؤال .
والثاني أن يقال : القلوب لا يقدر عليها إلا الله ، والثالث : أنا قد دللت على أن ترجيح الداعي لا يحصل
إلا من الله تعالى وعند حصوله يجب الفعل .

أما قوله ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ فاعلم أنه قرأ عاصم وحزمة والكسائي (وصدوا) بضم الصاد
وفي حم (وصدوا عن السبيل) على ما لم يسم فاعله بمعنى أن الكفار صدّهم غيرهم ، وعند أهل السنة أن الله
صدّهم . وللمعتزلة فيه وجهان : قيل الشيطان ، وقيل أنه سبهم وبعضهم لبعض كما يقال : فلان معجب
وإن لم يكن ثمة غيره وهو قول أبي مسلم والباقون ، وصدوا بفتح الصاد في السورتين يعني أن
الكفار صدّوا عن سبيل الله ، أي أعرضوا وقيل : صرفوا غيرهم . وهو لازم ومتعد . وحجة
القراءة الأولى مشاكلتها لما قبلها من بناء الفعل للمفعول ، وحجة القراءة الثانية قوله (الذين كفروا
وصدوا عن سبيل الله)

ثم قال ﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ اعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية من وجود : أولها
قوله (بل زين للذين كفروا مكرهم) وقد بينا بالدليل أن ذلك المزِين هو الله . وثانيتها : قوله (وصدوا
عن السبيل) بضم الصاد ، وقد بينا أن ذلك الصاد هو الله . وثالثتها : قوله (ومن يضل الله فما له
من هاد) وهو صريح في المقصود وتصريح بأن ذلك المزِين وذلك الصاد ليس إلا الله . ورابعها :
قوله تعالى (لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق) أخبر عنهم أنهم سيقعون في عقاب
الآخرة وإخبار الله تمتنع التغيير . وإذا امتنع وقوع التغيير في هذا الخبر ، امتنع صدور الإيمان منه
وكل هذه الوجوه قد لخصناها في هذا الكتاب مراراً ، قال القاضي (من يضل الله) أي عن ثواب
الجنة لكفره وقوله (فما له من هاد) مني بذلك أن الثواب لا ينال إلا بالطاعة خاصة فمن زاغ
عنها لم يجد إليها سبيلاً ، وقيل : المراد بذلك من حكم بأنه ضال وسماه ضالاً ، وقيل المراد من يضلله
الله عن الإيمان بأن يجده كذلك ، ثم قال والوجه الأول أقوى .

واعلم أن الوجه الأول ضعيف جداً . لأن الكلام إنما وقع في شرح إيمانهم وكفرهم في الدنيا
ولم يجر ذكر ذهابهم إلى الجنة البتة فصرف الكلام عن المذكور إلى غير المذكور بعيد ، وأيضاً فهب
أنا نساعد على أن الأمر كما ذكره ، إلا أنه تعالى لما أخبر أنهم لا يدخلون الجنة فقد حصل المقصود
لأن خلاف معلوم الله ومخبره محال تمتنع الوقوع .

واعلم أنه تعالى لما أخبر عنهم بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا ، وبين
عذاب الآخرة الذي هو أشق . وأنه لا دافع لهم عنه لافي الدنيا ولا في الآخرة . أما عذاب الدنيا

وهي الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، وهذا الجواب مضمرة في قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع . ونظيره قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) وما جاء جوابه لأنه مضمرة في قوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فكذا همنا ، قال صاحب الكشاف : يجوز أن يقدر ما يقع خبراً للمبتدأ ، أو يعطف عليه قوله (وجعلوا) والتقدير : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحده ولم يجوده وجعلوا له شركاء .

(الوجه الثاني) وهو الذي ذكره السيد صاحب حل العقد فقال : نجعل الواو في قوله (وجعلوا) واو الحال ونضمرة للمبتدأ خبراً يكون المبتدأ معه جملة مقررة لا مكان ما يقارنها من الحال ، والتقدير (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) موجود . والحال أنهم جعلوا له شركاء ، ثم أقيم الظاهر وهو قوله (الله) مقام المضمرة تقريراً للالهية وتصريحاً بها ، وهذا كما تقول : جواد يعطي الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلي .

واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الحجة زاد في الحجاج فقال (قل سموهم) وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة الى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمه إن شئت . يعني أنه أحسن من أن يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل ، فكأنه تعالى قال : سموهم بالآلهة على سبيل التهديد ، والمعنى : سواء سميتهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به ، فانها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل اليها ، ثم زاد في الحجاج فقال (أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض) والمراد : أتقدرون على أن تجربوه وتعلموه بأمر تعلمونه وهو لا يعلمه ، وإنما خص الأرض بنبي الشريك عنها ، وإن لم يكن شريك البتة . لأنهم ادعوا أنه شركاء في الأرض لا في غيرها (أم بظاهر من القول) يعني تموهون باظهار قول لا حقيقة له ، وهو كقوله تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) ثم إنه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقته فقال على وجه التحقير لما هم عليه (بل زين الذين كفروا مكرهم) قال الواحدى : معنى (بل) همنا كأنه يقول : دع ذكر ما كنا فيه زين لهم مكرهم ، وذلك لأنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد قولهم . فكأنه يقول : دع ذكر الدليل فانه لا فائدة فيه ، لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل . قال القاضى : لا شبهة في أنه تعالى إنما ذكر ذلك لأجل أن يذمهم به ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون ذلك المزين هو الله ، بل لا بد وأن يكون إما شياطين الانس وإما شياطين الجن .

واعلم أن هذا التأويل ضعيف لوجوه : الأول : أنه لو كان المزين أحد شياطين الجن أو الانس

كَانَ عِقَابُ «٣٢» أَفْنَهُ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ قُلُوبِهِمْ أَمْ تَنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّنُوا مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زِينَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَمْكُرُهُمْ وَصَدُوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ «٣٣» لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ «٣٤»

عقاب أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا الله شركاء قلوبهم أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضل الله فما له من هاد لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق

اعلم أن القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتأذى من تلك الكلمات فأنزل تعالى هذه الآية تسلياً له وتصبيراً له على سفاهة قومه فقال له إن أقوام سائر الأنبياء استهزؤا بهم كما أن قومك يستهزئون بك (فأملت للذين كفروا) أي أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة ثم أخذتهم فكيف كان عقابي لهم .

واعلم أني سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت من أولئك المتقدمين والاملاء الامهال وأن يتركوامدة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يميل لها في المرعى . وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ، ثم إنه تعالى أورد على المشركين مايجرى مجرى الحجاج ومايكون توييخا لهم وتعجيباً من عقوبتهم فقال (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) والمعنى : أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات وإذا كان كذلك كان عالماً بجميع أحوال النفوس ، وقادراً على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن إيصال الثواب إليها على كل الطاعات ، وإيصال العقاب إليها على كل المعاصي . وهذا هو المراد من قوله (قائم على كل نفس بما كسبت) وماذاك إلا الحق سبحانه ونظيره قوله تعالى (قائماً بالقسط)

واعلم أنه لا بد لهذا الكلام من جواب واختلّفوا فيه على وجوه :

(الوجه الأول) التقدير (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) كمن ليس بهذه الصفة ؟

وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ

على مشيئة الالهاء ، وتارة يحملون الهداية على الهداية إلى طريق الجنة ، وفيهم من يجرى الكلام على الظاهر ، ويقول إنه تعالى ماشاء هداية جميع الناس لأنه ماشاء هداية الأطفال والمجانين فلا يكون شائبا لهداية جميع الناس . والكلام فى هذه المسألة قد سبق مراراً .

أما قوله تعالى ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم﴾ ففقه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (الذين كفروا) فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ قيل : أراد به جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التى وقعت لبعض الكفار من القتل والسبى أو جب حصول الغم فى قالب الكل ، وقيل : أراد بعض الكفار وهم جماعة معينون والآلف واللام فى لفظ الكفار للمعهود السابق وهو ذلك الجمع المعين .

﴿المسألة الثانية﴾ فى الآية وجهان : الأول : ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تفرعهم بما يحل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم وأولادهم وأموالهم ، أو تحل القارعة قريبا منهم ، فيفزعون ويضطربون ويتطايروا بهم شرارها ويتعدى إليهم شرورها حتى يأتى وعد الله وهو موتهم أو القيامة .

﴿والقول الثانى﴾ ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب مواشيهم ، أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتى وعد الله وهو فتح مكة ، وكان الله قد وعده ذلك .

ثم قال ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ والغرض منه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وإزالة الحزن عنه . قال القاضى : وهذا يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله تعالى فى ميعاده ، وهذه الآية وإن كانت واردة فى حق الكفار إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، إذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد فى حق الفساق .

وجوابنا : أن الخلف غير ، وتخصيص العموم غير ، ونحن لا نقول بالخلف ، ولكننا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو .

قوله تعالى ﴿ولقد استهزى برسلك من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان

فيها أنهارا نزرع فيها . أو أحى لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أو باطل ، فقد كان عيسى يحيى الموتى ، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فليست بأهون على ربك من سليمان ، فنزل قوله (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى من أما كتبها (أو قطعت به الأرض) أى شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً (أو كلم به الموتى) لكان هو هذا القرآن الذى أنزلناه عليك . وحذف جواب لو «لكونه معلوماً ، وقال الزجاج : المحذوف هو أنه (لو أن قرآنا سيرت به الجبال) وكذا وكذا لما آمنوا به كقوله (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) ثم قال تعالى ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ يعنى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وليس لأحد أن يتحكم عليه فى أفعاله وأحكامه .

ثم قال تعالى ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ فى قوله (أفلم ييأس) قولان :

﴿القول الأول﴾ أفلم يعلموا وعلى هذا التقدير ففيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ (ييأس) يعلم فى لغة النخع وهذا قول أكثر المفسرين مثل مجاهد والحسن

وقتادة . واحتجوا عليه بقول الشاعر :

ألم ييأس الأقبام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائبا
وأنشد أبو عبيدة :

أقول لهم بالشعب إذ يأسروتنى ألم تيأسوا أنى ابن فارس زهدم

أى ألم تعلموا . وقال الكسائى : ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت البتة .

﴿والوجه الثانى﴾ ماروى أن عليا وابن عباس كانا يقرآن (أفلم ييأس الذين آمنوا) فليل لابن عباس

أفلم ييأس فقال : أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس أنه كان فى الخط يأس فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس فقضى ييأس وهذا القول بعيد جدا لأنه يقتضى كون القرآن محلا للتحريف والتصحيح . وذلك يخرج عن كونه حجة قال صاحب الكشاف : ما هذا القول والله إلا فرية بلا مرية .

﴿والقول الثانى﴾ قال الزجاج : المعنى أو يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو شاء

لهدى الناس جميعا . وتقريره أن العلم بأن الشئ لا يكون يوجب اليأس من كونه والملازمة توجب حسن المجاز . فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ اليأس لارادة العلم .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بقوله (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) وكلمة «لو» تفيد انتفاء

الشئ لا انتفاء غيره . والمعنى : أنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس ، والمعتزلة تارة يحملون هذه المشيئة

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قَطَعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى
بَلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا
وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ
حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ «٣١»

(قل هوربى) الواحد المتعالى عن الشركاء (لا إله إلا هو عليه توكلت) فى نصرتى عليكم (واليه متاب) فيعينى على مصابرتكم ومجاهدتكم قيل : نزل قوله (وهم يكفرون بالرحمن) فى عبد الله بن أمية المخزومى . وكان يقول أما الله فنعرفه ، وأما الرحمن فلا نعرفه ، إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلة الكذاب فقال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا مانتدعوا فله الأسماء الحسنى) وكتوبه (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) وقيل إنه عليه السلام حين صالح قريشا من الحديدية كتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال المشركون : إن كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا . ولكن اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فكتب كذلك ، ولما كتب فى الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا أما الرحمن فلا نعرفه ، وكانوا يكتبون باسمك اللهم ، فقال عليه السلام «اكتبوا كما تريدون»

واعلم أن قوله (وهم يكفرون بالرحمن) إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناها أنهم كفروا باطلاق هذا الاسم على الله تعالى . لأنهم كفروا بالله تعالى . وقال آخرون : بل كفروا بالله إما جحدا له وإما لاثباتهم الشركاء معه . قال القاضى : وهذا القول أليق بالظاهر ، لأن قوله تعالى (وهم يكفرون بالرحمن) يقتضى أنهم كفروا بالله . وهو المفهوم من الرحمن ، وليس المفهوم منه الاسم كما لو قال قائل : كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو ، دون اسمه .

قوله تعالى ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾

اعلم أنه روى أن أهل مكة قعدوا فى فناء مكة . فأتاهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض الإسلام عليهم ، فقال له عبد الله بن أمية المخزومى : سير لنا جبال مكة حتى يفسح المكان علينا واجعل لنا

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ مَتَابُ «٣٠»

﴿والقول الثالث﴾ أن هذه اللفظة ليست عربية ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : طوبى اسم الجنة بالحبشية ، وقيل اسم الجنة بالهندية . وقيل البستان بالهندية ، وهذا القول ضعيف ، لأنه ليس في القرآن إلا العربي لاسيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر .

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف : (الذين آمنوا) مبتدأ و(طوبى لهم) خبره . ومعنى طوبى لك أى أصبت طيبا ، ومحلهما النصب أو الرفع . كقولك طيبالك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك ، والقراءة في قوله (وحسن مآب) بالرفع والنصب تدل على محلها . وقرأ مكوزة الأعرابي (طيبى لهم)

أما قوله ﴿وحسن مآب﴾ فالمراد حسن المرجع والمقر . وكل ذلك وعد من الله بأعظم النعيم ترغيبا في طاعته وتحذيرا عن المعصية .

قوله تعالى ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب﴾

اعلم أن الكاف في (كذلك) للتشبيه فقول وجه التشبيه أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك في أمة قد خلت من قبلها أمم ، وهو قوله ابن عباس والحسن وقتادة . وقيل كما أرسلنا إلى أمم وأعطيناهم كتباً تتلى عليهم . كذلك أعطيناك هذا الكتاب وأنت تتلوه عليهم فلماذا اقترحوا غيره ، وقال صاحب الكشاف (كذلك أرسلناك) أى مثل ذلك الإرسال (أرسلناك) يعنى أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات . ثم فسر كيف أرسله فقال (في أمة قد خلت من قبلها أمم) أى أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم فهى آخر الأهم وأنت آخر الأنبياء .

أما قوله ﴿لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾ فالمراد : لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك (وهم يكفرون بالرحمن) أى وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذى رحمته وسعت كل شئ وما بهم من نعمة فنه . وكفروا بنعمته فى إرسال مملك اليهم وإنزال هذا القرآن المعجز عليهم

الأجسام اشتاقت إلى التصرف فيها ، لأن عالم الأرواح مدبر لعالم الأجسام .
وإذا عرفت هذا : فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق
والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرف فيها ، أما إذا توجه القلب إلى مطالعة الحضرة الالهية
حصل فيه أنوار الصمدية والأضواء الالهية . فهناك يكون ساكناً فلهذا السبب قال (ألا
بذكر الله تطمئن القلوب)

﴿الوجه الثاني﴾ أن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف
منها ، لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة . أما إذا انتهى القلب
والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الالهية والأضواء الصمدية بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه
البتة ، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وأكمل ؛ فلهذا المعنى قال (ألا بذكر
الله تطمئن القلوب)

﴿والوجه الثالث﴾ في تفسير هذه الكلمة أن الاكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي
انقلب ذهباً باقياً على كرا الدهور والأزمان . صابراً على الذوبان الحاصل بالنار فاكسير جلال الله
تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقبله جوهرأ باقياً صافياً نورانياً لا يقبل التغير والتبدل ، فلهذا قال
(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

ثم قال تعالى ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في تفسير كلمة (طوبى) ثلاثة أقوال :

﴿القول الأول﴾ أنها اسم شجرة في الجنة ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال
«طوبى شجرة في الجنة غرسها الله يئده تنبت الحلى والحلل وأن أغصانها لترى من وراء سور
الجنة» وحكى أبو بكر الأصم رضى الله عنه : أن أصل هذه الشجرة في دار النبي صلى الله عليه
وسلم وفي دار كل مؤمن منها غصن .

﴿والقول الثاني﴾ وهو قول أهل اللغة إن طوبى مصدر من طاب ، كبشرى وزلقى . ومعنى طوبى
لك ، أصبت طيباً . ثم اختلفوا على وجوه : فقيل : فرح وقررة عين لهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما
وقيل : نعم ما لهم عن عكرمة . وقيل غبطة لهم عن الضحاك . وقيل : حسنى لهم عن قتادة . وقيل : خير
وكرامة عن أبي بكر الأصم . وقيل : العيش الطيب لهم عن الزجاج .

واعلم أن المعاني متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون في اللفظ . والحاصل أنه مبالغة في نيل
الطيبات . ويدخل فيه جميع اللذات . وتفسيره أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم .

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

والهدى الذى يفعله بالمؤمن هو الثواب . لأنه يستحقه على إيمانه . وذلك يال على أنه تعالى إنما يضل عن الثواب بالعقاب . لاعن الدين بالكفر على ماذهب اليه من خالفنا . هذا تمام كلام أبى على وقوله (أناب) أى أقبل إلى الحق وحقيقته دخل فى نوبة الخير .

قوله تعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾

اعلم أن قوله (الذين آمنوا) بدل من قوله (من أناب) قال ابن عباس: يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت .

فان قيل: أليس أنه تعالى قال فى سورة الأنفال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) والوجل ضد الاطمئنان ، فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان ؟

والجواب من وجوه: الأول: أنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصى فهناك وصفهم بالوجل ، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة ، سكنت قلوبهم الى ذلك ، وأحد الأمرين لا ينافى الآخر ، لأن الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب ، ويوجد الوجل فى حال فكفرهم فى المعاصى . وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات . الثانى: أن المراد أن عليهم بكون القرآن معجزا يوجب حصول الطمأنينة لهم فى كون محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا من عند الله . أما شكهم فى أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل فى قلوبهم ، الثالث أنه حصلت فى قلوبهم الطمأنينة فى أن الله تعالى صادق فى وعده ووعيده ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق فى كل ما أخبر به ، إلا أنه حصل الوجل والخوف فى قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا . وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا .

واعلم أن لنا فى قوله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أبحاثا دقيقة غامضة وهى من وجوه:

﴿الوجه الأول﴾ أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يتأثر . ومتأثر لا يؤثر ، وموجود يؤثر فى شىء ويتأثر عن شىء ، فالمؤثر الذى لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى ، والمتأثر الذى لا يؤثر هو الجسم ، فانه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية ، وليس له خاصية إلا القبول فقط . وأما الموجود الذى يؤثر تارة ويتأثر أخرى ، فهى الموجودات الروحانية . وذلك لأنها إذا توجهت الى الحضرة الالهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وإيجاده . وإذا توجهت الى عالم

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ «٢٧» الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَّا
بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ «٢٨»

قوله تعالى ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾
اعلم أن الكفار قالوا : يا محمد إن كنت رسولا فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام .

فأجاب عن هذا السؤال بقوله (قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه : أحدها : كأنه تعالى يقول : إن الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، ولكن الاضلال والهداية من الله ، فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة ، وهدى أقواما آخرين إليها ، حتى عرفوا بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة ، وإذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات ، وثانيتها : أنه كلام بجرى مجرى التعجب من قولهم وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أكثر من أن تصير مشتبهة على العاقل ، فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعا للتعجب والاستنكار ، فكانه قيل لهم : ما أعظم عنادكم (إن الله يضل من يشاء) من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية (ويهدى) من كان على خلاف صفتكم . وثالثها : أنهم لما طلبوا سائر الآيات والمعجزات فكانه قيل لهم لا فائدة في ظهور الآيات والمعجزات ، فإن الاضلال والهداية من الله فلو حصلت الآيات الكثيرة ولم تحصل الهداية فإنه لم يحصل الانتفاع بها . ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فإنه يحصل الانتفاع بها فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا إلى الله في طلب الهدايا . ورابعها : قال أبو علي الجبائي : المعنى إن الله يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له على كفره فلستم ممن يجيبه الله تعالى إلى ما يسأل لاستحقاقكم العذاب والاضلال عن الثواب (ويهدى إليه من أناب) أى يهدى إلى جنته من تاب وآمن قال وهذا يبين أن الهدى هو الثواب من حيث أنه عقبه بقوله (من أناب) أى تاب

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ «٢٦»

لأنه تعالى قد يؤكد اليك العهد بدلائل أخرى سواء كانت تلك المؤكدة دلائل عقلية أو سمعية .
ثم قال تعالى ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وذلك في مقابلة قوله (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل ، والمراد به قطع كل ما أوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين ، ووصل الأرحام ، ووصل سائر من له حق ، ثم قال (ويفسدون في الأرض) وذلك الفساد هو الدعاء إلى غير دين الله وقد يكون بالظلم في النفوس والاموال وتخريب البلاد ، ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال (أولئك لهم اللعنة) واللعنة من الله الإبعاد من خيرى الدنيا والآخرة إلى ضدتهما من عذاب ونقمة (ولهم سوء الدار) لأن المراد جهنم ، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها .

قوله تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا

في الآخرة إلا متاع﴾

اعلم أنه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله في قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة فكانه قيل : لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم والذات في الدنيا . فأجاب الله تعالى عنه بهذه الآية وهو أنه يبسط الرزق على البعض ويضيقه على البعض ولا تعلق له بالكفر والايمان . فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المؤمن ، ويوجد المؤمن مضيقا عليه دون الكافر ، فالدنيا دار امتحان . قال الواحدى : معنى القدر في اللغة قطع الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان . وقال المفسرون : معنى (يقدر) ههنا يضيق ، ومثله قوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه) أى ضيق ، ومعناه : أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء .

وأما قوله ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ فهو راجع الى من بسط الله له رزقه . وبين تعالى

أن ذلك لا يوجب الفرح ، لأن الحياة العاجلة بالنسبة الى الآخرة كالحقير القليل بالنسبة الى ما لا نهاية له .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ «٢٥»

مرتبة من البشر ولو كانوا أقل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجبا
علو درجاتهم وشرف مراتبهم ، ألا ترى أن من عاد من سفره إلى بيته فاذا قيل في معرض كمال مرتبته
أنه يزور الأمير والوزير والقاضي والمفتي ، فهذا يدل على أن درجة ذلك المزور أقل وأدنى من
درجات الزائرين فكذلك ههنا .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال الزجاج : ههنا محذوف تقديره الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويقولون
سلام عليكم فأضمر القول ههنا لأن في الكلام دليلا عليه ، وأما قوله (بما صبرتم فنعم عقبي
الدار) ففيه وجهان : أحدهما : أنه متعلق بالسلام . والمعنى أنه إنما حصلت لكم هذه السلامة
بواسطة صبركم على الطاعات ، وترك المحرمات . والثاني : أنه متعلق بمحذوف ، والتقدير : أن
هذه الكرامات التي ترونها ، وهذه الخيرات التي تشاهدونها إنما حصلت بواسطة ذلك الصبر .

قوله تعالى ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل
ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما ترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية أتبعها
بذكر حال الأشقياء ، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة ، وأتبع الوعد بالوعيد
والثواب بالعقاب ، ليكون البيان كاملا فقال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) وقد بينا أن
عهد الله ما ألزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية لأنها أوكد من كل عهد وكل يمين إذ الإيمان
إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها ، والمراد من نقض هذه
العهود أن لا ينظر المرء في الأدلة أصلا ، فحينئذ لا يمكنه العمل بموجبها أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها
ثم يعاند فلا يعمل بعلمه أو بأن ينظر في الشبهة فيعتقد خلاف الحق والمراد من قوله (من بعد ميثاقه)
أي من بعد أن وثق الله تلك الأدلة وأحكامها ، لأنه لا شيء أقوى مما دال الله على وجوبه في أنه ينفع
فعله ويضر تركه .

فان قيل : إذا كان العهد لا يكون إلا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله (من بعد ميثاقه)
قلنا : لا يمتنع أن يكون المراد بالعهد هو ما كلف الله العبد ، والمراد بالميثاق الأدلة المؤكدة

أحوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال تعالى في صفة أهل الجنة إنهم يقولون (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (وأزواجهم) ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة . ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه . وماروى عن سودة أنه لما هم الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعنى يا رسول الله أحشر فى زمرة نساءك ، كالدليل على ما ذكرناه .

﴿القييد الرابع﴾ قوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال ابن عباس : لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم (سلام عليكم بما صبرتم) على أمر الله . وقال أبو بكر الأصم : من كل باب من أبواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون ونعم ما أعقبكم الله بعد الدار الأولى .

واعلم أن دخول الملائكة إن حملناه على الوجه الأول فهو مرتبة عظيمة . وذلك لأن الله تعالى أخبر عن هؤلاء المطيعين أنهم يدخلون جنة الخلد ، ويجمعون بأبائهم وأزواجهم وذرياتهم على أحسن وجه . ثم إن الملائكة مع جلالة مراتبهم يدخلون عليهم لأجل التحية والاكرام عند الدخول عليهم يكرمونهم بالتحية والسلام ويبشرونهم بقولهم (فنعم عقبى الدار) ولاشك أن هذا غير ما يذكره المتكلمون من أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالاجلال والتعظيم ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء رأس كل حول فيقول «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» والخلفاء الأربعة هكذا كانوا يفعلون . وأما إن حملناه على الوجه الثانى فتفسير الآية أن الملائكة طوائف . منهم روحانيون . ومنهم كروبيون ، فالعبد إذا راض نفسه بأنواع الراضيات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة . ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسى وروح علوى يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص : فعند الموت إذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الأرواح السماوية ما يناسبها من الصفة المخصوصة بها فيفيض عليها من ملائكة الصبر كالات مخصوصة نفسانية لا تظهر إلا فى مقام الصبر . ومن ملائكة الشكر كالات روحانية لا تتجلى إلا من مقام الشكر . وهكذا القول فى جميع المراتب .

﴿المسألة الثانية﴾ تمسك بعضهم بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال : إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والاكرام والتعظيم فكانوا به أجل

واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط. أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة :

﴿ القيد الأول ﴾ قوله (أولئك لهم عقبي الدار) أي عاقبة الدار وهي الجنة ، لأنها هي التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها. قال الواحدي : العقبي كالعاقبة ، ويجوز أن تكون مصدرا كالشورى والقربى والرجعى ، وقد يجيء مثل هذا أيضا على فعلى كالنجوى والدعوى ، وعلى فعلى كالكبرى والضيزى ، ويجوز أن يكون اسما وهو ههنا مصدره مضاف الى الفاعل ، والمعنى : أولئك لهم أن تعقب أعمالهم الدار التي هي الجنة .

﴿ القيد الثانى ﴾ قوله (جنات عدن يدخلونها) وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الزجاج : جنات عدن بدل من عقبي والكلام في جنات عدن ذكرناه مستقصى عند قوله تعالى (ومساكن طيبة في جنات عدن) وذكرنا هناك مذهب المفسرين ، ومذهب أهل اللغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يدخلونها) بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله والباقون بفتح الياء وضم الخاء على إسناد الدخول اليهم .

﴿ القيد الثالث ﴾ قوله (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن عليه (صلح) بضم اللام قال صاحب الكشاف : والفتح أفصح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج : موضع من رفع لأجل العطف على الواو في قوله (يدخلونها) ويجوز أن يكون نصبا كما تقول قد دخلوا وزيدا أى مع زيد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله (ومن صلح) قولان : الأول : قال ابن عباس : يريد من صدق بما صدقوا به وإن لم يعمل مثل أعمالهم وقال الزجاج : بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة قال الواحدي : والصحيح ما قال ابن عباس ، لأن الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة وذلك يدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتى بالأعمال الصالحة ، ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به ، إذ كل من كان مصلحاً في عمله فهو يدخل الجنة .

واعلم أن هذه الحجة ضعيفة ، لأن المقصود بشارة المطيع بكل ما يزيد سروراً وبهجة فاذا بشر الله المكلف بأنه إذا دخل الجنة فانه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده فلا شك أنه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به ، ويقال إن من أعظم موجبات سروره هم أن يجتمعوا فيتذاكروا

واعلم أن قوله (ابتغاء وجه ربهم) فيه دققة ، وهي أن العاشق إذا ضربه معشوقه . فربما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به فقوله (ابتغاء وجه ربهم) محمول على هذا المجاز ، يعنى كما أن العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر الى وجه معشوقه . فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة . ويرضى به لاستغراقه فى معرفة نور الحق وهذه دققة لطيفة .

﴿ القيد السابع ﴾ قوله (وأقاموا الصلاة)

واعلم أن الصلاة والزكاة وإن كانتا داخلتين فى الجملة الأولى إلا أنه تعالى أفردها بالذكر تنبيها على كونها أشرف من سائر العبادات وقد سبق فى هذا الكتاب تفسير إقامة الصلاة ولا يمتنع ادخال النوافل فيه أيضا .

﴿ القيد الثامن ﴾ قوله تعالى (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الحسن : المراد الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أداؤها سرا وإن اتهم بترك الزكاة فالأولى أداؤها فى العلانية . وقيل السر ما يؤديه بنفسه والعلانية ما يؤديه إلى الامام ، وقال آخرون : بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التى يؤتى بها على صفة التطوع فقوله (سرا) يرجع إلى التطوع وقوله (علانية) يرجع إلى الزكاة الواجبة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة إنه تعالى رغب فى الانفاق من كل ما كان رزقا ، وذلك يدل على أنه لا رزق إلا الحلال إذ لو كان الحرام رزقا لسكان قدر رغب تعالى فى إنفاق الحرام وأنه لا يجوز .

﴿ القيد التاسع ﴾ قوله (ويدروُن بالحسنة السيئة) وفيه وجهان : الأول : أنهم إذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «إذا عملت سيئة فاعمل بجانبها حسنة تمحها» والثانى : أن المراد أنهم لا يقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وعن ابن عمر رضى الله عنهما ليس الوصول من وصل ثم وصل تلك المجازاة لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله ، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه قوم اهتاج ، لكن الحليم من قدر ثم عفا . وعن الحسن : هم الذين اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا ، ويروى أن شقيق بن إبراهيم البلخى دخل على عبدالله بن المبارك متنكرا ، فقال من أين أنت ؟ فقال من بلخ ، فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم ، فقال فكيف طريقة أصحابه فقال اذا منعوا صبروا وإن أعطوا شكروا ، فقال عبدالله : طريقة كلابنا هكذا . فقال وكيف ينبغى أن يكون فقال الكاملون : هم الذين اذا منعوا شكروا واذا أعطوا آثروا .

الفضيل بن عياض رحمه الله أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ قالوا من خراسان فقال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أن العبد لو أحسن كل الاحسان وكان له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين . وأقول حاصل الكلام : أن قوله (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) اشارة الى التعظيم لأمر الله وقوله (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) اشارة إلى الشفقة على خلق الله .

﴿ القيد الرابع ﴾ قوله (ويخشون ربهم) والمعنى : أنه وإن أتى بكل ما قدر عليه في تعظيم أمر الله ، وفي الشفقة على خلق الله إلا أنه لا بد وأن تكون الخشية من الله والخوف منه مستولياً على قلبه وهذه الخشية نوعان : أحدهما : أن يكون خائفان أن يقع زيادة أو نقصان أو خلل في عباداته وطاعاته ، بحيث يوجب فساد العبادة أو يوجب نقصان ثوابها . والثاني : وهو خوف الجلال وذلك لأن العبد إذا حضر عند السلطان المهيب القاهر فانه وإن كان في عين طاعته إلا أنه لا يزول عن قلبه مهابة الجلالة والرفعة والعظمة .

﴿ القيد الخامس ﴾ قوله (ويخافون سوء الحساب) اعلم أن القيد الرابع اشارة الى الخشية من الله وهذا القيد الخامس اشارة الى الخوف والخشية وسوء الحساب ، وهذا يدل على أن المراد من الخشية من الله ما ذكرناه من خوف الجلال والمهابة والعظمة وإلا لزم التكرار .

﴿ القيد السادس ﴾ قوله تعالى (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) فيدخل فيه الصبر على فعل العبادات والصبر على ثقل الأمراض والمضار ، والغموم والأحزان ، والصبر على ترك المشتبهات وبالجملة الصبر على ترك المعاصي وعلى أداء الطاعات . ثم إن الانسان قد يقدم على الصبر لوجوه : أحدها : أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل . وثانيها : أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع . وثالثها : أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء . ورابعها : أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع فالانسان إذا أتى بالصبر لأحده هذه الوجوه لم يكن ذلك داخل في كمال النفس وسعادة القلب ، أما إذا صبر على البلاء لعلمه بأن ذلك البلاء قسمة حكيم بها القسام العلام المنزه عن العيب والباطل والسفه ، بل لا بد أن تكون تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضى بذلك ، لأنه تصرف المالك في ملكه ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملكه أو يصبر لأنه صار مستغرقاً في مشاهدة المبلى فكان استغراقه في تجلي نور المبلى أذهله عن التألم بالبلاء وهذا أعلى مقامات الصديقين ، فهذه الوجوه الثلاثة هي التي يصدق عليها انه صبر ابتغاء وجه ربه ومعناه أنه صبر لمجرد ثوابه . وطلب رضا الله تعالى .

﴿والقول الثاني﴾ أن الميثاق ما وثقه المكلف على نفسه ، فالحاصل : أن قوله (الذين يوفون بعهد الله) إشارة الى ما كلف الله العبد به ابتداء . وقوله (ولا ينقضون الميثاق) إشارة الى ما التزمه العبد من أنواع الطاعات بحسب اختيار نفسه كالنذر بالطاعات والخيرات .

﴿والقول الثالث﴾ أن المراد بالوفاء بالعهد : عهد الربوبية والعبودية . والمراد بالميثاق : المواثيق المذكورة في التوراة والانجيل وسائر الكتب الالهية على وجوب الايمان بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم عند ظهوره .

واعلم أن الوفاء بالعهد أمر مستحسن في العقول والشرائع . قال عليه السلام «من عاهد الله فغدر ، كانت فيه خصلة من النفاق» وعنه عليه السلام «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجييراً استوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حراً فاسترق الحر وأكل ثمنه» وقيل : كان بين معاوية وملك الروم عهد فأراد أن يذهب اليهم وينقض العهد فاذا رجع على فرس يقول : وفاء بالعهد لا غدر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذن اليهم عهده ولا يحلها حتى ينقضى الأمد وينبذ اليهم على سواء» قال من هذا ؟ قالوا : عمرو بن عيينة فرجع معاوية .

﴿القيود الثالث﴾ (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) وههنا سؤال : وهو أن الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل على وجوب الاتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات فما الفائدة في ذكر هذه القيود المذكورة بعدهما ؟

والجواب من وجهين : الأول : أنه ذكر لئلا يظن ظان أن ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلا جرم أفرد ما بينه وبين العباد بالذكر . والثاني : أنه تأكيد .

إذا عرفت هذا فنقول : ذكروا في تفسيره وجوها : الأول : أن المراد منه صلة الرحم قال عليه السلام «ثلاث يأتين يوم القيامة لها ذلق الرحم تقول : أى رب قطعت ، والأمانة تقول : أى رب تركت ، والنعمة تقول : أى رب كفرت»

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد صلة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤازرته ونصرته في الجهاد .

﴿والقول الثالث﴾ رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد . فيدخل فيه صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب اخوة الايمان كما قال (إنما المؤمنون إخوة) ويدخل في هذه الصلة امدادهم بايصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الامكان وعبادة المريض وشهود الجنائز وإفشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الأذى عنهم ويدخل فيه كل حيوان حتى الهرة والدجاجة ، وعن

اعلم أن هذه الآية هل هي متعلقة بما قبلها أم لا ؟ فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ إنها متعلقة بما قبلها وعلى هذا التقدير ففيه وجهان : الأول : أنه يجوز أن يكون قوله (الذين يوفون بعهد الله) صفة لأولى الألباب . والثاني : أن يكون ذلك صفة لقوله (أمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق)

﴿والقول الثاني﴾ أن يكون قوله (الذين يوفون بعهد الله) مبتدأ (وأولئك لهم عقبي الدار) خبره كقوله (والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة) واعلم أن هذه الآية من أولها إلى آخرها جملة واحدة شرط وجزاء ، وشرطها مشتمل على قيود ، وجزاؤها يشتمل أيضاً على قيود . أما القيود المعتمدة في الشرط فهي تسعة :

﴿القيود الأول﴾ قوله (الذين يوفون بعهد الله) وفيه وجوه : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى) والثاني : أن المراد بعهد الله كل أمر قام الدليل على صحته وهو من وجهين : أحدهما : الأشياء التي أقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة لا تقبل النسخ والتغيير . والآخر : التي أقام الله عليها الدلائل السمعية وبين لهم تلك الأحكام ، والحاصل أنه دخل تحت قوله (يوفون بعهد الله) كل ما قام الدليل عليه . ويصح إطلاق لفظ العهد على الحججة بل الحق أنه لا عهد أو كد من الحججة والدلالة على ذلك أن من حلف على الشيء فأنما يلزمه الوفاء به ، إذا ثبت بالدليل وجوبه لا بمجرد اليمين ولذلك ربما يلزمه أن يحنث نفسه إذا كان ذلك خيراً له فلا عهد أو كد من إزام الله تعالى إياه ذلك بدليل العقل أو بدليل السمع . ولا يكون العبد موفياً للعهد إلا بأن يأتي بكل تلك الأشياء كما أن الخالف على أشياء كثيرة لا يكون باراً في يمينه إلا إذا فعل الكل ، ويدخل فيه الاتيان بجميع المأمورات والانتها عن كل المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود في المعاملات ، ويدخل فيه أداء الأمانات ، وهذا القول هو المختار الصحيح في تأويل الآية .

﴿القيود الثاني﴾ قوله (ولا ينقضون الميثاق) وفيه أقوال :

﴿القول الأول﴾ وهو قول الأكثرين إن هذا الكلام قريب من الوفاء بالعهد ، فإن الوفاء بالعهد قريب من عدم نقض الميثاق والعهد ، وهذا مثل أن يقول : إنه لما وجب وجوده لزم أن يتمتع عدمه ، فهذان المفهومان متغايران إلا أنهما متلازمان فكذلك الوفاء بالعهد يلزمه أن لا ينقض الميثاق .

واعلم أن الوفاء بالعهد من أجل مراتب السعادة . قال عليه السلام «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة في القرآن .

الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ «٢٠» وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ
اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ «٢١» وَالَّذِينَ صَبَرُوا
ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ
بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ «٢٢» جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ
مِنْ آبَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ «٢٣»
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ «٢٤»

بخدمة حضرة المولى عا كفين على لذات الدنيا ، فاذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها
وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه المصيبة فلذلك قال (ما واهم جهنم) ثم إنه تعالى وصف هذا المأوى
فقال (وبئس المهاد) ولاشك أن الأمر كذلك .

ثم قال تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ فهذا إشارة إلى المثل
المتقدم ذكره وهو أن العالم بالشيء كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما كالآخر . لأن
الأعمى إذا أخذ يمشى من غير قائد . فالظاهر أنه يقع في البئر وفي المهالك ، وربما أفسد ما كان على
طريقه من الأمتعة النافعة . أما البصير فإنه يكون آمنا من الهلاك والاهلاك .

ثم قال ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ والمراد أنه لا ينتفع بهذه الأمثلة إلا أرباب الألباب
الذين يطلبون من كل صورة معناها ، ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهر كل حديث
إلى سره ولبابه .

قوله عز وجل ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن
يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة
وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن
يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام
عليكم بما صبرتم فنعمة عقبى الدار ﴾

الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاحلال . ولم يذكر الزيادة ههنا لأنه تعالى قد ذكرها في سورة أخرى ، وهو قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وأما أحوال الأشقياء ، فهى قوله (والذين لم يستجيبوا له) فلهم أنواع أربعة من العذاب والعقوبة .

﴿فالنوع الأول﴾ قوله (لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به) والافتداء جعل أحد الشئئين بدلا من الآخر ، ومفعول لافتدوا به محذوف تقديره : لافتدوا به أنفسهم أى جعلوه فداء أنفسهم من العذاب . والكنياية فى «به» عائدة الى «ما» فى قوله (مافى الأرض)

واعلم أن هذا المعنى حق ، لأن المحبوب بالذات لكل إنسان هو ذاته . وكل ماسواه فأنما يحبه لكونه وسيلة الى مصالح ذاته ، فاذا كانت النفس فى الضرر والألم والتعب وكان مالكا لما يساوى عالم الأجساد والأرواح فانه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه ، لأن المحبوب بالعرض لا بد وأن يكون فداء لما يكون محبوبا بالذات .

﴿والنوع الثانى﴾ من أنواع العذاب الذى أعده الله لهم هو قوله (أولئك لهم سوء الحساب) قال الزجاج : ذاك لأن كفرهم أحبط أعمالهم . وأقول ههنا حالتان : فكل ماشغلك بالله وعبوديته ومحبه فهى الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية . وكل ماشغلك بغير الله فهى الحالة الضارة المؤذية الحسيسة ، ولاشك أن هاتين الحالتين يقبلان الأشد والأضعف والأقل والأزيد . ولاشك أن المواظبة على الأعمال المناسبة لهذه الأحوال توجب قوتها ورسوخها لما ثبت فى المعقولات أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة ، ولاشك أنه لما كانت كثرة الأفعال توجب حصول تلك الملكات الراسخة وكل واحدة من تلك الأفعال حتى اللحظة والخطور بالبال والالتفات الضعيف فانه يوجب أثرا ما فى حصول تلك الحالة فى النفس فهذا هو الحساب ، وعند التأمل فى هذه الفصول يتبين للانسان صدق قوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)

إذا ثبت هذا فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم فى الاعراض عما سوى الله وفى الاقبال بالكلية على عبودية الله تعالى ولاجرم حصل لهم الحسنى .

وأما الأشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم ، فلهذا السبب وجب أن يحصل لهم سوء الحساب ، والمراد بسوء الحساب أنهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذى هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بخدمة حضرة المولى .

﴿والنوع الثالث﴾ قوله تعالى (ومأواهم جهنم) وذلك لأنهم كانوا غافلين عن الاستسعاد

وهو كقوله تعالى (فأوقد لي ياهايمان على الطين) والثاني : أن يوقد على الشيء ويكون ذلك الشيء في النار فإن من أراد تذويب الاجساد السبعة جعلها في النار ، فلهذا السبب قال ههنا (ومما توقدون عليه في النار)

(البحث الثالث) في قوله (ابتغاء حلية) قال أهل المعاني : الذي يوقد عليه لا ابتغاء حلية الذهب والفضة ، والذي يوقد عليه لا ابتغاء الأمتعة الحديد والنحاس والرصاص ، والأسرب يتخذ منها الاواني والأشياء التي ينتفع بها ، والمتاع كل ما يتمتع به وقوله (زبد مثله) أى زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل .

ثم قال تعالى ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل . ثم قال (أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس) قال الفراء : الجفاء الرمي والاطراح يقال : جفا الوادى غثاه يحفوه جفاء إذا رماه . والجفاء اسم للجمع منه المنضم بعضه إلى بعض وموضع جفاء نصب على الحال ، والمعنى : أن الزبد قد يعلو على وجه الماء ويربو ويتفخخ إلا أنه بالآخرة يضمحل ويبقى الجوهر الصافي من الماء ومن الأجساد السبعة ، فكذلك الشبهات والحيالات قد تقوى وتعظم إلا أنها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شيء من الشبهات ، وفي قراءة رؤبة بن العجاج جفالا ، وعن أبي حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفار .

أما قوله تعالى ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه تم الكلام عند قوله (كذلك يضرب الله الأمثال) ثم استأنف الكلام بقوله (للذين استجابوا لربهم الحسنى) ومحلّه الرفع بالابتداء وللذين خبره وتقديره لهم الخصلة الحسنى والحالة الحسنى . الثاني : أنه متصل بما قبله والتقدير : كانه قال الذي يبقى هو مثل المستجيب والذي يذهب جفاء مثل من لا يستجيب ثم بين الوجه في كونه مثلاً وهو أنه لمن يستجيب الحسنى وهو الجنة ، ولمن لا يستجيب أنواع الحسرة والعقوبة ، وفيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير : كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى ، فيكون الحسنى صفة لمصدر محذوف .

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أحوال السعداء وأحوال الأشقياء . أما أحوال السعداء فهي قوله (للذين استجابوا لربهم الحسنى) والمعنى أن الذين أجابوه إلى مادعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله فلهم الحسنى . قال ابن عباس : الجنة ، وقال أهل المعاني : الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن ، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة

﴿والقول الثاني﴾ قال السهروردي يسمي الماء وادياً إذا سال قال : ومنه سمي الودى ودياً لخروجه وسيلانه ، وعلى هذا القول فالوادي اسم للماء السائل كالمسيل . والاول هو القول المشهور إلا أن على هذا التقدير يكون قوله (سالت أودية) مجازاً فكان التقدير : سالت مياه الأودية إلا أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

﴿البحث الثاني﴾ قال أبو علي الفارسي رحمه الله : الأودية جمع واد ولا نعلم فاعلاً جمع على أفعله قال : ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشيء الواحد كعالم وعليم ، وشاهد وشهيد ، وناصر ونصير ، ثم إن وزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب ، وطائر وأطيّار ، ووزن فاعيل يجمع على أفعله ، كجريب وأجربة ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لاجرم يجمع الفاعل جمع الفعيل . فيقال واد وأودية ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال : يتيم وأيتام وشريف وأشرف هذا ما قاله أبو علي الفارسي رحمه الله . وقال غيره : نظير واد وأودية ، ناد وأندية للرجال .

﴿البحث الثالث﴾ إنما ذكر لفظ أودية على سبيل التنكير ، لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فتسيل بعض أودية الأرض دون بعض . أما قوله تعالى (بقدرها) ففيه بحثان : ﴿البحث الأول﴾ قال الواحدى : القدر والقدر مبلغ الشيء يقال كم قدر هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها ؟ أى كم تبلغ في الوزن ، فما يكون مساوياً لها في الوزن فهو قدرها .

﴿البحث الثاني﴾ (سالت أودية بقدرها) أى من الماء . فان صغر الوادى قل الماء ، وإن اتسع الوادى كثر الماء .

أما قوله ﴿ فاحتمل السيل زبدا راييا ﴾ ففيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال الفراء : يقال أزبد الوادى إزبادا ، والزبد الاسم . وقوله (راييا) قال الزجاج : طافيا عاليا فوق الماء . وقال غيره : زائد بسبب انتفاخه ، يقال : ربا يربو اذا زاد .

أما قوله تعالى ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ فاعلم أنه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء . أتبعه بضمير المثل بالزبد الحاصل من النار ، وفيه مباحث :

﴿البحث الأول﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (يوقدون) بالياء ، واختاره أبو عبيدة لقوله (ينفع الناس) وأيضا فليس ههنا مخاطب . والباقون بالتاء على الخطاب ، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان : الأول : أنه خطاب للمذكورين في قوله (قل أفأخذتم من دونه أولياء) والثاني : أنه يجوز أن يكون خطابا عاما يراد به الكافة ، كأنه قال : ومما توقدون عليه في النار أيها الموقدون .

﴿البحث الثاني﴾ الإيقاد على الشيء على قسمين : أحدهما : أن لا يكون ذلك الشيء في النار ،

قلنا : حاصله يرجع إلى أنه لما حصل المدح والذم وجب أن يكون العبد مستقلا بالفعل . وهو منقوض ، لأنه تعالى ذم أبا لهب على كفره مع أنه عالم منه أنه يموت على الكفر ، وقد ذكرنا أن خلاف المعلوم محال الوقوع ، فهذا تقرير هذا الوجه في هذه الآية .

﴿ وأما الوجه الثاني ﴾ في التمسك بهذه الآية قوله (قل الله خالق كل شيء) ولا شك أن فعل العبد شيء فوجب أن يكون خالقه هو الله وسؤالهم عليه ماتقدم .

﴿ والوجه الثالث ﴾ في التمسك بهذه الآية قوله (وهو الواحد القهار) وليس يقال فيه أنه تعالى واحد في أى المعانى ، ولما كان المذكور السابق هو الخالقية وجب أن يكون المراد هو الواحد في الخالقية ، القهار لكل ماسواه ، وحينئذ يكون دليلا أيضا على صحة قولنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعم جهم أن الله تعالى لا يقع عليه اسم الشيء . اعلم أن هذا النزاع ليس الا فى اللفظ وهو أن هذا الاسم هل يقع عليه أم لا . وزعم أنه لا يقع هذا الاسم على الله تعالى واحتج عليه بأنه لو كان شيئا لوجب كونه خالقا لنفسه ، لقوله تعالى (الله خالق كل شيء) ولما كان ذلك محالا ، وجب أن لا يقع عليه اسم الشيء ، ولا يقال : هذا عام دخله التخصيص . لأن العام المخصوص إنما يحسن اذا كان المخصوص أقل من الباقي وأخص منه كما اذا قال : أكلت هذه الرمانة مع أنه سقطت منها حبات ماأكلها ، ودهنا ذات الله تعالى أعلى الموجودات وأشرفها . فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذى يتناوله مع كون الحكم مخصوصا فى حقه ؟

﴿ والحجة الثانية ﴾ تمسك بقوله تعالى (ليس كمثله شيء) والمعنى : ليس مثل مثله شيء ، ومعلوم أن كل حقيقة فانها مثل مثل نفسها . فالبارى تعالى مثل مثل نفسه ، مع أنه تعالى نبه على أن مثل مثله ليس بشيء ، فهذا تنصيص على أنه تعالى غير مسمى باسم الشيء .

﴿ والحجة الثالثة ﴾ قوله تعالى (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) دلت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يدعى الله إلا بالأسماء الحسنى ، ولفظ الشيء يتناول أخص الموجودات ، فلا يكون هذا اللفظ مشعرا بمعنى حسن ، فوجب أن لا يكون هذا اللفظ من الأسماء الحسنى . فوجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا اللفظ . والأصحاب تمسكوا فى إطلاق هذا الاسم عليه تعالى بقوله (قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم)

وأجاب الخصم عنه : بأن قوله (قل أى شيء أكبر شهادة) سؤال متروك الجواب ، وقوله (قل الله شهيد بينى وبينكم) كلام مبتدأ مستقل بنفسه لاتعلق له بما قبله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تمسك المعتزلة بهذه الآية فى أنه تعالى عالم لذاته لا بالعلم وقادر لذاته لا بالقدرة .

ولا أثر ، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الإلهية محض السفه والجهل .
وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن أصحابنا استدلوا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من وجوه :
الأول : أن المعتزلة زعموا أن الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات والسكنات التي
يخلقها الله تعالى ، وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا خلقه ، ومعلوم أن الله تعالى إنما
ذكر هذه الآية في معرض الذم والانكار ، فدللت هذه الآية على أن العبد لا يخلق فعل نفسه .
قال القاضي : نحن وإن قلنا : إن العبد يفعل ويحدث ، إلا أننا لا نطلق القول بأنه يخلق
ولو أطلقناه لم نقل إنه يخلق كخلق الله ، لأن أحدنا يفعل بقدرته الله ، وإنما يفعل لطلب منفعة ودفع
مضرة ، والله تعالى منزّه عن ذلك كله ، فثبت أن بتقدير كون العبد خالقا ، إلا أنه لا يكون خلقه
كخلق الله تعالى ، وأيضا فهذا الالتزام لازم للمجبرة ، لأنهم يقولون عين ماهو خلق الله تعالى فهو
كسب العبد وفعل له . وهذا عين الشرك لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين
الذين لا مال لأحدهما إلا وللآخر فيه حق . وأيضا فهو تعالى إنما ذكر هذا الكلام عيبا للكفار
وذما لطريقتهم ، ولو كان فعل العبد خلقا لله تعالى لما بقي لهذا الذم فائدة ، لأن للكفار أن يقولوا
على هذا التقدير إن الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا الكفر فينا فلم يذمنا عليه ولم ينسبنا إلى الجهل
والتقصير مع أنه قد حصل فينا لافعلنا ولا باختيارنا .

والجواب عن السؤال الأول : أن لفظ الخلق إما أن يكون عبارة عن الإخراج من العدم
إلى الوجود . أو يكون عبارة عن التقدير ، وعلى الوجهين فبتقدير أن يكون العبد محدثا فإنه لا بد وأن
يكون حادثا . أما قوله : والعبد وإن كان خالقا إلا أنه ليس خلقه كخلق الله :

قلنا : الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين والإخراج من العدم إلى الوجود ، ومعلوم أن الحركة
الواقعة بقدرته العبد لما كانت مثلا للحركة الواقعة بقدرته الله تعالى ، كان أحد المخلوقين
مثلا للمخلوق الثاني ، وحينئذ يصح أن يقال : إن هذا الذي هو مخلوق العبد مثل لما هو مخلوق لله
تعالى . بل لا شك في حصول المخالفة في سائر الاعتبارات ، إلا أن حصول المخالفة في سائر الوجوه
لا يقدح في حصول المماثلة من هذا الوجه وهذا القدر يكفي في الاستدلال . وأما قوله هذا لازم على
المجبرة حيث قالوا إن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، فنقول هذا غير لازم ، لأن هذه الآية دالة على أنه
لا يجوز أن يكون خلق العبد مثلا لخلق الله تعالى ، ونحن لا نثبت للعبد خلقا البتة ، فكيف يلزمنا
ذلك ؟ وأما قوله : لو كان فعل العبد خلقا لله تعالى . لما حسن ذم الكفار على هذا المذهب .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ
هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ
عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «١٦»

قوله تعالى (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار .
اعلم أنه تعالى لما بين أن كل من في السموات والأرض ساجد له بمعنى كونه خاضعا له ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال (قل من رب السموات والأرض قل الله) ولما كان هذا الجواب جوابا يقر به المسئول ويعترف به ولا ينكره أمره صلى الله عليه وسلم أن يكون هو الذي كره لهذا الجواب تنبيها على أنهم لا ينكرونه البتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات قال : قل لهم فلم اتخذتم من دون الله أولياء وهي جمادات وهي لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ، ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لأنفسها ودفع المضرة عن أنفسها فأن تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها ودفع المضرة عن غيرها كان ذلك أولى . فاذا لم تكن قادرة على ذلك كانت عبادتها محض العبث والسفه ، ولما ذكر هذه الحجة الظاهرة بين أن الجاهل يمثل هذه الحجة يكون كالأعمى والعالم بها كالبصير . والجاهل يمثل هذه الحجة كالظلمات ، والعلم بها كالنور ، وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير ، والظلمة لا تساوى النور كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها . قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وعمر بن عبد العزيز عن عاصم (يستوى الظلمات والنور) بالياء ، لأنها مقيدة على اسم الجمع والباقون بالتاء . واختاره أبو عبيدة ثم أكد هذا البيان فقال (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) يعني هذه الأشياء التي زعموا أنها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا إنها تشارك الله في الخلقية . فوجب أن تشاركه في الإلهية ، بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل البتة . ولا خلق

أى ويجب على كل من فى السموات والأرض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول والثانى : وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية ، وكل من فى السموات ومن فى الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)

(وأما القول الثانى فى تفسير الآية) فهو أن السجود عبادة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع . وكل من فى السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى ، لأن قدرته ومشيئته نافذة فى الكل وتحقيق القول فيه أن ماسواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الذى تكون ماهيته قابلة للعدم والوجود على السوية . وكل من كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدده أو بالعكس ، إلا بتأثير موجود ومؤثر فيكون وجود كل ماسوى الحق سبحانه بإيجاده . وعدم كل ماسواه باعدامه ، فتأثيره نافذ فى جميع الممكنات فى طرفى الایجاد والاعدام ، وذلك هو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد ، ونظير هذه الآية قوله (بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون) وقوله (وله أسلم من فى السموات والأرض)

وأما قوله تعالى ﴿طوعاً وكرهاً﴾ فالمراد : أن بعض الحوادث مما يميل الطبع إلى حصوله كالحياة والغنى . وبعضها مما ينفر الطبع عنه كالموت والفقر والعشى والحزن والزمانة وجميع أصناف المكروهات ، والكل حاصل بقضائه وقدره وتكوينه وإيجاده ، ولا قدرة لأحد على الامتناع والمدافعة .

ثم قال تعالى ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ وفيه قولان :

(القول الأول) قال المفسرون كل شخص سواء كان مؤمناً أو كافراً فإن ظله يسجد لله . قال مجاهد : ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع ، وظل الكافر يسجد لله كرهاً وهو كاره ، وقال الزجاج : جاء فى التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله ، وعند هذا قال ابن الأنبارى : لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخضع كما جعل الله للجبال أفهاما حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلى فيها كما قال (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا)

(والقول الثانى) وهو أن المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ، فهى متقادة مستسلمة فى طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر ، لأن الظلال إنما تعظم وتكثر فى هذين الوقتين .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغَدُوِّ
وَالْأَصَالِ «١٥»

﴿البحث الثاني﴾ قال صاحب الكشاف (دعوة الحق) فيه وجهان: أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف إليه الكلمة في قوله (كلمة الحق) والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة محتصة بكونها حقة وكونها خالية عن أمارات كونه باطلاً. وهذا من باب إضافة الشيء إلى صفته. والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله سبحانه على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله وكل دعاء إليه فهو دعوة الحق.

ثم قال تعالى ﴿والذين يدعون من دونه﴾ يعنى الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله (لا يستجيبون لهم بشيء) مما يطلبونه إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء. والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، فكذلك ما يدعونه جماد، لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم لآلهتهم. بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطها ناشرأ أصابعه ولم تصل كفاه إلى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه. وقرىء (تدعون) بالتاء (كباسط كفيه) بالتونين. ثم قال (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أى إلا في ضياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجبههم وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

قوله تعالى ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ اعلم أن في المراد بهذا السجود قولين:

﴿القول الأول﴾ أن المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض، وعلى هذا الوجه ففيه وجهان: أحدهما: أن اللفظ وان كان عاماً إلا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعاً بسهولة ونشاط. ومن المسلمين من يسجد لله كرها لصعوبة ذلك عليه مع أنه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى. والثاني: أن اللفظ عام والمراد منه أيضاً العام وعلى هذا ففي الآية إشكال، لأنه ليس كل من في السموات والأرض يسجد لله. بل الملائكة يسجدون لله، والمؤمنون من الجن والانس يسجدون لله تعالى، وأما الكافرون فلا يسجدون.

الجواب عنه من وجهين: الأول: أن المراد من قوله (ولله يسجد من في السموات والأرض)

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَيْفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَالِغَهُ وَمَادَّعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ « ١٤ »

والمقابلة ، فكأن المعنى : أنه تعالى شديد المغالبة ، والمفسرين ههنا عبارات فقال مجاهد وقتادة : شديد القوة ، وقال أبو عبيدة : شديد العقوبة ، وقال الحسن : شديد النقمة ، وقال ابن عباس : شديد الحول . الثالث : قال ابن عرفة : يقال ما حل عن أمره أى جادل ، فقوله (شديد المحال) أى شديد الجدل . الرابع : روى عن بعضهم (شديد المحال) أى شديد الحقد . قالوا هذا لا يصح ، لأن الحقد لا يمكن فى حق الله تعالى ، إلا أنا قد ذكرنا فى هذا الكتاب أن أمثال هذه الألفاظ اذا وردت فى حق الله تعالى فانها تحصل على نهايات الأعراض لا على مبادئ الأعراض ، فالمراد بالحقد ههنا هو أنه تعالى يريد إيصال الشر اليه مع أنه يخفى عنه تلك الإرادة .

قوله تعالى ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ اعلم أن قوله (له دعوة الحق) أى الله دعوة الحق ، وفيه بجهان :

﴿ البحث الأول ﴾ فى أقوال المفسرين وهى أمور : أحدها : ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال (دعوة الحق) قول لا إله إلا الله ، وثانيها : قول الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه هو الحق ، كأنه يوصى الى أن الانقطاع اليه فى الدعاء هو الحق ، وثالثها : أن عبادته هى الحق والصدق .

واعلم أن الحق هو الموجود . والموجود قسمان : قسم يقبل العدم وهو حق يمكن أن يصير باطلا وقسم لا يقبل العدم فلا يمكن أن يصير باطلا وذلك هو الحق الحقيقى ، وإذا كان واجب الوجود لذاته موجوداً لا يقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقاً هو هو وكان أحق الاعتقادات وأحق الأذكار بأن يكون حقاً هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده ، فثبت بهذا أن وجوده هو الحق فى الموجودات واعتقاد وجوده هو الحق فى الاعتقادات . وذكره بالثناء والالهية والكمال هو الحق فى الأذكار فلهذا قال (له دعوة الحق)

ابن الطفيل وأربد بن ربيعة أخى لييد بن ربيعة أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه ويجادلانه ، ويريدان الفتك به . فقال أربد بن ربيعة أخو لييد بن ربيعة : أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد ، ثم إنه لما رجع أربد أرسل عليه صاعقة فأحرقته ، ورمى عامرا بغدة كغدة البعير ، ومات في بيت سلوية .

واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جدا وذلك لأنها تارة تتولد من السحاب ، وإذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان في لجة البحر ، والحكماء بالغوا في وصف قوتها ، ووجه الاستدلال أن النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب ، فوجب أن تكون طبيعتها في الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا على العادة ، لكنه ليس الأمر كذلك ، فإنها أقوى نيران هذا العالم ، فثبت أن اختصاصها بمزيد تلك القوة لا بد وأن يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل الأربعة قال (وهم يجادلون في الله) والمراد أنه تعالى بين دلائل كمال علمه في قوله (يعلم ما تحمل كل أنثى) وبين دلائل كمال القدرة في هذه الآيات .
ثم قال ﴿وهم يجادلون في الله﴾ يعنى هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في الله . وهو يحتمل وجوها : أحدها : أن يكون المراد الرد على الكافر الذى قال : أخبرنا عن ربنا أمن نحاس أم من حديد . وثانيها : أن يكون المراد الرد على جدالهم في انكار البعث وإبطال الحشر والنشر . وثالثها : أن يكون المراد الرد عليهم في طلب سائر المعجزات . ورابعها : أن يكون المراد الرد عليهم في استنزال عذاب الاستئصال . وفي هذه الواو قولان : الأول : أنها للحال ، والمعنى : فيصيب بالصاعقة من يشاء في حال جداله في الله ، وذلك أن أربد لما جادل في الله أحرقته الصاعقة . والثانى : أنها واو الاستئناف كأنه تعالى لما تم ذكر هذه الدلائل قال بعد ذلك (وهم يجادلون في الله)

ثم قال تعالى ﴿وهو شديد المحال﴾ وفي لفظ المحال أقوال : قال ابن قتيبة : الميم زائدة وهو من الحول ، ونحوه ميم مكان . وقال الأزهري : هذا غلط ، فإن الكلمة إذا كانت على مثال فعال أوله هيم مكسورة فهي أصلية ، نحو مهاد ومداس ومداد ، واختلفوا مع أخذ على وجوه : الأول : قيل من قولهم محل فلان بفلان إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك ، وتمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهديه ، فكان المعنى : أنه سبحانه شديد المكر لأعدائه يهلكهم بطريق لا يتوقعونه . الثانى : أن المحال عبارة عن الشدة ، ومنه تسمى السنة الصعبة سنة المحل وما حلت فلانا محالا ، أى قامته أينما أشد . قال أبو مسلم : ومحال فعال من المحل وهو الشدة . ولفظ فعال يقع على المجازاة

بملك فيه قولان : أحدهما : أنه ليس بملك لأنه عطف عليه الملائكة ، فقال (والملائكة من خيفته) والمعطوف عليه مغاير للمعطوف . والثاني : وهو أنه لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وإنما افترده بالذكر على سبيل التشيرف كما في قوله (وملائكته ورسله وجبريل وميكال) وفي قوله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح)

﴿القول الثاني﴾ أن الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ، ومع ذلك فإن الرعد يسبح الله سبحانه ، لأن التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى ، فلما كان حدوث هذا الصوت دليلا على وجود موجود متعال عن النقص والامكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحا ، وهو معنى قوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده)

﴿القول الثالث﴾ أن المراد من كون الرعد مسبحا أن من يسمع الرعد فإنه يسبح الله تعالى ، فلهذا المعنى أضيف هذا التسبيح إليه .

﴿القول الرابع﴾ من كلمات الصوفية الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم .

فان قيل : وما حقيقة الرعد ؟

قلنا : استقصينا القول في سورة «البقرة» في قوله (فيه ظلمات ورعد وبرق .

أما قوله ﴿والملائكة من خيفته﴾ فاعلم أن من المفسرين من يقول : عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد . فانه سبحانه جعل له أعوانا . ومعنى قوله (والملائكة من خيفته) أى وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته . قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنهم خائفون من الله لا كخوف ابن آدم ، فان أحدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره ، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء .

واعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فله سحب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ، وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية ، وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون عن الحكماء ، فكيف يليق بالعاقل الانكار ؟

﴿النوع الرابع﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) واعلم أن قد ذكرنا معنى الصواعق في سورة البقرة . قال المفسرون : نزلت هذه الآية في عامر

واعلم أن هذا أيضا من دلائل القدرة والحكمة ، وذلك لأن هذه الاجزاء المائية إما أن يقال إنها حدثت في جو الهواء أو يقال إنها تصاعدت من وجه الأرض ، فإن كان الأول . وجب أن يكون حدودها باحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب ، وإن كان الثاني . وهو أن يقال إن تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض فلما وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فتقلت فرجعت إلى الأرض فقول هذا باطل ، وذلك لأن الأمطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة ، وأخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدة نزول المطر زماناً طويلاً وتارة قليلاً فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة ، وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار وأيضاً فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة ، فعلينا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة والخاصية .

(النوع الثالث) من الدلائل المذكورة في هذه الآية الرعد وهو قوله (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) وفيه أقوال :

(القول الأول) ان الرعد اسم ملك من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسييح والتهيل عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو ؟ فقال «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله» قالوا : فما الصوت الذى نسمع ؟ قال «زجره السحاب» وعن الحسن أنه خلق من خلق الله ليس بملك فعلى هذا القول الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسييح لله تعالى وذلك الصوت أيضا يسمى بالرعد ويؤكد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : كان إذا سمع الرعد قال : سبحان الذى سبحت له . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله ينشئ السحاب الثقال فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق»

واعلم أن هذا القول غير مستبعد وذلك لأن عند أهل السنة البنية ليست شرطا لحصول الحياة فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلا له وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى أن السمندل يتولد في النار ، والصفادع تتولد في الماء البارد ، والدودة العظيمة ربما تتولد في الثلوج القديمة ، وأيضاً فاذا لم يبعد تسييح الجبال في زمن داود عليه السلام ، ولاتسييح الحصى في زمان محمد صلى الله عليه وسلم «فكيف يستبعد تسييح السحاب» وعلى هذا القول فهذا الشيء المسمى بالرعد ملك أو ليس

﴿المسألة الثانية﴾ في كون البرق خوفاً وطمعاً وجوه : الأول : أن عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث قال المتنبّي :

قبي كالسحاب الجون يخشى ويرتجى يرجى الحيا منها ويخشى الصواعق

الثاني : أنه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له فيه نفع . الثالث : أن كل شيء يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة إلى قوم ، وشر بالنسبة إلى آخرين . فكذلك المطر خير في حق من يحتاج إليه في أوانه ، وشر في حق من يضره ذلك ، إما بحسب المكان أو بحسب الزمان .

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه أن السحاب لاشك أنه جسم مركب من أجزاء رطبة مائية ، ومن أجزاء هوائية وناارية ولاشك أن الغالب عليه الأجزاء المائية والماء جسم بارد رطب ، والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلا بد من صانع مختار يظهر الضد من الضد .

فان قيل : لم لا يجوز أن يقال : إن الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقاً عنيفاً فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة ، والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق ؟

والجواب : أن كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه : الأول : أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال : أينما يحصل البرق فلا بد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك فإنه كثيراً ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد . الثاني : أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد ، وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية ؟ بل نقول : التيار العظيمة تنطفئ بصب الماء عليها ، والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية ؟ الثالث : من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة ، فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة بأجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر؟ فثبت أن السبب الذي ذكره ضعيف وأن حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصاً لا يمكن إلا بقدرة القادر الحكيم .

﴿النوع الثاني﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (وينشئ السحاب الثقال) قال صاحب الكشاف : السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لأنك تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهي الثقال بالماء .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ «١٢» وَيَسْبِغُ
الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ
وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ «١٣»

وأما قوله ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ فقد احتج أصحابنا به على أن العبد غير مستقل في الفعل . قالوا : وذلك لأنه إذا كفر العبد فلا شك أنه تعالى يحكم بكونه مستحقاً للذم في الدنيا والعقاب في الآخرة . فلو كان العبد مستقلاً بتحصيل الإيمان لكان قادراً على رد ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى ، وحينئذ يبطل قوله ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ فتبت أن الآية السابقة وإن أشعرت بمذهبهم ، إلا أن هذه الآية من أقوى الدلائل على مذهبنا . قال الضحاك عن ابن عباس : لم تغن المعقبات شيئاً ، وقال عطاء عنه : لا أراد لعذابي ولا ناقض لحكمي (وما لهم من دونه من وال) أي ليس لهم من دون الله من يتولاهم ، ويمنع قضاء الله عنهم . والمعنى : ما لهم وال يلي أمرهم . ويمنع العذاب عنهم .

قوله تعالى ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقيل ويسبغ الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾

اعلم أنه تعالى لما خوف العباد بانزال ما لا مرد له أتبعه بذكر هذه الآيات وهي مشتملة على أمور ثلاثة ، وذلك لأنها دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته وأنها تشبه النعم والاحسان من بعض الوجوه ، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه .

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أموراً أربعة : الأول : البرق وهو قوله تعالى (يريكم البرق خوفاً وطمعاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف في اتصاف قوله (خوفاً وطمعاً) وجوه : الأول : لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع أو على معنى إخافة وإطاعاً . الثاني : يجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع والتقدير : ذا خوف وذا طمع أو على معنى إيخافاً وإطاعاً . الثالث : أن يكونا حالاً من المخاطبين أي خائفين وطماعين .

واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخرة ، فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره ، وهم إن ظنوا أنهم يخلصون بخدومهم من أمر الله ومن قضائه فانهم لا يقدرون على ذلك البتة ، والمقصود من هذا الكلام بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله وعصمته ولا يعولوا في دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بعده (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)

أما قوله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بانزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد . قال القاضي : والظاهر لا يحتمل إلا هذا المعنى لأنه لا شيء مما يفعله تعالى سوى العقاب إلا وقد يتبدى به في الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم لأنه تعالى ابتدأ بالنعمة دينا ودنيا ويفضل في ذلك من شاء على من يشاء ، فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب ، ثم اختلفوا في بعضهم قال هذا الكلام راجع إلى قوله (ويستعجلونك بالسبيئة قبل الحسنة) فبين تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الاصرار على الكفر والمعصية . حتى قالوا : إذا كان المعلوم أن فيهم من يؤمن أو في عقبه من يؤمن فانه تعالى لا ينزل عليهم عذاب الاستئصال وقال بعضهم : بل الكلام يجري على إطلاقه ، والمراد منه أن كل قوم بالغوا في الفساد وغيروا طريقتهم في إظهار عبودية الله تعالى فان الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم أنواعا من العذاب ، وقال بعضهم : أن المؤمن الذي يكون مختلطاً بأولئك الأقوام فربما دخل في ذلك العذاب . روى عن أبي بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب» واحتج أبو على الجبائي والقاضي بهذه الآية في مسألتين :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى لا يعاقب أطفال المشركين بذنوب آبائهم ، لأنهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة إلى العذاب .

﴿المسألة الثانية﴾ قالوا : الآية تدل على بطلان قول المجبرة إنه تعالى يتبدى العبد بالضلال والحذلان أول ما يبلغ وذلك أعظم من العقاب ، مع أنه ما كان منه تغيير .

والجواب : أن ظاهر هذه الآية يدل على أن فعل الله في التغيير مؤخر عن فعل العبد ، إلا أن قوله تعالى (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) يدل على أن فعل العبد مؤخر عن فعل الله تعالى . فوقع التعارض .

(السؤال الخامس) ما الفائدة في كتابة أعمال العباد؟ قلنا: ههنا مقامات: (المقام الأول) أن تفسير الكتابة بالمعنى المشهور من الكتابة. قال المتكلمون: الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى، فانه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة. وإن كان بالضد بالضد. قال القاضى: هذا بعيد لأن الأدلة قد دلت على أن كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم أنه من السعداء أو من الأشقياء فلا يتوقف حصول تلك المعرفة على الميزان، ثم أجاب القاضى عن هذا الكلام وقال: لا يمنع أيضا ما روينا لأمر يرجع إلى حصول سروره عند الخلق العظيم أنه من أولياء الله في الجنة، وبالضد من ذلك في أعداء الله.

(والمقام الثانى) وهو قول حكاء الاسلام أن الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف المعانى المخصوصة. فلو قدرنا كون تلك النقوش دالة على تلك المعانى لأعيانها وذواتها كانت تلك الكتابة أقوى وأكمل.

إذا ثبت هذا فنقول: إن الانسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرات وكرات كثيرة متوالية حصل في نفسه بسبب تكررها ملكة قوية راسخة، فإن كانت تلك الملكة ملكة سارة بالأعمال النافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بها بعد الموت: وإن كانت تلك الملكة ملكة ضارة في الأحوال الروحانية عظم تضمره بها بعد الموت.

إذا ثبت هذا فنقول: إن التكرير الكثير لما كان سببا لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من الأعمال المتكررة أثر في حصول تلك الملكة الراسخة، وذلك الأثر وإن كان غير محسوس إلا أنه حاصل في الحقيقة. وإذا عرفت هذا ظهر أنه لا يحصل للانسان لمحة ولا حركة ولا ساكون، إلا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة، أو آثار الشقاوة قل أو أكثر، فهذا هو المراد من كتابة الأعمال عند هؤلاء والله أعلم بحقائق الأمور. وهذا كله إذا فسرنا قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) بالملائكة.

(القول الثانى) وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما. واختاره أبو مسلم الأصفهاني المراد: أنه يستوى في علم الله تعالى السر والظهر، والمستخفى بظلمة الليل، والسار بالنهار المستظهر بالمعاونين والأنصار وهم الملوك والأمراء، فمن لجأ الى الليل فلن يفوت الله أمره. ومن سار نهارا بالمعقبات وهم الأحراس والأعوان الذين يحفظونه لم ينجح أحراسه من الله تعالى. والمعقب العون، لأنه إذا أبصر هذا ذاك فلا بد أن يبصر ذاك هذا، فتصير بصيرة كل

القول في كل ليلة ، ولا شك أن تلك الكواكب لها أرواح عندهم. فتلك التديرات المختلفة في الحقيقة لتلك الأرواح ، وكذلك القول في تديير القمر والهلال والكواكب على ما يقوله المنجمون . وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور في ألسنتهم ولذلك تراهم يقولون : أخبرني الطباعي التام ، ومرادهم بالطباعي التام أن لكل إنسان روحاً فلكية يتولى إصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته ، وإذا كان هذا متفقاً عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام فكيف يستبعد مجيئه من الشرع ؟ وتمام التحقيق فيه أن الأرواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها فبعضها خيرة ، وبعضها شريرة ، وبعضها معزة ، وبعضها مذلة . وبعضها قوية القهر والسلطان ، وبعضها ضعيفة سخيفة ، وكما أن الأمر في الأرواح البشرية كذلك ، فكذا القول في الأرواح الفلكية ، ولا شك أن الأرواح الفلكية في كل باب وكل صفة أقوى من الأرواح البشرية وكل طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة ، لما أنها تكون في تربية روح من الأرواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية ، وتكون تلك الأرواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروح الفلكي . ومتى كان الأمر كذلك كان ذلك الروح الفلكي معيناً لها على مهماتها ومرشداً لها إلى مصالحها وعاصياً لها عن صنوف الآفات ، فهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة ، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن الذي وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل ، فكيف يمكن استنكاره من الشريعة ؟ ثم في اختصاص هؤلاء الملائكة وتسلمتهم على نبي آدم فوائد كثيرة سوى التي مر ذكرها من قبل . الأول : أن الشياطين يدعون إلى الشرور والمعاصي ، وهؤلاء الملائكة يدعون إلى الخيرات والطاعات . والثاني : قال مجاهد : ما من عبد إلا ومعه ملك يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته . الثالث : أنا نرى أن الانسان قد يقع في قلبه داع قوي من غير سبب ثم يظهر بالآخرة أن وقوع تلك الداعية في قلبه كان سبباً من أسباب مصالحه وخيراته ، وقد ينكشف أيضاً بالآخرة أنه كان سبباً لوقوعه في آفة أو في معصية ، فيظهر أن الداعى إلى الأمر الأول كان مريداً للخير والراحة وإلى الأمر الثاني كان مريداً للفساد والمحنة ، والأول هو الملك الهادي والثاني هو الشيطان المغوى . الرابع : أن الانسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب ، لأن من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الاقدام عليها كما يزجره عنها إذا حضره من يعظمه من البشر ، وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل .

الليل بملائكة النهار فهم عشرون ملكاً على كل آدمي» وعنه صلى الله عليه وسلم «يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر» وهو المراد من قوله (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قيل: تصعد ملائكة الليل وهي عشرة وتنزل ملائكة النهار. وقال ابن جريج: هو مثل قوله تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد) صاحب اليمين يكتب الحسنات والذي عن يساره يكتب السيئات. وقال مجاهد: مامن عبد إلا وله ملك يحفظه من الجن والانس والهوام في نومه ويقظته. وفي الآية سوالات:

﴿السؤال الأول﴾ الملائكة ذكور. فلم ذكر في جمعها جمع الاناث وهو المعقبات؟

والجواب: فيه قولان: الأول: قال الفراء: المعقبات ذكران جمع ملائكة معقبة، ثم جمعت معقبة بمعقبات، كما قيل: ابناوات سعد ورجالات بكر جمع رجال، والذي يدل على التذكير قوله (يحفظونه) والثاني: وهو قول الأخفش: إنما أنثت لكثرة ذلك منها. نحو: نساء، وعلامة، وهو ذكر.

﴿السؤال الثاني﴾ ما المراد من كون أولئك المعقبات من بين يديه ومن خلفه؟

والجواب: أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار قد أحاط به هؤلاء المعقبات فيعدون عليه أعماله وأقواله بتامها ولا يشذ من تلك الأعمال والأقوال من حفظهم شيء أصلاً. وقال بعضهم: بل المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه. لأن السارب بالنهار إذا سعى في مهماته فأنما يحذر من بين يديه ومن خلفه.

﴿السؤال الثالث﴾ ما المراد من قوله (من أمر الله)

والجواب: ذكر الفراء فيه قولين:

﴿القول الأول﴾ أنه على التقديم والتأخير والتقدير: له معقبات من أمر الله يحفظونه.

﴿القول الثاني﴾ أن فيه إضماراً أي ذلك الحفظ من أمر الله أي بما أمر الله به فحذف الاسم

وأبقى خبره كما يكتب على الكيس. ألفان والمراد الذي فيه ألفان.

﴿والقول الثالث﴾ ذكره ابن الأنباري أن كلمة «من» معناها الباء والتقدير: يحفظونه بأمر الله

وباعائه، والدليل على أنه لا بد من المصير إليه أنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق على أن يحفظوا

أحداً من أمر الله وبما قضاه عليه.

﴿السؤال الرابع﴾ ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا؟ والجواب: أن هذا الكلام

غير مستبعد، وذلك لأن المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة وكذا

لَهُ مَعْقِبَاتٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

دخل في السرب أى في كُناسه . قال الواحدى : وهذا الوجه صحيح في اللغة ، إلا أن الاختيار هو الوجه الأول لا طباق أكثر المفسرين عليه ، وأيضا فالليل يدل على الاستتار ، والنهار على الظهور والانتشار .

قوله تعالى ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾
اعلم أن الضمير في «له» عائد إلى «من» في قوله (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) وقيل على اسم الله في عالم الغيب والشهادة ، والمعنى : لله معقبات ، وأما المعقبات فيجوز أن يكون أصل هذه الكلمة معقبات فأدغمت التاء في القاف كقوله (وجاء المعذرون من الأعراب) والمراد المعتذرون ويجوز أن يكون من عقبه إذا جاء على عقبه فاسم المعقب من كل شيء ما خلف يعقب ما قبله ، والمعنى في كلا الوجهين واحد .

إذا عرفت هذا فنقول : في المراد بالمعقبات قولان : الأول : وهو المشهور الذي عليه الجمهور أن المراد منه الملائكة الحفظة وإنما صح وصفهم بالمعقبات ، إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس ، وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب ، وكل من عمل عملاً ثم عاد إليه فقد عقب ، فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار . روى عن عثمان رضى الله عنه أنه قال يارسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال عليه السلام «ملك عن يمينك يكتب الحسنات وهو أمين على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرأ . وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين أكتب؟ فيقول لا لعله يتوب فإذا قال ثلاثاً قال نعم أكتب أراحنا الله منه فبئس القرين ما أقل مراقبته لله تعالى واستحياءه منا ، وملكان من بين يديك ومن خلفك فهو قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لربك رفعك وإن تجبرت قصمك ، وملكان على شفقتك يحفظان عليك الصلاة على ، وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك ، وملكان على عينيك فهو لاء عشرة أملاك على كل آدمى تبدل ملائكة

ثم إنه تعالى ذكر عقبيه قوله (الكبير) وهو تعالى يمتنع أن يكون كبيراً بحسب الجلة والحجم والمقدار ، فوجب أن يكون كبيراً بحسب القدرة والمقادير الإلهية ثم وصف تعالى نفسه بأنه المتعال وهو المتزه عن كل ما لا يجوز عليه وذلك يدل على كونه منزهاً في ذاته وصفاته وأفعاله فهذه الآية دالة على كونه تعالى موصوفاً بالعلم الكامل والقدرة التامة ، ومنزهاً عن كل ما لا ينبغي ، وذلك يدل على كونه تعالى قادراً على البعث الذي أنكروه وعلى الآيات التي اقتروها وعلى العذاب الذي استعجلوه . وأنه إنما يؤخر ذلك بحسب المشيئة الإلهية عند قوم وبحسب المصلحة عند آخرين .

وقرأ ابن كثير (المتعالى) باثبات الياء في الوقف والوصل على الأصل . والباقون بحذف الياء في الحالتين للتخفيف ثم إنه تعالى أكد بيان كونه عالمًا بكل المعلومات فقال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لفظ (سواء) يطاب اثنتين تقول سواء زيد وعمرو ثم فيه وجهان : الأول : أن سواء مصدر والمعنى : ذو سواء كما تقول : عدل زيد وعمرو . أى ذوا عدل . الثانى : أن يكون سواء بمعنى مستو وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى الاضمار إلا أن سيديويه يستقبح أن يقول مستو زيد وعمرو لأن أسماء الفاعلين إذا كانت نكرات لا يبدأ بها .

ولقائل أن يقول : بل هذا الوجه أولى لأن حمل الكلام عليه يغنى عن التزام الاضمار الذى هو خلاف الأصل .

﴿المسألة الثانية﴾ فى المستخف والسارب قولان :

﴿القول الأول﴾ يقال : أخفيت الشيء أخفيه إخفاءً تخفى واستخفى فلان من فلان أى توارى واستتر . وقوله (وسارب بالنهار) قال الفراء والزجاج : ظاهر بالنهار فى سربه أى طريقه . يقال : خلا له سربه ، أى طريقه . وقال الأزهري : تقول العرب سربت الابل تسرب سرباً ، أى مضت فى الأرض ظاهرة حيث شاءت ، فاذا عرفت ذلك فعنى الآية سواء كان الانسان مستخفياً فى الظلمات أو كان ظاهراً فى الطرقات ، فعلم الله تعالى محيط بالكل . قال ابن عباس رضى الله عنهما : سواء ما أضمرت القلوب وأظهرته الألسنة . وقال مجاهد : سواء من يقدم على القبائح فى ظلمات الليالى ، ومن يأتى بها فى النهار الظاهر على سبيل التوالى .

﴿والقول الثانى﴾ نقله الواحدى عن الأخفش وقطرب أنه قال : المستخفى الظاهر والسارب المتوارى ، ومنه يقال : خفيت الشيء وأخفته أى أظهرته . واختفيت الشيء استخرجته ويسمى النباش المستخفى . والسارب المتوارى . ومنه يقال : للداخل سرباً ، وانسرب الوحش اذا

جارية لذلك النقصان قال ابن عباس رضى الله عنهما : كلما سال الحيض في وقت الحمل يوماً زاد في مدة الحمل يوماً ليحصل به الجبر ويعتدل الأمر . السابع : أن دم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فإذا امتلأت عروفاها من تلك الفضلات فاضت وخرجت وسالت من دواخل تلك العروق ، ثم إذا سالت تلك المواد امتلأت تلك العروق مرة أخرى هذا كله إذا قلنا إن كلمة «ما» موصولة . أما إذا قلنا إنها مصدرية فالمعنى : أنه تعالى يعلم حمل كل أنثى . ويعلم غيض الأرحام وازديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من أوقاته وأحواله .

وأما قوله تعالى ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ فمعناه : بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله (إننا كل شيء خلقناه بقدر) وقوله في أول الفرقان (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) واعلم أن قوله (كل شيء عنده بمقدار) يحتمل أن يكون المراد من العندية العلم ومعناه : أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان الأمر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات ويحتمل أن يكون المراد من العندية أنه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمديّة ، وعند حكماء الاسلام أنه تعالى وضع أشياء كلية وأودع فيها قوى وخواص ، وحركتها بحيث يلزم من حركاتها المقدرّة بالمقادير المخصوصة أحوال جزئية معينة ومناسبات مخصوصة مقدرّة ، ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرم ، وهو من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة .

ثم قال تعالى ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد علم ماغاب عن خلقه وماشهدوه . قال الواحدي : فعلى هذا (الغيب) مصدر يريد به الغائب (والشهادة) أراد بها الشاهد . واختلفوا في المراد بالغائب والشاهد . قال بعضهم : الغائب هو المعلوم ، والشاهد هو الموجود . وقال آخرون : الغائب ماغاب عن الحس ، والشاهد ما حضر ، وقال آخرون : الغائب ما لا يعرفه الخلق ، والشاهد ما يعرفه الخلق . ونقول : المعلومات قسمان : المعدومات والموجودات ، والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها . ومنها معدومات لا يمتنع وجودها ، والموجودات أيضاً قسمان : موجودات يمتنع عدمها ، وموجودات لا يمتنع عدمها ، وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة له أحكام وخواص ، والكل معلوم لله تعالى . وحكى الشيخ الامام الوالد عن أبي القاسم الأنصارى عن إمام الحرمين رحمهم الله تعالى أنه كان يقول لله تعالى معلومات لانهاية لها ، وله في كل واحد من تلك المعلومات ، معلومات أخرى لانهاية لها ، لأن الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله أنه يمكن وقوعه في احياز لانهاية لها على البدل وموصوفاً بصفات لانهاية لها على البدل ، وهو تعالى عالم بكل الأحوال على التفصيل ، وكل هذه الأقسام داخل تحت قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة)

بظهور تلك الآيات ، أو يزداد اصرارهم واستكبارهم ، فلو علم تعالى أنهم طلبوا ذلك لأجل الاسترشاد وطلب البيان ومزيد الفائدة . لأظهره الله تعالى وما منعهم عنه . لكنه تعالى لم يعلم أنهم لم يقولوا ذلك الا لأجل محض العناد لا جرم أنه تعالى منعهم عن ذلك وهو كقوله تعالى (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقفل إنما الغيب لله فانتظروا) وقوله (قل إنما الآيات عند الله) والثاني : أن وجه النظم أنه تعالى لما قال (وإن تعجب فاعجب قولهم) في انكار البعث وذلك لأهم أنكروا البعث بسبب أن أجزاء أبدان الحيوانات عند تفرقتها وتفتتها يختلط بعضها ببعض ولا يبقى الامتياز فبين تعالى أنه إنما لا يبقى الامتياز في حق من لا يكون عالما بجميع المعلومات . ثم في حق من كان عالما بجميع المعلومات . فإنه يبقى تلك الأجزاء بحيث يمتاز بعضها عن البعض . ثم احتج على كونه تعالى عالما بجميع المعلومات بأنه يعلم ما تحمّل كل أنثى وما تغيض الأرحام . الثالث : أن هذا متصل بقوله (ويستعجلونك بالسئئة قبل الحسنة) والمعنى : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم كونه فيه مصلحة والله أعلم .

(المسألة الثانية) لفظ «ما» في قوله (ما تحمّل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد) إما أن تكون موصولة وإما أن تكون مصدرية فإن كانت موصولة . فالمعنى أنه يعلم ما تحمّله من الولد أنه من أى الأقسام أهو ذكر أم أنثى وتام أو ناقص وحسن أو قبيح وطويل أو قصير وغير ذلك من الاحوال الحاضرة والمترتبة فيه .

ثم قال (وما تغيض الأرحام) والغيض هو النقصان سواء كان لازما أو متعديا يقال : غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى (وغيض الماء) والمراد من الآية وما تغيضه الأرحام إلا أنه حذف الضمير الراجع وقوله (وما تزداد) أى تأخذ زيادة تقول : أخذت منه حتى وازددت منه كذا . ومنه قوله تعالى (وازدادوا تسعا) ثم اختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوده : الأول : عدد الولد فإن الرحم قد يشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة وأربعة يروى أن شريكا كان رابع أربعة في بطن أمه . الثاني : الولد قد يكون مخدجا . وقد يكون تاما . الثالث : مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنين عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى . وإلى أربعة عند الشافعي . وإلى خمس عند مالك . وقيل إن الضحك ولد لسنين . وهرم ن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرما . الرابع : الدم فإنه تارة يقل وتارة يكثر . الخامس : ما ينقص بالسقط من غير أن يتم وما يزداد بالتمام . السادس : ما ينقص بظهور دم الحيض . وذلك لأنه إذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص . وبمقدار حصول ذلك النقصان يزداد أيام الحمل لتصير هذه الزيادة

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ
بِمَقْدَارٍ «٨» عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ «٩» سِوَاهُ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ
وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ «١٠»

الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لا ثقاً، بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبان لا يؤمنوا عند اظهار سائر المعجزات أولى فهذا هو الذى قرره القاضى وهو الوجه الصحيح الذى يبقى الكلام معه منتظلاً .

(والوجه الثانى) وهو أن المعنى أنهم لا يجدون كون القرآن معجزاً فلا يضيق قلبك بسببه إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر إلى أن يحصل الإيمان فى صدورهم ولست بقادر عليهم ولكل قوم هاد ، قادر على هدايتهم بالتخليق وهو الله سبحانه وتعالى فيكون المعنى ليس لك إلا الانذار ، وأما الهداية فمن الله تعالى .

واعلم أن أهل الظاهر من المفسرين ذكروا ههنا أقوالاً : الأول : المنذر والهادى شىء واحد والتقدير : إنما أنت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر الثانى : المنذر محمد صلى الله عليه وسلم . والهادى هو الله تعالى روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد ابن جبير ، ومجاهد ، والضحاك . والثالث : المنذر النبى . والهادى على . قال ابن عباس رضى الله عنهما : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره فقال «أنا المنذر» ثم أوما إلى منكب على رضى الله عنه ، قال «أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى»

قوله تعالى ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾

فى الآيه مسائل :

(المسألة الأولى) فى وجه النظم وجوه . الأول : أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بين أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم أنهم هل طلبوا الآيه الأخرى للاسترشاد وطلب البيان . أو لأجل التعنت والعناد ، وهل ينتفعون

إن هذا الكلام ، إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزا . مع أنه مظاهر عليه نوع آخر من المعجزات ، لأن بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لا تمتنع أن يقولوا (أولا أنزل عليه آية من ربه) فهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان له معجز سوى القرآن .

واعلم أن الجواب عنه من وجهين : الأول : لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدها منه صلى الله عليه وسلم كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور : مثل فاق البحر بالعصا ، وقلب العصا ثعبانا .

فان قيل : فما السبب في أن الله تعالى منعهم وما أعطاهم ؟

قلنا : إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكما وظهور القرآن معجزة ، فما كان مع ذلك حاجة إلى سائر المعجزات . وأيضا فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتزمة . وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال ، فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) بين أنه لم يعطهم مطلوبهم لعله تعالى أنهم لا ينتفدون به ، وأيضا ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له . وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر . فطلب منه معجزة أخرى ، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم السلام ، وأنه باطل .

(الوجه الثاني) في الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات .

ثم إنه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) اتفق القراء على التنوين في قوله (هاد) وحذف الياء في الوصل ، واختلفوا

في الوقف ، فقرأ ابن كثير : بالوقف على الياء ، والباقون : بغير الياء ، وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف .

(المسألة الثانية) في تفسير هذه الآية وجود : الأول : المراد أن الرسول عليه السلام منذر

لقومه مبين لهم ، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع ، وأنه تعالى سوى بين الكل في إظهار المعجزة إلا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لأجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب ، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو احياء الموتى وبراء الأكمه والابرس ، ولما كان الغالب في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ لِكُلِّ

قَوْمٍ هَادٍ «٧»

(وإن ربك لشديد العقاب) فوجب أن يحمل الأول على أصحاب الكبار ، وأن يحمل الثاني على أحوال الكفار .

فان قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد : لذو مغفرة لأهل الصغائر لأجل أن عقوبتهم مكفرة ثم نقول : لم لا يجوز أن يكون المراد : إن ربك لذو مغفرة اذا تابوا وأنه تعالى إنما لا يعجل العقاب إمهالا لهم في الاتيان بالتوبة ، فان تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة بل نقول : يجب حمل اللفظ عليه لأن القوم لما طلبوا تعجيل العقاب ، فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولا على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد : وإن ربك لذو مغفرة أنه تعالى إنما لا يعجل العقوبة إمهالا لهم في الاتيان بالتوبة . فان تابوا فهو ذو مغفرة ، وإن عظم ظلهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب .

والجواب : عن الأول أن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة ، وإلا لوجب أن يقال : الكفار كلهم مغفور لهم لأجل أن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة ، وعن الثاني : أنه تعالى تمدح بهذا والتمدح إنما يحصل بالتفضل . أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث : أنا بينا أن ظاهر الآية يقتضى حصول المغفرة حال الظلم ، وبيننا أن حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة ، فسقطت هذه الأسئلة وصح ما ذكرناه .

قوله تعالى ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر أولا ، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا . وهو المذكور في هذه الآية .

واعلم أن السبب فيه أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا : هذا كتاب مثل سائر الكتب وإتيان الانسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزا البتة ، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام .

واعلم أن من الناس من زعم أنه لم يظهر معجز في صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن . قالوا :

بالسيئة قبل الحسنه والمراد بالسيئة ههنا نزول العذاب عليهم كما قال الله تعالى عنهم في قوله (فأعطر علينا حجارة) وفي قوله (لن يؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) وإنما قالوا ذلك طعناً منهم فيما ذكره الرسول ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم على الايمان بالثواب في الآخرة وبحصول النصر والظفر في الدنيا فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر فهذا هو المراد بقوله (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنه) ومنهم من فسر الحسنه ههنا بالامهال والتأخير وإنما سموا العذاب سيئة لأنه يسوءهم ويؤذيهم .

أما قوله ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلثات ﴾ فاعلم أن العرب يقولون : العقوبة مثله ومثله صدقة وصدقة ، فالأولى لغة الحجاز ، والثانية لغة تميم . فمن قال مثله فجمعه مثلثات ، ومن قال مثله فجمعه مثلثات ومثلثات باسكان التاء . هكذا حكاه الفراء والزجاج ، وقال ابن الأنباري رحمه الله : المثلة العقوبة المبينة في المعاقب شيئاً ، وهو تغيير تنق الصوره معه قبيحة . وهو من قولهم ، مثل فلان بفلان اذا قبح صورته إما بقطع أذنه أو أنفه أو سمل عينيه أو بقر بطنه فهذا هو الأصل . ثم يقال للعار الباقي . والحزى اللازم مثله . قال الواحدي : وأصل هذا الحرف من المثل الذي هو أشبهه . ولما كان الأصل أن يكون العقاب مشابهاً للمعاقب وبماثله لا جرم سمي بهذا الاسم . قال صاحب الكشاف : قرئ (المثلثات) بضم الميم لا تباع الفاء العين (والمثلثات) بفتح الميم وسكون التاء كما يقال : السمرة . والمثلثات بضم الميم وسكون التاء تخفيف المثلثات بضم الميم ، والمثلثات جمع مثله كركبة وركبات .

إذا عرفت هذا فنقول : معنى الآية : ويستعجلونك بالعذاب الذي لم نعالجهم به ، وقد علموا منازل من عقوباتنا بالأمم الخالية فلم يعتبروا بها ، وكان ينبغي أن يردعهم خوف ذلك عن الكفر اعتباراً بحال من سلف .

أما قوله ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ فاعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة ، ووجه الاستدلال به أن قوله قوله (لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي حال اشتغالهم بالظلم كما أنه يقال : رأيت الأمير على أكله أي حال اشتغاله بالأكل فهذا يقتضى كونه تعالى غافراً للناس حال اشتغالهم بالظلم ، ومعلوم أن حال اشتغال الانسان بالظلم لا يكون تابئاً فدل هذا على أنه تعالى قد يغفر الذنوب قبل الاشتغال بالتوبة . ثم نقول : ترك العمل بهذا الدليل في حق الكفر . فوجب أن يبقى معمولاً به في حق أهل الكبيرة وهو المطلوب ، أو نقول : إنه تعالى لم يقتصر على قوله (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) بل ذكر معه قوله

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ «٦»

الكبائر لا يخلدون في النار .

﴿المسألة الثانية﴾ قال المتكلمون العجب هو الذي لا يعرف سببه وذلك في حق الله تعالى محال

فكان المراد وإن تعجب فعجب عندك .

ولقائل أن يقول : قرأ بعضهم في الآية الأخرى باضافة العجب الى نفسه تعالى فحينئذ يجب تأويله وقد بينا أن أمثال هذه الألفاظ يجب تنزيهاها عن مبادئ الاعراض ، ويجب حملها على نهايات الاعراض فان الانسان إذا تعجب من الشيء أنكره فكان هذا محمولا على الانكار .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلف القراء في قوله (أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) وأمثاله إذا كان

على صورة الاستفهام في الأول والثاني فمنهم من يجمع بين الاستفهامين في الحرفين وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة ، ثم اختلف هؤلاء فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة إلا أنه لا يمد . وأبو عمرو يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها . وحمزة وعاصم بهمزتين في كل القرآن ، ومنهم من لا يجمع بين الاستفهامين ، ثم اختلفوا فنافع وابن عامر والكسائي يستفهم في الأول ويقرأ على الخبر في الثاني وابن عامر على الخبر في الأول والاستفهام في الثاني ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر فنافع بهمزة غير مطولة وابن عامر والكسائي بهمزتين . أما نافع فكذلك إلا في الصافات وكذلك ابن عامر إلا في الواقعة ، وكذلك الكسائي إلا في العنكبوت والصافات .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال الزجاج : العامل في (أئذا كنا ترابا) محذوف تقديره : أئذا كنا تراباً

نبعث ودل ما بعده على المحذوف .

قوله تعالى ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو

مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾

اعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا ، والقوم كلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الآية الأولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له : جئنا بهذا العذاب وطلبوا منه إظهاره وإنزاله على سبيل الطعن فيه . وإظهار أن الذي يقوله كلام لا أصل له فهذا السبب حكى الله عنهم أنهم يستعجلون الرسول

وخالق الخلائق أجمعين . وأنه هو الذى رفع السموات بغير عمد ، وهو الذى سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد ، وهو الذى أظهر فى العالم أنواع العجائب والغرائب . فمن كانت قدرته وافية بهذه الاشياء العظيمة كيف لا تكون وافية باعادة الانسان بعد موته . لأن القادر على الاقوى الاكمل فأن يكون قادرا على الاقل الاضعف أولى ، فهذا تقرير موضع التعجب .

ثم إنه تعالى لما حكى هذا الكلام حكم عليهم بثلاثة أشياء : أولها : قوله (أولئك الذين كفروا بربهم) وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة فهو كافر . وإنما لزم من إنكار البعث "كفر بربهم من حيث أن إنكار البعث لا يتم إلا بإنكار القدرة والعلم والصدق . أما إنكار القدرة فكما اذا قيل : إن إله العالم موجب بالذات لفاعل بالاختيار فلا يقدر على الاعادة . أو قيل : إنه وإن كان قادرا لكنه ليس تام القدرة ، فلا يمكنه إيجاد الحيوان إلا بواسطة الأيون وتأثيرات الطبائع والأفلاك : وأما إنكار العلم فكما اذا قيل : إنه تعالى غير عالم بالجزئيات ، فلا يمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصى . وأما إنكار الصدق فكما اذا قيل : إنه وإن أخبر عنه لكنه لا يفعل لأن الكذب جائز عليه ولما كان كل هذه الأشياء كفرا ثبت أن إنكار البعث كفر بالله .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (وأولئك الأغلال فى أعناقهم) وفيه قولان : الأول : قال أبو بكر الأصم : المراد بالأغلال : كفرهم وذلتهم وانقيادهم للأصنام ، ونظيره قوله تعالى (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) قال الشاعر :

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

ويقال للرجل : هذا غل فى عنقك للعمل الردى . معناه : أنه لازم لك وأنت مجازى عليه بالعذاب قال القاضى : هذا وإن كان محتملا إلا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى ، وأقول : يمكن نصرته قول الأصم بأن ظاهر الآية يقتضى حصول الاغلال فى أعناقهم فى الحال وذلك غير حاصل وأنتم تحملون اللفظ على أنه سيحصل هذا المعنى ونحن نحمله على أنه حاصل فى الحال إلا أن المراد بالأغلال ما ذكرناه ، فكل واحد منا تارك للحقيقة من بعض الوجوه فلم كان قولكم أولى من قولنا .

﴿والقول الثانى﴾ المراد أنه تعالى يجعل الاغلال فى أعناقهم يوم القيامة ، والدليل عليه قوله تعالى (إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون)

﴿والصفة الثالثة﴾ قوله تعالى (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) والمراد منه التهديد بالعذاب المخلد المؤبد . واحتج أصحابنا رحمهم الله تعالى على أن العذاب المخلد ليس الا للكفار بهذه الآية فقالوا قوله (هم فيها خالدون) يفيد أنهم هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم ، وذلك يدل على أن أهل

وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾

الصنو المثل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «ألا إن عم الرجل صنو أبيه» أى مثله .

إذا عرفت هذا فنقول : اذا فسرنا الصنو بالتفسير الأول كان المعنى : أن النخيل منها ما ينبت من أصل واحد شجرتان وأكثر ومنها ما لا يكون كذلك ، واذا فسرناه بالتفسير الثانى كان المعنى : أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة ، وقد لا تكون كذلك .

ثم قال تعالى ﴿تسقى بماء واحد﴾ قرأ عاصم وابن عامر (يسقى) بالياء على تقدير يسقى كله أو لتغليب المذكر على المؤنث ، والباقون بالياء لقوله (جنات) قال أبو عمرو : وما يشهد للتأنيث قوله تعالى (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) قرأ حمزة والكسائى (يفضل) بالياء عطفاً على قوله (يدبر . ويفصل . ويغسى) والباقون بالنون على تقدير : ونحن نفضل ، و(فى الأكل) قولان : حكاهما الواحدى حكى عن الزجاج أن الأكل الثمر الذى يؤكل ، وحكى عن غيره أن الأكل المهياً للأكل ، وأقول هذا أولى لقوله تعالى فى صفة الجنة (أكلها دائم) وهو عام فى جميع الأطعمة وابن كثير ونافع يقرآن الأكل ساكنة الكاف فى جميع القرآن ، والباقون بضم الكاف وهما لغتان .

قوله تعالى ﴿وان تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خالق جديد أولئك الذين كفروا برهيم وأولئك الاغلال فى أعناقهم وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج اليه فى معرفة المبدأ ذكر بعده مسألة المعاد فقال (وان تعجب فعجب قولهم) وفيه أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد ما كانوا قد حكموا عليك أنك من الصادقين فهذا عجب . والثانى : إن تعجب يا محمد من عبادتهم ملايملك لهم نفعاً ولاضراً بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب . والثالث : تقدير الكلام إن تعجب يا محمد فقد عجبت فى موضع العجب لأنهم لما اعترفوا بأنه تعالى مدبر السموات والأرض

الطباع والافلاك للكل على السوية ، بل نقول : ههنا ماهو أعجب منه ، وهو أنه يوجد في بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة ، والوجه الثاني في غاية السواد مع أن ذلك الورد يكون في غاية الرقة والنعومة فيستحيل أن يقال : وصل تأثير الشمس إلى أحد طرفيه دون الثاني وهذا يدل دلالة قطعية على أن الكل بتدبير الفاعل المختار . لا بسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى (تلقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل) فهذا تمام الكلام في تقرير هذه الحجة وتفسيرها وبيانها .

واعلم أن بذكر هذا الجواب قد تمت الحجة فان هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر وبيننا أن ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والافلاك والطباع فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر سوى هذه الأشياء وعندها يتم الدليل ، ولا يبقى بعده للفكر مقام البتة . فللهذا السبب قال ههنا (إن في ذلك آيات لقوم يعقلون) لأنه لا دافع لهذه الحجة إلا أن يقال إن هذه الحوادث السفلية حدثت لا المؤثر البتة . وذلك يقدر في كمال العقل . لأن العلم بافتقار الحوادث إلى المحدث لما كان علما ضرورياً كان عدم حصول هذا العلم قادحاً في كمال العقل فللهذا قال (إن في ذلك آيات لقوم يعقلون) وقال في الآية المتقدمة (إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون) فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ونسأل الله العظيم أن يجعل الوقوف عليها سبباً للفوز بالرحمة والغفران .

(المسألة الثانية) قوله (وفي الأرض قطع متجاورات) قال أبو بكر الأصم أرض قريبة من أرض أخرى واحدة طيبة . وأخرى سبخة . وأخرى حرة . وأخرى رملة . وأخرى تكون حصباء . وأخرى تكون حمراء . وأخرى تكون سوداء . وباجملة فاختلفا بقاع الأرض في الارتفاع والانخفاض والطباع والخاصية أمر معلوم ، وفي بعض المصاحف (قطعاً متجاورات) والتقدير: وجعل فيهما رواسي وجعل في الأرض قطعاً متجاورات . وأما قوله (وجنات من أعناب وزرع ونخيل) فنقول : الجنة البستان الذي يحصل فيه النخل والسكرم والزرع وتحفه تلك الأشجار والدليل عليه قوله قوله تعالى (جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) كلها بالرفع عطفاً على قوله (وجنات) والباقون بالجر عطفاً على الأعناب . وقرأ حفص عن عاصم في رواية القواس (صنوان) بضم الصاد والباقون بكسر الصاد وهما لغتان ، والصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو ويجمع على اصناء مثل اسم وأسماء . فإذا كثرت فهو الصنى ، والصنى بكسر الصاد وفتحها ، والصنو أن يكون الأصل واحداً وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو . وذكر ثعلب عن ابن الاعرابي :

وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ
وَعَيْرٌ صُنُوفٌ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضٍ لِّبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٤»

والمدير الحكيم ، فقد سقط هذا السؤال وهذا الجواب قد قرره الله تعالى في هذا المقام . لأنه تعالى ابتداء بذكر الدلائل السماوية وقد بينا أنها كيف تدل على وجود الصانع . ثم إنه تعالى أتبعها بالدلائل الأرضية .

فان قال قائل : لم لا يجوز أن تكون هذه الحوادث الأرضية لأجل الأحوال الفلكية . كان جوابنا أن نقول فهب أن الأمر كذلك إلا أننا دللنا فيما تقدم على افتقار الأجرام الفلكية إلى الصانع الحكيم فحينئذ لا يكون هذا السؤال قادحا في غرضنا .

﴿والوجه الثاني﴾ من الجواب أن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث السفلية لأجل الاتصالات الفلكية ، وذلك هو المذكور في الآية التي تأتي بعد هذه الآية ، ومن تأمل في هذه اللطائف ووقف عليها علم أن هذا الكتاب اشتمل على علوم الأولين والآخرين . قوله تعالى ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوف وغير صنوف تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث في هذا العالم لأجل الاتصالات الفلكية ، والحركات الكوكبية : وتقريره من وجهين : الأول : أنه حصل في الأرض قطع مختلفة بالطبيعة والمهية وهي مع ذلك متجاورة ، فبعضها تكون سبخية ، وبعضها تكون رخوة ، وبعضها تكون صلبة ، وبعضها تكون منبته ، وبعضها تكون حجرية أو رملية وبعضها يكون طينا لزجا ، ثم إنها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير . والثاني : أن القطعة الواحدة من الأرض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساويا ، ثم إن تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى أنك قد تأخذ عنقودا من العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة إلا حبة واحدة فأنها بقيت حامضة يابسة ، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة

في الثمرة الواحدة الطباع المختلفة . فالأترج قشره حار يابس ولحمه حار رطب وحماسه بارد يابس وبزره حار يابس ونوره حار يابس ، وكذلك العنب قشره وعجمه باردان يابسان ولحمه وماؤه حاران رطبان فتولد هذه للطباع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوي تأثيرات الطبائع وتأثيرات الأنجم والأفلاك لا بد وأن يكون لاجل تدبير الحكيم القادر القديم .

(المسألة الثانية) المراد بزوجين اثنين صنفين اثنين والاختلاف إما من حيث الطعم كالحلو والحامض . أو الطبيعة كالحار والبارد . أو اللون كالأبيض والأسود .

فان قيل : الزوجان لا بد وأن يكون اثنين ، فما الفائدة في قوله (زوجين اثنين)

قلنا : قيل إنه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط ، فلو قال : خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص . أما لما قال اثنين علمنا أن الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد . والحاصل أن الناس فيهم الآن كثرة . إلا أنهم لما ابتدؤا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء . فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع والله أعلم .

(النوع الرابع) من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بأحوال الليل والنهار واليه الإشارة بقوله (يغشى الليل النهار) والمقصود أن الأنعام لا يكمل الا بالليل والنهار وتعاقبهما كما قال (فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) ومنه قوله (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) وقد سبق الاستقصاء في تقريره فيما سلف من هذا الكتاب ، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : (يغشى) بالتشديد وفتح الغين والباءون بالتخفيف ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة . قال (إن في ذلك لآيات لقوم ينفكرون)

واعلم أنه تعالى في أكثر الأدل حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلى يذكر عقبها (إن في ذلك لآيات لقوم ينفكرون) أو ما يقرب منه بحسب المعنى ، والسبب فيه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلى الى الاختلافات الواقعة في الاشكال الكوكبية ، فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود . فلهذا المعنى قال (إن في ذلك لآيات لقوم ينفكرون) كأنه تعالى يقول مجال الفكر باق بعد ولا بد بعد هذا المقام من التفكير والتأمل لئتم الاستدلال ،

واعلم أن الجواب عن هذا السؤال من وجهين : الأول : أن نقول هب أنكم أسندتم حوادث العالم السفلى إلى الأحوال الفلكية والاتصالات الكوكبية إلا أننا أدقنا الدليل القاطع على أن اختصاص كل واحد من الأجرام الفلكية وطبعه ووضعها وخاصيتها لا بد أن يكون بتخصيص المقدر القديم

قريب من تسعة آلاف سنة ، وبهذا التقدير أن الجبال في هذه المدة الطويلة كانت في التفتت فوجب أن لا يبقى من الاحجار شيء ، لكن ليس الامر كذلك ، فعلنا أن السبب الذي ذكروه ضعيف .

﴿ والوجه الثاني ﴾ من الاستدلال بأحوال الجبال على وجود الصانع ذي الجلال ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ، ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والاملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقيرو الكبريت ، فكون الأرض واحدة في الطبيعة ، وكون الجبل واحدا في الطبع ، وكون تأثير الشمس واحدا في الكل يدل دليلا ظاهرا على أن الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات .

﴿ والوجه الثالث ﴾ من الاستدلال بأحوال الجبال أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض ، وذلك أن الحجر جسم صلب فاذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتسبت هناك فلا تزال تتكامل ، فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة ، ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض ، فنفعه الجبال في تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية ، ومثل قوله (وجعلنا فيهاروا سي شامخات وأسقيناكم ماء فرااتا .

﴿ والنوع الثالث ﴾ من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب خلقه النبات ، وإليه الإشارة بقوله (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الحبة اذا وضعت في الأرض وأثرت فيها نداوة الأرض ربت وكبرت وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة في الهواء ويخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة في أسفل الأرض وهذا من العجائب ، لأن طبيعة تلك الحبة واحدة وتأثير الطبائع والافلاك والكواكب فيها واحد ثم إنه خرج من الجانب الأعلى من تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء من الجانب الأسفل منه جرم غائص في الأرض ، ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان ، فعلنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم ، والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية ، ثم إن الشجرة الثابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشبا وبعضها يكون نورا وبعضها يكون ثمرة ، ثم إن تلك الثمرة أيضا يحصل فيها أجسام مختلفة الطبائع ، فالجوز له أربعة أنواع من القشور ، فالقشر الأعلى وتحت الثمرة الخشبية وتحت القشرة المحيطة باللينة ، وتحت تلك القشرة قشرة أخرى في غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطبا وأيضا فقد يحصل

أن الأرض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه ؟

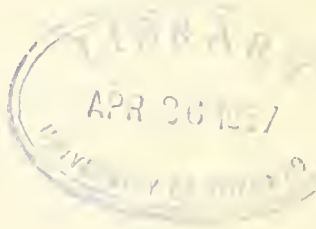
فان قالوا : وقوله (مد الأرض) يناقئ كونها كرة فكيف يمكن مداها ؟

قلنا : لانسلم أن الأرض جسم عظيم والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح ، والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل إلا في علم الله ألا ترى أنه قال (والجبال أوتادا) فجعلها أوتادا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا . والثاني : أن هذه الآية إنما ذكرت ليستدل بها على وجود الصانع ، والشرط فيه أن يكون ذلك أمرا مشاهدا معلوما حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع . فثبت أن التأويل الحق هو ما ذكرناه .

(والنوع الثاني) من الدلائل الاستدلال بأحوال الجبال وإليه الإشارة بقوله (وجعل فيها رواسي) من فوقها ثابتة باقية في أحيازها غير منتقلة عن أماكنها يقال رسا هذا الوتد وأرسيته والمراد ما ذكرناه .

واعلم أن الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه : الأول : أن طبيعة الأرض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم قالت الفلاسفة : هذه الجبال إنما تولدت لأن البحار كانت في هذا الجانب من العالم فكانت تتولد في البحر طينا لزجا . ثم يقوى تأثير الشمس فيها فينقلب حجرا كما يشاهد في كوز الفقاع ثم إن الماء كان يغور ويقل فيتحجر البقية ، فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا : وإنما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لان أوج الشمس وحضيضها متحركان ففي الدهر الاقدم كان حضيض الشمس في جانب الشمال والشمس متى كانت في حضيضها كانت أقرب الى الأرض فكان التسخين أقوى وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال . والآن لما انتقل الأوج الى جانب الشمال والحضيض الى جانب الجنوب انتقلت البحار الى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال في جانب الشمال هذا حاصل كلام القوم في هذا الباب وهو ضعيف من وجوه : الأول : أن حصول الطين في البحر أمر عام ووقوع الشمس عليها أمر عام فلم حصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض ، والثاني : وهو أنا نشاهد في بعض الجبال كأن تلك الاحجار موضوعة سافا فسافا فكان البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها على بعض ويبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه . والثالث : أن أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذي انتقل أوج الشمس الى الجانب الشمالي مضى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ

جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾
 اعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الأرضية فقال (وهو الذي مد الأرض)

واعلم أن الاستدلال بخلقه الأرض وأحوالها من وجوه: الأول: أن الشيء إذا تزايد حجمه ومقداره صار كأن ذلك الحجم وذلك المقدار يمتد فقوله (وهو الذي مد الأرض) إشارة إلى أن الله سبحانه هو الذي جعل الأرض محتصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا أزيد ولا أنقص والدليل عليه أن كون الأرض أزيد مقداراً مما هو الآن وأنقص منه أمر جائز ممكن في نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص وتقدير مقدر. الثاني: قال أبو بكر الأصم المد هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه فقوله (وهو الذي مد الأرض) يشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجماً عظيماً لا يقع البصر على منتهاه، لأن الأرض لو كانت أصغر حجماً مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به. والثالث: قال قوم كانت الأرض مدورة فدحا من مكة من تحت البيت فذهبت كذا وكذا. وقال آخرون: كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها اذهبي كذا وكذا. اعلم أن هذا القول إنما يتم إذا قلنا الأرض مسطحة لا كرة وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله (والأرض بعد ذلك دحاهما) وهذا القول مشكل من وجهين: الأول: أنه ثبت بالدلائل

EP

130

4

R3

٢٥-١٩٠٧

التفسير الكبير

للإمام

الإمام الشافعي

Tarikh al-Nabiy

الجزء التاسع عشر

الطبعة الأولى

يطلب من ملتزم طبعه

عبد الرحمن محمد

مترجم النسخة الشريفة بميدان جامع الازهر

حقوق الطبع والنقل محفوظة للمترجم

طبع بالمطبعة البهية المصرية

١٣٥٧ هجرية — ١٩٣٨ ميلادية

Robarts Library

DUE DATE:

Oct. 12, 1996

Fines 50¢ per day

Please return books to the
Library to which they belong

n Muhammad

University of Toronto

Robarts

28 Sep 96

NAME:
SORAYA MEHDI HAJJATI-JARRAH

BOOK:
Al-Jami' li-ahkam al-Qur'an

DUE:
10/12/1996

T

